
تفسير البدليسي

TAFSĪR AL-BIDLĪSĪ

تفسير البدليسي

Author : *Al-Shaykh Houssamuddin Ali ben Abdullah Al-Bedlisi Al-Hanafi Al-Sufi (D. Around 900 H.)*

المؤلف : الشيخ حسام الدين علي بن عبدالله البدليسي الحنفي الصوفي (ت حوالي سنة ٩٠٠ هـ)

Editor : *Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali*

المحقق : الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

Classification : *Exegesis Of Qur'an - Sufism*

التصنيف : تفسير قرآن – تصوّف

Year : *1441 H. - 2020 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٤١ هـ – ٢٠٢٠ م

Pages: *4072 (5 Vols. / 5 Pasrts)*

عدد الصفحات : ٤٠٧٢ (٥ أجزاء / ٥ مجلدات)

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

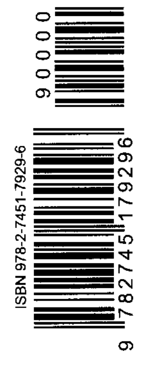
بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى



Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com


ISBN 978-2-7451-7929-6



تفسير البدليسي

تفسير إشاري صوفي شارح لمقامات الدين الثلاث:
الإسلام والإيمان والإحسان - الشريعة والطريقة والحقيقة

تأليف

العارف بالله تعالى الشيخ
حسام الدين علي بن عبد الله البدليسي الحنفي الصوفي
المتوفى حوالي سنة 900 هجرية

اعتنى به وضبطه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

الجزء الثالث

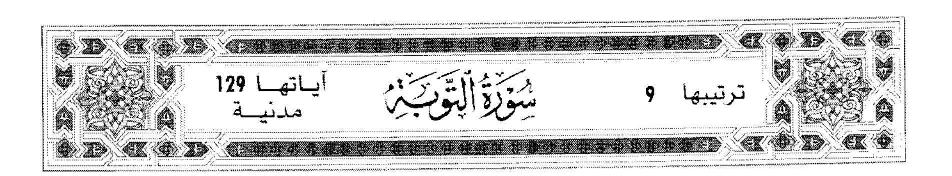
المحتوى

التوبة - يونس - هود - يوسف -
الرعد - إبراهيم - الحجر - النحل



BOOKS - PUBLISHER
Beirut-Lebanon
كتاب - ناشرون | بيروت - لبنان





قيل: إلا الآيتين من آخرها وهما: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 129] آياتها مائة وثلاثون، وقيل تسعة وعشرون، وإنما تركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان، وبسم الله أمان.

قيل: كان النبي عليه السلام إذا نزلت عليه سورة بيَّن موضعها، ولما نزلت سورة براءة ولم يبيِّن لموضعها وتوفي، أو كانت قصتها شبيهة بقصة الأنفال إلا أن في الأنفال ذكر العهود وفي التوبة نبذها ونقضها، فضمَّت إليها وفصلت بفرجة بينهما. قيل: لما اختلف الصحابة في أنها سورة واحدة، وهي السابعة الطوال وسورتان وتركت بينهما ثلمة ولم يكتب بسم الله.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1] أي هذه براءة من الله ورسوله ﴿مِّنَ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره وأصله من الله، ويجوز أن يكون براءة بالنصب. المعنى أن الله ورسوله بريئين من العهد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا أناسًا منهم وهم بنو نضير وبنو كنانة، فنبذ العهد إلى الناكثين، وإنما علّق البراءة بالله وبالرسول والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرّسول، فإنهما بريئين منهم وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا فأمرهم نبذ العهد إلى الناكثين وأمهلَ المشركين الناكثين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال:

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2] الشوال وذي القعدة وذي الحجة

والمحرم، لأنها نزلت في شوال. وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر لما روي أنها لما أرسل رسول الله ﷺ عليًا راكب القصباء لينفذها على أهل الموسم وقد كان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميرًا على أهل الموسم، فلما دنى عليّ سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أميرًا أو مأمورًا؟ قال: مأمور. فلما كان يوم التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه وقام عليّ عليه السلام يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، فقالوا: بِمَ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أُمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد ثلاثين أو أربعين آية، ثم أُمرت أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشركٌ فلا يطوف عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وإن هم إلا كلّ ذي عهد فهذه. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ لا يعوقونه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التّوبَة: 2] أي بدّلهم في الدنيا بالعقل[1] وفي الآخرة بالعذاب.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

﴿وَأَذَٰنٞ﴾ [التوبة: 3] وإعلام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهو فعَال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء وارتفاعه كارتفاع براءة، ثم الجملة عطف على مثلها ولا وجه لقوله من قال إنه عطف على براءة لا يقال عمر عطف على زيد في قولك: زيد قائم وعمر قاعد، وإنما علّقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين، وعلق الأذان بالناس، لأن البراءة مختصة بالمعاهدين الناكثين منهم، وأما الأذان فقام لجميع الناس عاهدوا أو لم يعاهدوا وناكثوا من المعاهدين أو لم ينكثوا ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يوم عرفة لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»، أو يوم العيد إذ فيه تمام الحج ومعظم مناسكه، فلأن الإعطاء كان فيه. ولما روي أنه عليه السلام وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «**هذا يوم**

(1) المراد هنا [لبذّيَة].

الحج الأكبر»، وإنما وصف بالأكبر لأن العمرة تسمّى بالحج الأصغر، ولأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، ولأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عنده أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم ذلك اليوم في قلب كل مؤمن وكافر. أو لأنه ظهر فيه عزّة المسلمين وعزّ الإسلام، وهناء المؤمنين وذلّ المشركين، وضلال المنافقين، أو لاجتماع الخطبتين فيه، خطبة العيد والجمعة من أن الله بريء ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ حذفت الباء التي صلة الأذان من أن الله بريء تخفيفًا. وقرئ: (إن الله)، بالكسر إذ الأذان بمعنى القول، ورسوله عطف على المنوي في برئ أي بريء هو ورسوله، أو على محل إن المكسورة واسمها.

وقرئ بالنصب عطفًا على اسم أن، أو لأن الواو بمعنى مع، أي بريء معه منهم، وبالجر على الجوار لا على أنه غير داخل في حكم المشركين ليلزم المحذور. وقيل: على أنفسهم.

وحكي أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرؤها بالجر فقال: إن كان الله بريئًا من رسوله فأنا بريء منه. فحكى الرجل إلى عمر فعندها أمر عمر بتعلُّم العربية فقال علي كرم الله وجهه: الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمضاف إليه مجرور. ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ عن الكفر ونكث العهد ونقض الميثاق والجهد ورجعتم عنها ﴿فَهُوَ﴾ أي الرجوع والتوبة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة وأعرضتم عن الوفاء بالعهد وتبتم عن التولي عن الإسلام وعلى الاضطراب والانصراف عن التوبة والرجوع عنها ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ غير متابعين ولا قانتين أخذه وعقابه، يعني لا يتوبون طلبًا لمرامه ولا يضطرون في الدنيا هربًا عن مقامه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 3].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين واستدراك، وكأنه قيل لهم بعد أن أُمروا بنبذ العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم ولم ينكثوا عهدهم فأتموا إليهم عهدًا.

وفي الكشاف استئناف من قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: 2] لأن الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا إلى الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شرائط العهد ولم ينكثوا ولم يقبلوا منكم ولم يضرّوكم أصلًا، لا ظاهرًا ولا باطنًا، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ولا من أصدقائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وتمام عدّتهم ولا تجزوهم مجزى الناكثين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4] تعليل وتنبيه على أن تمام مدة عهدهم من باب التقوى.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: 5] وانقضت، وهي التي أُبيح فيها للناكثين من السلخ. وقيل: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وإنما سمَّى به لأنَّ الله حرَّم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرُّض بهم.

قال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد، فمن كان له عهد فعنده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى القضاء المحرم خمسون يومًا. ولما تمَّ بعض الأشهر الحرم متصلًا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] الناكثين ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحرم والحِل ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم، الأخذ هو الأسر ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] وامنعوهم عن الخروج أو من دخول مكة، ولا للتصرف والتطاول في بلاد الإسلام، أو حيلَ بينهم وبين المسجد الحرام ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وعلى طريق ومشهد.

والمرصد هو الموضع الذي يرقب فيه العدو من ترصدت الشيء إذا ترقبتهم يعني كونوا لهم رصدًا لتأخذوهم من أي وجه توجهوا إليه.

وقيلَ: اقعدوا لهم بطريق مكة والمسجد الحرام أو البلاد الإسلامية حتَّى لا يدخلوها ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من الشرك بالإيمان بالتوحيد ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ ليدخلوا فيها ما منعوا من حال الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 5] تعليل الأمر.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين منكم بثباتهم ومنعهم واستأمنكم بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله ﴿ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ واعده وأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فيما له وعليه من الثواب والعقاب وآية الرحمة والعذاب ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ وإن لم يسلم، وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر للذي استجاره ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التّوبَة: 6] الحق والصلاح وأمر الفلاح المحقق، الفاء للسببية.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ الاستفهام للاستنكار والاستبعاد لأن يكون للمشركين عهد الله وهم أضداد أهل الحق وهؤلاء هم الباطل، فلا مناسبة فيما بين صدودهم يعني محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا يطمعوا في ذلك فلا تحدِّثوا به نفوسكم فلا تتفكروا في قتلهم ولا تأملوا في إهلاكهم وقتلهم، ثم استدرك ذلك بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ أي ولكن الذين ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾ منهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ولم يظهروا لهم نكث عهد كبني كنانة وبني جهر فتربصوا أمرهم لا تقاتلوهم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ أي فإن استقاموا على العهد ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أنتم، أمر من تستقيم على الوفاء وهو كقولهم: قاتلوا إليهم عهدهم غير أنه مطلق وهذا مقيّد، وما يحتمل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التّوبَة: 7] قد تقدَّم بيانه.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾

﴿كَيْفَ﴾ [التّوبَة: 8] تكراره لاستبعاد ثباتهم على العهد، أو بناء حكمه مع البيّنة على العلّة، حذف الفعل للعلم، أي كيف يكون لهم عهد والحال أنهم ﴿وَإِن

﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ بعدما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ﴾ يعني كيف لا يقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم ويظفروا بكم لا يرقبوا فيكم ولا ينتظرون ولا يراعون وظائف العهود ومواثيق العقود ﴿إِلًّا﴾ بكسر الهمزة وتضعيف اللام، وهو الحلف والعهد. وقيل: هو القرابة. قال بعضهم: الإل بكسر الهمزة وتضعيف اللام وهو اسم من أسماء الله تعالى عزَّ وجل كما يقال: جبرإلّ بتشديد اللام ويقال: هذا الكلام لم يخرج منه إلَّ من الله، وقاصده قراءة عكرمة: لا يرقبوا في مؤمن ايلًا بالياء واللام المشدّدة، يعني بمعنى عند الله عزَّ وجلَّ، فهو اسم من أسماء الله قد تركّب اسم من أسماء الملك الروحانية كجبريل وميكائيل وإسماعيل ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهدًا أو حقًّا يعاب على إغفاله وتركه وإهماله ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ بقبول ما يتلفّظ به لسانهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبَة: 8] متمردون عن الحق، ناقضون عهد الله وذمة الخلق.

﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾

و﴿ٱشْتَرَوْاْ﴾ واستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأحكام كتابه وإعلام خطابه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ومتاعًا باليًا لأنهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله بأكله إطعامها إيّاهم أبو سفيان ﴿فَصَدُّواْ﴾ عباد الله ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ ومنعوا الناس عن الدخول في دين الحق، وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال لتقويتهم المشركين على المؤمنين ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبَة: 9] عملهم هذا أو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ﴾ [التوبَة: 10] إلخ.

إشارة وتأويل

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبَة: 1] أي الذات الجامعة لجميع التجليّات الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية، والصورة الجمعية الذاتيَّة الناسوتية بالعنوان، الجمعية الذاتيَّة بطريق الإبداع والتكوين والإيجاد والخلق والاختراع،

وبطريق التبرزات والبروز والإبراز، إذا كان بذريعة الإنسان والصورة النوعية والنعوت الجمعية. فالله إشارة إلى الأولى، ورسوله إلى الثانية، أي في بداية الدورة النورية الجمالية الجمعية الوجودية.

والأولى إنما تكون في التجليّات الإفرادية، والثانية في التجليّات الكليّة الجمعية، فيسمى الأول الظهورات، والثانية البرزات، والبروز والإبراز. فأشار إلى الأول بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا﴾ [النُّور: 35] الآية. والثانية: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحَديد: 3].

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ أي الأعيان القدسية النورية الجمالية الوجودية الصريحة، والأكوان الظليّة الضمنيّة، الدورة العظمى المندرجة تحت الأعيان الوجودية في المعاهدة الذاتيَّة والمعاقد الأسمائيَّة ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبَة: 1] أي الأعيان النورية الوجودية الإفرادية، والأكوان الظليّة العدمية الوحدانية، أو التي أخذت الذات الجامعة منهم المواثيق بأنكم إذا نزلتم إلى الأدوار والأكوار إلى الناسوت فعليكم أن لا تنسوا هذه النشئات وحالاتها وكمالاتها الذاتيَّة والأسمائيَّة ومقاماتها.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستعدادية والعرض القابلية في النفوس والقالبية ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ أي الأدوار الأربعة والأكوار المربعة الإفرادية، وذلك أن الأسرار الإلٰهيَّة والأنوار الذاتيَّة والأسمائيَّة كانت قد اختلفت في أرض الاستعدادات الذاتيَّة ولا تظهر إلا بتلك الدورات النورية والسُّبحات الظليّة صريحًا وضمنًا ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ في تيسيركم في الأدوار والأكوار الأربعة الأصلية والفرعية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبَة: 2] في النشئات والشؤونات الجمعية.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي الأعيان النورية والأكوان الظليّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ أي يوم الجمعية العظمى في مكة، النشأة الجامعة الناسوتية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الأعيان المتقيدين في النشئات بخصوصيات مقتضيات الأدوار وبنصوصيات مرتضيات الأكوار ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ ورجعتم إلى تلك الجمعية الكمالية الذاتيَّة والأسمائيَّة التي كنتم عليها في الأحدية الجمعية والمعيّة الواحديَّة والأحدية ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ في النشأتين ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبَة: 3] وستروا الجمعية الكمالية والكمالية الجمعية الأصلية والفرعية.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ في الفطرة الأولى وقبلتم العهد منهم في بداية الدورة العظمى، إشارة إلى الجذبة الإلٰهيَّة ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التّوبَة: 4] أي لم يظهر منهم شيء ما يمنع منكم القبض ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي لم يلتفتوا إلى ما سوى الله ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ﴾ بالإرشاد والتكميل وصرفهم إلى مقام السلوك والرياضة والمجاهدة ليتحققوا بالكمال الجمعي والجمع الكمالي، وبتعليم آداب السلوك وبإقامة أركانه ورعاية الأمور الواجبة فيه، وتحمُّل آدابه ومشتقاته ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التّوبَة: 4] أي نهاية السلوك وغاية السير إلى الله تعالى، وهي الأحدية الجمعية والوحدة الذاتيَّة التي هي منتهى قوس الترقِّي ومبدأ قوس التنزُّل، ويسمى بمقام قاب قوسين، وبرزخ البرازخ، فإن لكل دورة من الأدوار الإلٰهيَّة الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية في المراتب ولأعيانها من الحالات مآرب ومقاصد ومطالب لا تظهر إلا بحركات متناسبة وهيئات متقاربة صادرة من سموات لائقة لتلك المرتبة.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ وانقرضت الأدوار الأربعة الفرعية من الدورة النورية الوجودية العظمى والكبرى والوسطى والصغرى، فإن كل واحدة من هذه الأدوار يتضمن أدوارًا أربعة أخرى، وكذا الأكوار الأربعة تتضمن كل دورة منها أربع كور منها تارة باعتبار التبعية في ضمن الدورة، وأخرى بالأصالة عند انتقال الفرداريّة من الدورة النورية إلى الكورة الظليّة ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذين أخذوا العهد في بداية كل دورة من ربّ تلك الدورة العظمى، وهو العليم وربّ الدورة الكبرى وهو المحيي، وربّ الدورة الوسطى وهو القدير، وربّ الصغرى وهو المريد. وأرباب الأكوار هي غيوب هذه الأسماء وبواطنها، وأنت خبير بأن مقتضى كل ربّ من هذه الأرباب يخالف مقتضى الربّ الآخر أنواعًا وأشخاصًا، يعني إن أعيان الأدوار الأربعة النورية لو لم يستكملوا في كل دورة منها أدوارها الأربعة الفرعية صريحًا ولم تستتبع الأكوار الظليّة الأربعة التي هي توأمتها وتولد مع الأعيان من بطن أم الوجود والكمال والنور في الاستكمال ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التّوبَة: 5] في الدورة الثانية النورية، يعني إذا انتهت الدورة النورية بأدوارها الأربعة الفرعية ولم يستكملوا أعيانها في تلك الدورة فاقتلوها في الدورة الثانية الأصلية النورية، إشارة إلى أن الأعيان إذا استكملت في دوراتها بالفناء في الله والبقاء بالله، والمظهرية والكليّة والتحقُّق بالذات وتمام

الأسماء والصفات لا يبقى لها حالة منتظرة، ويكون تصرُّفها تصرُّف الذات بتمام الأسماء والصفات، ويكون لهم حالة عجيبة وقصة غريبة بين الألوهية والكونية جامعة لهما.

قال النبي عليه السلام: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبي مرسل، مَن رآني فقد رأى الحق، ومن رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثّل بي**»، فدخلوا في دار أمان الجمعية الكبرى، فأمن من خوف الموت وعوف الفوت ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: الآيتان 62 - 64]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠﴾ [آل عِمران: الآيتان 169 - 170] الآيات.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ إشارة إلى أن حق المرشد الكامل المكمّل أن يترصد الطالبين ويدعوهم إلى الله بالطرق المختلفة، الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق سواء كان فاسقًا أو مطيعًا صالحًا مؤمنًا، أو كافرًا ملحدًا أو منافقًا ومشركًا وموحِّدًا ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ ورجعوا وأنابوا إلى الجمعية العظمى، وهي الإسلام الحقيقي والدين الفطري الذي يولد بكل أحد عليه، قال النبي عليه السلام: «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه**» أي الاقتضاء النورية الجمالية والجلالية يجعلانه يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا عن الجمعية العظمى الجمالية والجلالية، هذا إنما يكون عند ظهور الورد الحقيقي الساري في تمام الأعيان صريحًا، وفي الأكوان ضمنًا، ويظهر سلطانه في آخر الزمان في المظهر الموعود واستعلاء الخلافة العظمى على جميع الموعودات الجمالية والجلالية، ويجعل جميع الأديان والمذاهب واحدًا، ويرتفع الاختلاف عن النبيين، ويمحق النقطة عن العين، فينوب عن الإثنين ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الحقيقية التي هي صلاة تمام الموجودات العالية والسافلة، التي هي مربوب النور والجمال والمعدومات العينية والغيبية التي هي مربوبية الظلّ والجلال ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: 5] بإخراج حقّ الله عن نفوذ الأحوال القلبية وأجناس المعارف الغيبية والعلوم الموسمية والإدراكات الحكمية، ويصرفها على الأصناف الثمانية، وهم أعيان

الأدوار الأربعة النورية والأكوار المربعة الظليّة الإفرادية التي هي أعيانها وأكوانها البسائط وأفراد وكليّات وجزئيات مقيّدة بقيود متباينة تباين الوحدة والصورة الجمعية والهيئة الكليّة الأحدية ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ في أمصار الأدوار وأعصار الأكوار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ الأعيان الجمالية والوجودية ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبَة: 5] للألوان الظليّة العدمية بأن يخرجها من ظلمات الغياهيب الجنائية إلى نور الضيائية الوجودية.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ بحسب اقتضاء الفطرة الأولى لأن يظهروا بالتدريج مَن كان كامنًا في حقيقته النوعية وماهيته الأصلية والفرعية من حصص الحقيقة المحمدية السارية في جميع الأعيان النورية والكمالات الكلامية الكامنة في أرض قابليته ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يبرز ويظهر ما كان كامنًا في سماعه في الفطرة الأولى، في النشأة العليا، وبلِّغه بعد النشأة في الأدوار والشؤونات في الإظهار مأمنه ومسكنه الأولي وموطنه الأزلي. والاستجار هو طلب القرب الأزلي والمجاورة والاستيجار ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبَة: 6] بأن الحقيقة المحمدية والوحدة الذاتيَّة الجارية في الأعيان جريان الروح في الأبدان، بل هي أقرب دائم وأنسب، وهي معهم أينما كانوا وكيف كانوا وعلى أية صنعة دانوا، وبأي وجه بانوا وتفرّقوا وخالفوا.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المتقيدين بالقيود الجزئية والحدود الأينية في الأطوار القلبية والأنوار الغيبية والأذهان العينية ﴿عَهْدٌ﴾ ومساسة وعقد ﴿عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ أي في الجمعية العظمى الإلٰهيَّة المطلقة أو المعينة ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبَة: 7] إشارة إلى تفاوت درجات السائرين إلى الله ومن الله، فمنهم من نقض العهد الأزلي ورفض العقد الفطري الأولي في نهاية السير في الله بأن يكون العهد عنده منبوذًا بالكليّة، مشذوذًا دونه من الفرعية والأصلية لا يقدر أن يرجع ويعرج إلى الله، ومنهم من نبذ بعضًا منه في السير إلى الله، كمن عرج ورجع إلى سماء التجلّي الآثاري ولم يعرج إلى سماء التجلِّي الأفعالي والأسمائي والذاتي، ولم يصل إلى الحقيقة الجمعية والهيئة المعيَّة، فإن استقاموا لهم واستدلُّوا في مطاوعتهم لكم وإطاعتهم لكم مطاوعة الأجزاء للكل والأعضاء للبدن من الجزء، والكل في الفناء في الكل والبقاء بالكل، فإن من

السائر من يحصل له الفناء والبقاء بالله في نهاية السيرين، ومن السائرين من يحصل له الفناء في الله والبقاء بالله في آن واحد من الآنات الزمانية كالبرق الخاطف والتشوُّق العاطف، ومنهم من استقام فيهما وغيرهما في الحالات العجيبة والمقامات الغريبة إذا كان السلوك على الترتيب الطبيعي والنظام الوصفي في دورة واحدة أصلية أو فرعية أو كورة متحدة ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ [التّوبَة: 7] إشارة إلى الارتباط بين الكمال الجمعي والانفصال الصوري والمعنوي النوعي، والجنسي والصرفي، كالارتباط الذي يكون بين الأجزاء والجوارح والأعضاء، وبين القوى النفسانيَّة والجسمانية والروحانية، وكالارتباط بين الجسم والقلب والنفس والروح والعقل. والاستقامة في هذا النوع من هذه الارتباطات بين المبادئ وآثارها من الأفعال الجسمانية والأعمال النفسانيَّة والأحوال الجنائية والروحانية، وبين التجليَّات الوجودية والتطورات الشهودية والإدراكات الحضورية، والحالات الجودية، في غاية العسر بل في حكم الامتناع والتعذُّر كما أشار إليه النبي عليه السلام بقوله: «**شيَّبتني هود**»، ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هُود: 112].

﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تستبدلوا التجليَّات الإلٰهيَّة الجمعية الفطرية، والحالات الغيبية والمقامات القلبية ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ومتاعًا يسيرًا كليلًا من الأطوار القلبية والأنوار الغيبية ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ المفضي إلى الكمال الجمعي والجمع الكمالي، والإيجاد التدريجي أو الدفعي في الأدوار الأصلية والفرعية ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التّوبَة: 9] في أدوار السير إلى الله ومن الله بالتقيُّد بالقيود الإفرادية والحدود الفرداريّة والسدود الوجدانية القاصرة عن التحقق بالحقيقة الجمعية والصورة الكمالية النوعية، إشارة إلى تفاوت درجات المرشدين والمسترشدين، فمنهم من استكمل في إنكار الإرشاد والتكميل بعد استكماله في السير إلى الله ومن الله وفي الله بأنواع التجليَّات الذاتيَّة والأفعالية والأسمائيَّة والآثارية، وبالصورة الجمعية الكليَّة، وبالتحقق وبالعلم بها التابع لها لما تقرّر من أن كل تجلٍّ يستتبع علمًا مناسبًا له ويتعدَّد ويتضاعف آنًا فآنًا لما تحقق من أن الله لا يتجلى في صورة مرتين، ولا في صورة اثنين، وكذا يتجدّد به العلم والإدراك بخصوصيته. فالتجلي الواحد يتضمن تجليات غير متناهية وعلوم وإدراكات غير محصورة، ولا يصل إلى هذا المقام إلا مَن يتحقق بالذات مجمع الأسماء

والصفات في جميع الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية.

تفسير

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يريد في مصدق الله ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يريد لا يحفظ لقرآنه ولا يوفي له عهد ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التّوبَة: 10] يريد الذين اعتدوا.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ يريد من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يريد أقاموا شرائع الإيمان ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يريد تفسير الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التّوبَة: 11] يريد يوحّدون الله ولا يتلون عنه ولا يميلون إليه أصلًا.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ يعني المشركين ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ يريد واغتابوكم وعصوكم ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ يريد لأنهم ليسوا أئمة الهدى، بل هم أئمة الضلالة ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ يعني لا دين لهم ولا وفاء لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التّوبَة: 12] يريد كي ينتهوا عن الشرك بالله.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ يريد تحريضًا من الله لأوليائه على أعدائه ﴿قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ يريد نقضوا عهدهم وأيمانهم ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ محمد عليه السلام ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يريد بدؤوكم بالقطيعة والهجرة والعداوة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ يريد أتخافونهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾ وأولى وألْيق ﴿أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التّوبَة: 13] يريد بسيوفكم ورماحكم بعد قتلكم إياهم وينصركم عليهم.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التّوبَة: 14] يريد بني كعب يعني خزاعة، وذلك أن المشركين حين قاضاهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية أدخل بني كعب معه في القضية وأدخل المشركون بني بكر بن كنانة، فأغاروا عليهم قبل انقضاء المدة، فغضب لهم رسول الله ﷺ وقال: «**لأنتصرن لهم**» فنصر الله رسوله وشفى صدور بني كعب حتَّى أسرفوا في القتل، فأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن ينادي يوم الفتح بمكة: «**ألا إن الله قد حرَّم عليكم القتل فأمسكوا**» وكان من قتل بعد ذلك ورآه رسول الله ﷺ، وكان الله عزَّ وجلَّ قد أحلَّ مكة لنبيّه ثلاث ساعات من النهار ولم يحلّ مكة لحقّ قطّ قبله ولا بعده، وذلك قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البَلَد: 1] يريد أقسم بمكة ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البَلَد: 2] وأقسم بآدم وما ولد من النبيين.

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ يريد من الموحّدين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 15] يريد عليمًا بنيّات المؤمنين وحبّهم لله، حكيم فيما قضى في الذين نقضوا القضية وفي الذين أباح رسول الله ﷺ قتلهم عبد العزى بن هلال ابن عيضل الخزاعي سيد الذين حوله والبريات التي كانت بعرفات يتهجيان النبي ﷺ ويعيبان به، ومقيس بن صيانة، وعفا عن هار بن الأسود وعبد الله بن سعد بن سرح إلى عثمان بن عفان، وهو أخوه من الرضاعة، فقال: يا رسول الله إني أعطيته الأمان، هذا ما حكم الله فيمن قتل ومن عفا عنه رسول الله.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾

يقول الله عزَّ وجل: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ يريد بنيَّة صادقة ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التّوبَة: 16] أي حربًا، يريد أولياء من المشركين مثل قوله في: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]،

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: 94]، يريد إن الله لا يرضى أن يكون الباطن خلافًا للظاهر ولا الظاهر خلافًا للباطن، يريد الله في خلقه الاستقامة كما في (حم تنزيل): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصّلَت: 30] يريد أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بنات الله فلم يستقيموا، وقال عَبَدة الأوثان: ربّنا الله وهؤلاء شفعاؤنا، فلم يستقيموا. وقالت اليهود: ربّنا الله وعزير ابنه، فلم يستقيموا. وقالت قريظة والنضير: ربّنا الله وحده لا شريك له ومحمد لم يبعث إلينا، فلم يستقيموا. وقالت النصارى: ربنا الله والمسيح ابنه، فلم يستقيموا. وقالت المهاجرون والأنصار بأن الله وحده لا شريك له ومحمد رسول الله وما جاء به حقّ، نزلت في أبي بكر خاصة، فاستقاموا مثل قوله في سورة يوسف: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106] يريد بالله وغيره ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16] يريد بما يكون قبل أن يكون، وإنما هو كائن إلى يوم القيامة.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

و﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ يا محمد ﴿أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: 17] يريد المسجد الحرام خاصة لا يدخلوه ولا يقعدوا فيه كما كانوا قبل ذلك، يريد أنه كان في الكعبة صنم يقال له: هُبَل، وحول الكعبة ثلاثمائة صنم وستون صنم، وعلى الصفا صنم، وعلى المروة صنم، يسعون بينهم ويطوفون حول هذه الأصنام التي حول الكعبة ويعظّمونهم ويشرّفونهم كونهم مع الله جلّ جلاله وعلا علوّه وتقدّست أسماؤه ما أعزّه وأحكمه وأعظمه وأحلمه وأصبره، وهذا من زمان عمر بن لحي إلى أن بعث الله النبي ﷺ وفُتحت مكة فخرُّوا له ساجدين، وكسر رسول الله ﷺ الأصنام، وذلك قوله في سورة بني إسرائيل، كان أول ذلك أن الله أمر نبيّه أن يدعو فقال محمد: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يريد بالأول مكة وبالثانية المدينة ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: 80] يريد حجّةً بيّنة تنصرني بها على مَن بانوا من جميع الخلق، ففعل الله ذلك به وأجابه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ﴾ [الإسراء: 81] فخرّت الأصنام لله ساجدين.

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ اتخذوا من دونه شفعاء وأندادًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يريد أن أعمالهم لغير الله ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التّوبَة: 17] يريد مقيمين.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في أوقاتها ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في محلّها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التّوبَة: 18] المرشدين، فأوجب الله للمهاجرين والأنصار والذين آمنوا يوم الفتح لهم الهدى، وأثنى عليهم بما هو أهله.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يريد تسديده وتخليقه وتفجيره ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ نزل في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التّوبَة: 19] الضالين المجاوزين عن الحدّ.

هذا ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أقول: ليس فيه تكرير لأنه في الحقيقة شرح وتفسير للأول، يريد الكاذبين، لأن الأول عام في الناقضين والمؤدين، والثاني مختص للمشركين من اليهود إذ الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان مستعينًا بهم على المسلمين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التّوبَة: 10] المجاوزون عن الحدّ في الشرارة برفض مقتضى العقود ونقض مرتضى العهود.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ وأعرضوا عن الكفر والشرك، ودخلوا في مدينة الإسلام، وأقاموا حدودًا وأداموا على محافظة أحكامها ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عن أحوالهم المنصوبة فهؤلاء إخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما

عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ونبيِّنها إعراض للحث على التأمُّل فيما قصدوا من أحكام المستحفظين للعهود، المثبَّتين على صيانة الميثاق والعقود ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبَة: 11] قال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يُزَكِّ فلا صلاة له، لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر كفَّر من نفى وقال لهم، فقال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**إني أقاتل الناس حتَّى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله**» فقال أبو بكر: والله لأقاتل من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقّ المال لله، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ ونقضوا عهودهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وشد عقدهم ﴿وَطَعَنُواْ﴾ وقدحوا وشنَّعوا في دينهم وعابوا واستهزؤوا أيمانكم ويقينكم لا يبقى لهم عهد ولم يثبت لهم عقد، فلم يعتمدوا على عهدهم وميثاقهم ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ بالله وبرسول الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبَة: 12] كي يعرضوا عن الطعن في الدين والمظاهرة عليكم، أو عن الكفر. فحثّ المؤمنين على جهادهم وقتلهم وتمسّك به الحنفية، أي يمين الكافر ليس يمينًا وهو ضعيف لأن المراد نفي الوقوف عليها لا أنها ليست بأيمان لقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾. وقرأ ابن عامر: لا أيمان يعني لا إيمان ولا إسلام. وتشبّث وتمسّك مع من لم يقبل توبة المرتد، وهو ضعيف لجواز أن يكون المعنى: لا يؤمنون على الإخبار عن قوم مؤمنين، أو ليس لهم أيمان فيراقبوك لأجله.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ وما بيّنوا ومكثوا على عهودهم حيث صالحونا بالحديبية وأعانوا أبي بكر على خزاعة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ [التوبَة: 13] بالقتال والمخالفة أول مرّة يوم بدر لأنهم قالوا حين سلم العير وعبروا من الساحل إلى مكة: لا ننصرف حتَّى نستأصل محمدًا وأصحابه. بدؤوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ وتخافون منهم فتتركون قتالهم والجهاد معهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ في مخالفة أمره القتال مع أهل الكفر والجدال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبَة: 13]. ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ في الدنيا بتأييد الله إيَّاكم عليهم ونصره إيَّاكم

لتغلبونهم وتعلوا عليهم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلّهم بالأسر والقتل والقهر عليهم ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبَة: 14] بالتخليّة عن الداء الداهية والعقائد الواهية.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ وكربهم وانزعاجهم لمعونة قريش بكرًا عليهم ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ أي يقبل الله توبتهم ويرحم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من المشركين المعاندين والمخالفين المعاهدين فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وبما يكون وبما هو كائن ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبَة: 15] حاكم على الكل بالإيمان والكفر وحفظ العهد ووجوب النصر على وفق المصلحة وقبول الحكمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ ولم يأمروا بالجهاد ولم يختبر الصادق من المنافق، والمخالف من الموافق، منقطعة فيها التوبيخ على وجوه الحسنات والظنّ فيكون الخطاب للمنافقين أو المؤمنين الذين سبق عليهم القتال، يعني أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتَّى يتبيّن الخلّص منكم، وهم الراغبون في الجهاد في سبيل الله، ابتغاء لمرضات الله ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ ولم يعلم الخُلّص من النكّص ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ خالصًا مخلصًا وإنما نفى العلم وأراد المعلم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلُّق العلم به مستلزم لوقوعه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ عطف على جاهدوا داخل في الصلة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبَة: 16] بطانة وأولياء وكنانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم وكأنهم داخلون فيهم دخول النفس والقلب في البدن، يرجعون إليهم في المشاورة رجوع المرء إلى قلبه في الاستفتاء، كما قال النبي عليه السلام: «**استفتي قلبك**» مِن ولج يلج إذا دخل، فإن كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة كالرجل الذي دخل في قوم وليس منهم. و(ما) في ﴿وَلَمَّا﴾ فيه معنى التوقع، تنبيه على أن تبين ذلك واتضاحه وإعلامه متوقع.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صحّ ووضح لهم واستقام ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي مسجدًا من المساجد فضلًا عن المسجد الحرام وما في معناه. قيل: المراد هو، وجمعه لكونه قبلة المساجد وإمامها. والمراد بالعمارة هي المرمَّة والتعمير كما سيأتي. قال ابن عباس: يوم بدر عبّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ على غلبة القوم فقال العباس: ما لكم تتذكرون مساوءنا ولا تذكرون محاسننا،

قال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنَّا لنُعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجاج، فنزلت: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بإظهار الكفر والشرك وتكذيب الرُّسل حال من الواو أي ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين، عمارة بيت الله وعبادة غيره، وذلك أنَّ كفار قريش كانوا ينصبون أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا شوطًا ودورًا سجدوا لأصنامهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها لما قاربها من الشرك ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبَة: 17] لأن أعمالهم إنما كانت لغير الله وبالشرك.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أعم من أن يكون زينة بالفرش والنقوش والقناديل وإقام الصلاة فيها، والمداومة على الذكر، ومنه درس العلم وتلاوة القرآن وغير ذلك من الزينة الظاهرة والباطنة والصورة المعنوية. عن النبي ﷺ: «**إن توبتي في أرض المسجد، وإن زوارها فيها عمَّارها، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثم زارني في بيتي فحقّ على المزور أن يكرم زواره**».

وأيضًا قال عليه السلام: «**يأتي في آخر الزمان ناس من أمّتي يأتون المساجد فيعبدون فيها خلقًا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة**». وأيضًا عنه ﷺ: «**من أَلِفَ المسجد أَلِفَه الله، وإذا رآهم الرجل تبعا هذا المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله عزَّ وجلَّ قال:** ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: 18]» الآية.

وعن أنس رضي الله عنه: «**مَن أسرج في مسجد سراجًا لم تزل الملائكة وحملَة العرش يستغفرون له ما دام ذلك في المسجد ضوءه**». وأيضًا قال ﷺ: «**من بنى مسجدًا بنى الله له كهيئته في الجنة، أو بنى الله له في الجنة. إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا، من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة**»، ولم يذكر الإيمان بالرسول لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتمامه الإيمان به أو لدلالة قوله: وأقام الصلاة وآتى الزكاة التي عليه ولم يخش إلا الله في أبواب الدين إذ الجنة عن المحاذير والبليّات والآفات الداهية المفنية أمر جليّ لا يكاد العاقل المتشبث بالوهم هالك أن لا يخشاها، فعسى ولعل أولئك المؤمنين الموصوفين أن يكونوا من المهتدين. وفي هذا الكلام وما ضاهاه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية بالله على الرجاء ورفض الاغترار بالله.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهما مصدران من سقى وعمّر كالصيانة والوقاية، فلا بدّ من الإضمار أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إن كان سقاية المشركين وأعمالهم المحبطة المحيطة بالمؤمنين وأعمالهم الخالصة الثابتة والمثبتة والتسوية بينهم، فإن ذلك ظلم فوق ظلم. روي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة للحجّاج وعمار المسجد إنا أفضل أم محمد وأصحابه؟ قالوا: أنتم، ثم قرّر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التّوبَة: 19] المشركين المتوغلين في الظلم، المعاندين للرسول، المنهمكين في الضلالة، فكيف يتساءلون بالذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب.

إشارة وتأويل

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التّوبَة: 10] تكراره في الظاهر إشارة إلى تكرُّر النشأتين في الدورتين الجمالية والجلالية، أو الإفرادية والجمعية. وأنت خبير بأن الدورتين متخالفتان وأن التخالف والتباين بين مقتضى الأدوار ومرتضى الأكوار الإفرادية والأدوار الجمعية ثابت على النعت الإداري لا ينعكس عنها أصلًا ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ وتوجهوا على ما تقتضي الجمعية عن النعت الإفرادي إلى الوصف الجمعي والكمال المعي بحيث يتساوى النور والجمال والظلّ والجلال، ومقتضاهما ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الجمعية والقربات الذاتيَّة والأسمائيَّة الإلٰهيَّة ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التّوبَة: 11] عما هو مقتضى أحوالهم ومرتضى أعمالهم وأفعالهم وعلومهم وإدراكاتهم الفاضلة، وصرفوا على مبادئهم وقواهم ومناديهم على وجه صاروا أمثالهم، فإخوانكم في الدين وحصل بينكم وبينهم مناسبة ذاتية ومقاربة وضعية، وأخوة في الدين الحقيقي والإسلام الفطري الذي فطروا عليه في الفطرة الأولى ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ونفصِّل الدلائل والبيِّنات التي وصلوا بها إلى المقصد الأصلي والمرصد الأولي ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التّوبَة: 11] ويحصل لهم علم تفصيلي وإدراك حضوري، وعلم شهودي. والمراد من الآيات هي التجليّات الوجودية والظهورات الشهودية ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ الأزلية والمواثيق الأولية والعهود الفطرية التي جرت في منادي الأدوار النورية الوجودية

الفرعية ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ [التّوبَة: 12] في الأدوار الأصلية. والمراد بالأيمان هو الذي جرى في الكورة الظليّة العدمية أكثر إن شاء الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التّوبَة: 28] بما يصلحكم، حكيم في المشركين، وعليم بنيّاتكم.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريد اليهود والنصارى والصابئين ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] عن يد ذليلًا قائمًا على رجليه وهم صاغرون.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾

هذا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ أقول: بوجه آخر أو بوجه إما معًا أو بأحدهما فقط أولئك ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وأعلى وأقصى كرامة وأبهى رتبة وأنهى درجة دون الله أولئك المؤمنون المهاجرون والهادون ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [التّوبَة: 20] بعظيم الدرجات الحائزون، هم ذوي الكرامات ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [التّوبَة: 21، 22].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قيل: متصلة بما قبلها، نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما عن الهجرة. عن ابن عباس: لما أمر رسول الله ﷺ الناس بالهجرة فمنهم من تعلق به أهل مكة وولده فقام بهم وترك الهجرة. قيل: نزلت في التسعة الذين ارتدُّوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى عن ولايتهم فأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [التوبة: 23] ووليجة وأصدقاء وبطانة وأخلاء، فيفشون إليهم أسراركم ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ واختاروا ﴿ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾،

أي أخذهم أولياء ﴿مِّنكُمْ﴾ ويطلعكم على سرائر المسلمين وأسرارهم وأثر المقام لهم على الهجرة والجهاد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم الموالاة والاعتماد والصدق والاعتقاد وغير موضعها.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وأقربائكم مأخوذ من العشرة وقيل من العسيرة فإنها جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة والعشير هو أول عقد ينعقد به الأعداد بعضها ببعض عند التركب وينضبط ويحفظ وينسب إليه ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي تخافون انتفاء رواجها وفوات نَفَاقِها وقبولها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ وتستطيعونها وتتطاولون فيها من القصور والمنازل والمنابت والمحافل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ حب الخير ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ وانتظروا وترصدوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني عقوبة الله بقضائه وأمره عاجلًا وآجلًا، أو فتح مكة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24] فلا يرشدهم في هذه الآية تهديد عظيم وتشديد في وعيد عميم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وأماكن غفيرة قد ثبت في موضعها ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ هو وادٍ بين مكة والطائف، لما فتح الله مكة وقد بقيت عليهم أيام من شهر رمضان ثم خرج إلى حنين للقتال وإن كانوا قومًا زمانًا أربعة آلاف والمسلمون إثني عشرة ألف من المهاجرين وألفان من الطلقاء والحلفاء والعتقاء. وقيل: ستة عشرة، فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار والأعوان يقال له واقس: لن نغلب اليوم لقلّة العدد وكثرة المسلمين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وفشا

رسول الله ﷺ كلامه فاقتتلوا قتالًا شديدًا فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري ثم نادوا: يا حماة السواد اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون وهزموا ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25] وما ولّى الرسول لكنه خرج بشأن أصحابه وأحفادهم وهم ما عليهم سلاح، فلقوا قومًا لا يكاد يسقط لهم سهم فرشقهم رشقًا لا يكادون يخبطون ويخطئون، فأقبلوا إلى رسول الله وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن حرب بن عبد المطلب بقربه، فنزل واستنصر وقال:

أنا النبيّ لا كَذِب أنا ابنُ عبدِ المُطّلب

ثم صفهم. قال الكلبي: كان حول النبي ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانهزم سائر المسلمين. وقال آخرون: لم يبق مع النبي غير العباس عمه، وأبو سفيان، وأيمن بن أيمن، فقتل يومئذ بين يدي رسول الله عليه السلام وكان العباس وهو رجل صيت، فنادى بأعلى الصوت: أين أصحاب السمرة، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتلوهم، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه، فما بقي رجل إلا ملأت عينيه ترابًا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أمنه وطمأنينته فعليه من السكون وهو الوقار والتمكن والاستكانة بعد الهزيمة والتكالب على الغنيمة ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ حيث استقام على الركن وأبو عمه عباس يطلب الناس ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وميلهم إليه وعطفه لديه عطف الأم المشفقة على الولد ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة، لا للقتال بل لتشجيع المؤمنين وترويع الكافرين وترغيبهم وترغيب المسلمين على المقابلة، فإن الملائكة ما قاتلوا إلا يوم بدر لقلّة المؤمنين وكمال ضعفهم في ذلك اليوم ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: 26] بالقتل والأسر وسبي الأولاد والذراري والعيال وسلب الحميات والأموال. ويقرب أميرهم، وهو مالك بن عوف النضري، فأتى الرسول إلى الطائف فتحصن بها وأخذ مالهم وغنم أهلهم ونهب عيالهم فأصابوا يومئذ ستة

آلاف سبي، وحضر الطائف بقية ذلك الشهر. فلما دخل ذو القعدة، وهو شهر حرام، انصرف عنهم فأتى الجعرانة فأحرم بعمرة وقسَّم فيها غنائم حنين وأوطاس ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: 26].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ ويقبل توبة من تاب من الكفار ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القتال ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من الكافرين والمشركين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 27] على من أصاب، وذلك أن ناسًا منهم جاؤوا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وذرارينا وأحفادنا، وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الأموال والغنم والبقر والفرس وغير ذلك ما لا يحصى، فقال عليه السلام: اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، فقام رسول الله ﷺ إلى هؤلاء المسلمين، وإنَّا خيَّرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب فمن كان بيده سبي طابت نفسه أن يردّه فليأتنا ومن لا فليعطنا وليكن ذلك قرضًا علينا حتَّى نصيب شيئًا فنعطيه مكانه، قالوا: رضينا وسلّمنا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ [التوبة: 28] إلخ، خبث باطنهم وخبث ظاهرهم مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع. وأما النجس بكسر النون وكسر الجيم أراد به نجاسة الحكم لا نجاسة العين، وإنما سمّاهم به لأنهم كانوا ينجسون ولا يغتسلون ويُحدِثون ولا يتطهرون، وكذا لا يبالون بالنجاسة العينية كالبهائم والسباع ﴿ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: 28] أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1] أراد به الحرم لأنه أسرى من بيت أم هاني. فبلاد الإسلام في حق الكفار ومنازلهم ثلاثة أقسام لا يجوز للكفار أن يدخله بحال ذميًا كان أو مستأمنًا لظاهر هذه الآية. وإذا

جاء رسول من دار الكفار إلى الإمام وهو في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم، بل يستخبرها بالترجمان الثاني الحاز فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر، وهو ثلاثة أيام.

روي عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**لئن عشتُ إن شاء الله لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتَّى لا أدع فيها إلا مسلمًا**» فوصى وأوصى فقال: «**أخرِجوا المشركين من جزيرة العرب**»، فلم يتفرغ لذلك أبو بكر فأجلاهم عمر في خلافته وأجلى من تقدّم منهم وتأخر ثلاثًا. وجزيرة العرب عبارة من أقصى عدن أبْيَن إلى زيف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدة وما والاها ومن ساحل البحر إلى طرف الشام والثالث سائر بلاد الإسلام، يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة وأمان لكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ الذي حجّ فيه أبو بكر بالناس ونادى علي براءة من الله، وهو سنة تسع من الهجرة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقرًا وفاقة وحاجة، وذلك أن أهل مكة كانت معائشهم من التجارات، فلما منع المشركون من مكة خافوا الفقر وضيق العيش وقلّة الطعام ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التّوبَة: 28] قادر على إنزال المطر وعلى الاقتدار على الزراعة والحرث ومخابط المواشي، أو بإذن الله وفق أهل جدة وصنعاء وحرس من اليمن بالإيمان والإسلام والجالب المتاع والطعام أو عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَـٰتِلُوا۟﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزى بعد نزولها غزوة تبوك وبني قريظة والنضير من اليهود فصالحهم بقبول الجزية، وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذلّ أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التّوبَة: 29] نزل إيمان أهل الكتاب بالله وباليوم الآخر بمنزلة عدم الإيمان لقتلهم الأنبياء بغير حق

وتحريفهم الكتاب وقولهم إن عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ما ثبتت حرمته بالكتاب والسنَّة ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ إما إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان أي الدين الثابت الذي نسخ الأديان كلها، أو الحق اسم من الأسماء الإلٰهيَّة، أي دين الله ودينه الإسلام، أي لا يطيعون الله طاعة أهل الحق، أو لا يتجاوزون جزاء ثانيًا عدلًا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الذين لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ الخراج المضروب على رقابهم المقرّ في ذمتهم من جزى يجزي إذا قضى، سمِّيت بها لأنهم يجزون من منَّ عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أي عن قهر وذلّ.

عن ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم أو عن نقد لا عن نسيئة.

وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية، فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة وعطية جسيمة ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التّوبَة: 29] أذلاء مقهورون أو يعطون عن قيام والقابض جالس. قيل: يؤخذ بلحيته ومحاسنه فيضرب في أهرميته.

قيل: يلبب ويصرف عليه ويجر إلى موضع الإعطاء بعنف فإن إعطاءهم إياها لهم هو الصغار.

قال الشافعي: الصَّغار هو إجراء الأحكام للإسلام عليهم، اتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إذا لم يكونوا عربًا. واختلفوا في الكتابي العربي وفي أهل الكتاب من الكفار العجم، فذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على الأنساب، فيؤخذ من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال واحتج بأن النبي ﷺ أخذها من أكيد دومة وهو رجل من العرب يقال إنه من غسان أخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب، وذهب مالك والأوزاعي إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتدّ.

قال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب على العموم، وتؤخذ من مشركي العجم، ولا تؤخذ من مشركي العرب. وأما المجوس فاتفق الصحابة على أخذ الجزية منهم. روي أن عمر رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتَّى شهد

عبد الرحمٰن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من المجوس.

وقال أيضًا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سنُّوا بهم سنَّة أهل الكتاب**». واختلف في أنهم من أهل الكتاب.

روي عن علي رضي الله عنه قال: كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا قد أسرى على كتابهم فرُفِع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحهم بخلاف أهل الكتاب، وأما من دخل دين اليهود والنصارى نظر إن دخلوا قبل النسخ والتبديل يقرُّون بالجزية وتحلّ مناكحهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ ومجيء النبي ﷺ لا يقرُّون بالجزية ولا تحلّ مناكحهم وذبائحهم تغليبًا للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهرام أو بني تغلب أقرّهم عمر بالجزية له، وقال: ما تحلّ لنا ذبائحهم، وأما قدر الجزية فأقلّه دينار لا يجوز أن ينقص عنه ويقبل الدينار من الغني والفقير والوسط. [فيه دليل الحلم والطوع والذّكَر] بعث النبي عليه معاذ بن جبل إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا، ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط فيه، دليل على أنه لا يجب على الصبيان والنساء والأرقّاء بل يؤخذ من الذكور البالغين الأحرار العاقلين، وذهب قوم إلى أن على كل موسر أربعة دنانير وعلى الوسط ديناران وعلى الفقير دينار وهو قول أصحاب الرأي.

إشارة وتأويل

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التوبة: 20] في الكورة الجلالية الظليّة العدمية التي هي باطن الدورة النورية الجمالية الوجودية، وإليه الإشارة بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2]، قال النبي عليه السلام: «**كل مولود يُولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه**». فهو في بداية الدورة النورية التي خلق الله تعالى جميع الأعيان والأكوان في هذه الدورة بنعت الوجود والجمال، فإذا نزلت من هذه الدورة النورية والمرتبة وتميّزت مقتضيات النور والجمال عن مرتضيات الجلال، وهي المولود الإنسي والمولود الجني وأحوالهما من الطاعات والعبادات وما يخالفها من المعصية والمخالفات ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ [التوبة: 20] من مكة الأحدية الجمعية إلى مدينة الواحديَّة التفصيلية

النورية والظليّة الجمالية والجلالية الوجودية والعدمية ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي السير إلى الله ومن الله بأموالهم وعلومهم وإدراكهم وأحوالهم ومقاماتهم وحالاتهم وعباداتهم وطاعاتهم في المرتبة الواحديَّة، وأنفسهم وذواتهم من المولود الإنسي والجني، والأحكام لتعيناتهم. والظليّة الإفرادية والصورة الجمعية الإلٰهيَّة والكونية في السير في الله أولئك المؤمنون المتحقِّقون بهذه الحالات والأحوال والمقامات أعظم درجة عند الله لجامعيتهم الإلٰهيَّة والكونية والربوبية والوجودية والعدمية في السير من الله وإلى الله وفي الله.

فلما تحققت في هذه الحالة والمقام حين الكتابة بهذا المرام خاطبني الله بأنك يا حسام الله أنا وأنت وجعلتك مثلي في جميع الكلمات الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية والتجليَّات الوجودية والظهورات الشهودية وغير ذلك مما ظهر من الصفة الجودية وليس لي مثل، كما قال تعالى: «**أطعني يا عبدي أجعلك مثلي وليس لي مثل**» ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [التوبَة: 20] الحائزون قصبات السبق في الكمال الجمعي والجمع الكمالي.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [التوبَة: 21] في هذه الحالة المستمرة من الأزل إلى الأبد، ومن السرمد إلى الأبد، وإن كان ظهورها في هذه الحالة الجزئية والنشأة البشرية العنصرية في زمان قليل جزئي وانطفأ كالبرق الخاطف سريعًا، واختفى كالشرف بديعًا ومنيعًا برحمة منه ورضوان وجنات، إشارة إلى مراتب الجمعية الجمالية والجلالية وجميعتهما لهم فيها في جمعة الكل نعيم مقيم يا أحمد إنَّ في الجنة قصرًا من لؤلؤة فوق لؤلؤة ومن درّة فوق درّة ليس فصم ولا وصل فيها لخواص أنظر إليهم في كل يوم سبعين مرة وأكلمهم كلما نظرت إليهم، ازدادوا في ملكهم سبعين ضعفًا، وإذا تلذَّذ أهل الجنة بالطعام والشراب تلذَّذ أولئك بذكري وكلامي وحديثي، قال: يا ربّ فما علامة أولئك؟ قال: مسجونون قد سجنت ألسنتهم من فضول الكلام وبطونهم من فضول الطعام، خالدين فيها أبدًا، إن الله عنده أجر عظيم وهي الجمعة العظمى، أعني جمعية جميع الجنات وتمام التجليَّات الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية والصورة الكليَّة بحيث يشاهد جميعًا فردًا فردًا أو جمعًا جمعًا، ولا يحجب أحدهما الآخر والآخر الكل والعكس. واندرج هذا الإرث في الأبد والأزل وكلاهما في الوقت الحاضر عنده الكل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وساروا في الأدوار الإفرادية وداروا في الأكوار الوحدانية ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي ظاهر العقد والأرواح النورية ﴿وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ أي القوى الروحانية والمبادئ العقلية والمواد النفسية، سيما القوة الوهمية ﴿أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ﴾ أي إخفاء الصورة الجمعية والصفة المعيَّة على الإيمان بالكمال النوعي والجمع الكمالي ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي أخذهم أولياء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العقول الظاهرة المتصرفة في الظاهر، والصورة بقواها ومبادئها ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبَة: 23] خصوصًا الوهم الذي يخدمه العقل في مقاصده.

﴿قُلْ﴾ يا حصة الحقيقة المحمدية السارية في الرسمي والنفسي الأسمى في جميع الأعيان النورية والجمالية صريحًا، وفي الأكوار الظليّة الجلالية ضمنًا ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي العقول الظاهرة ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ أي نتائج الأفكار العقلية والأنظار الوهمية ﴿وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي القوى الجسمانية والنباتية والحيوانية من العادية والنابتة والمولدة والحواس الظاهرة والباطنة ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ نفوسكم العاملة وعشيرتكم وقوى نفوسكم ومبادئ عقولكم وأموال وإدراكات وأفعال، وأعمالكم الإرادية الاختيارية ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ﴾ علوم مدونة وإدراكات متقنة وقوانين مبرهنة ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي فساد المبادئ والمقدمات والقياسات الفاسدة الصورة، ومساكن مراتب الإدراكات والنتائج واكتسابها منافذ رصد فيها مقاصد ومقامات ومسالك يتربص فيها للحالات والأحوال الكاشفات والمشاهدات ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من الجمعية الإلٰهيَّة والكونية والذات الجامعة للأسماء الذاتيَّة والصفات الإلٰهيَّة والآثارية والصورة الجمعية ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ من الكمال الجمعي والجمع الكمالي الإفرادي الجمالي والجلالي، وجهاد في سبيله وهو الانتقال من المبادئ والدائم إلى شهود التجليَّات ومشاهدة كيفيّات الظهورات وكيفية ارتباط المكونات ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ في المدارك ومنازل الاكتساب والمسالك حتَّى يأتي بأمره تعالى، ودره الحالي بحالي عن الإدراك المركب القالي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبَة: 24] أي الأعيان النورية الإفرادية الخارجين عن الإطاعة النوعية والمطاوعة الجمعية.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في الأدوار النورية الجمالية الصريحة، والأكوار الظليّة الضمنية ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ في نشأة الهيئة وشؤونات ربانية وظهورات كثيرة في الأطوار

القلبية والأنوار الغيبية، ويوم حنين جمعه بين مكة الجمعية العظمى النورية الجمالية، والصورة الجلالية، وبين مطائف الجمعية الإفرادية ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وصور جمعياتكم الجمالية الإفرادية والجلالية الوحدانية الأصلية والفرعية ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ هذه الجمعيات الإفرادية المذكورة ﴿شَيْئًا﴾ من جمعية الجمعية المطردة والمنعكسة، وجمعية الجمعية العظمى ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ الاستعدادية ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي مع أنها واسعة في نفسها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25] إشارة إلى السقطة المتوسطة بين الدورات كالسكون المتخلّل بين المسيرات والحركات المتخالفة الأطراف كالحركة من المركز وإلى المركز لتتوفر رغبة السائر الطالب، وليستكثر رهبة الدائر الراغب.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ مسكنه واستقامته ووقاره واستكانته في جهاده ومجاهدته لدى مخالفة النفس لكمال مشاهدته في إزالة النعوت الإفرادية والصفات الفرداريّة عن الأعيان النورية والأكوان الظليّة ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي على حصص أحدية الحقيقة المحمدية السارية في جميع الأعيان وتمام الأكوان الوجودية والعدمية ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الأطوار الباقية والقوى السابقة في حدائق المعارف الإلٰهيَّة ورياض الحقائق والعوارف الأزلية الغير المتناهية ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي كليّات شهودية وشهودات كلية جمعية ما كانت شهوده في الأدوار النورية الجمالية والأكوار الظليّة الجلالية الإفرادية الأصلية والفرعية، بل هي مخصوصة بالجمعية العظمى النورية، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر قطّ. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: 17].

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الأدوار والأكوار الإفرادية المذكورة بإسقاط جنود القوى وسلب أموال العلوم والأحوال والرسوم من أصحاب القول وأرباب النهي ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [التوبة: 27] بالحدّ الكلي في الدور الفرعي والأصلي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في تمام الأدوار وعموم الأكوار بل الأطوار الجمعية بالصورة الجمعية الأصلية والفرعية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي الأعيان المفردون والأكوان المتفرِّدون المنعوتون بنعوت القيود الجزئية والكلية في مسيراتهم بدرجات العلوم والإدراكات ومرداتك الأحوال والمقامات، ومسالك المكاشفات والمشاهدات، نجس بعيد من الكمال الجمعي والظهور النوعي والوصال الكلي التدريجي والدفعي ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: 28] وكمال جمعه الحال وكليّة المقام في أدوار الجمال وأنوار الجلال الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية.

تفسير

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ كذبًا منهم وافتراء ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون ذلك القول ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ يريد يضاهئون يستهزؤون لقول الأمم الخالية ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30] يريد لعنهم الله كيف يكذبون ويصدر منهم ذلك الافتراء والكذب، استعجال وتوبيخ عليهم.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ يريد اتخذوا فعلهم وعبادهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ [التوبة: 31] نزَّه نفسه عزَّ وجلَّ أن يكون له ولد أو شريك وصاحبة ووزير.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يريدون أن يتخذوا دين الله بأفواههم بمجرّد آرائهم وأهوائهم ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ يريد إلا أن يظهر دينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يريد محمد ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ يريد الهدى الذي يعينه ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ يريد الحقيقة البيضاء ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يريد ليغلبوا به على جميع الأعيان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ ويريد أن كثيرًا من الفقهاء والعباد من أهل الكتاب ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 34] لا يؤدون زكاة أموالهم ولا يقيمون النوائب التي افترضها عليهم منهم ما قال في سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ يريد الصلاة ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يريد وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ يريد الفقر والمرض، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ [البقرة: 177] يريد القتال في سبيل الله.

وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والأمرَّان، قالوا: وما الأمران يا رسول الله؟**

قال: الإمساك في الحياة والتبذُّر عند الموت»، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: الآيتان 35 - 36] يريد المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: 36] يريد المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ يريد تحفظون من أنفسكم فيها، واجتنبوا الخطايا فإن الحسنات فيها تضعيف والسيئات فيها تضعيف ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يريد خاصة ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36] يريد مع أوليائه الذين يخافونه.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يريد ما فعلت كنانة حيث نسئوا المحرم وحرموا صفر يريد زيادة في كفرهم حيث أحلُّوا ما حرَّم الله وحرَّموا ما أحلَّ الله ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ يريد إذا قاتلوا فيه أحلُّوه وحرَّموا مكانه صفرًا، فإذا لم يقاتلوا فيه حرَّموا ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يريد

أربعة أشهر لأن الله حرَّم منها أربعة أشهر ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ﴾ يريد زيَّن لهم الشيطان هذا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: 37] يريد لا يرشد كل كافر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد تحريضًا من الله لأوليائه ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يريد أحببتم المقام وتركتم أصل المقصود والمرام ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ يريد قدمتم الدنيا على الأخرى، يريد من الآخرة الجنة ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبَة: 38] يريد الدنيا كلها قليل كما قال في آل عمران: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 131] عنده وشيءٌ من الجنة.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبَة: 39] يريد وجيعًا تحريضًا من الله لأوليائه ويحذّر ربّك المعاصي، كما قال في آل عمران: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 131]، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يريد من التابعين بإحسان ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبَة: 39].

هذا ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبَة: 30] أقول: وذلك أن بُخُت نصَر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل من قرّاء التوراة وكان عزير في ذلك الزمان صغيرًا وأُسِرَ مع أربع من أبناء أنبيائهم منهم دانيال إلى أرض بابل، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيرًا فيجدِّد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد إماتته مائة سنة قيل: جاء مَلكٌ بإناءٍ فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم وقال لهم: أنا عزير،

كذّبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فاتلُ علينا التوراة، فكتبها لهم ثم إن رجلًا قال: إن أبي حدّثني عن جدّي أنَّ التوراة قد جعلت في خابية فدفنت في كرم، فانطلقوا معه حتَّى أخرجوها فعارضوا وقابلوا بما كتب لهم عزير، فلم يجدوا غادر منه حرفًا، فقالوا: إن الله لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا أنه ابنه.

وأما النصارى فكانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة يصلُّون إلى القبلة ويصومون رمضان، فبعدما رُفِع عيسى وقع بينهم واليهود حربٌ وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جماعة من أصحاب عيسى، ثم قال لليهود: إن الحق مع خصمائنا فكفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، فإني أحتال لأضلّهم حتَّى يدخلوا النار. وكان له فرس كان يقاتل عليه ثم غرّقه وأظهر الندامة ووضع على رأسه القراب فقال له النصارى: من أنت؟ فقال: أنا بولس عدوّكم نوديت من السماء ليس لك توبة إلا أن تتنصر، وقد تبت الآن ودخلت في دينكم. فصدّقوه وأدخلوه الكنيسة ودخل بيتًا لم يخرج منه ليلًا ونهارًا حتَّى تعلَّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله تعالى قَبِل توبتك، فصدقوه فأحبوه. ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليه نسطور وعلَّمه أن عيسى ومريم والإلٰه كانوا ثلاثة ثم توجه إلى الروم وعلَّمهم اللاهوت والناسوت، وقال: لم يكن عيسى [برسول ولا نبي][1]، ولكن هو ابن الله. وعلَّم رجلًا يقال له يعقوب، ثم دعى رجلًا يقال له ملكاء فقال له: إن الإلٰه لم يزل ولا يزال عيسى. فلما استمكن منهم دعى هؤلاء الثلاثة واحدًا واحدًا فقال لكل واحد منهم: أنت خالصي وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني، وقال واحد منهم: إني أذبح غدًا نفسي فأدعو الناس إلى نحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى. فلما كان يوم ثالثه دعى كل واحد منهم الناس إلى نحلته ودينه فمنع كل واحد منهما جماعة وطائفة من الناس، فاختلفوا فاقتتلوا ذلك المقول المروي قولهم بأفواههم، تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجوُّز عنها بأن يقصد شيئًا آخر، وأشاروا بأن هذا قول مجرّد عن برهان ودليل وبيان وتحقيق وعيان مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يكون مفهومًا في الأذهان.

---

(1) كذا في الأصل المخطوط.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي نسبة الكفر الذي تكلم به الكفار المعاندون من قبل بأن قالوا: الملائكة بنات الله وعزير ابن الله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، أو أنهم أحقاء بأن يقال لهم هذا القول لشناعة قولهم وفضاحة كلامهم. ما أعجب قولهم هذا ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التّوبَة: 30] كيف ينصرفون عن الحق بعد قيام الحجة عليهم إلى الأباطيل الباهرة والأقاويل المهملة الظاهرة، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ المحرمات وتحريم المستحيلات وسجدوا لهم سجودهم للأصنام ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ بأن جعلوه إلٰهًا وما أُمروا أن يتخذوا إلٰهًا دون الله أو أربابًا مقام الإلٰه في الطاعات في الكتب السالفة بلسان الأنبياء أو في الفطرة الأولى، أو بطور صريح العقل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التّوبَة: 31] وهو إلٰه الكل وموجود بها دليل على بطلان الاتخاذ المركوز. وأماطاعة الرسول ومن كان لطاعته واجبًا فهي بما أمر الله أيضًا ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: 59] صفة ثانية أو استئناف مقرّر للتوحيد ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التّوبَة: 31] والتفنُّن في التوحيد إشعار بأن للشياطين في الإغراء والإضلال والإغواء على اتخاذ الشركاء طرقًا كثيرة، وأن طريق الحق والدواعي إليه والبرهان عليه ليسير.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي يبطلون دين الحق أو الحجة الدالة عليه وعلى توحيده وتنزيهه وتقديسه عن الشرك والإشراك، أو نبوَّة محمد ﷺ أو القرآن والوحي ﴿بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ تصريح على كمال جهلهم ووفور حماقتهم وتعنُّتهم وسوء فهمهم بأن الأمر الواضح في نفسه حيث استغنى عن البرهان كيف يبطل بمجرد قولهم الباطل الذي جزم على فساده كل من له أدنى مسكة، فكيف عن اللبيب الكامل ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي لا يرضى ولا يقع عنده أمر في تبليغه إلا أن يتكمل دينه ويبلغ في الإشهار موقع ظهور الشمس في النهار لدى ذوي الأبصار ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التّوبَة: 32] قيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب إطفاء نور عظيم ساطع في الآفاق بنفخة، والله يريد بكمال قدرته ووفور قوته في الظاهر والباطن. وإنما حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ والقرآن وتبيان أحكام الشرائع ﴿وَدِينِ

﴿ٱلْحَقِّ﴾ والطريق الواضح المستقيم وهو الإسلام، إن الدين عند الله الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ويغلبه ويستعلي ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي سائر الأديان بتمامها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33] هذا عند نزول عيسى وجعله تمام الأديان راجعًا إلى دين الإسلام.

روى المقداد أنه قال عليه السلام: «**لا يبقى على ظهر الأرض بيت من مدر ولا وبر إلا أدخله الله كله الإسلام**»، إما يعزّ عزيزًا أو يذلّ ذليلًا، إما يعزّهم ثم يحكم على كل شيء جاوز حدّه انعكس ضده حيث أشار إليه بقوله عليه السلام: «**لا يذهب الليل والنهار حتّى يُعبد اللات والعزى**». قالت عائشة رضي الله عنها: ما كنتَ أظن بعدما أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؟ قال: «**يكون ما شاء الله ثم يبعث الله ريحًا طيبة فيقبض ما كان في قلبه مثقال ذرة من خير ثم يبقى مَن لا خير فيه ويرجع الناس إلى دين آبائهم**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ العلماء الكثير، المعلم المتبوع والرهبان والقراء من أهل الكتاب ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ والرُّشى في أحكام الشرائع وتحريف كتاب الله ويقولون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 79] من سلفهم وما دونهم على تغيير بعث النبي ﷺ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويصرفون الناس عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي يدفنونهما في الأبنية وسائر الأقضية والأمكنة، يحتمل أن يراد به الكثير من الرهبان والأحبار، وإن يراد به المسلمون الذين يجمّعون المال ويدفنونه ولا يؤدون حقّه، ويكون اقترانه بالمرشيين من أهل الكتاب للتغليظ، فإن كل مال يؤدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا، وكل مال لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن لم يكن مدفونًا ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا يؤدون زكاتها ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34] مؤلم جدًّا، بأن يحمى كل واحد منهما وليسخن ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حمى شديد وسخونة شديدة، أصله يحمي الذهب والفضة بالنار فيجعل الإحماء للنار مبالغة في النار. الفعل الجار والمجرور تنبيهًا على المقصود، فعدل عن صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير. وإنما قال عليها والمذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال عليه السلام: «**أربعة آلاف وما دونها**

نفقة، وما فوقها كنز». وكذا قوله: «**ولا تنفقونها**» وقيل: الضمير فيها للكنوز والأموال. وقال: «**كلما زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أدّيت منه الزكاة أو لم تؤد، وما دونها نفقة**». قيل: ما فضل من الحاجة فهو كنز، ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ جباههم تحرق على وجه يوسم ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ أي ناصية كانزيهم ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأنهم كانوا يتوجهون إلى طلبها واكتسابها بكمال الوجهة واستقامة الناصية التي جاء بها، ويتجافون جنوبهم عن المضاجع في اقترافها واقتناصها ويتحملون الأثقال ويتوردون الأحمال على ظهورهم.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقول: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 35].

قال رسول الله ﷺ: «**من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته تمثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له رأسان يطوقه يوم القيامة ثم يؤخذ بلهزميه**»(*) ويشدّ فيه ثم يقول له: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [آل عمران: 180] إلخ، ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 36] وهي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الآخر، وجمادى الأول، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة في كتاب الله واللّوح المحفوظ، أو في حكمه يوم خلق السماوات والأرض. هذا الأمر ثابت في نفس الأمر وحكمه وقضائه السابق منذ خلق الله الأفلاك والسماوات السبع والزمان والشهور الهلالية والشمسية والمكان. أما الهلالية وهي التي اعتبرها المسلمون في ضبط أيام الصيام وأوقات الحج والأعياد وآجال المعاملات وغير ذلك، وهي ثلاثمائة وأربع وخمسون يومًا تقريبًا، قد سبق الكلام في ضبط هذا المرام في سورة يٰس: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: 39].

وأما الشهور الشمسية وهي التي اعتبرها المنجّمون عند طول الشمس في البروج الإثنا عشر فهي ثلاثمائة وستون يومًا بالترتيب، منها أربعة حرم، واحد فرد وهو رجب، وثلاثة متتابعة وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ذلك المعدود من المحرم إلى المحرم، الدين القيم المستقيم هو دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وورثت العرب ذلك الدين منهما.

(*) لهزمة: عظم ناتئ في الحنك تحت الأذن، وهما لهزمتان جمع لهازم.

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ أي في الأشهر كلها بفعل المعصية وترك الطاعة فيها، أو في الأشهر الحرم، فإن العمل الصالح في الأشهر الحرم أعظم أجرًا وأتمّ أمرًا، والظلم فيها أعظم ضررًا وأدهم شررًا، وإن كان الظلم والمعصية في نفس الأمر قبيحًا مذمومًا عند الحق والخلق. عن ابن عباس: استحلال الحرام والتهاب. قيل: لا تجعلوا حلالها حرامًا ولا حرامها حلالًا كفعل أهل الشرك ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ عامة وجميعًا ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ كافة بلا امتياز وتفرقة، مصدر كفّ عن الشيء، فإن الجميع والتأكيد يمنع الزيادة والنقصان وقع موقع الحال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اختلف في تحريم القتال في الأشهر الحرم وقال قوم هو كثير، ثم نسخ بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: 36] لأن النبي عليه السلام غزا هوازن بحنين وثقيف بالطائف وفي بعض رمضان والشوال، وبعض من ذي القعدة. وقال آخرون: غير منسوخ لأن القتال فيها حرام الآن يقاتلون فحينئذ جاز القتال فيها.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ مصدر كالحريق والسوير أو مفعول كالجريح والقتيل وهو التأخير، ومنه النسيئة في البيع أي تأخير حرمة الشهر إلى آخر، فإنهم إذا جاؤوا في شهر حرام وهم يحاربون أحلّوه وحرّموا مكانه شهرًا آخر، حتّى رفضوا الأشهر الحرم بخصوصها واعتبروا مجرد العدد زيادة في الكفر أي زيادة كفر على كفر، لأن تحريم ما أحلّ وتحليل ما حرّم كفر آخر زادوه على كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الناس إذا قرئ بضم الياء وكسر الضاد ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ بيان النّسيء ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ أو يوافقوا ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ في العدد، وهو أربعة متعلّق بيحرّمونه أي حرموا أربعة أشهر من تلقاء أنفسهم وكانت الأشهر الحرام يستحلّونها ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العدد وحدها من غير مراعاة الوقت ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ والمزيّن هو الشيطان والفاعل المؤثر هو الله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: 37] هداية موصلة إلى الاهتداء بالفعل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ [التوبة: 38] أدغمت التاء في الثاء بعد تقليب التاء ثاءً وزيدت الهمزة لامتناع الابتداء بالساكن أي تكاسلتم وتباطأتم ثم يتضمن معنى الميل والركون والإخلاد فعدى إلى جزاء الشرط أي ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وركنتم إلى جمع حطامها،

وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم وقت الأمر بالسير في سبيل الله. نزلت في الحثّ على غزوة تبوك لأنه لما رجع النبي من الطائف أمر بغزوة الروم وتبوك، وذلك كان في رجب سنة تسع بلغ رسول الله ﷺ أنَّ الروم قد جمعت جموعًا كثيرة، وأن هرقل عظيم الروم قد رزق جيوشه لسنة وتأهب وتزوّد لقتال المسلمين.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأعلم الناس وعيَّن المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب ليستنفرهم وذلك كان في حرّ شديد، وجاء البكائون ليستحملونه فقال: لا أصلح ما أحملكم عليه، وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا، واستخلف على المدينة محمد بن سلمة وتحذر ابن أُبي وتخلّف أصحابه وتخلّف الثلاثة، فقدم تبوكًا في ثلاثين ألفًا ومعه عشرة آلاف فارس، وأقام بها عشرين ليلة ثم انصرف، وبعث رسول الله حاطب بن أبي بلتعه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ودعاه إلى الإسلام، فلما وصل أكرمه فأخذ كتاب رسول الله فأكرمه وأهدى إليه أربع جوار منهنَّ مارية وحمارًا يقال له عفير، وبغلة يقال له الدّلول، فلم يُسلم فقبل رسول الله ﷺ هديته واصطفى مارية لنفسه، فأتت بإبراهيم، وبقيت إلى زمن معاوية البغلة وكانت بيضاء صرفًا لم يكن في العرب يومئذ غيرها، وقد كان المقوقس يعرف أن النبي حق كما سمع من صفاته من أهل الكتاب، ولكن لم يؤمن.

وقد خرج إليه المغيرة بن شعبة قبل إسلامه فحدّثه بالنبي وظهوره وصفاته بأن يدعو الناس لله وحده لا شريك له، ويخلع ما كان يعبد آباؤنا ويدعو إلى الصلاة والزكاة وعرف الصلاة وعدد ركعاتها وعدد أوقاتها، وكذا عرف الزكاة وكميتها ونصابها وأنواعها ومصرفها ويأمر بصلة الرحم والوفاء بالعهد، ويمنع الربا وشرب الخمر، ويمنع أكل ما ذبح لغير الله، فقال المقوقس: هو نبي مرسل إلى الناس طرًّا، وأرسل إلى قيصر وكتب إليه: أصبح قيصر يومًا مهمومًا فقيل له: ما هذا الهمُّ، فقال: رأيت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر، فبينا هو في ذلك إذ أتى رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده، فقال: أيها الملك إن هذا الرجل من العرب يحدِّث بما حدث ببلاده أمر عجيب، فقال هرقل عظيم الروم لترجمانه: ما هذا الأمر؟ فقال: قد خرج من بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي فاتّبعه

الناس وخالفه آخرون.

وكانت بينهم ملاحم فتركهم على ذلك، فأمرهم هرقل بأن يفتش من قوم هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - فوجدوا أبا سفيان قد أتى بالتجارة في الشام وقد كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر عظيم الروم، ويدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه دحية الكلبي وأمره رسول الله ﷺ إلى عظيم بُصرى ليدفعه إلى قيصر فكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس جاء من حمص إلى إيلياء.

فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ بعد القراءة: التمسوا من قومه، فجاؤوا بأبي سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قد قدموا للتجارة، وذلك في المدة التي كان بين رسول الله عليه السلام وبين كفار قريش، فجاؤوا إلى قيصر وهو جالس في مجلس ملكه وعلى رأسه التاج، وإذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه: رتِّب بينهم وقدِّم رئيسهم، وكان أبو سفيان وسأله أنه أقرب بهذا الوجه الذي يزعم أنه نبي، فسأل أنه أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قال: وما قرابتك، قال: هو ابن عمي، قال: كيف نسبه؟ قال: هو نسيب. ثم قال: هل قال أحد منكم مثل هذا الكلام؟ قال: لا، قال: فأشرافهم اتبعوه أم ضعفائهم؟ قلت: بل ضعفائهم، قال: يرتدُّون أم يزيدون؟ قلت: يزيدون، قال: فهل يرتدّ أحد عن دينه؟ قال: لا، قال: فهل قاتلتم معه؟ قلت: بلى، قال: كيف كانت مقاتلتكم؟ قلت: لنا وعلينا. قال: فيم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصدق والتوحيد وبالصلاة والزكاة والصوم والجهاد والحج والعفاف والصدقة والشفقة على خلق الله وصلة الرحم، وتعظيم الوالدين والوفاء بالعهود، وأداء الحقوق والتعظيم لأمر الله، والمنع عن الربا، والكف عن الرياء والفتنة، وبإصلاح ذات البين، وأداء الأمانة. قال: هل يكذِّب ويفتري على الله؟ قلت: لا، فقال هرقل: هذه الأمور كلها من صفات الأنبياء ونعوت الأصفياء، وهذا الزمان هو زمان ظهور خاتم النبيين لكن ظننا أنه يخرج من بيننا لا من غيرنا، وما قلت إن كان حقًّا فسيملك موضع قدمي، والله لو رجوت أن أخلص لله لتجشمت لأقبِّل قدميه.

قال أبو سفيان: ثم دعا كتاب الله ورسوله فإذا هو: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتّبع

الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاء الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولّيت فعليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64].

قال أبو سفيان: فلما قضت مقالته غلبت الأصوات من الذين حوله من عظماء الروم، فلما خرجت مع أصحابي قال أبو سفيان: والله ما رأيت دليلًا مستيقنًا أن أمر محمدًا استظهر حتَّى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره، فكتب هرقل إلى رجل نحرير هذه المقالات، فكتب إليه ذلك الرجل النحرير أنه هو النبي الذي نحن نتربص ظهوره ووجدنا في كتابنا، فقال: يا معشر الروم إنه قد أتى كتاب الذي يدعوننا، والله إنه هو النبي الذي كنا ننتظره فلنتبعه.

عن دحية بن خليفة قال: وجهني النبي ﷺ إلى ملك الروم بكتابه وهو بدمشق، فناولته كتاب النبي، فاجتمع قومه فقام وخطب أصحابه فقال: هذا كتاب النبي الذي بشّرنا به المسيح من ولد إسماعيل بن إبراهيم، فقال دحية: بعث إليّ من الغد سرًّا فأدخلني بيتًا عظيمًا فيه ثلاثمائة وثلاث عشر صورة، فإذن هي صورة الأنبياء المرسلين، فقال: انظر أين صاحبك من هؤلاء، فقال: فرأيت صورة النبي ﷺ كأنه ينظر، قلت: هذا، قال: صدقت. فقال صورمة: مَن هذا عن يمينه، قلت: صورة رجل من قومه يقال له أبو بكر الصديق، قال: من ذا عن يساره، قلت: رجل من قومه يقال له عمر بن الخطاب، قال: إنّ الذي وجدت في الكتاب وأن يصاحبه هذين حتى يتمّ الله هذا الدين.

فلما قدمْتُ على النبي ﷺ أرسله الله فأخبرته قال: صدقت هو صدق بأبي بكر وعمر، لما أراد ملك الروم الخروج عن أرض الشام إلى القسطنطينية لما بلغ إليه من أمر رسول الله جمع الروم قال: إني عارض عليكم أمورًا فانظروا، قالوا: وما هي؟ قال: والله إن هذا الرجل نبي مرسل نجده في كتابنا ونعرفه بصفته. ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك عظيم فارس: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد بن عبد الله رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، فأدعوك فإني رسول الله إلى

الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين. وأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم الأريسيين عليك.

فلما قرأ كتاب رسول الله ﷺ شقّه وقال: أيكتب عليّ بهذا الكتاب وهو عبدي، فبلغه أن رسول الله ﷺ قال: اللهمَّ مزّق ملكه. حين بلغه أنه شقّ كتابه ثم كتب كسرى إلى بازان وهو على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلِدَين فليأتيني به. فبعث باذان قهرمانه وهو باتويه وكان كاتبًا محاسبًا، وبعث برجل من الفرس وكتب معهما، فخرجا حتى قدما الطائف فسألا عنه قالوا: هو بالمدينة. فقدما المدينة على رسول الله فكلَّمه باتويه وقال: إن شاه ملك الملوك كتب إلى باذان وهو قد بعثني إليك لتنطلق معي. قال: فقد حلقا لحيتهما وأعفيا شاربهما فقال عليه السلام: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا: أمرنا ربّنا - يعني كسرى - فقال عليه السلام: لكن أمرني ربّي بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي قال لهما: أرجئوا حتَّى يأتيان غدًا، فأتى الرسول الخبر من السماء إن الله سلّط على كسرى شيرويه فقتله في يوم كذا وشهر كذا. فلما أتيا رسول الله ﷺ قال لهما: إنّ ربِّي قتلَ ربَّكما ليلة كذا، وإنَّ ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الحفر والحافر. فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلم الأبناء من فارس من كان منهم باليمن، أبو بكر القرشي قال: جاء فيروز الدّيلمي إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كسرى كتب إلى باذان بلغني أن في أرضك رجلًا يتنبأ فاربطه وابعثه، فقال: إن ربّي غضب على ربّك، فقتله فخرج من عنده فسمع فأسلم وحسن إسلامه.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبَة: 38] وشهواتها وغرورها ﴿مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ﴾ [التّوبَة: 38] بدل الآخرة ونعيمها ولذّاتها ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التّوبَة: 38] والاستمتاع بها والاستنفاع بمنافعها ﴿فِي﴾ [التوبة: 38] جنب ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38] ثم أوعدهم على ترك الجهاد.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ [التّوبَة: 39] وتستبعدوا سخط عظيم على الميثاقين بالوعد بأنه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ [التوبة: 39] بالجزم جزاء للشرط، أي إن لا تنفروا إلى ما استقررتم إليه واستنفرتم لديه ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: 39] في الدارين بالسّبي والقتل والإهلاك والاستبدال بالعذاب الأبدي والعقاب السرمدي ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا

﴿غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: 39] وأصلح وأنجح منكم كأهل اليمن والفرس، بل الكل ممَّن عداهم حيث وقفوا لسعادة الإسلام والمطاوعة بأمر خير الأنام ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: 39] أي لا يقدح تثاقلكم وتكاسلكم في نصرة نبيّه شيئًا فإنه الغني عن كل شيء ومن كل أمر وغيّ. وقيل: الضمير للرسول أي ولا تضرُّوا أمر الرسول بتثاقلكم شيئًا في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 39] فيقدر على الاستبدال ونصرة دينه وإعلاء رتبته.

إشارة وتأويل

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ [التوبة: 30] أهل التشبيه من الأعيان الجمالية الذين اعتكفوا على شهود التجلّيات الإلٰهيَّة في مرايا الآثار والأجرام والأنوار والأجسام، وفي مقام الأطوار ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ أي الفرد الكامل من الأعيان الجمالية في فرداريّة حكم الجمال الذي مرآة جامعيته ومشكاة أنوار كليّته في المرتبة الثانية، وكان القدماء لا يتحاشون من إطلاق التولُّد والتوليد على الظهورات والإظهار وعن إطلاق الولد على الظاهر في المرتبة الثانية والأب على المظهر والخالق والمكوِّن والفالق ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ واعلم أن التولُّد والظهور أطوار منها أن تكون الفاعلية والقابلية متساوية، ومنها أن تكون الفاعلية غالبة والقابلية قهر. بالأول ظهر آدم، ومن الثاني عزير، ومن الثالث هو المسيح. والفاعل مظهر الجمال، والقابل مظهر الجلال، والجامع لهما هو الله، والظاهر بصورة آدم وذلك الحكم المذكور هو قولهم بأفواههم أي مجرد ظهورهم وإظهارهم نظرًا إلى النعوت والصفات الجمالية أو الجلالية الإفرادية لا الحقيقية الجامعة فإنها عين الظهور والإظهار في الحقيقة.

والمعنى لا يتصور فيها التكثير والتكرار إذ الذات والوجود عنى بالذات في ظهور النسب والإظهارات وتطرق الاعتبارات عن الأعيان كما تقرّر أن الذات كافية في تحقيق الكمالات الذاتيَّة والأسمائيَّة، بل في الهيئات الأفعالية والآثارية وما سواهما أشياع محض ونفي صرف لا ثبوت له أصلًا كما أشار إليه الشيخ الأعظم الشيخ محيي الدين: الحمد لله الذي خلق الأشياء وهو عينها. وهذا النظر دقيق لا يطبع عليه العقول المتشبثة بأذيال الوهم والخيال، فشرط الاطلاع

عليه هو التقدُّس بنور الله والتأيُّد. فالدليل على ذاته وصفاته هو ذاته كما صرَّح به آدم الأولياء علي المرتضى عليه السلام: يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزَّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملائمة كيفياته، يضاهئون قول الذين كفروا ويستروا بالعيون النورية والجمالية الوجودية والأكوان الظليّة العدمية الجمالية.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل هذه الدورة النورية أي هذا السرّ والكفر شبه التستر والكفر الذي سبق في الأدوار السابقة كما تقرّر من أن الأعيان النورية الوجودية والأكوان الصغرى الظليّة العدمية أظلال وأشباه متضاهئة متطابقة وأمثال متوافقة ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبَة: 30] في الدورة المنتقل إليها من الأدوار الإفرادية الجمعية بأن تنزل الأعيان من حال إلى حال، ومن أشكال إلى أشكال، ومن هيئة إلى هيئة أخرى أتمّ من الهيئات المتقدمة والنعوت والصفات المتعدِّدة، فإن الأعيان النورية والأحكام الظليّة محكمات وأحوالها وهيئاتها متشابهات.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ [آل عِمرَان: 7]، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ أي أحبار الأطوار القالبية والنفسية والقلبية على الأطوار الباقية التي هي مطايا التجليَّات الإلٰهيَّة والشهودات الغير المتناهية ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني اقتنعوا بعلم اليقين عن عين اليقين وحقّ اليقين، وآثروا الإدراكات الخطورية والعلوم الرسمية على الآثار والمشاهدات ومعاينة التجليَّات ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي الأعيان والأكوان ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي ليشاهدوا ذاتًا واحدة وحقيقة متَّحدة بصنوف المشاهدات وصنوف أطوار المعاينات، وأنوار المكاشفات ﴿لَّآ إِلَـٰهَ﴾ في تمام المراتب وعموم المآدب ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبَة: 31] ويعبدون بأنواع الاعتقادات الفاسدة والعبادات الكاسدة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي النور الكمال الجمعي وظهور الجمع الكمالي ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي الطور القابلي والنفسي والقلبي ومقتضيات من الأقوال والأفعال والأحوال ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبَة: 32] أي الأعيان المقيدة والأكوان المتقيِّدة بقيود احتجبوا بها عن شهود الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: 36] إثنا عشر شهرًا وإيثار هذا العدد للإشعار بأن الله لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهو عدد كامل دال على أن صنعه كاملٌ وعدّة الشهور ضعف عدد أصل الخلق دالّة

على أن الخلق كما في السماوات كاملًا كذلك في تدبير المخلوقات وتقديرها وتكميلها وتصورها كامل في الأدوار الأربعة النورية الإفرادية والأربعة الظلّية الوحدانية والأربعة الجمعية والمجموع إثنا عشر، والأربعة محرفات.

وأيضًا إن الذات الأحدية مع الأسماء السبعة الذاتيَّة والصورة الجمعية وهي مرتبة الآحاد أعني (طه) وهو آدم ط ح روه ب ادعه آدمه على عقود المركبات، وهي ثلاثة مبدأ ظهور الكثرات الإلٰهيَّة والكونية المجرّدات والمادية، هذا ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التّوبة: 40].

تفسير

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أقول: جملة شرطية إعلام من الله أنه هو المتكفل بنصر رسول الله وبإعزاز دينه وبإمداد دينه، أعانوا أو لم يعانوا، مع قلّة الأولياء وكثرة الأعداء وقوّة الخصماء ووفور شوكتهم ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من مكة طرف مكة ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ وقت إخراجهم إيّاه حين مكروا به وهمُّوا بقتله وما كان معه إلا واحد ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ وهو كهف وبيت في الجبل، وكن في الحجر بدل منه، إذ أخرجه بدل البعض من الكل ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبيّ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر الصديق، وهو بدل ثان أو طرف لثان أي أنت صاحبي في الغار وأنت صاحبي على الحوض، فمن قال إن أبا بكر لم يكن صاحب النبي فقد كفر لإنكاره كتاب الله وليس هذا لسائر الصحابة ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ولا تخف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة، فخوف الصديق ما كان على نفسه بل على النبي ﷺ إشفاقًا عليه حيث قال: «**إن أُقتل فأنا رجل واحد، وإن قتلت هلكت الأمة**»، ومنها الجماعة بكلّيتها، بل الدنيا وما فيها.

روي أنه حين انطلق معه إلى الغار كان يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال رسول الله ﷺ: **«ما لك يا أبا بكر؟ فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك»**.

روي عن أبي بكر قال: إني نظرت بين أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو نظروا إلى تحت أقدامهم لأبصرونا، فقال النبي عليه السلام: **«ما ظنّك باثنين الله ثالثهما»**، فلما تردّد المشركون حول الغار ما رأوا أحدًا في الغار.

قيل: لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت نسجت على بابه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أمنه الذي يسكن فيه عنده القلوب ﴿عَلَيۡهِ﴾ على محمد أو على صاحبه، وهذا النسب لكونه منزعجًا خائفًا حزنًا وكون الرسول آمنًا ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ الملائكة ليحرسوه في الغار، عطف على نصره ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي كيدهم وهمهم بعقله وإشراكه ودعوته إلى الكفر ﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ المقهورة المغلوبة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ بصرفه وصيانته وتأثيره أو التوحيد ودعوة الإسلام وإعانته ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ وإيثار الجملة الاسمية إشعار بأن كلّها لله في نفسها ثابتة ومستقلّة باقية مستمرة إلى يوم القيامة، كما قال علي عليه السلام: جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قاهر غالب على الأعداء ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40] في أمره وتدبيره وتأييد رسوله.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ ركبانًا ﴿وَثِقَالٗا﴾ مشاةً أو فقيرًا أو غنيًّا أو شبابًا وشيوخًا، أو نشاطًا وسباطًا، أو مسلحين، أو مريضًا وصحيحًا، ومستعدين لأن يقاتلوا ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبَة: 41] لما نزلت اشتدّ شأنها على الناس فنسخت بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبَة: 122] وبقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ [التوبَة: 91] الآية. ثم نزل في المتابعين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿لَوْ كَانَ﴾ ما يدعوهم إليه أي غنيمة قريبة التعاطي ودنية التناول ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ من عرض الدنيا وحطاماتها ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ هنيئًا سهلًا أو متوسطًا ومنتصبًا كالتّامر واللّائذ(*) وطريقًا مقصودًا، وتوصيف السفر به من باب عيشة راضية ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ووافقوك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ بكسر الشين وضمّها المشاقة التي يقطعها بمشقة، إذ المشقة هي السفر البعيد أو الغاية التي يقصدونها ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ في مقام الاعتدال في العود عن تبوك ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ وكان لنا استطاعة العدّة والبدن والأهبة ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وما تخلّفنا عنكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ باليمين الكاذبة وإيقاعها في العذاب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 42] في أيمانهم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يا محمد ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لدى استئذانهم بك في التخلُّف والقعود، كناية عن الخطأ في الإذن إذ العفو من روادفه ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الاعتذار، حتّى متعلّق بالجواب المحذوف، يعني أذنت حتّى يتبيّن ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: 43].

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي لا يطلب منك الإذن في التخلُّف ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين المخلصين الاستئذان في الأمر المقرّر المرغوب وهو الجهاد فضلًا عن التخلُّف عنه أو في كراهته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 44].

(*) التّامر: الذي يطعم التمر.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص بالله واليوم الآخر في الموضعين للإشعار أن الباعث على الجهاد، وتركه إنما هو حقيقة الإيمان. وأصله هو الاعتقاد بالله واليوم الآخر، والباقي من تفاريقهما ومن استكملهما انتفى عنه الارتياب والشك كما أشعر به بقوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45] ويتحيّرون.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ إلى الجهاد والغزو ونفود الرغبة وفرط الميل إليه بانتهاض الغيرة واهتزاز الحمية ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ وهيّأوا أسبابه ﴿عُدَّةً﴾ أهبة عدّة بحذف الياء لدى الإضافة، كما قيل: وأحلفوك عدَّ الأمر الذي فعلوا وعدة بكسر العين بإضافة وبغيرها ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ﴾ ولم يرد ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ وخروجهم استدراك عن مفهوم ولو أرادوا الخروج يعني ما خرجوا ولكن تثبطوا وامتنعوا عن الخروج لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهاهم وما أراد إخراجهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ وحبسهم القاعدين ومنعهم عن الخروج بالجبن والخوف والكسل والعوف ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 46] في البيوت مع النساء والصبيان والمرضى والشيوخ الأولياء كراهية الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو إحكام قول بعضهم لبعض، أو إذن لهم. والقاعدين يحتمل المعدودين وغيرهم على الوجهين لا يخلو عن ذم.

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئًا ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47] فسادًا، وبإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بغزو تبوك فضرب رسول الله عسكره على ثنية وضرب عبد الله بن أُبي على (ذو حدّة)

أسفل من ثنية الوداع ولم يكن بأقل العسكرين، فلما صار رسول الله ﷺ تخلّف عنه عبد الله بن أُبي فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الرّيب ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ سارعوا وأسرعوا ركابهم ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ وبينكم بالنميمة والتصريف والهزيمة والتفريق والتخذيل من وضع البعير وضعًا إذا أسرع، وأصل الخِلال من الخلل وهو الفرجة بين شيئين وبين العدم في الصف وغيره ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ بإيقاع الخلاف والمخالفة، أو بإلقاء الرعب في قلوبكم حال من ضمير أوضعوا ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ﴾ ومحبُّون ﴿لَهُمْ﴾ أو نمَّامون يسمعون منكم ويلقون إليهم ويؤدُّون المسموع لديهم، ويسمعون كلامهم ويطيعونهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: 47] وبأحوالهم وحالاتهم وبمؤدى مقالاتهم، وبمضامين كلماتهم وبضمائرهم ونيّاتهم.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ وطلبوا إيقاع الشرّ بينهم بصدّ أصحابك عن الدين وصرفهم عن الإيمان وكمال اليقين كما فعل عبد الله بن أُبي يوم أُحد ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ والنصر والفرصة والظفر وأوقع بينهم الغصة والضرّر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وشهر إعلاء دينه ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التّوبَة: 48] تسلية الرسول والمؤمنين على تخلُّفهم وبيان ما ثبطهم لأجله، وكره انبعاثهم له، وهتك أسرارهم وإزاحة عذارهم(*)، وإزالة معاذيرهم بغزو تبوك، قاله تداركًا لما قبل الرسول بالمبادرة إلى الإذن في التخلف ولذلك عوتب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ نزلت في جد بن قيس المنافق، وذلك أن رسول الله ﷺ لما تجهّز لغزوة تبوك قال: يا أبا وهب هل لك في جلاء الأصفر ـ يعني الروم ـ تتخذ منهم سراري، فقال وهب: يا رسول الله لقد عرف قومي إني رجل مغرم بالنساء وإني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا

(*) خلع فلان عذاره: انهمك في الغي ولم يستح.

أصبر عليهن، ائذن لي في القعود، فأذن له، فقد كذّب ما كان به عن بدر علمه بالإنفاق، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي لا توقعني في الفتنة ولا تؤثمني ببنات الأصفر ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ والشرك والنفاق والإثم ﴿سَقَطُواْ﴾ وقعوا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ﴾ وجامعة لهم ومطبقة ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: 49].

إشارة وتأويل

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي إن لم يوافق الأعيان النورية الأكوان الظليّة ولم يدخل تحت حيطة الأعيان النورية الجلالية، يعني إن لم يوافق المولود الجني الذي مرتضى الظلّ والجلال المولود الإنسي الذي هو مقتضى الجمال أو الأطوار السافلة أي القالبي والنفسي والقلبي، إن لم يدخل تحت سلطنة العالية وهي السرِّي والروحي والخفيّ والحقيّ بالطوع والاقتضاء ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أدخلها الله بالقدرة الكاملة والقوة الشاملة والجذبة الرحمانية تحت سلطتها ومرتضى تطابقها ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: 40] وهم الأكوان الظليّة الجلالية مقتضى النور والجمال عن مكة الصورة الجمالية الجمعية الأحدية التي هي موطن الحقيقة المحمدية ووطنها الأصلي إشارة إلى تفاوت الحالات والعارفين ومقامات الواقفين الغير الواقفين، إذ ربما تغلب سلطنة الجذبة الإلٰهيَّة ويوصله إلى مقام الكليَّة والتحقق والبقاء بالله بعد الفناء في الله في مقام التوحيد الذاتي والأسمائي والأفعالي والآثاري والصورة الجمعية والهيئة النوعية، هذا إذا كان السير من الله.

وأما إذا كان السير إلى الله فالأمر ينعكس، وأما السائرون في الله في جمعية الأدوار والأكوار ومعية مقتضاهما فيقصر في كمال جمعيتهم وكمال معية أحوالهم تمام هذه الحالات وعموم مرتضيات جميع المقامات فلا يغيب عن حيطة أحديّته الجمعية شيء من مقتضيات الأدوار النورية الوجودية ولا من مرتضيات الأكوار الظليّة العدمية. والمراد من الصاحب هو الجمعية الإفرادية النورية الجمالية المندرجة في حيطة جمعية الأدوار النورية والأكوار الظليّة المجتمعة مع الحقيقة المحمدية في غار الجبروت والواحديَّة ودار الملكوت أو في غار الناسوت ودار الصورة النوعية البشرية، والهيئة العنصرية، فإن الحقيقة المحمدية بتمام أمّته وهي تمام المكونات وعموم الموجودات، وهي الأنبياء كلهم سارية في جميع الإلٰهيَّة والكونية المكونيّة، والبرزخية والملكية والناسوتية.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي إن ثالثنا في غار التعيُّن

البصري ودار التكوُّن المعنوي والصوري أن الله ثالث ثلاثة وما من إلٰه إلا إلٰه واحد ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي على كل واحد من الحقيقة المحمدية وما يتبعها من الأعيان التابعة والأكوان الشائعة لها ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي التجليّات الوجودية والظهورات الشهودية ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ أي المولود الجني والمعهود وكلّمه بعين المولود الإنسي الذي هو روح الله كما قال في عيسى الرُّوح: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء: 171] القوة القابلة ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ لي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قاهر غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40] عليم بالأعيان النورية والأكوان الظليّة وحاكم عليهما وعلى كيفيَّة اندراج الظلّ في النور والنور في الظلّ، وعلى اندراجها في الصورة الجمعية والهيئة الكليّة في الأدوار والأكوار والجمعية وجمعية الجمعية، واستخرج معاني الآيات الباقية والكلمات الساقية.

تفسير

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠﴾

هذا ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ يريد القتال والهزيمة ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ حتَّى تجلبنا ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: 50] يريد وهم مسرورون بما أصابكم من القتل والهزيمة كما قال في سورة آل عمران: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ﴾ يريد النصر والغنيمة ﴿تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: الآيتان 118 - 119] يريد من القتل والهزيمة.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ يريد ما قضى الله لنا من الشهادة ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ يريد ناصرنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: 51] يريد الذين صدّقوا الله وصدّقوا الرسول.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ يريد هل ينتظرون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ يريد الغنيمة والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ يريد ننتظركم ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يريد بقارعة من السماء ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ يريد يأذن لنا ربّنا في قتلكم فنقتلكم ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ يريد فانتظروا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التّوبَة: 52] يريد إنا معكم منتظرون لحزنكم.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ يريد طائعين أو كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ يريد أن الله تبارك وتعالى لا يتقبل من أعدائه نفقاتهم يريد صدقاتهم وإن كان كثيرًا ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [التّوبَة: 53] يريد عاصين لله على غير طريقة الإسلام.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ يريد إن كان في جماعة صلّى، وإن كان وحده لا يصلّي. يريد إن صلّى لم يرجو لها ثوابًا وإن تركها لم يخف عليها عقابًا ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ يريد يتصدقون ﴿إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التّوبَة: 54] يريد لا يصدقون.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ يا محمد ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ يريد كثرتها ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ [التّوبَة: 55] يريد إن إصلاح أولادهم لأنفسهم وهم لا يغنون عن هؤلاء من الله شيئًا يريد إن

أولادهم يغنون من الله بمنزلة حنظلة بن أبي عامر غلبه الملائكة.

وسئل عبد الله بن أبي سلول شهد بدرًا وكان له من الله مكان في النصرة واليقين وهم يسير كثير صالحون وبرايا من النفاق(*) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يريد وتموت أنفسهم ﴿وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ يريد إنهم ليسوا بأنصار ولا ذوات كرامة ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: 56] يريد يفرقون منكم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ مهربًا على وجه الأرض ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ بيوتات منحوتة في الجبال والأحجار وفي الأراضي والأشجار ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: 57] مثل ما يجمح الفرس.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ يريد يغتابك ويوافقك في الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58] ويغضبون ويمتنعون من المتابعة والموافقة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ثم ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: 59] ولكن غلب عليها الفسوق ولم يحيق الإيمان ولم يثبت في قلوبهم فيتوكلوا على الله حق التوكُّل.

هذا ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ أقول: من النصرة والظفر والغنيمة في بعض الغزوات ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم أي الكافرين المنافقين لفرط حسدهم وكمال بغضهم

(*) هكذا وردت العبارة في الأصل المخطوط.

وكثرة عداواتهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: 50] مضرّة قتل وشدّة مرض وموت لشدّة بغضهم وحدّة نفاق بعضهم وكثرة عداوتهم كما وقع في أُحد يقولون: قد أخذنا حذرنا عن الغزو وخرقنا في العقود وترك الخروج وترك التخلُّف من قبل أي قبل وقوع المصيبة ويتولُّوا ويدبروا ويعرضوا عن محمد وأصحابه وهم في إحذارهم وحذرهم ووقوع المصيبة عليهم في حول مبهجون ومسروررون.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51] وعلينا بعلم القدرة من ذوات تدبيره في اللوح المحفوظ من الخير والشرّ والنفع والضرّ في البحر والبرّ للفاجر والبارّ، هو مولانا وناصرنا وحافظنا وهو ولينا وأولانا من أنفسنا حال الحيرة والممات ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51] لا على غيره لأنه مولاهم وحافظهم ويتولى أمرهم.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أيها المنافقون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ في الدنيا العافية النصر والغنيمة والشهادة والمغفرة. قال عليه السلام: تكفل الله لمن جاهد في سبيله ولا يخرجه من بيته إلا للجهاد في سبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعوا إلى مسكنة الذي منه مع ما قال من أجر وغنيمة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءتين ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من عنده لإهلاك كإهلاك الخالية الماضية بالبلدان النائية بقرع الصواعق ولمع البوارق بإرسال ريح صرصر كقوم عاد وثمود وصالح وفرعون ونمرود، أو بأيدينا وبأيدي المؤمنين ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ إهلاكنا فإن الشيطان يمني المنافقين والمشركين بموت الرسول والمؤمنين وبهدم بنيان الإسلام والدين ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: 52] مواعيد الحق من إظهار الدين وإشهاد أحوال أهل اليقين، واستئصال مخالفتهم إلى يوم الدين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنفِقُواْ﴾ أمر من الإفعال بمعنى الشرط والجزاء، أي إن أنفقتم ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نزلت في جد بن قيس حيث استأذن للعود قبل الإعانة بالمال بالإنفاق ليخفي آثار النفاق ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ عند الله وعند الرسول فلا يدفع عذاب الدنيا والآخرة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 53] ولعلّ القوم قد خرجوا على علي وخالفوه في خلافته وقاتلوا ظنًّا منهم أن عليًّا قد كفر حيث صالح معاوية ورضى بالصلح معه عند جعل الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص حَكَمًا بينهم وصالحوا بترك القتال سنة.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ

﴿ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبَة: 54] متثاقلون وكارهون وكاهلون، ولا يرجون على أدائها ثوابًا، ولا يخافون على تركها عقابًا.

فإن قيل: كيف ذمّ الكسل في الصلاة ولا صلاة لهم أصلًا؟ أجيب بأن الذمّ متعلّق بالكفر الباعث على الكسل، يعني ليس الصلاة مع الكفر لأنه مكسل والإيمان منبسط ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: الآيتان 4 - 5] الآية ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبَة: 54] لأنهم يعدُّونها خسارة ومضرّة ليبيّن ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ ومسرّتهم بها ونهجتهم منها لأن العبد إذا كان في استدراج ومكر من الله كثّر الله ماله وولده وجاهه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ أي بالمال والولد والجاه والتعب في تحصيلها أو حفظها والغصة عند زوالها بالإنفاق والفوت والتلف، والموت في الحياة الدنيا، وزهقت أنفسهم وخرجت عن البدن وانقطع تعلقاتهم ﴿وَهُمْ﴾ أي والحال أنهم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [التوبَة: 55] أي يموتون على الكفر فإمهالهم في تلك المدة بأن يجمعوا الأموال ويكتسبون الأولاد والأحفاد ويهمون في تحصيل الجاه، وكانت أموالهم تتزايد شيئًا فشيئًا وتتضاعف يومًا فيومًا مع تمكُّنهم في الكفر والإشراك والمعصية واستحكامهم فيه، فيكون في حقّهم استدراجًا ومكرًا.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ويأسون في دينكم وعلى دينكم ومن جملة خلّص المؤمنين وما هم والحال أنهم ليسوا منكم ولا يثبتون على دينكم ولا يتدرجون في زمرة المؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبَة: 56] يتخافتون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الإسلام باللسان تقيّة لأنفسهم وبقية لأحكام تحبسهم وأعلام تفحصهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حِرزًا وحصنًا ومنجأً أو مغارات جمع مغارة وهي الموضع الذي يعود فيه ويتفحص من الأرض أو مدخلًا اسم مكان من الافتعال من الدخول على وزن المفعول، فإن أسماء الأمكنة من المزيدات إنما تكون على موازين المفعولات ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ قبلوا وتوجهوا لديه أو لأدبروا وتراجعوا إليه هربًا منكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبَة: 57] يسرعون إسراعًا إليه لا يردّهم شيء منهم، مأخوذ من الفرس الجموح وهو الذي إذا حمل لم يطمع برد اللجام.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يعيبك في نفسها ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ وسكنوا عن الإلماز والعيب ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبَة: 58]

ويغضبون. نزلت في ذي الحويصة اليمني واسمه حرقوص بن زهير أصل الخوارج، أتى رسول الله ﷺ حيث يقسم غنائم حنين وهو يعطف قلوب أهل مكة فقال: إعدل يا رسول الله، فقال الرسول ﷺ: «**ويلك ومَن يعدل إذا لم أعدل أنا! قد خسرت وخنت إن لم أعدل**». فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فيه أضرب عنقه، فقال عليه السلام: «**فإن له أصحابًا يحقِّر أحدكم صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة**». وهو رجل أسود في إحدى يديه مثل ثدي المرأة، فقال عليه السلام: «**فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم**».

قال أبو سعيد: أشهد أن عليًّا رضي الله عنه حين قتلهم وأنا معهم جيء بالرجل الذي بعثه رسول الله ﷺ فلو أنهم رضوا وقنعوا بما آتاهم الله ورسوله قسمة لهم وقالوا: حسبنا الله وكافينا الله سيؤتينا من فضله ورسوله ما يحتاج إليه ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يوسع علينا من فضله فيغنينا من الصدقة وغيرها من أموال الناس جواب لو محذوف أي لكان خيرًا لهم وأعوذ عليهم.

إشارة وتأويل

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ﴾ إشارة إلى تغاير مقتضيات الأطوار النورية الصريحية والمرتضيات الظليّة الضمنية، يعني بأحقية الحقائق والحقيقة المحمدية السارية في مظاهر أعيان الأدوار النورية الكنانية الرحمانية المتضمنة للأكوان الظليّة المضمنية الشيطانية التي تخالف مرتضى أدوارها إذ ارتضائها هو الخفاء والإخفاء لا الظهور والإظهار حسنة أي إظهار التجلّي الذاتي لتساهم أي تخفي الأعيان النورية وتستر الأكوان الظليّة التي تكون من مقتضيات الأسماء والصفات، وذلك لأنَّ التجلّي الذاتي هو ظهور الذات لذاته بذاته في أحدية الذات يختفي فيه جميع الأعيان وتمام الأكوان.

﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ أي خفاء ذلك التجلّي ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ هذا الخفاء والإخفاء في الدرّة الضمنية الظليّة ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن موافقة حصة الحقيقة المحمدية الظاهرية في تلك المظاهر ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ [التوبَة: 50] بهذا الإخفاء لموافقة أعراضهم.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في الفطرة الأولى، في بداية هذه الدورة ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ [التوبَة: 51] وحافظنا في النشأة في المراتب والأدوار

والتوراة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [التوبة: 51] المؤمنون في تمام الأدوار وعموم الأطوار في جميع الأكوار.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي التجلِّي الذاتي الجمالي يقتضي البقاء الذاتي، والتجلِّي الذاتي الجلالي الذي يرتضي الفناء في الله أو التحقيق بالذات بتمام الأسماء والصفات والأفعال والآثار والتخلُّق بها، أو بمقتضى الدورة النورية الجمالية، وبمرتضى الكورة الظليّة الجلالية ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ شيئين، إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ بإفنائه إياكم في ضمن البقاء في الله ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ في تبديل الأخلاق الوديّة بالاستعلاء والمرضية. فتربصوا أنتم بأحوالنا في الكمالات الجمعية الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ في الوجود الكوني واليقين العيني الإفرادية ﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التّوبَة: 52] أحوالنا بأحوالكم.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ على مقتضى الحكم الظليّ الضمني بأموال العلوم والإدراكات الحصولية والدرايات الحضورية التي هي عكس العلم النوري والإدراك الحضوري، أعني الجهل والافتراء والكذب والحيل والمكر والإغواء والإضرار والإضلال على العلم التقليدي إلا ضرارًا وكرهًا على مقتضى حالة الحكم النوري حكم الظليّ لدى تبديل الأخلاق وتعديل الأوصاف بأن يبدلوا تلك الأوصاف والأحوال الظليّة المشار إليها إلى الأحوال والأحكام النورية يعني الجهل إلى العلم والافتراء، والكذب إلى الصدق وغير ذلك ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 53] خارجين عن مقتضى حقيقتكم لأن حقيقتكم مجبولة على الخفاء والإخفاء لا الظهور والإظهار.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ وخرجوا عن مقتضى حكمهما لأنهما حكما عليهم بالإخفاء والخفاء ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي الصلاة الجمعية والهيئة الكمالية ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التّوبَة: 54] أي لا لكمال التوحيد لنقصان فطرتهم ولذلك أخلفوا وصار حكمهم ضمنيًّا فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم من حيث الكثرة والتنوع، أما كثرة الأموال وهي الجهل وما يرادفه ويعاطفه وهو الافتراء والكذب وغير ذلك فظاهر أن العالم والعارف معدود والجهّال غير معدودة وغير محصورة، وكذا المؤمن الصادق والكافر الكاذب المنافق، وأما الأولاد فإن كان العطف للبيان فظاهر، وإن كان غيره فإن الأعيان الظليّة والأكوان العدمية وهي الأهوائيات والأغوال والشياطين والجان فإن هذه

الأعيان في أنفسهم كثيرة، وإن توالدهم دفعي ليس كتوالد الأعيان النورية الجمالية لكونها متأخرة في الوجود، ظاهرة في الشهود، يكون تولُّدهم مشروطًا بشروط كثيرة، فتكون أقلّ من توالد الأكوان الظليّة العدمية.

وكذا توالدهم ليس كتوالد الإنسان والحيوانات والنباتات أو توالد الأعيان الظليّة لكونهم بسائط عدمية بما يكون بالنفخ ونفث النفس في النفس القابلة، فيظهر منه واحد منها في ساعة واحدة وأعيان كثيرة كما ورد في الخبر، وربما تتحقّق الأعيان النورية بما هو ثابت في الأكوان الظليّة كما ورد لي، فإنه بعد أن صاحبت الجني وأمرني الله أن أدعوه إلى الله ودّ بتكميله واستكماله وتحقّق بالكمالات الإنسية قد ناكح ابنته لي فباشرته بالنفخ فيها تولد منها عشرون مولودًا، وتولّد من كل منها أولاد غير متناهية. وذلك لأن النتيجة تابعة لأخسّ المقدمتين.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في الفرداريّة النورية بأن جعلهم تابعين للأعيان النورية ﴿وَتَزْهَقَ﴾ وتخرج ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: 55] عند غلبة الأحكام النورية في التعديلات الخلقيّة، وعند انتقال حكم فرداريّة الحكم والربية من دورة نورية إلى دورة نورية أخرى. فإن في هذا الانتقال، وإن هلكت الأعيان النورية مع الأكوان الظليّة، إلا أن الأعيان الكاملين من الدورة النورية لا يهلكون أبدًا لتحقُّقهم بالذات بتمام الأسماء والصفات في تمام الدورات والكورات فيكون تصرفهم بعينه هو تصرف الحق وتصرف الحق هو تصرفهم بطريق البروز.
قال آدم الأولياء علي المرتضى: «أنا الذي عندي مفاتيح الغيب بعينها لا بعد محمد غيري، أنا بكل شيء عليم، أنا صاحب موسى والخضر وبتعلُّمهما، أنا منشأ الملكوت في الكون، أنا الباري، أنا المصوِّر في الأرحام، أنا الذي أبرأ الأكمه والأبرص، وأعلم ما في الضمائر، أنا النقطة التي ضرب الله بها، أنا الحجر الذي انفجرت منها إثنا عشر عينًا»(*) **انتهى**.

(*) يتكلم بلسان الجمع يعني في الحادث الذي لم يكن الذي هو على المتوهم وبقي من لم يزل وهو الحق المتحقق لا أنه عليًّا صار إلٰهًا إنما الحق يتكلم على لسان علي ويسمى مقام الفناء أو مقام الجمع. إنما كان الإمام علي وارثًا محمديًّا متحققًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، وهذا شأن جميع الأولياء الوارثين للحقيقة المحمدية.

لأنهم قد تحقَّقوا بالحياة السرمدية وهي الصورة الجمعية الكاملية، نعم إن الكاملين من الأكوان الظليّة وإن تحققوا بالحياة السرمدية أيضًا إلا أنهم في الدورة النورية تابعة للكاملين في الدورة، فإذا انتقلت الفرداريّة من النورية إلى الظليّة انعكس الأمر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ باللسان الحاليّ والترجمان الغيبي ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ لدى مطاوعتهم إياكم وإطاعتهم عند التبديل المذكور ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في الحقيقة والماهية وأحوالها ومقتضى لوازمها ومرتضى عوالمها ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التّوبَة: 56] ويخافون عند التبديل وتحسين الأوصاف فتشايعوا في الظاهر لكن مقتضى حقيقتهم لا ينفك عنهم أصلًا وإلا لانقلبت الحقائق وارتفع التميُّز والتحق النور بالظلمة، والتصق الظلّ والظلمة بالنور في الأدوار الإفرادية المتميِّزة الاقتضاء، أو مخالفة الارتضاء، لأنهم ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ حالة التبديل ولدى الأدوار الإفرادية أو الجمعية الإفرادية الجمالية والجلالية ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ أي لعادوا واستدبروا لديه ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ في الأكوار الجلالية الظليّة إلا أن المتمرِّد في الفرداريّة الجمالية هي أعيان الجلال، وفي الجلالية هي أعيان الجمال عند استبدال الحكم وانتقال الأدوار إلى الأدوار، وارتحال أحوال النقطة والشهود لسلطنة النوم والحُلُم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التّوبَة: 57] لعقودهم بالنفار والتباين والاستنكار لتخالف حقائقهم وتغاير طبائعهم بحقائق إيمان الجمال.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في صرف فضائل أموال العلوم والإدراكات باستيلاء القوة الواهمة، فإن القوة الوهمية هي من مظاهر أحكام الجلال، والقوة العاقلة من مجال أطوار النور والجمال، فإذا دخل حكم الوهم في مدارك أحكام القوة العاقلة من محال أطوار النور والجمال أفسد الحكم والرأي لديها ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ أي من صدقات الفضائل العلميّة والعملية على وجه اقتضت طبائعهم ﴿رَضُواْ﴾ وإلا لاستدبروا أو عاضوا ومرضوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التّوبَة: 58] ويتمردون بالكليّة عن إطاعة حكم القلب وتكراره.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ عند التبديل والاستبدال من الطور الجمالي إلى الطور الجلالي، والحكم الجلالي وبالعكس ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التّوبَة: 59] بشهود جماله

طالبون على ما يقتضيه أصل الفطرة الإسلامية «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه**».

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: 60] الفقير المحتاج المتعفِّف عن المسائلة، والمسكين هو السائل المحتاج.

عن ابن عمر رضي الله عنه: الفقير مَن جمع الدراهم والمأكولات، ولكن من أنقى نفسه عن المسألة، وثيابه عن البذلة والأوساخ لا يقدر على الشيء من الدنيا ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 273] قال بعض: الفقير المحتاج الزمِن، والمسكين صحيح محتاج. أو الفقير من المستكن السكين من أهل الكتاب. روي أن عمر رضي الله عنه رأى كفيفًا مطروحًا على باب المدينة، فقال له: ما لك؟ قال: استرني في هذه الحالة الخربة فليس لي أحد يعول عليّ شيء. فقال عمر رضي الله عنه: ما أنصفت إذًا، فأمر له بقوته وما يصلحه من الصدقات. قال الشافعي رضي الله عنه: الفقير من لا مال له ولا حِرفة تقع منه موقعًا زمنًا كان أو غير زمِن. والمسكين هو المحتاج إلى كل شيء. قال بعضهم: المسكين من لا مال له ولا حرفة تغنيه سائلًا كان أو غير سائل. قيل: الفقير هو المحتاج وله المسكن والخادم، والغني الذي يمنع أخذ الصدقة. فالأول هو مَن يكون له مال يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي. وقال أصحاب الرأي: هو أن يملك مائتي درهم أو خمسين درهمًا أو أربعين درهمًا، فكل ما وجد من هذه المذكورات في حد الفقير، والمسكين في أخذ فهو يستحق الصدقة وما وجد في حد الغناء فهو يمنع الصدقة.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السعاة الذين يتولون قبض الصدقات وجمعها من أهلها ووضعها في موضعها ومستحقِّيها سواء كانوا فقراء أو أغنياء، جزاء لأعمالهم وهو الثمن ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 60] وهم الصنف الرابع من

المستحقين للصدقة، وهم قسمان: قسم مسلم وقسم كفار.

أما المسلمون فقسمان:

قسم: دخلوا في الإسلام ونيّتهم ضعيفة، وكان ﷺ يعطيهم تألُّفًا لقلوبهم كما أعطى عيينة بن حصين والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وأسلموا ونيّتهم قوية في الإسلام فهم شرفاء وفي قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان يعطيهم تألُّفًا لقومهم وترغيبًا لأمثالهم في الإسلام، فيعطيهم الإمام من خُمس خُمس الغنيمة والفيء وسهم النبي، وكان النبي يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات.

والقسم الثاني: قوم من المسلمين بإزاء قوم من الكفار في موضع مناءٍ لا يبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤونة كثيرة، فيعطيهم الإمام من سهم الغزاة من الصدقة، وقوم بإزاء قوم من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة ويحملون إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات. روي أن عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه ثلاثين بعيرًا، وأما الكفار من المؤلفة فهو من نخشى شره أو يرجى إسلامه، أما اليوم هذا فقد أعزّ الله الإسلام فسقط سهمهم. ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وهم الصنف الخاسر، فهم المكاتبون لهم سهم من الصدقة ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وهم قسمان أدانوا لأنفسهم في غير معصية فلهم من الصدقة سهم إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، وإن كان فالإنفاق في المعروف وإصلاح ذات البين، فلهم من الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء.

قال عليه السلام: «**لا تحلّ الصدقة لغني إلا لخمسة: الغازي في سبيل الله، وغارم، ولرجل اشتراها بماله، أو رجل له جار مسكين فتصدّق على المسكين للغني، وعامل عليهما هم المجاهدون**».

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعطون من الصدقة قدر النفقة والكسوة والسلاح، وإن كانوا أغنياء ولا يعطون للحاج وعليه الأكثرون.

قيل: في بناء المقاطر والمصانع، والثامن ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60] كأنه سيّره لأمر مباح لا معصية كقطّاع الطريق، يعطى لهم قدر ما يقطع به المسافة من الزاد والكسوة والراحلة إن احتاج إليه سواء كان له في بلده مال أو لا. قال

بعضهم: هم الضيف والآخرون هم الحاج المنقطع ﴿فَرِيضَةً﴾ واجبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ نصبها بفعل مقدم صدر الآية أي فرضت الصدقات لهؤلاء الأصناف فريضةً وهي مصدر أو حال من الضمير المستكن في الفقراء. وقرأت بالرفع على الخبرية محذوف مبتدؤها أي تلك فريضة والعدول الأخيرة من اللام إلى (من) إيذانًا بأن الاستحقاق فيهم أرسخ وهم أحقاء لأن توضع فيهم. وقيل: لأن الاستحقاق للجهة لا للرقاب.

اختلف العلماء في كيفية الصرف، قال الشافعي: يجب أن تقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستة الثابتة سهامهم قسمة على السواء، هذا إنما يكون إذا تولى ربّ المال قسمتها على هذه الأمثال الأصناف الستة إذ سهم المؤلفة والعامل قد سقطا، فإن تولى الإمام فعلى سبعة أصناف وأيًّا ما كان لا يجوز أن يعطى لكل صنف منهم أقلّ من ثلاثة، ولو أعطى بالتفاوت يجوز إن لم يجد من بعض الأصناف إلا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدّ الاستحقاق، فإن انتهت حاجته وفضل شيء ردّه إلى الباقين. وذهبت الأئمة الثلاثة وبعض من أصحاب الشافعي إلى أنه يجوز أن يصرف الكل إلى صنف واحد وإلى شخص واحد منهم.

والقصد من الآية أن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف الثمانية لإيجاب قسمتها عليهم، وعلى هذا أفتىٰ المتأخرون. واختلفوا في نقل الصدقة من بلد إلى موضع آخر مع وجود المستحقين فيه، فكره أكثر العلماء لما روي أن رسول الله ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن فقال له: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب فادعوهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإنهم إذا أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة أموالهم بواحد من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإنهم إن أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**». واتفقوا مع الكراهية على أنه إذا نقل إلى بلد آخر سقط الفرض عنه إلا ما حكي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه ردّ صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالصدقات وكيفية قسمتها ﴿حَكِيمٌ﴾ [التّوبَة: 60] ويحكم ما يريد من وضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقولون ما لا ينبغي في حقّ النبي ﷺ، ولا يتحرّى ولا يليق بشأنه، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنّا نبلغه ما يقولون في حقّ النبي ﷺ، فقال بعضهم: نقول ما شئنا فإذا آتيناه تصدّقنا وأخبرنا بما نقول، فإن محمدًا أذنٌ سامعة أصله من أذن يأذن أي سمع يسمع كأنه قيل: نعم ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ لكم نِعم الإذن ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ قرأ بالإضافة، أي أذن هو خير الآذان، تصديق لهم بأنه أذن لكن لا على الوجه الذي رموا به بل من حيث إنه يسمع كلام الخير والرحمة والحق ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع عطف على خبر مرفوع على قراءة أذن على أنه خبر مبتدأ محذوف. نعم أنه أذن إلا أنه هو خير لكم ورحمة يرحم عليكم بأن يسمع كلامكم في حقّه ولا يكشفه بل يسرّه مع سائر أسراركم وباقي أخباركم في مذمته ونفيه وقدحه أي هو خير ورحمة ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ﴾ أي لمن أظهر الإيمان وتقبل منه ذلك الإيمان، ولا يكشف سرّه يعني يقبل إيمانهم بجهلهم بحالهم، بل هو متوقع، هذا رفقاء بكم ورحماء عليكم قرأ بالجر عطف على (خير منكم) من غير تصريح بكم وفوّض أمرهم إلى الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التّوبَة: 61] بإيذائهم وكمال نفاقهم.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

فإذا حضروا لديك ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ معذرةً مما قالوا وظهر للنبي وأصحابه ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، فرد الله عليهم بما قالوا من المعاذير ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي أحقّ الإرضاء والاسترضاء بالطاعة بالإخلاص والوفاء الخاص وتوحيد الضمير إشعار بأن إرضاء الحق هو إرضاء رسوله وبالعكس ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التّوبَة: 62].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ أي إنسان، وقرأ بالخطاب ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ويخالفه ويشاقه فإنه من المحاددة على وزن المفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقاق، والشقاق هو كثرة الخلاف وشدّة المخالفة كما ورد في الحديث: «**كثرة الوفاق نفاق، وكثرة الخلاف شقاق**»، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ على حذف الخبر أي فحق أنَّ له نار جهنم.

قيل معناه: فله، وتكرار إن لتوكيد أنه، ويجوز أن يكون معطوفًا على أنه جواب من محذوف تقديره: ألم تعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الجهنمي هو ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63] والإهلاك اللازم، والإهلاك الدائم، والفضيحة التامَّة، والوقيحة العامَّة.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين الموافقين ﴿سُورَةٌ﴾ من السور القرآنية بواسطة الرّسول ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ [التّوبَة: 64] أي في قلوب المنافقين، يعني ذلك أن تلك السورة النازلة يُخبر المؤمنين أي في قلوب المنافقين كيت وكيت ويذيع أسرارهم التي يخفيها عنهم ﴿قُلِ﴾ يا محمد في تفضيح المنافقين ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ ومُظهر ومُنزل من اللوح المحفوظ ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التّوبَة: 64] من إنزال الرسول أو تحذرون إظهار مساوئهم واشتهار فضائحهم.

نزلت في إثنا عشر رجلًا من المنافقين وقفوا على العقبة لقصد رسول الله ﷺ لما رجعوا من غزوة تبوك ليفتكوا به إذ علاها ومعهم رجل مسلم يخيفهم شأنه في ليلة مظلمة، فأخبر جبرائيل رسول الله لما قدَّروه وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار وياسر يقودان برسول الله تعالى، وحذيفة يسوق به وجوه رواحلهم فضربها حتَّى نجاهم، فلما نزل الحذيفة قال: مَن عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدًا. فقال النبي ﷺ: كان فلان وفلان حتَّى عدّهم كلّهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ نُزلت في ثلاثة نفر من المنافقين، اثنان يستهزآن بالقرآن والرّسول والثالث يضحك قائلين بأنَّ محمدًا يزعم أنه يغلب الرُّوم ويفتح مدائنهم، فأطلع الله نبيّه فقال عليه السلام: احبسوا على الرّكب، فدعاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنَّا كنا نخوض ونلعب لقطع الطريق علينا. قال ابن عمر رضي الله عنه: لقد رأيت عبد الله بن أبي سلول يسري قدام النبي وينكب الحجارة وهو يقول: إنا كنَّا نخوض ونلعب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التّوبَة: 65] مقسِمًا بالله وبآياته كنتم تستهزؤون.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بما أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ ونتُب عن طائفة يعني واحد ﴿مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ وواحدًا منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التّوبَة: 66] بالاستهزاء، فالذي عفى عنه من الرجال الثلاثة المذكور هو الذي كان يضحك، فإنه تاب وقبل الله توبته قائلًا: اللهمَّ إني لا أزال أسمع آيةً تُقرأ فتقشعر منها الجلود وتحتُّ منها القلوب، اللهمَّ وفاتي قتلًا في سبيلك.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم﴾ نشأ وظهر ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾ كأنهم شخص واحد في أمر النفاق ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ والمعصية والنفاق ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ والإيمان والطاعة والوفاق ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ ويمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله، وانصرفوا عن الخيرات بالجمعية والإنفاق، فلا يبسطونها على الخير بالوفاق ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا طاعة الله وطاعة رسوله فترك الله إيّاهم

على الكفر والعصيان ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] الخارجون عن طاعة الله إلى المعصية والكفر وإخفائه.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ من المشركين وأهل الكتاب ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ﴾ وكافيهم عذابًا وجزاءً على كفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾ وطردهم ﴿ٱللَّهُ ۖ﴾ وبعّدهم من رحمته ووفور رأفته ودرور نعمته وكمال مغفرته ﴿وَلَهُمْ﴾ في لعنهم وطردهم ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 68] دائم غير زائل عنهم طرفة عين، فهؤلاء المنافقون فعلوا من أمر المعصية والنفاق.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

والمنافقين ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ أصرُّوا على الكفر والعصيان ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفعلوا ما فعل الله بهم ما فعل من اللّعن والطرد وإنزال العذاب ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ وبطشًا ومنعة وقدرةً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ وأوفر جدالًا وعِنادًا ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾ وتمتَّعوا وأنفقوا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وسهامكم ونصيبكم من الدنيا وحطامِها بإشباع الشهوات واستيفاء الحظوظ واللّذات ورضوانها عوضًا عن الآخرة ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ أيها الكافرون والمنافقون ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وتقلّدتم إيّاهم وسلكتم اسم سبيلهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والكذب على الله وتكذيب رسوله والاستهزاء بالمؤمنين وكتاب الله﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ﴾ [التوبة: 69] فيما ذكر. قيل: الذي هنا بمعنى الذين كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17] الآية، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ وضاعت عبادتهم وأفعالهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: 69] على فقدان سعادة الدارين ونسيان

دولة النّشأتين، الحاضرون السعادات على استيفاء اللّذات والاستعلاء على تعاطي الشهوات.

قال حذيفة: المنافقون الذين فيكم اليوم أسرّوا وأصرُّوا وأضرُّ من الذين في عهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يخفون نفاقهم وهم يعدونهم في الظاهر من المسلمين.

إشارة وتأويل

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ [التوبة: 60] أي فضلات أجناس العلوم وفضائل الأحكام الدينية والأعلام اليقينيّة، وزكوات نقود الأحوال والمقامات والمكاشفات والحالات الجمعية لمستحقي أعيان الأدوار المربعة وفقراء الأكوار الأربعة الإفرادية دون الدورات، وهم ثمانية أصناف: أربعة الأدوار النورية الجمالية، وأربعة الأكوار الظليّة الجلالية الإفرادية دون الدورات الجمعية، إذ الفقراء مما هو لازم لأعيان الأدوار النورية والأكوان الظليّة الإفرادية، والفناء دائم للدورة الجمعية.

واعلم أن العلم الإلٰهي والحاكم الربّاني نوعان، أحدهما: ما يتعلّق بذاته بأنحاء ووجوه لا يتناهى بعنوان ذاتي وعنفوان غيبي. والثاني: ما يتعلّق بهذه العلوم بالوجوه المذكورة. ولا خفاء أن هذا العلم فاضل على تلك العلوم في المرتبة الثانية، وهذا العلم الفاضل أصل الأعيان النورية الجمالية والأكوان الجلالية، ويصرف هذا العلم الفاضل والمال الزائد أولًا على فقراء مرتبة العلميَّة لأنهم لا مال لهم أصلًا، بل لا شيء لهم من مال العلم بالعلم وإدراك الإدراك، وشعور الشعور، ومن مال الوجود العيني الغيبي والشهادي، سوى تلك الشؤونات. والوجوه الغيبية القائمة بالذات وهذه الوجوه ليست أمور التجارة إذ لا فصل فيها فلا زكاة فيها، بخلاف هذا العلم الثاني الفاضل فإنه يصرف على فقراء الأعيان النورية والأكوان الظليّة للفقراء أي محتاجي الأعيان الدورية العظمى الجمالية والمساكين أن الأعيان الدورية الكبرى النورية والعاملين أي أعيان الدورة الوسطى النورية، والمؤلفة قلوبهم أعيان الدورة الصغرى النورية، وفي الرقاب أي محتاجي الأكوان في الكورة العظمى الظليّة الجلالية.

وإنما عدل من لام الاختصاص إلى في الظرفية إشعارًا بأن أصل الأكوان الكورية هي القابليات البعيدة في الأدوار الأربعة الأصلية: الأحوال الجمالية، والحالات الكمالية، والاستعدادات الذاتيَّة السارية في أعيان المراتب الكونية القريبة بالفعل الأدوار النورية الفرعية الحالات العينية والمقالات القلبية والمعارف الإلٰهيَّة، والعلوم الحقيقية. والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، إشارة إلى الأصناف الباقية من الأكوان الظليّة. وهذه الصدقات المتبرعة تصرف على فقراء الأعيان النورية التي هم أهل الإسلام أولًا وبالأصالة، ثم على محتاجي الأكوان الظليّة التي هم أهل الكتاب، والله عليم بأحوال الأعيان الجمالية النورية، حكيم على الأكوان الجلالية وباقي الآيات من هذه العشرة.

تفسير

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾

هـذا ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [التّوبَة: 70] يريد نمرود بن كنعان، كان قد بنا لإبراهيم عليه السلام بيتًا طوله ثمانون ذراعًا في عرض أربعين ذراعًا، وقذف فيه النيران ثم جعل إبراهيم عليه السلام في منجنيق فقذف به في الجحيم، والعرب تسمي النار العظيمة الجحيم، فأنزل الله عليه ملائكة يؤنسونه وجعل الجحيم بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام حتَّى صارت النار تحته زرابيّ ونمارق، فأنزل الله جبرائيل بقميص من الجنة، فذكروا والله أن جبرائيل أتاه وهو في المنجنيق فقال لإبراهيم: سلني حوائجك إن كنت تريد أن أجعل الأرض عليهم عاليها سافلها، فقال: إني رفعت حوائجي إلى الله ولست أسأل أحدًا غيره، فقال جبرائيل عليه السلام: إن كان ينبغي أن يتخذ خليلًا لاتخذك خليلًا. فاتخذ الله إبراهيم خليلًا وأشرف نمرود ينظر في الجحيم فإذا فيه عدّة يذهبون ويجيئون فدعا حاجبه وفتح بابه فأدخل أشراف قومه فقال لهم: كم طرحتم في الجحيم؟ فقالوا: وحده، قال: فهو هذا معه عدّة، فقد صار الجحيم عليهم مثل الأرض والمنزل. فركب حتَّى أتى الجحيم فصاح: يا إبراهيم، فقال:

ما تشاء؟ قال: إنك حي، فقال: نعم والحمد لله، قال: فمن هؤلاء النفر الذين معك؟ قال: ملائكة ربّي، قال: تقدر أن تخرج؟ قال: نعم. فانفرج الجحيم فخرج عليه السلام وقد زاده الله جمالًا ونورًا قال نمرود: إنك لكريم على ربّك، قال كذلك لمن أطاعه، قال: أتراني إن أتقرّب إلى ربّك بقربان يقبله مني؟ قال: إنما يتقبَّل الله من المتّقين. فذبح أربعة آلاف كبش فأكل الناس منها حتَّى أكل منها الطير والسّباع في الأرض والهوام. ثم قال: يا إبراهيم أرِني جندَ ربّك الذين يهدوني بهم، قال إبراهيم: أره أضعف جندك، فنزلت سحابة فقال إبراهيم: في هذه جند ربّي، فقال إبراهيم: فانتشر فيها بعوض فما برح حتَّى أراه عظام أصحابه يلوح وعظام خيلهم. ثم وقعت في شفته السفلى فصاح حتَّى مرَّ بها فغبطت فارتفعت البعوضة إلى شفته العليا فاستعاب فغبطت فدخلت في منخره فما كان بهذا ليلًا ولا نهارًا، كان يضرب رأسه بمضربة من حديد، فأقام في ذلك أربعمائة سنة.

وخرج إبراهيم مهاجرًا إلى أرض الشام، فلما عبر الفرات حرَّف كلامه من السّريانية فصار عبرانية، فبها نزلت التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى عليهم السلام، والزّبور كلام النبيين من يومئذٍ، وذكر في سورة العنكبوت فآمن له لوط، يريد فصدّق به لوط وقال: إني ذاهب إلى ربّي معك، وهو ابن أخيه.

﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ [التوبة: 70] يريد شعيب بن نونه بن مدين بن إبراهيم وأصحابه من وُلد إسماعيل ابنه، وهم الذين ذكر حيث قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: الآيتان 176، 177] ليس فيها أخوهم لأنهم ليسوا من بني ابنه. وذكر بعض أهل العلم أنهم أخواله وهم خدّام. والأيكة شجر الدوم وقراهم شعيب وبدو عروقًا أصحاب هؤلاء عذب يوم الظلّة وذلك أنهم أصابهم سموم شديدة في بيوتهم فخرجوا إلى شجر الدوم ليستظلُّوا فصبّ الله عليهم نارًا. فأما قوله: فإنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين يريد مثل جامدين أجسادًا بلا أرواح.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ يريد الكَذَبَة من قوم لوط ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ لوط وحده ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد ما شرّع الله من دينه وحدّ من حدوده، وما فرض من فرائضه ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يريد ليهلكهم حتَّى يبعث إليهم نبيًا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70] فكذّبوه فظلموا أنفسهم.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ يريد المصدِّقين والمصدِّقات، يريد الله ورسوله وجميع أنبيائه وما أعدَّ الله من الثواب والعذاب ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ يريد في الرحمة والمحبة ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بأنه لا إله إلا الله ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عن الشرك بالله، وأنه لا ندّ له ولا صاحبة ولا ولد ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مخافة ربّهم وما أعدّ لمن استكبر عن عبادته، مقرِّين لله بالربوبية، ويزيدون بذلك عليهم إن فعلوا أثابهم وإن عصوا عاقبهم لا يعدلون بالله شيئًا ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ يريد فيما فرض عليهم وفيما نهاهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ يريد وجبت محبتي ورحمتي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: 71] يريد منيعًا في ملكه، حكيمًا في خلقه، حيث حكم لأوليائه المحبة والرحمة، وحكم لأعدائه بالعذاب والبغضة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ يريد المصدِّقين والمصدِّقات بما جاء به محمد ﷺ والنبيُّون ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا ما لا يوصف لما فيها من النعيم والسرور ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ يريد قصور الزبرجد والياقوت، يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ وهي صفة الجنة وسقفها عرش الرحمٰن ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يريد رضوانًا ثواب الله ورضى الله عنهم ﴿أَكۡبَرُ﴾ يريد أعظم مما يوصف ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72] السبق وكل شيء خلقه عظيم فلا أعظم منه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالسيوف والرماح والنبل بالقتل والجراح في الليل والصباح، يريد شدّة الاشتهار، فإن الذكر والموعظة ينفع

المؤمنين لأنهم يزدادوا إيمانًا ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ﴾ يريد المنافقين والمشركين ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73] ويحلفون بالله ما قالوا إن الجلاس بن سويد بن صامت كان في غزوة تبوك، فذكر رسول الله ﷺ بعض من تخلّف ورجع سويد إلى رحله وفيه ابن امرأته عمر بن سعيد كان حديث السن، فذكر سويد بعض حديث النبي ﷺ فقال: والله لئن كان ما يقول محمد في أصحابه حقًّا فنحن أشر من الحمير، فقال عمر في نفسه: لئن سكت عن ربيبتي لقد خنت الله ورسوله وأخبرت ولئن أجبت ربيبتي لقد أديت الأمانة إلى الله ورسوله، والله لأؤدينّ الأمانة إلى الله ورسوله، فقال: والله إنما يقول رسول الله الحق وإنك لأشرُّ من الحمار، فوثب إليه وقد تناوله فهرب منه حتّى أتى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل رسول الله ﷺ فلما أتاه حلف بالله أنه ما قال، فقبل علانيته ووكل سريرته إلى الله كذلك يفعل بمن حلف، فوجد عمر في نفسه وجدًا شديدًا واغتمّ غمًّا شديدًا وأقبل يقول: يا ربّ نبيّك صدَّق عدوّك وكذّبني، فأنزل الله من ساعته الوحي في اليوم.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أو قد كان حلف الجلاس بن سويد ليقبلنّ عمرًا. قال الله: ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ يريد من نبي الله شيئًا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يريد مما كان غنموا حتّى صارت لهم العقل والأموال من العير والحيوان ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فأرسل رسول الله ﷺ فأتاه قال: أليس قد حلفت بك لم يقل، قال: بلى والله قد قلت وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فازداد عند الله وعند رسوله محبة وازداد رتبة له وإكرامًا وكان من خيار شبّان الأنصار ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا﴾ شديد وعقابًا ﴿أَلِيمًا﴾ وجيعًا ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 74] يريد من نبي يتولاهم ولا أحد من الأنصار، ولا يعذّبهم ولا ينصرهم من عدو يقاتلهم.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وهو ثعلب بن حاطب قد شهد بدرًا، وكان مسكينًا فعاهد الله لئن وسع الله عليه وأفضل ليتصدقن وليحجنّ، فوسع الله عليه ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة: 75] يريد الحج.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: 76] وأعطاه رسول الله ﷺ نعمًا من الصدقة مع ما أخذ من الغنائم فكثر ماله فبخل على الله.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ يريد أعقبه ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يريد حتّى تاب ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 77].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ يريد ضمائرهم وما كان قبل أن يكون في قلوبهم ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ بعضهم لبعض ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: 78] يريد علم غيبهم وما يكون قبل أن يكون.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي الذين يغيبون ويطعنون المطوعين المنقادين والمسلمين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ يريد عبد الله بن أبي سلول المطوعين من المؤمنين يريد عمر بن الخطاب وعبد الرحمٰن بن عوف وتصدّقوا واغتابوا في غزاة تبوك بمال كثير فأمرهم وأغناهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: 79] وهو

سهل بن رافع، وهو الذي كان آجر نفسه ليلة إلى الصبح يسقي كل من الأنصار فأخذ أجرته فجعل نصفها لله وتصدّق بها لوجه الله، والنصف لعياله، فأمره وقال: هؤلاء لهم مال كثير تصدّقوا به وهو الذي آجر نفسه ليلة إلى الصبح فأخذ أجرته فتصدّق بها على أهل الصفة فرآها محمدًا ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ حيث جازوا إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79] يريد وجعًا لا يقطع إليه أبدًا.

هذا ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أقول بأنهم عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا فأهلكناهم بذنوبهم وهم قوم نوح أهلكوا بالطوفان، وعاد عصوا أمر نبيّهم هود فأهلكوا بريح صرصر فأهلكوا بمخالفتهم أمر نبيّهم صالح بالرجفة، وقوم إبراهيم هلكوا بنفي النعم وتسليط البعوضة، وأصحاب مدين بعث الله فيهم شعيب فعصوا فأهلكوا بعذاب يوم الظلّة، والمؤتفكات المنقلبات التي جعلت عاليها سافلها، وهم قوم لوط فعصوا فأهلكهم الله.

أتتهم رسلهم بالبينات الواضحة والآيات الصحيحة فكذّبوه فاحذروا يا أهل النفاق ومعاشر الكفار والشقاق تعجيل النقمة والعذاب وتنزيل البلاء والعقاب قبل الوقت، فما كان الله ليظلمهم بأن يهلكهم بلا جرم وخيانة ولكن كانوا بالجروم المذكورة والمعاصي المزبورة ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبَة: 70] فاستحقوا العقاب في الدنيا والعذاب في العقبى.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الدين والملّة بالنصر والإمداد والمعونة، وإنفاق النصح بالكلمات الحقّة ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة وبالإحسان وإنشاء الخيرات، وإفشاء المبرّات ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي والكذب والإفك والرياء والقتل والسفك وغير ذلك من الكبائر التي لا تعرف في شريعة وسنّة سنيّة. فأما المعروف والمقارنة معروف وبالمناسبة والمقابلة موصوف ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة، وهي خمسة ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة والصدقة الواجبة المعروضة ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبَة: 71] في سائر الأحكام الدينية كالصوم والجهاد.

وقال النبي عليه السلام: «**الإسلام ثمانية أسهم، سهم الإسلام، وسهم الصلاة، وسهم الزكاة، وسهم الحج، وسهم الجهاد، وسهم صوم رمضان، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب مَن لا سهم له**».

أولئك الذين استعانوا هذه السهام واستوفوا هذه الأمور العظام سيرحمهم الله ﴿إِنَّ

﴿ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالب على كلّ شيء، لا يمتنع عليه ما يريده ولا ما أراد أن يعيده، ويضع الأشياء في موضعها بعدما علم حقائقها وأحوالها وسوابقها ولواحقها ولوازمها الذاتيّة والعرضية على ما بنى عليه في نفس الأمر.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ امتنانًا وجزاء صرفًا وكفاء، كلًّا وبعضًا، سماءً وأرضًا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ومساكن طيّبة تستطيب بها النفس أو يطيب فيها ويهنأ العيش. وفي الخبر أنها من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأخضر ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي بساتين خلد ودار إقامة مؤبد. يقال: عدن بالمكان إذا أقام فيه. عن ابن مسعود: هي بطنان الجنة ووسطها. قال النبي عليه السلام: «**جنات عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، ولا يسكنها غير ثلاثة: النبيُّون والصدِّيقون والشهداء، ويقول الله: طوبى لمن دخلك**». روي أن في الجنة قصرًا يقال له عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صدِّيق أو شهداء.

وقال أيضًا: «**جنات عدن في السماء العليا لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهداء أو إمام عدل أو محكم في نفسه مخيّر بين الشرك والإيمان فيختار الإيمان على الشرك فيفعل**». قال أيضًا عليه السلام: «**جنات الفردوس أربع: ثنتان من ذهب حليها وأبنيتها وما فيها، وثنتان من فضة مثله، وليس بين القوم وبين أن ينظر إلى ربّه أو إلى ربّهم إلا رداء الكبرياء على وجه في جنة عدن**».

قيل: عدن نهر في الجنة جناته على ضفتيه. وقال جماعة: عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله حتَّى ينزلها أهلها الأنبياء والشهداء والصدِّيقون والصالحون ومَن شاء الله. وفيها قصور الدُّر والياقوت والذهب فيهبّ ريح طيبة من تحت العرش فيدخل عليه كُثبان المسك الأذفر.

واعلم أن هذه الجنات المختلفة إنما هي بالنظر إلى اختلاف أوصاف جنة عدنٍ، وفيها جهات متفاوتة ولها نعوت وحالات متغايرة، فيكون من مانعية الخلو لا الجمع ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التّوبَة: 72] أي يكون رضاء الحق عنهم أكبر من ذلك الرضوان أو من جميع ما تقدَّم ذلك، أي رضوان الله هو الفوز العظيم مبدأ كل سعادة ومنشأ تمام فوز وكرامة، والمؤدي إلى نيل الوصول والظفر إلى لقاء الله، والتصبُّر بوجه الله الذي هو أعلى المقاصد. وعنه عليه

السلام: «**إن الله يقول لأهل الجنة: هل رضيتم، فيقولون: ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدًا من خلقك. فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ربّنا وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أتجلّى عليكم فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالسيف والرماح والنبل، بالحجج والبراهين وحسن النظر والبيان، وبعد ذلك ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: 73] في الجهاد بين المذكورين، فإن لم يستطع فيغلبه. وإظهار الكرامة والبغضاء والتبرئ منه. وقيل: بإقامة الحدود عليهم ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125] ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73] جهنم.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ نزلت حين كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظلّ شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه. فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابك، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله أنهم ما قالوا. قال بعضهم: نزلت في جلاس بن سويد حيث قال: ولئن كان محمدًا صادقًا لنحن أشرّ من الحمير، فسمعه عامر بن قيس فقال: إن محمدًا لصادق وأنتم أشرّ من الحمير. فلما بلغ رسول الله ﷺ أنكر جلاس فأمر رسول الله ﷺ أن يحلفا عامر وجلاس فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله العظيم أنه ما قال ما قيل في حقّه. ثم قام عامر يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه. ثم رفع عامر يديه إلى السماء فقال: اللهمَّ أنزل على نبيّك الصادق منّا، فقال رسول الله: آمين. فنزل جبرائيل قبل أن يتفرّق المجلس هذه الآية: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ﴾ فقام الجلاس فقال: يا رسول الله، اسمع؛ الله قد عرض عليّ التوبة إذ صدق عامر فيما قال، ثم تاب فحسنت توبته.

﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: 74] أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام وكلمة الكفر هي سبّ النبي ﷺ أو قول الجلاس المذكور، أو قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: 8] كما سيأتي بقيّة هذه القصة ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ [التوبة: 74] من قبل الرسول وهو خمسة عشر رجلًا منهم يوافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه من مراحله إلى الوادي إذ تنقسم العقبة بالليل فأخذ عمار بن ياسر بحطام راحلته وحذيفة يسوقها

فقال: إليكم يا أعداء الله، فهربوا وما نقموا وما أنكروا وما وجدوا مناقمتهم ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إن مولى الجلاس قتل فأمر رسول الله ﷺ بديته إثني عشر ألفًا فاستغنى.

قيل: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك العيش، فلما قدم المدينة استغنوا ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ من النفاق والكفر ﴿يَكُ﴾ ذلك العدول عن الكفر وعن النفاق والتوبة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ويعاقبهم عقابًا عظيمًا ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي وضرب الجزية عليهم ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ بالنار والخلود ودار الهوان والبوار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في دفع عذاب الدنيا ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبَة: 74] أي حافظ وعاصم ومعين وممدّ وظهير.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي أعطانا مالًا كثيرًا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وننفقن في سبيل الله، نزلت في ثعلبة بن حاطب أتى إلى رسول الله ﷺ وقال: ادع أن يرزقني الله مالًا كثيرًا، فقال النبي ﷺ: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تعطي حقه فراجعه. وقال: ادع الله إلى ثلاثة، فقال النبي عليه السلام: اللهمَّ ارزق ثعلبة مالًا. فأخذ غنمًا فنمت كما ينمى الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى واديًا من أوديتها وكان يصلي الظهر والعصر مع رسول الله ﷺ وسائر الصلوات مع غنمه، فلما كثرت تباعد عن المدينة حتَّى كان كاد لا يشهد الجمعة ولا الجماعة، فقال رسول الله ﷺ: يا ويح ثعلبة، ثلاث مرّات، فأنزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلًا من بني سليم ورجلًا من جهينة فخرجا حتَّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذا إلا أخذ الجزية. فانطلقا حتَّى تفرغا ثم تعودا إلى رسول الله ﷺ فلما رجعا قال: ما هذه الجزية، اذهبا حتَّى أرى. فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل تكلُّمهما: يا ويح ثعلبة، ثلاث مرات، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبَة: 75] إلخ.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ ومنعوا حق الله منه ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ وأعرضوا عما عاهدوا الله وتركوه ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبَة: 76]، أي والحال أنهم قوم عادتهم الإعراض عن طاعة الله والإدحاض بمعاهده، فأعقبهم وجعل عاقبة فعلهم وآخر أمرهم نفاقًا، وسوء اعتقادهم وفساد نيّتهم وتبديل أمنيتهم متمكنًا في قلوبهم الحسد والنفاق ونقض العهد إلى يوم يلقونه ويصلون لله بالموت وجزائه يوم القيامة.

﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ﴾ أي بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدُّق والخيرات والصلاح والإصلاح وإنشاء المبرّات ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبَة: 77] أي بسبب أحكامهم كاذبين، فإن خلف الوعد متضمِّن الكذب مستقبح من الوجهين، أو المقال مطلقًا.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ ما يتناجون فيما بينهم من المطاعن أو تسمية الزكاة جزية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبَة: 78] قال النبي عليه السلام: «**أربع من كنَّ فيه كان مؤمنًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة من النفاق حتَّى يدعها إذا حدَّث كذّب، وإذا وعد أخلف، وإن عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**». وقال أيضًا برواية حسن: «**ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق، وإن صلَّى وصام وزعم أنه مؤمن: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد خلف، وإذا ائتمن خان**». ومصداق قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الآية.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾ اللّمزة للطعن والغيبة والقدح في النسب. واللمزة هي الطعن وذكر المعائب بالمواجهة. قال بعضهم: الهمز باللسان، واللمز بالعين. قال ابن كيسان: الهمَّاز هو الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ، واللمَّاز من يكسر عينه على جليسه ويشير برأسه ويومض بعينيه ويرمز بحاجبيه وهما نعتان للمتكلم (المطوعين) المتبرعين في الصدقات.

روي أن النبي عليه السلام حثّ الناس على الصدقة، فجاء عبد الرحمٰن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف فجئتك بأربعة آلاف، فاجعلها في سبيل الله، وأمسكت أربعة آلاف لعيالي، فقال عليه السلام: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت. فتبارك في مال عبد الرحمٰن حتَّى إنه خلّف امرأتين يوم وفاته فأعطي من ثمن ماله مائة ألف أو ستين ألف درهم وتصدّق في ذلك اليوم عاصم بن عدي العجلاني ثمانية أو ستون. وجاء أبو عقيل الأنصاري، اسمه الخباب، بصاع من تمر فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمٰن وعاصم إلا رياء وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل، لكنه أحبّ أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبَة: 79] بضم الجيم الطاقة، وبفتحها الطلقة، يعني أبا عقيل وأشباهه فيسخرون بهم ويستهزؤون ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ أي جزاء لهم على السخرية ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبَة: 79] على كفرهم ونفاقهم وسخريتهم.

إشارة وتأويل

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ﴾ إلخ، إشارة إلى الأطوار السبعة القلبية، وبني آدم الطور القالبي، ونوح الطور النفسي، وهو الطور القلبي، وصالح الطور السرّي، وإبراهيم الطور الروحي، ولوط الطور الخفي، وشعيب الطور الغيبي الحقيّ. وإنما ترك آدم الطور القلبي إشعارًا بأنه من جنس العالم الشهادي، وهو ظاهر لا يحتاج إلى البيان لغاية ظهوره. وكذا ترك ذكر شعيب الطور لغيب الغيوب والعماء المطلق لغاية خفائه وارتفاع اعتبار الشهود والمشاهدة في هذه المرتبة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه مبدأ تمام الأفاعيل الخير والشر، العدل والظلم، والنفع والضرّ، والجود والبرّ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبَة: 70] يعني أن مرآة ظهور نعت الظلم إنما هو النفس الشيطاني كما هو أن مرآة ظهور العدل إنما هو العقل والملك.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ يعني الأعيان الجمالية والجلالية، فإن الأعيان الصريحة الجمالية إنما هي الذكور، والأعيان الصريحة الجلالية إنما هي الآيات، ولذا اختفت وصارت ضمنية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ المراد القوى الروحانية النظرية والقوى النفسانيَّة العملية ومراتبها، فإنهما يترتب بعضها على بعض، أو المراد القوى الغضبية والشهوية، أو القوى الفاعلية والقابلية ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لموافقتهما في مرتضى النشأة وتطابقهما في مقتضى المرتبة فساعد بعضها بعضًا في الاقتضاء ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وينأون ويبتعدون عن أمر يخالف العقل والنفس المطيعة له، إشارة إلى توافق اقتضاء النور الجمالية والوجود، ومرتضى الظلّ والجلال والعدم في الإدراك والشهود ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي مقتضى النور والجمال ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التّوبَة: 71] التي هي مرتضى الظلّ والجلال في الفرداريّة الكبرى الإفرادية، فإن مراتب القوى العلميَّة وهي التصفية والتخلية والتحلية والتجلية، وإنما يتكامل في مقتضى حكم الجلال ومراتب القوى النظرية وهي العقل الهيولاني والعقل بالملكة والعقل المستفاد والعقل بالفعل إنما ليستكمل في مرتضى حكم الجمال، فالصلاة هي صورة جمعية القوة النظرية، والزكاة هي صورة جمعية العملية ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ في الفردية العظمى الجمعية النورية والظليّة، ورسوله في الفرداريّة الكبرى الجمعية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين استكملوا في

جمعية الجمعية ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالكمال الجمعي والجمع النوعي وبما يترتب عليهما من الكمالات الجمعية والصفات الكليّة، والنعوت المعيَّة، والهيئات الإحاطية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي غالب على جمعية المقتضيات النورية والمرتضيات الظليّة ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبَة: 71] في تدبير كيفية الترتب النوعي والتركيب الجمعي.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ جمعيات جمالية وجلاليات إفرادية، وهي ثمانية كما علمت ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة المذكورة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [التوبَة: 72] غير خارجين عنها. وأما الانتقال من فرداريّة دورة إلى دورة أخرى فلا توجب الخروج من جنة الفرداريّة المنتقل منها إلى جنة المنتقل إليها لأن الجنة والنار والدنيا والآخرة وغير ذلك من المواعيد والوعدات ليست بخارجة عن المؤمنين والمؤمنات عن كل شيء، فإن الجنة الوحدة الذاتيَّة والعرضية وهي مطلق الوجود هو حقيقة كل موجود ومعدوم، مدار اعتوار المفهومات الثبوتية والأحوال العامَّة الوجودية والعدمية، وهذه الأحوال والعوارض إنما هي النسب والإضافات نشأت من مطلق الوجود لا من أمر خارج وفيض زائدٍ، فكل ما ظهر ويظهر في الدنيا والآخرة لكل حصة من الحصص الوجودية والعدمية فإنها لا يؤخذ فيها إلا من نفسها وذاتها، وهي مطلق الوجود ومغلّق الشهود ومعلق الكرم والجود، فكل ما وصلت هي إليه من الجنات والكمالات والتجليات والحالات والأحوال والمقامات والنيران والدركات وغير ذلك من العلوم والمعارف والإدراكات، وحصلت هي لها، فإنما هو من ذواتها وحقائقها الأولية والثانية التي هي الوجود المطلق ومطلق الوجود.

فإذن كما حصل للمؤمنين والمؤمنات من المذكورات فإنها لا تزول منهم ولا تنفكّ هي عنهم، بل تبقى وتثبت فيها أبد الآباد في الأدوار والآراء بحسب اقتضاءات الأدوار وارتضاء الأكوار، يتبدل ويتنقل من هيئة إلى هيئة، ومن كيفية إلى كيفية أحسن أو أقبح من الجنات والدركات ومساكن طيبة وأماكن لطيفة في جنات عدن وهي جنات التجليات الجمعية اللازمة للصورة النوعية الكاملة الفاضلة في مطاوي الأدوار ومجاري الأكوار التي تنوُّعات جمعياتها وتطورات معناها كليّاتها تمامية أربعة: الأدوار النورية، وأربعة أخرى الأكوار الظليّة، والجنات في الحقيقة إنما هي التجليَّات الأربعة، أعني الذاتيَّة والصفاتية

والأفعالية والآثارية الإفرادية على مقتضيات الأدوار النورية الجمالية، ومرتضى الأكوار الظليّة الجلالية، فتكون ثمانية.

وأما جنات عدن فهي كمال الجمعية النوعية المكوَّنة في كل جنة من الجنات الثمانية، ولها حدّ معيَّن خلافًا للجمعية الشخصية، فإن لها تطورات ولكمالها تنوعات لا تكاد تنحصر وتنتهي إلى حد وتنقطع إلى عد، فإنها تتجدّد بحسب تجدُّد آثار بعد ظهور التجليَّات ودهور اقتضاءات أنوارها في الدورات، فإذن في كل جنة من الجنات بل لكل شخص وعين من أعيان المتمكنات جنات لإحاطية تمام المراتب وانطوائها على ما فيها من الأعيان وما لديها من الأكوان ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ ولذا تعدّدت العبارات وتبدَّدت الاعتبارات في جنات عدن كما تقدَّمت الإشارة بتنوع العبارات ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72] وهو الفردوس الأعلى، وهي الجنة الذاتيَّة التي أظهرها الحق بيده كما ورد في الحديث: «**إن الله تعالى خلق بيده ثلاثة وقال لسائر الأشياء: كن فكانوا، فكان خلق الله بيده القلم وآدم والفردوس وقال: بعزَّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل، ولا يشم ريحك ديوس**»، وإليه أشار بقوله عليه السلام: «**أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بالنبوَّة الذاتيَّة في الأحدية، والحقيقة المحمدية ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ والأعيان النورية والأكوان الظليّة الإفرادية في الأدوار النورية في الأكوان الجلالية لينصرفوا من الحالة الإفرادية إلى الحالة الجمعية والهيئة النوعية في الأدوار والأكوار الأصلية والفرعية ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ والأعيان المتردّدين في النشأة الجمالية والجلالية، الغير الواصلين إلى الكمال الجمعي ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: 73] وشدِّد لديهم في أنواع الرياضات وأصناف المجاهدات لترتفع الحجب الظلمانية والنعت النورانية بخلاف الكفار الخُلَّص والفجّار اللُّصص، فإن فيهم الحجب الظلمانية والفتق النفسانيَّة فقط وإزالتها أسهل ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي مأوى الكفار والمنافقين والفجار النار والسعير ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73] مختص بالمنافقين والكفار المعاندين والفجار الجاحدين.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ على ما يقتضي أصل فطرتهم وأول نشأتهم وهي الإسلام أنهم ﴿مَا قَالُواْ﴾ وما يكلِّموا بكلمة الكفر والنفاق والحال أنهم لقد ﴿قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾

بالقصد والاختيار ووفور الرغبة ودرور الافتخار، وكفروا بعد إسلامهم على ما يقتضي أصل الظلمة والجلال ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ من إخفاء أحكام سلطنة النور والجمال المحمدي ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالأموال الجمالية والجلالية ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ ويرجعوا عن مقتضيات الظلّ والجلال وعمّا يعتدوا به ﴿يَكُ﴾ هذا الرجوع ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أصل يكن وقع جزاء الشرط فجزم فحصل التقاء الساكنين حذف النون والواو لأنها أحق بالحذف لدلالة الضمة عليها ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ ويصرفوا وانصرفوا عن الرجوع المذكور ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ بترديدهم في النشأة وتبديدهم في الشؤونات ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي في الأدوار النورية ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ في الأكوار الظليّة الضمورية ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ القابلية والعرض الاستعدادية ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ وحافظ عن عذاب الدنيا والدورة الفورية الجمالية الإفرادية ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التّوبَة: 74] ومعين في دفع العقوبات الأخروية الظليّة الجلالية والظلالية الضلالية والباقية من الآيات ظاهرة.

تفسير

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

هذا ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وذلك أن أباه كان رجلًا صالحًا سيِّدًا من سادات الأنصار يرى ما فعل أبوه ولا يوافقه في ذلك ويرجو التوبة لأبيه، فلما مرض أتى النبي ﷺ فأخبره بمرضه وسأله أن يستغفر له رسول الله ﷺ ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لا له ولا لنظرائه، وأكده والله أعلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أنا أستغفر لهم إحدى وسبعين مرة**» فأنزل جلّ وعلا: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التّوبَة: 80] يريد الكاذبين على الله وتوحيده، وكان رسول الله ﷺ قد دخل عليه يعوده ويطلب بذلك رضاء أبيه وسروره فقال: يا أبا الحباب قد كنت أكره إليّ حبّ اليهود، فقال: قد كان أسعد بن زرارة يبغضهم فما نفعهم فقد مات.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يريد جماعة من المنافقين منهم غيلان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يريد المدينة ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يريد بعد خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81] يريد يفهمون ويفعلون أن مصير المنافقين إليها.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ يريد الضحك والفرح مثل ما فرحوا بما عندهم من العلم، يريد استهزؤوا بما عند الأنبياء من العلم وجاؤوا ما كانوا به يستهزؤون ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 82] في الدنيا من النفاق والتكذيب.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ يريد إذا ردّك الله إلى المدينة ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يريد المنافقين خاصة ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ يريد الغزو معك ﴿فَقُل﴾ يا محمد ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ يريد أهل الكتاب، وذلك أنه لم يكن يومئذ أحد من المشركين إلا لحق بالشام وجازوا في مملكة الروم على دينهم ودخل في الإسلام سائرهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: 83].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ يريد عبد الله ابن أبي سلول ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84] يريد كاذبون بتوحيد الله وسلطانه وملكه وقدرته.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ يعني كثرة أموالهم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ يريد صلاح أولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يريد تجازي، وما أولئك عليه من الدين ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التّوبَة: 85] يريد عند الموت وشدّة ما يلقون من ضرب الملائكة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ يريد صدقوا الربوبية وقدرة الله وجاهدوا مع رسول الله، يريد مع نيته الصادقة ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي أهل الغناء ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 86].

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ﴾ يريد بالنفاق ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التّوبَة: 87] يريد لا يفهمون ما يُراد بهم في الآخرة.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يريد صدّقوه وصدّقوا الله والذين آمنوا معه يريد المهاجرين والأنصار ومن آمن من أهل مكة ﴿جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ يريد بنيّة صادقة وحرصًا على محبة الله وطلب رضائه وثوابه وما أعدّ الله من الكرامة لمن نصح لله ورسوله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88] يريد الذين سعدوا في الدنيا وبقوا في الجنة أحياء يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ونعمته الحقّة.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

إذًا ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ﴾ الفوز هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التّوبَة: 89].

هذا ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا﴾ إلى آخر الآية، أقول: لفظه إنشاء، ومعناه أو لم تستغفر لهم يعني إن استغفرت لهم وطلبت المغفرة من الله لهؤلاء المنافقين أو لا تستغفر لهم أصلًا أي لا يقع عنك الاستغفار لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ في كل يوم ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لكمال نقمتهم وتمكُّنهم في نفوس خلافهم وشقاقهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي عدم غفران الحق لهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبَة: 80] الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، ومطاوعة أحكام كتابه وقبوله.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن الجهاد والقاعدون عن غزوة تبوك اتباعًا لأهل الكفر وأصحاب العناد ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي بسبب قعودهم وتخلُّفهم عن موافقة رسوله وإظهارهم ﴿خِلَـٰفَ﴾ أمر ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وحكمه، ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟﴾ ولا تخرجوا إلى غزوة تبوك ﴿فِى﴾ أيام شدّة ﴿ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبَة: 81] يعلمون ظاهر الأمر وباطنه على ما هو عليه في نفس الأمر.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟﴾ أو يبتهجوا أو يفرحوا أو يبشروا في أمر الدنيا وزخرفها والعلم بحطاماتها ﴿قَلِيلًا﴾ إذ أثر الضحك يظلم القلب ويتعسه ويحرِّك غضب الربّ وسخطه لإغفاله عنه وإلهائه عن حكمه، والإقدام على امتثال أمره ﴿وَلْيَبْكُوا۟﴾ بكاءً ﴿كَثِيرًا﴾ [التوبَة: 82] لأنه ينوِّر القلب ويقرب برضاء الربّ، وتحزن له النفس وتفرح الروح وتروح الفؤاد لأن كمال التوجه من الخلق ومما لهم إلى الحق يزعج النفس ويثبت فيها عن الدنيا اليأس، فتشعبت في دفعه إلى الحرارة الغزيرة والغريبة، فتنبعث الحرارة من القلب إلى الدماغ الذي هو محلّ الفكر والعلم في دفع غير الملائم، فأصابت الرطوبة الغريزية والغريبة فيذيبها ويسيلها عن طريق البصر فيخرج دمعًا. ويجوز أن يكون المراد بالضحك الفرح الذي يلزمه، وبالبكاء الحزن الذي استلزمه، والخوف والخشية ودقة القلب يتبعها.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ وردّك وأعادك إلى المدينة من غزوة تبوك وطائفة منهم من المنافقين المخلفين. وإنما حصر طائفة بالذكر لأنه ليس كل من تخلّف يكون منافقًا، وهم إثني عشر رجلًا يعتذرون ويسترضون، فإذا استأذنوك لغزاة سيقع للخروج معك في تلك الغزوة ﴿فَقُل﴾ يا محمد في جوابهم ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ لا

في غزاة ولا في سفر آخر ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ بعد اليوم، وذلك ﴿إِنَّكُمْ﴾ تعليل، أي لأنكم ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ في المدينة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي ابتداء الأمر في غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُواْ﴾ [التوبة: 83] مع النساء والصبيان والمشايخ الهرم والمرضى والزمِن.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: 84] نزلت في موت عبد الله بن أبي سلول حيث بعث في مرض موته إلى رسول الله ﷺ ودعاه إليه، فلما دخله قال: يا رسول الله ما بعثت إليك لتأتيني ولكن بعثتُ إليك لتستغفر لي، وسأله عن تكفينه في قميصه ويصلّي عليه، فلما مات عبد الله انطلق ابنه إلى النبي ﷺ ودعاه إلى جنازته فقال النبي ﷺ: ما اسمك؟ قال: الخباب بن عبد الله، قال عليه السلام: أنت عبد الله؟ إن الخباب هو الشيطان. ثم انطلق رسول الله، فلما أقام قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله تصلّي على عدوّ الله! فتبسّم رسول الله وقال: أخّر عني يا عمر إني قد صِرت؟ قال: صرت. قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80]، فلو علمت ذلك لو زدت على السبعين غفر له لزدت. ثم شهد وكفّنه في قميصه وبعث في جلده ودلاه في قبره. قال: فعجبت بعد جرأتي على رسول الله ﷺ فما لبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا حتّى نزلت عليه: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ولا تقف. قيل: ولا تتوله وقته من قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]، فما صلّى رسول الله ﷺ بعد هذا على منافق ولا قام على قبره حتّى قُبِض.

بلغني من سيدي وشيخي وسندي السيد تاج الدين الحسني قدّس سرّه أنه لما أراد النبي ﷺ أن يتوجه إلى صلاته منعه عمر فما امتنع، فجرّ عمر رداء النبي ﷺ بالعنف، فغلظ النبي وفظ على عمر: نزلت هذه الآية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 85].

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن أو بعضها من باب المجاز المرسل داعيةً إلى ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ وفاقًا لا نفاقًا ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ ويطلب منك الإذن في التخلّف اتّباعًا بالصبيان ودون العجز من النسوان ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ والغناء والسعة والرخاء، ﴿وَقَالُواْ﴾ لك يا محمد ﴿ذَرْنَا﴾ واتركنا أمر من نذر، ونا ضمير منصوب

متّصل بـ ﴿نَكُن﴾ مضارع مجزوم لوقوعه جوابًا للأمر وقد مرّ آنفًا إعلاله ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبَة: 86] في رجالهم.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ من المهاجرين والأنصار وسائر صحبه الأخيار ﴿جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ [التوبَة: 87 - 88] وهي الحسنات المتضاعفة من الواحد إلى العشرة، ومنها إلى سبعمائة، والله يضاعف لمن يشاء. والجواري الحسان فيهن خيرات حسان. حكي عن ابن عباس: إن الخيرات لا يعلم معناها إلا الله لقوله: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» قطّ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: 17] الآية. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبَة: 88] في النشأتين والفائزون في الدارين بالسعادة السرمدية ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ [التوبَة: 89] ذلك المذكور والأمر المزبور وهو الفوز العظيم والجود العميم.

إشارة وتأويل

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبَة: 80] إشارة إلى السعادة السرمدية والسعاية الأبدية، متوقف على المناسبة الأصلية والمقارنة الأزلية بالحقيّة المحمدية والأحدية الجمعية. وهي متفرّعة على الاستعدادات الذاتيّة، وهي بالنسبة إلى الأعيان النورية والأكوان الظليّة متفاوتة. فمن كانت مساسيته تامَّة ومقارنته عامة بتلك الحقيقة نظرًا إلى كمال الاستعدادات الذاتية القريبة يكون استغفاره له ومغفرة الحق له أقوى وأتمّ وأسنى وأعمّ، ومَن كان بالعكس فالأمر معكوس ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 10] الآية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أن عدم تأثير الاستغفار وانتفاء المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ [التوبَة: 80] واستتروا عن المناسبة المذكورة وخالفوا أمر الله ودعوة رسوله واختفائها ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ﴾ [التوبَة: 84] أي لا تسأل من الله لأحد من الأعيان النورية الجمالية والأكوان الظليّة الجلالية الإفرادية المنغمسة في ظلمات القيود وهيئات الحدود البعيدة عن الكمال الجمعي والجمع الكمالي إلى مراكز الحالات الغيبية والمقامات القلبية والعلوم الحقيقية

والمشاهدات الإلٰهيَّة وشهود التجليَّات الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية الإفرادية، والصورة الجمعية والهيئة الكليَّة والإحاطة المعيَّة وغير ذلك من الأحوال. وبالمقامات قبل حصول المناسبة الأصلية ووصول المقادير الأزلية، وظهور آثار الاستعدادات الذاتيَّة القريبة بالفعل.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن الكمال الجمعي والمتقيِّدون بقيود صور الإحساس البصري والأجناس السمعي ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ في القيود النورية الوجودية والحدود الظليّة الإفرادية خلاف مقعد رسول الله ﷺ والخليقة المحمدية السارية في تمام الأعيان والأكوان ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ وعلومهم وأحوالهم ومقاماتهم الجمالية والجلالية ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبَة: 81] أي خصوصيات ماهياتهم الغيبية، ونصوصيات هوياتهم العينية ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والسير إلى الله ومن الله وفي الله.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ الطبيعي والحر الغريزي ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التحسُّر والندامة الموقدة على الأفئدة ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ وأحدّ سطوة وشرًّا درجة ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبَة: 81] ويدركون الأشياء ظاهرًا وباطنًا، صورة ومعنى، غيبة وعيانًا.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ فإنه في الظاهر يورث غمًّا وحزنًا وهمًّا وضيقًا وحريقًا، وفي الباطن ظلمة وقساوة في القلب وظلمة في القبر. قال النبي عليه السلام: «**الضحك في المسجد ظلمة في القبر، والضحك الكثير يميت القلب**»، وبالجملة أن الضحك مذموم سيما في مواضع العبادات ومواقف العبرة والاعتبارات كالمقابر. قال النبي عليه السلام: «**إن الله كره لكم العبث في الصلاة والرفث في الصيام، والضحك في المقابر، والضحك من غير عجب يذهب بالمروءة ويمحق الرزق**». ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ قال عليه السلام: «**بكاء العيون وحشة القلوب برحمة الله فإذا وجدتموها فاغتنموا الدعاء**» الحديث، لأنه يقرب العبد بالربّ بل الربّ دائم في هذا القلب يسمع مناجاة صاحبه الخفية، بل هو يكفي المناجاة والأمنيات وكثيرًا ما يتطابقان ويتصادقان على أمر واحد فيستجاب الدعاء في تلك الحالة. والبكاء لا يحصل إلا من حرق القلب، وهو محبوب عند الله، يحبّ الله كل حزين في تلك الحالة فليجزون ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبَة: 82] من الحسنات والسيئات، فإن رجعك الله ثانيًا وثالثًا ورابعًا إلى مدينة الأحدية الجمعية في السير إلى الله وجدت طائفة من الأعيان الجمالية والجلالية يبايعونك في الظاهر غير

الذين يبايعونك كرابًا ومراياة، فاستأذنك للخروج في بداية السير من الله إلى كثرات مراتب الكائنات. وأيضًا إشارة إلى تطابق الأدوار والأكوار، وتوافق ما فيها من الأعيان والأكوان وما لها من الأحوال والمقامات والمعارف والعلوم والإدراكات من حيث النوع لا الشخص فإنه محال.

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ [التوبة: 55] وأولادهم وعلومهم ومعارفهم وأحوالهم ومقاماتهم وشطحهم وطاماتهم وكثرة مقالاتهم في المجالس، وإظهار الكرامات، وإظهار الشطح، وإفشاء الفضائل والكمالات إشارة إلى أن ما هو غير شهود الوجه الباقي ومشاهدة الذات والتحقق بها فهو في طريق الحق مردود وإن كان علومًا وأحوالًا ومقامات عليّات وإظهار معجزات وكرامات، فإنها وسائل وطرق إلى الوصول بالحق وشهود جماله وجلاله، وإلى التحقُّق به، فالمقصود بالذات إنما هو الحق والعلم به والتحقق به محققًا سرمديًا، أو التخلُّق به أزلًا وأبدًا بطريق الكمالي الجمعي والجمعي الكمالي.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ أي المتعبدين بهذه المذكورات بها بسبب مقتضيات هذه المعاني المفهومات في الدنيا في الدورة النورية الإفرادية والنشأة الناقصة والشهوات النافقة وتزهق أنفسهم وتخرج عن خصوصية أبدانهم في الدورة النورية والكورة الظليّة الضمنية ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 85] بالكمال الجمعي والطور المعي ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ [التوبة: 86] جذبة من جذبات الرحمان توازي الثقلين والباقي ظاهر.

تفسير

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾﴾

هذا ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ يريد يعتذرون إلى النبي ﷺ في تخليفهم ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ في التخلُّف ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ يريد لم يصدقوا بعثته واتخذوا إسلامهم جنة ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة: 90] يريد وجيعًا لشّكهم في الله ورسوله وما جاء به من الحق، ثم عذر الله الثقلين من

الموحدين وعذرهم المرضى وهم الضعفاء من الشيوخ فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ يريد إثمًا ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولم يعدلوا بالله شيئًا وعرفوا الله بتوحيده وربوبيته ودوام ملكه، وأن ما جاء به محمد حق، وغضبوا لله، وبغضوا في الله ما أبغض الله وأحبوا أولياء الله ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ يعني الموحدين من إثم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 91] لمن كان على هذه الخصال.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ وهم سالم بن عمر أحد بني عوف، وثعلبة بن يزيد أحد بني حارثة، وعمر بن الحمام أخو بني سلمة وهو من بني عبد الله بن مغفل المزني، وقائل هو عبد الله بن عمرو البري، وسرقة بن عمير، وعمر ابن أخي بني واقف، وعبد الرحمٰن بن عوف بن كعب، وأبو ليلى أخو بني مازن بن النجار، وعبد الله بن مغفل المزني. فقال قائل: ﴿قُلْتَ﴾ يا محمد ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ لأن الشفقة بعيدة والرجل يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماءه وزاده وهو جيش العسرة ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92] ورجعوا إلى هويتهم يبكون حين فاتتهم غزاة مع رسول الله ﷺ وهي غزاة تبوك مما عرفوا من الحق فعرفوا ما فيه من الثواب والنعيم الذي لا جرم ألا يجدون ما ينفقون.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ الآثم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ بالقوة في أبدانهم وأموالهم ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع العيال والصبيان ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾ بالنفاق ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93] عقابهم في الآخرة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

الجزء الحادي عشر: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يريد بالأباطيل ﴿قُل﴾ يا محمد لهم ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ يريد لن نصدّقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ يريد قد نبأنا الله ما سرائركم وما تخفي صدوركم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يريد شهد على ما غاب عنا من ضمائركم ونيّاتكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94] يريد يخبركم بما كنتم تتكلمون وتسرُّون.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يريد حيث مداومتكم العرض عنهم والبغضة لهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يريد السلام والكلام والموالاة ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ يريد إنما عملهم رجس من عمل الشيطان ليس يرضي الله ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يريد مصيرهم جهنم ﴿جَزَاءً﴾ يريد عقابًا بإنفاقهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95] يريد من الإثم وما في قلوبهم من خلاف الإيمان.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ يريد أن المؤمن إذا حلف بالله اطمأن قلبه فأحب الله أن يخبر المؤمنين بما في قلوبهم حتّى لا يصدّقون، وكان رسول الله ﷺ إذا اعتذر إليه أحد يعذر، وإن كان كاذبًا قبل علانيته أوكل سريرته إلى الله حتّى أخبره الله بنفاق المنافقين وأسمائهم واسمًا آثارهم وقتالهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96] يريد الذين ألسنتهم مخالفة لما في قلوبهم والله لا يرضى أن يكون ما في اللسان غير ما في القلب لكون اللسان شاهدًا على ما في القلب كل واحد منهم يصدق صاحبه بصدق اللسان.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يريد فرائض ما أنزل الله ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97] يريد عليمًا بما في قلوب خلقه، حكيمًا بما فرض عليهم من فرائضه.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ يريد يرجو له ثوابًا ولا يخاف على إمساكه عقابًا ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ يريد القتل والموت ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ يريد دوائر السوء ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 98] يريد سميع لقولهم عليم بنيّاتهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وبما جاء به نبيّه من الثواب والعقاب ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يريد يتقرّب بذلك من الله ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ يريد يرغب في دعاء النبي ﷺ ويرجو بطاعة الله الجنة ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ يريد نورًا لهم مكرَّمة عند الله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 99] يريد في جنّته. هذا يريد غفور لديهم رحيم بأوليائه.

هذا ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أقول: أسد وغطفان وغيرهم استأذنوا في التخلُّف معتذرين بالجهد وكثرة العيال وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إنا غزونا معك غارات طيء والأعراب على أهالينا ومواشينا، فقال لهم عليه السلام: «**قد نبَّأني الله من أجنادكم وسيغني الله عنكم**». قال ابن عباس: إنهم تخلفوا بعذر بإذن الرسول عليه السلام ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من المنافقين الذين اعتذروا ولا عدد لهم. قال بعض العلماء: كلا الفريقان سيَّان بادِّعائهم الإيمان وكونهم من المخلصين، وقد كفرهم الله ورسوله

بادعائهم لنفسهم الإيمان ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي من الأعراب أو من المعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا بكفره ونفاقه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90] بالقتل والسبي والجزية في الدنيا وبالنار والخلود في دار البوار في الآخرة.

ثم شرع في ذكر باب الاعتذار فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ وهم الزمن والمشايخ الهرم والصبيان والعجزة والنسوان ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ في الذهاب والرجوع والإياب ﴿حَرَجٌ﴾ اسم لليس أي إثم في الترك والتأخير ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ووعظوا الخلق بالإيمان والدعوة إلى الطاعة والعبادة سرًّا وعلانية بما قدروا عليه فعلًا وقولًا. قال النبي عليه السلام: «**الدين النصيحة**» ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ بالعقوبة ولا من طريق الجراح والمعاينة وفي وضع المظهر موضع المضمر إشعار بأنهم سينخرطون في مسالك المحسنين لا المغتابين والمجرمين المعذبين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ للمسيئين المعتذرين ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 91] لمن عداهم من المقصرين فكيف للمحسنين.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين وهم الباكون سبعة من الأنصار هم: معقل بن يسار، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمر، وثعلبة بن عثمان، وعبد الله بن مغفل، وعلي بن زيد، وثعلبة بن زيد الأنصاري أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: أنذرونا بالخروج واحملنا على الخفاف المرقوقة والنعال المخصوفة نغزو معك، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ وتسيل وتربو من الدمع أي دمعًا أو علة أو مفعول مطلق حذف عامله ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92] متعلّق بحزنًا أو بتفيض.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ [التوبة: 93] وهم أغنياء، جملة حالية من فاعل ليستأذنوك رضوا جزاء آخر للضمير أو صفة لأغنياء، وطبع على قلوبهم حتَّى غفلوا من وخامة العاقبة وما عقلوا حسن العاقبة. قيل: استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو الرضاء بالدنائة والانتظام في جملة الجواب إيثارًا للإراحة والراحة فيهم، لا يعلمون صلاح الدنيا وفلاح العقبى في الأخرى والأولى.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة تبوك، نزلت حين كان المنافقون بضعًا وثمانين نفرًا، فجاؤوا إلى الرسول معتذرين ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾

يا معشر المتخلفين ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ ولن نصدقكم أبدًا ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ فيما سلف ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيما سيأتي ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ وسائر المؤمنين بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي عالم العلم والجبروت والأرواح والبرزخ موطن الصور الخياليّة والمثل النورية والأشباح وأرباب النوع مراتب أصحاب الفساد، وأرباب الصلاح والشهادة، ومرتبة العناصر والأفلاك والأجرام والأعراض الحسيّة والأغراض النفسيّة إلى الرتبة الناسوت، والمرتبة الأنسية. وإنما وضع الوصف موضع الموصوف تلويحًا إلى أنه مطلع على أسرارهم وإعلانهم، لا يفوت عنه شيء لا من ضمائرهم ولا من أحوال سرائرهم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94] من أعمال النفاق وأفعال الموافقين وأرباب الشقاق.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم من الغزاة المذكورة ﴿إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا﴾ وتتصرفوا وتستعلوا وتنحرفوا ﴿عَنْهُمْ﴾ إلى غيرهم، وإذا كان أمرهم على ما ذكرنا ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ وتصفحوا وانحرفوا ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن التوبيخ عليهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نجس وعملهم قبيح وكوكب طالعهم نجس، فإذا ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في الدنيا ومصيرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ جزاؤهم من الله ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95] نزلت في جد بن قيس وأصحابه، كانوا ثمانين رجلًا منافقين فقال النبي عليه السلام حين قدم المدينة: «**لا تجالسوهم ولا تكلموهم**».

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ مع كمال نفاقهم ووفور شقاقهم ﴿فَإِن ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 96].

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي أهل البدو وسكّان البرايا ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر وساكن المدر وبناء الحجر ﴿وَأَجْدَرُ﴾ وأحرى وأليق ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الشرائع وفرائضها وسننها ولعدم المؤانسة بأهل العلم وكمال توحشهم وقساوة قلوبهم واكتسابهم أخلاق البهائم والسباع وقلّة المصاحبة بأهل الكتاب وأصحاب السنّة والجماعة وأولي الألباب ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال أهل الوبر وأصحاب الحجر والمدر ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97] حاكم عليهم بالأمر والنهي وبالإحسان وبالإساءة والسوآت والعقاب، والإطاعة والإطابة بهما عمن شاء بما شاء.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ وخسرانًا وغرابة وكراهة ورياء الناس

بغية بهم من المسلمين لا لوجه الله وابتغاء لمرضاته ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دوائر الزمان وصروف الدوران الثاني مرّة بالخير وأخرى بالشرّ وهم ينتظرون موت الرسول وفوت الإسلام وظهور الشرك والإشراك بين الأنام من الخواص والعوام. نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم وحاضري المدينة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [التوبة: 98] بأقوالهم عند الإنفاق بالكراهة والقول المضمر في نفوسهم، لتربصهم الفتنة في الإسلام وهدم الشرائع وتغيُّر الأحكام ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 98] بما أسرُّوا وأضمروا وأبرزوا وأظهروا.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: 99] هو مقرون من مزينة وبني أسلم وغفار وجهينة. قال النبي عليه السلام: «**وغفار وهي من الجهنية ومزينة خير عند الله يوم القيامة من أسد وتميم وغطفان وهوازن**» اهـ.

إشارة وتأويل

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إلخ، تكرار آية الاعتذار إشارة إلى كثرة نشأة المنافقين في الأدوار والأكوار، وإلى أن استكمالهم لا يحصل في دورة واحدة بخلاف الخلص من الكفار، فإن أكثرهم يستكملون في دورة واحدة وكورة متحدة لاتحاد وجهتهم وتعدد وجهة المنافقين. نعم إن استكمالهم أتمّ واستحصالهم مراتب الكمالات أعمّ لكثرة مواطن نشئات أطوار الأدوار والأكوار في حق المنافقين، وعقد الذين كذبوا الله ورسوله ومكنوا في الدورة الجمالية، ولبثوا في الدورة الجلالية الأصلية والفرعية الإفرادية.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في دناءة الدورة الجمالية لله منهم من الأعيان النورية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90] آخرها عند انتقال الفرداريّة الوجودية الصريحة إلى الفرداريّة العدمية الظليّة الضمنية المتخلّلة بين الدورتين الصريحتين ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ أي على الأعيان الجمالية في الدورة العظمى العلمية لكونهم موجودين بالوجود الواحد وهو الوجود العلمي ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: 91] أي الأعيان النورية الجمالية الموجودة في الدورة الفرعية، أو المراد بالضعفاء هم السالكون الغير المجذوبين، وبالمرضى المجذوبين الغير السالكين. والمراد بالأول هم العالمون الغير العاملين، وبالثاني هم العاملون الغير العالمين، أو العمل بلا علم

ضلال والعلم بلا عمل وبال لقوله عليه السلام: «**سلوا الله علمًا نافعًا، ونعوذ بالله من علم لا ينفع**». ومن لا ينفعه علمه ضرّه جهله. أو المراد من الأول الطور القالبي، ومن الثاني الطور النفسي، وغير ذلك من الأطوار الباقية والأعيان النورية الجمالية الإفرادية، والأكوار الظليّة الوحدانية.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، إشارة إلى أن طور الوجود كوري وسيره دوري، فإن الحقيقة المحمدية بما لها ومن لها من الكمالات الذاتيَّة والأسمائيَّة، وهي النبوة الذاتيَّة والولاية المقيّدة والمطلقة، يدور على المراتب النورية والظليّة الصريحة والمضمنة ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ أو لا تميلوا يا أيها الأعيان النورية والأكوان الظليّة الإفرادية الصريحة والضمنية إلى الصورة الجمعية والهيئة الكليَّة النوعية والأصلية ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: 94] بما هو في قابلياتكم الجامعة لشرائط الاستعمال والتكميل في مراتب الأجسام والعناصر والأجرام واستعداداتكم الذاتيَّة السارية في الأعيان الثابتة والماهيات الكونية، والحقائق الإلٰهيَّة، وهي التي أفاض الفيض الأقدس الذي هو ظاهر التجلّي الذاتي الذي يفيض الكمال الذاتي والشهود الذاتي على الأعيان الثابتة والماهيات الكونية، إما بالأصالة والاستقلال أو بالتبعية والتطفل، والفرعية في ضمن شهود الذات، وتجلّي الذاتي والكمال الأسمائي والوصفي والآثاري.

أما الكمالي الذاتي فهو شهود الذات في مرايا الذات بالعنوان الذاتي أو بالعنوان الوصفي الذاتي كالعلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وأما الكلام الأسمائي فهو شهود الذات في مرايا الأسماء والصفات لصور منسوبات الأسمائيَّة الذاتيَّة كالمعلومات والأحياء والمقدورات والمرادات والمسموعات والمبصرات والكلمات وسائر الكمالات.

وأما الكمال الأفعالي فهو ينحصر على الفاعل الحقيقي والمؤثر الأزلي والأبدي بأن يرى تمام الأفاعيل وجميع الآثار وتكوين عموم الأطوار في كل الأدوار وجلّ الأكوار الإفرادية والجمعية الأصلية والفرعية راجعة إلى ذلك التفاعل، رابعة إلى ذلك المؤثر، راتعة إلى ذلك المدبر المصور. فلا نرى لأحد تأثيرًا ولا لفرد تدبيرًا.

وأما الكمال الآثاري وهو ما ظهر من تأثير الفاعل وصدر من تدبير المؤثر

العامل وهو عامل الملك والشهادة وأعيانها من الأجرام السماوية والأجسام العنصرية وما يتركب منها وفيها، وما يترتب عليها وإليها من الأعراض ومقولاتها التسع، فهو الذي يكون الفاعل عين القابل، والقابل عين الفاعل ويرى جميعها في أنفس كاملة وهو الكون الجامع والإنسان الرافع، فإن كان في السير في الله فيرى الكمال الجمعي بصورة نوعية وهيئة فرعية، وإن كان السير إلى الله فيشاهد الجمع الكمالي بصبغة الإنسان المعنوي وهو صفة جمعية الذات بالأسماء والصفات السبعة الذاتيَّة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ②﴾ [طه: الآيتان 1 – 2].

كما شاهد الكمال الجمعي الإلٰهي بصورة آدم وحواء فبشّر الله بقوله: ﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ②﴾ [يس: الآيتان 1–2] في نهاية السير من الله، ياسين، وهذه الصورة بعينها إشارة ورمز أو عبارة ومعنى وصورة هي الصورة الأولى كما يلوح إليها تطابق النشأة بالزبر وتوافق الزبر والفتوحات (سيرين) فإن الله تعالى خلق في النشأتين على صورة. وأما الإنسان الكامل الجامع للصورتين فهو إنما يكون في السير في الله الجامع للسيرين. هذا هو المقصد الأقصى والمطلب الأعلى من الحالات والمقامات، فتدبّر.

تفسير

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ⑩⑩﴾

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يريد الذين صدقوا النبي عليه السلام وهاجروا إلى المدينة ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ يريد أهل العقبة السبعين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ [التوبة: 100] حيث قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمرو أخو هاشم بن عبد الدار يعلّمهم القرآن، وكان مع السبعين للبقاء فلما قدم مصعب بن عمرو أخو عبد بني الدار يعلّمهم القرآن ويفقههم في الدين، وكان أول من جمع الصلاة بالمدينة فكانت الأنصار تحته، فأسلم معه سعد بن معاذ، وعمرو بن الجموح وهو عبد الأشهل كلّهم وخلف من الأنصار من النساء والصبيان وكان مصعب بن عمير صاحب راية

النبي ﷺ يوم بدر ويوم أُحد، وكان وحيدًا حيث انهزم الناس عن رسول الله ﷺ، وقى رسول الله بنفسه السهام حتَّى شاهدت المشاقص في جوفه، فاستشهد رحمه الله يومئذ فقال رسول الله ﷺ: «**عند الله أحتسبك**». ما رأيت أحدًا قطّ أشرف منه، لقد رأيته بمكة وأن عليه لبردين ما يدري ما قيمتهما، وإن شراك نعليه من ذهب، وأن عن يمينه غلامين وعن يساره غلامين بيد كل واحد منهما جفنة من طعام يأكل ويطعم منه الناس، فآثره الله وجرح في سبيل الله. وكان رسول الله ﷺ إذا أتت إليه طرفة خبأها لمصعب بن عمرو، فأنزل الله فيه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: الآيتان 40 - 41].

وأُخذ أخوه يوم بدر أسيرًا فقال الأنصار: من أنت؟ قال: أنا أبو غدير بن عمير أخو مصعب بن عمير، فلم يشدوه في الباقي مع الأسرى وقال له: هذه طريق اذهب حيث شئت، فقال: إني أخاف أن يقتلني قريش. فذهبوا به إلى منزلهم فأكرموه بالخبز والتمر وكان يمد يده إلى التمر ويدع الخبز، والخبز عند أهل المدينة أعزّ من التمر، وعند أهل مكة التمر أعزّ من الخبز، فقالوا له: إنا نؤثرك بالخبز لأنه عندنا أعز من التمر. فلما مضوا إلى مصعب بن عمير فقالوا: إن أخاك عندنا، وأخبروه بما فعلوه به فقال لهم: ما هو بأخٍ ولا كرامة، شدُّوا أيديكم به فإن أمَّه أكثر أهل البطحاء حليًّا. فشدُّوا في الوثاق فأرسلت أمه في فدائه ثم قتل يوم أُحد فلما رآه أخوه مصعب بن عمير قال في نفسه: والله لا يقتلك غيري. فما زال حتى جاءه فقتله فأنزل الله فيه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النَّازعَات: الآيتان 37 - 39] يريد أبا غدير بن عمير.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يريد يذكرون المهاجرين والأنصار الجنة والرحمة والدعاء لهم، ويذكرون محاسنهم ويسألون الله أن يجمعهم بنبيّهم ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ يريد رضي الله عن أعمالهم ورضوا ثواب الله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التّوبَة: 100] وليس في القرآن غيرها، ليس بمحفورٍ في الأرض إنما هي على وجه الأرض حروفها منها حافتاها الزعفران والكافور وضفافها المسك، وحراجها الحصا، وحصباؤها الدرّ والزبرجد، سبحان الله العظيم ما أعظم ما أعطاه لأوليائه فيها لا يصفها الواصفون، فلا تقف عليها العقول، سبحان الله العظيم ما أجلّ الله العظيم وأعزّ الله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يريد خالدين في

ربوبيته، ناعمين في ملك الله، قد نزع الله عنهم كل غمّ وهمّ وكل سقم وجوع ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ يريد من مزينة وأسلم وجهينة وأشجع وغفار ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ يريد الأوس والخزرج ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ يريد الله نفسه ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: 101] يريد في الأرض في الدنيا، وعذاب الآخرة. وذلك أن من مرض من المؤمنين كفّر الله سيئاته ومحص ذنوبه وأبدله الله لحمًا ودمًا خيرًا مما ذهب منه، وأعقبه ثوابًا عظيمًا، ومَن مَرِضَ من المنافقين زاده نفاقًا. وإنما وضعنا كما قال في هذه السورة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً﴾ [التوبة: 126] أو مرتين ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101] يريد شديدًا فظيعًا.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يريد قومًا من الأنصار ﴿خَلَطُوا۟﴾ عملوا ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يريد صادقًا وبراءة من النفاق وإيمان يتعين ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ غير الكبائر ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يريد يقبل حسناتهم ويمحوا سيئاتهم، والعسى من الله واجب، عسى الله بعد عسر يسرًا ففعل ذلك باب على هؤلاء الأنصار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 102] غفور لزلاتهم رحيم بهم إن ندموا ورجعوا.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ يريد من ثمارهم وأموالهم ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي يطهّرهم بها من الذنوب ويزكيهم، يريد أقبل منهم وأطهر وأتوب عليهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يريد ادعو لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يريد إن دعاءك رحمة لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103] سميع لقولهم، عليم بندمهم ورجوعهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ لمن رجع عن معاصي الله ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يريد من عباده ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي الصدقة إذا وضعت إنما وضعت في حرز الله يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فصيله حتّى يجدها يوم القيامة كالجبل العظيم ولو كانت تمرة أو أقلّ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 104] يريد يا عبادي المحسنين والمسيئين.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ علم ما غاب عن خلقه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لو أن رجلًا عَبَد الله في صخرة لأناب**»، ولأتوه يخرج عمله إلى النار كائنًا ما كان والله يطلع قلوب المؤمنين على ما في قلوب أصحابهم من الخير والشرّ، إن كان خيرًا أوقع في قلوبهم لهم المحبة، وإن كان شرًّا أوقع في قلوبهم لهم البغضة وإن لم يروه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105] يريد يوفقّكم على أعمالكم فيثيب المحسنين ويعاقب المسيئين كما قال تبارك وتعالى في سورة النجم: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النّجم: 31] يريد الذين قالوا لا إله إلا الله بالجنّة.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يريد لتوبة الله ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ يريد التمادي على معاصي الله والخذلان ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ يريد يعصمهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يريد بما في قلوب خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106] فيما صنع بأوليائه وأعدائه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ وذلك بأنهم بنوا مسجدًا بقباء وصلُّوا فيه بالنفاق، وكتبوا إلى رؤساء تبوك أن محمدًا قد تجهّز يريد غزوكم فاحذروا

واهربوا، فقدم رسول الله تبوك فلم يجد غزوة، وأتوا النبي ﷺ وهو على رأس سفرة، وهم إثنا عشر رجلًا: معونة بن عامر، ونبيل بن الحرث، ووداعة بن ثابت، وحذامة بن جلد، ومجمع وهو كان إمامهم فقد أتوه وقالوا: يا رسول الله إنَّا قد بنينا مسجدًا نقتصر عليه دواء لعلة منا ونصلِّ فيه في الليلة الشتائية الممطرة فلو جئت حتَّى تصلِّي فيه نتبرك بصلاتك، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قدمت إن شاء الله صلَّيت فيه**» فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ على المؤمنين، ﴿وَكُفۡرٗا﴾ يريد كفرانًا بالنبي ﷺ وما جاء به محمد ﷺ ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يريد يفسدون عليهم عدوهم حتَّى لقوا عدوهم ولا يقيمون في سفرهم ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يريد لمن لم يصدِّق محمدًا ﷺ ولا ما جاء به، يريد يحاربه ويقاتله، والحق في يد رسول الله ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ يريد أنهم كفروا بما جاء في التوراة والإنجيل من ذكر النبي ﷺ ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾ يريد هؤلاء الإثنا عشر رجلًا ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ يريد النصح لله ورسوله ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في إيمانهم، فأرسل رسول الله ﷺ عاصم بن علفي ومالك بن الدخشم، فنزل كل واحد منهما في قومه ثم عدوا مع أحدهما ناس والآخر بشعلة من نار، وهم في صلاة الصبح، فحرقوا وهدموا فأتوا النبي ﷺ يحلفون، فأنزل الله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبَة: 107].

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ يريد لا يصلي فيه أبدًا ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ﴾ بنيانه، قالوا: هو مسجد المدينة. وقال بعض أهل العلم: هو مسجد قباء ﴿عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يريد بُني على طاعة الله وبناه المتّقون الموحّدون ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ يريد من أول يوم بُني ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ يريد أحق أن تصلي فيه ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ يريد أن الأنصار استنجوا بالماء ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبَة: 108] يريد من الشرك، كانوا براء من الشرك والنفاق.

﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾

﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد على مخافة من الله ورجاء

﴿وَرِضْوَانٍ﴾ يريد ورضوانه، يريد أنهم يحلفوا مرضاة الله في بنيانه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ يريد انهار بأهله ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يريد صيّرهم النفاق إلى النار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يُرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: 109] يريد المشركين ولا من عاند الله وعاند رسول الله.

هذا ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ [التوبة: 100] أقول: الذي هجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم أولًا إلى الحبشة وثانيًا إلى المدينة، اختلفوا فيهم بأن أول من آمن برسول الله بعد امرأته خديجة بعد اتفاقهم على أنها أول من آمن برسول الله ﷺ وأبو بكر، وذهب الأكثرون على أنه علي بن أبي طالب، فإنه أول من أسلم به. قال النبي عليه السلام: «**أول مَن أسلم بي علي بن أبي طالب**». وقال أيضًا: «**أوّلكم ورودًا على الحوض، وأولكم إسلامًا علي بن أبي طالب، وأول من صلّى معي علي بن أبي طالب**».

ومنهم من وفّق بين هذه الأخبار وأول من آمن مِنَ الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي بن أبي طالب، ومن العبيد زيد بن حارثة، ومن النساء خديجة. وقيل: إن من آمن بمعجزات الرسول ومعراجه أبو بكر. روي أن النبي ﷺ أسري به، فخرج من بيته وأراد أن يجيزه وكان أبو بكر قد تأمّل في نفسه واغتمّ في كفره، وقصد أن يأتي إلى النبي ﷺ لأن يرشده إلى الإيمان بالله فخرجا عن البيت فتلاقيا في الطريق، فقال النبي: يا أبا بكر إني رسول الله إليكم، وأسرى بي ربي في هذه الليلة، فقال أبو بكر: قد صدقت وأنا آمنت بك وبما جئت به. فلما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه، وكان رجلًا شيخًا كهلًا وأكبر سنًّا بين قريش وأعلمهم بما كان بينهم من التواريخ وقصص الأنبياء، تاجرًا يألفونه ذا خلّة وخلق حسن، معروفًا بينهم يرجعون إليه ويسألونه لكثرة علمه وحسن مجالسته، وكثرة مؤانسة القوم به. وكان يدعو الناس إلى الإسلام فأسلم به من وثق من قومه، عثمان وزبير ابن العوام، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله. فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين أسلموا وصلُّوا وكانوا هؤلاء الثمانية سابقين إلى الإسلام، ثم تبايع الناس في الدخول.

وأما السابقون من الأنصار هم الذين بايعوا مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا سبعة في العقبة الأولى، وسبعين في الثانية، ونصروا الرسول على أعدائه

وآووا أصحابه. وقيل: هم الذين صلّوا إلى القبلة، والذين اتّبعوه بإحسان هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والنصرة إلى يوم القيامة، والذين يحسنون المهاجرون والأنصار بالرحم والتعاطف والإنفاق وحسن الوفاق والفرار عن النفاق، فأصحاب رسول الله بأجمعهم في الجنة محسنهم ومسيئهم، لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ من غير تقييد بصفة. وأما الذين اتّبعوا فمشروط بالمتابعة الحسنة دون السيئة.

قال النبي عليه السلام: «**لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه**». ثم جمعهم الله على الثواب ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ﴾ الإعداد الجنة والإمداد هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]، هذا الوعد بالأصالة لهم وبالتبعية للمبايعين والذين يلونهم إلى يوم القيامة.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ في المدينة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة فمن هؤلاء الأعراب منافقون ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ﴾ من الأوس والخزرج قوم منافقون ﴿مَرَدُواْ﴾ وتمرنوا وثبتوا ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ﴾ يا محمد نحن نعلمهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل. روي أن رسول الله ﷺ قد خطب يوم الجمعة فقال: «**أخرج يا فلان فإنك منافق**» فأخرج من المسجد ناسًا وفضحهم، هذا هو العذاب الأول. وأما الثاني فهو عذاب القتل والأسر والسبي. وقيل: هو عذاب القبر، أو هما الجوع والقتل. عن ابن عباس: إن المرة الأولى هي إقامة الحدود عليهم، والأخرى عذاب الآخرة والقبر. أو الأولى إحراق مساجدهم مسجد مسجد. وفي بعض التفاسير: الأولى ضرب الملائكة وجوههم ودباريهم عند قبض أرواحهم، والأخرى عذاب الآخرة والقبر. والأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101] غليظ، وهو الخلود في النار.

وقوم آخرون من أهل المدينة أو من الأعراب لا المنافقين ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾ وأقرّوا ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 102] ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا وشدوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ ودخل المسجد على عادته، فصلّى ركعتين فسأل عنهم، فذكروا له أنهم قسموا أن لا يحلوا

أنفسهم حتَّى تخلِّيهم أنت وترضى عنهم. فقال عليه السلام: «**أنا أقسم بالله أن لا أطلقهم ولا أعذرهم حتَّى [يأتي أمر الله] بإطلاقهم لأنهم رغبوا عني وتخلّفوا عن الغزو**». فأنزلت فأرسل إليهم رسول الله ﷺ: وأطلقهم وأعذرهم، فلما انطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفنا عنك نتصدّق بها عنك وطهرنا واستغفر لنا، فقال الرسول: «**ما أُمرت أن أتخذ من أموالهم شيئًا**». فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ بواطنهم عن النفاق، ولتنموا حسناتهم، وتمحى سيئاتهم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وادعُ لهم وعاطف عليهم بالدعاء والاستغفار ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ وبها يقوّيهم ويطمئن بها قلوبهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103] بإقرارهم ظاهرًا وباطنًا، يكفيه حالهم وصدور اعترافهم ومقالهم، وتحسن ما لهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ المتوب عليهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بأن يكون المراد أن يتمكن في قلوبهم قبول نياتهم والاعتذار بصدقاتهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: 104] ويقبلها ويزكيها وينميها. قال النبي عليه السلام: «**والذي نفسي بيده ما من عبد متصدِّق من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبًا ولا يصعد إلى السماء إلا الطيب إلا كأنما يضعها في يد الرحمٰن فيربّيها له كما يُربّي أحدكم فلوه، حتَّى إن اللقمة لتأتي يوم القيامة وهي مثل الجبل العظيم، وإن الله هو التوّاب الرحيم على اليائسين، الكريم بالمنيبين**» ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ ما شئتم، متى شئتم، أين شئتم ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ يردّها عليكم إنما هي أعمالكم تردّ عليكم الحديث ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من الأنصار والمهاجرين وغيرهم من عباد الله المخلصين المتخصصين بمزيد شرف الزينة ومرتبة المربية ولذلك قرنهم بالعطف بالله وبرسوله ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105] في النشأة الأولى إلى السعادة العظمى في المحشر الأكبر والدرجة العليا.

﴿وَآخَرُونَ﴾ أي قوم آخرون، وهم الثلاثة سمعت قصتهم من بعد وهم كعب ابن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، فإنهم لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابهم، فوقعهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مخالطتهم ومكالمتهم، وشقهم الخلق وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكانوا من أصحاب بدر فقالوا: إنهم هلكوا. وقال بعضهم: عسى الله أن

يغفر لهم، فصاروا مُرْجَيْنَ ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 106] حتَّى نزلت آية توبتهم بعد خمسين ليلة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجدًا يضارون به مسجد قباء. وكان إثنا عشر رجلًا قصدوا ببناء مسجدهم إضرار المؤمنين وتعطيل مسجدهم وكفروا بالله ورسوله ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلُّون جميعًا في مسجد قباء، فبنوا مسجدًا آخر بقرب مسجد قباء قصدًا لإضرار المؤمنين بأن يتخلفوا ويتفرّقوا، فأتوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهَّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنَّا قد بنينا مسجدًا لذي العدلّة والسقم والحاجة والمرض والعاجز والضعيف والليلة الممطرة والشتائية، ونستدعي منك أن تأتينا وتصلِّي بنا فيه وتدعو لنا بالسعادة والبركة. فقال رسول الله ﷺ: «**إني على جناح السّفر، فإذا قدمنا أتيناكم وصلّينا لكم فيه**». ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ أو تربُّصًا وانتظارًا وإعذارًا ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [التوبة: 107] وكان منهم أبو عامر، كان يترهّب في الجاهلية ويتنصرّ ويلبس المسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئت به؟ قال: «**جئت بدين إبراهيم، دين الحنفية**». قال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدًا وحيدًا غريبًا، فقال عليه السلام: «**آمين**». فلما كان يوم أحد قال أبو عامر: لا أجد قومك يقاتلونك إلا إنَّا معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين.

فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربًا إلى الشام، فأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا مسجدًا فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بنجدة فأخرج محمدًا ﷺ وأصحابه. فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قبا ليصلِّي فيه بعد الرجوع من الشام ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾ أولئك المنافقون أتباع بني عامر الفاسق بالله ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وما قصدنا بنيانهم إلا الفعلة والنيّة والخصلة إلا الحسنى ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 107] في مقالهم وحلفهم.

روي أنه عليه السلام لما انصرف من تبوك فلما قرب إلى المدينة استقبلوه سائلين منه ليصلِّي في مسجدهم، فنزلت الآية وأخبر الله خبر مسجد الضرار وغرضهم وقصدهم من بنائهم، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الأصم ومضر بن عدي وعامر بن السكن والوحشي قاتل حمزة عم الرسول وقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله واهدموه واحرقوه**». فخرجوا سريعًا حتَّى سالم بن عوف

وهو رهط مالك بن الأحسم، فقال مالك بن الأحسم: انظروا حتَّى أخرج إليكم من أهلي، فدخل المسجد بصاحبيه وفيه فحرّقوه وهدموه وفرق عنه أهله، فأمر النبي أن يتخذ ذلك المسجد كناسة يلقى فيه الجنف والتبن والقمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدًا غريبًا كما ابتهل لنفسه على نفسه إذ عارض النبي ﷺ.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ أي في مسجد الضرار، ولا تصلي فيه أبدًا، نهى الله عزَّ وجلَّ نبيّه أن يصلّي فيه، والله إنه ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ وبني بنيانه وبناه ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ واتقاء النفس عن إحداث الفتن وضرار المؤمنين ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ووضع أصله وهو مسجد قبا ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ مصلّيًا، ومسجد الرسول ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ﴾ [التوبَة: 108].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ وورع وإنقاء النفس مما لا يرضى به الله ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي على طلب التقوى ومرضاة الله خيرًا ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ أي طرف وادٍ أقرب إلى السقوط فسقط بالسيل أي أرض لينة لا تحتمل البناء، أو البئر التي لم يطوَ ﴿هَارٍ﴾ [التوبَة: 109] ساقط يتداعى بعضه في إثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الذي فيه الرخو أصله هائرٌ مثل ضال فعمل فيه عمل ضال ﴿فَٱنْهَارَ﴾ فسقط وانهدم ومنه نهور الليل إذا ذهب أكثره، وفي مصحف: فانهارت به قواعده بالباني له ولأجله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبَة: 109] الواضعين الأشياء في غير موضعها.

إشارة وتأويل

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلخ، أي إشارة تنوُّع حصص لأعيان الوجود، فمنهم يستصحب الحقيقة المحمدية وظهر آثار أنوار المصاحبة لدى الهجرة والانتقال بالشرك من مكة الأحدية الجمعية الوجودية وكعبة الوحدة الذاتيَّة النورية في بداية الدورة العظمى الجمالية الوجودية الصريحة إلى مدينة الواحديَّة بنيت فيها بخصوصية الأنصار، ثم ينزل منها إلى الدورة الكبرى النورية في مرتبة الملكوت وعالم الأرواح، ثم إلى المرتبة البرزخية، ثم إلى المرتبة الشهادية والملكية، ثم إلى المرتبة الجامعة الناسوتية الإفرادية.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ بالجذبة الإلٰهيَّة وبالسلوك والمجاهدة بعد الاستعمال

في الأدوار النورية الأصلية والفرعية، واستجماع مقتضياتها. ثم بعد الاستكمال في الأدوار الإفرادية الأصلية والفرعية ﴿عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ تجليّات جمعية شهودية بعد التجليَّات الوجودية الإفرادية والجمعية ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة التي هي مقتضيات الأسماء الأربعة الذاتيَّة الإفرادية الأصلية والفرعية، ومرضيات التجليَّات الأربعة الذاتيَّة الأسمائيَّة والأفعالية والآثارية ﴿خَٰلِدِينَ﴾ [التوبَة: 100] لا تنفك عنهم مقتضيات التجليَّات ومرتضيات الجنات والأعيان النورية والأكوان الظليّة، كل ما يحصل لهم ويحضر لديهم من الكمالات النورية والحالات والمقالات الظليّة متقرِّرة فيهم، لا تزول عنهم أبدًا ويتراكم فيه شيئًا فشيئًا إلى أن يصلوا إلى الكمال الجمعي الإفرادي، والجمعي والجمع الجمعي.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ [التوبَة: 101] إشارة إلى عدم تساوي الأعيان النورية والأكوان الظليّة الضمورية في الاستعدادات الذاتيَّة والقابليات الأسمائيَّة، وذلك لأن يشبه الشبه الذاتيَّة كالقدرة والتجلِّي الذاتي إلى تمام الأعيان على السواء، وإلا ارتفع التميُّز وتعطل التكوين، واختفت الكمالات في أرباب التكوين وأصحاب التمكين والإرادة الإلٰهيَّة التي يتعين بها الحق في المرتبة الواحديَّة، تخصص كل عين من الأعيان النورية وكل كمون من الأكوان الظليّة الجلالية صريحًا وضمنًا بكمال وتقرّب ووصال بجمال وجلال، فربما يخصص بعض الحصص الاستعدادية بما هو من خصائص الصورة الجمعية بين الأصلية والفرعية، أو بين النوعية الوجودية والنوعية العدمية، أو بين الدورة الاستقلالية والتبعية والتدريجية والدفعية، فتكون تلك الحصص ذات وجهين: وجهة إلى نور الجمال والإيمان، ووجهة إلى ظلمة الجلال وعدم الإيمان. فطالت النشئات وغالت الشؤونات في حق المنافقين، فما من دورة من الأدوار ولا كورة من الأكوار أصلية كانت أو فرعية، استقلالية أو تبعية، إلا وللنفاق فيها قدم ثابت.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ فرق غفيرة وسرق كثيرة وخرق كبيرة مردوا على النفاق، وأنت يا محمد لاتحاد وجهتك وانفراد قبلتك ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ نحن لإحاطتنا بتمام الجهات وإماطتنا مقتضيات تخالف الوجهات ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾ سنعذبهم مرتين، مرة في دركات النشئات النورية، وأخرى في تدارك دركات الظليّة والضمورية، ثم بعد النشأة الإفرادية النورية الصريحة والضمنية ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبَة: 101]

وعقاب غليظ عميم بالترديدات وكثرة النشئات في الأدوار الجمعية والأكوار المعتبرة الوجودية والعدمية.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى مرتبة السالكين في الأطوار النورية الصريحة، والأكوار الضمنية عند توافق مقتضيات المولود الإنسي ومرتضيات المولود الجني لدى اندراج شيطان الجلال تحت حكم سلطان النور والجمال قد ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو السلوك النوري الجمالي ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو السلوك والسير الجلالي ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبَة: 102] توبة الأضداد وتقوية الأمثال والأنداد. قال النبي عليه السلام: «**ما منكم من أحد إلا وله مولود جني، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم بيدي، فلا يأمرني إلا بالخير**».

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [التوبَة: 103] وعلومهم وإدراكاتهم الحاصلة عقيب شهود التجلّيات الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية هي تضاعف آنًا فآنًا إلى غير النهاية، وهي التي لا تحصل إلا العالم الكل ومحيط الجزء والكل كما علمت مرارًا ﴿صَدَقَةً﴾ واصرف إلى فقراء الطور القالبي والنفسي والقلبي بالتعليم والإرشاد ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الأوساخ والآثام البدنية والأجرام النفسانيَّة ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبَة: 103] أي دعوتك وإرشادك تسكن قلوبهم وتمكّن نفوسهم وعقولهم.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي هاهنا قوم آخرون في نهاية الأدوار الوجودية وغاية الأكوار العدمية ما بلغوا في الكلام الجمعي والجمع الكمالي إلى النهاية مرجون ﴿يَرْجُونَ﴾ في مقام الخوف والرجاء ورد الكل، وهم أهل السنَّة والجماعة من أصحاب القلوب وأرباب السرّ وأطوار الغيوب لأن الجبرية الجذبة الإلٰهيَّة ولأن القدرية أولي المجاهدة والسلوك يرجون ويرتضون لأمر الله وأفعاله ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بالترديد على النشئات ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بالجذبات الخاطفة والتجلّيات العاطفة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المجذوبين وأفعال المحبين والمحبوبين ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبَة: 106] على أهل القرب والبعد.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبَة: 107] وهم أهل الصدّ الذين بنوا مسجد الضرار بلا تزكية النفس عن الهواجس النفسانيَّة والرواجس الجسمانية قريبًا بمسجد قبا الذي هو بقرب القلب المصفى عن الملكات الردية والهيئات الدنية المستعدّة للشهود الإلٰهي، والباقي ظاهر.

تفسير

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾ يريد شكًّا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 110] كما في سورة البقرة لأهل العجل ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ [البقرة: 93] يريد صاحب العجل، قالوا: عبادته أيسر علينا من عبادة الرحمٰن والعجل إن عصيناه لم يعذبنا والرحمٰن إن عصيناه يعذبنا ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يريد الموت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 110] عليم بخلقه الصادق منهم والشاكّ، حكيم فيما جعل للصادقين من الثواب، وحكيم بما صنع للكاذبين من العقاب.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

ثم أثنى على المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ يريد الجنة ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ يريد التي ينفقونها في سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالاتهم فبقي ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي لا تفنى ولا تبلى ولا تنفد ولا تذهب ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد في طاعة الله عدوّهم وعدوّ الله ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ في طاعتي ومحبتي ثم يصيرون أحياء عندي فيرزقون ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يريد وعدًا منه حقًّا لأن مآلهم من الله لا يخلف فيه ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يريد شهدت هذه الشهادة وهذا الثواب في التوراة والإنجيل والفرقان الذي أنزل على محمد ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد بوعده من الله ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ من الله ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111] انقطعت الصلة وذهبت العقول عن معرفة هذا.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

ثم زادهم مديحًا وثناءً ومحبةً، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ يريد الزاهدون عن الشرك ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ يريد الموحدين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ يريد الله على كل حالٍ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ يريد الغزاة في سبيل الله والجهاد يريد بأموالهم وأنفسهم ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ الذين يصلُّون لله بنيَّة صادقة وقلب سليم ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يريد بفرائضه وحدوده وتوحيده ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ يريد عن ترك الفرائض وحدوده والشرك بدينه ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ يريد لما تقرّب إلى الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 112] يا محمد.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ يريد محمدًا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن قبر أبيه وأمه فأرشده فذهب إليهما وكان يدعوا لهما وعلى من يؤمن ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التّوبة: 113] يريد من أهل الجحيم.

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ فكان أبو إبراهيم وعد إبراهيم أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ﴿فَلَمَّا﴾ مات وفات على الكفر ﴿تَبَيَّنَ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: 114] يريد الدعاء الكثير البكّاء الراجع عن كل ما يكره الله إلى كل ما يحب الله ويرضى، حليمًا لم يعاقب أحدًا قط إلا في الله، ولم ينظر لنفسه من أحد إلا في الله.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ يريد أرشدهم إلى محبته ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يريد من أمر دنياهم مما لا يحلّ وما يحلّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ شرَّعه لأوليائه من طاعته ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 115] عن معصيتهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد أنه لا يملكها وما فيها مَلِكٌ وهو الذي خلق تلك الأرزاق من عنده وما ينزل من الرضى والسخط والرزق والرحمة والعذاب ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ يريد الخلق ثم يميتهم ثم يبعثهم ﴿وَمَا لَكُم﴾ يريد الخلق يبشر الخلق ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد غير الله ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 116] يريد يتولكم ولا ينصركم، يتولاكم يريد يمنعكم.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ يريد لقد رضي الله عن النبي عليه السلام ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فقد دخل في هذه الطلقاء الذين غزوا مع رسول الله ﷺ تبوكًا فسمّاهم بالهجرة والنصرة واتبعوه ورضي الله عنهم وجعلهم في الجنة والثواب في هذا الموضع سواء ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ يريد في ضيق من السفر وشدّة الحر حين طابت الثمار واشتد وهج الشمس، وشق الخروج على القوي والضعيف فسمّاه جيش العسرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ميل قلوب بعض من كان فيها إلى التخلف والعصيان ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يريد ازداد رضاه مرة بعد مرة ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 117] يريد رفيقًا رحيمًا بهم.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: 118] يريد كعب بن مالك أحد بني سلمة، وقزادة به الربيع أحد بني عمرو، وهلال بن أمية أحد بني واقف، قد كان أبو خيثمة يحلف وكان من المؤمنين بالله المصدقين برسوله، فلما مضت الأيام وهو في ظلّه فينضح على وادي له معه زوجتاه في غراسها منطوين إذ نظر إليهما وإلى حسنهما وإلى ظلّ عرشهما وإلى نفسه، وما هو من النعيم والسرور عند ذكر رسول الله ﷺ وما فيه من الحر والتعب والنصب في نفسه [فقال]: والله لا يرضى بهذا ولا هذا من الإنصاف فتحول إلى بعيره حتَّى أتاه وهيَّأ رحله وجمع زاده من التمر، فقالت زوجتاه: ما تريد يا أبا خيثمة، فقال الغزو: فممن لنا من المورى؟ قال الغزو: فتوجه نحو رسول الله ﷺ حتَّى كان في بعض قلعته خالد بن الوليد مقبلًا من مكة وقال آخرون: لقي عمر بن وهب الجمحي فاصطلحا حتَّى دنوا من النبي ﷺ فقال لصاحبه: إليك حاجته يتخلف وأتقدمك، إن لي ذنبًا فتخلفت عن رسول الله ﷺ وأنت ليس لك ذنب إنما بعثك رسول الله ﷺ وأنا كنت بحضرته حتَّى خرج فقال نعم، وكرامة لك يا أبا خيثمة. وكان رسول الله ﷺ في ذكرهم لما يعلمون من إيمانهم وحسن نيّاتهم فقال ما شاء الله أن يقول.

ثم إن الرسول عليه السلام مدّ طرفه إلى الطريق فإذا راكب مقبل فقال أبا خيثمة: فنظر أصحاب رسول الله ﷺ فقال أبو خيثمة: يا رسول الله، ففرح رسول الله والمسلمون. ثم أتى إلى النبي عليه السلام فقصّ عليه واستغفر له رسول الله ﷺ ودعا له بخير. وبقي كعب بن مالك بايع رسول الله ﷺ على العقبة، فلما تخلّف عنه قالوا: يا رسول الله هذا كعب بن مالك الثقة للرضا ورسول بالشاعر وما ظننت أن بلغ وقدم رسول الله المدينة أتاه كعب بن مالك وقد ابتاع إلى بعيره فتزود زادًا فقال فلان: والله ما خلفه إلا نزره والنظر في عطفته، فقال معاذ: يا رسول الله والله ما أعلم إلا فضلًا وإسلامًا فلم يردَّ عليّ، فلما أتيت رسول الله ﷺ ابتعت بعيرًا لحضرتي وتزودت زادًا قلت: نعم، قال: فما الذي خلّفك؟ قلت: خلفني الأشر

والبطر، قال: فأعرض عن رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: لا تكلموه ولا تسلموا عليه. وأرسل إلى امرأته أن اغربي.

فلما ولّيت أتاني بعض إخواني يعاتبوني، فعاتبوني فقالوا: ألا اعتذرت إلى رسول الله وسألته يستغفر لك حتَّى هممت أن أرجع فكذبت نفسي، وقد كان أتاه [بعضهم] فاعتذروا إليه فقبل علانيتهم ووكَّل سرائرهم إلى الله، فهممت أن أفعل هل أعتذر منك بمثل عذر أيّ أحد غيري، قالوا: فذكر لي رجلان صالحان فقلت: لي بهذين أسوة، فأقمت مهاجرًا. فبينما أنا ذات يوم على أحجال الربث بالمدينة إذا أقبل رجل من الشام معه كتاب من جبلة بن الأيهم يريدني ليس أحد يرشده إليّ حتَّى جاءني فقال له: إن الذي تطلب على أحجار الربث قاعد، فرجع بكتاب إليّ فإذا هو أُبي بن كعب بن مالك.

[قال] جبلة بن الأيهم أما بعد: فإن الله لم يجعلك بدار مذلّةٍ ولا هوان وقد بلغني أن صاحبك قد جفاك وأهانك فأقدم عليّ، فتلك المواساة في كل ما أمّلت فقلت في نفسي: يا كعب طمع أهل الكفر بالله بعد اليقين والمغفرة فمنها إلى تنور مسجور، فألقيت الكتاب فيه ثم تسورت حائط بني عمي قتادة بن ربعي وألقيت نفسي إليهم، وكان كلما رآني مقبلًا إليه غلقوا الباب في وجهي فسلمت عليه فلم يردوا عليّ الجواب للسلام، فقلت: أنشدك الله يا قتادة أما تشهد أني مؤمن؟ قال: الله ورسوله أعلم بإيمانك.

فخرجت وأنا أبكي لما جاءني من سخط الله حتَّى أتيت المسجد فأقبلت في صلاتي أقبل إليّ بالفطر حتَّى تعاقب عليه أربعون صباحًا، فبينا أنا على سخطي ووحدتي أفكر في سخط الله عليّ إذ سمعت هاتفًا قد سبق إليّ صوته ولم يأتِ فذكر والله أعلم أنه الزبير بن العوام وقد كان آخا بينه وبين الزبير بن العوام وكان على فرس فحال بيني وبينه الوادي وذكروا والله أعلم أن أبا بكر أتاه مبشرًا، وأما الذي سبق له بالبشرى فغير هذين. قال كعب: فألقيت بردين لي لا أملك غيرهما واستعرت من بني عمي بُردين لبستهما ثم أتيت رسول الله ﷺ وعنده الخلق فقدموه في صاحبي فقام رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: الآيتان 117 - 118].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يريد من الوحشة والضيقة وصرف وجه رسول الله وأصحابه عنهم ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ يريد تيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ يريد أراد بهم رضاء وعصمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] يريد لأوليائه رحيمًا بأهل طاعته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ﴾ يريد ﴿ٱللَّهَ وَكُونُواْ﴾ يريد خافوا الله ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119] يريد مثل المهاجرين والأنصار، فسمَّاهم في هذه الصادقين، وفي الحجرات صادقين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجرات: 15]، وفي سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يريد ما يفضل عليهم من كرامة الخمسة سوى الثواب ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: 8].

ولا يزال بنيانهم الذي أقول تثبيت هدم بنيانهم وصدم بنيانهم الذي بنوا في جنب مسجد قبا يكون ريبة وسبب شك وعلة، أو ازدياد نفاق واشتداد مخالفة وشقاق، وموجب ارتداد وارتياب في قلوبهم وامتداد تحسُّر وندامة في فؤادهم ونفوسهم، الآن تقطّع وتصدّع قلوبهم يعني أنت يا محمد تقطع قلوبهم بسنان التحسُّر وسيف الغصص والندامة والملامة إلى أن تمولوا في الدنيا بالغصة ثم يعذب الله إياهم في الآخرة بأشد العذاب وأحدّ العقاب. وإلا هاهنا بمعنى إلى أن، ويؤيده قراءة الحسن: إلى أن يقطع قلوبهم والله عليم بسوء حالهم في الدنيا، عليم بأشد العقاب وأحدّ سورة نار العذاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ وبايعوه ليلة العقبة بمكة، وهم سبعون، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشرُطْ لربّك ولنفسك ما شئت، فقال: «**أشرط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوا بي مما تمنعون منها أنفسكم وأموالكم**». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال عليه السلام: «**الجنة**»، قالوا: ربح البيع ولا نقبل ولا نستقبل. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ﴾، يكون ثوابه الجنة وإعطاؤه وعدًا عليه يكون حقًّا ثابتًا في التوراة والإنجيل، أو مفعول مطلق حذف عامله قياسًا والقرآن.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم﴾، ﴿وَذَلِكَ﴾ البيع والشراء ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبَة: 111]، أولئك هم القانتون من الشرك والنفاق والرياء. والأول مبتدأ خبره محذوف أي التائبون بما عطف إذ لهم الجنة. العابدون المطيعون المخلصون في عبادتهم، المواظبون عليها ليلًا ونهارًا، إخلاء وملاء، سرًّا وجهرًا، في السرّاء والضرّاء، الحامدون الله في الأحوال كلها.

قال النبي عليه السلام: «**أول ما يدعى إلى الجنة الحمّادون الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء، السائحون الصائمون التاركون اللّذات كلها المطاعم والمشارب والمناكح والمجاهدون.**». وقال النبي عليه السلام: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**». قيل: هم طلبة العلم الراكعون الساجدون يعني المصلُّون صلاة كاملة شاملة لصلوات الموجودات كلها من الأملاك والعناصر والأفلاك والمواليد لا الناقصة كصلاة الجنازة، فإنها لانتفاء صلاة الحيوانات وهي الركوع، وصلاة النباتات وهي السجود منها ناقصة، ولذا أفردهما بالذكر من باقي أركان الصلاة.

﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان وما يتفرع عليه من الصلاة وسائر العبادات البدنية ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو الشرك وما يناسبه من الافتراء والإفك. والمراد بهما السنَّة والبدع ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي القائمون بأوامره والمنتهون عن المنكرات أو الوافون بعهوده الموفُّون ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبَة: 112] المسلمين المستجمعين تمام سهام الإسلام، وهي ثمانية. قال النبي عليه السلام: «**الإسلام ثمانية: الإسلام سهم، والصلاة والزكاة سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف والنهي سهم، وقد خاب من لا سهم له**».

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ سبب نزولها أنه لما حضرت وفاة أبي طالب دخل عليه النبي عليه السلام وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال رسول الله ﷺ: «**أي عم إنك أعظم الناس عليّ حقًّا، قل كلمة تجب لك شفاعتي يوم القيامة، قل لا إله إلا الله أحاجّ [عنك]**»، فقال أبو جهل وعبد الله: أنزعت عن ملّة عبد المطلب إلى أن تقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ:

«**لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فأنزلت: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ ووضح لديهم ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبَة: 113] بأن ماتوا على الكفر. وكذا نزلت في حقّه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القَصَص: 56] وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم لا أمواتهم، فإنه طلب التوفيق للإيمان فاندفع النقص باستغفار إبراهيم لأبيه الكافر، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدَها إبراهيم إيّاه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المُمتَحنَة: 4] فهي الوعد بالإيمان. فلما تبيَّن وظهر واتضح وتعين لإبراهيم إما بالوحي أو الإلهام أنه عدوّ لله وبأنه مات أبو إبراهيم على الكفر تبرأ منه. وفي الحقيقة أن هذا الاستغفار دعا له بالإيمان حتَّى يوصف فيغفر له لا أنه يطلب المغفرة له كافرًا ثابتًا على الكفر.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوُّه وهو كناية عن فرط المحبة ووفور العشق والمودّة ﴿حَلِيمٌ﴾ [التوبَة: 114] صبور على الأذى، حمول على المحن والشدائد بوقوع الفتن كما هو شأن المحبين ووظائف العاشقين الصادقين، أو أنه عليه بفرط ترحمه وكمال رقّة قلبه وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر فيستغفر له. فإن قيل: قد قال النبي عليه السلام: قد نقلنا من أصلاب طاهرة إلى أصلاب طاهرة، لا يمسنا دنس الكفر والشرك، أجيب بأن النطفة إنما تنتقل حالة الإيمان والكفر إنما يعرض بعد الانفصال كما حكي أن خديجة زوجة النبي قد تحدّثت أن نطفة النبوة إنما هي في صلب عبد الله أب النبي، فأرادت تزوُّجه ثم بعد ذلك اليوم لما انتقلت إلى ابنه عليه الصلاة والسلام تعطبت به فإذا فتحت بينها ولازمت أمّ الرسول إلى أن وضعت ثم تربصت كبره إلى أن بلغ مبلغ الرجال فتزوجته. وحكي مثل هذا عن إسحاق وقيدار جدّ الرسول.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي يسمّيهم ضالًا ويحكم عليهم بالضلالة ﴿إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ووفّقهم له ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ كأنه معذرة للرسول من قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه من المشركين. قال بعضهم: هذا في المنسوخ وذلك أن قومًا قدموا على النبي ﷺ وأسلموا ولم يكن الخمر حرامًا والقبلة مصروفة إلى الكعبة، قالوا: يا رسول الله فما حالنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ [التوبَة: 115] قد عملوا بالمنسوخ حتَّى يتبين بالناسخ. وبالجملة دليل على أن الغافل غير مكلف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ

﴿وَيُمِيتُۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التّوبَة: 116] لما منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولى قربى وذلك يتضمن وجوب التبرئ عنهم.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ ويصفح عنه ويتجاوز منه في كل وقت وحين، فإن الممكن كما يحتاج في كل وقت إلى مرجِّح يرجِّح وجوده على عدمه، كذلك يحتاج في حفظ صحة نفسه وقلبه إلى دفع الغفلة عنه وإحضاره بربّه وإبقائه وتثبُّته عليه، كما قال النبي عليه السلام: «**الإيمان بمنزلة القميص يلبسه تارة ويضعه تارة**». وقال أيضًا: «**إني ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة**» ولذا أستغفره بالاستغفار وإنه كان توّابًا، فما من أحد إلا وهو يحتاج في كل آن إلى التوبة.

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ من أذن للمنافقين في التخلف ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التّوبَة: 117] والمراد غزوة تبوك ولذا سمِّيت بغزوة العسرة والشدّة لقلّة الزاد والماء وعوز الركوب وشدّة الحرب وشدّة العطش، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ادع السّقي، قال: «**تحب ذلك وتريد**»؟ قال: نعم. فرفع يده فلم يرجعها حتّى نالت السماء فأظلمت ثم سكبت ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ يميل ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى التخلُّف والانصراف عن الغزاة واتِّباع الرسول ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ﴾ وقبل توبتهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبَة: 117] مشفق عطوف على عباده في الدنيا، يرحمهم في الآخرة.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك الشاعر، ومروان بن الربيع، وهلال بن أمية كلهم من الأنصار، وقال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة إلا غزوة تبوك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ واتسعت ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ غمًّا وهمًّا ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ ولا منجأ ولا محيط ولا مفزع ﴿مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وقبل منهم التوبة ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ ويستقيموا ويثبتوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجَّاع على عباده بالمغفرة أو كثير الإعانة والتوفيق على التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [التّوبَة: 118] بالرحمة الواسعة المستغرقة بجميع أقسام الرحمة التي هي تسع وتسعون رحمة قد آثرها الله تعالى لنفسه ليوم الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبَة: 119].

إشارة وتأويل

لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن يقطع قلوبهم إشارة إلى طريق الإرشاد ورعاية ما يجب حفظه في تكميل النواقص في العبادة والرياضة والمجاهدة، ليقضي إلى الشهود والمشاهدة، والحري به أن لا يبالغ في الرياضة لئلا تعمى ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: 125] متغايرة. ولما كانت موارد أمراض النفاق وموارد أعراض الشقاق في غاية الرداءة ونهاية الغلظ والكثافة بحيث لا يقبل النصح والإنصاح إلا في النشأة الشبية والشؤونات المشيبة فلا يبقى إلى معالجاتها إلا سبيل في الدورات الكثيرة والكورات الغيرية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما خصّص الله كل عين من الأعيان به على ما يقتضيه استعداده الذاتي ﴿حَكِيمٌ﴾ على مقتضى حكمته الأزلية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: 111] الكاملين في الأولين الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية النورية الوجودية ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ التي هي مقتضى ظاهر تلك الدورة، وهي العلوم التابعة للتجليات الواقعة فيها ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الجمعية والدرجة المعيَّة ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بكفار الأعيان المخالفة للأعيان النورية الإفرادية والأكوان الظليّة الانفرادية ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ ويغلبون تارة ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ أي يغلبون أخرى على ما يقتضي العدل الحقيقي، أو المراد من الأول هي الأعيان النورية التابعة للمولود الصريحة، ومن الثاني هو الأكوان الظليّة المستتبعة للمولود الجني الضمني. فإن مقتضيات الأدوار ومرتضيات الأكوار متبادلة ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ التي هي مقتضى النور والجمال الذي يقتضي التشبيه ﴿وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الذي مرتضى الظلّ والجلال الذي يرتضي التنزيه ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي هو يقتضي جمعيتهما، ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أيها الأعيان الحقيقية الجمعية المحمدية ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ الحقيقة المحمدية في بداية الدورة، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الوصف الجمعي والرصف المعي ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ إلى آخره، إشارة إلى نعوت أعيان النور الجمالية، وقنوت الأكوان العدمية الجلالية، فالتوبة نعت لأعيان الدورة العظمى النور والعبادة لأعيان الدورة الكبرى إلى آخره، فمجموعها تسعة، أربعة منها منسوبة إلى أرباب

الأدوار الأربعة النورية، وأربعة لأرباب الأربعة الظليّة الإفرادية، وواحد لجمعيتها وهي الصورة الجمعية الإنسانيَّة التي هي حافظة لحدود الله في تمام الأدوار أو عموم الأكوار ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112] المستكملين الأحكام الإلٰهيَّة والكونية والأعلام الربوبية والعبودية.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إشارة إلى كيفية الإرشاد وآداب أصحاب السَّداد في نصرة المسترشدين، والإعانة بهم ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113] والقربى عبارة عن الأدوار العالية القلبية والأنوار الغيبية، أعني الطور السرّي والروحي والخفي والحقي الذين هم مجالي التجليَّات ومظاهر الشهودات، فالحريّ للسالك العارف أن لا يقتنع بالحالات والمقامات وشهودات التجليَّات ويتقرّر بها، فإن التقييد بما سوى الله شرك، بل لا بدل له وعليه أن يتحقق بها إفرادًا وجمعًا، وبتطوراتها فردًا ومعًا، أصالة وتبعًا كما يرشد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي الطور الروحي ﴿لِأَبِيهِ﴾ أي الطور الخفي الفعلي الداعي إلى الكثرات، الساعي إلى شهود التجليَّات والتقيُّد بها ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ في الفطرة الأولى في الدورة العظمى والكبرى والوسطى ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ في الدورة الصغرى الجامعة لمقتضيات الدورات ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ الجامع لتمام الأسماء والصفات وعموم الحالات وهجوم الأحوال والمقامات ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لمخالفته كمال فطرته ومقتضى لشأنه، وهو الجمعية العظمى والكلية ظهورًا وإظهارًا وبروزًا وإبرازًا في الأدوار الإفرادية الجمعية ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114] إيماء إلى تطور برزاته وتنوع ظهوراته في الأدوار الأربعة النورية الصريحة والأكوار الظليّة الضمنية المربعة.

فإن سلطان الحب الذاتي، وقهرمان الحب الأحدي، قد يتختم في صحارى المراتب الإلٰهيَّة، وبراري الأدوار الكوني، ويجري أحكام سلطنته الذاتيَّة في الأدوار النورية الجمالية للظهور والإظهار في أطوار العقل تارة، وأخرى في الأكوار الظليّة الجلالية، وتارة أخرى في كمال جمعيتهما وتمام معيتهما. فأذن له في أطوار الأدوار تطورات، وفي أسرار الأكوار تنوعات، فتارة توقد نار الود في

جمرة الفؤاد فيظهر من آثار أنوارنا وعشقه على وجود العشاق أسرار ظلمات دخان الهجرة والفرقان، فمنهم من يصبر على إحراق نار القطيعة ويعبر على الصراط المستقيم الأحدي الساري في جميع الذراري فيصير تارة نورًا وظلامه ضياء وظهورًا، ويستعير عنده ظلٌّ وحرور وعينة وشهود، ويكون دخان نفسه ممتدًّا كامتداد نفس الرحمٰن على مخارج مراتب أطوار الإنسان ونقود الأعيان النورية مستصحب الأكوان الظلّية الآفاقية والأنفسية بناصيتها على الصراط المستقيم الجمعي والطريق القويم المعي، كما ورد في الحديث: «**جز يا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهيب ناري**» الحديث. فيكون في كل دورة لها تعين خاص وتؤثر فيها الصورة الجمعية الإلٰهيَّة والكونية والعبودية والربوبية بتأثُّر، ويغفل عن كل ما وصل إليه بأن صرفه عن صور المظاهر إلى معنى الظاهر وإلى الأول والآخر فينجذب إلى حقيقة الحقائق. والحال أن العلاقة البدنية والهيئات النفسانيَّة عائق يمنعه ويحرقه إلى طور النفس ولذّاتهما فيظهر تأوّه وتحسُّر ويصدر منه آه آه آه. نظم:

آه من العشق وحالاته ... أحرق قلبي بحراراته

ما نظر العين إلى غيركم ... أقسم بالله وآياته

وهذه الحالة تختصّ بالحقيقة الإبراهيمية، فإنَّ لها في المراتب الشهودية تطورات وتصوُّر الأعيان والمعاني الكليَّة والجزئية بروزات، كما أشار إليه آدم الأولياء علي المرتضى رضي الله عنه: «أنا الذي عندي مفاتيح الغيب لا يعلمها غيري، أنا بكل شيء عليم، أنا ذو القرنين المذكور في الصحف، أنا الحجر الذي يفجر عنه اثنا عشر عينًا، أنا البعوضة التي ضرب الله بها مثلًا، أنا اللّوح المحفوظ، أنا آدم الأول، أنا نوح الأول»(*). والفرق بين الظهورات والإظهار والتكوينات وبين البروز والبروزات أن الظهورات إنما تكون بدون واسطة الإنسان، والبروزات إنما تكون بواسطة الإنسان.

(*) يتكلم بلسان الجمع أي يتكلم عن مراتب تجليات التنزلات من حضرة العماء أو الكنز المخفي من حيث مقام الإحسان ويتكلم عن المرائي الحلقية من حيث مقام الشريعة أو يتكلم عن الحقيقة المحمدية النور الأول المتنزل من العماء أو الكنزية المخفية الساري في جميع المخلوقات والمراتب، يعني يتكلم على لسان الحق أو الحقيقة المحمدية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ إشارة إلى أن من يكمل في أدوار المراتب ويحمل بأطوار الأحوال الأعيان الظاهرة تصور المقاصد والمآرب، ويتحقق بالصور الجمعية وتصير هذه الحالة فيه راسخة وملكة لا يسقط من هذه المرتبة العلّية إلى المرتبة الأدنى ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ ما ينقصون من نقائص الأدوار الإفرادية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التّوبَة: 115] إفرادًا أو جمعًا واستعلاءً وتبعًا، أصالة وفرعًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العليّة والأفلاك العقلية والروحية ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي المرتبة الصورية والبرزخية والشهادية الفلكيّة والحسيّة ﴿يُحۡيِۦ﴾ بالصفة الجمالية ﴿وَيُمِيتُ﴾ بالصفة الجلالية ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: 116] في مراتب الأدوار والأكوار، والباقي ظاهر.

تفسير

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ ولا يميلوا ﴿بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة، ورسول الله في الحرّ والمشقة يحرِّضهم ويحثّهم على الجهاد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ يريد عطش في الطريق ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ يريد التعب من شدّة الحرّ ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ لا يضع قدمه في موضعه ولا حافر فرسه ولا حافر بعيره ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ قليلًا أي لا يجدون من عدوّهم انصرافًا وميلًا لا قليلًا ولا كثيرًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التّوبَة: 120] يريد الموحِّدين.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ تمرة فما فوقها ولا أدنى من ذلك ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التّوبَة: 121] فهذا ما لا يعرف قدره ولا غايته، ولو وضعه الله ما أهديت العقول إلى معرفته ولا وسعته كتب الدنيا وما فيها ولا جملته بل العالمين.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التّوبَة: 122] وذلك أن رسول الله ﷺ خرج في بعض غزواته بجميع أهل المدينة، فبقيت المدينة خالية ليس فيها أحد إلا الخوالف، فأمر الله نبيّه ﷺ أن ينفر ويخرج إلى الغزاة بطائفة ويخلّف طائفة يتنعمون في الدنيا ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ يريد فلو نفر ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فرقة وَ﴿طَآئِفَةٌ﴾ ينفر ويقيم قوم و﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ويتعلّمون القرآن والسنن والحدود والفرائض ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ يريد إذا تابوا عن الشرك ورجعوا إلى الإيمان ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التّوبَة: 122] يريد كي يحذروا سخط الله وما عد من عقابه. وقد كان رسول الله ﷺ بعث أبا ذر الغفاري إلى قومه ليفقّههم في الدين، فلما قدم على النبي ﷺ قال له: «**يا أبا ذر كيف تركت قومك؟ قال: يا رسول الله تركتهم همهم كما يهمّ البهائم، قال: عما ذاك؟ قال: فروجهم وبطونهم، قال: أفلا أخبرك بشر منهم؟ قال: مَن يا رسول الله؟ قال: مَن علم مثل ما جهلوا أو تركّب مثل الذي ركبوا فهذا أشرّ**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟﴾ يريد يا أيها الذين صدّقوا بما جئت به من حديث من عند الله ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يريد بالشام من الروم والعرب ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يريد

أهل الكتاب ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يريد شجاعة ودينًا ومعرفة ويقينًا ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123] فأنا الله لا إله غيري وأنتم المتّقون لا ترجوا ثواب غيري ولا تخافوا أحدًا سواي.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يريد المنافقين يقولون هذا على سبيل التهكُّم والاستهزاء والإنكار، يريد سورة من السور فيكم إيمانًا ويقينًا ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد صدّقوا ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وتصديقًا ويقينًا وفرية من الله ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124] بالنعيم الدائم والرضوان الكبير والخلود في الجنة مع قلب مقتدر.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ يريد عذابًا وإثمًا ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ يريد إلى ما أعدّ الله لهم من الخزي والعذاب ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 125].

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويعذبون بالقتل والسبي ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ يريد مرضةً أو مرضتين ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126] يريد يوعظون بذلك المرض كما يتّعظ المؤمن إذا مرض ذكر ربّه وموقعه بين يديّ الله فزاده ذلك إيمانًا وخوفًا، وازداد الله له رحمةً ورضوانًا.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريد المنافقين نظر بعضهم إلى بعض يريد الهرب من عند رسول الله ﷺ ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ يريد المؤمنين ﴿ثُمَّ

﴿ٱنصَرَفُواْ﴾ قال الله تعالى ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن كل رشد وخير وهدى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127] أي بسبب كونهم، يريد لو يعلمون ما يراد بهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يريد محمد ﷺ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعزّ عليه مشقتكم وكل نصرة، عزيز عليه نفسكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يريد لا يذلّ أحد منكم ولا يخطئ ولا يؤثم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] يريد رفيق على المؤمنين، رحيمًا بهم، فسمّاه بالاسمين من أسمائه والله تبارك وتعالى هو الرؤوف الرحيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يا محمد وأعرضوا وانصرفوا جماعة المشركين والمنافقين ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129] وكله شفقة في أمّته على الله.

هذا ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أقول: من سكّان البوادي، جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا غزى وتجهَّز له، ظاهره إخبار ومعناه إنشاء طلب الكف والنهي عن التخلُّف نحو: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أن لا يختاروا أنفسهم في الدعة والراحة، وتخلّفوا ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ومصاحبته ومعاونته والجهاد معه لمشقّة السفر ومعاشات النعت فيه دون الحضر ذلك التخلُّف والاختيار بأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في السفر ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ نعت ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة في سبيل الله وجهاد الكفار ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ ولا يضعون ﴿مَوْطِئًا﴾ أرضًا ومكانًا ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يجعل ذلك الوطأ موضع الكفار صاحب غيظ وغضب وغصّة ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ

عَدُوٍّ﴾ نيلًا ولا ضرب سيف ويلًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي بذلك الأمر المتقدم المورود والشيء المعهود ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ يعني تكون هذه الأمور المذكورة في حقّهم عملًا صالحًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120] تعليل للكتب وتنبيه على أن الجهاد إحسان كامل وذو جزاء فاضل. أما في حق الكفار فلأنه سعى في تكميلهم ما قضى ما يمكن كضرب المداري للخيول. وأما في حق المؤمنين فظاهر لأنه إن أصابه ظمأ سقاه الله من نهر الحيوان ولا يصيبه ظمأ بعده، وإن أصابه نصبة أعطاه الله العسل من نهر الحياة فانقطع منه النصب. ومن خرج في سبيل الله لم يضع قدمًا ولا يدًا إلا أذن الله بالشهادة وبالشفاعة.

واختلفوا في هذه الآية، فمنهم من ذهب إلى أن هذه الآية خاصة برسول الله، فإنه إذا أغرى بنفسه لأحد أن يتخلف عنه إلا بعد روايا غيره من الأئمة والولاة، فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلّف عنه إذا لم يكن لهم عذر. والبعض الآخر على أنها عامة للكل. روي أن أبا خيثمة دخل بستان وكان له امرأة حسناء فرشت له في الظلّ وبسطت له حصيرًا وقرّبت الرطب والماء البارد، فلما نظر قال: ظلّ ظليل ورطب نافع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله في الضحّ والشدّة والريح! ما هذا بخير. فقام وأخذ رمحه وسيفه ومرّ كالريح، فنظر رسول الله ﷺ إلى الطريق فرأى راكبًا فقال: «**هذا أبو خيثمة**». ففرح به رسول الله واستغفر له.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟﴾ إلى الغزاة ﴿كَآفَّةًۚ﴾ جميعًا ويتركون الرسول وحده، فنزلت ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي فهل يخرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة ويبقى مع النبي جماعة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ القائلون بالرسول ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ ويتعلمون القرآن والفرائض والسنن والحدود والأحكام من الحلال والحرام الجارية بين الأنام في الشهور والأيام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122] بإنهائهم ما نهى الله عنه ويعملون عملًا صالحًا.

وجه آخر: أن رسول الله ﷺ لما بعث بعثًا غزوة تبوك وأنزل في المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعًا عن

استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمر الله أن ينفر طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم ليتفقهوا في الدين. قال بعضهم: هذا التفقُّه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، أي ليتبصروا بما يريدهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد، فيخبِّروهم بنصر الله رسوله والمؤمنين لعلهم يحذرون المعاداة للرسول والمعاكفة بالمؤمنين فينزل بهم ما نزل بالمخالفين.

الفقه معرفة الأحكام الدينية وهو واجب وفرض عين وفرض كفاية، قال النبي عليه السلام: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**» أي علم ما فرض الله تعالى على كل مسلم ومسلمة. قال النبي عليه السلام: «**فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**». وأيضًا: «**لفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد ومن يرد الله به خيرًا يفقهّه في الدين**» الحديث.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يقربونكم ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وجراءة وحمية وصبرًا على الجهاد، وإجراء الأحكام، وإعلام الأعلام الدينية ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التّوبَة: 123] بالعون والنصر.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من السور القرآنية ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ من المنافقين ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ﴾ هذه السورة المنزلة ﴿إِيمَـٰنًا﴾ [التّوبَة: 124] ويقينًا، استهزاء. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [التّوبَة: 125] نفاق وشكّ ينكرونها فيزدادوا كفرًا وللإيمان بُعدًا، فعلى هذا الإيمان يزيد وينقص. عن عمر رضي الله عنه كان يأخذ هذا الرجل والرجلين من أصحابه ويقول: تعالوا حتَّى يزدادوا إيمانًا. قال علي رضي الله عنه: «إن الإيمان سرّ ونقطة بيضاء في القلب، وكلما ازداد الإيمان عظمًا ازداد ذلك البياض حتَّى يبيّض القلب كله. وأن النفاق نبذ ونقطة سوداء في القلب، وكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد حتَّى يسوّد القلب كله. وأيم الله لو شققتم قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم قلب منافق لوجدتموه أسود».

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون ويفتنون في كل عام وسنة مرة أو مرتين بالأمراض والشدائد والقحط والشدّة، أو القتل بالغزو والمجاهدة، أو بالفضيحة بإظهار نفاقهم وإفشاء كفرهم وشقاقهم ونقض عهدهم ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ ولا

يرجعون إلى الله من النفاق ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126] ولا يتعظون ولا يغيِّرون المشاهدة. صدق الله وعده بالنصر عليهم والظفر لديهم بالمسلمين.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها عيوب المنافقين وتوبيخهم ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ متهيئين للهرب والفرار ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ فاعل من صلة، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدًا يراهم قاموا وثبتوا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن الإيمان وعن المواضع التي يستمعون فيها القرآن الذي يريد باستماعه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21] بأن لو رأوا فرصة يفرُّون من تلك المواضع لئلا يسمعوا القرآن لفرّوا. فإذن ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان وتخلّت قلوبهم عن نور الإيمان فيبقى مظلمًا ومنظلمًا وذلك ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127] الحق ويتحرَّفون عن الله ودين الحق. قال ابن عباس: لا تقولوا إذا صلّيتم: انصرفنا من الصلاة، فإن قومًا إذا قالوا انصرفنا صرفهم الله وصرف قلوبهم، ولكن قولوا: قضيت الصلاة.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128] ومن نبيّكم تعرفون نسبه وحسبه. وقال أيضًا: ليست من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي وله فيهم نسب. وقال جعفر الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام. روي عنه عليه السلام أنه قال: «**ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام**». قرئ بفتح السين ﴿من أنفَسكم﴾ أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ما ضللتم أو أثمتم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم وصلاحكم على ضالّكم أي يهديه الله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾ بالمطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] بالمذنبين، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129] عن أُبي بن كعب: آخر ما نزل من القرآن بأهل الإيمان: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128] إلى آخر الآية.

إشارة وتأويل

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: 120] أي الأعيان الثابتة الذين آمنوا بالحقيقة المحمدية السارية في تمام المراتب وأعيانها، ودعوة بها للنبوّة الذاتيّة أو

لأعيان الأنبياء وماهياتهم إلى الله الأحد ثم الأمم المنسوبة إليهم وأمّهم المخصوصة المنسوبة إليها صريحًا، والكل آمنوا في بداية الدورة العظمى النورية الجمالية، أما أعيان الأنبياء استكانت في عدمية الواحديَّة وعالم الجبروت والحضرة العلميَّة وأمّتها المخصوصة المنسوبة إليها. فأولًا وبالذات صريحًا وأصالةً، وسائر الأمم التي نسبت إلى الأنبياء ثانيًا. وبالتبع وهي المنسوبة إلى الأعيان الذاتيَّة الباقية التي هي في حول مدينة الواحديَّة والحضرة العلميَّة التي هجرت من مكة المرتبة الأحدية إلى مدينته. ويجوز أن يكون المراد من الأعراب العقول الجواهر المجرّدة، والنفوس القدسية، والأرواح والمثل النورية، والأشباح البرزخية، والنفوس العاملة الفلكية، والأعيان الملكية، والأكوان الملكية. إشارة إلى أن الأعيان كلها تابعة للحقيقة المحمدية في تمام المراتب، لا يتأتى لهم أن يتخلفوا عنها في تمام الأدوار المتقدمة كما يظهر في دورة خاتم النبوّة والولاية المطلقة.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبَة: 122] إشارة إلى مقتضى الدورة الجامعة وكيفيّتها، وبيان المرتبة الجامعة، وحقيقة كميَّة الجمعية. واعلم أن الجمعية قسمان: حقيقي وإضافي، أما الحقيقي فهو الذي يحيط بتمام ما عداه من الأعيان والمعاني والمفهومات السلبية والثبوتية والتشبيهية والتنزيهية الإفرادية والتركيبية البسيطة والملتامة وغير ذلك من الأعيان المتقابلة والمتضايفة والمتشاكلة، وهو لا يتحقق إلا في مطلق الوجود والذات البحت الجامع لتمام أطوار المعاينة والشهود. وأما الإضافي فهو أمر يعتبر في الممكن، يعني ليس من شأن الأعيان الكاملين في مقام الإيمان ومرام كمال اليقين وفرط الإيقان الواصلين إلى أحدية جمعيتهم وجمعية حقيقتهم، لينفروا إلى مقام التفرقة الجمعية، والجمعية الشأنية، ويتمكنوا إلى أن يتصرفوا إلى وحدة الذاتيَّة والأحدية الحقيقية المنطوية على تمام وجوه الكثرات. بل لا بدّ أن يكون فيهم الجمع بالتفرقة، والتفرقة بالجمعية الحقيقية، والوحدة بالكثرة والكثرة بالوحدة، ومن هذه الحالة حالات كثيرة ومقامات غفيرة.

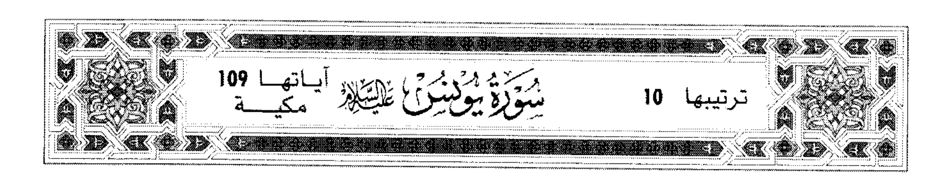
﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ من الأعيان النورية الوجودية والمبادئ الظليّة والمقامات اليقينية والظنيّة والخياليَّة والحسيّة والوهميَّة، والمعاني الكليَّة

والجزئيَّة، والمباني الجزئية والكلية، والإيجابية والسلبية، والإمكانية والعقلية، وغير ذلك من المفهومات المتقابلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ [التّوبَة: 122] ويظهر لهم حقّ اليقين والجمعية الحقيقية ما داموا في الرتبة الإمكانية، والجمعية الإضافية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ آمنوا من الأعيان النورية ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التّوبَة: 123] ويقاربونكم في الخلقة والفطرة الأولى، وهم الأكوان الظليّة الجلالية الضمنية، كما مرّ أن كل أحد من الأعيان النورية الجمالية وهو المسمَّاة بالمولود الإنسي كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: 2] تعالى، والباقي ظاهر.

تمّت سورة التوبة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي التقم حوت بحر أحدية يونس الطور النفسي، ليظهر السرّ القدسي والتجلّي الأنسي، والسرّ الأنسي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي جعل الشمس ضياء، والقمر نورًا، وقدّره منازل ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يُونس: 5] وليحكموا بما هو مذكور في الصحائف والكتاب ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يدعو الخلق إلى دار السلام، ويهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم ليصل إلى حسن الثواب، ويتجنّب دار العقاب ونار العذاب.

تفسير

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

﴿الٓر﴾ يريد أنا الله الرحمٰن. قال بعض أهل العلم: أنا الله أرى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد هذه الآيات التي أنزلتها على محمد مِن حكمي وأنا الله الرحمٰن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ [يُونس: 1] يريد من حكم في خلقه من الأرزاق والحدود والأوقات.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: 2] يريد عجبوا أن أخبرت من خلقي رجلًا يعرفونه ويعرفون أباه وأمه، فيهم وُلِد، وفيهم

نشأ، ليس يكتب ولا يشعر ولا يتكهن ولا يكذب، يسمُّونه الأمين، ويرضي صغيرهم وكبيرهم، وذكَرهم وأنثاهم، لا يعدلون به أحدًا في صغره ولا شابًّا في شبابه، ولا كهلًا في سنّه، فكذّبوه ورمّزوه بكل ما ليس فيه. وإنما بعثه مبشرًا ونذيرًا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ يريد مقام الصدق لا زوال تنوّر مقيم وخلود لا موت فيه ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 2] فأخرجوا محمدًا من علمهم فيه إلى غير علمهم، كفروا بجبروتي ومُلكي.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يريد أنا الله لا إلٰه غيري، أنا الذي أرسلت محمّدًا بكفاءتي وحكمي ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ﴾ يريد الأمر خلق ما يكون إلى أن تقوم الساعة وما يكون بعد الساعة ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ مثل قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28] وهذا في سورة الأنبياء، يريد الملائكة وعما قال في (عمّ يتساءلون): ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبإ: 38] يريد لا إلٰه إلا الله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يريد يا أهل مكة لا إلٰه غيره ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ يريد فوحدوه وصدِّقوا قول نبيّه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3] يريد أفلا يتعظون.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ﴾ وعندي مصيركم يوم القيامة، وعندي الثواب والعقاب جميعًا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ يريد لا خلف لوعدي ولا لثوابي ولا لعقابي ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يريد خلقكم ثم أماتكم ثم بعثكم ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يريد الذين صدّقوا محمدًا ﷺ وأقاموا فرائضي ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ يريد العدل، جزاء لا يصفه الواصفون ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد لما جاء محمد به ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4] يريد بما جاء محمد ﷺ به.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

ثم رجع إلى ربوبيته وملكه وجبروته فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يُونس: 5] يريد بالنهار ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ يريد بالليل ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ يقول: لو جعل شمسين شمسًا بالنهار وشمسًا بالليل ليس فيها ظلمة ولا ليل لم يعلموا عدد السنين ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يُونس: 5] يريد بالعدل لأنه هو الحق، وكل ما جاء من عنده فهو الحق مثل قوله عزَّ وجلَّ في (سبحان): ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ﴾ يريد فمحونا ﴿ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: 12] كذلك ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ لنبيِّن الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5] يريد علموا عظمتي وجبروتي وملكي، وأنه لا إلٰه غيري، تباركت وتعاليت.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يُونس: 6] يريد الذين اتّقوا الله ولم يشركوا به شيئًا من أصحاب النبي وغيرهم إلى يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يريد لم يخافوا البعث ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يُونس: 7] يقول: لا يؤمنوا بشيء من الثواب والعقاب مثل قوله عزَّ وجل في الجاثية [الآية: 24]: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ [يُونس: 7] يريد أنزلتُ مِن حلالي وحرامي وما فرضت من سنّتي وحدودي، وما شرَّعت من شرائعي، وما أريد لمن وحَّدني وصدَّق نبيِّي، وما أوعدت من كفر نعمتي وجحود ربوبيتي، وجعل لي من خلقي ندًّا وشريكًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ يريد مصيرهم النار ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 8] يريد بما كسبت أيديهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يريد إن الذين وحدُّوني وصدّقوا نبيِّي وفرائضي وقائمون بحدودي ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ يريد يرشدهم ﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ يريد بتصديقهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار من لبن، وأنهار من ماء، وأنهار من خمر، وأنهار من عسلٍ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يُونس: 9] نعيم لا يوصف ولا تهتدي إليهم العقول.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ يريد عبادتهم فيها ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ يريد بعضهم على بعض ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ يريد آخر عبادتهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونس: 10] لما رأوا من الأعاجيب وما نجوا منه من العقاب الذي لا يرام، مثل قوله تعالى في الطور: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ﴾ [الطُّور: الآيات 26 - 28] يريد بالموحِّدين، ويرحمهم ويبرّ أولياءه ويتعطّف عليهم.

﴿الٓرۚ﴾ أقول: قال ابن عباس: أنا الله أرى ﴿الٓرۚ﴾ [يُونس: 1] الله أعلم وأرى. قال بعضهم: حروف اسم الرحمٰن. قيل: هو اسم من أسماء القرآن. قيل: هو قسم، ووالله إن تلك المكوِّنات والمتلوّات التي يتضمَّنها القرآن وأحاط بها الفرقان من الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل والزبور، فإن الفرقان لكونه آخر المُنزل متضمِّن لما سبق من الكتب ولكمال إخفاء التضمُّن جعل في غاية البُعد لاتِّحادهما في اللازم، وهو العبارات [في] الخفاء آيات الكتاب. فقيل: إما بمعنى مفعول أي المحكم المبين للحلال والحرام المتعيِّن للحدّ والأحكام لا

يتطرّق إليه الكذب والبطلان، أو محكم آياته بريء عن النسخ والبطلان، أو الحكم على المكلفين بالحدود والأحكام بالعدل والإحسان، ناهيًا عن الفحشاء والمنكر والبغي والفساد والإفساد والطغيان، جافيًا عن الظلم والعدوان، أو حكيم وعادل بما تضمَّنه من الإعلام والإخبار عن أحوال أهل الدور وبقاء أحكام النِحل والمِلل، وعن آجال مدّة بقاء الشرائع وظهور الحوادث والوقائع.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أهل مكّة ﴿عَجَبًا﴾ حالة يعبر الإنسان من رؤية شيء يجري على خلاف العادة. سبب نزول هذه الآية أن الله عزَّ وجلَّ لما بعث محمدًا عليه السلام رسولًا قال المشركين: الله أعظم من أن يكون له بشرًا رسولًا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ في محل الرفع اسم كان، أي كان إيحاءً عجبًا للناس إلى رجل محمد الذي ظهر منهم، قرأ برفع عجبًا بأنه اسم كان وأن أوحينا بدل منه، أو يكون الأمر بالعكس ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي أعلم الناس مع التخويف ﴿وَبَشِّرِ﴾ أمر عطف على الأمر المتقدم أي علّة الإيحاء ومسببه أمران: الإنذار وتبشير القوم الذين آمنوا به وبما جاء به في أي زمان كان، ظاهرًا أو باطنًا، سرًّا وعيانًا، ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي مقام عالي ومكان رفيع حاصل من كمال الصدق بأن وافق الظاهر والباطن وتطابق اللسان والأركان والجوارح مع اسمها وخبرها مفعول لبشر. قيل: قدم صدق هو مقام لا زوال له ولما فيه من الأعيان والأكوان الكاملة، ولا بأس لنعيمها ولا فناء ولا موت فيه، أو بعثكم الله سبحانه هذه الأمة في البعث والدخول والفوز باللقاء. قال عليه السلام: «**نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة**».

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ القرآن أو محمد ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يُونس: 2] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يُونس: 3] من الأيام الزمانية التي مقدار يوم من أيامها ألف سنة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السَّجدَة: 5] الآية. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الرحمٰن بأن قدَّر جميع الأمور الظاهرة والباطنة فيه ثم يعيد ذلك ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يُونس: 3] أي أمر المخلوقات، وينزل من القرآن على ما قضى وحكم في الذكر الأول واللوح المحفوظ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر: 21]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ من السماء إلى الأرض، يعرج إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يشفع من شفعائكم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ هذا تنزيل ومشايعة ترائيهم القليل وإلا لا شفاعة

لكل أحد من العباد فضلًا لسائر الحيوانات والجماد، لا في الدنيا ولا في يوم التناد. نزلت حين قال نضر بن الحارث: إن اللآت والعزى يشفعون لي.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [يُونس: 3] الذي يقع هذه الأشياء بعدما فعله وقدّره في سابق علمه وسابق قضائه وحكمه، يعني لما كان هذا الحكم الخالق ربّكم وربّ كل شيء، ولا ربَّ لأحد سواه فاعبدوه لا غيره، فما استقمتم به فلا تذكرون وتتعظون، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ومرجع كل شيء ﴿جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدكم ﴿حَقًّا﴾ أي وعدًا، قد علمت إعرابه ومعناه ولا حاجة إلى الإعادة، وذلك أنه يبدأ الخلق الحكمي لما كان في الفطرة الأولى وفطرة الله التي فطر الناس عليها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ثم بعد ذلك يعيده بعد الإماتة بالإحياء بجميع الأجزاء الأصلية التي كانت باقية عند الله من غير زيادة ونقصان ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما وعدهم من الأجر الجزيل والثواب الجميل ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل، بلا نقصان وتضييع وبطلان. وكذا يجزي الذين ﴿كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حارّ انتهى حرّه ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع جزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يُونس: 4].

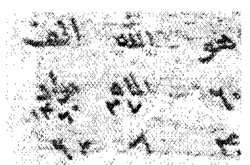
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وضياء ثانيًا تبعًا ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي ﴿مَنَازِلَ﴾ [يُونس: 5] كاليوم ينزل في كل واحد منها وينزل ما كان مودعًا فيه، ويحمد ما بان شيوعًا لديه من الآثار الربوبية والأنوار الإلٰهيّة والأفياض الأزلية التي أودعها الله تعالى في أجزاء العرش الذي يحاذي البروج ويوازي المنازل والمروج التي صوّرها المبدع الأول في الفلك الثامن، وجعل حقيقتها في الفلك التاسع المسمّى عند أهل الشرع بالعرش.

وكل برج من البروج الإثنا عشر ينطوي على منزلتين وثلاث منازل، فإذا المنازل ثمانية وعشرون، واسمها:

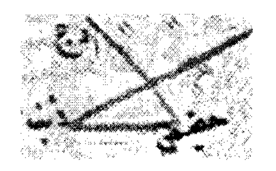
شرطين، بطين، ثريا ودبران، هقعة، هنعة، ذراع، نثرة، طرفة، جبهة، زبرة، صرفة، عوا، سماك، غفر، زبانا، إكليل، قلب، شولة، نعائم، بلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرع الدلو المقدم، فرع الدلو المؤخر، بطن الحوت

وكل حرف من حروف التهجي منسوبة إلى منزل من المنازل المذكورة، وهذه الحروف مدبرات عالم الكون وأعيان الكائنات. والمراد من الحروف هي

الأسماء الإلٰهيَّة والحقائق الغيبية، يدبِّر بها أعيان الممكنات وأكوان العلويات والسفليات، كما أشار المحقِّق: الألف غيب لا يدرك، ومحيط يملك ولا يملك، والاسم منه الله وله مربع ثلاثة في ثلاثة، يوضع، والقمر بالشرطين، وهذه صورته:



والباء ظاهر تسبيب وحكمة ترتيب، بالباء ظهر الوجود، وبالنقطة تمّ العلم يدعى المعبود، الجيم جلال وجمال وجمع وإجمال، والاسم منه جامِع الدال دوام أمر واستعلاء بنيته وخيرته، وقس على ذلك الباقي. وللقمر حالات أخر وهي أربع: الرأس، والذنب، والأوج، ويقابله الحضيض، فهذه نقاط أربع، فإذا وصلنا بين كل نقطتين بخط مستقيم تقاطع أحدهما بالآخر وأوصلنا بين طرفي الخطّين حصل شكل رأس



في إزاء كُل منها، حرف من الحروف العجمية وهي: الباء والجيم والرّاء والگاف، فصار الحروف اثنين وثلاثين، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

واعلم أن الشمس تمكث في كل ثلاث عشر يومًا، فيقطع كل برج ثلاثين يومًا، فيقع الجميع في ثلاثمائة وستين يومًا. وهذه الحركة اليومية إنما هي بالحركة العرضية البالغة للحركة الأولية، وهي حركة العرش المسمّى بفلك الأفلاك، وفلك الكل وفلك الأطلس، وهو الذي يتحرَّك بذاته ويحرِّك جميع الأفلاك التي هي في ضمنها حركة عرضية، فيحرِّك النيران الشمس والقمر، وتحصيل الأيام والشهور والأعوام. فللشمس في كل يوم يظهر بالبعد الأوسط تسعة وخمسين دقيقة أعني (نط)، وفي البعد الأقرب (سب) وفي البعد الأبعد

(نن) دقيقة. وأما حركة الشمس التي هي بالثوان وهي من المغرب إلى المشرق فيجمع من ردّها حركة الكلّ التي هي على خلاف التوالي خمسة أيام وكسر، فتتمّ السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يومًا وربع يوم إلا كسر، هذا على ما وجد في أرصاد بطليموس ومن بعده من المتأخرين كالماحون وابن الأعلم والتباني والحاكمي. وأما ما وجد في أرصاد المتقدِّمين على بطليموس كأبرجس فثلثمائة وستون يومًا وربع يوم بلا زيادة ونقصان، وعليه سائر التاريخ الروم والفرس، فاصطلحوا على أن أيام أربعة أشهر منها وهي: تشرين الآخر، وكانون الأول، وكانون الآخر، وآذار، وأيار، وتموز، وآب، فأحد وثلاثون. وأما أيام شباط ونيسان وحزيران وأيلول ثلاثون ثلاثونَ، وأيام تسعة أشهر منها وهي: تشرين الأول، وفي ثلاث سنين متوالية ثمانية وعشرون يومًا، وفي السنة الرابعة التي هي الكبيسة تسعة وعشرون، لأنهم لما أخذوا الشهور على الوجه المذكور حصل لهم ثلاثمائة وخمسة وستون يومًا وربع يوم، فاجتمع منه في مدة أربع سنين يوم واحد، فزادوه في آخر شباط.

وأما القمر وشهوره فلما شاهدوا اختلاف الأهلّة في الرومية لم يلتفتوا بل اتخذوا الشهر من اجتماع الشمس والقمر في دورة واحدة من فلك البروج إلى اجتماع آخر، وبينهما على ما وجد في الرصد تسعة وعشرون واثنا عشر ساعة وأربع وأربعون دقيقة. ولما كان الكسر زائدًا على النصف أخذوه يومًا واحدًا كما هو من دأبهم وعادتهم، وجعل أيام الشهر الأول، وهو المحرم، ثلاثين يومًا، والشهر الثاني تسعة وعشرين يومًا ليجبر كسره نقصان الشهر الأول، وهو إحدى عشر ساعة وستة عشر دقيقة، فبقي من اثنا عشر ساعة وأربع وأربعين دقيقة ساعة واحدة وثمان وعشرون دقيقة، وجعل الشهر الثالث أيضًا ثلاثين يومًا لزيادة الكسر منها على النصف، وهي ساعتان هاهنا على النصف واثنا عشر دقيقة، وجعلوا الشهر الرابع، وهو الربيع الآخر تسعًا وعشرين يومًا لإجبار نقصان الشهر الثلث من كسر هذا الشهر الزائد على النصف وهي أربع وأربعون دقيقة في مدة سنة واحدة خمسمائة وثمان وعشرون دقيقة، وهذه الدقائق كانت ثمان ساعات وثمان وأربعون دقيقة. وهذه الجملة خمس أيام، والمجموع أحد عشر يومًا ومن هاهنا وسدسه.

ففي كل ثلاثين سنة يجتمع الأخماس ثلاثون أخماسًا وهي ستة أيام، ومن الأسداس ثلاثون سدسًا وهي خمسة أيام، والمجموع أحد عشر يومًا. ومن هاهنا تراهم يزيدون في كل ثلاثين سنة إحدى عشر مرة في آخر ذي الحجة يوم واحد يسمُّونه كبيسة. فالسنة القمرية ثلاثمائة وخمس وخمسون يومًا تقريبًا، ومواضع الكبيسة: بزنحويجزكدط

وهذه الأحوال المربوطة والأمور المضبوطة لتعلموا عدد السنين والحساب منها شمسية وقمرية، ما خلق الله ذلك الأمر المذكور والشيء المزبور إلا بالحق مبيِّنًا عن كمال صنعته وعموم حكمته وتمام قدرته، ومُخبرًا عن شهود علمه وسريان أمره وجريان إرادته ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ الظاهرة ونبين الأمارات الباهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يُونس: 5].

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المنوط بحركة الشمس العرضية والذاتيَّة وما يتركب منها من الأيام والشهور والأعوام ﴿لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يُونس: 6] مما يتأتى في العلوم والحِكم اليقينيَّة لاتِّعاظها إلى العقل الصريح والنظر الصحيح والفكر الفصيح، إشعار بأن إدراك العلوم الإلٰهيَّة إنما هو التقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وآثروها واختاروها على الآخرة والعقبى وعلى نعيمها وما فيها، واطمأنوا بها وسكنوا لديها وتمكَّنوا عليها واستكنوا على تعاظمها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ [يُونس: 7] ذاهلون عنها ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين هم الغافلون ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يُونس: 8] مشعر بأن كلًّا منهما يستلزم الأحزان.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ مشعر بأن الإيمان المجرّد سبب للدخول في الجنة التي ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي تحت مكانهم ومساكنهم هم ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يُونس: 9] أي حال كونهم ساكنين فيها.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ وتسبيحهم ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ اللهمَّ، أي تنزيههم الله من كل سوء.

روي أن أهل الجنة يفهمون الحمد والتنزيه والتسبيح كما يفهمون النفس، وأن هذه هي كلمة يرضاها الله تعالى لنفسه.

قال أهل التفسير: هذه الكلمة تعلم بين أهل الجنة وحدهم، فإذا اشتهوا شيئًا من الطعام والشراب قالوا: سبحانك اللهمَّ، فلم ترهم في الوقت كما

يشتهون على مائدة، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على إعطائهم. فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونس: 10]. روي أن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون أنفاسهم.

إشارة وتأويل

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يُونس: 1] لما أشار في صدر البقرة وآل عمران إلى الدورة العظمى الجمالية والجلالية، وأردفهما بخمس سور متتالية إشارة إلى أن كل دورة تستكمل أحكامها وينقص أحوالها في العوالم الخمس، ثم استتبعها بسورة مصدرة بـ﴿الٓرۚ﴾ وبـ﴿الٓمٓرۚ﴾ في ستة مواضع وهي: يونس، وهود، ويوسف، ورعد، وإبراهيم، والحجر إشارة إلى المراتب الست، وأشار إليها بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] وهو بكليّتي عليه وإعادته إشارة إلى أن المعتبر في تمام الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعيَّة الأصلية والفرعية وهو العوالم الخمس والمراتب الست وأن المؤثر في كل الأدوار والأكوار والمراتب هو الذات بالأسماء والصفات، وأن الأسماء والصفات هي عين الذات إيماء إلى بقية أدوارها وهي الكبرى الجمالية والجلالية الوسطى والصغرى منهما.

و﴿الٓرۚ﴾ إشارة إلى الأدوار الجمالية والجلالية الإفرادية، وإلى دورة جمعيتهما. تلك إشارة إلى الأدوار والعوالم المتضمنة ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي الأعيان النورية أو الأطوار السبعة القلبية ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ منهم أي طور سري جامع واقِع في الوسط، وهو وجه أعلى من الوجوه الثلاثة: القلبية وهو الفؤاد الذي هو محل التجلّي الآثاري ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ وردعهم على طريق التخويف ونهج الإعلام والتعريف إلى شهود التجلّي الآثاري والصوري، وهم الطور القلبي والنفسي والقابلي ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من الأطوار الباقية العالية ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ بشهود أطوار التجلي، تارة بطور الآثار، وأخرى بطور الأفعال والأسماء الذاتيَّة، ثم بالطور الجمعي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بشهود أطوار التجلّي تارة بطور وصور الأجسام، وأخرى بطور الأفعال والصفات والأسماء الذاتيَّة، ثم بالطور الجمعي ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من القوى النفسانيَّة والجسمانية إن هذا الإيحاء والتجلّي الذاتي المسمّى الكثرات الكونية والوجودات الإضافية ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يُونس: 2] أي المعين ظاهر ومؤثر ساتر.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأيام الإلهيَّة التي يوم واحد منها مقداره ثلاثمائة وستون ألف سنة من سني المرتبة الأولى. والسماوات هي الأدوار الأربعة الأصلية الجمالية، والأرض هي الأدوار الثلاثة الفرعية، أو الأدوار الأربعة الظليّة الجلالية الأصلية التي هي الاستعدادات الجمالية التي كانت ضمنية في الأدوار الأربعة النورية الأصلية والستون في تمام الأدوار مقداره واحد وهو وثلاثمائة وستون يومًا. والتفاوت إنما هو في مقدار الأيام، فمقدار الدورة العظمى النورية وهو ثلاثمائة دورة من أدوار المرتبة الأولى والدورة التي هي من الأدوار الدنية وأجزاء الدورة الكبرى هي الستون التي مقدار يوم من أيامها خمسون ألف سنة، وأجزاء الدورة الوسطى هي الستون أيضًا لأن مقدار يومها هو ألف سنة، وأجزاء الدورة الصغرى هي اليوم إلا أن مقداره هو أربع وعشرون ساعة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عرش كل سنة دورة، وهو بدايتها ومبدؤها، أو عرش كل عين من الأعيان وهو الاستعداد الذاتي الذي يظهر من الفيض الأقدس، وهو التجلّي الذاتي الذي هو مبدأ الظهورات ومنشأ الشهودات، وباقي التجليّات ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ الإلٰهي والطور الكوني والصور الغيبي ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ فطالب وداع لتحصيل الكمالات الجمعية والهيئات الكليّة ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يُونس: 3] وأمره.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في نهاية الدورات وغاية الكورات ثم ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ في بداية الأدوار ومفتتح الأكوار ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يُونس: 4] إلى ما كان عليه من مقتضى الأسماء الإلٰهيَّة والصفات الربوبية وذلك عند رفع حكم الوهم والخيال عند القيامات الآفاقية واللاتعينية لا كما زعمت الفلاسفة من أن الله غير قادر على إعادة الأموات وإظهار الساعات وإقامة القيامات لانتباهها على خرق السماوات وانشقاقها وانفطار أجزائها وافتراقها ودكه الأرض وإحراقها، وهو محل بناء على قاعدة الفعل. وأنت خبير بأن العقل المتشبث بأذيال الوهم والخيال فهو معزول في إدراك حقائق الأشياء وأسرارها. قال النبي عليه السلام: «**العقل لإقامة العبودية لا لإدراك سرّ الربوبية**». نظم آدم الأولياء علي المرتضى كرَّم الله وجهه:

كيفيَّة المرء ليس المرء يدركه فكيف كيفيَّة الجبّار في القدم
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدعًا فكيف يدركه مستحدث النسم

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ أي التجلّي الذاتي مادة وأصلًا لأنوار سائر التجليّات ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ [يُونس: 5] أي التجلّي الاسمي فعليًا كان أو آثاريًا، نورًا ظاهرًا ثابتًا في المرتبة الثانية. والمراد بالشمس هو العقل والروح وبالقمر هو القلب الذي هو البرزخ من الجسد والروح، وهو مظهر عالم البرزخ الذي واسطة بين عالم الملك وعالم الروح. هذا إذا كان المراد بالتجلي الذاتي التجلّي الوجودي الأول بالتجلي الشهودي، أو المراد هو العالم الجبروتي وبالثاني في عالم الملكوت.

والمراد بالأول غلبة الإلٰهيَّة، وبالثاني مرتبة الربوبية، وقدّره للقمر منازل ومراتب ومراحل، وإنما خصّ المنازل بالقمر لأن قمر القلب يوصل الآثار الصاعدة من أرض النفس، وهي الاستعدادات الذاتيَّة القريبة بالفعل إلى سماء الربوبية، ومنها إلى سماء الألوهية، ومنها إلى سماء الواحديَّة، ومنها إلى سماء الأحدية.

ثم ينزل منها إلى المراتب وأعيانها والأدوار والأكوار وأكوانها الأربعة بذريعة الأسماء السبعة الذاتيَّة وواسطها وسلك الأفياض النازلة على أعيان المراتب والأدوار الأربعة النورية.

وفي أكوان الأكوار المربعة الظليّة الضمنية في كل مرتبة ودورة بحسب اقتضاء خصوصية كل اسم منزل مجموعها ثمانية وعشرون سنة في الدورة العظمى النورية، وسبعة في الدورة الكبرى النورية، وكذا في الدورة الوسطى والصغرى.

وإذا وصلت في الدورة الصغرى إلى فلك الأفلاك والعرش ظهرت فيه بحقائق المنازل، وفي الفلك الثامن بصورها، وبالحروف والكلمات الإلٰهيَّة، وهكذا يتنزّل إلى أن يصل إلى مرتبة الناسوت في قلب الإنسان الكامل وتغيّبت فيه بصور حروف ربانيَّة وكلمات إلٰهية وتضيع بصور آثار عالم الناسوت، ويتردّد في منازل قمر القلب والفؤاد ويتصاعد ثانيًا إلى أن تصل إلى ما وصلت أولًا، ثم ينزل ويتصاعد ثالثًا ورابعًا إلى غير النهاية في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية إلى أن يصل في الكمال الجمعي في السير في الله فحينئذ يتردَّد في نفسه ويصير الصعود عين النزول والنزول عين الصعود، فيتمّ دورتها، ويستكمل كورتها.

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي الإلهيّة والأدوار الربانيّة والأكوار السبحانية والبرزخية والزمانية والحساب الظليّ الجلالي لمكان العدد باعتبار النور والجمال ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ [يُونس: 5] إلا بالحق، أي الأمر المذكور من أحوال الشمس وسائر الكواكب السيّارة والثانية والنزول القمر القلب في منازل فلك الطور القلبي وإيصاله بكواكب الأفكار الثابتة في فلك ثامن حجية الأطوار وأطوار القمر وإيصاله شمس السبعة القلبية التي هي مظاهر الفلك الثامن الذي هو محل الكواكب الثابتة الحسيَّة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولا يطيلون شهود جمالنا ووجهنا، والتحقُّق والتخلُّق بما له من الأسماء من الجلوات في الجهرات والخلوات من الأسماء والصفات ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يُونس: 7] وظواهرها وتقيّدوا بها وتقلّدوا بها ولكل ما سوى الله من العلوم والإدراكات والأحوال والمقامات ومشاهدة التجليّات من حيث إنها غير الله وغير ذلك من الكمالات الصورية المعنوية والسعادات الأخروية، فإنها كلها دنيا، وبالنظر إلى أنها تحجب الناظر عن الله. قال النبي ﷺ: «**كل ما يشغلك عن ربّك فهو دنياك**».

وأما بالنسبة إلى علوّ همّة العارف وكمال نظره الذي لا يقع على غير الله بل يرى الكل جمعًا وفردًا، ندًّا وضدًّا، عين الله، فالجميع عين الحق إفرادًا وجمعًا أصلًا وفرعًا تفرّقا ومعًا الله نور السموات والأرض للآية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: الآيتان 3 - 4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الدورة العظمى النورية ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ في باقي الأدوار ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ في كل دورة من هذه الأدوار الفرعية إلى كمال جمعي يختص بها، وإلى سعادة تنتصر منها ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يُونس: 9] أي الجنة الجمعية الثابتة في كل موطئ.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ ومسألتهم ﴿فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ على مقتضى الظلّ والجلال الذي يفيد التنزيه عن النقائص الذاتيَّة والنقائص الوضعية الإفرادية ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ على مقتضى الكمال الجمعي والجمع الكمالي هو التقديس على النقيضين وتحرير عن النقيضين ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ في جمعية الأدوار ومعيَّة الأكوار بالأدوار وجمعية الجمال بالجلال ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يُونس: 10] بتمام أنواعه وعموم أقسامه وفروعه، وقد علمت في صدور الكتاب فليرجع إليه.

تفسير

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ يريد أهل مكة، يريد العذاب، يريد في طلب المال ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يريد لم يناظرهم ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يريد لا يخافون البعث ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: 11] يريد في ضلالتهم وكفرهم يتهادون إلى يوم إما الموت وإما القتل.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ يريد عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ ليس في القرآن غيرها، يريد في مرضه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ يريد مرضه ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ مرّ طاغيًا ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ يريد للمشركين ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12] يريد اتخذوا آلهة دون الله.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يريد باليمن والشام ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يريد حيث جعلوا لله شركاء ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد بان لهم أيهم أرسلوا إليهم كما بان لهم أمر محمد ﷺ ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ يريد ليصدقوا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13] يريد المكذِّبين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [يونس: 14] يريد خلائف بعد خلق كثير كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [الآية: 30] يريد خلفًا بعد خلف، يريد آدم وولده خلفوا في الأرض بعد الخلق

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: 14] يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ يريد ما أنزل الله على رسوله من الحرام والحلال والأمر والنهي والفرائض والحدود والمحكم والمتشابه والأمثال ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ يريد ما بين من عظمته وجبروته ووحدانيته ولما يؤمنون بالثواب والعقاب ولا بالجنة ولا بالنار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يريد أو دعه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ﴾ يريد أن أغيِّره من تلقاء نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يُونس: 15] وهو يوم القيامة.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يريد ما قرأته عليكم ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ يريد ولا أخبركم به ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ يريد أقمت فيكم أربعين سنة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16] يريد قد أفهمت أفلا تفهمون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مثل قوله في الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله ثم قال في سورة الأعراف: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ يريد أني لم أفترِ على الله ولم أكذب عليه وأنتم كذَّبتم بنبيّه وما جاء به من عند الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: 17] يريد لا يسعد من كذَّب أنبياء الله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يريد والله هو الضارّ وهو النافع يريد هو النافع لأوليائه والضارّ لأعدائه ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18] ولا يشفع عند الله إلا من أذن له بالشفاعة كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ يريد لا يخبرون ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18] يريد أهل مكة.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس: 19] يريد على دين واحد من لدن إبراهيم إلى أن غيّر الدين عمرو بن لحي ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ﴾ واتخذوا الأصنام أربابًا وأندادًا مع الله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد أنه سبق من الله لهذه الأمة أن يؤخر عنها العذاب إلى يوم الموت أو إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19] يريد نزول العذاب.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ يريد مثل العصا وما أنزل الله على موسى ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يريد ما غيب عنهم وما يراد بعلم أعظم ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 20] يريد مثل يوم بدر وما أصابهم من العذاب، ولو يعجّل الله للناس إلى آخره.

أقول: وأهل مكة [فإن] الشرّ الذي دعوا الله به كما يدعوا به الخير فأشفعهم وأجلهم كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: 32] فوضع موضع تعجيلهم استعجالهم بالخير مفعول مطلق للنوع إشعارًا لسرعة إجابته لهم في الخير حتّى [لو] كان استعجالهم به لقضى إليهم أجلهم بحلوله إليهم ونزوله فيهم فهلكوا لكن لم يعجل به لهم للحكمة الكاملة، فإن منهم من سيؤمن بالله ويكون معينًا في الدين، ناصرًا له على وجه اليقين، أو من أولادهم كما آمن أبو سفيان وأولادهم وأولاد أبي جهل وعكرمة وغيرهم. وقرئ لقضينا ونذر الذين لا يرجون لقاءنا ونتركهم وأمهلهم في طغيانهم يعمهون يتخيّرون ويتردّدون فيهم إلى أن بعثوا.

روي أنه قال عليه السلام: «**اللهمَّ إني أتَّخذ عندك عهدًا لن نخلفه، إنما أنا بشر فأيّ المؤمنين آذيته أو شتمته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقرِّبه بها إليك يوم القيامة**».

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الجهد والشدّة ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس: 12] أي حال كونه مضطجعًا على جنبه قاعدًا أو قائمًا كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: 191] الآية، أي على جميع الحالات والأوضاع والهيئات ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ ورفعنا ودفعنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ وبلاءه وشرّه ﴿مَرَّ﴾ وتحرك غير مستنبئ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ أي كأن، فخفّفت وحذف ضمير الشأن كما قيل: ونحو شرق اللون كأن ثدياه حقان ﴿لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ [يُونس: 12] وكشف بلاء وعناء وشرّ مسّه والتصق به وأحسّه في وقت من الأوقات، إشارة إلى أن الطبيعة الإنسانيَّة وحقيقتها الممكنة مجبولة على الغفلة والنسيان ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحدّ في الكفر والعصيان والجور والطغيان لأن حقيقتها ثلاثمائة من الأضداد والنقائض التي يقتضي كل منها أمرًا مضادًّا لمقتضى الآخر، فإن مقتضى الطبيعة الحيوانية السميّة الشرّ والضلالة، والشبعيَّة العصيان والشهوة والغضب، والبهيمية الغفلة ومقتضى البروج الإنساني، والملكي هو الهداية والإيمان، والمعرفة والإدراكات، و﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53] وزيّن له عمله فرآه حسنًا ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يُونس: 12] قبلكم من الدعاء لكشف الضرّ وكشف جهد البلاء والمربي هو الله والسلطان كما قال النبي عليه السلام: «**أتيت داعيًا ومبلِّغًا وليس لي من الهداية شيء، وخلق إبليس مزينًا وليس إليه من الضلالة شيء**».

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أو أشركوا وتركوا الشكر عند الرخاء ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ والآيات الواضحات التي يدعوهم بها إلى الله جملة حالية بتقدير قد ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ أي استقام لهم الإيمان بما جاءوا به من الأعيان الإلٰهيَّة والنواميس الربانيَّة لانتفاء الاستعدادات منهم واختفاء الاستمداد فيهم، ولعلم الله بأنهم ثابتون على الكفر لا يؤمنون أبدًا. واللام لتأكيد النفي وهو عطف على ظلموا، أو اعتراض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كإهلاكهم بكفرهم جزاءً بما كانوا كاذبين مكذِّبين مصرِّين عليه ﴿نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[يُونس: 13] أي كل بجرم منهم. وفي التفات من الخطاب إلى الغيبة ووضع المظهر موضع المضمر دلالة على كمال جرمهم ووفور طغيانهم وعصيانهم.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ الخطاب للذين بعث النبي عليه السلام إليهم ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي استخلفناكم من بعدهم بعد القرون الأولى التي أهلكناهم قبلكم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ نحن ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾[يونس: 14].

قال النبي عليه السلام: «**إن الدنيا خضرة حلوة، وأن الله سيخلفكم فيها فناظر كيف تعملون**» الحديث، وهو أعلم بهم وبحالهم وأعمالهم وأفعالهم. قال قتادة: ذكر لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: صدق الله ربّنا ما ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ إلا ﴿لِنَنظُرَ﴾ إلى أعمالكم، قدر الله من أعمالكم خيرًا بالليل والنهار، سرًّا وجهرًا. روي أن عوف بن مالك قال لأبي بكر رضي الله عنه: رأيت فيما يرى النائم سببًا دنا من السماء فانبسط رسول الله ﷺ ثم اشتدّ فانتشط أبو بكر ثم درع الناس حول المنبر يفضل ثلاثة أذرع إلى المنبر، فقال عمر: دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها. فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤياك، قال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أوَ لم تنهرني؟ فقال: ويحك إني كرهت أن أنعي للخليفة الله نفسه. فقصّ عليه حتَّى بلغ درع المنبر بهذه الثلاثة أذرع، قال: أما أحدهم فإنه كان خليفة، وأما الثاني فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالث فإنه شهيد ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [يُونس: 14] أي تعملون خيرًا وشرًّا فيعاملكم على مقتضى أعمالكم، فإن معنى الاستفهام يجب أن يعمل ما قبله فيه وفائدتها الدلالة على أن المعتبر في الجزء أو جهات الفعل وكيفيّتها لما هي من حيث ذاتها، ولذلك يحسُنُ الفعل تارة ويقبح أخرى. والمراد بالنظر هو العلم الحضوري الشهودي لا الإدراك العنصري

حتّى يلزم الجهات والتقابل في حق الله تعالى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ حال كونها أو لكونها بينات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ المتلوّ بألسنتكم وهم مشركو مكة وخمسة نفر منهم: عبد الله بن أبي أمية المخزومي، ووليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هشام. قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك فأتِ بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ولا عيبها، وإن لم ينزلها الله فأنزل من عند نفسك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أنت، فاجعل مكان آية العذاب آية الرحمة وبالعكس ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ من عند نفسي ومن قبل حسِّي، وهو مصدر استعمل ظرفًا، وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15] فإن قيل: أراد ائت بقرآن أو بدّله من جهة الوحي كما أتيت بهذا القرآن بالوحي. وأراد بقوله: ما يكون، ما سهل إليّ، أجيب بأنه يمنعه قوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إلخ، وإذا كان كذلك فعرضهم كيدهم ومكرهم ليجعلوا ذلك حجة لما دعوا به منه: قل لو شاء الله عدم تلاوتي القرآن عليكم فإني ما تلوته عليكم فتلاوتي عليكم هذا القرآن ليس إلا بمشيئته وإرادته ولا أداركه ولا أعلمكم به، وإنما لم يكتفِ بنفي الأول بل أردفه بنفي تعليمه بناء على أن عقاب تعليم المغيِّر أو عذابه أشدّ من مجرّد التلاوة.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي سكنت بين أظهركم زمانًا طويلًا وهو أربعون سنة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل القرآن وتلاوته وإظهار إنزاله وتنزيله، هذا تعليل ودليل على ما ذكر، فإني لو كنت رجلًا أقول من تلقاء نفسي لفعلت مثله في هذه الأيام، فتلاوته وإظهاره ليس إلا بالوحي وبمشيئة الله إذ أظهره من رجل أمي عاش بينهم أربعين سنة ولم يمارس عملًا ولا يدارس عالمًا إلى هذا الزمان، وإن هذا القرآن يحتوي على العلوم كلها، عقليتها ونقليتها، بالغًا في الفصاحة والبلاغة إلى حد الإعجاز، فمثل هذا لا يكون إلا من الله تعالى يمنّ به على مَن يشاء من عباده ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16] بالفعل الصريح والعقل الصحيح صحا فيها عن الوهم والخيال القادح والجرح.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن أضاف إليه كلامًا وكتابًا وإعلامًا

وخطابًا هو بريء منه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بإنكارها وجحدها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 17] بوفور الإنكار ودرور الإضرار عليه وظهور الجحد لديه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن عصوه وتركوا عبادته وطغوه ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن أطاعوه وامتثلوا أمره في الطاعات والعبادات وانتهوا عن المنكرات من المعاصي والسيئات وعبادة الأوثان. وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة العزى ومناة الثالثة وهبل وأسافًا ونائلة زعمًا أن بعضها ينفع لهم في الدنيا في سعة الرزق ودفع البلاء ودفع العناء، وفي الآخرة بالشفاعة.

وعن البشر بن حرث: إذا كان يوم القيامة تشفع إليّ اللات والعزى هذا إذا كان ووقع في فهو في الدنيا إنما يكون من الله استدراجًا ومكرًا والله سبحانه مستغني عن طاعات العباد ومعاصيهم. وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كان على قلب بارٍّ لما زاد في ملكي شيء، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كان على قلب رجل فاجر لما نقص عن ملكي شيء**».

﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ [يونس: 18] جميعًا تحقيقًا وتثقيلًا بمعنى واحد لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التّحْريم: 3] بمعنى الإخبار أي يخبرونَ ويعلمون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض وأفاد عنه علمه فيهما حال عن العائد المحذوف مؤكدة للنفي مبنية على أن ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أنا سماوي كالنجوم والشمس والقمر وغيرهما من السيئات كما حكي عن الخليل عليه السلام في بدء الحال، فلا شيء من الحادث لمعبود ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18] من الموجودات من الملائكة والكواكب والعناصر والمواليد المثلية.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [يونس: 19] أي حقيقة واحدة ونفسًا متّحدة في الفطرة الأولى، متّفقين على الحق وذلك إما في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيلُ هابيلَ أو بعد الطوفان أو على الضلال في فطرة الرُّسل إلى أن بعثت الأنبياء. عن ابن عباس رضي الله عنه: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق، فاختلفوا على عهد نوح، فبعث الله إليهم نوحًا. [قيل]: كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيِّين مبشِّرين ومنذرين فاختلفوا على عهد نوح، فبعث

الله إليهم نوحًا قيل: كانوا أمة واحدة مجتمعة على التوحيد يوم الميثاق حيث قالوا كلهم في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: 19] وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء ولقضى بينهم عاجلًا فيما فيه يختلفون بإهلاك المبطلين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٌ﴾ من الآيات التي اقترحتموها ﴿مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ﴾ تكبيتًا لهم لا يسألون إنه الغيب وعلمه ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يختص [بما] هو علم به ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بزوال ما اقترحتموها ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 20] قضاء أمر الله بيننا وبينكم بإظهار الحق وإفناء المبطلين.

إشارة وتأويل

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ [يونس: 11] الآية إلخ، أشار إلى حقيقة الإنسان أو مقتضى طبيعته الممكنة بأن حقيقته لما كانت ممكنة في الوجود والعدم محتاجة إلى الواجب الوجود وفيما يلزمها من الحسنات والسيئات ومن الشرورات والخيرات ونسبوا الإنسان إليهما على السواء إلا أن الخير وهو الوجود والمضاف لما كان مخففًا بين السّرين وهو البرهان السابق واللاحق، وكان أسباب الشرّ كثيرًا وأسباب الخير قليلًا، كان الإنسان أمثل إليه داعيًا لديه ساعيًا عليه ومن هذا ترى أهل الشرّ وفكر الشرّ في إنسان واحد أكثر، وأهل الخير وفكره أقل جدًّا. ولو تعجّل الله بإعطاء ما اقترحته طبيعة الإنسان لقضي الأمر أي العدم والخفاء واستمرّ، إلا أنه ما عجّل بل جعله على مقتضى كمال وجوده ومرتضى عموم جوده مراءً لإظهار ذاته ومشكاتًا لمصابيح أنوار ذاته وصفاته، موجودًا باقيًا ومشاهدًا ومشهودًا، ساقيًا بعين شهوده من غير أن يستهلك عنده أسرار تطرق العدم ولحوقه وووروده، بل يتبدل في أسمائه وصفاته.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في دوراته وتطورات حالاته﴿ضُرٌّ﴾ الانتقال من نشأة إلى نشأة دعا وتوجه إلينا طالبًا للوصول بجمعيتنا وكليّتنا لجنبه قاعدًا أو قائمًا بالبدن والجسم والنفس والروح والعقل ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ بإيصاله إلى الجمعية المطلوبة والمرغوبة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾ من مقام الجمع إلى التفرقة مردًّا وسار وكرّ في الأكوار والأدوار، ومن الجمع إلى التفرقة، وهكذا إلى جمع الجمع والفرق

بالجمع ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ إلى ضرّ مسّه في الدورة السابقة من الأدوار النورية الجمالية الأصليّة أو الفرعية ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: 12] في الأدوار والأكوار السالفة الإفرادية. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ في الأدوار الجمعية ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستعدادية، والعرض والفرضية القابلة السارية في المراتب الكليَّة والجزئية، في الأدوار الإلٰهيَّة والكونية ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: 14] على مقتضى خصوصية الدورة اللاحقة مطابقًا لما جرى في السابقة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ في هذه الدورة وتترى عليهم تجلياتنا بيِّنات واضحات أجسام بسائط مركبات قائدات للأعيان النورية إلى الجمعية الخصوصية بتلك الدورة، فإن لكل دورة جمعية وهيئة كلية، ولكورة أصليّة وفرعية صورة معيّة لها اقتضاء خاص وارتضاء ناص ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ شهودًا لالتقاء جمعية كمالاتنا الذاتيَّة والأسمائيَّة، ومشاهدة تجلياتنا ومعاينة ظهور كمال ذاتنا وصفاتنا ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ﴾ أي جمعية كمالية وصورة معية وواحدية ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يُونس: 15] أي جمعية هذه إلى جمعية أخرى ﴿قُلْ﴾ بالحقيقة المحمدية لأعيان مرتبة الملكوت في الدورة الكبرى الجمالية الأصلية والفرعية الصريحة والجلالية الضمنية ﴿مَا يَكُونُ﴾ لي في المراتب لدى مقتضيات الأدوار ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ من غير استدعاء الاستعداد الذاتي وحصول الشرائط من ظهور الاقتضاءات النورية الصريحة والارتضاءات الظليّة الضمنية ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يُونس: 15] أي يوم إلٰهي سرمدي يظهر في أنوار آثار الجمعية العظمى، فإن كل ما ظهر في الحصص المسطورة والأعيان المزبورة المندرجة تحت هذه الحقيقة المحمدية فهو يظهر في جمعيتها الكليَّة وحقيقتها الكلية ولذا أمرنا بالصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، وكذا يؤثر في كل حصة في شهود تجلياته وتحقُّقه بالألوهية وتفوقه في ربوبيته، فإن من وسع دائرة ساحة قلبه شاهد التجليّات الآثارية بصورة أعلى وهيئة أصفى وأبهى كما شاهد الخليل بصورة الكواكب والشمس والقمر، وموسى بصورة النهار، ومحمد بصورة الإنسان الكامل الخَلق والخُلق في التجلِّي الأفعالي والأسمائي والذاتي والتحقيق بالألوهية والربوبية فيه أيضًا تفاوت، فإن من قاله بالذات بتمام الأسماء والصفات ومنهم تحقق بصفة واحدة أو صفتين أو ثلاث صفات ذاتية أو فعلية أو آثارية، بل كل دورة من دورات الوجود لها وجه إلٰهي ووجه كوني، فبالوجه الأول ينال ويظهر تألهيته

في مرآة الوجه الكوني، فإن كان الكوني أصغر كان تحققه بذلك الوجه الأصغر أصغر، وإن كان أعظم فأعظم وأكمل وأتمّ، وعلى هذا القياس.

مطلب حكايته عن نفسه

هذا مما لا يعلم تفاصيله ولا يدرك تقاديره وتفاصيله إلا الله، هذا مما أشهدني الله في ليلة كنت أكتب هذا المقام مع أمور أخرى من الأسرار الإلٰهيَّة والأنوار الربانيَّة وغير ذلك مما يتعلق بالتحقق والتخلق لا يحيط بها إلا العليم الخبير.

﴿قُل﴾ يا حقيقة المحمدية ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ [يُونس: 16] إشارة إلى عموم سريان الحقيقة المحمدية في تمام المراتب والأعيان في الأدوار الجمالية والأكوار الجلالية صريحًا وضمنًا ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي الظهور في الأدوار الجمعية والأكوار المعيَّة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يُونس: 16] أنه ظهر في الأدوار الأربعة الأصلية أربعين سنة عشرة في الدورة العظمى، وعشرة في الكبرى، وعشرة في الوسطى، وعشرة في الصغرى، ثم لبث في مكة الجمعية النورية الإفرادية ثلاثة عشرة سنة، أما عشرة فبالأصالة في الأسماء الأربعة الذاتيَّة، فأما الثلاثة في الثلاثة الأخيرة المدركة وهي السميع والبصير والمتكلم، وعشرة في مدينة الجمعية والحقيقة المحمدية في هذه المرتبة، وجمعية الدورة ابن ثلاث وستين وهي إشارة إلى الأدوار الأربعة الجمالية، والأكوار الأربعة الجلالية، والصورة الوحدانية الجمعية العظمى الجمالية والجلالية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن حصر ألوهيته في الأدوار الأربعة الإفرادية أو الجمعية الجمالية الفرداريّة والأكوار المربعة الجلالية الإفرادية والجمعية الإفرادية وأعرض عن جمع الجمع والإفراد بالجمع والجمع بالإفراد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وتجليّاته الأربعة التي اختص كل منها بدورة من الأدوار أو كورة من الأكوار، وذهل عن الكمال الجمعي والجمع الكمالي النوعي والكل المجموعي ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: 17] المتقيِّدون بمقتضى دورة ومرتضى كورة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذات المستجمعة لجميع الأسماء والصفات الذاتيَّة والأفعالية والآثارية ومقتضياتها الجمعية ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ وبأن يمنعهم ويصرفهم من الكمال الجمعي الأتم إلى الجمعي الأنقص الأقدم، فإن كل عين من الأعيان وكور

من الأكوار يحتوي على جمعيات كثيرة وهيئات كليَّة كثيرة وغفيرة متفاوتة بعضها أتمّ وأدنى والبعض الآخر أقدم وأنقص وأعلى، والتقيُّد بالنقص يمنع الجمعية المطلقة لا المخصوصة ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بأن يوصل صاحبه إلى الجمعية العظمى الجامعة لتمام أنواع الجمعية ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وقائدنا إلى الله ويحصرنا عند الله ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [يُونس: 18] والأدوار الجامعة لخصائص الدورة الجمعية العظمى بحسب المعنى، وإن كانت صغرى بحسب الصورة كالإنسان الصغير والكون الحقير.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أهل الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية الإفرادية ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي هلّا أنزل على محمد والحقيقة المحمدية ﴿آيَةٌ﴾ [يُونس: 20] وتجلّي جمعي وشهود نوعي ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أي الذات الجامعة والحضرة الكليَّة ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد في الدورة الصغرى النورية الفرعية دون الجمعية العظمى والكليّة الكبرى في الفطرة الأولى والأخرى، صاحب النشأة العليا والسفلى ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ الذي هو عين الشهادة في الكمال الجمعي والجمع الكمالي لله ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يُونس: 20] إشارة إلى الأعيان طرًّا والأكوان بأسرها، فاجرًا وبرًّا، متساوية الأقدام في الحركة والدور والسلوك وتكثُّر التنوع في الطور وعدم تناهي السير في الدور والكور في الانتظار إلى الوصول إلى الكمال الجمعي والجمع النوعي الأصلي والفرعي.

تفسير

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ يريد الوليد بن المغيرة، والحارث بن قيس بن عدي، والأسود بن عبد الوائل يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وهو أبو ربيعة بن أسد ابن عبد العزيز، والعاص بن وائل، والنصر بن الحارث، وأبو جهل بن هشام ﴿رَحْمَةً﴾ منا يريد عنَّا ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ يريد بؤسًا وفقرًا ﴿مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي﴾ يريد مكروا بالقول وبما جاء محمد بالتكذيب ﴿آيَاتِنَا قُلِ﴾ يا محمد ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يريد أسرع نقمة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يُونس: 21] يريد من التكذيب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يريد ينجيكم ويصحبكم في البر والبحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يريد المشركين ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يريد في البحر من كل وجه ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ يريد تركوا الشرك وأخلصوا له الربوبية والوحدانية ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يريد الجزاء حتَّى يجازي العباد بأعمالهم، مثل قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ المخاوف والبليّات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22] يريد الموحِّدين الطائعين.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ ويتحركون طالبين لأمور، ويكون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يريد بالفساد والتكذيب والجراءة على الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يريد أهل مكة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يُونس: 23] مثل قوله تعالى في فاطر: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد ليس يضرُّون واحدًا من أوليائي إنما يضرُّون أنفسهم ويصيرون إلى النار ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد مصيركم ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: 23] يريد فيجازيكم بأعمالكم وبشرّكم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد كانت إلى حين تنقضي ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

يريد على وجه الأرض، فأنبتت ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد خضرة الأرض وأعشبت وانبعث من جميع النبات عينًا ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ يريد نبتها وحصنها وحسنها ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ يريد بالحبوب والأزهار والورود والأثمار ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ يريد أهل الأرض من الناس ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ يريد على حصادها وجذاذها وقطعها، فلمَّا ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ يريد عذابنا ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ لا شيء فيها ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ يريد كأن لم يكن أمس ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يُونس: 24] في المعاد، يريد أولياءه.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يريد الجنَّة ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يُونس: 25] دين مستقيم.

﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ للذين قالوا: لا إله إلا الله، الحسنى، يريد الجنة ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ يريد النظر إلى وجه الله جلَّ وعلا ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾ دخان جهنم ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ كما يصيب أهل جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 26].

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [يُونس: 27] الشرك، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النِّساء: 18]، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ من العذاب ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ تصيبهم الذلّة والخزي والهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ يريد من مانع يمنعهم ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ وأغطيت ﴿وُجُوهُهُمۡ﴾ من سوادها ﴿قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 27].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يريد المشركين وشركائهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلزموا ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ المواصلة ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: 28] يريد أنكروا عبادتهم.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ يشهد على أعماله ما جرى وما يجري ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: 29] يريد لقد كنا من خوف الله عن عبادتكم لغافلين.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ يريد يومئذ نبلو للمزيد وتختبر كل نفس ما قدّمت ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ يريد الذي يجازي بالحق ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 30] في الدنيا من التكذيب على الله.

أقول: المعهود أهل مكة سلّط عليهم القحط سبع سنين حتّى كادوا يهلكون ثم رحمهم رحمة صحة في الأبدان والنفوس، وفي الرزق سعة، وفي الأعمال راحة من بعد ضرّاء قحط ومرض وتعب مسّتهم وأصابتهم، أو غيرهم إذا لهم مكر وحيل، وهو إخفاء الكيد أو التكذيب والاستهزاء في آياتنا، وطعن فيها إذ الأول شرط، والثاني مفاجأة دخل على المبتدأ وهو مكي، والمجرور مقدّم خبره والجملة جزاء.

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ﴾ وأعجل مكرًا وعقوبة وأشد أخذًا ومؤاخذة، وأقدر تعذيبًا وتنكيلًا ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾ أي الملائكة التي هي الحفظة يكتبون الأعمال ويحفظونها ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية إلخ، في ديوان الأفعال ودفاتر الأعمال والأقوال ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21] ويجحدون وينكرون.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ ويجريكم ويحملكم ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على ظهور الدابات والمراكب الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على الفلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ والسفن التي

هي سبب الخلاص ونجاة من الهلك جمع لقريبه ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ أي باستصحاب الناس أو بسببهم بريح طيبة لينة لتحريك السفن لسيبها ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ وسرُّوا بها ﴿جَآءَتْهَا﴾ وحرَّكها تحريكًا منسمًا منتظمًا ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديد الهبّ جملة خالية بتقدير قد ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ على التوالي والتعاقب وهو حركة الماء واختلاء بالفوح والأفراد والروح ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ عميق وفجٍّ سحيق ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أُهلِجوا أو استعلى بهم من جميع الجوانب لجنب لم يبق ويسلك وينقص كمن أحاط به العدو من جميع الجهات ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ عن غير إشراك لأنهم في هذه الحالة لا يدعون غيره لشدّة الخوف يتوجَّه القلب نحوه، وزوال معارضة الوهم الجريح وعاء العقل الصريح بدل من (ظنوا) بدل اشتمال لأن دعائهم من لوازم ظنّهم قائلين ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ من هذه الشدائد وصعوبة المدارك وأنواع المخاوف والمهالك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22] ومن زمرة الصابرين على نعت أداء الشكر، أو مفعول من دعوا. في الكشاف: إن دعوا من جملة القول وأنت خبير بأنه ليس كذلك.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ ويطلبون الشهوات النفسانيَّة والمشتهيات الطبيعية، ويطغون فأجروا الفساد في الأرض وسارعوا إلى ما كانوا عليه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مبطلين بحقوق العباد من غير وجه شرعي وطريق عرفي احترازًا عن تخريب المسلمين وديار الكفرة وإحراق الزروع وقلع الأشجار ونهب الأصول والفروع وغير ذلك، فإنها كلها بالحق، فإن الكفار لكفرانهم نِعَم الله تعالى استحقوا أن يُعذّبوا بأنواع العذاب ويتنقموا بأصناف العقاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ ومخالفتكم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإن وباله عائد عليكم ونكاله إليكم، وحزانه لاحق لديكم، ذلك البغي هو ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومنفعتها وشقاوتها لا يدوم ولا يغني. رفعه على أنه خبر يغنيكم مصدر قرئ منصوبًا على أنه مؤكد أو مفعول النفي لأنه بمعنى الطلب، فيكون جارًّا من صلته والخبر يكون محذوفًا تقديره: وبغيكم طلبكم بالأصالة متاع الحياة الدنيا ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ الله ويخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 23].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: 24] تمثيل وتشبيه مركب، شبَّه حال الدنيا في سرعة الزوال ومبادرة الانتقال، وتطلُّب وتطرُّق التقلُّب عليها بعد ظهور بهجتها

ومرور أيام سرور بهجتها يعني حالات الدنيا العجيبة وأطوارها الغريبة ومما ذكرنا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الدنيا ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وأجزائها المستورة لاستحالتها نباتًا بعد الامتزاج لسائر الاستطاعات مما من شاء أن يأكل الحيوانات والإنسان والأنعام والناس من الحشائش والأنهار والحبوب والأزهار والأثمار وغير ذلك مما تثمر به الأشجار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وزينتها وبهجتها فظهرت الزهرة واستعقبتها الثمرة ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أصله تزيّنت فقلبت وأدغمت الهمزة ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ ومتمكنون عليها، على الزرع من الزرع والحصاد والدق والتنقية من التبن ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ حكمنا وقضاؤنا بإهلاك أهلها وإملاك طائفة أخرى ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي صيّرنا الزرع والغلات مقلوعة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ ولم يبق منه أثر حتّى يدرك بالبصر واللّمس. وأطراف النهار والأمس مثل في الوقت القريب كأنه لم يعمّ وما كان ثانيًا كأنها لا يبقى منها أثر إلى هذا الوقت مأخوذ من غنى بالمكان إذا مات واستكنّ به وتمكّن فيه ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ﴾ [يونس: 24] شأنهم ودأبهم التفكّر في المصنوعات و﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتأمّلون في خلق الأرض والسماوات وسائر الموجودات.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الجنة، وأضافها إلى اسم الله تعالى للتعظيم. قيل: السلام هو السلامة والأمن والأمانة لأن أهلها سالمون من كل مكروه، آمنون عن المكر. وقيل: لتفشوا السلام فيها بينهم لتسليم الملائكة عليهم إلا قيل سلامًا سلامًا ﴿وَيَهْدِى﴾ ويوفّق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين علموا أن اللطف تبدّى لهم لأن إرادته به تابعة للحكمة والعلم والمشيئة للمحبة الذاتيَّة. والمراد التحيّة والملائكة يدخلون عليهم من الباب بسلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ولا يدخلها إلا المهديون الذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

روي أنه جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقالوا: إن صاحبك هذا مثلًا كمثل رجل بنى درًا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيًا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة. فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25] فالدعوة عامة تعمّ الكافر والمؤمن، والهداية

خاصة. وأن الدعوة طريق إلى النعمة، والهداية طريق إلى المنعم، والصراط المستقيم هو الإسلام، عام بالدعوة وخاص بالهداية، وهي شجرة كمال للإيمان.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ وهو العمل في الدنيا إخلاصًا وتوجُّهًا ورعاية للأركان ولأبعاض الشرائط كما قال عليه السلام: «**الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا**»، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26] أي الجنة مخصوصة بالعالَمين العالِمين بكيفيَّة العمل الشرعي وآدابه ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] هي النظر إلى وجه الله الكريم، وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه روي أنه دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ونودوا: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيِّض وجوهنا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة؟ قال النبي عليه السلام: «**يكشف الحجاب تبارك وتعالى فينظرون الله، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئًا هو أحبّ إليهم من النظر إليه**». قال بعضهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة. قيل: الحسنى النصرة والزيادة النظر إلى لقاء الله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيَامَة: الآيتان 22- 23]. عن علي رضي الله عنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب. قيل: الزيادة مغفرة من الله ورضوان والحسنى المثوبة والزيادة ما يزيد على مثوبته تفضُّلًا، أو الحسنى الحسنات والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر. وقيل: هي الجنَّات بحسب المراتب البسيطة المحققة، وهي مرتبة الذات والأسماء والصفات السبعة الذاتيَّة والأفعال والآثار وهي الفردوس أربعة. قال النبي ﷺ: «**الفردوس أربعة: بيتان وهما مظهر العلم ونحوه من ذهب أبنيتها وحليتها وما فيها، وبيتان وهما مظهر القدرة والإرادة من فضة مثلها**».

وليس بين القوم وبين أن ينظروا إليه إلا رداء الكبرياء على وجهها في جنة عدن، جنة عدن في السماء العليا لا يدخلها إلا نبيّ أو صدِّيق أو شهيد أو إمام عدل أو محكم في نفسه مخيّر بين الشرك والإيمان فيختار الإيمان على الشرك فيُقتل أو يقول الحياة على مقتضى الذات والأسماء والصفات السبعة الذاتيَّة ثمانية، وهي عدد شريف فاضل منبع الخيرات ومورده العبادات والحسنات لأنه أول حرز كعب مبدأ العدد وكعب الكعب ويلوح إليه صدره (ح ٨)، يشاهد الذات

في تمام مرايا الذات وهي الشؤونات الذاتيَّة بالوجوه الأحدية والنعوت الذاتيَّة، أو صاحب التجلِّي الأسمائي الأولية، وهو الذات مع الأسماء والصفات السبعة. وهذه الجنة هي جنة الذات لا يدخلها إلا صاحب التجلِّي الذاتي الذي يشاهد الذات في مرايا الأسماء الذاتيَّة إما فرادى أو مثنى أو مثلث أو مربع إلى السبع.

فـ(الحسنى) عبارة عن الجنان، و(زيادة) إشارة إلى مشاهدة اللقاء وشهود التجلّيات الذاتيَّة ومعاينة أنواعها، وزاء الزيادة كناية عن نقائص الجنات وهي الدركات السبع وذلك لأن الذات لا يفيض لها سبعة لكل باب منهم جزء مقسوم، فالجنات قد تغاير التجليّات كما ورد في الخبر: «**الجنة مائة درجة ما بين درجتين مسيرة خمسمائة عام**»، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تنفجر أنهار الجنة الأربع، ومن فوق ذلك يكون العرش. وهذه الجنة قد تكون خالية عن التجليّات الأربع البسيطة، وهي الذات الصفاتية والأفعالية.

وأما المركبة، وهي تصوره من الإنسان الكامل، فهي قد تكون بصورة جمعية الجنات على حسب عادة مشارب العرفاء، وهاهنا معاينات كثيرة وشهودات غفيرة يأتي بها الله من أراد ويحبّ ويزداد. والحسنى هي الجنة والزيادة هي تطور التجلِّي وتنوُّع شهوده.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ أي لا يفني الوجوه ﴿قَتَرٌ﴾ غبار مظلم جمع قترة، أو سواد الوجه ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان وكآبة أي لا يرهقهم ما يرهق أهل النار، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وهمّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 26] دائمون ثابتون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ كما يقتضيه كمال العدل والعدالة، وجزاء سيئة سيئة بمثلها كما يقتضيه كمال العدل والعدالة، وجزاء سيئة سيئة مثلها. وأما الزيادة في الحسنات فهي التفضيل المحض، أما عينها أو بنوعها وتطورها، وهذا أليق بالتحقيق تحاشيًا عن العبث والتكرار، ومَن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها هذا عدل وقسط، والأول فضل وإحسان ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ وتحيط بهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ ومذلّة وحقارة ورذالة ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ورقيت يومئذ ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [يونس: 27]، والذين كسبوا مبتدأ وجزاء سيئة خبرها عطف على الذين أحسنوا، فيكون من باب عطف على عاملين مختلفين وهو ضعيف وإن

جوّزه الأخفش كقولك: في الدار زيد وفي الحجرة عمرو، من لم يجوِّز هذا العطف قدر وأجزأ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أو قطعًا جمع قطعة من الليل، ومن قرأ بسكون الطاء جعل مظلمًا صفة، ويعضده قراءة أُبي بن كعب: كأنما يغشي وجوههم قطع من الليل مظلمًا، والعامل مظلمًا حال كونه حالًا من الليل الذي هو صفة قطعًا هو العامل في الموصوف أو معنى الفعل الذي من الليل ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [يونس: 27] قطعًا، حال بين التشبيه المركب والتمثيل المرتب. قد احتجّ أهل الاعتزال بهذه الآية على خلود أهل الكبائر في النار، أجيب بأن السيئات يتناول الشرك والكفر بأن أحسنوا ليشمل أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسمة ومقابلة فتأمل.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ﴾ يومئذٍ ﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ للكفار والمشركين إلزموا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ وتثبّتوا فيه واستقروا إليه حتّى يعاينوا ما الفعل بكم وكيف يعامل معكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ﴾ مع شركائكم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ المخاصمة والمواصلة أهواء لكم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23] حيث أمروكم أن تعبدوا ما استهزأتم، فيقول الأصنام مستشهدين بالله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [يونس: 28] إن كنا محقين. وضمير الشأن محذوف بقرينة اللام الفارقة بين النافية والمخففة من الثقيلة. الباء صلة والله فاعل كفى ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ [يونس: 29] ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فجعلتمونا معبودين. وقال بعضهم: إن لِلنافية يكون مقول الحق، فيكون كما بينهم.

﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى موقف القيامة ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي تختبر كل نفس أو تعلم أو تطّلع أو تشاهد وتعاين. وقيل: تقرأ كل نفس ما في صحيفة أعمالهم ﴿مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ وقدّمته من الخير والشرّ ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحكمه وتحت سلطنته ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ وحافظهم وناصرهم وحاكم عليهم ومالك لهم ومتصرِّف فيهم ﴿ٱلْحَقِّۖ﴾ [يونس: 30] الثابت توليته لهم ومالكيته لأمورهم لا النصرة كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمّد: 11] ولا ناصر فلا منافاة بينهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب وزال وبطل عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 30] على الله في الدنيا من الإشراك ونسبة التوليد والتوالد إليه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: الآيتان 3 - 4].

إشارة وتأويل

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ﴾ الأعيان النورية في الدورة الصغرى النورية الفرعية ﴿رَحۡمَةً﴾ [يونس: 21] امتنانية ونقمة وجودية أو مشاهدة علميَّة أو عينيَّة أو ذوقيَّة حاليَّة أو قاليَّة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾ العدم أو العماء، وهي الجهل البسيط أو المركب الذي هو أردأ من البسيط لأنه أضرّ الأمراض للنفوس، أو العينية وهي الغفلة المستحكمة التي لا تزول بسهولة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: 46]، أو أنبياء الهداية وجحود الطبيعة وخمود القريحة ﴿مَسَّتۡهُمۡ﴾ في الأدوار ونشآتها والأكوار ومرآة شؤوناتها إذ لهم مكر وحيلة خفيّة وغفلة جليّة ﴿فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ إخفاء في تجلياتنا وإطفاء لنار الشهوة ونائرة محبّتنا فخمدت أنوار شهود آثار اقتضاءات أسمائنا وصفاتنا في فرداريّة الأدوار النورية الجمالية والظليّة الجلالية صريحًا وضمنًا ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي الذات الجامعة والإحاطة الكليَّة بالقوة السامعة والباصرة ﴿أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا﴾ وصور جمعيَّة تجلياتنا ونعت كليّتنا ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ [يونس: 21] ما يكون من مقتضيات أعيان الأدوار النورية الصريحة وأكوان الأكوار الضمنية تجتمع في أطوار أدوار الجمال وأنوار الجلال. وآياتها أربعة، آيتان منها جمالية، وهما الجمعيّة الأصلية والفرعية. والأخريان جلالية مثل المذكور.

ويمكن أن يفسر في كل منها الأدوار الجمعية الأربعة النورية الجمالية، والأربعة الجلالية. وأما جمعية الجمعية فهي الخامس الذي أشار إليه بقوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3] وإليه أشار الحلاج بقوله، شعر:

أقول وروح القدس ينفث في نفسي   إن وجود الحقّ من عدد خمس

ولذا خلق الإنسان مخمسًا ظاهرًا وباطنًا، صورة ومعنى، إشارة إلى اختلاف اقتضاءات أطوار الأدوار وتغاير أسرار ارتضاءات الأكوار الإفرادية والجمعية نورية كانت أو ظليّة، فرعية أو أصلية، جزئية أو كلية.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ أي الجمال والجلال والطور القالبي والنفسي والقلبي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي إلى أن حصلت لكم الهيئة الكونية والجمعية

الكينونية والتمكن في فلك منطقة جمعية الدورة الصغرى النورية والاستقرار في سفينة البحر الوجودية والعدمية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: 22] وفي الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشعار بأن الأعيان النورية الوجودية والأكوان الظليّة العدمية في مطالب الأدوار ومراتب الأكوار متساوية الإقدام، وإن كانت متغايرة الأطوار ومتكاثرة الآثار ومتناثرة الأضواء والأنوار، فإن في كل عين وكون من الأعيان والأكوان لا بدّ في الاستكمال أن يتطور في كل دورة وكورة بمقتضى فرداريّة تلك الدورة الصريحة ومرتضى تلك الكورة الضمنية الصحيحة إلى أن تبلغ إلى حدّ يتساوى عنده الحضور والغيبة، والتكلم بريح طيبة وروح نفس عمايته انبعث من باطن من جانب أيمن، جنب الله اليمنى ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُمَر: 56] الآية، «**إني وجدت نفس الرحمٰن من جانب اليمن**» الحديث.

﴿وَفَرِحُواْ﴾ تلك الأعيان والأكوان في المسالك الكونية والمدارك الكتابية والأرائك الإلٰهيَّة، وشرحوا في رياض الأدوار وغراس حدائق الأكوار لإظهار حقائق الأسرار السرمدية، وإشهار الأنوار المدلولية ﴿بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ونفح صريح واضح عاطف من جنب أيمن التجلِّي الآثاري وجاءتهم الموج من تلاطم أمواج التجلِّي الأفعالي والأسمائي ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي أحاطتهم التجليَّات المذكورة ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ ورغبوا إلى الجمعية الذاتيَّة والواحديَّة الأسمائيَّة ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ ومتوجِّهين بتمام ما لهم من القوى البدنية والمبادئ النفسانيَّة والأجزاء العقلية ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي تمام جمعية الأعيان الذين استكملوا في نشأة الأدوار وبروز الأكوان، قائلين بالعقل الفطري والنطق الأولي والكلام الأني في مراتب الأدوار والأكوار الجمعية الإفرادية.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ وأخرجتنا من خصوصية هذه النفحات الربانيَّة والسبحات السبحانية إلى شهود جمعية التجليَّات الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية ومعية المشاهدات والمعاينات بحيث لا يغيب عن كليّته هويته الإلٰهيَّة وجمعية صورته النوعية التي هي صورة الحق ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22] والسائرين والصابرين إلى التطور الجمعي وعموم تنوُّع الكمال النوعي الأصلي والفرعي.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ من النشئات النورية الإفرادية، أو الجمعية الإفرادية إلى الكمال الجمعي النوري ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ﴾ [يونس: 23] ويطلبون بناءً على

الاستعجال الطبيعي وعدم الوقار والتمكُّن في الطبيعة الإنسانيَّة الانتقال من هذا المقام إلى مقام آخر من غير أن يكمله إلى مقام آخر ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبيَاء: 37]، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستعدادية والعرض الاستمدادية ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ﴾ أي من غير أن يثبت على مقام واحد لتستكمله ﴿قُلْ﴾ يا حقيقته المحمدية لأعيان السالكين من الأعيان النورية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وعدم تمكنكم وثباتكم في المقام الإلٰهي الكوني الاستكمالي ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس: 23] في تفويت المقصود الأصلي، وهو شهود جمال الحق وكمال جلال كمال جمعية ذاتية بتمام الأسماء والصفات في تمام الأدوار وعموم الأنوار الإفرادية والجمعية، وجمعية الجمعية، وذلك لأن الاستعجال في مقتضاه إنما يطول المسافة وتكثر النشئات ويشوّش عليها الحركة والسلوك.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: 24] إشارة إلى أن الأدوار والمراتب والأكوار أظلال وأمثال متطابقة وأظلال متوافقة وهي في نفسها منتظمة ومربوطة متناسقة فلا بدّ وأن يكون آثار أطوارها مضبوطة وأنوار أدوارها منسوقة، فإذن لا بدَّ وأن يكون لها أمر ممتدّ حافظ لها وهو الامتداد الإلٰهي الذي لا بداية ولا نهاية له، وهو المسمّى بالوقت المطلق، وهو مادة الدهر وأصل الزمان وعنصر العصر، فلا بدَّ وأن يكون لذلك الامتداد أربعة مواطن وأربعة دورات ومعاطن، وهي العظمى والكبرى والوسطى والصغرى الإفرادية، ولها جمعية، ولخصوصيتها معيّة إلى أن ينتهي إلى جمعية ومعيَّة لا يغيب عنها شيء لا من الموجودات ولا من المعدومات لا من المثبتات ولا من المنفيات.

فهذه مظاهر العوالم الخمس المثمرة بعضها عن بعض لا بدَّ وأن لكل واحد منها مبدأ ونهاية، وبينها امتداد ثوري واستمرار كوري ظاهرًا وباطنًا، صورة ومعنى، أما الظاهر فهو الأدوار، والباطن هي الأكوار، وهما توأمان متطابقان، فالدنيا في الحقيقة هي الأدوار النورية الجمالية، والآخرة هي الأكوار الظليّة والجلالية. وهذا التمثيل المركب والتشبيه المرتّب هو أحد طريقي النظر والاستدلال والفكر والانتقال، إنما يعتدّ كمال العلم ويعدّ النفس ويهيّئها لأن يشاهد ما أدركته بطريق الحصول والخطور، إذ بين الممثل والممثل له علاقة مركبة من هيئات مركبة وتعيينات مرتبة من الأدوار المسرعة من الهيئات الحسنة

والكيفيات النفسية التي تصحح الانتقال من الأمور المقالية والورود الخياليَّة إلى الحضور الجلالية والشهود والإدراكات الحضورية، والطور المعهود في الدور المحدود، والكور الموعود. وهذا لا يتصور إلا في الدورة الأخيرة والفرداريّة المتأخرة، وإلى أن حقيقة كل شيء من الممكنات هي الماء المنزل من يخبر لأحدية الحقيقة الجمعية. وأن في المراتب بحسب الأدوار حالات وكيفيّات مرتبة، وكميات وتعيُّنات مركبة، وأسماء وصفات مقترنة، وإن أفلاك الأدوار وسماء أسماء الأكوار إنما عليه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: 3] وكان عرشه على الماء فاختلط وامتزج في مراتب التنزلات نبات الأرض وهيئات امتدادات الطور العقلية وكيفيّات العرض النفسية في كميّات إلٰهية عميقة. والسميكة مما يأكله الناس ويقبله ويحتوي عليه احتواء حسيًّا، وينطوي لديه انطواءً نفسيًّا، ويدخل فيها ما في هذه المراتب من الأعيان الفعلية والنفسية والبدنية، ويتخلّل فيه تخلُّل الغذاء في المغتذي. والإنعام إشارة إلى أن الحقيقة الإنسانيَّة متقدِّمة على كل الممكنات صورة ومعنًى، ظاهرًا وباطنًا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التّين: 5]، «**لولاك لما خلقت الأفلاك**».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي أظهرت الأرض الاستعدادية والمادة القابلية زخرفها من الصور الفعلية والهيئات النفسية، والأشكال البدنية الجسمية ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين نظروا إلى ظاهرها وصورتها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ دائمون لديها، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال: ما أظن أن تبيد هذه أبدًا، وما أظن الساعة قائمة، فإذن أتاها أمرنا وكلمتنا الباهرة المهلكة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي عند انقضاء الدورة الجلالية الضمنية أو الجمالية الصريحة ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ عند انتقال حكم الفرداريّة، فرداريّة النور والجمال ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الذي ذكرنا في هذه الدورة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ونفصل بعضها على بعض وتتيسر أحكامها وتنشر تفاصيل أحوال أعلامها البسيطة والمركبة في دورة أخرى إلى أن هم مقتضيات الاسم المدبر ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24] في تفاصيل أحكام الدورة الحاضر وتفاصيل أعيانها الباطنة، ويتدبرون في أحوال الأدوار السابقة، ويتذكرونها إشعار بأن إدراك أحكام الأدوار والاطلاع على ما في أحوال أعيان

الأكوار الإفرادية الجمعية الأصلية والفرعية مخصوص بعوض خاص. قال النبي عليه السلام: «**إن من العلوم كهيئة المكنون إذا نطقوا بها لم ينكرها إلا أهل الغرة بالله** ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7]» الآية إلخ.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25] إشارة إلى أن الدعوة على مقتضى نسبة عموم الدار إلى جميع الممكنات عام، والهداية بناء على اختصاص اقتضاء الأسماء والصفات حسب تخصيص الشبه الذاتيَّة والشؤونات الذاتيَّة بخصائص العنوان الذاتي وتنصيص الإرادة كما صيغة الأعيان الثابتة والحروف العالية والحقائق الإلٰهيَّة والماهيات الكونية باللوازم الذاتيَّة واللواحق العرضية، إذ لو عمَّت الهداية لارتفع التمييز بين الأدوار النورية ومقتضياتها والأكوار ومرتضاتها. نعم إن قهرمان الغيرة الذاتيَّة العامَّة وثوران السطوة الطاغية يقتضي أن تعمّ سلطنتها كل الممكنات وتعم آثار سطوة سلطنتها تمام حصص المكونات، فتحقق كلًّا منها لنعت الكلي والجمع الكمالي والكمال الجمعي ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من الأعيان النورية الجمالية من الألوان الظليّة الجلالية الإفرادية إلى الكمال الجمعي، والجمع الكمالي النوري الجمالي والجمالي الجمعي فردًا أو بهما معًا، استقلالًا وتبعًا، أصالة وفرعًا. أو جمع الكمال جمعًا وفرادًا معًا.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي تحقّقوا في الأدوار والأكوار بحقيقة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فيدخل حينئذ جنة الإحسان التي سمِّيت بالحسنى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي التحقق بالفناء الذاتي الذي أشار إليه بقوله عليه السلام: «**فإن لم تكن**» أي لم تثبت نفسك واختفيت في حضائر قدسك وسرائر أنسك عن عقلك وجسمك فحينئذ يوجد بوجود الحق ويبقى ببقائه ويراد يقينه لا لعينك بل لجمعية العينين وميم الكونين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الجمعية ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 26] أو المراد بالزيادة وهي تضاعف شهود التجلِّي كتضاعف الإدراكات والعلوم إلى غير النهاية، فإن شهود التجلِّي الواحد يتضمن شهودات غير متناهية كالعرض الواحد يتضاعف بتجدُّد الأمثال وكالإدراك الواحد يتضاعف إدراكات غير متناهية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ [يونس: 27] إلخ، إشارة إلى مجرّد السلوك، فإن القوة البشرية لكمال ضعفها لا تقدر على عمل ضعيف قليل بل لا تقدر على فعل أصلًا، وأن الفعل الواحد البشري على تقدير الثبوت مجرّدًا عن التأكيد، منفردًا عن التوفيق والتأييد لا يزيد على نفسه فلا يجازى في مقام المجازات إلا بمثلها، وهو وإن كان حسنة إلا أنها بالنسبة إلى ما تقتضيه العناية الإلٰهيَّة والجذبة الرحمانية سيئة لقوله عليه السلام: «**حسنات الأبرار سيئات المقرّبين**».

واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم منقلبكم ومثواكم ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ [يونس: 27] وصعب ومذلّة وحقارة ومسكنة لوقوع نظرهم على طاعتهم وأعمالهم وإسنادهم إلى قوتهم وقدرتهم العدمية مع أنهم لو لم يوفق طاعة وعمل لم يظهر منهم أثر ولم يصدر لا خير ولا شرّ، ولا نفع ولا ضرّ. وأما الذين خصّهم الله بالعناية الإلٰهيَّة والهداية الربانيَّة والجذبة الرحمانية فإنهم يتقرّبون آنًا فآنًا من الله بما لم يعلمه إلا الله من الدرجات ومنازل القربات والتحقُّق بالأسماء والصفات وكليَّة الذات، وبجمعيتها جذبة من جذبات الرحمٰن توازي عمل الثقلين.

تفسير

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد من ينزل القطر من السماء، ويخرج النبات من الأرض، و﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ يريد من جعل لكم السمع والأبصار ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ يريد المؤمن من الكافر، والنبات الحي من الأرض الميتة ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ يريد الحب من الثمار. وقالوا: الكافر من المؤمن ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ يريد أمر الدنيا والآخرة ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ﴾ يا محمد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31] يريد أفلا تخافون ولا تشركون بي شيئًا.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ يريد الذي هذا كله فعله ﴿ٱلْحَقُّ﴾ ليس هؤلاء الذين جعلهم معه شركاء يملكون شيئًا من هذا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ يريد الذي أنتم فيه وما اتخذتم من الآلهة غير الله ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 32] يريد كيف تصرف قلوبكم وعقولكم إلى أن تعبدوا ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ما سبق في علمه وقضائه وحكمه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ كذّبوا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 33] لا يصدّقون بما جاء من عند الله.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يريد ما ابتدع من خلقكم وما ابتدع من موتكم وما ابتدع من تعبكم ﴿قُلِ﴾ [يونس: 34] يا محمد ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت والبعث والجزاء ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: 34] كيف تكذّبون.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ يريد الآلهة التي يعبدون من دون الله ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يرشد إلى الدين الواضح الذي هو لله ولرضائه ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ ويرشد للحق ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يرشد أن الحق أحق أن يتّبع، يريد أن محمدًا ﷺ دعا قومه إلى دين الله وأرشدهم ﴿أَحَقُّ﴾ إلى طاعة الله فعصوه فهو ﴿أَن يُتَّبَعَ﴾ ليس يتّبع من ليس عنده حق ولا يدعو إلى الحق ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ [يونس: 35] يريد لا يرشد ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يريد أن يرشد، وما ذلك إلا بيد الله وما يفعله إلا بأوليائه ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: 35] بئس ما أحكمتم أن جعلتم لله شريكًا مَن ليس بيده لكم منفعة ولا مضرّة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ يا محمد ﴿أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يريد ليس الظن كاليقين، يريد بالحق اليقين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 36] من كفرهم.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي لا يقدر على مخلوق ولا يقدر أن يفعل منه شيئًا لما جعل الله فيه من العجب وعظيم الكلام والحلال والحرام وأخبار الأولين والأمثال ﴿وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ الفرائض والسنن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكّ فيه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37] يريد الخلق أجمعين أنه ينزل من عند ربّ العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يا محمد ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يريد أنه ينزل من عند ربّ العالمين ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ يريد الآلهة التي تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ يريد أنه ليس خلق يحيط بجميع علم القرآن ولا ملكوت الله وجبروته وقدرته وسلطانه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يريد انقضاء السلف ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الخالية ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد وقل لقومك ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 39] قوم لوط وأصحاب مدين. وقيل: عاد وثمود وقوم إبراهيم، وكذب موسى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ من قومك ﴿يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ يصدّق به ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ لا يصدق به ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: 40] المكذّبين.

﴿قُلْ﴾ أقول: يا محمد حجة وردًّا أو ردعًا عمّا عليه ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ ينزل عليكم رزقكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويخرج لكم من الأرض ما يرزقون به من النبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ أي القوة السامعة والباصرة وغيرهما من المبادئ البدنية والأيادي الظاهرة والنعم الباطنة، فيفيض عليكم ويسبغ إليكم صورة ومعنى ومن ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ وهو حجة أخرى أعمّ من الأولى ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من الحبوب والبزور والنواة بطريق الكمون والبروز ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وهو العكس، وكذا في الحيوانات ومن النطف والحبات ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾ من السماء إلى الأرض ويعرج منها إليها ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ المخرج والمدبر هو ﴿ٱللَّهُ﴾، والله المخرج والمدبر والمعرج.

فإن بداهة العقل وضرورة النقل يدلّان على أن هذا التدبير وأمثاله لا يتأتى من الممكن الحسّي المصنوع الذي اخترعه أضعف الممكنات، فإن الإنسان أضعف الأعيان وأحوج الأكوان إلى العلّة، ومتأثّر عن كل شيء حتّى البعوض فإنها أحقرها قد أثرت في أعظم الموجودات الذي تأله في زمانه أربعمائة سنة وهو نمرود بن كنعان، فإنه عاش ثمانمائة سنة وقد تألّه وادّعى الربوبية، ثم سلط عليه خليله إبراهيم عليه السلام ودعاه إلى الله واستولى جنوده وهي البعوضة التي هي أضعف خلق الله على من ادعى الألوهية، وعلى جنوده وهي قومه وأهلكهم وابتلاه بواحدة منها بأن صعدت في دماغه وشوشته أربعمائة سنة، فكلما تحركت في دماغه انزعج واضطرب اضطرابًا شديدًا ولا يسكن إلا بأن يضرب رأسه ضربًا شديدًا، فقد طرح في الطريق فمن أشفق عليه وترحم بين يديه فقد ضرب رأسه ضربًا، فيسكن لحظة، وهكذا عاش أربعمائة سنة ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يُونس: 31] وتحذرون نفوسكم لأن تعرضوا لسخط الله وغضبه بترك الأمر البديهي ومقتضى الفعل الصريح ومرتضى الفعل الصحيح إلى العمل بالأمر الوهمي والحكم الخيالي الرسمي في إشراك الأمر الخسيس بالذات الواجب الوجود بداهة، القادر

على كل الممكنات العاليات المجرّدات والسافلات الماديات بأن يحكم على الذات بما يحكم على الممكن فيحكم عليه بالتشبيه بأن يكون مجسمًا.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الذات الكاملة بجميع الوجوه ﴿رَبُّكُمُ﴾ وربّ كل شيء وخالقه ومدبّره الحق الثابت ألوهيته وربوبيته فيستحق للعبادة كلها ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ استفهام إنكاري ليس بعد الحق ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ والباطل والإغواء والإضلال، فمن تخطى الحق الصريح وتمطى الباطل القبيح فقد خسر خسرانًا مبينًا ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يُونس: 32] وكيف يتحرَّفون عن إطلاعته ومطاوعته إلى إطاعة ما لا يقدر على شيء أصلًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ثبتت الألوهية وظهرت وتحققت الربوبية ﴿حَقَّتْ﴾ ووجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحكمه وأمره على ما يقتضيه شقائق عمله وسوابق قضائه وحكمه، وهكذا في جميع القرآن ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ وخرجوا عن طاعة الله وكفروا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونس: 33] بدل من الكلّ، أو تعليل لحقّت.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ وأوثانكم وأصنامكم ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ وينشئه ويُظهره أو يقدر عليه من عدم محض، تصريح بما أشار إليه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الإماتة والغرض مجرّد لا لزام، والتسكيت والإفحام والتبكيت للخصم وإظهار كمال قدرته وعموم مشيئته وإلا فمجرد الأبد يحصل المطلوب، ولذلك ذكرهما في الجواب ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يُونس: 34] يصرفون عن قصد السبيل، وكيف يتحرفون عن مقتضى أصل الدليل إلى الرأي العليل، وذلك الكمال لحاجتهم وفرط اعوجاجهم في طريق احتجاجهم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنصب الدلائل وكسب الوسائل وتركيب الحجج لاستكشاف المطالب والمسائل وإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وتبيين السبل وتعديه هدى بإلى لتضمنُّه معنى الانتهاء في الاهتداء، وقد تعدّى باللام للدلالة على أن الاهتداء انتهاء الهداية وغايتها، وأن النهي لا يُقبل إليه ولا يُتوجه لديه على سبيل الاتفاق على طريق اللزوم ورفيق الانتظام والاتساق ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى﴾ ويبيِّن الطريق إلى نفسه والأنس بقدسه، ويلزم الإيصال إليه والاتصال به والاهتداء لديه ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ﴾ ويوصل إلى الحق ﴿أَحَقُّ﴾ وأحرى وأوفق ﴿أَن يُتَّبَعَ﴾ ويقتدى ويتقيّد ويتقلّد ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ [يُونس: 35] بكسر الهاء والدال المشدّدة أصله يهتدي قلبت

الهاء بالدال وأدغمت، وقرئ بكسر التاء اتّباعًا لأن يهدي أي يجعل هاديًا ومهديًا.

هذا ينزل ومشايعة ترابهم الفاسد ومتابعة تفهمهم الكاسد يعني أن الذات الحق الثابت له الاهتداء بنفسه والهداية والاهتداء لغيره أحق أن يتّبع مما لا يتأتى منه شيء إنهما كالأصنام والأوثان المنحوتة، أو يتأتى الثاني منه كالملائكة والمسيح والعزير إشارة إلى تنوع الإشراك وإلى إبطال الكل. ونعني من الحق الألوهية والربوبية، وشرط الاتباع هو الاهتداء والهداية والإهداء، فمن شركائهم من لا يتأتى شيء منهما أصلًا كالأصنام، أو لا يتأتى منهم إلا أن يهدي الملائكة ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: 35] أي لا يصح لكم أن تحكموا كيف اتفق بل لا بدّ من التأمل في الحق والحقائق.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في الأحكام، جملة حالية ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي طرفًا راجحًا من طرفي الإدراك ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي﴾ ولا ينفع لأنفسهم ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ والأمر الثابت في نفس الأمر ﴿شَيْئًا﴾ ولا يدفع عن أنفسهم من عقاب الله وعذابه شيئًا، والحال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 36] على ما ذكر من الإشراك واتباع الظن والإعراض عن طور العقل الصريح والنظر الصحيح.

﴿وَمَا كَانَ﴾ أي وما ينبغي ولا يجري بـ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي بمثل هذا القرآن ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ وقيل: أن بمعنى اللام أي ليفترى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولكن كان هو ﴿تَصْدِيقَ﴾ الكتاب ﴿ٱلَّذِى﴾ كان ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي كان بيانًا وحاضرًا مطائعًا لما ثبت دونه من الكتب الإلٰهيّة والصحف السماوية، فيكون مصدقًا وصادقًا لا كذبًا مفترى بل معجزًا أولًا وشاهدًا لا على حقيقة ثبوته وصدق دعواه ودعوته، ونصب تصديق بكان المضمر أو بالغلبة لفعل محذوف أي لكن أنزل الله هذا الكتاب لتصديق الكتاب الذي بين يديه ويكون تفضيل كل الكتاب الإلٰهي والصحف السماوي ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا شك ولا غيب ﴿فِيهِ﴾ أصلًا أي قد انتفى عند جنس الرّيب حال من الكتاب، قرئ المعطوف والمعطوف عليه بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف، لكن هو تصديق وتفصيل، ولا ريب خبر ثان ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: 37] خبر آخر ومتعلق بيصدق أو بتفصيل أو حال من الكتاب أو من ضمير فيه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم بمعنى الواو، واختلف أمحمد القرآن من نفسه؟ أو بمعنى همزة الاستفهام ﴿قُلْ﴾ [يونس: 38] يا محمد لو كان كما قلتم ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال الفصاحة ومقتضى النوع مشترك بين أفراده ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فمن يعبدون من دون الله ليفتنكم في الإتيان بمثله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يُونس: 38] في قولكم بأن محمدًا مفتري.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ﴾ أو يتنازعوا إلى التكذيب ﴿بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي بالقرآن الذي ما أحاط علمهم به وبما أحاط به من الحقائق والأسرار والنكات والدقائق والمزايا والخواص التي يختصّ بخالق البشر ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي معاني القرآن الخفية من الحوادث الزمانية من الأزل إلى الأبد، يعني أنهم كذبوا القرآن والحال أنهم ما علموا معانيه الظاهرة التي تشتمل عليه النفس ولا معاينة الحقيقة التي هي التأويل، ولما فيها معنى التوقع بمعنى لم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما كذب هؤلاء ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أتيناهم وما أنزل عليهم من الكتب والصحف ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ﴾ وقع في الأزمنة الخالية في البلدان النائية ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُونس: 39] وآخر أمرهم وعاقبة شأنهم وهم المشركون بحلول العذاب ونزول السخط والعقاب.

﴿وَمِنۡهُم﴾ من المكذبين أو من قومك ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي يصدق في نفسه بالقرآن أو بمحمد ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ بعلم الله السابق فيهم، قال عليّ كرَّم الله وجهه: «اللهمَّ إني لم أرتكب الذنوب والخطايا تجرؤًا مني عليك ولا استخفافًا بحقّك، ولكن سبق به علمك وجرى به قلمك» ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يُونس: 40] المعاندين المصرِّين على التكذيب للمبصرين المؤمنين وللفقراء الموحِّدين.

إشارة وتأويل

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾ في المراتب الوجودية والمساليب العدمية ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيّ سماء أو سماء الذاتيَّة وأفلاك الصفات الإلٰهيَّة النورية الفاعلية بأرزاق وجودية علميَّة وغيبية روحية ونفسية وسبحيَّة أو ملكية جسمية شبحية ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستعدادية وعرض القابلية العدمية الضمنية ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ﴾ التي يسمع بها القابليات الخطاب الأدنى والنداء الأولى ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [يُونس: 31] التي تبصر بها العلّة الفاعلية، استدعاء الاستعداد الذاتي. وإنما أفرد السمع وجمع الأبصار إشعارًا بأن الكثرات في التعدُّد والاجتماع والتفريق والتبدُّد إنما يظهر من العلّة الفاعلية التي ملزومة للبصر لما تقرّر من أن إعطاء الوجودات وإنشاء ما يلزمها وإبداء ما يتبعها من

الكمالات الذاتيَّة والأسمائيَّة إنما يظهر من الفاعل حتَّى نفس القابليات فإنها من الفيض الأقدس الذي هو الوجه الإلٰهي الذي في الحقيقة والمعنى هو الوجه الكوني.

لما تحقق معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] تحقَّق أن الأول هو عين الآخر وعين الظاهر وعين الباطن، فيكون كل واحد من هذه المعلومات عين للآخر وعلمًا بالكل، وإن كل عين من الأعيان النورية هو عين كون من الأكوان الظليّة وبالعكس. فتأمل فينحل مفصلات ومشكلات يرد على قاعدة أرباب التوحيد والتحقيق ويظهر العدل الحقيقي والفضل الإلٰهي، ومن يخرج الحي ويظهر النور من الميت والظلمة والعدم ويخرج الميت والعدم والظلمة من الحيّ تفصيل للعدد الحقيقي والفضل الإلٰهي ومنه يدبّر الأمر فسيقولون الله لأن معرفة الله وشهوده للأشياء كلها فطري.

قال عليه السلام: «**جبلت البهائم والحيتان والأشياء كلها على معرفة خمسة، الأول: أن الله ربّ كل شيء**»... الحديث. «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه فطرة الله التي فطر الناس عليها**» لما يبدأ بل يخلق الله ذلك الدين القيم.

﴿فَقُلْ﴾ يا حقيقة المحمدية الأعيان التي آمنوا كلهم في الفطرة الأولى النورية والنشأة العليا الوجودية أصلية كانت أو فرعية ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31] مقول القول والخطاب عام لتمام الأعيان النورية الإفرادية والجمعية والأكوان الظليّة الصريحة والضمنية ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الذات التي دبركم في تمام الأدوار والأكوار هو ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت تدبيره لكم في هذه الحالة الحاضرة، إشارة إلى سرمدية تدبيره وديمومية خلقه وإيجاده وتقديره ﴿ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الظاهر في الفرداريّة الدورة الصغرى الصريح ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الظاهر ضمنًا، فإن كل ما ظهر ويظهر في دورة من الأدوار التعددية صريحًا لمقتضى النور والجمال فهو حق ثابت صريحًا، وكلما يظهر ويتجلى ضمنًا فهو لمقتضى الظلّ والجلال باطل وضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 32] وكيف يتحرَّفون من حكم اقتضاء سلطنة النور والجمال ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33] الآية إلخ، إشارة إلى تدبيرات النورية الجمالية صريحًا والجلالية ضمنًا وبالعكس.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 40] إشارة إلى أن هذا النوع من الاختلاف بين الأعيان والأكوان ثابت في تمام الأدوار وعموم الأكوار إفرادًا وجمعًا، وإلى أن الاختلاف شرط لامتياز بين الألوهية والكونية والربوبية والعبودية وإلى أن كل شيء جاوز حدّه انعكس ضدّه، فتأمّل وتدبّر.

تفسير

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل﴾ [يونس: 41] يا محمد ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ يريد لي توحيدي وثواب عملي ولكم شركم وجزاؤه ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ يريد مما أعبد، يريد ثواب من أمرني أنتم منها بريئًا ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾ يريد أنا ومن أمرني بريء ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41] يريد ما تشركون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ليس في القرآن غيرها، يريد إذا قرأت القرآن، يريد النضر بن الحرث وأبا جهل بن هشام والعاص بن وائل، والأسود بن عبد الأسود والمستهزئين ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 42] يريد أنهم شر من الصم، والصم لهم عقول وقلوب تفقه، وهؤلاء قد أصمّ الله قلوبهم وآذانهم بها.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، يريد متعجبين منك وما أعطاك الله ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: 43] يريد أن الله قد أعمى قلوبهم وأبصارهم فلا يبصرون شيئًا من الهدى كما أبصر المؤمنون الذين إذا ذكر الله ومنهم من يؤمن به، وكذلك قال في سورة الحج: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الآية: 46].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ يريد لا ينقص مؤمنًا من حسنة يعملها حتَّى يضاعفها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ يريد المشركين ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث جعلوا لله كفوًا من خلقه، ولا نظير ولا مثله شيء وهو السميع لقولهم العليم بما في قلوبهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس: 45] يا محمد ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يريد ما كانوا فيه من الكفر في الدنيا والندامة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ يريد ما بعث وما أوجب لنفسه من الثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45] يريد مرشدين.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يريد ما ابتلوا به يوم بدر ويوم أُحد ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾. يريد لو قال: قيل ذلك فلا فوت عليّ ولا يفوتني مني كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يرجعون ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يريد من يكذبك ويحاربك ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يُونس: الآية 46].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يريد نبي أُرسل إليهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ يريد كذّبوا رسوله ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يريد بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47] يريد لا ينقص الذين صدقوك ويجازي الذين كذبوك. فإذا ما كانوا يكذبون مثل قوله تعالى في الرعد: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ يريد نبيًّا ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: 7] يريد داعٍ يدعوهم إلى الله وينبئهم عن الله.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يا محمد ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يُونس: 48].

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يريد لا أقدر أن أسوق إلى نفسي نفعًا ولا أدفع عنها سوءًا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ توكُّلًا منه على ربّه ورضى بقضائه ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يريد الذين ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يُونس: 49] ليس هذا مثل الذين صدقوه وتوكلوا على الله ينسئ في أجلهم ويمتنعون في عبادتهم مثل قوله في النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [النّحل: 97] يريد عبادة الله وأكل الحلال. وكما قال في حم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يريد كما استقام المهاجرون والأنصار ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يريد عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ يريد من الموت ولا مما بعده ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ يريد على ما خلفتم من أهل وأولاد وأنا خليفتكم عليهم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصّلَت: 30].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد الله نفسه تبارك وتعالى ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد ما أعدّ لأوليائه من الثواب وما أمنوا من العقاب ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ انقطعت الصفة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فُصّلَت: 31] يريد ما يتمنون ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصّلَت: 32] يريد لغفور من ذنوبك، ورحيم بأوليائه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يريد ممن وجد الله ولم يعدل به شيئًا ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصّلَت: 33] يريد الذي أسلم بقلبه ولسانه وجوارحه لربّ العالمين فلا يعدل شيئًا وسلم الناس من بوائقه وغشمه[1] وظلمه، ولا يحب لأحد إلا ما يحبّ لنفسه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا

(1) غَشَمَ الشخص: ظلمه أشد الظلم هذا حاكم غاشم.

﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: 50] يريد المشركون فإن كذبوك **أقول**: يا محمد في أمثال هذا المقام فلا تتضجر واصبر ولا تيأس أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إلى أن يحكم الله بيننا وبينكم، ينصر الحق ويضرّ المبطل ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يُونس: 41] قال البعض: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يُونس: 42] بإلقاء الأسماع في الظاهر عند تلاوة القرآن وتبليغ الأحكام ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: 57]، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ في الدين، انتفت عنهم قوة الأسماع ودورة استمتاع الأسماع ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونس: 42] ولو انضمّ إلى صممهم وعدم لفظهم، وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام لا يتمّ إلا بالعقل، وفيه مزيد توبيخ وإنكار على النبي ﷺ بأنك تهم وتعمد إسماعهم، والحال أن حالهم كحال البهائم بأنهم أصل فكيف تسمعهم بل حكمهم حكم الموتى ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النّحل: 21] الآية.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يُونس: 43] بنظر البهائم، ويتعاينون دلائل نبوّتك بأبصار انتفت عنهم البصيرة التي هي مدارك الاستبصار ومعيار الاعتبار. والعمدة القصوى من الأبصار هي الاستبصار وحسّ الاعتبار هما لا يحصلان إلا بالبصيرة التي هي للقلب في إدراك الأمور الحقيقية الحقيّة، وللأشياء الغيبية كالبصر للنفس في إدراك الصور والألوان والأضواء، ومن هذا ترى الأعمى بالبصر ما لا يرى ولا يصدق، والأحمق بحدّة البصر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسبب حواسّهم ودرب عقولهم ونحافة فهومهم، بل يتفضل في جميع أفعاله وتقديراته ويعدل في تمام تدبيراته من بعثه للأنبياء وإنزال الكتب وإعطاء النعم الظاهرة والباطنة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يُونس: 44] بإفسادها وتفويت منافعها ووضعها في غير موضعها. وفيه دليل على أن للعبد كسبًا وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكليَّة كما زعمت المجبرة، بل لهم اختيار جزئي تنضبط أمر الكليَّة والتكليف به، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**العقل لإقامة العبودية لا لإدراك سرّ الربوبية**». نظم آدم الأولياء علي المرتضى:

كيفيّة المرء ليس المرء يدركه   فكيف كيفيّة الجبّار في القدم

هو الذي أنشأ الأشياء مبتدِعًا فكيف يدركه مستحدث النسم

وأنت خبير بأن تكليف الإنسان ليس كتكليف الجماد، وبينهما بون بعيد وفرق عتيد، وإنكاره خروج عن طور الإنصاف وعروج عن دور الاعتساف في الظاهر وإن كان طور التحقيق يأبى ذلك. ويجوز أن يكون وعيدًا لهم يعني إنما يتحقق بهم يوم القيامة وهو عدول وعناية من الله بالنسبة إلى ذلك العبد لا ظلم، وإنما ظلموا أنفسهم بافتراق أسبابه واكتساب مبادئه، واجتلاب وسائطه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ جميعًا في المحشر الأعظم وهم على حالة يتراءى لهم يومئذ ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ ولم يمكثوا من الابتداء وإلى الانتهاء ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يُونس: 45] إما لكمال الهول وشدّة الخوف وجدة العفو وصعوبة الحال ومهابة المآل. قال بعضهم: من ابتداء الدنيا إلى انتهائها. وقال ابن عباس رضي الله عنه: من يوم القبر إلى يوم الحشر. وإنما قيّد بالنهار لأن ساعته لكمال اشتغال النفس فيه ترى قصيرًا ولذا يصعب الحال على المريض في الليل دون النهار، وسيجيء في هذا المقام وتحقيقها شيء من الكلام في التأويل وتوضيح المرام. وفيه إشارة وتنبيه إلى أن مدة أيام الدنيا مع عامة طولها في جنب أيام الآخرة كأنها ساعة من ساعات الدنيا، أو توازي ساعة من أيام الآخرة، وأن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعَارج: الآيتان 4 - 5].

والجملة التشبيهية حال من ضميرهم أي مشبَّهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة يتعارفون بينهم بأن يعرف بعضهم بعضًا كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلًا عند خروجهم من القبور بتقطع التعارف عنهم لشدة الأمر عليهم واستغراقهم في شدّة حالهم واشتغالهم بإصلاح حالهم وإفلاح حالهم وهو حال أخرى مبيّنة لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ [يُونس: 45] لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكر ويتعلق بالطرف ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعَام: 31] معمول مقدّر قائلهنَّ ذلك عند التناكر استئناف فيه معنى التعجيز كأنه قيل: ما أخسرهم وما كانوا مهتدين إلى طريق أسبابه بما منحوا به من المعاونة والإرشاد لاستحصال المعارف الفطرية والعوارف النظرية، فتقليب العلوم والمعارف إلى الجهالات والمعارف التي أدتهم إلى الردى العميم وشديد العذاب في دور قعر الجحيم والعقاب الدائم الأليم.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ ونشهدنك ببصرنا ﴿بَعْضَ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى﴾ نعدهم في الحياة

الدنيا كإراءة ما جرى في بدرٍ، وجوابه محذوف وهو فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة فنحن نريكه، فيها جواب أو نتوفينك ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يُونس: 46] أي معاقب، وهي مقتضى الشهادة ونتيجتها فاندفع ما قيل: إن الله شهيد في الدارين فما معنى ثمَّ، وقرئ بفتح الثاء أي هنالك شهيد على ما أو هو شهيد على أفعالهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والآتية ﴿رَّسُولٌ﴾ قد بعثه إليهم ليدعوهم إلى الله وينبئهم طريق النجاة، ويوصلهم إلى أعلى درجات الجنات ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبيِّنات الواضحات والآيات ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [يُونس: 47] بأن عذّبوا في الدنيا والآخرة ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: 17] دليل على أن لا ثواب ولا عقاب قبل بعثة الأنبياء ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: 15] الآية، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يُونس: 47] لا يعذّبون بلا ذنب، ولا يؤاخذون بغير حجّة ولا ينقص حسناتهم ولا يزداد سيئاتهم بل تزاد حسناتهم ويتساوى عذابهم وسيِّئاتهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يُونس: 48] استبعاد واستهزاء بالاستعجال. الخطاب للنبي عليه السلام والمؤمنين، والخطاب للنبي عليه السلام في حكم الخطاب لعموم المؤمنين.

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يُونس: 49] ولا أقدر على دفع الضرّ وجلب النفع والدرّ والبرّ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه، فكيف أملك لكم وأستعجل في جلب النفع ودفع الضرّ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ ووقت مضروب بهلاكهم، أنجز وعدكم وأحرز عذابكم ورعدكم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يُونس: 49] فلا يستعجلونه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ﴾ وجاءكم وقت الاستعجال ﴿عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ وقت بيوتكم، أو زمان نومكم وثباتكم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين اشتغالكم بأمر المعاش واكتساب أسباب الانتعاش ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: 50] أي أيِّ شيء من الله أو من العذاب، يعني أن العذاب كلّه مكروه فرّ منه العقل السليم، واستنفر منه الفهم المستقيم، فأي شيء يستعجلون في طلبه، فاخبروني بأنه ماذا يستعجل به المجرمون، فالاستفهام متعلّق بأرأيتم، والمجرمون مظهر وضع موضع المضمر ليدل على أنهم بلغوا في الحرم والإحرام عامه، وفي الجهل البسيط والمركب

والحمق المرتّب بها منه حتّى أنهم ما تفطنوا مكانه ليستحقوا به من العذاب الأليم والعذاب العظيم، حتّى أنهم استعجلوه، ولذا حذف جواب الشرط وهو ندموا على الاستعجال أو عرفوا خطأه وحق المجرم العاقل إن كان ما يترتب على إجزائه ويهلك فرعًا من محبته وإن أبطأه، فكيف أن يستعجل به. ويجوز أن يكون الجواب من مقولة: إن أتيتك ماذا تعطيني، فتكون الجملة متعلقة بأرأيتم أو بقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يُونس: 51].

إشارة وتأويل

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ في الدورة الصغرى النورية الجمالية، وخالفوك في قبول الأحكام الوجودية ونزول الأحوال الضميرية من الفيض القلبي والفيض الغيبي الذي يستلزم انبساط نور الأنوار وارتباط سرور الأسرار في الأطوار في جمعية الأدوار أو معية الأكوار بالأدوار لحديث النفس من نشاط الانبساط وبساط الاحتياط إلى مناط الجمع والاختلاط الجمالي بالجلالي، والارتباط الجلالي بالجمالي، وكمال الانضباط بينهما.

﴿فَقُل﴾ يا محمد في الأرض الاستعدادية، ويا حقيقة الأحمدية في سماء الأسماء الإلٰهيَّة والكونية ﴿لِّي عَمَلِي﴾ [يُونس: 41] وهو التصرف في الأرض الاستعداد بقبولها الأنوار الإلٰهيَّة والأسرار الأحدية الذاتيَّة، وفي سماء أي سماء الأسماء الذاتيَّة بأن دبر العالم الإلٰهي والكوني باسم من هذه الأسماء الذاتيَّة في كل مرتبة من المراتب العالية والسافلة، وفي كل دورة من الأدوار النورية الوجودية بأن خصص العلم بالدورة العظمى في المرتبة الأحدية الذاتيَّة، والحي بالدورة الكبرى في المرتبة الجبروتية والواحديَّة، والقدير بالدورة الوسطى في المرتبة الروحية، وفي المرتبة الملكية باسم المريد، والمرتبة الجمعية بالصورة النوعية الناسوتية، وكذا في الكورة الظلّية الجلالية المربعة التي هي باطن الأدوار النورية الإفرادية يتصرف بأن يجعل كلامهما منسوبة إلى غيب كل واحد من هذه الأسماء الأربعة الذاتيَّة الإفرادية، وكذا جمعيتها منسوبة إلى جمعيتها، فالكل عشرة، تلك عشرة كاملة ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: 196].

وأما إذا اعتبرت نسبة جمعية الأدوار الجمعية والأكوار وبالعكس، فصار

المجموع اثنا عشر برجًا في سماء الدورة الإلٰهيَّة والكورة الربانيَّة والسلطنة الإلٰهيَّة إنما يدور على هذه البروج الاثنا عشر، وكل منها شهر من شهور السنين الإلٰهيَّة ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36] وهي الشهور الجلالية العدمية الظليّة، ﴿وَلَكُمْ﴾ يا معشر الأعيان النورية والأكوان الظليّة الضمورية الإفرادية ﴿عَمَلُكُمْ﴾ في المرتبة الإفرادية والزينة الجزئية ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ [يونس: 41] أي تبعدون من كلية عملي وجمعية فعلي كما يبعدون من إحاطة كوني ووجودي وشمول علمي وشهودي لأنكم متعبدون بخصوصيات هوياتكم ونصوصات أيناتكم بنا وبقيود أمنياتكم.

ومن هذا ذهب الحكماء الطبيعيون والهويون إلى أن كل عين من الأعيان الإنسانيَّة هو مركب من مبادئ الأفعال المختلفة كالنفس والقلب والروح والعقل وقوتها من المدرَكات والمشاعر العشرة الشاعرة والمحركات كالأعضاء والأجزاء والعضلات، وعند أهل المحققين الكل جوهر واحد له صفات متعددة ونعوت متكثرة يصدر من كل منها أثر وفعل خاص. والنظر الأعلى هو أن الأصل الكل هو الموجود والحق والذات المطلق وهو الفاعل المحقق المؤثر الكل، وهو الظاهر والباطن والأول والآخر وإليه الإشارة بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ من جنب الوجود والكون والظهور والظاهر ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 42] إشارة إلى كثرة النشأة وتطور الشؤونات الإنسانيَّة في أطوار البرزات وأدوار الظهورات ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: 50] أو خلقًا مما يكثر في صدوركم فسيقولون: مَن يعيدنا، قل الذي فطركم أول مرّة. قال آدم الأولياء علي المرتضى كرَّم الله وجهه: أنا الحجر الذي تفجّر منه اثنا عشر عينًا(1).

والفرق أن العارف قد استكمل في شؤوناته في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية طردًا وعكسًا وثم نسبته إلى أجزاء سماء الدورة الإلٰهيَّة السرمدية وهي الاثنا عشر كما مرت الإشارة إليها. ومنهم من نظر ظاهرًا بالبصر

---

(1) يتكلم بلسان الحقيقة المحمدية السارية في كل شيء فقد كان وليًّا وارثًا محمديًّا وخليفة إمامًا رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه.

الحيواني، أفأنت تهدي العمى القلبي ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: 46]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فالأول إشارة إلى النشأة النباتية، والثاني إلى المعدنية الحجرية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يُونس: 44] إذ المقصود الأصل والعرض الكلي من التردُّد في النشآت والتقيُّد في الدركات إظهار ما كان كامنًا في أرض الاستعدادات الإنسانيَّة من الكمالات الذاتيَّة، وهو التألُّه والألوهية والأسمائيَّة الأولية، وهي التحقق بالأسماء الذاتيَّة. والثانية وهي التحقق والتخلُّق بالأسماء الأفعالية والآثارية، والصورة النوعية الإنسانيَّة التي هي مظهر الجمعية الإلٰهيَّة «**خلق الله آدم على صورته**».

وهذه الكمالات إنما تظهر وتبرز إذا استكمل في نشأة الأدوار الإلٰهيَّة والربوبية النورية والظليّة، لم يبق له حالة منتظرة، ولكن الناس أنفسهم بأنفسهم يظلمون في استكمال واستحصال الشؤونات إشارة إلى كمال شمول نشأة العارف وتمام إحاطته بعموم المآرب وعموم المفاخر والمناقب، واستيعاب المنازل، واستغراق كل المناصب. وهذا هو الخروج عن طور الإمكان والتجاوز عن حدّ الزمان والمكان، فيكون ظالمًا بنفسه لنفسه. وإذا جاوز هذا الأمر عنه إلى غيره بحس الإرشاد وإظهار التكميل كان ظالمًا لغيره ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: 32] إشارة إلى أصناف العارفين. وأيضًا أن الإنسان هو أضعف الأشياء وأفقرها وأحقرها قد يبلغ في نشأته في حدّ الافتقار إلى مقام: «**يا عبدي أطعني أجعلك مثلي وليس لي مثل**». فإذا تمَّ الفقر فهو الله وهو سواد الوجه. شعر:

سواد الوجه في الدارين درويش   سواد أعظم آمد بي كم وبيش

أي دار الوجود والعدم وليس في الدار غيرنا ديار.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ هذا كلام الله تعالى بلسان العارف في السير من الله إلى الله وفي الله، في نهاية كل دورة متصلة ببداية كل دورة هي في الحقيقة كورة كانت في ضمّها خفية فصارت صريحة لدى انتقال الحكم من فرداريّة إلى فرداريّة، أو كلام العارف بلسان العارف الحق. فالأول ثمرة قريب الفرائض، والثاني ثمرة قريب النوافل كما قال الله تعالى منبِّئًا عن هذه الحالة بقوله: «**لا يزال العبد يتقرّب إلي النوافل حتّى أحبّه**» إلخ. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يُونس: 45] وحصة من حصص فلك التجلّي الذاتي الدوار، والدور السرمدي السيّار، وهذا كما تقرّر في

العلم الهيولي والتنجيم الإلٰهي أن مدارات الأكوار الإلٰهيَّة ودوائر الأدوار الكونية الدهرية والعصرية الزمانية كالمدارات اليومية المتوارية في نفسها الموازنة لغيرها، ومجاذبة لحصة من الحصص وأجزاؤها متطابقة، فالدائرة الصغيرة التي هي حول القطب والمركز متساوية المنطقة التي هي أعظم الدوائر والمدارات في الأجواء، والقسمة الواحدة من هذه الدائرة الصغيرة موازية ومقابلة ومخاوية من المنطقة التي هي أعظم المدارات وأكبر الدوائر المتوازية الموازية لها ومساواتها لها وموافقتها لها في القسمة ومحاذاتها في النسبة لا يعلمها إلا الله، فلا يعلم عظمة العظيم ولا يدري صغر الصغير لها إلا بالله.

فإذن نسبة الساعة الصغيرة إلى الساعة الكبيرة كنسبة حصة الدائرة الصغيرة في حصة الدائرة العظيمة، فإذن نسبة ساعة صغيرة من ساعات الدورة الصغرى النورية إلى ساعات أدوار الدورة الوسطى والكبرى والعظمى من الأدوار الإلٰهيَّة كنسبة المدارات الصغرى إلى المدارات العظمى والكبرى والوسطى المتوازية في أنفسها الموازية للصغرى إشارة إلى نقاوة أيام الأدوار النورية الإفرادية المحيطة بعضها إلى بعضها وساعاتها دنيا وآخرة كما سبق من أن مقدار يوم الدورة العظمى ثلاثمائة وستون دورة من أدوار ما دونها، ومقدار هذه الدورة ثلاثمائة وستون ألف سنة، ومقدار السنة ثلاثمائة وستون يومًا، ومقدار يوم هذه السنة خمسون ألف سنة من الدورة الكبرى النورية التي ربّها الحي ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعَارج: 4] من سني الدورة الوسطى، ومقدار الدورة الوسطى التي ربّها القدير في مرتبة العالم الربوبية ألف سنة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: 5] في عالم البرزخ في مرتبة العليا، ومقدار يوم الدورة الصغرى أربعة وعشرون ساعة من ساعات الزمانية وربّها المريد من حيث إنها مجمع الأدوار ومربع الأكوار يوازي أدوارًا وأكوارًا.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأعيان بعضهم بعضًا في تلك الأدوار إلى أن تنتقل الدورة الأخرى، فحينئذ يتبدّل التفارق إلى الشاكر فتقوم القيامة وتظهر الساعة، فحينئذ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ والكمال الجمعي والجمع النوعي بأن وقعوا في دركات التردُّدات وبركات التعدُّدات ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يُونس: 45] إلى حصول العروج إلى سماء الكمال الجمعي والجمع الكمالي.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ ويشهد لك بعض الأحوال الواقعة في بعض الأدوار وهي الدنيا

التي انقلبت إليها الآخرة بعد الانتقال من دورة إلى دورة أخرى، فإن الشيء الواحد باعتبار أنه مشاهد هو الدنيا، وباعتبار أنه كان خفيًّا هو الآخرة، وهكذا يتوارد عليه الشهود والخفاء باعتبار شهوده هو الدنيا وباعتبار خفائه كان آخرةً ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي يشهد لك في الآخرة الأدوار ونهايتها ليتمّ الشهود الجمعي الجمالي أو الجلالي، ويحصل لك جمعية السعادة العظمى والدولة الكبرى ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ عند قطع مسافات جميع الأدوار والأكوار الإفرادية الجمعية ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46] في الأدوار والأكوار.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي لكل دورة وكورة أمة، ولتلك الأمة رسول وكتاب مرسل منزل تدعو تلك الأمة إلى الله ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الأدوار والأكوار بالوعيد والوعد صدّقوه بعضهم وكذّبوه أخرى ﴿قُضِيَ﴾ وحكم ﴿بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بأهلك بعضهم وأملك الآخرون في هذه الحالة من كلا الفريقين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يُونس: 47] في إجراء العذاب والإجزاء بالثواب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ المكذبون عند سماع الوعيد واستماع أمر التهديد ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يا رسول الله؟ فإن كان حقًّا فليأت بنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يُونس: 48] والباقي ظاهر.

تفسير

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ يريد إذا حلّ بكم العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [يونس: 51] يريد صدّقتم بالعذاب، استفهام يريد لا أفهم قبل إيمانًا عند نزول العذاب عليكم منكم، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [84 - 85] يريد عقابنا ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: 85] يريد هذه سنّتي في مَن يكذّب أوليائي ورسلي وكفر نعمتي، وقال في سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [18] يريد الشرك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ﴾ [النِّساء: 18]، ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ قال الله تبارك وتعالى: «**لا أقبل هذا من مشرك ولا كافر**»، يريد ولا الذين يموتون وهم كفار ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يُونس: 51] يريد العذاب، أي والحال أنكم أنكرتم حلوله ونفيتم نزوله.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يريد أشركوا ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ يريد مخلدين في النار كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودًا غيرها، وقال: كلّما جفت، يريد صاروا فحمًا زدناهم سعيرًا يريد جدّد خلقهم وسعر عليهم العذاب أشد مما كان ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يُونس: 52].

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ يريد الذي جئت به ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يُونس: 53] يريد لا يعجز الله شيء ولا يفوته ولا يهلك على الله هالك.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أشركت ما في الأرض ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ يريد إن قبل ذلك منها ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يريد حلّ بهم الخزي في الذلّ في موضع ليس مستغيث فلا معذرة ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يريد بالعدل لأن الشرك كما قال الله تعالى إثم إذا ما وقع عظيم، وإنما يجازون بشركهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 54] يريد لا ينقصون.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد لا يملكها غيره، ليس فيها يومئذ سلطان إلا سلطان العزّة ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُونس: 55].

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

و﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يُونس: 56] يريد ما وعد الله أولياءه من الثواب والنعيم والسرور، وما أوعد أعداءه من العذاب والخزي.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ﴾ يريد القرآن وما فيه ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يريد ما أنزل الله من الرحمة في القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ من الضلال والعمى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] يريد للمصدِّقين.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ يريد القرآن وما أعدّ لأوليائه لما في الصدور ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] يا معشر المشركين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يُونس: 59] يريد كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ وكذلك جعلوه في مشاق النخل والزرع، فإذا خرج شيء مما جعلوه لشركائهم إلى الذي لشركائهم قالوا ادعوه فإن هذا فقر إلى الله، وإذا خرج شيء مما جعلوه لشركائهم إلى الله جعلوه لله من المال والحبوب والثمار وقالوا ردُّوه إليه فإن الله غني عنه وعن الشركاء. قال تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136] يريد حيث جعلوا لله أصنامًا لا تسمع ولا تبصر شركاء له ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ يريد يقولون على الله ما لم يحرم ولم يحلّ وما زيّن لهم الشيطان من فعل عمرو بن لحي الخزاعي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ يريد لذو رحمة ونعمة ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يُونس: 60] يريد تفضُّلًا، وعفى

عنهم يريد أهل مكة وجعلهم في أمر وحرم كما قال في العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 67] أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون، وكما قال في سورة القصص في قصة موسى وفرعون: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ يريد أرض مكة ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: 57] يريد من أبعد أماكن مصر والشام واليمن والعراق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: 60] يريد لا يوحِّدوني ولا يطيعوني.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يونس: 51] أقول: يحتمل أن يكون جواب الشرط المقدم أن آتيكم وحينئذ ماذا، ليستعجل وقع إعراضًا، يعني أن آتاكم عذابه ووقع اسم به، والإيمان حينئذ لا ينفع دخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير وعلى الحروف شائع ذائع نحو ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السَّجدَة: 18] وثم للعطف، أي أتاكم عذابه ووقع آمنتم به زجرًا وتوبيخًا عليهم في تأخير الإيمان، وأن يكون مقطوعًا أي هيِّنًا لك، ووقوع العذاب آمنتم وثم للإشارة للعطف كما قرئ بفتح الثاء وأن يكون للعطف على جملة مقدرة أي يا أيها المكذبون استحققتم العذاب ووقع العذاب ثم وقّت وقوع آمنتم، الآن آمنتم على تقدير القول ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ﴾ جملة حالية ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 51] والمجرور مقدم عليه متعلق.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ﴾ عطف على قيل المقدر المقدم للذين وأشركوا وكذبوا الرُّسل وكتاب الله واستعجلوا قيل ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الهوان والعذاب الخفي المكنون ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 52] من الإنكار والاستهزاء والمعاصي والكفر.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك ويطلبون منك الاستنباء والإخبار والإعلام ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ما يقول ويخزن من الوعد والوعيد أو ادِّعاء النبوَّة، والاستفهام للاستحقاق والإنكار والعائد إما مبتدأ أو حق مقدم خبر أو هو مبتدأ والضمير خبره، والجملة الاسمية مفعول ليستنبئونك ﴿قُلْ﴾ أي ونعم وبلى للتصديق ﴿وَرَبِّىٓ﴾ بحق ربِّي وخالقي ومربِّي ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لا ريب فيه ولا يليق أن يرتاب فيه اللّبيب الفاضل والأديب الفاصل ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53] بقالعين ومانعين العذاب، بل هو لائق بكم وأحرى وملتصق ولاحق بكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ [يونس: 54] أي ولو كان وثبت لكل نفس ظالمة

مشركة ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الخزائن والأموال وتمام الدفائن من الحرام والحلال ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ وجعله فداء ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لخلاصها ونجاتها من شدّة العذاب وحدّة العقاب وإسراف الندامة والتحسُّر من الإسرار، وهو لإخفاء أو كذا قبل عبادة إسرار العبادة وإخفائها وإخلاصها أو لإظهار من أسرّ الشيء إذا أظهره لما رأوا العذاب، يعني لو كان لكل نفس ظالمة جميع ما في الأرض من الخزائن والأموال والدفائن لافتدت به أي فبالضرورة يجعلها فداءً يوم القيامة لخلاص نفسها عن العذاب ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أي أخفوا أصحاب النفوس ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ أو أظهروها كي يقع الإنفاق في حيز القبول ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي كي لا يشاهدوا العذاب أي أن الفداء والإنفاق وغيره غير نافع يوم القيامة لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصيّر وتضيّع وتدبُّر لأنه تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 54] ليس بتكرار لأن الأول حكم وقضاء بين الأنبياء ومكذبيهم، والثاني لمجازاة المشركين على الشرك والكافرين ومقاصّة المجرمين على المعصية والإفك، أو للحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير عام للكل.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يتصرف فيها إلا بإذنه وحكمه ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وثابت لا يدفع عن أحد لا بفداء ولا باستغفار ودعاء ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 55] هذا السرّ ولا يدركون هذا البر.

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [يونس: 56] في الدنيا ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ [يونس: 65] في الآخرة بالموت الطبيعي الاضطراري والفوت الإرادي الاختياري، كما قال النبي ﷺ: «**موتوا قبل أن تموتوا**». قال الحكيم الإلٰهي أفلاطون: الذي مات بالإرادة يحيى بالطبيعة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ أي كتاب جامع فيه موعظة وتذكرة وحكمية عملية، يهدي إلى النجاة من الدركات ويأوي إلى الفؤاد بدرجات الجنات ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من الحكمة النظرية والدراية الفطرية من إدراك حقائق الأشياء في مرتبة علم اليقين ﴿وَهُدًى﴾ للقلب والفؤاد في درجة عين اليقين ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ كاملة شاملة ونعمة واسعة امتنانية فاصلة أعدت ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] المحتاجين الكاملين في مرتبة عين اليقين المستعدين للفور إلى رتبة حق اليقين ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ

﴿يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: الآيات 5- 8]، ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: الآيتان 88 - 89] إشارة إلى أن شأن المؤمنين كلهم أن يصلوا إلى مرتبة حق اليقين.

فالأول: من ثمرات استكمال الأحكام الشرعيَّة. والثاني: من نتائج بركات علم الطريقة، وهما من خصائص الحكمة العملية. والثالث: من نصائص كمال صفاء القوة الفطرية لدى استخلاص العقل الصريح من استخدام القوة الواهمة الصارفة إياه إلى مدارك الشكوك والظنون الداعية إلى استكمال ذلك السلوك واستجماع معارك الرياضات ومحالك المجاهدات ليفضي إلى الوصول بدرجات المشاهدات وشهودات التجليات والدين الأحمدي والملّة المحمدية، فهو الشريعة والطريقة والحقيقة، كما أشار إليه النبي ﷺ: «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي، وصورة جمعيتها هي الكمال الجمعي والجمع الكمالي**».

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وبإنزال القرآن ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الكاملة وهي جمعية الكليَّة وبجعله إيّانا من أهله، أو المراد بها الإسلام وأركانه الخمسة، وهي كلمة الشهادة وإقامة الصلاة النفسية وإيتاء الزكاة القلبية وصوم رمضان الفؤادية، وهو الإمساك عن مشاهدة الغير أي إمساك السرّ والفؤاد عن ملاحظة الغير وتجلّي الروح وتزيينه بنور الإيمان وفهم معاني القرآن ومعاني إشاراته ومثال رموزياته، والتوفيق بالعمل بمقتضى العلم. والهاء إما متعلّق بفرحوا من مقولة قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 4]، أو بفعل يدل عليه اسم الإشارة الذي هو في حكم الضمير ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل ﴿فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ﴾ أي ذلك الفضل المذكور بوجوه ﴿خَيْرٌ﴾ وأحسن ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] من الخزائن والأموال والدفائن لبقائه، والدنيا وما يجمع فيها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة أو لكفار العالم ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ مسبوغ ومصنوع ﴿فَجَعَلْتُم﴾ برائكم وهواء أنفسكم ﴿مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ كما تقدم في الأنعام من أجزاء البهائم والأنعام ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في ذلك التقسيم ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 59] بأنه أمرنا به وعلّمنا إيّاه.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأن يحاسبهم ولا يعاقبهم

ولا يعذبهم بما افتروا به، أو بأن الله لا يعذبنا إلا أيامًا معدودة كما قالوا وقال: لن تمسّنا النار إلا أيامًا معدودة وغير ذلك مما قالوا من المفتريات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يُونس: 60].

إشارة وتأويل

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يُونس: 51] قد علمت أن المقتضى للاستعجال الطبيعي هو الظلّ الممد الدائر والغلّ المرتد السائر الذي اقتضاه العدم والحلال والظلم الضمني والظلّ لينتقل من الضمن والخفاء إلى الصراحة والجلاء، وأن الانتفاء من الضمن إلى الصراحة إنما يقع إذا تحقق بأطوار مقتضيات النور والجمال والوجود والكون والثابت والظلال، وآمن واقتدى بسلطان الجمال وهو الحقيقة المحمدية السارية في تمام الأعيان النورية الوجودية، أولًا بالذات صريحًا وفي الأعيان الظليّة العدمية ثانيًا وضمنًا، فتجري أحكام سلطنته أولًا بالذات وفي الأصالة في الأعيان النورية صراحة، إذ الفرداريّة والحكم والسلطنة إنما هي للنور والجمال فيكملها أولًا، وبالذات وما في ضمنها من الأكوان الظليّة العدمية الجلالية ثانيًا، وبالعرض ولذا أمر الله جلَّ وعلا أن يسجد إبليس الذي كان في ضمن آدم لآدم فعصى لأمر ربّه وغوى وصار سببًا لعصيان آدم لربه وغوى.

قال النبي ﷺ: «**ما من أحد إلا وله قرينٌ من الجنّ، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإيّاي إلا أنَّ الله أعانني عليه حتَّى أسلم بيديّ فلا يأمرني إلا بالخير**».
فلا بدَّ وأن يجري أحكام أنوار سلطنتها ويسري أسرار جمعيتها في سائر الأعيان الجلالية الضمنية كما سيظهر في آخر الدورة الصغرى النورية الفرعية في زمان ظهور المظهر الموعود وشهود سلطان الخلافة العظمى المعهود، والإمامة الكبرى المحدود.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ﴾ أي الأعيان الظليّة الذين ﴿ظَلَمُواْ﴾ أو أشركوا في الأدوار العظمى والكبرى والوسطى والصغرى النورية الإفرادية ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ وهو عذاب القطيعة من نعيم الجنة الجمعية ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [يُونس: 52] في الأدوار المزبورة.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ويميلون إليك في الدورة الأخرى، وآخر مرتبة الأخرى التي هي دخان ظهور العدالة الحقيقية واستيلاد سلطان الوحدة الذاتيَّة والأحدية الجمعية في النشأة الجمعية لظهور أحكام الخلافة العظمى وسرور الإمامة الكبرى في نهاية الدورة الكاملة لخصائص الأدوار ونصائص الأكوار الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية والإحاطة النوعية الطاوية على أطوار الأدوار الإلٰهيَّة والحاوية على أسرار الأكوار الكونية الواعية بمعيتها، الداعية إلى صور جمعيتها ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي ذلك المظهر الجامع والكون الفاضل الرافع للأعيان النوعية الوجودية النورية والهيئة الجمعية والأكوان الصورية العدمية إلى أحدية الجمعية العظمى، والحقيقة الكليَّة لا على الأدوار الأولى والأخرى والنشأة العليا والدنيا والأدنى.

﴿قُلْ﴾ [يُونس: 53] يا أيتها الحقيقة المحمدية السارية في تمام مظاهر أعيان الأدوار والأكوار التي اجتمعت بجميع خصائص الأعيان ولوازم الأكوان في جمع جامِع ومظهر كامل دافِع لجميع الأعيان والأكوان إلى ما كان عليه من الأحدية الجمعية الإلٰهيَّة والحقيقة المعيَّة بالأصلية والفرعية في صورة الفرعية في نهاية السير إلى الله ومن الله وجمعيتهما في السير في الله، ومعيتهما في السير مع الله الذي يعانق فيه السيران. وخصائص هذه الحالة العظمى والجمعية الكبرى إنما يتكامل في آخر زمان الدولة الدين المحمدي وهو مهدي آخر الزمان ـ أعني:



وهو زماننا هذا، اللهمَّ متِّعنا من شرف خصائص صاحب الزمان هذا، وهو ظهور كمال جمعيته الألوهية من جميع ذوات الوجود، وفيها حتَّى شاع من كل ما كان فيه من الأعيان والمعاني الجزئية والكليّة سرّ «أنا الحق وأنا الله، وأنا الرحمٰن، وأنا القرآن، والسبع، وروح الروح لا روح الأواني». وظهور كمال سلطان هذا المظهر إنما يكون بعد الذكر ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

ويمتدّ إلى: 

ثم تنقرض هذه الفئة الصالحة التي هي روح العالم ونفسه، ثم يفنى العالم وبدنه، كما أن بدن آدم يتلاشى وينفكّ أجزاءً وعنده مفارقة روحه ونفسه، وتظهر الساعة وتقوم القيامة.

قال النبي عليه السلام: «**مَن مات فقد قامَت قيامته، لا تقوم الساعة وفي الدنيا رجل يقول: الله الله**». وقيل: ظهور هذا المظهر يخرج رجل اسمه أحمد وهو مقدمه ومقدمة جيشه كما أشار إليه الشيخ أبو الحسن الواجريقي المغربي بعد أن أشار إلى وفاة سلطان يعقوب سلطان بن حسن البايدري.

يا أحمدُ قُمْ وبادر أنتَ فاتِحُ ... أبوابِ الخير ثمَّ على أفصَحِ اللّسِنِ

يحتوِ على الأمة والغزاة تبصرةً ... بكلّ لطفٍ كمِثل الوارد الحَسَنِ

ومصر وشام وأرض العراق له ... وأذربيجان من ملك إلى اليَمَنِ

فلا يغرنّكم حسن المعيشة ... ينزل بين الصادّين وعرضه

على خواقيبكم صعب البلية ... وذلك بين النهرين المعظمين

وبين الجبلين وبين الأيكة ... فلا تفرح يا فتى بموت الآخرين

فلا تكن في يومِنا وأنتَ كالخائن ... ما لكَ خير في هذه الفتنة

أما الذي قبل عصري فلست أذكرها ... بل أذكر الآن ما يأتي من الزمن

في فضل مصر وما بالشام يخدمه ... ربّ السماء ومن خير ومن فتن

طوفانه عمَّ في الأرضين أجمعها ... وكم ترى في الثرى سار بلا لعن

من الأمارات حوتان نعم على ... نصف الخلائق في الصحرا وفي المدن

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي يستخبرونك من المظهر الموعود بأنه أحق وأحرى بهذا الزمان وأليق به يعني بتاريخ (900) وهو يطابق بمهدي آخر الزمان:

الاخ زمان والمهدي ٩٠٠

﴿قُلْ﴾ في جوابهم ونعم بحق ربِّي وخالقي ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يُونس: 53] ومانعين لأمر خروجه وظهوره، ولا بخروج وظهور مقدمة جيشه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وأشركت في الأدوار والأكوار الإفرادية ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستعدادية من خصائص الخزائن الإفرادية ونصائص الدفائن الواحديَّة

﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ وصرفته في نشأة شؤوناته ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ وأظهروها ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي الإشارة، الانتقال من الأدوار الإفرادية والأكوار الآحادية لما أفاد وما منع مما أدار وأعاد في الكمال الجمعي، وختم الكمال النوعي ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ بإظهار عدالة السلطنة الجمعية وإشهار الكمالات النوعية في كل الأعيان وتمام الأكوان ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [يونس: 54] والعدل الحقيقي الذي يظهر في زمان المهدي الموعود وأوان المظهر الموعود المعهود.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والأدوار النورية الجمالية الوجودية، أو الأدوار العظمى والكبرى، والجمعية وجمعية الجمعية ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هي ما يقابلها ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ لإظهار الكمال الجمعي وإشهار النوع الكمالي في كل عين، وتمام الأكوان عند شيوع فرداريّة سلطنة الدورة والخلافة العظمى النورية، وكورة الإمامة الكبرى الجمعية في نهاية الأدوار، وغاية الأكوار الجمعية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: 55] أن كمال جمعية غيوبهم وعمية كليّة شهادتهم بمعيّة غيوبهم: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري**»، وذلك لأن الأعيان المقاربة لكون الجامع والجامع الكوني الرابع تابعة له في الجامعية، وإن لم يكن لهم شعور بحالهم وبجمعية مآلهم ومعية مقالهم كالقوى النفسانيَّة والبدنية الروحانية البالغة للجمعية القلبية، فإنهم في أنفسهم لكونهم تابعين للقلب، تابعين للغيب، جامعين بهم، لا إدراك لهم بجامعيتهم به، وهو في خصوصية المظهر الموعود وكمال معية بهم الموعود.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ﴾ بالحياة الطيبة المعيَّة والكلية إلى جذبة الجمعية ﴿وَيُمِيتُ﴾ ويزيل ويفوت عن خصوصية الاقتضاءات النورية والارتضاءات الظليّة الإفرادية ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس: 56] من كل فجٍّ عميق، من أعيان الأدوار وأكوان الأكوار.

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ أي جمعية كلية وحقيقة جمعية إلٰهية ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي جمعية إفرادية ﴿وَهُدٗى﴾ وجمعية ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي جمعية كلية جمالية وجلالية وجمالية ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 57] أي الأعيان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومالوا من الإفرادية إلى الكمالات النوعية والحالات الغيبية، وجمعية الجمعية.

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ بفضل لما أجمله، فالأول عبارة عن الجمعية

الإفرادية. والثاني عن الجمعية الجمعية. والثالث عن الجمعية الكليَّة ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل الذي فيه إشارة إلى عدّة مدة ظهور أنوار شمس الرحمة اللامتناهية العامَّة كما أنا أشير إليه إن شاء الله تعالى ﴿فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يُونس: 58] لله الآمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر الله مَن يشاء من عباده من أتباع المظهر الموعود، والمظفر المعهود.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ في الأدوار الجمعية الإفرادية ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ جمالًا وجلالًا لأقل في الأدوار الجمعية الكليَّة الجمالية الجلالية ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يُونس: 59].

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ [يُونس: 60] إشارة إلى زمان ظهور صاحب الزمان المحدود والمظهر الموعود وأثناء استيلاء الحكم الموعود المعهود:

فضل ٩١٠

أما بداية ظهور آثار أنوار شمس سلطنته فهو يوم الخروج وقد أشار إليه آدم الأولياء علي المرتضى كرَّم الله وجهه بقوله: «الصيحة بالحق يوم الخروج تكتم عنه خلق السماوات والأرض».

يوم الخروج ٨٩٦

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105] إيماء إلى عامة:

الذكر ٩٤٤٩

وقد خاطب النبي عليه السلام هاهنا في أربع مواضع متوالية إشارة إلى عدة أدواره الصريحة وأكواره الضمنية وأطوار جمعيته الكليَّة والإفرادية، والمجموع (12) ومجال تفاصيل أحكام هذه الأدوار المربعة (908) تلك عشرة كاملة (68) نورية وظليّة وجمالية وجلالية وهي تدبيرات الأسماء الإلٰهيَّة السبعية الذاتيَّة في الأدوار الأربعة والأكوار المربعة وصورة جمعيتهما، وقد وقع في الكتاب الكريم بسورة (حم) في سبعة مواضِع (ح م 68) أما الثلاثة الأولى فبالأمر، والرابع بالخبر.

تفسير

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾ يريد من أعمال البر ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ يريد المؤمنين معه ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يريد عونًا منه ليرشدهم ويسدِّدهم ويوفِّقهم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يريد ما يغيب من عمل ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ يريد من مثاقيل الذرات، فأخبر بدقة عمله وعظمته ﴿وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61] يريد اللّوح المحفوظ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] يريد في المواقف العظام وفي الأهوال الجسام، وحين يقسم النور عند الجواز على الصراط، وعند التناظر إلى ما يحاسبون، وحين تطاير الكتب لا خوف على أولياء الله ولا هم يحزنون.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63] يريد الذين صدّقوا نبيي وخافوا مقامهم بين يديّ.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يريد عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وتأتي أعداء الله بالغلظة والفظاظة ﴿وَفِي الْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: 64] يريد عند خروج نفس المؤمن يفرحون بها إلى الله شرف بها كما شرف الأولياء ومن يبشّر برضوان الله كما قال في سورة النحل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا

ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 28]، وقال الله في سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة: الآيتان 88 - 89]، ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونس: 64] يريد لا خلف لمواعيد الله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبَة: 72].

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يُونس: 65] يريد السبق والنجاة إلى رحمة الله.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يريد لا يملك في السماوات والأرض ولا يجازي يومئذ إلا الله ولا يحكم غيره ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ يريد لا إلٰه غيره وحده لا شريك له، فالخلق عباده، وإنما هو الخالق ولا خالق غيره فالباقي مخلوقين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يريد الشكّ ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: 66] يريد يقولون ما لا يكون وما لم يكن.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يُونس: 67] يريد يسمعون فيه فيتبعون، إني جعلت الليل راحة لكم لتسكنوا فيه مع أزواجكم وأولادكم، والنهار مبصرًا تطلبون منه رزق ربكم، ولتعلموا مع هذا عدد السنين والحساب كما قال تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الآية: 21] يريد النساء ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ يريد ليأووا إليها ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ﴾ يريد الجماع ﴿وَرَحۡمَةًۚ﴾ يريد الولدان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: 21] في عظمة الله، إنه لا يقدر على هذا أحد غيره جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه ولا إلٰه غيره.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ يا محمد ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: 68] يريد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، قالت الملائكة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعظيمًا لله وتنزيهًا عمَّا قالوا ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أن يكون له زوجة وولد أو ضِدّ أو ند أو شريكًا لا إلٰه غيره ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يريد له ملك السماوات والأرض وكل ما فيها له فاتّقون مطيعون مقرُّون بالربوبية والوحدانية ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ يريد من حجة بهذا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 68].

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يريد يقولون الباطل على الله ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يُونس: 69] يريد لا يستبعدون في الدنيا.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يريد متاع الدنيا قليل ومقامهم فيها يسير ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يريد مصيرهم لا يستبعدون في الدنيا ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ يريد الغليظ الذي لا ينقطع ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70] يريد بنعم الله، ويجحدون بربوبيته وجبروته وملكه وبهائه وسلطانه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ أقول: (ما) نافية، والخطاب للرسول، والشأن أصله بالهمزة بمعنى القصد من شأنت شأنه إذا قصدت قصده. والضمير في (منه) للشأن أو لله أو للرّسول لأن تلاوة القرآن العظيم معظم شأن رسول الله. والإضمار قبل الذكر لتفخيمه أو للتنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن لأن كل جزء منه قرآن، فيكون مفعول ﴿تَتْلُوا﴾ أي ما ﴿تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ أي من بعض قرآن، وما مزيدة لتأكيد معنى النفي ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أي ما تعملون أنتم جميعًا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمل كان إلا ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ جمع

شاهد، العدول جمع عادل، تعميم الخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ومقدمهم ورأسهم إشعار بأن خطابه يتضمن خطاب المؤمنين جميعًا.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ ويخوضون من أفاض في الأمر إذا اندفع وشرع، فيدخل فيه. وقيل: يكثرون من فاض الماء إذا كثر، أي حتَّى سال من جوانبه، والكثرة تستلزم الاندفاع ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ويبعد ويغيب ﴿عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي مقدار ذرّة ومثلها في النقل وهي كناية عن غاية الصغر أو هي أقل من النملة الصغيرة الحمراء ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[يُونس: 61] أي في الوجود والإمكان يعني في الزمان والمكان، فإن العامَّة لا يفهمون مكانًا وحيزًا ومسكنًا غيرهما ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ قرئ بالنصب والرفع، أما النصب فللعطف على نفي الجنس والرفع على الابتداء ليكون مستأنفًا، وفي العطف على محل من مثقال أو على لفظ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فتحًا على موضع الجر لامتناع الصرف وإشكال لأن قولك: لا يعزب عنه شيء ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يُونس: 61] أي اللوح المحفوظ مشكَّل ومنقّط.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ أي الذين يتولونه ويتصرفون من غيره بالطاعة وهو مولاهم ويحفظهم بالكرامة وخصّصهم بالشرف وحسن الصيانة ووفور السلامة وكمال الهداية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يُونس: 62] من لحوق مكروه وبفوات مأمول وممات مرجو. وموصول الجملة فسرها قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يُونس: 63] ويحفظون قلوبهم من حصور العين وسرّهم وغيوبهم من خطور الكون والدور والدير. قيل: هذه الآية بيان لتوليتهم. وقيل: هم المتحابون في الله. روي أن من يرد الحوض يوم القيامة هم المتحابون في الله. قال النبي ﷺ: «**إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيُّون والشهداء لقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة**». وكان في القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه وقال: حدِّثنا يا رسول الله عنهم، قال: «**هم قوم من عباد الله من بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتنازلونها، يتخافون روح الله، ويجعل الله وجوههم نورًا، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمان، يفزع الناس ولا يفزعون، ولا يخافون ولا يتخافون**». وأيضًا قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأُذكر بذكرهم لهم البشرى في الحياة الدنيا**» وهي الرؤيا الصالحة. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لم يبق من**

النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة». قيل: البشرى في الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة. قيل: هي التي يحمدُ الناس عليها، أو هي نزول الملائكة من الله بالبشارة عند الموت. قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30].

عن ابن عباس رضي الله عنه: البشرى في الدنيا. يريد عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن يعرج إلى الله ويبشَّر برضوان الله. قال الحسن: هي ما بشّر الله المؤمنين في كتابه من نعمته وكريم ثوابه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: 2]. وقيل: بشّرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، وبشّرهم في القبور في كتب أعمالهم ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولا تغيّر لقوله، ولا خلف لوعده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يُونس: 64].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ قول المشركين وتكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في إهلاك وإبطال أمرك وتزهيق دينك وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ والغلبة والقدرة والقهر والعظمة استئناف وتعليل أي لا تعبأ بهم ولا تلتفت إليهم وإلى ما قالوا ودبروا في حقك لأن الغلبة والقهر في ملكه جميعًا لا يملك أحدهم شيئًا لا هم ولا غيرهم فهو يغلبك عليهم وينصرك على من قصدك ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: 21] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: 51]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بمقالاتهم ومشاوراتهم في حقك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [يونس: 65] بتدبيراتهم لقصدك وتزهيق أمر دينك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وغيرهم من العقلاء، وإن أمكن من الأرواح المقدّسة والنفوس المدبرة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الثقلين وغيرهم من المتمكنين فيما بين الخافقين وما اشتمل عليه من الملوين ولما كان أشرف المخلوقات عبيد الله تعالى. فما ظنّك بأحسنهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استفهام أي أيِّ شيء يتبعون شركاء نصب يدعون ومفعول يتّبعون محذوف يدل عليه شركاء أي وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء يعني وأي شيء يدعوهم من الملائكة والنبيين مع أنهم يبتغون الله ويطلبونه، فما لكم لا تؤمنون تفعلون ما يفعل إلهكم، ويجوز أن تكون موصولة معطوفة على من كان قبله، والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي ما يتبع الذين يدعون شركاء

على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء تقديرًا، فإذن ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي وما يتبعونه يقينًا بل ظنًّا ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يُونس: 66] ويحزرون ويقدرون أن يكون شركاء تقديرًا باطلًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ وصيّره لكم ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يبصرون فيها مطالب أرزاقهم ومكاسب أوراقهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المجعول والأمر المفعول ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يُونس: 67] آيات الله وبيّنات كتاب الله ومقالات خطابه.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ بناتًا، وقالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عن الولد وأخذ البنات والبنين ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم﴾ أي ما عندكم من سلطان وحجة بهذا القول المفترى ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولا تدركون ما تقولون لأن كل شيء ينسب إلى شيء آخر بلا دليل وسلطان وحجة وبرهان وقائد سبيل بهذا المفترى ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يُونس: 68] ولا تدركون ما تقولون، هو جهالة صرف وبطالة محض وضلالة طلق دحض لا اعتبار ولا اعتداد عليه ولا اعتماد لديه، ولا إقبال لأحد من العقلاء لأهل الله إليه. وإن العقائد لا بدّ أن يكون لها من سند قاطع ورد مقتضى ساطع يوجبه ويقتضيه.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يُونس: 69] في الآخرة، ولا ينتفعون فيها بشيء في الآخرة، وإنما المنفعة إنما هي ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وهو فانٍ في الأولى والآخرة ويستتبع الشقاوة السرمدية والخسارة الأبدية ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ونريق عليهم العقاب بالأحقاب المحمدية والأياد العتيدة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم واستصحاب سرّهم وضرّهم.

إشارة وتأويل

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ إلخ، أي في الأدوار الثلاثة الجمالية والجلالية والمركب منهما، والمرتب بجمعيتهما، ولذا جاء جمع ما دلّ على جمعيتهما فاعلًا وقابلًا وقائلًا بهما ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ﴾ في جميع الأدوار الصريحة والأكوار الضمنية البسيطة والمركب منهما ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية في تمام النشآت وكمال الشؤونات وتبليغ الأعيان والأكوان بما فيهما

من الكمالات والأحوال والعلوم والمعارف والإدراكات وصور العبادات وقدر الطاعات وغرر الخيرات والحسنات والكمالات مع استكمالها بالخلافة العظمى والإمامة الكبرى في الزمان الموعود وصاحب الهداية المعهود.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ في هذه الأدوار المذكورة والأنوار المزبورة ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: 61] أي القابليات التي أفادها الذات يقتضيه الأقدس الجلالي إذا كانت الفرداريّة للجلال أو الجمال إذا كانت الفرداريّة للجلال ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أحادية المرتبة الفاعلية من التدبيرات الإلٰهيَّة والربانيَّة والتقديرات الكونية والتأثيرات الكليّة والجزئية ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ في الاقتضاء الضمني الجمالي أو الجلالي ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ في الاقتضاء التصريحي في الأدوار النورية الجمالية أو الظليّة الجلالية الإفرادية، أو الجمعية ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يُونس: 61] أي في اللوح المحفوظ النوري الوجودي أو الظليّ العدمي الإفرادي أو الجمعي، فإن في كل دورة قلمًا ولوحًا محفوظًا وعرشًا وكرسيًّا وأفلاكًا وكوكبًا ونجومًا وأملاكًا ودنيا وآخرة وغير ذلك مما يترتب على الدورة من الأعيان المرتبة عليها. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي الأعيان الكاملة الدائرة في الدورات العظمى والكبرى والوسطى والصغرى صريحة أو ضمنية، وكذا في الأكوار الظليّة إفرادية أو جمعية صريحة أو ضمنية، وهم سرّ الله الدائر وعليهم سرّ الله المقبل والدائر كما قال الله تعالى: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم سوائي**».

ولهم حالات وأحوال ومقامات متغايرة وتصرفات وتعريفات ونشآت وشؤونات وظهورات وبروزات وبرزات وغير ذلك متفاوتة لقلّة وكثرة ودوامًا وفترة وصفاء وكدرة ونورًا وظلامًا وظلمةً، فمنهم من في دار الأدوار والأكوار الأصلية والفرعية النورية الوجودية الإفرادية، والجمعية صريحًا وضمنًا كما أشار إليه عليه السلام: «**يا علي كنت مع الأنبياء سرًّا، وضربت معي جهرًا**»(1).

ولا تستكمل في تمام الأدوار والأكوار في كل المراتب بحيث لا تبقى حالة منتظرة، بل تحقق لجميع الأسماء والصفات، فحينئذ ينصرف في الكون كما يشاء أو حيث يشاء، وإليه أشار آدم الأولياء بقوله: «أنا الذي عندي مفاتيح الغيب لا

(1) أي من حيث كونه وليًّا وارثًا محمديًّا منطوٍ في الحقيقة المحمدية.

يعلمها بعد محمد غيري، أنا الحجر الذي تفجّر منه اثنا عشر عينًا، أنا البعوضة التي ضرب الله بها مثلًا، سلوني ما فوق العرش، سلوني ما تحت العرش، سلوني ما شئتم»[1]، وغير ذلك مما ورد في خطبة البيان فليطلب منه.

والمراد هاهنا هو الأول بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يُونس: 63] في المرتبة الجامعية على التقيد بخصوص كل من الأدوار والأكوار ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الأدوار النورية الوجودية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يُونس: 62] في الأكوار الظلّية العدمية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي الجمعية العظمى النورية والظلّية ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في مقتضى الأدوار الجمالية الوجودية في الآخرة في مرتضى الأكوار الظلّية الجلالية العدمية ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: 64] وأسمائه وصفاته الذاتيَّة الأفعالية في الرتبة الجمعية، أو بديل اقتضاء أسماء الله وصفاته، إنما يتصور في الأدوار الإفرادية والأكوار الإفرادية بأن ينتقل من فرداريّة اسم إلى فرداريّة اسم آخر جمالًا وجلالًا نورًا أو ظلًّا، فإن انتقل من الجلال إلى الجمال، ومن العدم إلى الوجود يطلق عليها اسم الموجود والظاهر والشاهد والمشهود، وإن كان بالعكس يطلق عليه المعدوم والباطن والظلّ والمكتوم والموت والعدم والفوت. ومَن استكمل في الأدوار والأكوار وتحقّق بتمام الأطوار ويقتضي الإهلال ومرتضى الأنوار، ودخل في مدينة المرتبة الجامعية العظمى، فقد أمن من الموت ومن الحزن والخوف، وهو الفوت ومن دخله كان آمنًا.

قال النبي عليه السلام: «**المؤمنون لا يموتون بل ينتقلون من دار إلى دار**» ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآيتان 169- 170] الآية... إلخ. وقال علي ـ كرَّم الله وجهه ـ: «أنا الذي إن أمت فلم أمت، وإن قتلت فلم أُقتل، أنا حي لا أموت».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجمع الكمالي والكمال الجمعي الذي يتساوى نسبة جميع الأسماء

---

(1) أي من حيث كونه وليًا وارثًا محمديًا يتكلم بلسان الجمع والحقيقة المحمدية المخلوق منها كل شيء.

والصفات، ويتضاهى إضافة تمام الموجودات والمعدومات إليه ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يُونس: 64] والحوز العميم، والفوز الجسيم ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولا يؤثر في كمال جمعيتك ووصل معيتك قولهم وجودهم الغيبية وعنوانهم وزيادتهم الحسنى لا زيادة ولا نقصانًا، أما الزيادة فلأن حقيقتك هي الذات الأحدية مع اللاتعين الأحدي الجلالي العدمي واليقين الوجودي النوري الجمالي هو الكل «**كان الله ولم يكن شيء معه وهو الآن على ما عليه كان**»، فلو زاد على حقيقتك شيء لزاد على نفسه وهو محال، وإن نقص شيء لا ينقص من نفسه وانعدم الكل لارتباط الكلّ بالكلّ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يُونس: 65] أي القهرمان والعظمة والغلبة إنما هي الذات الجامعة لتمام الأسماء والصفات الوجودية والعدمية السلبية والثبوتية، وهي الحقيقة المحمدية الحاوية للجميع.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الأدوار النورية الوجودية الجمالية ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: 66] أي العدمي الظلي الجلالي، وإنما قدَّم الأرض هنالك وأخّرها هنا إشارة إلى أن الأرض الاستعدادية التي هي ظل الجلال الذي هو غيب النور والجمال وباطنه وسرّ الجلال التجلّي الذات وحبيبه لكونها أنسب وأقرب من مقدم على السماوات السبع التي هي مظاهر الأسماء السبعة الذاتيَّة التي وقعت في المرتبة الثابتة من الذات التي هي مواطن التجليَّات الأسمائيَّة المقتضية للأعيان الثابتة والماهيات الكونية والحقائق الإلٰهيَّة والحروف العاليات والكمالات الإلٰهيَّة. وأما الأرض المذكورة فهي برزخ بين الذات البحت ومطلق الوجود، ومن الأسماء والصفات الذاتيَّة، ولذا أضاف الحق تلك الأرض إلى نفسها حيث قال: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**». وساكنوا هذه الأرض هي الشؤونات الذاتيَّة والوجودات الذاتيَّة التي أضيفت إلى الذات في قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص: 88]. وسماوات هذه المرتبة البرزخية هي عيوب هذه الأسماء ومواطنها، وأعيان هذه المرتبة الدائرة المقبلة، الدائرة هي الوجوه المزبورة التي لا يعلم كمياتها وقدرها وعظمتها وجلالة شأنها إلا الله والراسخون في العلم، المتحقّقون بالله، الباقون بالله، الساقون لأهل الله، الدّاقون رقبة عدو الله، الذي هو بين جنبي الكمال والجلال.

وكذا لا يعلم مدة دورة حركات سماوات المرتبة المذكورة إلا الفانون فيَّ الباقون ببقاء الله العارفون بالله في ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153] ففي هذا الوجه الذاتي بفائق الفوز والظلال والجمال والجلال والوجود والعدم، والجذوب والعدم شيئان له له شيء واحد لا شيئان، آيتان متغايرتان ومقدار اليوم الواحد من سنتي هذه الدورة ثلاثمائة وستون ألف دورة من أدوار المرتبة الأدنى، وهي أربعة: نورية وجودية صريحة، وأربعة: ظليّة ضمنية، وهي الدورة النورية والكبرى والوسطى والأدنى، وقد مرّ الكلام في تفصيل هذا المقام، والثاني ظاهر واضح.

واعلم أن أهم المهمات في أوقات السالك أن يصرف في هذا الطور من المشاهدات والمشهودات والمعارف والعلوم والاصطلاحات.

تفسير

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ يريد على قومك خبر نوح ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى﴾ يريد يقبل عليكم مقامي وخبري فيكم ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ يريد مواعظي إياكم ﴿ٱللَّهِ فَعَلَى﴾ يريد بعظمة الله وتخويفي إياكم عقوبته ونقمته ﴿ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ يريد الذين يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71] قالوا في الجمع والقوة فإنكم لا تقدرون على مساءتي ومضرَّتي لأن إلٰهًا يمنعني مثل قوله تعالى في (اقتربت الساعة): ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: الآيات 10- 14] الخشب والمسامير. ومثل قوله تعالى في (هود): ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ يريد عليكم ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أنتم على ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يريد بالله، ويتخذون ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: 54 ـ 55].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يريد عن الإسلام وعن عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ من مال تعطونه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد الذين كفروا بآياتنا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: 73] يريد المكذِّبين، كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصَّافات: 77] يريد أن الناس كلّهم من ذريته ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الصَّافات: 78] يريد الثناء الحسن.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ يريد هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد بان لهم أنهم رسل ربّ العالمين، أمروهم بطاعة الله وتوحيده، ونهوهم عن معاصي الله والشرك به ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ وقد علموا أن الله أغرق قوم نوح أجمعين بتكذيبهم نوحًا وشركهم بالله ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: 74] يريد أن الله طبع على قلوبهم فأعماها وأصمها فلا يبصرون سبيل الهدى، ولا يسمعون ما ينجيهم من عذاب الله ويقرِّبهم إلى طاعة الله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: 75] يريد

استكبروا عن عبادة الله وادّعوا الربوبية من دون الله.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ يريد الآيات لما جاء بها موسى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [يُونس: 76].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ يريد أن السحر لا يبلغ شيئًا مما جئت به ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يُونس: 77] يريد لا يعتد لأن هذا من الله الذي لا إله غيره.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ يريد لتردّنا ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ يريد الملك والعزّ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونس: 78] يريد بمصدِّقين.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ [يُونس: 79] يريد بالسّحر.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ [يُونس: 80] يريد أنهم كانوا سبعين ألف رجل مع كل رجل جايزي وحبل من حبال السفن الكبار، فألقوها فإذا يخيّل إلى مَن رآها أنها حيّات وثعابين.

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يُونس: 81] يريد السّحر الذي جاء به فرعون وما ادّعاه من الربوبية.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 82] يريد حيث ألقى موسى عصاه تلقف كل مكذّب وكلّ سحر جاء به فرعون وأحقّ الله الحق، مثل قوله تعالى في طٰه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طٰه: 69] يريد حيث كان ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71].

أقول: يا محمد احكي وأخبر أهل مكة واقرأ عليهم خبر نوح وحكايته وقصة قومه إذ قال نوح لقومه: ﴿إِن كَانَ﴾ كبر وعظم ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ ومكثي وقيامي فيكم، إنما قال حيث بالغ في دعوتهم وتكليفهم على الإيمان ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ وعظمي ودعوتي وقصدكم وتعرضكم إيّاي ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ واستحكموا آرائكم وعزائمكم وتثبّتوا عليه واطلبوا شركاءكم وأصنامكم وأوثانكم وإلٰهكم واستغيثوا بهم عليّ ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ﴾ كي لا يكن أمْرُكُم وما قصدتموا به إيّاي ﴿غُمَّةً﴾ وغمًّا وهمًّا وتأسفًا وندامة ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟﴾ واصنعوا واعملوا وتوجهوا ﴿إِلَىَّ﴾ بالسواء وأفضوا بما في نفوسكم من القتل والإخراج وإيصال المكروه حتّى يفزعوا منه ولم يبق في نفوسكم من الغمّة والهمّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71] أمرًا آخرًا، ولا تنظروا إلى أحد وتمهّلوا إلى ساعة.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن دعوتي وأمري وعظتي ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة وإبلاغ أمر الدعوة عرضًا وعوضًا وغرضًا ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ ونفع ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72] المطيعين لأمر الله، المنقادين لحكمه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وخالفوا أمره وامتنعوا مما أمرهم ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من المؤمنين الصالحين من أهله وغيرهم وأهلكنا المخالفين المكذّبين ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ المصرّين وصيّرناهم ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، وهو من يقوم مقام المخلف عنه، ومكّنا لهم مكانتهم ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ﴾ فيه تقديم وتأخير إشعار بأن إغراقهم وإهلاكهم وإخلاف المؤمنين أمر محقق، وأن سبب الإغراق والإهلاك هو تكذيبهم ومخالفتهم لأمر الله ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: 73] المكذّبين الذين صار تكذيبهم علّة لإنذارهم من العذاب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ وأرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وعهده ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من أولاده وذرياته وأجناده، كلٌّ من الرسل يدعو قومهم إلى الله ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والآيات الواضحات والآيات التي هي المعجزات ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي ما استقام لهم أي شيء حصل لهم وبعثهم على الإيمان وحثّهم على الاطمئنان واتقان الإيقان أن يؤمنوا لشدّة شكيمتهم وحدّة تمكُّنهم في الكفر وخذلان الله بهم ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ بعثة الرسل أي بسبب نفوذهم وجهة تمرُّنهم على التكذيب وتمكنه وثباته في طبائعهم نسلًا بعد نسل وبطنًا بعد بطن ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ ونختم على ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يُونس: 74] المتجاوزين الحدّ لخذلانهم وانهماكهم في الضلال واتباع المألوف، وانقطاعهم من الشرع والمعروف وذلك إلى زمان الخليل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي الرسل ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ووضوح دلالات آياتنا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتّباعهم واستنكروا اتّباعهم واستكرهوا اشتباعهم ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يُونس: 75] معتادين بالجرم على المعاصي وارتكاب الجرم، منقادين للإجرام وفساد الحكم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ من الآيات الباهرة والبيّنات الظاهرة الملجئة إلى قبول الحق ونزول الأمر المحقّق ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يُونس: 76].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لفرعون وأتباعه ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ أي الأمر الثابت من الحق ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ والحال والشأن أنه ﴿لا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يُونس: 77].

﴿قَالُوٓا۟﴾ يا موسى ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأوثان وإطاعة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ السلطنة والاستعلاء في الملك والمملوك وإجراء الأحكام على المخلوقات والخلائق المتمكن والملاك ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: 78] مذعنين مطيعين لأمركم ومصدِّقين لقولكم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه ﴿ٱئْتُونِى﴾ جيئوني، في أمر لقومه، أن ابحثوا ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يُونس: 79] ليسحروا بموسى وبمن معه ويعارضون بهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟﴾ واطرحوا ﴿مَآ أَنتُم﴾ أي أيّ شيء قدرتم به في دفعي ﴿مُّلْقُونَ﴾ [يُونس: 80].

تأويل وإشارة

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: 71] يا محمد، على أهل الدورة الصغرى النورية الفرعية بناء نوح النَّفسُ المطمئنة، وحكايته وخبره الذي جرى بينه وبين قومه في الدرّة الكبرى النورية الفرعية، أو في الأصلية، يعني واظهر يا حقيقة الحضرة الختمية والماهية المحمدية في طور النفس المطمئنة لأصحاب الدورة الصغرى النورية والفرعية بما تعيّنت وظهرت لخصوصية تعيُّن نوح في الدورة الكبرى الأصلية والدورة الصغرى الأصلية لأعيانها وأكوانها النورية الجمالية إشارة إلى تنوُّع تعيُّناته وتطور نشأته في الأدوار النورية والأطوار الوجودية، وبمظاهر الأنبياء ومبارزة الأولياء والعلماء الرياضيين الربّانيين والحكماء الإلٰهيين، فإن نقاط وجودات الأنبياء والأولياء تفاصيل الظهورات والمظاهر الحقيقية المحمدية في الأدوار النورية الوجودية صريحًا وفي الأكوان الظليّة العدمية ضمنًا، إذا كانت فرداريّة سلطنة الحكم الإلٰهي صريحًا في الدورة النورية الوجودية، وكانت سلطنة الظل والعدم تابعة لسلطان النور والجمال. وأن الدورة الأخيرة من الأدوار مجمع لتمام الأحوال التي جرت في الأدوار الماضية والأكوار الناصية كما قال عليه السلام: «**نحن الآخرون السابقون**».

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ وأعيان دورته التي اختصت أحكامها وإظهار أعلامها باسم من الأسماء الذاتيَّة، وهو ربّه ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾ وامتدّ وكثر مقامي وقيامي فيكم وتذكيري ونصحي فإن أبيتم وامتنعتم من قبوله بناء على انتفاء شرطه واختفاء استعداده ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه رجعت في رجوعي إلى الكمال الجمعي والجمع الكمالي إلى الجمع النوعي ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: 71] إشارة إلى أن الاجتماع المذكور أعني الجمع الكمالي والكمال النوعي مشروط باجتماع القوى الجسمانية والنفسانيَّة والمعاني القلبية الجنانية.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ إشارة إلى السقطة التي تقع في أثناء السير والسلوك ورجع القهقرى، وذلك لتقوى نفوسهم، ألا ترى أن الذابَّ والطفّار في طفرته ربما يتدبّر أو يستدبر ثم يذبّ ويطفر لأن يطفر طفرة، وكذا الحال في الماء الجاري إذا وصل في جريها إلى عقبة وهو مرتفع يرجع إلى خلفه، ثم يرتفع ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ

﴿أَجْرٍ﴾ على أعاديكم من الرجوع القهقرى إلى سمت الاستقامة وصوت السمت الأولى ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وإن قوتي وقدرتي إنما تكون من الله ﴿وَأُمِرْتُ﴾ في الفطرة الأولى والنشأة العُليا في الجمعية العظمى والمعيَّة الكبرى ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 72] في الأدوار كلها.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في الدورة الأخرى من الأدوار، إشارة إلى أن أمر الوجود دوري، وطور الظهور كوري إن للأعيان في كل دورة نوع من الظهور وطور من التعيين والحصور إذ التجليَّات الإلٰهيَّة لا تتكرّر بحسب الشخص وإن تكرَّرت بحسب النوع ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ في الدورة الأخيرة بأن أوصلناه فيها إلى كماله اللائق الجمعي وجمعية النوعي ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من الأعيان الحسيَّة والمبادئ النفسية ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ النفسي والملك الحسيّ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي صيَّرنا تلك الأعيان الكاملين في الإيمان الواصلين إلى بحر الكمال الجمعي ومحيط الجمع الكمالي ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهو باقٍ ببقاء المستخلف بوجوده شاهد ومشهود بشهوده ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وشهود تجليّاتنا الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية والصورة النوعية يتفرّع على أربعة، والهيئة الجمعية لأنهم ما وصلوا إلى مقام الكمال الجمعي والجمع الكمالي، وما بلغوا مبلغ الرجال الكاملين المكملين، فهم لكونهم متردِّدين في تلك النشأة وعقبات الشؤونات خائفون عن الإغراق والإهلاك والفوت، عائفون الهلاك والموت، فلا يكونون عين البحر، فانتفت المناسبة بينهم وبين البحر فخافوا من البحر والإغراق والاستغراق فيه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يُونس: 73] الخارجين عن البحر العارفين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ في الدورة الوسطى ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ [يُونس: 74] هم هود العقل، وصالح الروح، وخليل القلب، ولوط النفس. فإنك علمت أن كل دورة من الأدوار الأربعة النورية يتفرّع على أربعة أدوار أخرى النورية أصليَّة إفرادية، وكذا الأدوار الظليّة الأربعة الإفرادية، يتفرّع على أكوار أربعة ظليّة أصلية إفرادية. وكذا الأدوار الأربعة الجمعية بين الأكوار والأدوار يتفرّع على أدوار أربعة جمعية أصلية، فالمجموع (رع)، وإليه الإشارة بقوله: (حم) في سبع مواضع إيماء إلى هذه الأدوار المذكورة والأكوار المزبورة مستندة إلى الأسماء السبعة الذاتيَّة، أربعة منها بسيطة وهي: العليم والحي والقدير والمريد، وثلاثة منها مركبة وهي: السميع والبصير

والمتكلّم، ولوّح إليه بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ [الشّورى: الآيتان 1 - 2].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لمن بعث بعده من بني إسرائيل وهم ثلاثة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ على مقتضى فرداريّة الظلّ والجلال الضمني الذي يقتضي خفاء اقتضاء الأطوار السبعة النورية وظهور الأحكام الظليّة الجلالية وكذا قال استكبروا ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يُونس: 75] وكان كل من هذه الأطوار السبعة منسوبة إلى اسم من الأسماء السبعة الذاتيَّة التي هي مظاهرها في الأكوان هم الأنبياء السبعة المذكورة، والسابعة يحتمل أن يكون آياتنا وأن يكون الأنبياء المجموعة التي يكون الكلام إشارة إليهم. والباقي يظهر بالتأمُّل.

تفسير

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يريد من بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾ يريد أن يقتلهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد لمتطاول في أرض مصر، وهو الوليد بن مرة بن مصعب بن عفر بن وهب، يريد الوليد بن نزوان العلقمي. ويقال لفرعون يوسف الوليد بن نزوان العلقمي. ويقال لفرعون إبراهيم الذي أخذ سارة فرارًا ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يُونس: 83] يريد أنه لمن الفراعنة وأعيانهم وأفضلهم وأغلظهم وأشدّهم سلطانًا وهو ذو الأوتاد، وكان إذا عذَّب إنسانًا أوتد له أوتادًا في الأرض وربطه بها وكان أمره أعظم من ذلك.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 84] يريد إن كنتم آمنتم بالله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ولا تعدلوا به شيئًا، فقالوا: على الله توكلنا.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُونس: 85] أراد لا تسلِّط علينا فرعون وقومه فيعذِّبونا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَنَجِّنَا﴾ يريد ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ لنا إذ هديتنا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يُونس: 86] يريد الجاحدين المشركين.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ يريد أن اتخذا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يريد مساجد ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ يريد إلى الكعبة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يريد لأوقاتها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87] يريد المصدِّقين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ يريد أشراف قومه ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكان لهم من لدن فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة وزبرجد وياقوت من عين الأحمر ويحاذى وجهند والفاريز وجميع الجواهر غير الأحمر ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ يريد عن دينك ويدعوا لقتال ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينفع أحد به ولم يبق لهم ما ملكوا من الذهب والفضة والمعدن وغيره ولا نحاس ولا حديد إلا طمس الله عليه، فكلما يوجد بعد ذلك فهو مما لم يكن فرعون مَلَكه ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يريد امنعهم عن الإيمان بك ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونس: 88].

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أن موسى ﷺ كان يدعو وهارون يُؤَمِّن ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُونس: 89] فهذه مخاطبة لبني إسرائيل، وأما موسى وهارون فهما معًا معصومان، فدلّك أن الله تبارك وتعالى لم

يبعث نبيًّا إلا أعطاه خصلتين: يَغفِرُ له فيما تقدَّم، ويعصمه فيما تأخر.

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ فهذه الآية المتتابعة فرق لهم البحر اثني عشر طريقًا يجوب كل سبطٍ في طريق يريد غير السبط الآخر، ويرى بعضهم بعضًا فمن يومئذ خلقت الخبايا، قال الله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63] يريد الجبل العظيم ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ يريد بغيا عليهم واعتداءً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ يريد صدّقت ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يريد ولد يعقوب ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يُونس: 90] فلم يقبل الله منه الإيمان عند نزول العذاب وقد كان في مهل فلم يؤمن ولم يقبل إلى الله، وذلك يأخذ من نزول العذاب أو غرغرة الموت من المشركين إلا قوم يونس قال الله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ [يُونس: 83] إلخ.

أقول: في بداية الأمر وأول الحال إلا ذريَّة وطائفة من الذين قلّ تفكرهم في الدنيا وأمورها، وكثر ذكرهم في العقبى وثناء المولى وشكر نعمه في الأولى والأخرى، كما ورد: مَن كثر فكره لم يشجع وذلّ نظرهم في عواقب الأمور من قومه أو من قوم فرعون، وأيًّا ما كان فلقربهم عندهم إلى المبدأ والمنتهى كان الكل فيها على فطرة الإسلام «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام...**» الحديث. دون أكابرهم الذين تمرنوا على الكفر وتعدُّوا على الإسلام الفطري والإعلام النظري وتوغلوا في الأحكام الفكري على خوف من فرعون، قد نشأ من كثرة الفكر وقلّة النظر في أحوال الممكنات وملئهم جمع الضمير إما للتعظيم أو للتضمن ذكر فرعون أن يفتنهم ويوقعهم في الفتنة والعذاب ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يُونس: 83] ومسلّط ومستولي فيها وأهلها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [يُونس: 83] المفرطين في التجاوز عن الحدّ والكبرياء والعتو حتّى ادّعى الربوبية واسترقّ أسباط الأنبياء وأدخلهم تحت عبوديته وذلك في حقّهم من الله خير وعناية وشفقة وعدالة، وذلك لأنهم اعترفوا بمجرّد النسب وأنكثوا عليه واعتمدوا لديه ودخلت الكبرياء والعظمة

في نفوسهم فتعظموا وتكبّروا في نفوسهم، فحكمته تعالى اقتضت أن يسلِّط عليهم عدو الله الذي أخبث أفراد الإنسانيَّة، وأخنث آحاد البشرية لتزول عنهم تلك الصفة الرديّة والهيئة الرذيلة، وذلك في حقهم هو شفقة من الله وعناية، وهي أردأ أمراض النفوس البشرية. قال الله تعالى وتبارك: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما أدخلته النار**». وقال النبي ﷺ: «**كل شيء يدخل القلب فهو يلازم الإيمان إلا الكبرياء فإنه إذا دخل القلب خرج الإيمان**». قال أيضًا: «**ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ نهاه عن الكبر، فإنه ليس أحد يدخل الجنة في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**».

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ يا قوم ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ والتقديم يفيد الحصر والاختصاص، وأن الإيمان هو التوكل والحصر عليه ولذا أكده بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 84].

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي تحققنا التوكل عليه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ [يُونس: 85] ولا تصيِّرنا موضع فتنة وعذاب للقوم الظالمين ويقلبوننا عن ديننا أو لا يظهرهم علينا ولا تهلكنا بأيديهم. قال مجاهد: لا تعذِّبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون: لو كان قوم موسى على الحق لما عذِّبوا بأيدينا فيظنون أنهم خير من قوم موسى، ففتنوا وازدادوا كفرًا وطغيانًا وظلمًا وجورًا وعدوانًا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يُونس: 86] الظالمين المتوهمين أنهم على حق، فلا يختص عنهم والإخلاص من أيديهم. قال النبي ﷺ: «**اللهمَّ لا تسلِّط علينا مَن لا يرحمنا**».

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يُونس: 87] يقال: تبوأ فلان لنفسه بيتًا ومضطجعًا إذا اتَّخذه أصله تتبوأ حذف أحد التائين، كان بنو إسرائيل لا يصلُّون إلا في كنائسهم وبيعهم، وكانت ظاهرة غير خفية، فلما أرسل موسى أمر فرعون بهدمها وتخريبها ومنعهم من الصلاة، فأمروا أن يتّخذوا مساجدهم في بيوتهم ويصلُّون فيها خوفًا من آل فرعون. قال بعضهم: كان موسى ومن معه في قوم فرعون وقومه أن يصلُّوا في الكنائس الجامعة، وكانوا على ملّة إبراهيم فمنعوا فأمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة القبلة ويصلُّون فيها كما كان في بداية الإسلام القبلة الكعبة ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ مواجهة إلى

القبلة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونس: 87].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ﴾ وأعطيت ﴿فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ وقومه ﴿زِينَةً﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَمۡوَٰلٗا﴾ وجهاتًا وحطامًا ومنازلًا ولباسًا وطنافس وأثاثًا وفراشًا وغير ذلك. عن ابن عباس رضي الله عنه: كانت من فسطاس مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت وعقيق ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر.

قيل: اللّام للعاقبة متعلقة بآتيت، ويحتمل أن للعلة لأن إبقاء النعم على الكفر استدراج وتثبت على الضلال، ولأنهم جعلوها سببًا على الضلالة فأتوها للضلالة ويكون ربّنا تكرير للأول وتأكيد له وتنبيهًا على أن المقصود الأصلي والغرض الأدنى إضلالهم وثباتهم على الكفر ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وأهلكها وامحقها. روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن دراهمهم ودنانيرهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا. دعا عمر رضي الله عنه عمر عبد العزيز خريطة منها فأتوا خريطة مملوءة من أحجار بيض وحمر منقوشة ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ واطبعها وأنزل الختم والطبع عليها بحيث لم يبق فيها موضع شيء من الإيمان ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يُونس: 88] والعقاب العميم، أو جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي كما كان بلفظ الأمر اهتمامًا للإجابة واعتناءً بأن يقع في حيز القبول.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ أي دعوة موسى وهارون، كان موسى يدعو وهارون يؤمّن، وكان بين الدعاء والإجابة ووقوعها في حيز القبول أو الفعل سنة ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ على النبوة وتبليغ الرسالة وتقييد أحكامها ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يُونس: 89] لا يعقلون من جهلة الكفار وغفلة المعاندين الجبّارين، أكده بالنون الثقيلة.

﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ وعبرنا وأمضينا ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ [يُونس: 90] ولحقهم وأدركهم ﴿فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ أي ظلمًا وعدوانًا، أو قولًا وفعلًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ وغمره الماء ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا﴾ أي الشأن أو بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يُونس: 90].

إشارة وتأويل

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم﴾ [يُونس: 81] إلخ، إشارة إلى أن القوة النظرية والعملية التي الأولى منهما مظهر للجمال، والثانية مظهر للجلال، أو بالعكس، ليس مقصودة بالذات بل مقصودة بالغير وهي الصورة الجمعية الإلٰهيَّة والكونية ويلزمها الحضور العلمي والشهودي الذي هي إلٰهية الكمالية الجمعية والحقيقة الاجتماعية النوعية التي هي صورة معيَّة العلم اللذان يكون أحدهما عين الأخرى في المرتبة الأولى بحسب الحقيقة والمعنى، كما يتّحدان في المرتبة الأخيرة في الصورة وجوهر الحروف في النشأة الأدنى فتبطل خصوصية كل منهما عند الاجتماع وضرورة الأجزاء والصورة الواحدة النوعية والهيئة الجمعية كما تبطل خصوصية فرداريّة كل من الجمال والجلال عند جمعية سلطنة فرداريتهما ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي وتثبت الذات الجامعية لتمام الأسماء والصفات والأفعال والآثار التي نسبتها إلى الذات ونسبة الذات إليها على السواء، وإن كانت جهة النسبة متغايرة لأن جهة الذات إليها من حيث الظهور ونسبتها إلى الذات من حيث الإظهار «**وكنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**» الخلق أي الصورة الجمعية الكمالية، والهيئة الإحاطية الجلالية والجمالية ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي ينبوع تجليّاته وتطور ظهوراته الجمعية الجلالية الأصلية والفرعية ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: 82] كالأعيان الإفرادية الجمالية، والأكوان الوحدانية الجلالية.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ أي الطور الروحي وجمعيته بالطور السري والفؤادي والقلبي والنفسي والقالبي، وما مال إلى الكمال الجمعي وما نال إلى الكمال النوعي وإلى الجمع والفرق والجمع الصوري والمعنوي ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ أي أعيان القوى الروحاني والجناني والنفساني والجسماني ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي النفس الأمَّارة والقوى الجسمانية ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يُونس: 83] إشارة إلى تغاير الاقتضاء في كل عين من أعيان القوى المذكورة، وأن لكل عين من أعيان القوى اقتضاء بين أحدهما من حيث الخصوصية، والثاني من حيث الحقيقة. وأصل الفطرة التي هي الإسلام لا الخصوصية والفرعونية التي تقتضي الاستغلال والتفرُّد والاستئصال ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ وصورة الخصوصية ﴿لَعَالٍ﴾ يقتضي الاستقلال والاستئصال، وأن فرعون في الأرض القابلية والإمكان بالفعل ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ

﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يُونس: 83] المتجاوزين عن الحدّ الأصلي، وهو الجمع والاجتماع والاتصال الذي يقتضي الكمال النوعي.

﴿وَقَالَ﴾ موسى ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ واستعلت حقيقتكم الأصلية وهويتكم الإلٰهيَّة على كمالكم الجمعي وجمعكم الأولي والثاني أي الجمعي الكمالي والجلالي ﴿فَعَلَيْهِ﴾ أي على كمالكم الجمعي وجمعكم الكمالي، أي جمع الجمع الجمالي والجلالي ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾ [يُونس: 84] إشارة إلى الكمال الجمعي أنواع جمالي وجلالي يعني جمعية الأدوار النورية الجمالية وجمعية الأكوار الظلّية الجلالية، وجمعية جمعيتهما.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي الذات الجامعة لتمام مقتضيات الأدوار وجميع مرتضيات الأكوار ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ وعقوبة ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُونس: 85] أي للنفوس الطاغية وقواها الباغية ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ اللامتناهية ومقتضى جمعية ذاتك وأسمائك ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يُونس: 86] أي الأعيان النورية الإفرادية الساترين للكمال الجمعي.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ الجمعي الجمالي ﴿وَأَخِيهِ﴾ هارون الكمال النوعي والجمع الجلالي ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ لقواكما وأعيانكم التي اشتغلتما عليها ﴿بِمِصْرَ﴾ الكمال الجمعي والجمع الكمالي بيوتًا موقفًا ومقامًا ومعكفًا ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ مقصدًا ومجمعًا ومعبدًا لتتوجه إليه تمام القوى النفسانيَّة والمبادئ الروحانية المصفاة والمحلاة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التوجه الكامل والعروج والمعراج الشامل لدى كعبة كمال المعرفة وجمعية الشهود ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: 87] من الأعيان الجمعية النورية والأكوار المعيَّة الصمودية المستدعية للاستئصال إلى الوصول بأوج الكمال الجمعي وذروة تدوير الحال المعي المستصحبة لشرف ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

﴿وَقَالَ﴾ موسى الطور الروحي ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ النفس العاملة ﴿زِينَةً﴾ ولذّات حسيَّة ومشتهيات نفسيَّة وشهوات حدسية ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ الأعيان الظالمة وتعلوا عن دليلك الأكوان الراغبين وتكرار النداء وتكثار الصداء بالدعاء مشعر بأن المولود الجني والمعهود الإنسي قد توافقا في الاستدعاء وتطابقا في الاستعداد كما أشار إلى هذا عليه السلام بقوله: «**إن الله**

تعالى قد أعانني عليه فلم يأمرني إلا بالخير»، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: 88] واغمس على مقاماتهم وأحوالهم إشارة إلى الفرعون العقلي والروحي والنفسي. فالفرعون العقلي هو الذي طغى في الطور العقلي وهو العلوم والإدراكات بإغواء سلطان القوة الواهمة بأن يقيس الغائب على الشاهد ويحكم على المجرَّدات بأحكام المحسوسات بأن كل موجود له حيز ومكان لأن السماوات والعناصر وما يتركب من المعادن والنبات والحيوانات فلها حيز ومكان طبعي.

فالله تعالى والعقول والنفوس والهيولى والصورة أو الجواهر الفرادى والوحدات كلها في المكان والحيز، فإذن لا بدّ وأن يكون الحق جلَّ وعلا جسمًا، فإذا تجرَّد العقل وانصرف عن استخدام الوهم والخيال إلى صراحة طوره حكم بأن هذا الحكم الكلي باطل لأن لكل واحد منها خصائص ذاتية وكمالات أوليَّة ولوازم وجودية يتميَّز بها بعضها عن بعض، فلولاها لارتفع التميز بين الموجودات واستتبع حكم العقل والشرع. أما الفرعون الروحي فهو الذي بغى في الطور الروحي بإلقاء القوة المتخيلة التي هي واسطة في برزخ بين الروح والحياة والجسم حكم القوة العاقلة وحصر الحكم على الطبيعة التي موطنها هو عالم الخيال والروح بأن الحياة ليست إلا الطبيعة الكليَّة السارية في عالم المعادن والنبات والحيوان، المؤثرة فيها بازدياد المقدار وإحداث الحس والحركة. لما شاهدت المتخيلة هذه الأحوال من الأجسام وأودعها في القوة الخياليَّة ثم غابت عن الحواس الظاهرة، ولم يغب عن الخيال المتصل بعالم البرزخ والخيال ورقيّها إلى عالم العقل المتشعب في الإدراكات بأذيال الوهم حكم بأن المؤثرة في الأجسام هي الطبيعة وتابع العقل بذريعة الوهم بأن الصانع والخالق هي الطبيعة كما ذهب الحكماء الطبيعيون. وأما فرعون النفس فهي طغيانها في مصر ووجودها ولم ير لغيرها أثرًا وساعد بها العقل حكم بأن الموجود في الحس هي النفس، هذا في طور العقل.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ﴾ [القصص: 4] أبناءهم ويستحيي نساءهم، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾، وإما في طور الكشف والشهود، فإن السالك العارف إذا بلغ في الرياضة وتواترت جذبات الرحمٰن وتكاثرت تجليّات السبحات والفناء في الله والبقاء بالله، والمظهرية والكلية وغير ذلك من الحالات والمقامات في طاعة قوة فرعون الكشف والشهود في مصر الوجود

وتشطح بأنا الحق، وأنا الله، وسبحاني ما أعظم شاني، وغير ذلك. فلما ظهر موسى، جمعية النور والكمال وبهر هارون الكمال الجمعي والجمع الكمالي، وظهر سلطان جمعية الإلٰهيَّة والكونية وبعثان معيَّة الربوبية والعبدية، بطلت سحرات خيالات أطوار العقل في الروح والنفس، وعطلت خيال الوهم والخيال في طور الكشف والشهود، وعصم الله موسى السالك العارف الجامع لجميع أطوار المشاهدات والمعارف في مصر الوجود، وسلَّط على فرعون أطوار الكشف والعقل والروح والنفس في شام الشهود فحينئذ انطمس أموال طرد الكشف وجواهر طور العقل وخزائن طور الروح، ودفائن النفس في نظر السالك العارف الجامع لتمام أطوار المشاهدات في عموم الدورات وغموم الكورات، وانقلبت أطوار الدنيا بأطوار الآخرة وأطوار الآخرة بأطوار الدنيا، وكلاهما بالطور الجمعي والدور والكور المعي، وتحقّق المعارف بجمعية نعت الإلٰهيَّة بالصفة العبودية وبمعيَّة العبودية بالإلٰهيَّة حسب جمعية الجمال لجمعية الجلال وبالعكس.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي أعيان النور والجمال وأكوان الظلّ والجلال في بحر الأطوار المذكورة ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ هذه الأطوار ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ أي المكشوفات والمدركات والمخيلات والأعمال والأفعال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ الاختياري والاضطراري في الآفاق والأنفس ﴿قَالَ﴾ فرعون الأطوار في تمام الأدوار وعموم الأكوار ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يُونس: 90] الأعيان النورية في منادي الأدوار والأكوار، كما أشار إليه الحقيقة المحمدية لقوله: «**كلّ مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه**»، وإليه ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 84] ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 90] تصريح بأن الإيمان والإسلام للأعيان النورية والظليّة الجمالية والجلالية نظرًا إلى الفطرة الأولى والنشأة العليا ذاتي، وبالآخرة يتحققون في الآخرة بها وبأن الكفر الذاتي لا يزول بها بالعرض وأن الإيمان والإسلام سار وجار في تمام الأعيان وجمهور الأكوان في عموم الأدوار والأكوار، لا ينفك منهم أصلًا بل يختفي تارة ويختلي تارة أخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النِّساء: 136]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

تفسير

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ كالمستفهم ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: 91] يريد في أرض مملكتك.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ وذلك أن بني إسرائيل قالوا في أنفسهم إن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق، فأخرجه الله حتَّى رأوه وكانت عليه درع من ذهب يعرف بها، وهو البدن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يريد عطية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يريد أهل مكة ﴿عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾ [يُونس: 92] يريد عمَّا يراد بهم.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريد قريظة وبني النضير وبني قينقاع ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يريد أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم﴾ يريد بالمدينة أرض يثرب ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ يريد النخل مما فيها من الرطب والتمر وأصناف الثمر الذي ليس في البلاد مثلها طيبًا ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ يريد كانوا على دين واحد ينتظرون نظرة محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يريد القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يُونس: 93] يريد من أمرك يا محمد.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يريد أنزل سبحانه وتعالى مخاطبة غيره ممن آمن به وصدّقه ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94] يريد عبد الله بن سلام وبنيامين وأصحابه والراسخون الذين ذكرهم الله في كتابه في أول سورة آل عمران وفي النساء: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النِّساء: 162] يقولون: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يُونس: 94] يريد

الشاكّين المكذّبين، يريد النبي ﷺ لم يشكك في الله ولا فيما أوحى الله إليه، لكن نريد من آمن به وصدّقه ممن لا ينافقون كما شكّ المنافقون.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يريد المشركين مشركي قريش ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [يُونس: 95] يريد المغبونين لما أعطى الله لأوليائه من النعمة والثواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونس: 96].

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ [يُونس: الآيتان 97 - 98] يريد مما كانت قرية آمنت ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ يريد لما فعل هذا بأمة قط إلا قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ عند نزول العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ يريد كلهم ودفعنا عنهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ يريد سخط الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يُونس: 98] يريد حين آجالهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ يا محمد ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: 99].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ يريد مما سبق لها في قدري وقضائي ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ يريد العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونس: 100] يريد الذين لا يتدبرون آيات الله.

الآن أقول: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ﴾ يا فرعون ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ الآيسين من نفسك وامتداد حياتك، وجزمت بوقوع مماتك، ولم يبق لك اختيار بل وقعت في الاضطرار ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ﴾ وأشركت بالله ﴿قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يُونس: 91] أي من القوم الذين يفسدون الضالّين والمضلّين الكافرين، ومن جملة المشركين. وفي الكشاف: والذي يحكى أنه حيث قال: آمنت، أخذ جبريل من حال البحر فدفعه في فمه غضب من الله على الكافرين في وقت قد علم أن الإيمان لا ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم خشية أن تدركه رحمة الله، فمن زيادات المتباهين بالله وملائكته وفيه حالتان، إحديهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى أن من كره إيمان الكافر وأحبّ بقاءه على الكفر فهو كافر لأن الرضاء بالكفر كفر، هذا قول كلاهما مدفوع. أما الأول فلأن الناطق لا يقبل إيمانه شرعًا إلا بالبيان فمن اعتقد بالتوحيد وبما صحَّ به الإيمان فما لم ينطق به لم يحكم بإيمانه شرعًا ولم يجز أحكام المؤمن عليه، وجدت الأخرس لا يكون دليلًا لانتفاء قدرة النطق عنه. وأما الثاني فليس مطلقًا بل مخصوص برضاء كفر نفسه لا برضاء كفر الغير، فإن رضاء النفس بكفر نفسها يوجب اتصاف النفس به. وأما رضاء كفر غيره فلا.

قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ وجئتك من قعر البحر الذي غرق اليوم فيه خاليًا عن الروح وعاريًا من النفس، وعمل الفتوح، أو بدرعك التي كانت لها دروع من الذهب مكلّلة بالدرّ والجواهر، معرّف بها، لتكون لمن خلفك ووراءك واستخلفك آيةً وعلامةً، أو لمن يأتي بعدك من القرون والأدوار على تقدير المضاف، أي خبرك وقصتك وحديثك لأنه كان عظيمًا في نفوس الخلق بحيث كانوا يعبدونه لا يحزرون موته وإهلاكه وإماتته وفوته، أو ليكون عبرة تعتبر بها الأمم. وإنما طرح بدنه فقط دون سائر المغرقين لئلا يقع الاشتباه في بدنه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يُونس: 92] لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا﴾ وأنزلنا ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٍ﴾ أي منزلًا صالحًا مرضيًّا، وهو أرض المقدس ومصر والشام ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ والحلالات وأنواع المطاعم وصنوف اللّذات فما اختلفوا في دينهم وما تشعبوا فيه شعبًا حتَّى جاءهم العلم ونزول التوراة فقرؤوها وكسبوا العلم بأحكامها وأعلامها وبما جاء فيها من سائر العلوم

وخصائص الأشياء وخصائصها وخواصها وأحوالها ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93] ومن جملتها أمر محمد، ويعتبر أهو أم ليس من بعد مادة العلم، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 146].

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: 94] القرآن وما فيه من التوحيد والموعظة والأحكام الشرعيَّة وغير ذلك، أهو من الله أو من غيره، هذا إما على سبيل الفرض والنقد أو بناء على ما حمل بأن الأصل الإنساني هو عدم العلم والجهل والشك ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52] الآية، ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ من العلماء وأهل الكتاب والغرض بيان كمال عناية الله ووفور اعتنائه بشهادة محمد ﷺ واهتمامه في حفظه ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وقوله: الذين ركبته في اللّوح المحفوظ واختارهم الملائكة أنهم يموتون على الكفر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 96].

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها ﴿آمَنَتْ﴾ قبل معاينة طول العذاب فما ينتفع إيمان أهلها حال البأس في ذلك الوقت ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهم لما آيسوا عند معاينة حلول العذاب وآمنوا نفع إيمانهم ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ ورفعنا عنهم ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ استثناء من القرية، فيكون منقطعًا يعني لكن قوم يونس، فلو قدرت الأهل أو القوم فالاستثناء متصل في الحياة ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 97 - 98] أي جعلناه متمتعًا إلى وقت يقضى أجلهم فيه.

روي أن الله بعث يونس إلى أرض موصل وأربيل ودعا أهله إلى الله فأبوا، فوعدهم بحلول العذاب إلى ثلاثة أيام أو أربع، فلما تمَّ الوعد قال قومه: إنا لا نسمع منه كذبًا قط، فإن يأت فيكم في الليلة الموعودة فليس شيء، فإن لم يثبت فاعلموا أن العذاب يصبِّحكم. فلما كان في خوف تلك الليلة خرج يونس من أظهرهم فغشاهم العذاب ووقف فوق رأسهم قديس، فطلبوا يونس فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بإنسهم ونسائهم وصبيانهم

ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا التوبة والاستغفار وأخلصوا النيَّة وفرّقوا بين الأم والولد من الناس والبهائم، فحنّ بعضهم إلى بعض وعلت أصواتهم وعجت، وتضرّعوا وبكوا وتباكوا، وتذلَّلوا وتخشعوا إلى الله قالوا: تبنا ورجعنا إليك يا ربّ يونس وربّنا وربّ العالمين وآمنا بما جاء به إلينا يونس، ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وقِنا عذابك. فرحمهم الله واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب والهلاك، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء. وأن يونس قد خرج من بين أظهرهم، قد انتظر عذابهم، فلم ير شيئًا ولم يرجع إلى قومه، فانطلق عاتبًا على ربّه غاضبًا على قومه، فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فحملوه بلا أجرة فلما دخلها وتوسطت بهم ولجت فوقفت السفينة لا يجري ولا يرجع ولا يتقدَّم فقال أهل السفينة ليونس: ما هذا، وكان يونس قد علم شأنها وحال نفسه مع قومه وبالله قال لهم: هذا من رجل ذي خطيئة، قالوا: من هو؟ قال: أنا، اقذفوا بي في البحر، فقذفوه.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ مشيئته اليسر ﴿لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ وتلحقهم إلى الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ بإرادته ومشيئته ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونس: 99 - 100] ولا يعلمون الله وأوامره ونواهيه.

إشارة وتأويل

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يُونس: 91] إلخ، أي يا فرعون الأطوار المذكورة أتؤمن في هذه الحالة وفي هذا الزمان والوقت وأنت قد عصيت في ملك وجودك وأفسدت نفسك وهويتك إشارة إلى تعيَّن كل متعيِّن وخصوصية هويته لا يفنى ولا يهلك أصلًا، بل هي باقية في البرزخ المعادي والموطن الخيال والحضرة العلميَّة والأحدية الجمعية ليكون لمن خلفك أي لمن هو ثابت في الأدوار والأكوار الآتية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ والأعوان والأكوان ﴿عَنْ ءَايَـٰتِنَا﴾ وكيفيات تجليّاتنا وحالات ظهوراتنا في الأدوار الوجودية والأكوار العدمية ﴿لَغَـٰفِلُونَ﴾ [يُونس: 92] وإلى أن كل عين من الأعيان الوجودية النورية الجمالية وأي كون من الأكوان العدمية الظليّة ينطوي على كمالات إلٰهية وحالات كونية غير متناهية لا بدّ وأن

تظهر تلك الكمالات في نشأتها الدورية ودوراتها الكونية، إلا أنها ربما تكون الكمالات الإلٰهيَّة وهي العلوم والمعارف الحقيقية ظاهرة كما في الأنبياء والأولياء والحكماء الإلٰهيَّة والصلحاء ونقائضها مع سائر الهيئات الدينية خفيّة والملكات الردية محققة. وربما يكون الأمر بالعكس كما في الكفار والعصاة والجهال، وإن لتلك العلوم والإدراكات شرائط وأسباب وهي دعوة الأنبياء والأولياء وأوقات وهي الأدوار والأكوار، فإذا اجتمع شرائطها وأسبابها وأوقاتها ظهرت، وإن لم تجتمع بقيت على الخفاء إلى أن تجتمع فحينئذ تظهر تلك الكمالات وتختفي نقائصها، والأمر دائر بين الظهور والخفاء، فإذا اجتمع أسباب ظهور فرداريّة حكم سلطان النورية والجمال ظهرت كمالات الإلٰهيَّة نورية في مظهر موسى الطور الروحي واختفى نقائصها، وربما يكون الأمر بالعكس وربما يجتمع مقتضى النور والجمال ومرتضى الظلّ والجلال، فحينئذ يصالح مقتضى طور موسى المولود الإنسي بمرتضى فرعون المولود الجني، فإيمان هذا الفرعون مقبول وهو مأمول من الإغراق والإهلاك.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ﴾ إلخ، هذا على مقتضى الطور الظليّ ومرتضى الفرعون الضمني، وغلبة حكم الظل كما أشار إليه النبي ﷺ: «**وإني ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة**» يعني أن شيطان المولود الإنسي ربما ينازع ويناقض المولود الإنسي في شهود التجليات كما نازع موسى الكليم وقت تكلُّمه بالله وتكلّمه به بأن قال لموسى: يا موسى إن الذي يكلِّمك هو الشيطان. والفارق هو أن موسى عليه السلام كان يسمع كلام الله من جميع الجهات، وكان ميّزها عن التحريف واللحن واللكنة وعن سائر جهات النقص في الكلام، كما أن شرط صحة ظلي الحق وشهوده هو أن يكون مقدّسًا عن النقصان كما أن التجلّي إن كان آثارها على صورة آدم لا بدّ وأن تكون تلك الصورة بريئة عن النقص بأن لا تكون تلك الصورة معوجة ذات عمى وعور وحول وغير ذلك.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ﴾ [يونس: 94] إن شكّكت في شهود التجليات وأنواعها وأصنافها فارجع من شاهد هاو ومارسها وتميّز بعضها عن بعضها إشارة إلى أن حق الشاهد صاحب شهود التجلّيات أن يحتاط في مشاهدة التجلّيات سيما

التجلّيات الآثارية، سيما الصورة التي يشاهد بصورة الإنسان، فإن إبليس كثيرًا ما يتجلى على السالك ويعذّبه ويضلّله، فإذًا لا بدَّ أن يطلب شخصًا كاملًا عارفًا بأجناس التجلّيات وأنواعها وأصنافها لئلا يقع في الضلالة والإضلال، فإن أعظم مطالب السالكين العارفين المحققين والمتحققين هي التجلّيات الإلٰهيَّة وشهودها والضلالة فيها أفحش من الشرك.

تفسير

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يريد هل فيها إلٰه غيري وخالق سوائي ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ يريد المواعيظ ﴿عَن قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101] يريد لا يصدِّقون.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ يريد مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد من العذاب، يريد مثل قوم نوح وعاد وثمود ما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [الآية: 40] وهم قوم لوط حصبوا بالحجارة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يريد عاد أو ثمود أو مدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يريد قادرون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ [العنكبوت: 40] يريد فرعون وقومه وقوم نوح ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 102].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ يريد أنبيائي ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يريد الذين يصدِّقوا ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103] يريد واجبًا أن على من صدّق أنبيائي وأنجاهم من عذابي.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ﴾ يريد أهل مكة إن كنتم ﴿فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ يريد توحيد الله الذي جئت به والحقيقة التي بعثت بها ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد الأنداد وما عبد من دون الله ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يريد يميتكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 104] يريد من المصدِّقين.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: 105] يريد الذين جعلوا لله كفوًا ونظيرًا.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: 106] يريد بذلك مخاطبة جميع من بعث إليه.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يريد بمرض وفقر ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يريد بصحة ونظر ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ يريد من أوليائه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107] يريد الغفور لذنوب أوليائه الرحيم بهم.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [يونس: 108] يريد أهل مكة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يريد الذي جاء به محمد ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ يريد صدّق محمدًا فإنما احتاط لنفسه واهتدى ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم

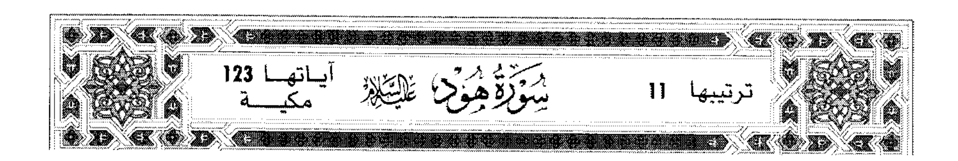
بِوَكِيلٍ﴾ [يُونس: 108] يريد بجبّار.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يُونس: 109] وهي منسوخة [حكمًا] نسختها آية السيف، فحكم في قتل المشركين والجزية على أهل الكتاب.

تمَّت سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله هدًى بيّنًا وهداية متينًا إلى التوحيد الذاتي والأسمائي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي خلق مادة كل دابّة في مدة معيَّنة في مستودع الصلب ثم استقرّ في الرحم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: 7] ويأمركم بالاستقامة لئلا يتطرق في علمكم وعملكم ضلالًا وخللًا.

تفسير

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾

﴿الٓر﴾ يريد أنا الله الرحمٰن ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ يريد قرآنًا أُحكمت فرائضه ﴿مِن لَّدُنْ﴾ يريد من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ يريد حكيمًا في خلقه، رحيمًا بمن صدّق نبيّه وتوحيده ﴿خَبِيرٌ﴾ [هُود: 1] بمن يكذّب بنبيِّه واتخذ معه إلٰهًا آخر غيره.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾

الجزء الثاني عشر: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يريد لا تتخذوا مع الله ربًّا ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ يريد نذيرًا من عذاب الله لمن اتخذ معه إلٰهًا ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [هُود: 2] لمن وحّد الله وأطاعه.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يريد وحِّدوه ولا تشركوا به شيئًا ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ يريد من الشرك الذي كنتم عليه ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في الدنيا ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يريد يتفضّل عليكم بالرزق والسعة حلالًا طيّبًا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يريد إلى أجل الموت والقيامة ﴿وَيُؤْتِ﴾ في الآخرة ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: 3] يريد أن منازل الآخرة بعضها أفضل من بعض كما أن إصلاح الناس في الدنيا بعضهم أفضل من بعض، مثل قوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: 7]، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يريد عن الإسلام ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هُود: 3] يريد عظيمًا.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هُود: 4] يريد مصيركم جميعًا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هُود: 4] يريد بعضهم من آيات النبي عليه السلام مما يظهر له العداوة.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يريد يضمرون في قلوبهم ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ يريد بعضهم من آيات النبي عليه السلام مما يظهر له العداوة ﴿أَلَا حِينَ﴾ أن ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يريد عند الموت ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يريد ما يضمرون عند الموت يعلم ما يسرُّون وما يعلنون يريد ما يضمرون عند الميت وما يعلنون في الصباح ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هُود: 5] يريد بما في النفوس الصادقة مثل قوله في المائدة: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [الآية: 116].

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ يريد الإنس ومن دبّ من الدوابّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب ﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هُود: 6] يريد أمّ الكتاب اللّوح المحفوظ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ يريد تبارك وتعالى ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يريد الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ يريد علم أعمالكم قبل أن تعملوا، أو علم تقواكم قبل أن تتقوا، أو علم ما خلق قبل أن يخلق، وكلما يكون قبل أن يكون، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمد لقومك ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يريد أهل مكة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هُود: 7].

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ يريد إلى سنين معدودة ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ﴾ تكذيبًا منهم كقولك استهزاءً ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ يريد ذلك العذاب وهو قيل جزاء المستهزئين وقيل المؤمنين المشركين يوم بدر ويوم حنين وأُحد ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ يريد وحلّ بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هُود: 8].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يريد الوليد بن المغيرة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هُود: 9] يريد من رحمته، كافرًا بأنعمه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ يريد صحة وسعة في الرزق ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ يريد بعد فقر ومرض ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ﴾ يريد الضرّ والفقر ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هُود: 10] يريد تفاخر أوليائي بما وسعت عليه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ يريد أبا بكر وجميع الصحابة الأوّلين ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يريد لجميع ذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هُود: 11] يريد ثوابًا عظيمًا.

أقول: بحقّ الذات الأحد وبحق جبرائيل وبحق ربوبيتي هذا ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ لم ينسخ بكتاب آخر بل نسخ أحكام الكتب المتقدمة والشرائع السالفة، أو مبتدأ ما بعده صفته وخبره محذوف، أو نظمت نظمًا محكمًا لا يعتريه اختلال إلا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى. والمراد إما الكتاب هذا أو سورة هذه، أو جعلت حكيمة مفعولة من حكم إذا صار حكيمًا لأنه مشتمل على الحادث الحكمة النظرية والعملية، وأحكمت وأثبتت الحجج القطعية والبراهين اليقينيَّة الحاكمة على حقيقة وتحقق يقينيته الدالّة على أحكام شرعية ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ وحقّقت آياته وأحكامه على التفصيل ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: 1] بالظاهر والباطن، والسرّ والعلانية، على ما هي عليه صفة أخرى كاشفة للكتاب، أو خبر بعد خبر.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هُود: 2] أن للتفسير أو للإغراء على التوحيد واقتران القول والحكم بالصواب بالتجافي والاستبعاد عن العذاب ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ للماضي وتوبوا في الآتي والحال، أو استغفروا عن الماضي والشرك وتوبوا بالطاعة، فيخرج للتفاوت بين الأمرين ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا﴾ أي يعيشكم عيشًا حسنًا في أمن وسعة ورعاية وراحة ودعة هو الرضاء بالميسور والصبر على المعسور ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ حين الموت وحلول وقت الهلاك ونزول العناء والبلاء على العقار والملك ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: 3] أي يعطي كل ذي عمل صالح أجره في الدنيا وثوابه في الآخرة، أو من كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته وبادت جنّاته في الأخرى لأن الدرجات تزداد وترتقي بالأعمال وحسن الأفعال. عن ابن عباس: من زادت في الدنيا حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف. ثم يدخلون الجنة بعده من عمل لله وفقه الله فيما يستقبل لطاعته.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عن طاعة الله وإطاعته وكمال مطاوعته ومبايعة نبيّه

استحق هو العذاب ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هُود: 3] أعني يوم القيامة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [هُود: 4].

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ﴾ نزلت في الأخنس ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ أي يخفون ما في صدورهم، أو يسرُّون صدورهم وقلوبهم عن الحق وقبول أحكامه ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ من الله ورسوله ما فعلوه من النفاق والعداوة والشرك، نزلت في المشركين أو المنافقين وفيه ما فيه لأن الآية مكيَّة، والنفاق إنما نشأ في المدينة ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ﴾ ويغطون بثيابهم ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ويبطنون في قلوبهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ بأفواههم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هُود: 5] وبأكمله إن الذين أضمروا عداوة الله ومخالفة أمر الله لا يخفى علينا أحوالهم ولا ما احتوت عليه صدورهم وبالهم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يدبّ ويتحرَّك حركة نقلية وكمية أو كيفية ونفسانية من النبات والحيوان وهو الإنسان ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ وما يتقوى ويبقى ويستمر وجوده إلى ما قدّره الله تعالى من إبقاء الحياة ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ ومكانها الذين يأوي إليه ويستقرّ ويثبت فيه ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هُود: 6] أي أرضًا يدفن فيها بعد الوفاة وما تفتَّت أجزاء بدنه وأعضاء بنيته أو أرحام الأمهات والمكان الذي فيه يموت، أو الأرحام وأصلاب الآباء، أو الجنة والنار، أو القبر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [هُود: 7] وما فيها أي المجرّدات والماديات أو الجهات العالية والسافلة وما يتكوَّن فيهما من الجان والشيطان والطيور والمعادن والنبات والحيوان والإنسان، وإنما جمع السماء وأفرد الأرض لاختلاف أنواع الحركات الشرقية والغربية والذاتيَّة والعَرَضية والطولية والعرضية وغير ذلك من الشرعيَّة والبطء والرجوع والوقوف وما يتفرّع عليها من أنواع الكائنات وأصناف المكونات وما أشبه ذلك في الأول. وأما الثاني فهو أماكن على الأصح وإن قدّر فيه الطبقات كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: 12]، وفيها مخلوقات كثيرة مختلفة كما ورد في الحديث: «**وكان عرشه على الماء**» هو مادة حياة كل الأشياء العالية والسافلة، المجرّدة والمادية ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبيَاء: 30]. وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق أولًا ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماءً ارتعد واضطرب ثم خلق الريح فجعل على متنها ثم وضع العرش على الماء، كذا ورد في التوراة. وهذا مما يهتدي إليه العقل بلا

تأييد الله بالوحي وهو موافق لما قاله الحكيم الإلٰهي: إن الله جلَّ وعلا خلق أولًا العقل الكلّ وله جهات ثلاثة إلى ربّه مبدؤه الأول، وإلى ما دونه من الممكنات، وإلى نفسه. فمن الأول صدر العقل و[منَ] الثاني العرش، ومن الثالث الكليّة. هذا هو ما ذكر بعينه والاختلاف في العبارة. شعر:

عباراتنا شتّى وحُسْنك واحد وكلٌّ إلى ذاك الجمال يُشِير

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما خلق الله تعالى العرش ثم خلق بعده بحرًا عظيمًا من الماء يقال له البحر المسجور، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾. وقال بعضهم: إن الله عزَّ وجلَّ قال: «**وكان عرشه على الماء**»، ثم خلق السماوات السبع والأرض وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلق، ثم إن ذلك الكتاب سبَّح الله ومجَّده ألف عام قبل أن يخلق شيئًا من خلقه. هذا هو ما وقع في الكتب السماوية والصحف المنزلة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي يعاملكم معاملة الاختبار، والمراد من العمل ما يعمّ عمل القلب والجوارح لما روي أنه قال عليه السلام: «**أيكم أحسن عقلًا وأورع من محارم الله، وأسرع في طاعة الله**» ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمد ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ وتحشرون ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ في المحشر العظمى ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله وبكمال قدرته وعموم حكمته ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ العذاب الدالّ على هذا المطلب ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ وقرئ إلا سحر ﴿مُّبِينٌ﴾ [هُود: 7] ظاهر لا حقيقة له، مبالغة في الإنكار.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الموعود دنيا وآخرة ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وجماعة موعودة وزمرة معهودة، قليلة من الأزمان والأوقات ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ في هذه الحالة ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ وأي شيء يمنعه من الوقوع استهزاءً واستخفافًا واستعجالًا يعنون به أنه ليس شيء ولا أصل له ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ أي يوم إتيان العذاب عليهم ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم أوقع الماضي موضع المستقبل تحقيقًا ومبالغة في التهديد عليهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هُود: 8] ويستعجلون.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾ الإنسان، وأعطينا منا رحمة سعة ونعمة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ أي سلبنا تلك النعمة ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ مقطوع الرجاء من فضل الله ﴿كَفُورٌ﴾ [هُود: 9] ساتر نِعم الله وجاحدها في الثانية في جميع الأوقات.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ وحلول العذاب من الفقر والمرض والجوع ﴿مَسَّتْهُ﴾ ولصقته بعد الصحة والغناء والسعة والرّخاء ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾

وأزال الشدائد مني من غير إعادة إلى إيذاء النعم الظاهرة الدنياوية الدنيَّة، باقية عليّ، والحال ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الزاعم الكافر ﴿لَفَرِحٌ﴾ وفرحان ومنبسط قلبه إلى النعيم الظاهر والعميم الحاضر، فإذن غفل عن رحمة الله وذهل عن نعمته بل عن الله ﴿فَخُورٌ﴾ [هُود: 10] ومتفاخر على الناس، ومتفضل عليهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على نزول البلاء وشكروا على وفور النعماء، وفي عبارة الإذاقة إشارة إلى أن نعيم الدنيا حقير في جنب نعيم الآخرة جدًّا، سريع الزوال لا ثبات له، والنسبة بينهما كالنسبة بين الذرة المخيلة والأكل المحقق المشبع الذي يفيد بقاء الأكل وازدياد مقدار بنيته وثقات صحة بدنه، فالاستثناء منقطع ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هُود: 11] شرًّا لِلآلائه السابقة ونعمائه الجليلة السابغة ومستعدًّا لتعاطي المنح اللاحقة اللائقة.

إشارة وتأويل

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هُود: 1] إلخ، إشارة إلى الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية، فهذه الأدوار الثلاثة التي تتفرع على اثنا عشر ثم فصلت كل واحدة من هذه الثلاثة النورية الإفرادية والظلّية الوحدانية وجمعيتهما إلى ستة عشر، وذلك لأن كل دورة وكورة تستمد من الأسماء الأربعة الذاتيَّة والمبادئ المربعة الإلٰهيَّة، أعني العليم والمحيي والقدير والمريد. ولكل منها اقتضاء خاص وارتضاء ماض في كل دورة دورة وكورة إفرادية وجمعية، فحصل في كل واحد منها من كل واحدة من هذه الأسماء أربعة: اقتضاء كلي وله مدّة معينة وبرهة مبينة، ومدة اقتضاء العليم في عالم الجبروت والمرتبة الواحديَّة ثلاثمائة وستون ألف دورة، وكل دورة عبارة عن ثلاثمائة وستين ألف سنة، وكل سنة ثلاثمائة وستون ألف سنة، في يوم كان مقداره خمسون ألف سنة، وتسمّى بالدورة العظمى الإلٰهيَّة النورية الوجودية، وربّ هذه الدورة هو العليم. وأعيان هذه الدورة هي الملائكة العظمى والجواهر النورية المجرّدة، والعقول العالية والأعيان الثابتة، والحقائق الإلٰهيَّة.

وأما الدورة الثانية المنسوبة إلى اسم المحيي فتسمّى بالكبرى، ومقدارها ثلاثمائة وستون ألف سنة، وكل سنة مقدارها ثلاثمائة وستون ألف يوم، ومقدار

كل يوم ألف يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدُّون. وأعيان هذه الدورة هي النفوس والأرواح المجرّدة في المرتبة الروحية والملكوت.

وأما الدورة الثالثة المنسوبة إلى اسم القدير الذي تأثيره مختص بمرتبة الخيال وعالم البرزخ والمثال فتسمّى بالدورة الوسطى النورية الجمالية وأعيان هذه الدورة المرتبة التي هي برزخ الملكوت والملك هي الأشباح النورية والمثل البرزخية، وهذه الحضرة وهي أوسع الحضرات الإلٰهيَّة وتأثير القدرة في هذه المرتبة إنما يتمّ في مدة ثلاثمائة وستين ألف سنة، ومقدار يومها هو مائة سنة. قال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البَقَرَة: 259]. ويسمى الدورة الوسطى النورية الجمالية.

وأما الدورة الرابعة وهي التي ربّها المريد، وصفة الإرادة، فهي التي تسمّى بالدورة الصغرى النورية الوجودية. وأعيانها هي الأجسام السماوية والأجرام الأفلاكية والعنصرية، ومدة تأثير المريد في هذه الدورة إنما يتم في ثلاثمائة وستين ألف سنة، ومقدار السنة هو ثلاثمائة وستون يومًا، واليوم هو المعروف أربع وعشرون ساعة. وأما الأكوار وهي باطن الأدوار وغيبها فهي أيضًا بالغة أربع، وكذا مدتها وبرهة تأثيرها أربع أرباب تأثيرها هي غيب تأثير الأسماء الأربعة الذاتيَّة، فإذا كانت فرداريّة تأثر الأسماء المذكورة صريحة كانت فرداريّة بواطنها وعيونها خفية ضمنية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحَجّ: 52] الآية. هذا إذا كان مقتضى أحدهما مباينًا للآخر، وأما إذا تقاربا وتعادلا في الاقتضاء وتناسبا في الارتضاء كان حكمهما واقتضائهما واحدًا، وإذا تقرّرت مدة اقتضاء العين وتحققت كانت مدة نقيضها معلومة محقّقة.

وأما مدة اقتضاء حقيقتهما فهي بعينها مدة اقتضاء كل واحدة منهما كمية ومغايرة لها كيفية وحالة لأنها مركبة منهما، عرضت عليهما صورة جمعية وهيئة وحدانية كالمراح فإن له صورةً وحدانية يسمّى بها واحدًا، إلا أن له كيفية وحالة بها يغاير كل واحد من المفردين، فإذًا لا بدَّ وأن يكون له مدة معينة وبرهة مبينة لها كمية وحدانية وكيفية مغايرة لهما منطوية عليهما كما علمت في المراح وأحواله، فإذًا لا بدَّ أن يكون لكل من الدورة والكورة وجمعيتهما بحسب اقتضاء الأسماء الأربعة

المذكورة وتأثير فيهما أربع حالات يحصل من ضرب الأربعة في الأربعة في الأمور الثلاثة المذكورة ثمانية وأربعون (عـه) من ضرب الأربعة في الأربعة من أحوال الأصول الثلاثة (ع ا) ومن ضرب الثلاثة فيها (رعه) فالألف إشارة إلى الأدوار، والراء إلى الأكوار، واللام إلى جمعيتهما، والكتاب هو المجموع الذي تفضيله قد ذكر وبيّن ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: 1] بأن أحدث وكوّن وأورث في كل واحد من الأدوار والأكوار وجمعيتهما أعيانًا مخصوصة وأكوانًا منصوصة هي آيات الكتاب الكريم وعلامات الخطاب العميم أي ظاهر تفصيل آيات الكتاب المبين من عند ذات حاكم في الأدوار والأكوار وفي جمعيتهما على أعيانهما وخصوصية أحكامها، خبير بأطوال ظاهر أحوالها وعالم بباطن حالاتها، كمياتها وكيفياتها.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هُود: 2] أي فصل في صحائف كتابه وبيّن في مصاحف خطابه أن لا تعبدوا في الأدوار والأكوار وجمعيتهما بأعيان الأدوار وأكوان الأكوار وبالأعيان الجامعة إلا الذات القديم الجامعة للعوالم الخمس ومقتضيات أدوار المراتب الست بتمام الحالات حتّى الذوق واللّمس إشارة إلى كمال جامعية أفراد البشر وآحاد الألسن، يعني إن حقّ أعيان العارفين السائرين إلى الله ومن الله وفي الله في الأدوار والأكوار وجامعيتهما أن لا تعبدوا إلا الذات الجامعة لتمام الأسماء والصفات بجميع مقتضياتها وعموم مرتضياتها، ويعبدوا ويشاهدوا في كل دورة وهيئة وحصة معينة الذات الجامعة على وجه لإيجاد الذات خصوصية الحصة وألا يستر الحصة الذات بل يشاهدهما معًا، وأن ترى الذات عين الحصة وبالعكس كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحَديد: 3]، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: 35]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزّخرُف: 84] في الأدوار النورية الجمالية بالأمور الجلالية الظليّة العدمية في الأكوار الجلالية الظليَّة بالأمور النورية الجمالية الوجودية ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [هُود: 2] للأعيان النورية الجمالية بالأمور الوجودية النورية والأكوان الظليّة الجلالية بالأمور العدمية الجلالية الإفرادية ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ في جمعية الأدوار الجمالية وجمعية الأكوار الجلالية الإفرادية ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ﴾ وارجعوا إلى جمعية الأفراد الجمالية بجمعية الأكوار الجلالية وبجمعية الجلالية والجمالية ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ [هُود: 3] بجمعية الجمع والإفرادية الجلالية وبجمعيتهما طردًا أو عكسًا،

وهي الصورة الجمعية المخمسة كما يدل عليه ويومئ إليه تكرار ضمير هو في الآية الأولى في الأول والآخر. شعر:

أقول وروح القدس تنفث في نفسي إن وجود الحقّ من عدد خمس

وإلى أجل مسمّى إشارة أن طور سرّ الوجود دوري، وأن دوره كوري لا ينقطع أمده ولا يرتفع عدده ومدده. ويؤت كل ذي فضل، وكمال قسط وعدل في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية الاستقلالية والنفعية الأصلية والفرعية.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ [هُود: 3] وأعرضوا عن اصطياد طيور الكمالات الأولية الذاتيّة، وشروط الأحوال القلبية والمقامات الغيبية، وأنوار المعارف الإلٰهيَّة، وأسرار حقائق الأسماء الذاتيَّة والأفعالية والآثارية ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 3] أي المحشر العظمى، وجمعية الجمعية الكبرى، وهو مجمع جميع الأعيان الكاملة والأكوان والنفوس العاملة ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريَم: 71، 72].

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هُود: 4] بأن يتحقق كلّ عين من الأعيان، وكل كون من الأكوان بعد قطع فيها في أطوار مقتضيات الأدوار النورية ومرتضيات الأكوار الظليّة الإفرادية والجمعية بالألوهية والكونية والنعوت الربوبيّة والعبودية فردًا وجمعًا وفرادًا أو معًا.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هُود: 5] إلخ، إشارة إلى أن لكل عين من الأعيان ولكل كون من الأكوان في مسالك سلوكه ومدارك تعينه وشكوكه نظرًا إلى بعث إمكانيته وصفة ألوهيته من الأطوار الكليَّة والإلٰهيَّة والكونية، والأسرار الجمعية الغير المتناهية، وصف خفي وعطف حفي حتَّى لا يطلع عليك في النشآت الأدوار الغير المتناهية فيكون في ألوهيته ونعت خصائصية هويته ولوازم ماهيته حال منظره وحال مترصّدة ومتجددة مستمرَّة، فلا يمكن لأحد من الأعيان وواحد من الأكوان في الأدوار الإلٰهيَّة والربانيَّة والأطوار الإمكانية والكيانية سماء في الأطوار الجمعية الإلٰهيَّة والكونية والربوبية والعبودية أن تستكمل في السلوك بحيث إن لا يبقى له حالة منتظرة وحالة مستمرّة، إذ التجلّيات الإلٰهيَّة الذاتيَّة والأسمائيَّة والأفعالية والإلٰهيَّة والصورة الجمعية والصورة المعبرة يتحدَّد

إفنائنا، بل في التجلّي الواحد بالصورة الواحدة، فإنه يتضمن تجليات غير متناهية عينًا وعلمًا، فإن العين الواحد باعتبار استمرار وجوده وعدم استقرار شهوده ينتظر تعيُّنات وتجدَّد هويات وتعدُّد إدراكات وشهودات غير متناهية.

ولما كان تجلّي واحد حاله كذا هكذا فما ظنّك بالتجلّيات المتعدِّدة والتعيُّنات المتجدِّدة، وضبط هذه التجلّيات حصر الإدراكات المتضاعفة والشهودات المتعاطفة بالنسبة إلى من هو غير متناه، ذاتًا وصفة، وعلمًا ومعلومًا ونعتًا، فهو ممكن غير مستحيل بل هو واقِعٌ، فمن أراد أن يتحقّق بهذا الاتحاد فعليه أن يعني في ذاته وصفاته ويبقى ويتحقق بوجود الذاتيَّة الحق، وانحصار العارف على هذه الحالة الغير المتناهية بالنسبة إلى ذاته الممكن الذي ليس وجودًا ولا عدمًا، ولا حدوث ولا قِدَم، وهو جهل وظلم لم يستحق أن يحمل الإنسانيَّة الإلٰهيَّة فإنه جاهل وظالم كما قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزَاب: 72]، وإنما يستحق إذا اتّصف بكمال الفقر والاحتياج ووفور العبودية والانزعاج فكمال العبد الممكن هو أن تجتمع فيه هذه الحالة العبدية الإمكانية مع تلك الحالة الإلٰهيَّة، كما أشار إلى هذا واجب الوجود: «**أطعني يا عبدي أجعلك مثلي وليس لي مثل**»، فالتشطيح بأنا الله وأنا الحق وبقوله: «**سبحاني ما أعظم شاني**»، ظلم خارج عن طور التحقيق والتحقيق بكمال الجمعية بالألوهية والعبودية وبكمال الفقر والغنى، وبكمال الفناء والبقاء، وبالوجود والعدم، وبالحدوث والقدوم وغير ذلك. ولا يتحقّق هذا الوصف الجمعي إلا للإنسان الكامل والكون الفاضل، والذات البحت، إنما يتحقق به، أو خلق الإنسان أولًا وآخرًا وسرًّا وجهرًا، باطنًا وظاهرًا، فتأمّل.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ذات حركة ونقلة في الأرض الاستعدادية والفرض الامتدادية في الدورة الذاتيَّة السرمدية الجامعية للدورة الإلٰهيَّة والربوبية والكونية والغيبية والعينية من الشؤونات ووجوه الهوية الغيبية في بداية التجلّي الذاتي الذي يكون بالوجوه الأحدية والعنوانات الذاتيَّة التي يتميز بعضها عن بعض بالذات لا بالوصف، والصفات الثنوية واللاهوتية والوجودية ثم ينزل من هذه المرتبة الذاتيَّة إلى المرتبة العدمية، وإلى الكورة الظليّة الجلالية التي تناسب هذه المرتبة الأحدية واللاهوتية، ومن الوجوه الذاتيَّة والشؤونات الأولية إلى الأعيان العدمية التي هي باطن الأملاك من الظلّ والجلال الذي هو عيب النور

والجمال، ثم يدبّ وينقل إلى التجلّي الأسمائي في المرتبة الواحديَّة، ومن الشؤونات الذاتيَّة إلى الأعيان الثابتة وإلى الماهيات الكونية والحقائق الإلهيَّة، ومنها إلى التجلّي الأفعالي، ومن الأعيان الثابتة والمنسوبات القلبية إلى الأعيان العينية والجواهر النورية والملائكة العالية والعقول، وهكذا إلى نهاية التنزُّلات وغاية التعيُّنات والحركات.

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وما يتقوَّم به من الذات والوجود والإدراكات والشهود، فإنَّ الدواب إنما يرزق ويتقوّم بالذات والموجودات بالوجود والمعلومات بالإدراكات والعلوم والنفوس والأرواح والجواهر الروحية بالحياة والأجسام وذوات المقادير بما يتقوَّم ويقوم ويتخلَّل ويدخل فيه، واسم الرزق يطلق على الكلّ، والرازق والموصل إلى ما يرزق ويتقدَّم هو الله. هذا في التنزيلات، وأما في الترقيات فالنازل يتخلَّل ويدخل في العالي يرفع القيود المشخصة يدخل ويتخلَّل عند رفع شخصه وتعيُّنه الحزينة في الصّيف كالهندية والرومية والتركية والكردية وغير ذلك.

وعند رفع قيود الضيفية يدخل في النوعية وعند رفع قيد الفصل المنوع يدخل في الجنس القريب كالحيوان، وعند رفع الفصل المتوسط وهكذا يتصاعد إلى الجنس العالي، أعني الجسم المطلق والجوهر والوجود المطلق ومطلق الوجود والذات البحت، فالكل داخل في مطلق الوجود ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هُود: 6] المستقر هو رحم القوة القابلة، ومستودعها الصلب القوة الفاعلية ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هُود: 6] ولوح محفوظ في كل دور وكور بنوع وطور. لما علمت من أن كلَّ دور يشتمل على قلم ولوح، وعرش وكرسي، ودنيا وآخرة، وأفلاك وأرض وسماوات، وحركات وزمان ومكان، وفي كل دورة منها أعيان متفاوتة في كل كورة أكوان متناسبة وغيره من المقتضيات الصريحة والمرتضيات الضمنية الخفيَّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الوجودية في فرداريّة الدورة النورية الجمالية والسماوات والأرض العدمية في الكورة الظليّة الجلالية الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية، وإنما جمع السماوات والأرض لأنها مظاهر القوى الفاعلية، أعني العقول والأسماء الذاتيَّة التي هي مبادئ الحقائق الوجودية والشقائق الشهودية، والأرض مظهر القوة العاملة، وهي العدم. وأيضًا السماوات مظاهر الأسماء السبعة الذاتيَّة، والأرض مظهر الذات الأحدية والوحدة الذاتيَّة العينيَّة بذاتها

بالوجود والظهور عن الغير، ولذا تحرَّكت السماوات وسكنت الأرض في ستة أيام، وهي عبارة عن المراتب الستّ، أعني اللاهوت والجبروت والملكوت والبرزخ والملك والناسوت، وإنما أثر الستّ لأنها عدد كامل مساوي كسورها، أعني النصف والثلث والسدس، وهي (١٢٣).

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: 7] والعرش عبارة عن حالة إجمالية وجمعية ساذجة منطوية على صور ما كان في صدر التفصيل، والماء عبارة عن الحضرة العلميَّة، وهي بداية كل دورة من الأدوار الأربعة الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية، وذلك لأن في بداية كل دورة من الأدوار الأربعة الأصلية والفرعية والإفرادية والجمعية خلق الله على ما يقتضي السماء السبعيَّة الذاتيَّة سبع سماوات وأرض ودنيا وآخرة بعد أن خلق قلمًا ولوحًا وعقلًا ونفسًا وعرشًا وكرسيًّا وكواكب ثابتة وسيارات وشمسًا وقمرًا ووقتًا ودهرًا وعصرًا وزمانًا حسب اقتضاء أنواع الأدوار وأجناس الأكوار. والماء هو العلم والهواء، والريح عبارة عن الحياة. ولا شكّ أن العلم مشروط بالحياة فيكون ماء العلم على الريح وهواء الحياة. والمراد من العرش هو العرش الرحماني، وعرش العلم وهو فلك الحياة، وعرش الكريم هو فلك عالم الطبيعة، وعرش المجيد هو عرش الصورة والجسم الكلي، ويجوز أن يراد من الماء ماء العلم، ومن الهواء هواء الحجب الذاتية «**كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأُعرف**». شعر:

أتاني هواها قبلَ أن أعرِفَ الهوا   فصادَفَ قلبي خاليًا فتمكَّنا

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ [هُود: 7] في الأدوار والأكوار لأن كل دورة في بدايتها ونهايتها نوع إنسان، وله نوع من العمل الوجودي، وفي كورة في بدايتها ونهايتها نوع من الإنسان الظليّ العدمي الجلالي، وهو المولود الجني الذي كان في الدورة في ضمن المولود الإنساني، وهو من جنس الأهرمن والغول والشيطان والجن، ولهذا المولود عمل عدمي كالإضلال والضلال والإغواء والسلب والنفي والتنزيه والتقديس وغير ذلك، فربما تكون الصورة النوعية الإنسانيَّة في بداية فرداريّة الدورة النورية الجمالية في الدورة العظمى ظاهرًا صريحًا بصورة الملك وبصورة أهرمن ضمنًا، وكذا في بداية الكبرى النورية يكون ظاهرًا بصورة الملك صريحًا وبصورة الغول ضمنًا.

وكذا في بداية الدورة الوسطى يكون بصورة الملك العامل، والشيخ البرزخي يتميز عن سائر الأعيان الملكيَّة بالصورة الشبحيَّة في بداية الدورة الصغرى النوريَّة يكون بالصورة الجسمية، والجن يكون ضمنًا في الصورة الجسمية، والشيطان يكون في الصورة السبحية البرزخية ضمنًا، فإذا استكملت الأدوار الأربعة النورية الأصلية والفرعية الإفرادية والأربعة الجمعية صريحًا استنبطت النورية وصرخت الأكوان الضمنيَّة الأربعة الظليَّة العدميَّة الأصلية الإفرادية والأربعة الفرعية الإفرادية، وكذا الأربعة الجمعية الإفرادية، وهي الأهرامانية والأغوال والشيطانية والإبليس والجن.

وتضمَّنت الصورة الأربعة النورية الجمالية الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية منهما أربعة، فالمجموع اثنا عشر، وهو الليل الجمالي الوجودي، والاثنا عشر المقدم هو النهار النوري الجمالي الوجودي.

فهذه الأدوار النورية الجمالية الوجودية وهي أربعة وعشرون بمنزلة الساعات يوم بليلته من الأيام الإلٰهيَّة السرمدية. وهكذا في الأكوان الظليّة الجلالية. وأربعة جمعية فالمجموع اثنا عشر ليل واثنا عشر يوم، فحصل يومان من الأيام الإلٰهيَّة السرمدية، إحداهما من الأدوار النورية، والثاني من الأكوار الظليّة وساعاتهما، وإليه الإشارة بقوله في سبعة مواضع إيماء إلى أن منادي هذه الأدوار ومنادي هذه الأكوار هي الذات بالأسماء والصفات السبع.

﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ قلت يا حقيقة محمد السارية في جميع الأدوار والأكوار لأعيان كل دورة وأكوان كل كورة ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ بعد الحياة السابقة والممات اللاحقة في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية الإفرادية ﴿مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ القول العجيب والحديث الغريب ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هُود: 7] خيالات باطلة وأوهام مختلّة لا حقيقة لها ولا تعديل بها ولا اعتماد عليها، هذا من فرط جهالتهم ومرط مهلهم أفاضته الفرداريّة الضمنية الظليّة العدمية وعجيبة عن مشاهدة الأدوار وأعيانها واختلاف أحوالها وإتلاف أطوارها بعضها عن بعض.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وزمرة ممدودة إشارة إلى علّة تمام وجوب القيام وتخلُّل ظهور الساعة بين الأدوار والأكوار، وهي أنه لو لم يتخلَّل بين الأدوار الصريحة الظاهرة أصلية كانت أو فرعية، وقيام قيامة ولم يتغيّر الحال

في أطوار أدوار الجمال لم يتبين الوجود ولم يتعيَّن الشاهد ولا الشهود ولا السنة ولا الشهور، ولم يتميّز الغيب عن الشهود ولا الغيبة عن الحضور ولم يعلم الخالق والمخلوق، ولا السابق والمسبوق، ألا يرى أنه لم يكن ليل ولا ظلمة لم يتبين النهار ولا الضياء ولا الأنوار، وبالأضداد تتبيَّن الأشياء. يعني ولئن أخَّرنا عن أعيان كل دورة يوم العذاب ويوم الألم والعقاب لغفلت أعيان هذه الدورة عن الحق ويوم البعث وأنكروه بحيث ليقولن على طريق الاستهزاء.

﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ويمنعه عن الوقوع ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ جهرًا وعيانًا وكشفًا وبيانًا ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هُود: 8] إلى قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هُود: 11] إشارة إلى تطور أحوال الإنسان وتنوُّعها، وإلى تغيُّر أطوار الأعيان وتنوعها، وذلك لانتشائها عن أسماء متقابلة الاقتضاء وعن أشياء متباينة الارتضاء، ففي كل وقت وزمان ومدة وأن يظهر من كل أسماء وسبب في الإنسان وتمام الأعيان نوع من الاقتضاء وأثر وفرع من الارتضاء، فلا بدَّ من قائد سائس وهادٍ آيس ليصرفها إلى جهة وحدة ذاتية وحقيقة أصلية، وهو الناموس الإلٰهي والجاسوس الآمر والناهي ليبيِّن لهم ما هو الحق والأمر الأليق المحقّق، وهو الوحي والنبوة والحكمة والولاية ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: 269].

تفسير

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ هذا أدب من الله لنفسه وتحريضًا على طاعة الله، والله من رأى ذلك له بالعصمة ولكنه يخاطبها لأصحابه ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يريد أو لا أُنزل عليه ملك، يريد ملكًا من الملائكة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ يريد تنذر من عصاني وتخوِّفه عذابي وسطواتي ونقماتي ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هُود: 12] يريد شاهدًا وقادرًا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يريد القرآن ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ يريد بعشر فرائض فيما افترضت مفتريات منتقلات ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد شفعاءكم من دون الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هُود: 13] يريد إن كنتم فاعلين.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ يريد يصدقوكم ويؤمنوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي جاء به محمد ﷺ ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم﴾ يا معشر أهل مكة ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ [هُود: 14] يريد موحّدون.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد تعجيل الدنيا ولا يؤمن بالبعث ولا الثواب ولا العقاب ﴿وَزِينَتَهَا﴾ يريد وما فيها من الشهوات ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يريد يعطيهم ذلك وافرًا غير منتقص ﴿فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هُود: 15] لا ينقصون في الدنيا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد القيامة ﴿إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ [هُود: 16] يريد من أعمال البر في الدنيا لكفرهم بالنبي ﷺ ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هُود: 16] يريد ما يريدون به وجه الله مثل قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الآيتان: 103 - 104]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغَاشِيَة: 1]، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغَاشِيَة: 3 - 4]. إن الله لا يقبل عمل المشرك ولا تكذيب أنبيائه.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يريد التوراة ﴿إِمَامًا﴾ وقدوةً يقتدى به ﴿وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾ يريد الذين صدّقوا النبي عليه السلام من أهل الكتاب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [هُود: 17] يريد الذين كذبوا الأنبياء من قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾ [سَبَإ: 31] يريد التوراة والإنجيل ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ يريد مصيره ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ﴾ يا محمد ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد أنه اليقين من ربّك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هُود: 17] يريد لا يصدِّقون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يريد كذّب على الله مثل قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ويريد الأنبياء والملائكة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ يريد زعموا أن الله له ولد وشريك ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: 18] يريد المشركين.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد الذين يصدُّون عن سبيل الله عن دين الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريد العوج عن طاعة الله وعن اتّباع مرضاته ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هُود: 19] يريد جاحدون من البعث والثواب والعقاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد لم يعجزوني أن آمر الأرض فتخسف بهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يريد من يعبدون فيمنعهم مني ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ يريد يوم القيامة ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ يريد يسمعون شيئًا من عظمتي وجبروتي يريد خلقت بينهم وبين إيماني ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هُود: 20] كما قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الآية: 24] يريد يحول بين المؤمن، وهو أن يكفر به ويحول بين الكافر وبين أن يؤمن كما قال في سورة السجدة: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [الآية: 13] ولكن حقَّ الحق مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ﴾ يا محمد تارك بعض ما يوحى إليك.

أقول: بترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين وغرضهم مخافة ردهم واستهزائهم ومنعهم واستخفافهم، وذلك أن كفار مكة قالوا: إئت بقرآن لا يكون سبَّ آلهتنا، فهم الرسول وقصد أن يدع آلهتهم ظاهرًا ولا يلزم من توقع الشيء وترجيه وهم وقوعه لجواز أن يمنع وقوعه والتوجه إلى عظمته وكبر نفسه عن ارتكاب مثل هذا. وضائق به صدرك، عطف على تارك مخافة أن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ أي هلا أنزل ما اقترحنا وحاولناه منه بنفقة على العساكر والأجناد كما هو شأن الملوك والسلاطين، أو جاء معه ملك يصدقه ويعينه على أعدائه. قيل: ضمير به مبهم تفسيره أن يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك ولا عليك شيء إن ردوا أو اقترحوا أو تهاونوا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هُود: 12] حافظًا أمره، فتوكل عليَّ ووكِّل وفوِّض أمرك إليّ، فعلمهم ما يجب أن يفعل، فعليك تبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح صحيح غير ملتفت إلى استكثارهم ولامتثال تسفههم واستنكارهم واستهزائهم.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أم منقطعة والضمير لما يوحى ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ﴾ من الكتاب ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ في البيان وحسن النظم وكمال الفصاحة وارتفاع شأن البلاغة ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ صفة بعد صفة هذا ينزل يعني إني افتريته واختلقته عند نفسي، فأتوا

أنتم أيضًا بكلام مثله وأنتم أصحاب لسان وأرباب دراية وبيان مثلي بل أنتم سمعتم كلام البلغاء ومرام العقلاء والفصحاء، فلو كان من المخلوق لأنتم أحق من الإتيان بمثله ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ واستغيثوا بمن اقتدرتم عنه واستعينوا عمَّن استطعتم الاستغاثة به في الإتيان بمثله لدى التحدِّي والمعارضة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هُود: 13] بأني مفترٍ وآتٍ من تلقاء نفسي.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ من يدعون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المظاهرة والاستنصارية على التحدي والاستبصار بالعجز عنه وإن طاعتهم أقصر واستطاعتهم أضعف وأفتر ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وأرسل من القرآن فهو من الله و﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ ومشيئته وإرادته، أي ملتبسًا بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق وإخبار بعيوب لا طريق لهم إليه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده لا طريق لهم إليه. والجملة الإنسانيَّة جواب البشر بتقدير القول، يعني يا معاشر المعارضين إن شركاءكم إن لم يستجيبوا لكم في الانتصار بأتيان مثل القرآن فاعلموا أنه من الله بعلم الله لا قدرة للبشر في إتيان المثل له ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هُود: 14] أسلموا إسلامًا حقًّا أو أخلصوا أو أثبتوا على الإسلام مخلصين له الدين حنفاء، إخبار اللفظ وإنشاء المعنى.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعلمه وطاعته ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ولذَّاتها وجهاتها ﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ﴾ ونوصل ﴿إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وأجورها وافية كاملة ويوفر إليهم شرباتهم توفية وافية شاملة فيها ﴿فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هُود: 15] ولا ينقصون من أجورهم في الدنيا من الصحة والرزق والسعة. نزلت في حقّ أهل الرياء والنفاق والكفرة أهل الأهواء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفرق المذكورة ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ نصيب وخلاق ولا سهمٌ ولا أرزاق ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ مطلقًا في مقابلة أعمالهم لأنهم ما استوفوا ما تقتضيه صورة الأعمال الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السّيئة ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾ أي ضاعت وزالت مصنوعاتهم أو صنائعهم من الحسنات والخيرات والمبرّات لصرف همَّتهم وضعف إخلاصهم ونيّتهم الخالصة التي تجعل الأعمال والخيرات والحسنات هوية لله والعوامل الجزئية على طلب الثواب ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هُود: 16] أي كان عملهم في نفسه باطلًا والعامل عاطلًا، الخلوة عما يصحِّح العمل ويفلح أهل العمل.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ من برهان ودليل وحجّة حاصل ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يدلّه على الحق ويدلّه على الصواب والصدق، الهمزة للإنكار الذي أعني عن ذكر الخير ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كمن كان يريد الحياة الدنيا ويريد الآخرة، وهذا حكم يعمّ كل مؤمن مخلص.

قيل: المراد به هو النبي عليه السلام، أو مؤمن من أهل الكتاب ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو طريق الحق والعلم ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي من الله يشهد ويحكم بصحته، وهو القرآن ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ [هُود: 17] وهو التوراة، فإنه أيضًا يتلوه في التصديق. وقيل: البيِّنة القرآن، ويتلوه من التلاوة وهي القراءة، والشاهد جبرائيل، ولسان الرسول وترجمانه على أن الضمير له أو من التلقِّي وهو المتابعة والشاهد ملك يحفظه.

وذهب بعض من أهل التفسير: هو علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وضمير منه لمحمد. وفي (يتلوه) إما لمن أو للبينة باعتبار المعنى، أو المرادف، وقرأ كتاب بالنصب تخلفًا على الضمير في (يتلوه) أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بيِّنة وإنّه على حق لقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأحقاف: 10]. ويقرأ من قبل القرآن والتوراة، أولئك الذين كانوا على بيِّنة يؤمنون به ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ الضمير للقرآن من الأحزاب من أهل مكة أو من الكفار الذين تجرؤوا على الرسول ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي شكّ من القرآن، وقد تحقّق ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الكائن ﴿مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هُود: 17].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وزعم أن له ولدًا أو شريكًا ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ المفترون المكذِّبون الكاذبون ﴿يُعْرَضُونَ﴾ يوم القيامة مع الشركاء ويسألون عنه وعن أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [هُود: 18] أي الملائكة الذين يحفظون أو الأنبياء أو أمة محمد ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ [البَقَرَة: 143] على الناس أو جوارحهم، أو الله. قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله، هؤلاء يقولون الذين كذبوا على ربّهم بأنه اتخذ ولدًا وشريكًا، فيقال على رؤوس الأشهاد ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ جزية وبعدة وعقابة على القوم الكاذبين ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: 18].

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينه وهو الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

ويصفونها بالاعوجاج ويوقعون أهلها في الانزعاج، أو يطلبون عن أهلها أن الحق في نفسها مستقيمة، والسائرين السالكين عليها مهتدون ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هُود: 19] وإعادة ضميرهم إشعار بانحصار كمال الكفر عليهم، وبأن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الكافرون ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ الحق ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أن يعاقبهم في الدنيا إذا أراد عقابهم وشاء عذابهم يعني لم يوجد أحد أن يعجز الله ويمنع الله عن مؤاخذتهم ومعاقبتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ في الإعجاز والمنع ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ منه يتولاهم فينصرونهم منه ويحفظونهم من عذاب ويمنعهم من إجراء العقاب عليهم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لانتفاء استطاعة الاستماع والإنصات ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هُود: 20] واستماع الحق لفرط تضامنهم وربط تضامنهم لشدّة القوابل عن قبول الحق واستماعه ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هُود: 20] لتعاميهم عن آيات الله ومشاهدتها لانتفاء قوة البصيرة.

إشارة وتأويل

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ إلخ إيماء وتلويح، إن وصف بعض الإمكان في العارفين المتمكنين في الزمان والمكان يقتضي أن يكون سيرهم في مسيراتهم في الأدوار النورية والظليّة، وناقصًا ليبقى لهم في التحقق بالألوهية والربوبية هالة منتظرة لتميز التأله والترتب عن الألوهية والربوبية أن يقولوا: لولا أنزل عليه ملك على مقتضى النور والجمال ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هُود: 12] على مقتضى الظلّ والجلال، ويستكملون عند العود إلى تلك الدورة وتلك الكورة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: 66] الناقص من السير والسلوك في الخير والشر والنفع والضر إلا أن الحالة المنتظرة باقية غير مرتفعة أصلًا لأن الألوهية والكونية والربوبية والعبودية مبدأ ولتأتِ على وصف النور والجمال والظلّ والجلال، وهما متواردان على الوجود المطلق وبالذات البحت المحقق.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعني أن الحقيقة المحمدية السارية في الأعيان والأكوان من حيث إنها ممكنة لا تقتضي شيئًا لا صريحًا ولا ضمنًا في الأدوار والأكوار، بل المقتضى والمظهر في جميع الأحوال في نشأة الجمال والجلال هو الذات الكاملة في ذاته بذاته التي لا يكون لها حالة منتظرة بل تمامُ الكمالات الذاتيَّة

والأسمائيَّة والأفعالية والآثارية الكونية حاصلة لها بالفعل، ثابتة عندها غير غائبة عنها أصلًا طرفة عين، فلو كانت الحقيقة المحمدية مؤثرة لكانت كل ذرةٍ جزئية حقيرة مؤثرة تساوي أقدام المتمكنين في لوازم الإمكان. وإنما قال ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هُود: 13] إشعارًا بأن الصورة الجمعية الكمالية الإنسانيَّة والهيئة الكليَّة الآدمية هي عشرة كاملة، ولذا انحصرت مجالي أنوار جزئية الأفضل وهو حقيقة العقل على العشرة إشارة إلى أن العقول العشرة كلها متأثرة من الله وقابلة من الله بالذات الإلٰهيَّة الظاهرة آثارها في أجزاء بدنه وأطراف بنيته العالية والمتوسطة والسافلة (ع ق ل) ظاهرة يشعر إلى هذا وإلى أنه اجتمع الكل في مظهر كامل وكون فاضل فاعل وقابل ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طٰه: الآيات 1- 3] طٰه فاعل ونهاية الآحاد أعني الذات بتمام الأسماء والصفات الذاتيَّة وهو آدم (ط ح زوه دج ب ا) فالمجموع (٦٥) أعني آدم و(لا) قابل وهو حوا (لادج ب ا) والمجموع هو (١٥) بالطاء سين (عع) وهو الله (ا ل ل ع ع) ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: 13] إشارة إلى أن كلّ حدّ وفرد له بحسب أصل الفطرة ومقتضى طور الحقيقة صلاحية أن يتحقق بما يتحقق كل كامل.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي كلما هو بصدد تفصيل من أعيان الأدوار وأكوان الأكوار لجميع الأطوار من الظلام والنهار، فهو بعلم الله وقضائه وحكمه وإرادته وقدرته ومشيئته وأنه في الحقيقة هو الصورة العلميَّة الظاهرة في المرتبة الأولى الإمكانية بالصورة العقلية ثم بالنفوس والأرواح وبهيئات الأشباح، وبصور أعيان الملك والشهادة وبجمعية الناسوت ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ﴾ في الأدوار والأكوار ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي ذات محيط بالعوالم الخمس والمراتب الستّ (هي و) ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هُود: 14] في الفطرة الأولى في الدورة الأخرى في الجمعية العظمى عند ظهور الخلافة العظمى وشهود الإمامة الكبرى كما مرّت الإشارات فيه، مسلمون في الفطرة وفي الدورة الأخرى إليها، والعبارة الكافية لديها في سورة يونس في عشرًا ثم إذا ما وقع آمنتم به.

لأن ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وأطوار اسم الظاهر في الأطوار الأصلية والوجودية النورية الجمالية وزينتها في الأدوار الفرعية النورية ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وأحوالهم الظاهرة على ما يقتضيه النور والجمال ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ [هُود: 15] ولا يمكن أن يبخس وينقص لأن أطوار الوجود وأنوار المشاهدة وأسرار الكشف والشهود دورية، والدور إنما يتم إذا تتابعت الأجزاء الدورية من غير أن يتقدم ويتأخر أو يتخلف ويتقدم جزءًا منها إلى أن تتمّ الدورة سيما إذا تطابقت الأدوار وتوقفت الأكوار التسعة المنظمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأعيان الإفرادية الذين يقيدوا بالأطوار الإفرادية والآثار الكنانية الوحدانية ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي الجمعية الإلٰهيَّة والكونية والهيئة الكليَّة الإفرادية والوحدانية الدورية والكورية النورية الظليّة ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي نار القطيعة من الكمال الجمعي والجمع الكمالي. وإنما اختصّ العذاب بالنار لأن من بيانها تفريق المتخلفات وجمع المتماثلات، فالجمعية لا تحصل إلا بالنار التي هي مظهر المحبة الذاتيَّة التي هي غيب الذات وتعانقت فيها تمام الأسماء والصفات ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هُود: 16] في الأدوار الإفرادية الفرعية كما حبط ما صنعوا في الأدوار الإفرادية النورية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ [هُود: 17] كشفية جمعية حاصلة من ربّه الجامع بين الأدوار والأكوار الإفرادية، والباقي ظاهر.

تفسير

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [هُود: 21] يريد حقًّا أنهم في الآخرة هم الأخسرون، يريد يوم القيامة هم المبعوثون.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هُود: الآيتان 22، 23] نزلت في أصحاب النبي ﷺ ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هُود: 23] يريد خشعوا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم ضرب مثلًا للمؤمنين والمشركين، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ يريد المشركين والمستهزئين والمقسمين ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ يريد أصحاب النبي عليه السلام ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هُود: 24] أفلا تتّعظون يا أهل مكة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يا محمد ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ من عذاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾ [هُود: 25] يريد أيضًا من العذاب.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هُود: 26] يريد وجيعًا، يريد الغرق الذي أصابهم ثم صاروا بعد ذلك إلى النار.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ يريد الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ يريد إنسانًا مثلنا، يريد لا فضل لك علينا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ يريد من قومنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هُود: 27] يريد المشركين الذين لا عقول لهم ولا شرف ومال مثّل تعالى في الشعراء: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: 111]، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ يريد التكذيب ولِما جاء به من النبوة وأهل الفضل كله إلا في النبوة ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾ من الـ﴿كَٰذِبِينَ﴾ [هُود: 27] يريد ليس هذا من الله ولا نعبد الله بهذا، يريد به نوحًا أو من آمن به معه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ نوحٌ ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [هُود: 28] يريد على تعيين

من نبوة ربّي وعظمته ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يريد النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هُود: 28] يريد شهادة أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا ضدّ ولا صاحبة ولا ولد له ولا كفوّ ولا نظير له.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ﴾ يريد على ما أدعو إليه من توحيد الله وعظمة ذاته أنه لا شريك له ولا ولد له ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ يريد إن ثوابي في الآخرة على الله قد وسع عليّ في الدنيا وإني عليكم بالله لمستعين ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [هُود: 29] مثل قوله في الشعراء: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: 114] يريد الذين صدّقوا أنبياءهم ووحّدوا الله ولم يعدلوا به شيئًا ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29] يريد تجهلون ربوبية ربّكم وعظمته وجبروته وسلطانه.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ﴾ يريد إن طردت المؤمنين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هُود: 30] يريد أفلا تتّعظون.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أقول: وعيّنوا أنفسهم بإسراء عبادة الآلهة الباطلة واستبدالها بعبادة الله وكان خسرانهم أعظم خسرانًا وضلالتهم أشدّ ضلالة واطمئنانًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب وزال عن حضورهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [هُود: 21] من الآلهة وشفاعتها أو خسروا بما بدلوا أو ضاع عنهم ما كسبوا وحصّلوه، فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقًّا وبلى، أو لا محالة، أو لا بدَّ ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هُود: 22] من غيرهم. وقد فسّر في مكان آخر لا أحد أبين وأكثر خسرانًا منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ واطمأنوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هُود: 23] وخشعوا له وتواضعوا لديه من الخبت وهي الأرض المطمئنة. قيل: خافوا أي أنابوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هُود: 23] دائمون دوام السماوات والأرض.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ وهو من باب اللفّ والطِباق وفيه تشبيهان، أحدهما: تشبيه الفريقين بمشبهين اثنين كما شبّه امرئ القيس في شعره:

قلوب الطير بالخشف والعناب

والثاني تشبيه بالذي جمع بين العمى والصمم أو الذي جمع بين البصير والسميع على أن يكون الواو لعطف الصفة على الصفة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ الفريقان ﴿مَثَلًا﴾ تشبيهًا أو صفة أو حالًا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: 24] وتتعظون وتتبصرون بالمتمثلين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ﴾ أي بأني لكم أي مثّلنا بهذا الكلام بفتح الهمزة إذ اتصل به الجار، وبالكسر إذا انفصل على تقدير القول ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هُود: 25 - 26] هذه الجملة المصدّرة بأن بدل من ﴿إِنِّى لَكُمْ﴾ بدل الكل، وإن تفسيره متعلقة أو بنذير ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ علة لنهي العبودية ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مصدر مضاف إلى الظرف على التوسع وهو فاعله على المجاز المرسل مضاف.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحقّ منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر فجعلها فيها، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ والأشراف الذين يملأ القلوب بهيبهم والمجالس بأبهتهم وعظمتهم ويمتلأ الأذهان بإزائها العنانية وأنت موازٍ لهم في المنزلة والشرف إلا أنك لست بأحقّ منهم ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ جمع أرذل وهو الساقط الذليل بادي الرأي ظاهر الفكر، أو من غير التأمل والتدبُّر والاستبصار والتبصُّر ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ ومزية ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هُود: 27] الإصرار للترقّي في القدح والمنع يعني أنت كاذب فلا تستحق النبوة فأنت أسقط منّا إذ الكذب أقبح القبائح.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ [هُود: 28] أخبروني وانبئوني أني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وبرهان وحجّة وشاهد يشهد بصحة دعواتي ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً﴾ وأعطاني البيّنة ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ على أن البيّنة في نفسها رحمة، ويجوز أن يريد بالبيّنة المعجزة، وبالرحمة النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وخفيت ﴿عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أأكرهكم على قبول، وأقسركم على الاهتداء ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هُود: 28] أي تكرهونها و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى

ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256] الآية، غير مريدين لها.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الوحي والإنذار به ﴿مَالًاۖ﴾ ومآلًا وجعلًا ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ دلَّ على أن القوم طلبوا من نوح طرد المؤمنين ومنعهم من مصاحبته لـ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [هُود: 29] أي صائرون إلى ربّهم، سائرون إلى مبدئهم ومعادهم، صابرون على البلاء من أهل البلاد من سائر العباد، هذا عادة مستمرّة من هداية سنَّة الله التي قد خلق من قبل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزَاب: 62] كما جرت في زمان نبيِّنا ﷺ، ونزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعَام: 52] إلى آخرها، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هُود: 29] تتسافهون على المؤمنين وتتساءلون على الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله بالطرد ويدعونهم أراذل ويستخفونهم ببادئ الرأي.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هُود: 30] من يمنعني من عذاب الله ويعصمني، ومن غضب وسخط يعفيني في الخلاص عنه والنجاة عن بأسه.

إشارة وتأويل

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتقييدهم وحبسهم وتقليدهم بالأحكام الفعلية والأعلام الوهمية واعتكافهم على العبادات البدنية والعادات النفسية واللذَّات الطبيعية ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [هُود: 21] اقتداء بالآناء الفعلية والأمهات النفسانيَّة واعتمادًا على أوثان المشتهيات النفسانيَّة وأصنام اللذَّات الوهمية فحينئذ احتجبوا عن شهود التجلّيات الإلٰهيَّة، والمشاهدات الغيبية، والمكاشفات القلبية، وما بقي من هذه القيودات على صورة وهيئة شاهدوها في الدنيا بل انقلب العذاب عذابًا والفرح ترحًا والسرور والمنافع ضررًا وشررًا ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هُود: 22].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الدورة العظمى ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هُود: 23] في الدورة الكبرى بالقوى الروحانية وفي الدورة الوسطى بالمنادي النفسانيَّة والجوارح الجسمانية البدنية ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الدورة الصغرى النورية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هُود: 23] خلود السماوات الأدوار

والأكوار المزبورة، والجنَّة هي الجمعية في مقتضى الأدوار النور ومرتضيات الأكوار الظليّة.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ [هُود: 24] أي الأعيان الإفرادية النورية وأكوان الظليّة الوحدانية والأعيان الجمعية من الأعيان والأكوان الإفرادية، أو المراد من الفريقين هم أرباب النظر والاستدلال، وأصحاب الكشف والشهود والانتقال من طور علم اليقين إلى عين اليقين ومنه إلى حقّ اليقين، الذي رأى صاحبه بعين الله ونظره كما قال: «**رأيت ربِّي بعين ربِّي**»، «**اتَّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هُود: 27] لأنهم نظروا بعينيهم العمي فما رأى من أهل الله الذين اتبعوا رسول الله ونبيّه ما رأوا من نبي زمانهم وأتباعهم الكرام الذين نظروا لله بعين الله إلا الصورة الظاهرة وما نظروا إلى معانيهم الإلهيَّة التي لا يشاهدها ولا يدركها ولا ينظر إليها إلا بنظر الله ونوره، كما قال: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [هُود: 29] وساقوا إلى مبدئهم ومعادهم.

تفسير

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مفاتيح الغيب والرزق ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يريد ما غاب عني من أمركم وغيره إلا ما يأتيني من الوحي من ربِّي ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي ملك يريد من الملائكة ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ يريد تحتقر أعينكم المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: 31].

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ يريد قد حاورتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هُود: 32] تكذيبًا له، يريدون أنك كاذب.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ فردّ الأمر والمشيئة إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هُود: 33] يريد أن الله لا يعجزه شيء أراده.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ إذا كان في علم الله أن لا يؤمنوا بي ولا يصدّقوني ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ يريد أن يضلّكم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يريد هو إلٰهكم وسيّدكم وخالقكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هُود: 34] يريد تصيرون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني أن قومي قالوا: افترى ما جاء به من عند نفسه ولم يبعثه الله إلينا، ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ يريد من عندي ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ يريد الذي أجرمت وليس هو عليكم ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هُود: 35] يريد زعموا أن لله شركاء أو شبهًا أو مثله شيء.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ يريد فلا تغتمّ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الشرك والتكذيب. فلما جاء هذا من عند الله دعا على قومه فأجابه الله فندم على دعائه عليهم وأوحى الله إليه: إن دعائك وافق قدري ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هُود: 36] يريد فلا تغتمّ.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يريد السّفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ يريد أنه أوحى الله إليه كيف يصنع الفلك، يعمل بالوحي ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: 37]

يقول: لا تراجعني ولا تجاوزني ولا تسألني.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يريد أشراف قومه ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزؤوا به ﴿قَالَ﴾ لمعرفته بالله ونفسه ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ يريد إن تستهزئوا بنا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هُود: 38].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يريد وعيدًا وتهديدًا ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هُود: 39] يريد يجب عليه عذاب دائم، يريد الغرق ثم النار بعد ذلك دائم مقيم لا ينقطع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يريد علامة فيما بينه وبين الله ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يريد التنور الذي يخبز فيه الخبز، فإن ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ يريد في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يريد زوجًا والأنثى زوجًا ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ يريد مَن كان في علمي أنه يغرق بفعله وكفره ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ يريد مَن صدَّقك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: 40] قالوا والله أعلم: يمنعون إنسانًا.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هُود: 31] أقول: ردّ عليهم حيث قالوا ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هُود: 27] يعني أنا لا أدّعي فضلًا كما زعمتم ولا أقول عندي خزائن الله وأعلم الغيب، ما أدَّعي علم الغيب والإخبار عنه حتّى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، وحتى أطّلع على نفوس أتباعي ﴿وَحِيلَ﴾ [سبأ: 54] لمن مكرني وقصدني بالمكر والحيل وأعلم ضمائر قلوبهم وسرائر عيوبهم ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ولا أدَّعي لديكم ﴿إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 50] حتّى تقولوا لي ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: 154] ولا أقول وأحكم على مَن استرديتم به من المؤمنين بالطرد والنفي لفقرهم وضعف حالهم وقلّة منازلهم وكثرة عيالهم، ولا أقول للذين

تزدري وتستحقرهم أعينكم من الافتعال من ذرى عليه إذا عابه، وذلك كما قلتم هم أراذلنا بادئ الرأي لن يؤتيهم الله خيرًا في الدنيا ولا في الآخرة، والله أعلم بما في أنفسهم من الخير والشر، إني إذا قلت هذا كنت في هذا الوقت من الظالمين المتجاوزين عن الحدّ، الواضعين الأمر في غير موضعه.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ﴾ يا نوح لما أجاب نوح لهم على قانون العقل وأفحمهم وما بقي لهم سؤال وجواب، وسدّت لهم طرق المناظرة والمناقضة والمعارضة عليهم قالوا: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ المخاصمة بنا والوعيد علينا، وإنما قالوا في معرض المعارضة لنوح قد جادلتنا لإفحام نوح إياهم وإسكاتهم بحيث لم يبق لهم سوى المكابرة والجدال والمعاندة، فنسبوا ما هم عليه، وتكالبوا لديه إلى نوح لفرط جهلهم ووفور تعنُّتهم ﴿فَأْتِنَا﴾ يا نوح ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب وسوء العقاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هُود: 32] في وقوع المواعيد وفروع المعاهيد.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم﴾ ويعجلكم ﴿بِهِ﴾ أي بالعذاب الموعود والعقاب المعهود ﴿ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ واقتضت الحكمة الإلٰهيَّة والمشيئة الذاتيَّة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هُود: 33] جاعلين الله عاجزًا وذليلًا في إتيان العذاب وإرساله وإنزاله وإيصاله بالدفع والهرب عنه والرفع والاختفاء والمنع. أي ما قلت لكم ومنعتكم عنه ليس للجدال والخصومة بل كان على طريق الموعظة، والحال أنه ما وقع عندي في موضع النصح وحيز القبول ومحلّ الفتح.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هُود: 34] أي سبب النصيحة على سبب التجدُّد والاستمرار والتعدُّد والتبدُّد ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم في هذا الوقت لا ينفعكم نصحي وإلا لزم خلاف مراد الله مع أن إرادتي أيضًا بإرادة الله ومشيئته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسَان: 30] الآية ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هُود: 34] أي كل ما هو خير لكم فالله يريد لكم ويظهر لكم ويريكم به وإن كان في الظاهر يتراءى شرًّا ويتوهم مكروهًا وضرًّا ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: 216] فله الحكم والأمر ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هُود: 34] فيجزيكم بأعمالكم إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ على الله فـ ﴿قُلْ﴾ يا نوح لقومك ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ﴾ عقوبة

﴿إِجْرَامِى﴾ ونكاية عصياني وآثامي ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ﴾ وبعيد ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هُود: 35] أي من إجرامكم، لا أبالي بمعاداتكم وانتساب الإجرام إليّ وادّعاء الجدال عليّ.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾ ولا نصدق أبدًا ولا بدّ عن أمر في هذه النشأة ﴿مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هُود: 36] في الأزل ومقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: 172]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله. قال النبي ﷺ: «**خلق الله الخلق في ظلمة ثم رشّ عليه من نوره فمن أصابه فقد اهتدى، ومَن لم يصبه فقد ضلّ وغوى**». عن ابن عباس رضي الله عنه: إن قوم نوح قد كانوا يضربون نوحًا حتّى سقط وغشي عليه، فيلفونه في لبد ويطرحونه في بيت خليٍّ ويظنون أنه قد مات، فيخرج في اليوم الثاني كما كان ويدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى. وروي أن شيخًا منهم جاء واتكأ على عصاته ومعه ابنه، وقال لابنه ووصّاه: يا بني لا يغرنّك هذا الشيخ المجنون، مشيرًا إلى نوح، فقال ابنه: يا أبت أعطني عصاك، فضرب به رأسه حتّى شجّه شجة منكرة ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ الآية إلخ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تقنط ولا تحزن حزن يائس مستكن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هُود: 36] من التكذيب والإيذاء والضرب والإهانة، إذ قد آن الانتقال وزمان الامتحان والإهلاك بالعذاب العام والعقاب التام وظهور طغيان ماء الطوفان لإغراق القوم من المشايخ والصبيان وعموم الشبّان من الذكور والنسوان. فإذا دعا نوح عليهم: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نُوح: 26].

فأوحى الله إليه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حالة من فاعل الأمر، أي اصنعها محفوظة عن الزيغ والاختلال في صنعها متلبسًا ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ إليك وإلهامنا وإلقائنا ما لديك علم الصنعة وإنزاله عليك وبحفظنا مصنوعك عن تعرُّض الأعداء بأن يحول بينك وبينهم في عملك ورجائك وطول أملك ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولا تدعوني في شأن صبيانهم وبيان وقايتهم باستدفاع العذاب بكمال شفقتك ووفور عاطفتك عليهم وشفاعتك لهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: 37] أي لأنهم محكوم عليهم بالإغراق وعموم الغرق بينهم والافتراق، فإني قضيت بالحكم الأدنى والعلم الكليّ بإغراقهم.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هُود: 38] فلما أخذ نوح في صنعة الفلك فتهيّأ الآلات الحديدية من الفأس من المنقار والمطرقة والمنشار وقطع الخشب وجعلها قِطعًا،

فإذا يمرّ قومه عليه ويسخرون بأنك قد دفنت في حالك بأنك تركت النبوة وتركت الدعوة وآثرت صفة النجار وصار عملك عمل الفجار، وجعل العقم في نسائهم فقلّ التولُّد والتوالد. وفي التوراة: أنه صنعها من خشب السَّاج، وجعل طوله ثمانين ذراعًا وعرضه خمسين وسمكه ثلاثين والذراع إلى المنكب وجعلها ثلاثًا من طبقات، ففي الطبقة الأعلى سكن هو وأولاده ومن تبعه ووضع فيها ما يحتاج إليه من الزاد والراحلة وغيرهما من الضرورات. وفي الوسطى الوحوش والسِّباع. وفي الأسفل الدواب والأنعام.

قيل: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة والمعروف هو الألف، وكلا الوجهين صحيح، والتفرقة إنما هي في مقدار الذراع في العظم والصغر. قيل: كان نوح يغرس الأشجار مائة سنة ويقطعها مائة سنة، وعملها ثلاثين سنة، فلما كثرت أوراث الدواب أوحى إلى نوح أن اغمز واضرب ذنب الفيل فحصل منه خنزير، فاقتتلا على الروث، ولما وقع الفأر وتخربت السفينة بقرضها وقطع حبالها أوحى الله تعالى إليّ أن اغمز واضرب بين عيني الأسد، فضرب وخرج من منخريه سنور، فاقتتلا على الفأر وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ويقولون: ما تصنع يا نوح؟ يقول: أصنع بيتًا يمشي على الماء، فيضحكون ويمازحون ويستهزؤون بعمله.

وفي الكشاف: اتَّخذ السفينة في سنتين وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون وطولها ثلاثون ذراعًا، وجعلها ثلاث بطولٍ، فحمل البطن الأول له ولمن تبعه مع ما يحتاج إليه من الزاد والراحلة وحمل معه جسد آدم، وجعله معترضًا بين الرجال والنساء. روي أن الحواريين سألوا عنه عيسى عليه السلام لو تعيَّنت [من] رجالنا من شهد السفينة يحدِّثنا عنها فانطلق بهم حتَّى انتهوا إلى كثيب من التراب، فأخذ كفًّا من ترابه فقال: أتدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، قال: فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، فإذا هو شيخ، فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا متُّ وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ذلك شبت. قال: حدِّثنا عن السفينة، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وحكى إلى آخره ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد ترابًا.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ ويجب أن ينزل عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ والمعنى بالعذاب عذاب الدنيا، وهو الغرق، ومن العذاب المقيم هو عذاب الآخرة والمنصوب بصلته منصوب ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هُود: 39].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وعذابنا في الدنيا، متعلّق بيصنع وهي التي يبتدأ الكلام بعدها دخلت على الجملة الشرطية وما بينها حال من الضمير في تصنع. والحال إذًا أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع الماء فيه وارتفع من الفوران وهو الغليان. اختلفوا في التنور، قال البعض: هو وجه الأرض أُلهِمَ نوح أنه إذا رأيت الماء فارَ على وجه الأرض فاركب السفينة.

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أنه قال: (فارَ التنور) أي طلع الفجر ونار الصبح. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان تنورًا من حجارة وكانت حواء عليها السلام تخبز فيها فصار ينقل إلى نوح وموضعه كان في ناحية الكوفة. واتخذ نوح السفينة في جوف المسجد في الكوفة وكان التنور على عين الداخل مما يلي باب كنده، وكان فوران الماء منه وقال: بالشام بموضع يقال له عين وردة. عن ابن عباس: أنه كان بالهند والكلُّ واقع صحيح لاحتمال أن يكون لآدم في هذه الأماكن والمواضع نتوء أو بدأ فوران الماء من الكل في وقت واحد على سبيل الاتفاق، أو على طريقة اللزوم.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ﴾ نوع من الحيوانات المنتفع بها ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيد، نادى نوح: كيف أعمل من كل زوجين، فأمر الله الكل أن يحشر عنده فجعل يضرب بيده اليمنى الذكر واليسرى الأنثى. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على زوجين أي احمل كل زوجين أهلك وأولادك وعيالك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ وقضى ﴿عَلَيْهِ﴾ في الأزل علمه تعالى ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ والأمر بالهلاك وامرأته واعلة وابنه كنعان وغيره ونسائهم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: 40] من الغرق وهما ثمانية نفر، زوج وامرأته وثلاثة بنين سام وحام ويافث ونسائهم.

وقيل: كانوا عشرة يسوي نسائهم نوح وبنوه وستة أناس كانوا آمنوا به وأزواجهم. عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان في السفينة ثمانون رجلًا ونسائهم، قيل: كانوا تسعة وتسعين زوجته السليمة وبنوه الثلاثة ونساؤهم واثنان وسبعون رجلًا وامرأة نصفهم نساء ونصفهم رجال.

قال ابن عباس: أول من حمل نوح من الدواب والطيور والدرّة وآخره الحمار، فلما دخل الحمار دخل صدره فتعلّق إبليس بذنبه فلم تستتل رجلاه فجعل يقول: ادخل، فنهض فلا يستطيع حتّى قال نوح: ويحك ادخل وإن كان معك الشيطان.

فلما قال ذلك خلى الشيطان سبيله، فلما دخل الشيطان قال نوح: ما أدخلك عليّ يا شيطان يا عدو الله، قال: أنت حيث قلت ادخل وإن معك الشيطان. قال: أخرج يا عدو الله، قال إبليس: ما لك بدَّ من أن تحملني معك، وكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. روي أن الحيَّة والعقرب أتيا نوحًا فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضرّ والبلاء فلا أحملكما، قالا: احملنا فنحن نعهد معك أن لا نضرّ أحدًا ذكرك، فمن قرأ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافات: 79] ما ضرّه. قال الحسن رحمة الله عليه: لم يحمل نوح إلا ما يلد ويبيض وأما ما يكون من الطين والعفونات كالبق والبعوضات والذباب فلم يحمل منها شيئًا.

إشارة وتأويل

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ يعني قل يا مبدأ الدورة الكبرى وأول عين فيها ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ يا أعيان الدورة الكبرى ﴿عِندِى﴾ من حيث أني ممكن أظهرني الله تعالى في البداية ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هُود: 31] أي ما كان عنده حاضر أزلًا وأبدًا بجميع أحوالها فهو حاضر عندي ظاهر لديّ لأن هذه الحالة لا تتأتى إلا في مبدأ الكل ومنتهاه، فإن الأول مجمع الأحوال ومنتهاه والثاني مربع الجميع ومنتهاه من حيث التفضيل ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هُود: 31] أي كلما يجري في نشأة هذه الدورة من الأعمال والأقوال والأفعال والأحوال الظاهرة والباطنة الجارية على أعيان هذه الجارية الدورة صريحًا وضمنًا، ظاهرًا وباطنًا، كليًّا وجزئيًّا اختياريًّا واضطراريًّا من حيث انتهاء الإجمال والتفصيل.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي العلم الإلٰهي المجرد عن نقائص الكثائف وخصائص البسائط السفلية، ونصائص اللطائف، بل أقول إني مثلكم مركب من اللطائف والكثائف ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ﴾ أي الأعيان الكاملين بالمعارف الإلٰهيَّة

واللطائف الربانيَّة الغير المتناهية وأنتم لعدم المناسبة أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري ﴿تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ الجارية التي لا تدرك إلا الأشياء الظاهرة ﴿أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من الخصائص الجمعية والنصائص الكليَّة الإنسانيَّة، أو المراد من نوح هوى النفس المطمئنة ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ [هُود: 31] هي الأطوار القلبية والأنوار الغيبية التي اختفت عند علية الأحكام النفسانيَّة عن أعين القوى العاملة والمدركة ومن خير أهو الوجه الإلٰهي الذي يتصل بكل شيء وهو قائم ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القَصَص: 88] الآية، وإنكارهم لهم لكونهم محتجبين بالوجه الكوني ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من الوجه الإلٰهي الساري في جميع الذراري ومن اللطائف الخفية والتجلّيات الإلٰهيَّة الوجودية المتوارية المتعاقبة أو فأنا وهي المدد الوجودي والنفسي الرحماني ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: 31] يعني إني عارف بهذا الوجه الإلٰهي الذي اتصل بي وبتمام الأشياء، فلو لم أعرفه ولم أشاهده لكنت من الظالمين.

﴿قَالُواْ﴾ أي الأعيان الظليّة الجلالية الضمنية وهو المولود الجني وقواه الباطنة ﴿يَٰنُوحُ﴾ أي المولود الإنسي الظاهر الصريح في الدورة النورية الكبرى الأصلية والفرعية ﴿قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ وصرت غالبًا علينا، وأجريت الأحكام الوجودية النورية علينا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هُود: 32] في النشآت الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية الإفرادية النورية، إشارة إلى أن الأعيان الظليّة العدميّة لانتقال الأعيان النورية الوجودية الصريحة في الأدوار العظمى والكبرى والوسطى وأول الصغرى ولعدم استكمالهم في قوس ينزل هذه الأدوار لهم حالة منتظرة ومقالة مضطرّة في نشأتهم الدورية وشؤوناتهم الكورية.

وأما إذا انتهت إلى آخر الدورة الصغرى الأصلية والفرعية وشامتت المبدأ الأولي وقابلت مرتبة الربّ الأعلى، وهي المرتبة الناسوتية التي تقابل المرتبة اللاهوتية في كمال الجمعية ونهاية الترقي، وهداية التنزُّل وغاية الإجمال والتفضيل عروجًا ونزولًا، صعودًا وهبوطًا، فحينئذ يصور لي سماء الكمال الجمعي وفلك الجمع الكمالي، ويتحقق بكمال الجمعية الإلٰهيَّة والكونية والمعيَّة الأولية والأخروية. وهذا إنما يكون في آخر الدورة الجمعية النورية والظليّة لدى ظهور الخلافة العظمى وحضور الأمانة الكبرى في المظهر الكامل والكون الفاضل

الموعود في زمان خاتم الولاية المطلقة فإذا ينتقل الحكم من النبوة والولاية إلى الألوهية وإلى ظهور سرّ (أنا الحق) من كل عين من الأعيان وكون من الأكوان.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هُود: 32] من الغرق في ماء بحر التوحيد الجمعي والتفريد المعي ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [هُود: 33] إن شاء الله في آخر الدورة الصغرى الجمعية الجامعة لتمام الأدوار وعموم الأكوار الإلٰهيَّة والكونية ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ في هذه النشأة الأخيرة ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ في الفطرة الأولى والنشأة الأعلى والمرتبة في المرتبة الأبهى في بداية الدورة العظمى في نشأة آدم الذي هو مبدأ الأدوار ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هُود: 36] لأنهم ما جمعوا شرائط الإيمان في هذه النشأة والتحقق بهم، فهم معذورون فيه. ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هُود: 37] أي سفينة الجمعية الإلٰهيَّة والكونية والهيئة الإحاطية والمعيَّة الكليَّة على ما يقتضي مرور جمعية الدورة النورية والكورة الظليّة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في آخر الدورة الصغرى عند خاتم الولاية، فإن في زمانه يظهر كل ما كان متبطِّنًا ومختفيًا في النشأة السابقة والشؤونات الفائقة ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ [هُود: 39] من الأعيان النورية والأكوان الكورية ﴿عَذَابٌ﴾ في الدورة الأخيرة الجمعية اقتضاء الجمعية الإلٰهيَّة والكونية ﴿يُخْزِيهِ﴾ بجبل الأعيان النورية والظلية الفرداريّة عن خصوصياتها الإفرادية وخصائصها الوحدانية يظهر السرّ الخفي والدور المعي الذي كان كامنًا فيها، والتوحيد الكلي والتفريد الأصلي كان كامنًا في كل عين وضامنًا في أي كون ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هُود: 39] من الفناء عن الخصوصية والانتفاء عن النصوصية والهوية الشخصية الغيبية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ من الاقتضاء النوعي والارتضاء الجمعي ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي ظهر وثار ماء الكمال الجمعي الذي كان كامنًا في الأرض الإمكانية والفرص الاستعدادية ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي لاقتضاء النور الجمعي الجمالي ولارتضاء الظلّ الجلالي، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وجرِّده من خصوصيات الاقتضاء والارتضاء ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ في كل عين يبقى فيه حالة منتظرة وعالة مقتضية للتقيُّد والتقلُّد والانفراد ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: 40] أي والحال إنه ما آمن من كان في الأدوار السابقة والأكوار اللاحقة إلا قليل من الأعيان والأكوان الظليّة وهو الذي خصّصه الله تعالى بكمال لطفه وهدايته ووفور فضل

وعناية لا يقتضي عدل، فإن العدالة الحقيقية ظهورها مشروط بتكافؤ اقتضاءات الأدوار والأكوار وذلك لا يكون إلا في الدورة الأخيرة في مظهر كامل ومصدر فاضل وهو المظهر الموعود والحالة المعهودة وفي عهده يظهر سلطان عدالته ويسري في الكلّ.

تفسير

﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ يريد يجري بسم الله وقدرته وترسي بينهم بالله وقدرته ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هُود: 41] يريد غفور لأصحاب السفينة، رحيمًا بهم، كقوله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: 15].

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ يريد اعتزل عن الناس ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هُود: 42].

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ يريد يمنعني من الماء المغرق ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يريد أن الماء على السهل والجبل سواء أربعون ذراعًا. وقال آخرون: ثلاثون، إن الله أعقم أصلاب الرجال وأرحام النساء قبل الغرق بأربعين سنة فلم يفرق لابن أربعين. وقد ذكر بعض المحدثين أن امرأة أتت بصبي إلى جبل فلما زهقها الماء رفعته فلما علت الماء رفعته رقّة عليه حتّى غرقت هي وغرق الصبي، فلو رحم الله أحدًا من قوم نوح من المشركين لرحم ذلك والله أعلم كيف ذلك ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ يريد إلا من رحم وحده ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هُود: 43].

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ يريد الله تعالى قال للأرض ابلعي ماءً خرج منك، وقال للسماء: احبسي ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ يريد ما خرج من الأرض غاص فيها وما بقي مما ينزل من السماء وهي هذه البحار المالحة إلى اليوم وإلى يوم القيامة ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ يريد قضي الأمر الذي أراده الله وقضاه وقدّره واستوت السفينة على جبل الحفيرة يقال لها الجودي ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾ يريد من رحمة الله ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: 44] يريد المعتمدين من دون الله إلٰهًا.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ يريد أن الذي وعدتني به أن تنجيني وأهلي ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: 45] يريد أفضل العادلين.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾

﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ فأوحى الله ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ يريد سلوك إياي بمنزل غير صالحٍ فمن قرأها بالخفض يريد أن الذي وعدتني أن تنجيني وأهلي ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: 45] يريد أفضل العادلين مثل قوله تعالى في سورة التين: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [التين: 8] يريد أعدل العادلين ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ فأوحى الله إليه إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، فمن قرأها بالخفض يريد أن عمل ابنك غير صالح ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ إنه ليس لك به علم ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ يريد إني أنهاك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: 46] يريد من الآثمين لأن عمل المؤمنين وذنوبهم جهل وليس بكفر كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الآية: 67]، وفي سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الآية: 6] يريد إن جهل المؤمنين إثم. وقال

في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [الآية: 17] لأن جهل المؤمنين ذنب ليس بكفر.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ يريد أنك علّام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عني ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ يريد جهلي ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: 47] يريد من المغبونين.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ يريد من السفينة إلى الأرض ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ يريد إنك آدم الأصغر ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ يريد ولدك ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يريد قومًا من أهل مكة في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هُود: 48] يريد وجيعًا بكفرهم.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ يريد من خبر الغيب غاب عن جميع الخلق ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ يريد القرآن الذي أوحي إليك ﴿فَٱصْبِرْۖ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: 49] يريد أن العاقبة لمن صبر على طاعة الله للخائفين الله ومن الله ولم يشركوا به شيئًا.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ يريد ابن أبيهم وهو هود بن عبد الله بن عاد بن عادية بن عاد بن إرم بن الخلد بن عامر ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ﴾ يريد من إله ولا ربّ سواه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هُود: 50] يريد فيما يعتدون من دونه.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أقول: ادخلوا في السفينة وتوجهوا إليها للركوب والحمل عليها لأنها في الماء كالمركب في الأرض، متلبسين باسم الله، ومسمِّين لله أو قائلين ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ أي وقت إجرائها وإرسائها أي ارتفاعها وانخفاضها وانحطاطها، إذ المجرى والمرسى إما للمكان والوقت وإما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت كما في قولهم: آتيك حقوق النجوم ومقدم الحاج وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل وهو التلبس والتسمية، أو بما فيه من إرادة القول. وعلى التقديرين جملة من مبتدأ وخبر أي بسم الله إجرائها وإرسائها ثابت وحاصل ويجوز رفعها ببسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة على أن ما بسم الله خبره أو صلته، والخبر محذوف وهي جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها، يعني أن نوحًا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ [هُود: 41] إنما بذكر الله أو بأمره وبقدرته.

ويحتمل أن يكون غير مقتضية في موقع الحال فلا مستأنفًا كأنه قيل: اركبوا فيها حال كونها مجراها ومرساها ببسم، وإضافة الاسم إلى الله بتاتية تشعر أن الاسم عين المسمّى، ويجوز أن الاسم مقحمًا كقوله: باسم السلام عليكما، وقرأ بفتح الميم من جرى ورسى، أي انحط وارتفع إخبار عن حال تلاطم الأمواج دالًّا على كمال قهر الله وغضبه وسخطه على قوم نوح استحقوه بضربهم وإهانتهم إيّاه في أزمان متطاولة وأوان متعاطلة وهي ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هُود: 41] إيَّاكم بالنجاة عن عذاب الغرق وعقاب الغرق أي لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته إياكم لما نجَّاكم ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ تفسير وبيان لما سبق. والموج هي الهيئة المركبة من الارتفاع والانخفاض وإن كان المفهوم من كلام أهل التفسير أن الموج عبارة عن الاضطراب الحاصل للماء إما بنفسه أو بغيره. فمعنى جريها في موج هو حركتها وارتفاعها وانخفاضها لدى ارتفاع الماء وانحطاطه.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ كنعان، اسمه يام كان كافرًا، ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ اسم مكان أو مصدر من العزل وهو البعد ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هُود: 42] في الدين أو العزل فتهلك.

قال ابنه كنعان لنوح ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾ فعل مضارع من أوى يأوي إذ التجى

ومال ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ رفيع وجبل منيع ﴿يَعْصِمُنِي﴾ ويحفظني ويمنعني ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وغرقه.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا أحدًا ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وعذابه وغضبه وعقابه ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي الراحم وهو الله، أو لا عاصم اليوم من بلاء الطوفان وعذابه ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا مكان من يرحمهم الله من المؤمنين ونجاهم فيه وهو السفينة. قيل: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ [هُود: 43] بمعنى إلا إذا عصمه أي من رحمه الله وهو كل مؤمن شفيق يرحم من دونه ومن هو في بلاء. قال النبي عليه السلام: «**ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**»، مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطّارق: 6] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: 21] أي ذو دفق وذات عيشة مرضية. قيل: الاستثناء منقطع كأنه قيل: وليكن من رحمه فهو المعصوم كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النِّساء: 157].

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ [هُود: 43] ﴿فَكَانَ﴾ وصار ابنه كنعان ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ المهلكين. روي أن الماء علا وسما وانفجر من جميع وجه الأرض ووصل إلى رؤوس الجبال وعلاها بقدر أربعين ذراعًا. روي أنه لما كبر الماء في السكك بأنه نبع وانفجر من تمام وجه الأرض فخشيت امرأة على صبيها ولم يكن بينهم صبي ولا صبية لما مرّ أن العقم كان ساريًا بينهم أربعين عامًا قبل ظهور الطوفان، وكانت تحبّه حبًّا شديدًا، فخرجت إلى الجبل حتَّى بلغت ثلثه مع صبيها، فلما بلغهما الماء ارتفعت بصبيها حتَّى بلغت ثلثيها فلما بلغهما الماء ذهبت حتَّى استوت على رؤوس الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت صبيها بثديها حتَّى ذهبت بهما الماء، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أمّ الصبي وذلك لكمال قهره عليهم. وقد ظهر مما قدّمناه من التقرير وتفصيل التحرير فساد من ظنّ من الملاحدة القاصرين في إدراك الحقائق. أن طغيان الماء إنما كان من ذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال في البلاد الكثيرة، وما كان طوفانًا حقيقة. وقيل: بعد أن يتناهى أمر الطوفان واقتضاه والقابل هو الله.

﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ اشربي وابتلعي وانشقي ﴿مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أمسكي ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ وانتقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هُود: 44] وفرغ من الأمر وهو الإهلاك. وإنما نادى الله أو نوح لكونه خليفة في خلقه بالتصرف في الأرض والسماء معًا بما ينادي

به العقول وأمرهما بما يأمر به العاقل وأهل التمييز إشارة إلى أن هذه الأجسام العظام والأجرام الكرام بل كل ما فيهما وعليهما ذوات إدراك وفهم وتميُّز وقوة إدراك [أن ينزو فيها سرّولها بزيز] وقد عرفوا عظمة ربّها الذي هو ربّ كل الأشياء وخالقها وجلالة شأنه وعلوّ برهانه، وأن ينقادوا إلى أمر الله وحكمه، ويعبدون الله حقّ عبادته ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصّلَت: 11] الآية. وإشعار بأن السماء والأرض سببان ظاهران للطوفان.

﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هُود: 44] واستقرّت عليه وهو جبل بأرض جزيرة بناها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهي قريب بموصل وإربيل متصلة بديار بكر، وقيل: بأرض شام. وقيل: بابل. روي أنه ركب السفينة عاشر المحرم يوم عاشوراء ومن هذا اليوم إلى يوم الخروج سنة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾، يقال: بُعدًا إذا أرادوا النور البعيد والمد المديد يستعمل في المحن والشدائد ولذلك اختصّ بدعاء السوء واختيار بناء المفعول للدلالة على العظمة والجلال والكبرياء على الكمال. وإن تلك الأمور لا تكون إلا بفعل فاعل مختار وتكوين قادر جبّار، وتدوين مالك مهّار، فلا يشاركه أحد في الأقوال ولا واحد في أجزاء الأمور وغرائب الأحوال.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هُود: 45] من للتبعيض يعني يا ربّ إنك قد وعدتني أن تنجيني وأهلي، وهو من بعض أهلي، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، قال الله جلّ وعلا: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لانقطاع الولاية والعلاقة المعنوية بين الكافر والمؤمن ولذا ارتفع الإرث والنكاح والحرث، أو لأنه كان ربيبًا لا أهلًا نسيبًا ليأخذ حظًّا ونصيبًا ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هُود: 46] تعليل للنفي. وإنما عبّر عن ذاته بالفعل تنبيهًا على أن المقصود من الذات الإنسانيَّة والمودود من الحقيقة البشرية، بل من الأشياء إنما هو العمل الاختياري والفعل الإرادي الذي يتضمن العلم وهو أتمّ من مجرد العلم وكل شيء له فعل وأثر وخاصية نوعية. فإذا انتفى ذلك الفعل والخاصة خرج من حيطة ذلك ودخل في حيطة نوع آخر كما أشار بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعرَاف: 179]. فإذا الأهلية إنما تتمّ باتِّحاد العمل والفعل المخصوص، فإذا انتفى اتحاد العمل والفعل انتفت الأهلية ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بأنه

خبير وصالح لك في الحالة والعواقب والمآل ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ وأرشدك وأبيِّن لك وأحذِّرك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: 46].

روي أنهم ركبوا السفينة في عاشر رجب واستقرّت على الجودي شهرًا، وهبط بهم يوم عاشوراء. روي أن نوحًا بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفةٍ فلم يرجع، فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في مناقرها ولطخت برجلها بالطين، فعلم وعبّر من أن الماء نضب، فدعا على الغراب بالخوف والحمامة بالأمان، ولذا تنفّر وائتلفت الحمامة بالثبوت وطوقها بالخضرة على عنقها فصاح نوح وأمر جميع من كان معه بالصوم شكرًا لنعم الله. قيل: ما نجا أحد من الكفار غير العوج بن عتق وقد ولد من بنت آدم كان الماء إلى حنجرته وكان سبب نجاته أن نوحًا احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقلها فحملها عوج إليه من الشام فنجّاه الله به. قال نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ يعني أني ألتجئ وأتوجه في كل ما لي من الأحوال والأعمال والعلوم والإدراكات والأفعال، فإني لا أملك لنفسي شيئًا ولا أمرًا من الأمور فأستعين بك في كل الأحوال ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ ما أفرطت وتعدّيت في الأمور من العجلة في السؤال وغيره ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بالتوبة والعفو عني والتفضُّل عليّ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: 47].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ وانزل من السفينة ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ ومسلمًا محفوظًا ومؤمنًا من جهتنا من المكاره، أو مسلمًا عليك ومكرمًا لديك ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾، وثبوت خيرات ناميات وحسنات ثابتات وذريات باقيات ﴿عَلَيۡكَ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ في السفينة من المحبين والأشياع، وهو يشتمل المؤمنين كلهم إلى يوم القيامة ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا بحطامها وزينتها وسائر المستمتعات، وهم الكافرون وأهل الشقاوة ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هُود: 48] في الآخرة.

﴿تِلۡكَ﴾ أي قصة نوح وحكايته ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي من بعضها ﴿نُوحِيهَآ﴾ يعلمها ويلقيها ﴿إِلَيۡكَۖ﴾، ﴿تِلۡكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبر بعد خبر ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ يا محمد أنت ولا قومك ﴿مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ هذا القرآن ونزوله، أو من قبل هذا الوقت ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ [هُود: 49] على التبليغ وعلى ما يرد ويقع عليك من قومك من الشدائد وآخر الأمور في الدنيا بالفوز والظفر والنصر على الفوز في الآخرة من الثواب ورفع

الدرجات والفوز بنسيم الجنَّات ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي والسيِّئات.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ أرسلنا وبعثنا ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ في النسب لا في الدين، عطف بيان نصيب لكونه غير متصرف وهو ابن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح بن ملك بن متوشلح بن إدريس، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هُود: 50] كاذبون قصدًا أو منشئ الكذب عمدًا.

إشارة وتأويل

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ قال نوح الكمال الجمعي في مرتبة النفس المطمئنة والطور القلبي للأعيان الإفرادية النورية الجمالية والأكوان الظلّيّة الجلالية عند فوران طوفان ماء الطبيعة الحيوانية البهيمية والسبعية أو الجنية، وثوران نفس الأمارة الشيطانية ﴿ٱدْخُلُواْ﴾ في سفينة جمعية النفس المطمئنة لدى جري أمواج الأحكام الجمالية ورسي لإفراج الأعلاج الجلالية متلبسين باسم الله الجامع الأعظم لتمام الأسماء والصفات ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هُود: 41] لف وطباق وهي تجري بهم أي الجمعية المذكورة تظهر وتسري بتلك الأعيان الصريحة والضمنية في موج وظهور تجلي إلٰهي فوج بعد فوج، وزوج إثر زوج، كالجبال أي تظهر كليَّة وجزئية بصورة كلية عالم الأجسام أو لخصوصية جسم معين كالكواكب والأجرام الفلكية والعنصرية أو الصورة النوعية الإنسانيَّة، كما شاهد الخليل وموسى وحبيب الجليل في صورة الكواكب والعنصر البادي والشخصي الإنساني.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ﴾ الروح ﴿ٱبْنَهُۥ﴾ الطور القلبي الذي دخل في حكم النفس أن اركب السفينة الجمعية معنا أي مع الأطوار العالية الجامعة لتمام الأنوار الإلٰهيَّة والأسرار الانتمائية الغير المتناهية ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هُود: 42] أي الأطوار السافلة النفسية والقالبية.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ القوة النظيرية والقدرة الوهمية ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الطبيعة النباتية والحيوانية ﴿قَالَ﴾ نوح الطور الروحي والنور الجمعي ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي وقت استيلاء التجلِّي الذاتي ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وتحقَّق بالكمال الجمعي الإلٰهي والنوري الجمالي ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا﴾ أي بين التجلِّي النوري الجمالي الإفرادي

والتجلِّي النوري الجمالي ﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾ أي التجلِّي الجلالي الإفرادي أو الجمعي أو هما معًا إشارة إلى أطوار التجلِّي الجمعي الإفرادي النوري والجلالي، والجمع الجمعي منهما، فإن منها ما يلتئم ويجتمع على وجه يرتفع كامتياز انبساط التجلّيات الإفرادية الجمالية أو الجلالية أو جمعيتهما الإفرادية أو جمعيتهما الجمعية، وذلك كالمراح الحادث بين بساط الاستيطان من غير أن تتميز البسائط بعضها عن بعض. ومنهما ما يجتمع التجلِّي الجمعي والتجلِّي الإفرادي بحيث يتميز الإفرادي عن الجمعي الجمالي، وربما يتخلّل بينهما التجلِّي الجلالي الإفرادي والجمعي كما أشار إليه بقوله: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ﴾ خصوصية القلب ﴿مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هُود: 43] في التجلِّي الجمعي وإشارة إلى أن التجلِّي على نوعين: ظهوري وبروزي.

أما الظهوري فقد عرفت، إما وجودي أو شهودي كما أشرت إليه. وأما البروزي فهو نوعان:

أحدهما: أن العارف إن استكمل في مسراته بحيث ما بقي له حالة منتظرة لا في الإلٰهيات ولا في الكونيات صارت النسبة إليهما على السويَّة.

أما الأول فربما يتعلق التجلِّي الذاتي بتمام التجلّيات الأسمائيَّة والأفعالية والآثارية والصورة الجمعية الإنسانيَّة بالمعارف، والعارف يشاهدها إما بكليّتها وجمعيتها أو بخصوصية الأسماء أو بجمعيتهما بحيث يتميّز إحديهما عن الأخرى فرادى ومجموعًا.

أما الثاني: وهو أن تكون نسبته إلى الأكوان الجلالية والأعيان الجلالية على السوية فحينئذ ربما يتعلق بأجساد تمام الأعيان والأكوان جميعًا ويكلمها جمعًا جمعًا وجنسًا أو نوعًا أو صنفًا وشخصًا شخصًا، أصالة وفرعًا. والفرق بين الظهور والبروز، أما الظهور فلا يكون علم بأحوال الأعيان والأكوان في الأدوار والأكوار السابقة بل محصور على الأحوال الحالية. وأما البروز فعلمه محيط بتمام أحوال الأعيان والأكوان في الأدوار والأكوار الماضية والآتية والحالية. فتأمل.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ﴾ القوة القابلية والاستعدادات الذاتيَّة ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أي مرتضى الطور الظليّ الجلالي العدمي ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ القوة الفاعلية الإلٰهيَّة ﴿أَقۡلِعِي﴾ اصرفي عن

مقتضى خصوصية فعلك ونصوصية نقلك، إشارة إلى أن كل عين خاص وناص فيه قوة جمعية كاملية وقابلية نوعية فاضلة، فتارة يؤثر بالمعيَّة الجمعية، وأخرى بمقتضى خصوصية ربّه الأسمى الذاتي، وهو العليم والحي والقدير والمريد. والأخرى أن يكون مؤثرًا باقتضاء جمعيتهما فيظهر منه وفيه السرّ الإلٰهي ويصدر عنه التدبير الربوبي، ويتحقّق بالأمر التكويني والسرّ الإيجادي، والدور الابتدائي، والأثر الإبداعي، وغيض الماء الطبيعي الجزئي ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الإلٰهي وظهر السرّ الربوبي عن كل فرد فرد، وتعيَّن أحد ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ أي السفينة الجمعية الإلٰهيَّة ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ وجبل التعيين الوجودي باقتضاء الكرم الجودي ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: 44] المتجاوزين عن الحدّ الجمعي، والباقي ظاهر.

تفسير

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يريد مالًا تعطونيه ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هُود: 51] يريد أفلا تفقهون.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من الشرك الذي أنتم عليه ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ يريد بالخصب والبركة ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إذا أطعتموه ووحدتموه ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هُود: 52] يريد أنكم أجرمتم وجعلتم مع الله إلٰهًا وكذّبتم نبيّه.

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

و﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ يريد بيقين ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ يريد لا ندع عبارة آلهتنا بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود: 53] يريد بمصدِّقين.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ عن قولك ﴿بِسُوٓءٍۗ﴾ يريد يحيُّون أو يؤمن أو غيره ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ يريد عليكم ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أنتم على أنفسكم ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هُود: 54].

﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يريد الأصنام والحجارة وما تعبدون من دون الله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هُود: 55] يريد أن الله تعالى معي لا يضرّني كيدكم.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ يريد إلٰهي وإلٰهكم ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ يريد كلّما دبَّ ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ يريد أن نواصي العباد بيده وإليه مصيرهم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [هُود: 56] يريد أن الدِّين الذي بعثني الله إليه دين مستقيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾

قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عني ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هُود: 57] يريد كلكم بالريح العقيم ويخلق بعدكم من هو أطوع لله ربّي ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ﴾ [هُود: 57] يريد حفيظ ومحفظ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يريد العذاب ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا﴾ يريد حيث هديتهم للإيمان وعصمتهم من أن يكفروا بي ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هُود: 58] يريد شديد، الذي عذَّبت به الذين كفروا من قومه.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ يريد القبيل ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يريد كذّبوا أنبياء الله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يريد هودًا وحده ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هُود: 59] يريد المعاند عن الإيمان.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يريد يعدهم الذين خرجوا إلى مكة يصرفوا باللعنة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بالعذاب ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يريد كفروا ما كانوا فيه من نعيم ربّهم ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ يريد بُعدًا من رحمة الله ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هُود: 60].

﴿۞ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)﴾

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يريد من أبيهم وهو صالح بن عبد بن جابر بن عبد ابن ثمود بن الخلد بن عامر ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يريد سواه ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يريد من صلب آدم عليه السلام ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يريد جعلكم عمّارًا لها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ يريد من ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من شرككم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هُود: 61] ليس في القرآن قريب مجيب غير هذا.

أقول: قال هود لقومه ﴿يَا قَوْمِ﴾ إني رسول الله إليكم داعيًا لكم إلى الله وإلى عبوديته، وإني ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطلب ﴿عَلَيْهِ﴾ منكم ﴿أَجْرًا﴾ عوضًا ومالًا وعرضًا ومقصودًا، أو غرضًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وليس أجري وعرضي ﴿إِلَّا عَلَى﴾ الخالق والربّ ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخلقني في الفطرة الأولى بلا مادة ومدة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هُود: 51] حقيقة الأمر وأصل فطرتكم وكيفيّتها، فلو كان لكم العقل والإدراك والعلم الحق لما يستعجلون بالعقوبة وحلول العذاب والنقمة فما يعرفون المحق من المبطل،

ولا المجلدَ من المعطِل، ولا الحق من الباطل، ولا الجيد من العاطل.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وآمنوا به وتصدقوا بألوهيته وكمال ربوبيته ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره وأنيبوا إليه وتوكلوا عليه وتبرؤوا مما دونه إليه ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾ أي المطر ﴿مِّدْرَارًا﴾ متتابعًا ومتواليًا ومتعاقبًا مرة أخرى وكرَّة عقب الأولى في أوقات الحاجات وأزمان المطالب وأوان المهمات ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ وتتضاعف قدرتكم من شدة البطش في دفع الجوع وحدّة العطش مضمومة ومجرورة ومنصوبة ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ الحادثة وهي كثرة المال وازدياد المنال والحرث والزرع والتبغ والأهل والعيال ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ ولا تعرضوا ولا تنحرفوا عما أدعوكم إليه حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هُود: 52] مصرِّين على الإجرام والإنكار والإحرام.

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وبرهان وحجَّة وصفاء طوية وصيانة في ترك عبادة آلهتنا ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ في هذه الحالة ﴿بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ وقد وجدنا عليه آبائنا بمجرَّد قولك بلا بيِّنة، وإنما آثر العين على الباء إشعارًا بتجاوزهم عن الحدّ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود: 53].

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ وعرضك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ لإظهارك من الأدب بالنسبة إليهم والعداوة لهم مكافأةً لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن يتكلم بكلام المجانين ويهذي بهذيان المبرسمين المصروعين هذا من فرط جهالتهم وفرط تعنتهم ووفور عنادتهم ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على ما في نفسي مما قلته في حق آلهتكم ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ يا قوم ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هُود: 54].

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي غير الله من الأوثان والأصنام ﴿فَكِيدُونِى﴾ أنتم وشركائكم جميعًا ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هُود: 55] أي لا تنظروا إلى شيء، وعجِّلوا في كيدي واحتيالي بلا إمهال وتراخٍ وإهمال.

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ والنجاة في دفع كيدكم ورفع إضراركم وشدكم وولوعكم وإضراركم عليه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ ولا متحرِّكة ولا ذابة ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ويحييها ويوجدها ويميتها. وذكر الناصية إشعار بكمال قدرة الله ووفور تسلُّطه وسلطته وقوته وشدّة بطشه وغاية مذلّة الخلق، ونهاية العجز، وانقيادهم وتبالغهم في الامتثال والانقياد ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: 56] داعيًا بهم كمال القسط

وغاية العدالة مع كمال عجزهم، لا يعمل بهم إلا الفصل والإحياء فيجازي المحسن بالفضل والإحسان أضعاف مضاعفة، والمسيء بالمثل. والعفو والتجاوز.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أصلًا وتعرضوا وانصرفوا عما دعوتهم من الله إليه ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾ وأوصلت إيَّاه إليكم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ في الأرض وجعلهم متصرفين على ما عليها، متبعين الله، متوحِّدين به، مقرِّين بتوحيده ووحدانيته وكمال قدرته ونهاية حكمته ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا﴾ بل يضرُّون أنفسهم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ [هُود: 57] لا يتطرق عليه ضرّ ولا يتعلَّق من غير إذنه مكروه ولا ضرّ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هُود: 58] ووعدنا لهم من عنيد منيع على طريق التعنت هم ورؤساؤهم وكبراؤهم ودعاتهم إلى التكذيب على الرُّسل ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ [هُود: 60] أي اتّبعوا الرؤساء والكبر من قوم عاد ضعفاؤهم ﴿لَعۡنَةً﴾ [هُود: 60] أي من حيث اللعنة، أي صاروا لسبب المتابعة المذكورة مستحقة للّعنة في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ﴾ نسبًا لا دينًا وفضلًا وحسبًا، فإذا جاءهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ حذفت ياء المتكلم اكتفاءً بالكسرة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ووحّدوه بطريق العبودية ورقيق الحالية ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ خالق قادر رازق ﴿غَيۡرُهُۥ﴾، الذات الواجب الوجود ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ وأبداكم ولم ينساكم تابعين ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لآدم، والتصريح تعريض لهم بأنهم مخلوقون من أهل المكوّنات وأنزل الكائنات ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ [هُود: 61] وأمركم بالعمارة وجعلكم عمّارها وسكّانها أو عمَّركم فيها واستقام من العمرى والعمر هو العيش والانتعاش، فعلى الأول من العمارة وهو البناء والإحياء والغرس والحضر ما هو واجب وندب ومباح وحرام. وكان ملوك فارس وولاتها قد اهتموا في حفر الأنهار وحفر القنوات والآبار وغرس الأشجار وإطالة العمارات وأصالة الإعمار مع أنه كان فيها من تعب الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربّه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي.

عن معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره فقيل له: ما هي؟ قال: ما حملني عليه إلا قول القائل: ليس الغنى بغنى لا يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار. وقال الآخر: إن آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا آثارًا واستغفروا واطلبوا المغفرة والتجاوز عمَّا تجاوز وصدر وظهر منكم في هذه الأمور من الغفلة عن الله وطاعته وارتكاب الذنوب والذهول والفتور عن عبادته إنه قريب مجيب.

إشارة وتأويل

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [هُود: 51] لما أشار فيما تقدم إلى الدورة الكبرى النورية الأصلية لشرف هذه العشرة إلى بيان أحوال الأعيان في الدورة النورية الفرعية، وربّ الدورة الأصلية والفرعية وهو الحي وصاحب الأولى الأصلية هو نوح، وصاحب الثانية هو هود. واعلم أن من الزمان وحصته من الأوقات والأوان بحسب المناسبة مظهر وتجلي لمظهر أحكام الأدوار، فزمان آدم مظهر أحكام الدورة النورية الأصلية، وهي العظمى، وإدريس مظهر الأحكام النورية الفرعية، ونوح مظهر الأحكام الدورة الكبرى النورية الأصلية، وهو مظهر لأحكام الدورة النورية الفرعية من الدورة الكبرى. ويا قوم استغفروا أي الأعيان النورية الجمالية استتروا واستخفوا أحوالكم الظاهرة والباطنة عن أعينكم الباطلة كي لا ينصرفوا بها عن شهود تلك الأحوال الغيبية والأطوار القلبية والأسوار الإلٰهيَّة الأريبية والأكوان الظليّة الجمالية، استعظموا أيضًا أحوالكم الخفيّة بالنسبة إلينا والظاهرة، فإن البصر الجمالية إذا تقيّدت بالأحوال الباطنة والأفعال الظاهرة، وتقيّدت بها وتعودت لديها احتجبت عن شهود تجليات خالقها ومشاهدة تطورات ظهورات رازقها.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ وارجعوا وأنيبوا ﴿إِلَيۡهِ﴾ عن جميع ما سواه ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي سماء الحقيقة الجمعية المحمدية والأحدية الكليَّة ﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾ أي أمطار المعارف الجمعية والإدراكات المركبة والمشاهدات المعيَّة للصورة النوعية الأصلية والفرعية ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ أي جمعية الأدوار النورية الأصلية والفرعية والأكوار الظليّة الأولية والثانية ومعيتهما طردًا وعكسًا ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ رجع القهقرى إلى الأدوار والأكوار الإفرادية ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ [هُود: 52] معتكفين على القيود النورية والظليّة الإفرادية.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ وبرهان كشفي وتبيان شهودي وتوحيد ذاتي جمعي تعودناه من القيود النورية والحدود الظلّية الضمنية إلى الكمال الجمعي الذاتي والجمع الكمالي الاسمى ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾ بدعوتك من قيود إلى قيود، ومن حدود إلى حدود فردي ﴿بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ التي وجدنا آباءنا العقلية وأسلافنا

الروحية معتكفين عليها منقطعين إليها ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي ببيِّنة قوليّة نظريّة ولفظية فكريَّة إحالية كشفيَّة معيَّة وذوقية شهودية جمعية ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود: 53] بما دعوتنا إليه من القيود الإفرادية والحدود الوحدانية.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هُود: 54] إشارة إلى السقطة الواقعة والفترة القاطعة للاتصال الجمعي والانفصال الاتحاد المعي التي تعرض بحسب اختلاف الأحوال البشرية، وانعطاف الأطوار الصورية ﴿قَالَ﴾ هود الطور السري حينئذ ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أي الذات الجامعة للأطوار الرافعة والمانعة والأنوار الإلٰهيَّة الساطعة والأسرار الغيبية الرافعة شاهدًا إليّ وحاكمًا بي ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هُود: 54].

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ في الأرض الاستعدادية الظلّية والجلالية العدمية ولا في السماء النورية والقوة الفاعلة، وهي الجمعية الذاتيَّة والأسمائيَّة أي الوحدة الذاتيَّة الجمعية الأحدية السارية وهي أدقّ الأشياء إلى الموجودات ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ بتلك الوحدة السارية ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: 56] أي الجمعية الذاتيَّة والوحدة الحقيقية تجلّت ودعت كل الأعيان الوجودية والأكوان العدمية إلى الحقيقة الجمعية الإلٰهيَّة والكونية، إشارة إلى الفرق بين هود وأتباعه الذي هو أول مرتبة ظهورها في عالم الحس، فإن لوامع أشعتها وإن تشعشعت على صفحات الأوهام والخيالات والمدارك الحسيَّة وعموم الإحساسات النفسية إلا أن كمالها إنما يلمع على القوة العاقلة والعقل الصريح، وأن عقول أمة هود وأتباعه ما بلغت إلى أن تدرك هذه الحال إدراكًا بالفعل بل بالقوة والإمكان الاستعدادي.

فدعوة هود الطور السري الفؤادي النفسانيَّة والمبادئ الجسمانية الحساسة إلى هذه المرتبة العلميَّة التي تظهر في مدارك القوى الحساسة الظاهرة وبعض الباطنة، فإن تتولوا عن دعوتي إلى هذه المرتبة، فقد بلَّغتكم ما أُرسلت به إليكم، وليستخلف قومًا غيركم في الأدوار الآتية والأكوار الكونية المستقبلة ليدركوا هذه الحالة ويقبله بها ويقبلون بها مني أو مبارز ظهوري ومجازر بروزي في زمان الختمين النبوة والولاية المقيدة والمطلقة.

كما نبّه على هذا المطلب خاتم الولاية المقيّدة في كتابيه «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» بأن هودًا ما بلغ في مسالك سلوكه ومدارك بروكه إلى التجلّي الذاتي والتوحيد الذاتي فضلًا عن التوحيد الجمعي من حيث التحقق والشهود، فإني أوصلته إلى هذه المرتبة وذلك إنما هو بطريق البروز لا الظهور، إذ مقام الاكتساب والترقي إلى شهود التجلّيات ربّ الأرباب والتحقق به إنما هو النشأة الحسيَّة الدنياوية والجمعية الناسوتية الروحية والنفسية والحضرة القدسية والآخرة القدسية، إلا أن ينتقل طور الدنيا إلى طور الآخرة إلى طور الدنيا عند انتقال الفرداريّة من دورة إلى دورة أو إلى كورة. فمن ذهب أن دار الآخرة لا كسب فيها ولا اكتساب أراد طور الظهور.

ومن قال: إن للنفوس المنتقلة إلى الآخرة كسبًا واكتسابًا، أراد بطريق البروز، فإن نفس هود تعلّقت إلى نفس خاتم الأنبياء الولاية المقيدة وسلكت بها سلوكًا تامًّا ووصلت إلى المقامات التامَّة، وتحقّقت بالحالات العامَّة. وليس هذا هو التناسخ، إذ التناسخ إنما هو التعلق بالبدن لا النفس في البدن كما أشار إليه بقوله: «**كنت مع الأنبياء سرًّا، وضربت معي جهرًا**».

وربما يتعلق نفسي في بدن إلى نفس أخرى في بدن إما للتكميل والإرشاد كما تتعلق نفس المرشد الكاملة إلى نفوس المريدين المسترشدين لإرشادها وتكميلها، وربما تتعلق نفس المريد إلى نفس المرشد لكمال الاستكمال والاسترشاد. هذا مما علّمني الخبير البصير ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هُود: 57] إلى أن يظهر زمان ظهور الأسرار الإلٰهيَّة والأطوار الربوبية عن كل شيء في زمان ظهور خاتم الأنبياء الولاية المطلقة، فإن نفسه الكاملة لكمال تحققها بالألوهية ويقينها بتمام الربوبية تتعلق بجميع الأشياء تعلُّقًا خفيًّا ويكملها ويوصلها إلى كمالها اللائق وجمالها الفائق، وهي التألُّه والتحقق بالربوبية إذ المقتضى للكمال النوعي لا يتخلف مقتضاه أصلًا.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ في زمان الولاية المقيدة ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هُود: 58] في عهد صاحب الولاية المطلقة. فالأول إشارة إلى النجاة من دركات قيود النور والجمال بإمداد صاحب الولاية المقيدة. والثاني من عقبات الظلّ والجلال وخصوصيتهما بذريعة كمال جمعية صاحب الولاية المطلقة إلى

جنات التجليّات الذاتيَّة وتوحيدها وجمعية تجليّات الذات والأسماء والصفات.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [هُود: 59] أي القوى النفسانيَّة والجسمانية أنكروا تجليات الأسماء الآثارية واتّبعوا الأعيان العامية الإفرادية النورية والظلّية على مقتضى فرداريّة الدورة النورية والظليّة الإفرادية ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هُود: 59] وهي الأعيان النورية والظلية الإفرادية التي سرت الصورة الجمعية والحقيقة الكليَّة في هذه الدنيا الجمالية والنشأة الأخرى النورية لعنة وبُعدًا ويوم القيامة، فبُعد الدنيا هو البُعد من شهود التجلِّي النوري الجمالي الإفرادي، وبُعد الآخرة هو الاحتجاب والبعد عن التجلِّي الجمعي.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ في الدورة الثانية من الأدوار النورية ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: 61] أي عمارة البدن بطريق البروز لا التناسخ، فإن التناسخ إنما يكون في النفوس الناقصة والبروز لاستكمال النفوس بالكمالات الذاتيَّة والأسمائيَّة، إذ الاستكمال إنما يكون في عالم الأجسام بالأجسام الكاملة والأجساد الفاضلة لكمال جامعية الجسم أيضًا. إن البروز إنما يتعلق النفس بالنفس والجسم لا بمجرد الجسم لأنه هو التناسخ والتناسخ والنفس الكاملة لا تتعلق إلا بالنفس الكاملة التي تكون أكمل هو الاستكمال لا يكون إلا في الطور الآخرة المستكملة لكونها في الآخرة، ظاهر. وأما النفس المستكمل بها ولاستواء الدنيا والآخرة دونها لا يذوق بها الموت إلا الموتة الأولى، ولقول النبي عليه السلام: «**بقلوبهم عرشيون وبأجسادهم فرشيون**». وأما التناسخ فلا يكون إلا بالأجساد التي تكون في الدنيا.

تفسير

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ﴾ يريد فاضلًا يقدمك على جمعيتنا قبل هذا ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ يريد النبوة ﴿مُرِيبٍ﴾ [هُود: 62] يريد المريب الشاكّ أيضًا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يريد على تعيُّن من ربِّي ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي﴾ يريد النبوة ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد مَن يمنعني من الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هُود: 63] يريد ما يزيدونني من الهوان والذلّ والعبرة.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ وكانت ناقته أحسن ناقة في الأرض، حمراء عشراء، فوضعت فصيلًا كانت تغدو فتشرب جميع الماء، ثم تعدوا عليه بمثله لبنًا لن يُشرب مثله قط. وكان يوم مشربهم يجلب عليه الناقة ويسقهم مثله لبنًا، فإذا انصرفت عنهم عدوا إلى الماء فاستقوا منه حاجتهم ليومين. وكان لها شرب وكان يوم شربهم يدخرون من الماء ما يكفيهم يومين ويوم شربها لا يقربوا الماء كله لها، ويوم سقيهم لبنًا ألذّ وأحلى فكانت هذه الآية: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ يريد تعتلف في أرض الله ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بعذاب ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هُود: 64] اليوم الثالث.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هُود: 65] يريد العذاب.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يريد العفو والثواب ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يريد الخزي الذي بدأ جزوًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هُود: 66] الشديد المنيع.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ صيحة جبريل، اصفرّت وجوههم في اليوم الأول واحمرت في اليوم الثاني واسودت في اليوم الثالث ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ اليوم الرابع ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هُود: 67] أجسادًا بلا أرواح.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ كأن لم ينعموا فيها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ كفروا بأنعم الله ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هُود: 68] بعّدهم الله من رحمته لأجل الثمود.

مطلب اسم إسحاق بالعبرانية سنحك

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [هُود: 69] يريد أن الله تبارك وتعالى بعث إسرافيل يبشّر سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، يريد إسرافيل وجبريل بقلب مدائن لوط وميكائيل يأخذ بيد لوط ومائه ليسري بهم فنزلوا بإبراهيم وهم الذين ذكرهم الله في سورة الذاريات: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [الآية: 24]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الآيات: 51 - 53] يريد إسحاق ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ قوم منكرون ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هُود: 69] يريد المملوح الذي لا ينبت شعره ويشوى.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ يريد لا يأكلون منه، علم أنهم ملائكة ﴿نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ يريد منهم فإنه خافهم ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ [هُود: الآيتان 70 - 71] يريد امرأة إبراهيم سارة وهي

﴿قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ حيث انتهى بالبُشرى وآمنت من الخوف، يريد سرّت وأهلها السرور ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُود: 71] واسم إسحاق بالعبرانية سنحك، قالوا: قوم صالح أي ثمود يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا.

أقول: قبل هذا القول والدعوة مأمولًا ومتوقعًا خلاف هذا القول: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ وتمنعنا ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ الآن في هذا الزمان ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ويواطئوا على عبادته، استفهام على التعجب والإنكار ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان والتعري عن عبادتها ﴿مُرِيبٍ﴾ [هُود: 62] من أرَابَهُ إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس واضطرابها وانتفاء السكينة واختفاء الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجل إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي.

﴿قَالَ﴾ صالح ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وبرهان وبيان وبصيرة ودليل وحجة ﴿مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى﴾ من الإيتاء أي الإعطاء، والنون للوقاية وياء المتكلم محذوف اكتفاءً به بالكسرة ﴿مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ونبوة وحكمة، فلو عصيت ربِّي وخالفت أمره غدًا لاستطابة قلوبكم وراغبًا إلى ما أنتم عليه في هذه الحالة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ ويمنعني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ وسخطه إن وجَّهه إليّ وينزله عليّ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هُود: 63] أي الانتساب إلى الخسران والقول مني بأني على هذه الحالة خاسر ونادم، وعلى نفسي قاهر ولائم.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ﴾ الناقة التي طلبتم مني ﴿ءَايَةً﴾ من الله لكم نصب على الحال تعلق بها لكم وهو ذو الحال، ولا يجوز أن يكون صفة لها لعدم جواز تقديم الصفة على الموصوف، والعامل معنى الإشارة ﴿فَذَرُوهَا﴾ واتركوها تخلية لها على حالها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ وترتقي ما فيها من الحشائش والعشب والكلاء وشرب الماء فيها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ إذ ليس عليكم مسها ولا تأكل وتشرب مالكم ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ [هُود: 64] ويقهر عليكم ويؤاخذكم أخذًا وبيلًا وينتقم منكم انتقامًا جليلًا ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هُود: 64] وعقاب خطير وخطيب، لا يتراخى ولا يتأخر إلا يسيرًا، وهو ثلاثة أيام.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وقطعوها ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ وعيشوا ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ ومنازلكم ودياركم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تهلكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والموت والهلاك ﴿وَعْدٌ﴾ صادق ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هُود: 65] فيه، فاتسع فيه

مجرى العقورية كقوله ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: 103] يعني يوم شهدناه سليمًا وعامرًا أو غير مكذوب على المجاز كأنه للوعد يفي بك، فإذا وفى به فقد صدق ولم يكذب أو وعد غير مكذوب على أن المكذوب مصدر كالمخلود والمفعول والمصدوق بمعنى الصدق والخلد والعقل ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ زمان ﴿أَمْرُنَا﴾ وحكمنا عليهم بالعذاب نزّلنا العذاب عليهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ من بينهم ﴿صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ووفور عناية ونعمة سبقت منا ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ وعذابه وإهلاكه إيَّاهم بالصيحة في الدنيا وفضيحتهم في الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هُود: 66] القادر على كل شيء والقاهر الغالب.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وكفروا وجحدوا وعقروا الناقة ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ أخذ القاهر المنتقم شديد البطش بأن صاح جبريل بهم وصارت عليهم صيحة وصورة واحدة في الكم كثيرة في الكيف، فإن كل أحد يحسب بآية واختلاف استعداده وتغاير قابليته يستهلك ويهلك، وإن كان سبب الإهلاك وعلّة الهلاك وهو الصيحة واحدًا ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ وصاروا ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هُود: 67] هالكين وصرعى وموتى وهلكى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هُود: 68] ولم يقيموا أو يكونوا وتوحدوا فيها الملائكة.

عن ابن عباس رضي الله عنه: وجاء جبرائيل وملكان معه، وقيل جبرائيل وإسرافيل وميكائيل، أو كانوا تسعة، أو أحد عشر على صورة العلماء بالبشرى بالولد أو بهلاك قوم لوط، والظاهر هو الأول ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلَّمنا عليك سلامًا نصبه بقالوا بمعنى اذكروا، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم في جوابهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ يعني جوابي وعليكم سلامي ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وأبطأ في المجيء بل عجل وأسرع فيه ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾ ولد بقرة ﴿حَنِيذٍ﴾ [هُود: 69] سمين مشوي.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ ولا يمدها لديه ﴿نَكِرَهُمْ﴾ وأنكرهم وخاف منهم واستكرههم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أدرك وأحسّ أو أضمر ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم إنَّا ملائكة الله ورسوله ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هُود: 70].

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هادان بن ناسور عم إبراهيم ﴿قَآئِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم. وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل وإبراهيم جالس معهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ [هُود: 71] سارة امرأة إبراهيم أي حاضت في الحال والوقت الحاضر. قال بعضهم: لما قدم إبراهيم الطعوم إليهم فلم يأكلوا فخاف فظنّ

إبراهيم أنهم لصوص فقال: ألا تأكلون، قالوا: لا نأكل الطعام إلا بالثمن، قال إبراهيم لهم: إن لهم ثمنًا، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تأكلون باسم الله على أوّله وتحمدونه على آخره. فنظر جبرائيل إلى ميكائيل وقال: أحق بهذا أن يتّخذه ربّه خليلًا. فلما رأى إبراهيم وسارة لا يمدوا إليه أيديهم ضحكت سارة: يا عجبًا لأضيافنا إنّا نتخذهم بأنفسنا مكرمة وهم لا يأكلون طعامنا. قيل: ضحكت عن غفلة قوم لوط وقرب العذاب أو من خوف إبراهيم أو بالبشارة بولادة ولد هو إسحاق بوجود كبر السن.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هُود: 72] وفي هذا المقام تقديم وتأخير ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُود: 71].

إشارة وتأويل

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ﴾ إلخ، إشارة إلى الدورة الثالثة من الأدوار الأربعة الفرعية الحيية، وهي الدورة الوسطى النورية الوجودية التي هي أول اليقين فيها صالح النفس المطمئنة. قد علمت أن أقسام الحياة كأقسام العلم أربعة:

وأن القسم **الأول**: الذي مظهره نوح كان ربّ فرداريّة تلك الدورة العظمى من الأدوار المذكورة هو الحياة الروحانية.

والثاني: مظهر هود الحياة الشبحية.

والثالث: هو الملكية والشهادة.

والرابع: هو الحياة الناسوتية. فربّ الدورة الثالثة هو صالح، والرابع هو شعيب ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي في الأدوار السابقة لتساويهم فيها في قوة الكمال الجمعي وإمكان الجمع الكمالي ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ في المرتبة الروحانية والرتبة العقلية في الدورة الكبرى النورية العلميّة ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ [هُود: 62] إشارة إلى نهاية مراتب العلم، إذ الشك من أفهام التصورات التي هي في المرتبة العقلية رتبة مطلق التصور مجرّدة عن حكم التركيب، والصورة الجمعية، وعلم الترتيب.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ وصورة ترتيب وهيئة تركيب ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هُود: 63] وهيئة جمعية أو جذبة علمية أو كشفية بعد استكمال أطوار النظر والفكر من شهود البصيرة ومشاهدة البصر، ومن يمنعني من الله إن طردته وعصيته بذنبه.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ أي النفس المطمئنة لما كان ظهور صالح في الطور السري الذي هو مرتبة الفؤاد الذي هو أول مرتبة طور كشف القلب، الذي هو عبارة عن الصورة الجمعية الروحانية والنفسانيَّة والجسمانية ولا ارتياب أن هذه الجمعية إنما تتحقق إذا انقادت النفس الأمَّارة وسائر النفوس للروح والعقل واستخرجت عن صخرة المرتبة الجسمية، وقد كانت الأعيان النورية والأكوان الظليّة داخلة تحت قيود النفسانيَّة والحدود الجسمانية، ولم يمكن خروجهم عن هذه القيود والحدود إلا إن خرجت النفس عن صخرة المرتبة الجسمية والحجرية النفسية، فإذا طلبوا عن صالح الطور السري والفؤادي ﴿ءَايَةٗ﴾ دالّة على انجراد النفس وانفرادها عن قيود التعليق المذكور ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ أي القابلة الكاملة الجمعية عشب المعارف الإلٰهيَّة والعوارف الربانيَّة وشربت ماء الحالات القلبية والمقامات الغيبية والمشاهدات الرّبيّة ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هُود: 64] وهو عذاب النفوس الثلاثة: الأمَّارة واللوَّامة والملهمة بأن عطفت عن ما لو فاتها ومنعت عن عرصة معلوماتها.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي القوى النفسانيَّة مع النفوس ﴿فَقَالَ﴾ صالح الطور السرِّي ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ [هُود: 65] ذلك العذاب والعود إلى البعد من جنة أرض الله.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [هُود: 69] إشارة إلى الدورة من الأدوار الأربعة الحيية الفرعية، وهي فروع الدورة الصغرى التي هي مجمع اقتضاءات الأدوار السابقة النورية الأصلية والفرعية، وإبراهيم عبارة عن صاحب الدورة التي أول عين من أعيان هذه الدورة الصغيرة الجمعية إبراهيم والرسل هم عبارة عن أصحاب هذه الأدوار الأربعة الأصلية الفرعية النورية كما أشار إليه من أصحاب التفسير محمد بن كعب أنه قال: الآن جبريل ومعه سبعة نفر من الملائكة من قال أنهم كانوا أحد عشر فهو إشارة إلى الأدوار الثلاثة التي هي بقية مقتضيات الأسماء الأربعة الذاتيَّة التي هي: العليم والحي والقدير والمريد، ظاهرها أرباب الأدوار

النورية الجمالية وباطنها الأكوار الظليّة. وتلك الأدوار هي المنسوبة إلى الأسماء الثلاثة الذاتيَّة، أعني السميع والبصير والمتكلِّم. وهذه الأدوار مركبة، وتلك بسائط ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ إشارة إلى القوة النظرية والعملية وإلى النبوة والولاية وإلى مقتضى الجمال ومرتضى الجلال ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هُود: 69] أي ثمرة مقتضى جمعية القوة النظرية والعملية والنبوة والولاية، ومقتضى جمعية النور والجمال باطل، والجلال إشعار بأن العجلة والإسراع والمبادرة والخيرات والإسراع في إجراء الحسنات والمبرات واجب.

قال عليه السلام: «**عجِّلوا بالصلاة قبل الفوت، وعجِّلوا بالتوبة قبل الموت**».

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ إشارة إلى عدم مؤاخذة الأعيان النورية والظلية الجمعية المحمدية، والهيئة الجمعية في اللطيفة الإلٰهيَّة والكليَّة الغيبية التي مجمعها وموطنها ومنبعها هو إبراهيم الصورة الجمعية، وإلى أن المولود الجني لا يوافق المولود الإنسي، ولا يدخل تحت حكمه ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ﴾ لإبراهيم الجمعية القلبية ﴿لَا تَخَفۡ﴾ [هُود: 70] عدم اجتماعنا وانتفاء موافقتنا بك فإنَّا صائرون بالذات إليك وسائرون طبعًا وكرهًا لديك وعلى جميع الكمال والكمال الجمعي صابرون.

تفسير

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هُود: 72] يريد عجبًا عجبًا سيدي شيخًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هُود: 72] يريد أن يولد لابن مائة سنة وأكبرها وأنها حرمت الولد في نشأتها وأعطيته في كبرها.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ يريد من قضاء الله وكمال قدرته ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ يريد تحيَّة الله وبركاته البركة بعينها ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هُود: 73] يريد إنه حميد مجيد لديكم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ يريد الفزع ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هُود: 74] قال إبراهيم: يا جبرائيل تخسف بمدائن فيها مسلمون؟ قال جبريل: إن كان فيها خمسون أهل مسلمين لم أخسف لهم، قال إبراهيم: فيها أقل، قال جبريل: إن كان فيها خمسة وعشرون أهل مسلمين، يريد خمسة وعشرين إنسانًا، لم أخسف بهم، قال إبراهيم: فإن أقل فيها؟ قال جبريل: فإن فيها خمسة بنات من المسلمين، يريد من الموحدين، لم أخسف بهم كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الآية: 36] يريد بيت لوط.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ يريد لا ينتصر لنفسه من شيء فقط إلا لله، ولم يعاقب أحدًا بذنب صنعه إلا لله، وفي الله، ولم يغضب إلا لله وفي الله ﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هُود: 75] يريد كثير الدعاء والبكاء، ﴿مُّنِيبٌ﴾ يريد التارك المعاصي، الراجع إلى ما يحبّ الله ويرضاه.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال والمناظرة ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذاب ربّك ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هُود: 76] ولا دافع ولا رادّ.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [هُود: 77] أي القوة وهو يحتطب فسلّموا فردّ عليهم ثم حمل خطيئته على نفسه ودعاهم إلى ضيافته، فلما دخل بهم المدينة ومرّ بهم قالوا هذا مع لوط حاجتنا قوم ما رأينا أصبح منهم، قوموا بنا إليهم، فقال لوط: اشهدوا أنكم قوم سوء، فقال: إسرافيل عن يمين جبرائيل وميكائيل عن يسار جبرائيل صلّى الله عليهم أجمعين: اشهدوا أنتم قوم سوء، فقال جبريل لإسرافيل وميكائيل: اشهد أنتم جار بهم إلى قوم آخرين، فقالوا مثل ذلك، فقال لوط: إنكم قوم سوء، فقال

جبرائيل: أشهد أن هذه ثلاث شهادات شهد بها عليهم نبيّهم ولوط لا يسمع، وهو يظن أنهم ناس ولم يظن أنهم ملائكة حتّى انتهى إلى منزله ففتح الباب ووضع حطبه وخرج إليهم فقال: ادخلوا، فأتى قومه حتّى ملؤوا البيت والحجرة والدار ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ يريد ساءه ذلك لمكان قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هُود: 77] شديد، مخافة من أذى قومه وأضيافه.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون يريدون الفاحشة ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يريد الشرك ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ وكان رؤساؤهم خطبوا إليه فلم يزوّجهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي أنا أزوجكم أو زوجتكم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يريد أن يردوا قومه عن أضيافهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هُود: 78] يقول الحق، يريد هؤلاء أضيافي.

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ من شهوة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هُود: 79] يريدون أنك لتعلم أنا لا نريد النساء وإنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ يريد لو أن معي جماعة أقوى بهم عليهم ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: 80] يريد من العشرة أو مؤمنين معي.

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾

﴿قَالُوا۟﴾ جبريل ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ يريد معك يريد كامل ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في ظلمة الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ يريد لا يغتمّ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هُود: 81].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ يريد عذابنا ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هُود: 82] يريد أدخل جبريل جناحه تحت المدائن، يريد بجناح واحد، حتَّى أقلعها فصعد بها إلى سماء الدنيا حتَّى سمعوا أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك، فلم تلق لهم جرة ولم ينكسر إناء، ثم غشاها الجناح الآخر بالحجارة، فذلك قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ [النّجْم: 53] يريد أهوى بها جبرائيل فغشاها ما غشا، يريد غشاها بالحجارة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ [النّجْم: 55] يريد فبأي نعم ﴿رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النّجْم: 55] وتكذب. وكانت مدائنهم خمس مدائن فدمرت الأذرع وحدها بترها الله لعيال لوط ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هُود: 82] يريد اسم سماء الدنيا سجِّيل ﴿مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ [هُود: 82- 83] يريد مقدّرة منضودة يريد يتلو بعضها بعضًا ﴿عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد قومًا من أمتك ﴿بِبَعِيدٖ﴾ [هُود: 83].

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ أقول: يا عجبًا أصله في الشرّ، فأطلق في كل أمر فظيع ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ بنت تسعين أو تسع وتسعين ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ وزوجي حال كونه ﴿شَيۡخًاۖ﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين سنة، والعامل فيه معنى الإشارة قرئ بالرفع على أنه خبر محذوف، أي هو شيخ، أو خبر بعد خبر، أو منصوب على المدح ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هُود: 72] من أن يلد ولد من هرمين وهو مستبعد جدًّا عادة لا عقلًا، فإنه قد ولد آدم من لا شيء وحواء من مذكّر فقط، وعيسى من مؤنث.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ وكمال قدرته ووفور حكمه وحكمته أن يقول لشيء أراده كن فيكون ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أعني وجودات الأنبياء، فإن أنبياء بني إسرائيل كلّهم منه أو السلطنة أو الحكمة والحكومة ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ نصبه إما على المدح أو النداء لقصد التخصيص نحو: اللهمَّ اغفر لنا أيتها العصابة، فإن أهل بيت النبوة قد خصَّهم الله بأشرف المنح وأفضلها فليست أمثال هذه النعم الباهرة والمنح الظاهرة عجيبة، وصورة غريبة، علّل به إنكار التعجب فإياك والتعجُّب فإن أمثال هذه الرحمة وأشباه هذه البركات والنِّعم متكاثرة عليكم ومن الله لا تنقطع

متوالية ومتتابعة متواترة ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ ومحمود ومحمد ﴿مَّجِيدٌ﴾ [هُود: 73] كريم، وتوافر النعم وتوافر الأيادي منه عميم عظيم، وأصله الرفعة والعلو.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ وهو ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وأُنزلت السكينة منه بالإيمان بهم والتصديق بوجودهم ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بدل الغمّ وعوض ما عرض عليه من الخوف والهمّ وإنه ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ [هُود: 74] إما كلام مستأنف دالّ على الجواب، أي لما ذهب عن إبراهيم الروع إلخ، اجترأ على خطابنا فتدرج لمجادلتنا، أو جوابه يجادلنا.

وإيراد المستقبل إما على طريقة الحكاية، أو لأن لما يرد المضارع إلى الماضي يرد على أن الماضي إلى المستقبل. أو معناه اتخذ وخاض وتوجّه وأقبل يجادلنا ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾. ويجادلنا إما بمعنى يكلّمنا ففاعله هو إبراهيم لأن إبراهيم كان سائلًا لا مجادلًا، فإن كان فاعله إبراهيم وكان يجادلنا بمعناه فمجادلتهم بهم أنهم قالوا لإبراهيم: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، فقال إبراهيم: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلًا مؤمنًا أتهلكونها، قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتَّى بلغ عشرة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها، قالوا: لا، فعند ذلك قال: إن فيها لوطًا، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العَنكبوت: 32] الآية إلخ.

قيل: كان في قرى لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فقالت الرُّسل لإبراهيم بعد ذلك: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ودع عنك ذاك المقال والقيل والقال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وحكمه وعذابه ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هُود: 76] ومصروف، لأنه قد جاء عن صواب فإن العذاب إذا نزل فلا مردّ له لا بجدال ولا بدعاء ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول، ورعون على كل من أساء إليه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ الصوت أي كثير الصوت، والتأوُّه أي التلفُّظ بالأوه والآه ﴿مُّنِيبٌ﴾ [هُود: 75] تائب وراجع إلى الله بما يحبّ ويرضى، وهي علامة دالّة على رقة القلب والميل إلى عالم الغيب وإلى ما لا يحوم حوله شكّ ولا ريب، يعني عالم الشهادة والغيب ومنشؤه ومقتضاه ومبدؤه، هي الخلة والودّ والمحبة الذاتيَّة. فإذا ترادفت أنوار الحب وتعاطفت أسرار غيب الحبيب تواترت الآن وتكاثرت الأوَّه من الإلٰه. نظمه:

آه من العشق وحالاته أحرقَ قلبي بحرارته

ما نظر العين إلى غيركم أقسم بالله وآياته

وذلك لأن الروح تقصد لأن تصل إلى عالم الحب والمحبة الذاتيَّة وعمد الهجران والمفارقة عن عالم العمران إلى عالم الشهود والعرفان بتشبث النفس برتيل الروح وجدته إلى عالم الحدثان، فحزن الروح واغتمّ محدث فيه حركتان وتوجهان متخالفان، العروج إلى سماء العهود، والخروج إلى أرض الجهات والحدود، محدث في ولد القلب والفؤاد المتحيّرين الأب والأم آه آه فحاكم العشق والحب الذاتي بينهما وجعل النفس أربعة للروح بحكم ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [النِّساء: 34]. وربما تتكاتف الحركتان فيحدث فيه حركة دورية وهي الوجد والوجدان يتكاثر فيه آه آه ويجلب الخضوع والخشوع. قال النبي عليه السلام: «**الأوّاه الخاشع المتضرِّع**».

قالت الملائكة لإبراهيم ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ [هُود: 76] قد سبق الكلام فيه. روي أن الله تعالى قال لهم: «**لا تُهلكوا قوم لوط حتَّى يشهد عليهم لوط أربع شهادات**»، فلما أمسى لوط معهم منطلقًا بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم، قال: أشهد الله أنها أشرُّ قرية في الأرض عملًا، قال ذلك أربع مرّات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ أي هؤلاء الملائكة على صورة غلمان مُرد حِسان الوجوه طيب الشفاه والفوه فإذا ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي حزن لوط بمجيئهم في منزله مخافة من شرّ قومه بناء على مجهول ساء أي صار ذا سوء وحزن وكآبة ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي قلبًا، تمييز من فاعل ضاق أي ضاق قلبه وشاق صدره. يقال: قلب فلان ضاق بكذا، إذا وقع مكروه لا يطيق بالخروج عنه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هُود: 77] شديد، من قولهم عصبه فلان إذا شدّه وأخذ منه العصب والعصابة.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ عند إخبار امرأته بقدومهم ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ أي قبل هذا الوقت وقوع الواقعة ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ والفواحش، فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتَّى جاؤوا يهرعون إليها مجاهرين بما قصدوا كما كان سوء عادتهم ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ واجعلهن طاهرات لتزويجكم وكانوا يطلبونهن قبل هذا فلا يجيبهم لعدم كفاءتهم وتحريم المسلمات

على الكفار ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك الشهوات والفواحش ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تفضحوني ﴿فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ في أمر أضيافي ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ﴾ أي بعض من بينكم ﴿رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هُود: 78] عاقل يهتدي إلى الحق ويهدي إلى الصواب والصدق وينهى عن القبح ويأمر بالمعروف ويمنع عن المنكر والفواحش.

﴿قَالُواْ﴾ قوم لوط له ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ وشوق واشتياق للتزويج ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هُود: 79] وتميل طبائعنا وترضى به صفائعنا، وهو أمر واضح لا يخفى على أحد.

﴿قَالَ﴾ لوط ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ يعني ليت أن يكون لي في نفسي قوة أن أدفع عن أضيافي ما أردتم وقصدتم من الفواحش ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ﴾ أي أرجع وأميل ﴿إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هُود: 80] يحضنني ويمنعني وأضيافي عنكم.

﴿قَالُواْ﴾ أي الأضياف والملائكة التي ظهرت بصورة الإنسان والوجوه الحسان ﴿يَٰلُوطُ﴾ ولا يضيق قلبك ولا تغمّ لأجلنا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ ولا إلى إضرارك ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ من الإسراء والإذهاب ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وطائفة منه ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلّف ولا ينظر إلى ورائه، فهذا النهي لكل أحد وفي المعنى للوط ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هُود: 81] على الاستثناء المفرغ بدلًا من أحد يعني إن لوط قد أخرج هؤلاء معه فما التفت إلى ما وراءه أحد ولا يتخلّف أحد منكم إلا امرأتك ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مُصِيبُهَا﴾ أي مصيب امرأته ﴿مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ من العذاب لما أنذر لوط قومه بحلول العذاب ونزول العقاب ووعدهم به وأمر بالإسراء بأهله طلبوا والتمسوا منه الموعد، فقال ﴿مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾، وقال: إني أريد أن أخرج في هذا الوقت، فقالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هُود: 81] فكيف يتمكن من الإسراء.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ وحُكمنا وعذابُنا ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بأن جعل جبريل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف ألف فرفعها كلها حتَّى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديك وزئير الذئاب ولم ينتبه نائم وما كان بينهم قائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هُود: 82] من طين متحجِّر معرب أصله مسيل الحجارة طين مشددة ﴿مَّنضُودٖ﴾ متتابع بعقب أحدهما الأخرى ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة لا يشاكل حجارة الأرض بقرينة قوله ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أو كانت مختومة عليها أمثال الخواتم أو

مكتوب على كل منها اسم من رمى به ﴿وَمَا هِيَ﴾ به تلك الحجارة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: 83] أي مشركيّ مكة أو المطلق أو المراد ظالميّ هذه الأمة.

وفي الآثار: ما من ظالم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه ساعة إلى ساعة. روي أن الحجر اتبع شدادهم ومسافرهم أينما كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم وكان [حجرًا] معلّقًا في السماء أربعين يومًا حتّى خرج منه فأصابه فأهلكه.

إشارة وتأويل

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ [هُود: 72] إلخ، إشارة إلى شرط تولُّد اللطيفة القلبية وكيفية ظهورها من تعلّق أب العقل والروح بأمّ النفس وظهور الصورة الجمعية العقلية والروحية والنفسية، فإن النفس ما دامت منغمسة في تدبير البدن بالغة فيه مبالغ الرَّين والظلمة ونهاية الشين والروح والعقل إذا تجرّد عن التعلق بالنفس بحيث انتفت المناسبة بينه وبين النفس والبدن بالكلية كالعقول المجرّدة الفلكية والنفوس العامية السماوية والسفلية الأرضية النباتية والحيوانية لا يتولد منها ولد القلب لانتفاء الوحدة الاعتدالية والهيئة الوحدانية المزاجية الزجاجية الدائرة على المناسبة العامَّة والنسبة الأحدية العامَّة الصامتة، ولذا اختصّ القلب بالإنسان دون الأفلاك والمركبات الناقصة من المعادن والنبات والحيوانات العجم. قال: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وكمال قدرته ووفور قوته وحكمته وتماميته ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هُود: 73] إشارة إلى القوة الفاعلية والقابلية والهيئة الجمعية، وإلى أن الخلق والإيجاد والتكوين والتولُّد واليدين وإنما تختص بالمركبات التامة والناقصة وهي الأجسام البسيطة والمركبة والأجرام الفلكية.

أما البسائط الحقيقية من الإلٰهيات أعني الذات والأسماء، والصفاتية الذاتيَّة والأفعالية فلا خلف فيها، بل يقال له الأمر كما أشار إليه بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]. وقد يطلق الخلق بمعنى الإظهار وكقوله تعالى: «**لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء، وقال لسائر الأشياء كن فكان، خلق الله القلم وآدم والفردوس وقال لها: وعزَّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ولا يشم ريحك ذنوب إنه حميد مجيد، وجمال وجلال، ونور وظلال، ونبوة وولاية، فرادًا أو جمعًا**».

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي عن الطور السري واللطيفة الفؤادية الذي هو مظنّة التجلّي الآثاري وموطن الكمال الجمعي الروع والميل إلى الأحكام الإفرادية والأحوال الفرداريّة ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي جذبات الأسماء الربوبية ﴿يُجَادِلُنَا﴾ [هُود: 74] إبراهيم الصورة الجمعية الصورية والمعنوية البدنية والنفسية ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي الأعيان القوى النفسانيَّة استدبرت سلطان القلب الجمعي والمساوئ البدنية والمنادي النفسانيَّة المدبرة من الإقبال إلى القبلة القلبية القبلية والقريبة الإلٰهيَّة، وإلى البعدية العبدية وإلى أدبار الإدبار رجع القهقري إقبالًا وإدبارًا إشارة إلى الفترة الواقعة والسقطة الرافعة في السلوك بعد الحركة والتنزُّل بعد الترقّي، والصعود والانفصال بعد الاتصال والإدبار بعد التوجه، والإقبال مطلقًا للفطرة الأولى في المولود الأول والعقل الكلي والعلم الأعلى. قال النبي عليه السلام: «**أول ما خلق الله العقل ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر**». ثم سرى هذا السرّ من الأملاك إلى السماوات والأفلاك وجرى في المنطقين منطقة معدل النهار التي قاطعت منطقة البروج على نقطتين متقابلتين بعد الانطباق مالت منطقة العالم عن منطقة البروج إلى حدٍّ معلوم.

ثم بعد ذلك أقبلها إلى أن انطبقت عليها كما كانت في الفطرة الأولى. وهاهنا صورة كثيرة كما بيَّنت في موضعها في علم الهيئة والنجوم واستنبطت أرباب الطلمسات من هذه الصور، طلمسات عجيبة وصور وهيئات غريبة، يتصرفون في نفوس بها تصرفًا لا يكاد ينحصر ويظهر ذلك الإقبال والإدبار في مقتضيات الأدوار والأكوار، فأدوار النور والجمال بأقسامها الأصلية والفرعية إنما يكون الإقبال وأكوار الظلّ والجلال من حيث إنها عكس الإقبال لا بدَّ وأن أحكامها بالإدبار ويسرّه حكم العكس في السماوات والأرض وأحوالها وتتبدّل أحكامها بأن تصير السماوات سفلًا، وانشقت وطلعت الشمس من المغرب وتغرب في المشرق وارتفعت الأرض وتبدّلت السماوات أرضًا والأرض سماء ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [هُود: 75] أي اللطيفة السرية والطور الفؤادي الحليم قابل كلما يتصاعد من الأطوار القلبية من العلوم النظرية والإدراكات الفكرية والنفسية من آثار الأفعال الاختيارية والأعمال الإرادية والإدراكات الحسيَّة، ومن الأطوار

القلبية القالبية من أنوار العبادات البدنية والطاعات الجسمية من مقتضيات النور والجمال صريحًا ومن مرتضيات الظلّ والجلال ضمنًا، أو أنه خارج مما في بطن جمعية الكل صور علم اليقين، مستعد لأن ينقلب إلى صفة غير اليقين بصور التجلّيات الآثارية والأفعالية والآثارية سماته ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى مقام شهود ذلك الوجه في المظاهر الآثارية السماوات وما فيها من الكواكب والأنوار السبعة الملوية المنسوبة إليها الأسود لزحل والأزرق للمشتري، والأحمر للمريخ، والأصفر للشمس، والأبيض للزهرة، والمتلون للعطارد، والأخضر للقمر، والأملاك العاملة، فالتجلي بصورة هذه المذكورات هو الأثري كما شاهد الخيل بصورة الكواكب، وكذا إذا شوهد بصور العناصر والمركبات، كما شاهد موسى بصورة الشجرة، ونبيّنا عليه السلام بصورة الإنسان.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ [هُود: 76] العلم النظري والإدراك اليقيني إلى عين اليقين والتجلّي ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البَقَرَة: 260] فإن القلب لا يطمئن إلا بمشاهدة ما علمه بعلم اليقين أنه قد جاء أمر ربّك، وهو الحديث الإلٰهي والجلب الرباني إلى ما كان عليه في الفطرة الأولى في بداية الأدوار إشارة إلى عدم شرائط آياته الأعيان اللوطية، وعدم رجوعها إلى جمعية إبراهيم الطور القلبي والطور السّري الذي هي مظنّة التجلّي الإلٰهي ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هُود: 76] أي عذاب الجذبة الإلٰهيَّة والجلّية الربانيَّة المعينة لتمام الأعيان النورية الإفرادية التي استدبرت الجمعية القلبية والهيئة الكليَّة الغيبية.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ أي لما جاءت وظهرت جذبات الإلٰهيَّة التي هي أدوار النورية ﴿لُوطٗا﴾ أي الطور الصدري أو الوجه السرّي ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هُود: 77] لعدم استئناف الطور الصدري، وهو الوجه القلبي الذي يلي الطور النفسي بالجذبات الإلٰهيَّة.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ أي لما انقلب الوجه القلبي من النفس إلى عالم الغيب ومقام القدس ليصل إلى مرام الشهود والأنس توجهت القوى النفسانيَّة والمبادئ الإنسانيَّة من المشاعر الظاهرة والباطنة والقوى المدركة والمحركة ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هُود: 78] أي يتقيدون بالأمور الكليَّة والجزئية الصورية

والمعنوية الحسيَّة والفعلية القلبية النفسية.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هُود: 81] أي القوى العملية والمبادئ العلميَّة الداخلة تحت سلطنة سلطان القلب الجامع للأطوار السافلة والعالية إشارة إلى تفاوت مراتب الأعيان النفسانيَّة والقوى الروحانية والآلات الجسمانية، وكيفيَّة تعديلها وكمية تكلمها، فمن أراد أن يكمل القوى النظرية ويعدل القوة العملية فعليه أن يزكي أولًا النفس العاملة وينفيها من فضولات الشهوات وتراعي المشتهيات وكدورات الطبيعيات وظلمات الزهوات ورعونات الزهرات. ثم يقبل ويتوجه إلى تصفية القلب عن ظلمات الفترات وتخليته عن مقام الغفلات لئلا تتخلّف القوة النفسانيَّة عند التوجه إلى المبدأ الأولي والمنشأ الأعلى ومقام الكمال الجمعي والجمع الكمالي الأبهى.

فإذًا لا بدّ وأن يعامل معها ما يعامل بالقوى الطبيعية لتعتدل القوى البدنية والمبادئ الطبيعية ثم يكمل بها القوى النفسانيَّة المدركة والمحركة ثم الروحانية والمنادي القلبية، ثم يجمع معها جمعًا حسنًا ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ أي ما يدل على الطمس الإلهي والغمس الرباني وهو ظهور شمس التجلّي الذاتي إما بصورة الآثار أو بغرز الأفعال أو درر الأسماء والصفات فعند ذلك جعلنا عاليها سافلها.

تفسير

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ يريد أن شعيبًا بن أبيهم وهو شعيب بن بويه بن مدين بن إبراهيم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ يريد ما لكم من خالق ولا رزّاق غيره ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ يريد الخصب الذي كانوا فيه ورخص الأسعار ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هُود: 84] يريد إني أخاف أن يحط سخط الله عليكم وعذابه وهو القحط.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هُود: 85] ولا تغبنوا الناس أموالهم ولا تنقصوهم ولا تسيروا في الأرض الفساد.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أي دين الله ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ مصدّقين ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هُود: 86] بمسيطر.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ دينك ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ قطع الدنانير والدراهم ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هُود: 87] السفيه الجاهل.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ [هُود: 88] حلالًا ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ عندما أريد أن أفعل ما أنهاكم عنه ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ فيما بيني وبينكم، أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويفعلوا كما يفعل من يخاف الله ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ الذي لما أستطيع ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: 88] مصيري ومرجعي.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ يريد لا عليكم خلافي إياكم فيعصوني ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هُود: 89] يريد قد كنتم لهم جيرانًا وقرابة وقد رأيتم ما أصيبوا به وما صاروا إليه من سخطه وعذابه.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هُود: 90] ليس في القرآن غيرها، رحيمًا بأوليائه ومن صدَّق أنبياءه وأدى لهم مع المحبة والرحمة.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ لقتلناك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هُود: 91] ما أنت عندنا بمنيع.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾

نصف الجزء: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ المنيع القوي ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ﴾ يريد ألقيتموه خلف ظهوركم وامتنعتم من قبلي مخافة قومي، والله أعزَّ وأعظم وأجلّ وأكرم من جميع خلقه ﴿رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [هُود: 92] قد أحاط عذابه بكم.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ أقول: أرسلنا إلى أولاد مدين بن إبراهيم ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ الذي وصل من آدم إلى نوح، ومن نوح إلى إبراهيم، ومنه إلى شعيب التابوت وعصا، ومنه إلى موسى عليه السلام، وهو خطيب الأنبياء لقومه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ﴾ والكيل ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أما الأول فيقدر بها المأكولات غالبًا، والميزان منه، والمذارع ما يعرف به الطول

والامتدادات ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ﴾ ندٌّ لكم لسِعَة الرزق وكثرة في الأموال، أو بنعمة حملتكم على التطفيف، أو برحمة من الله ونعمة يتفضّلون بها على الناس شكرًا عليها كما أمر الله به بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضّحى: 11] لا أن تنقصوا حقوق الخلق وأداء الشكر عليها، أو بنعمة ظاهرة وباطنة، فلا تزيلوها عنكم لجرمكم على ما يسلبها عنكم ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هُود: 84] في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ صرَّح الأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضدّه مبالغة، وبيَّنها على أنه لا يكفيهم الكف عن نعمة التطفيف بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة، أو ليجزم على حرمته لاحتمال أن يقال بأن النهي تنزيهي لا تحريمي، أو لأن الإنسان غالب على النسيان، والنهي إنما يتقرّر ويتمكن ويحضر عند النفس إذا قرن بالأمر والأشياء إنما تحفظ بالأضداد لا بالأمثال والأنداد، والقسط بالعدل والسوية والازدياد إيفاء وإحسان ومندوب غير مأمور به ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ تفسير بعد تخصيص فأعمّ من أن يكون في المقدار أو في غيره ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هُود: 85] فإن العثور والبغي والخروج في الأرض من غير مصلحة وحق فيه تنقيص الحقوق مع أنواع المفاسد الدينية والدنياوية.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ لبقاء حكمه من الحلال أو التنزيه مما حرَّم عليكم من النجس والتطفيف ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بشرط الإيمان بالله وبحكمه باستتباع الثواب والنجاة من أنواع العقاب، والاستصعاد بدرجات الجنَّات، والاستبعاد عن شقاوة الدركات ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هُود: 86] من ارتكاب القبائح واكتساب الفضائح إذا حفظ عليكم أعمالكم فأخبرتكم عليها وإنما أنت مبلِّغ ناصح وهو يخبر عما هو خير لكم.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ وما ابتدعت به عن نفسك ﴿تَأۡمُرُكَ﴾ بأن تأمرنا بالتكليف ﴿أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هُود: 87] من الأصنام والأوثان؟ كان شعيب كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تنافروا وتضاحكوا، اقتصدوا بقولهم: أصلواتك تأمرك بالسخرية والهزاء، وإن جاء أن تكون الصلاة آمرة وناهية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العَنكبوت: 45] الآية. أو

أن نفعل أو أن نترك.

قيل: كان قد نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم وزعم أنه محرم عليهم، يعني أن الأمر بترك عبادة الآلهة والمعبودات أمر باطل لا يقدم عليه عاقل ولا يرضى به داعٍ عقلي ولا راعٍ، فطريقي لا يأمر به إلا المجانين والموسوسة الشيطانية والموسوسون من بعض الأقوال والأحوال وهو صلاتك التي تأمرنا بترك التطفيف والبخس والاقتناع بتبخيس القليل من الحرام الكثير ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هُود: 87] تهكمًا وسخرية كما هو عادة الناس الفطن أن يتعرضوا للأفعال الضدّ، فيقال للجبان شجاع وللئيم كريم وللغبي فطن. قيل: إنك لموصوف بيننا بالحلم والرشد، وهذا الأمر الذي يزاوله يخالف حالك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وعلم وحكمة وفقه ونبوة وبيان، على بصيرة ﴿مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ أي من لدنه أي من عند الله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هُود: 88] وهو رزق النبوة المخصوص بالأنبياء كما قال النبي عليه السلام: «**أنا أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**» أو الشهادة في سبيل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: 169 - 170]. ويدلّ عليه إفراد الضمير وهو رزق حلال طيب من غير بخس وتطفيف، وهو كان بين القوم كثير المال والجهات. وجواب الشرط محذوف فيسقيني، فيصح أن أترك ما أمرني به من ترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي ولا يبتغون إلا ذلك ولقد أنعمني الله ما يعم السعادات الآجلة والخيرات العاجلة، فكيف يصح لي أن أخالف أمره ونهيه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي ما أريد أنهاكم عن شيء أنا أعمله وأرتكب به. يقال: خالفت زيدًا إلى كذا إذا قصدته أو عنه إذا أعرضت عنه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي إصلاحكم بموعظتي ونصيحتي وبأمري ونهيي ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنًا منه بهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن رفيع وبرهان بديع على أن جميع السعادات المترتبة أسماها وأعلاها حق الله، والثاني حق النفس، والثالث حق الناس. ما مصدرية وقيل خبرية بدل من الإصلاح ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ قيل هو تهيئة أسباب الخير والحق والصواب لأصحاب الصدق وأرباب درجات الجنَّات ومراتب الثواب

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي قصّرت اتّكالي واعتمادي عليه واعتدادي لديه، فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته بل معدوم في نفسه ساقط عن درجة الاعتبار. وفي تفسير القاضي وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو مراتب العلم بالمبدأ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: 88] إشارة إلى معرفة المعاد والمبدأ وإلى أن أسلوبها منحصرة في هذه الأمور الثلاثة، وإلى أن الحاضر للكل وأن الحاضر عند الجزء والكل هو الله.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [هُود: 89] مثل كَسَبَ تارة يستعمل متعديًا إلى مفعول واحد، وأخرى إلى مفعولين، وإلى أن الحاضر للكل، وأن الحاضر عند الجزء والكل هو الله، يقال: جرم ذنبًا وكسبه وجرمته ذنبًا وكسبته إياه أي لا يكسبكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ كثرة خلافي وشدّة اختلافي مضافًا إلى المفعول وفاعله متروك أي شقاقكم وكثرة خلافكم في يستحقونكم ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ مثل الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: 89] واقعة أو دارًا وبقعة ودورًا ومدارًا بعيدًا.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ كثير الرحمة، غفير المغفرة للتائبين ﴿وَدُودٌ﴾ [هُود: 90] فاعله لهم من اللطف والإحسان، وعدل على التوبة بعد الوعيد على الإضرار بالمخالفة والإضرار الشديد والإدبار المديد.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ونفهم وندرك ونعلم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ في التوحيد والإبقاء بعد الإبعاد والتبعيد والانغماس في التقلُّد والتقليد والاندراس في غياهب التقيُّد والتقييد ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ ضرير البصر، كثير النظر ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ وعشيرتك وقبيلتك يمنعونك ويحصنونك منا ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ وقتلناك بأقبح الوجوه بعد الشتم باللسان والقوة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هُود: 91] مكرَّم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ وقومي ﴿أَعَزُّ﴾ وأقوى وأبرّ ﴿عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأهيب وأخطر وأخطب وأرغب وأرهب من الله، والحال أن الله خلقكم ورزقكم وكان تركِكم قتلي لأجلهم، فالأحرى بهم أن يحفظوني في الله فعليكم أن تحفظوني مثلهم في الله ولله لتكونوا في دعواكم صادقين، والحال إنكم ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي بنديم أمر الله وحكمه وراء ظهوركم نسيًا منسيًا ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بعملكم أو بكل ما فعلتموه وعملتم به من البخس والتطفُّف وقولكم

في قوم شعيب ﴿مُحِيطٌ﴾ [هُود: 92] لا يعزب عنه ما فعلتم وعملتم.

إشارة وتأويل

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هُود: 84] إشارة إلى ما قارن بصاحب آخر الدورة الصغرى وتكراره إشعار بأن لكل دورة وكورة، دنيا وآخرة، وما يلزمهما من الأفلاك والسماوات وحركاتها والأرض وهيئاتها وطبقاتها، وما يستكنّ فيها من الأعيان الجنيَّة والحيَّات والعقارب وغير ذلك مما ورد في الأخبار من مقتضيات الأدوار ومرتضيات الأكوار الأولى في النبوة، والثانية في الولاية، وبأن في كل دورة ومرتضى كورةٍ دنيا وآخرة، وفي كل دنيا ينعت الله الأنبياء والحكماء والأولياء، ويبيِّن ويعيِّن يقينًا وينزل كتبًا ويرسل رسلًا ويضع شريعة ويبيِّن فيها أحكامًا من العبادات والطاعات، ويظهر الحالات وأسرار المقامات، وأنوار المشاهدات، وأزهار المعاينات، وتنكشف أنوار التوحيد، وأنواع المجاهدات.

ففي الدورة العظمى يظهر التوحيد الذاتي بالعنوان الذاتي، وفي الدورة الكبرى التوحيد الصفاتي، وفي الدورة الوسطى التوحيد الأفعالي، وفي الدورة الصغرى التوحيد الآثاري، وفي الدورة النورية الجمالية الجمعية الإفرادية والتوحيد الصوري البشري «**خلق الله آدم على صورة الرحمٰن**»، وهذا التوحيد التشبيهي.

وأما التوحيد التنزيهي فهو الذي يكون في الأكوار الظليّة الجلالية الإفرادية التي هي باطن الأدوار وغيبها وأسماء هذه التوحيدات هي أسماء توحيدات الأدوار النورية من الذاتي والصفاتي والأفعالي والآثاري والصوري الجمعي.

﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ﴾ [هُود: 84] أي قانون القوة العملية، وهي علم التعبير والتأويل الذي يدرك به صحة الأعمال البدنية وفسادها من الطاعات والعبادات والحسنات والخيرات التي هي ثمرات الأوصاف والأخلاق ونتائج الملكات النفسانيَّة، فمن كان بصدد الإرشاد والتكميل ولم يعرف قانون التعبير وميزان علم التأويل والتصوير في الإرشاد حرام وهو في دعواه كاذب. والميزان أي قانون القوة النظرية التي يعرف بها صحة الأعمال القلبية والأحوال الغيبية والمقامات الرّبيّة والمشاهدات والعلوم الحقيقية والإدراكات الشهودية الحضورية، وهو النور الإلٰهي والتأييد الربّاني، فإن كان في تصور العلوم والإدراكات الحضورية

يسمى بالمنطق الرسمي والربّاني والتأييد السبحاني «**اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [هُود: 85] إشارة إلى شرط الإرشاد وقانون التكميل وهو العدالة والقسط الذي هو أمر وجودي من مقتضيات النور والجمال ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾ ولا تبالغوا في رياضات النفوس والمجاهدات بها كما هي شأن الربانيين والمنقطعين إلى الصوامع. قال النبي عليه السلام: «**لا رهبانية في الإسلام**». وقال عليه السلام: «**لا تبالغوا في رياضة النفوس لئلا تعمى، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي هي في الصدور**». ولا تنسَ نصيبك في الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ علمًا وعملًا وكشفًا وحالًا، وإنما كرّر النهي تنبيهًا على الانتهاء من المنهيات في غاية الصعوبة، وإن القواسر والموانع في غاية الكثرة.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي الأمر بالمعروف والعمل والانقياد بالأوامر والانتهاء عن المناهي والجذبات الرحمانية والتجلّيات الربانيَّة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ملتجئين إلى الله، المتجانبين في الله ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هُود: 86] إشارة إلى أن الهادي هو الله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النُّور: 54]. قال النبي عليه السلام: «**أنا مبلِّغ والله يهدي، وأنا قاسم، والله يعطي، وأنا منذر وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدي المهتدون**»، وذلك لأنه تحقق بالألوهية، وتخلّق بالربوبية. وقال النبي عليه السلام: «**تخلّقوا بأخلاق الله، لا يزال العبد يتقرَّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، وبي ينطق**».

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ [هُود: 87] أي تمتعك بالألوهية وهي الصلاة الحيثية الجامعة لأنواع العبادات كلها أي عبادات الأرواح والعقول والفكر والجن والنباتات والمعادن والحيوانات والإنس ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ نبوة وولاية وعلم وحكم وشهود تجليات ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ [هُود: 88] وهو التخلّق بالأخلاق الإلٰهيَّة والأرزاق الربوبية، وهو الفناء في الله، والبقاء بالله، والتخلُّق بربوبيته والإتصاف بألوهيته، كما قال تعالى: «**فبي يسمع وبي يبصر وبي يمشي وبي ينطق، يا عبدي أجعلك مثلي وليس مثلي**» و«**من قتلته فأنا**

ديته»، أو الرزق العلمي والرزق اللدني والعرفان الفطري والإدراك المركب النظري وتضاعفه الذي يزداد شيئًا فشيئًا إلى غير النهاية.

فإن كلًّا من هذه الأمور المذكورة يقبل التضاعف إما بتجدُّد الأمثال وتعدُّد الأحوال وهو عام يشمل الكلّ، وإما يتعلق الإدراك بها والإدراك بالإدراك إلى غير النهاية، فإن علم الله تعالى الذي هو الحضوري الشهودي إما بداية يقبل أو في ضمن شهود العارف بالله بعلم الله بحسب استمراره وامتداده امتداد نعمة الإمكان والممكن في الزمان والمكان، فيتضاعف آنًا فآنًا إلى غير النهاية، إذ التكرار في التعطيل في تكوين الله وخلقه محال ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15]، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: 29]. وهذا النوع من العلم والإدراك المضاعف إنما يختص بالله لا يوجد في غيره، ولذا أضاف إلى نفسه في الموضعين إشعار بأنه نوعان: نوري جمالي وجلالي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هُود: 88] وإنما نفى الإرادة إشعارًا بأنه لا يرضى بخلاف الإرادة فضلًا عن خلاف المراد ومخالفته.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ في الدورة العظمى، طوفان مائي لغلبة ماء الطبيعة على نفوسهم ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ في الدورة الكبرى النورية، طوفان هوائي لغلبة الأهوية النفسانيَّة عليهم ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ عند غلبة هواء الآراء والأهواء ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: 89] عند غلبة ريح الدبور وإدبار الأدبار من النفس الأمَّارة ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [هُود: 90] وارجعوا إلى المرتبة الجمعية الهوائية.

تفسير

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يريد ما أنتم عليه عاملون ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ يريد إني قائم بدين الله ورسالته ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ليس في القرآن سوى غيرها ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: 93] يريد ارتقبوا العذاب إني معكم رقيب من الله والثواب لي ولمن آمن معي.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يريد الرحمة بعينها ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ليس في القرآن غيرها، وكل شيء في القرآن: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يريد صيحة جبرائيل ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هُود: 94] يريد أجسادًا أو أرواحًا.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ كأن لم ينعموا فيها بعيش ولذَّة ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هُود: 95].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يريد التوراة وما أنزل فيها من الأحكام وهي الفرائض ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [هُود: 96] يريد حجَّة بيِّنة أن الله يغرق وقوته جعل في عصاه عذابًا ونقمة، وجعل لها لحمًا ودمًا يأكل الأشجار ويقطع الصخور والخشب، ويفعل كل ما يريد موسى ثم تعود كما كانت ليس يقوم لها جميع الخلق ولا يقوى عليها أحد إلا الله وحده لا شريك له، وأمرها أعظم من كل ما يوصف.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أشرافه ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ جلالة فرعون ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هُود: 97].

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ كما يقدم قومه في الدنيا إلى البحر فأغرقهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هُود: 98] يريد بئس ما ورد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أشدّ وأخزى ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هُود: 99] يريد بالرفد الغنى والمعونة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الخبر الذي قدَّمناه هو يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يريد خبر أهل القرى، يريد المدائن ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هُود: 100] يريد منها ما يفي أمره ومنها ما انقطع فلم يبق منها شيء.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ وما أنقصناهم في الدنيا من النعيم ولا من الرزق ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يريد حيث ادّعوا الربوبية واستحقوا وقالوا ما لا ينبغي أن يقال من الاستخفاف بحقوق الله ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ يريد أن لا يرد عنهم بأس الله ولا عذابه ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هُود: 101] يريد تخيير.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يا محمد ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ بطش ربّك ﴿إِذَآ أَخَذَ﴾ أهل ﴿ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ يريد بالجراءة على الله والاستخفاف بحقوقه ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: 102] يريد بالشديد الشدّة بعينها.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هُود: 93] أقول: على توادكُم وتمكنكم. يقال: يعمل على مكانته إذا عمل تواده وتمكّن. وفي الكشاف: لا تخلو المكانة من أيّنا تكون بمعنى المكان، يقال: إمكان ومكانة ومقام ومقامة، أو يكون مصدرًا من مكّن مكانه فهو مكين. والمعنى اعملوا قارين على جهتكم، كارين في مكانكم الذي أنتم عليه من الشرك والشأن، أو اعملوا كيف ما تعملون أنتم

متمكنين من عداوتي مطمئنين عليها ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ حذف الفاء هاهنا لكونه جواب سؤال كأنهم قالوا: فماذا يكون إذ عملنا نحن على تمكُّننا وعملتَ أنتَ، فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أننا الجاني والمحيط على نفسه في قوله، وذكرها في الأنعام تصريح بأن الإصرار والتمكن في العداوة سبب لذلك ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهلكه ويذلِّله ويذلَّه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسم له كقوله: (ستعلم الكاذب والصادق) قابل لأنهم لما أوعدوه والكَذَبَة قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من المعذَّب والمكذّب والكاذب مني ومنكم، وكان القياس أن يقول: ومن هو صادق، ليتصرف الأول إليهم، والثاني إلى الثاني، إلا أنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في زعمكم ودعواكم تجهيلًا لهم ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا ما أقول لكم وأنذركم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: 93] منتظر ومرتقب وراقب والمراقب.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هُود: 94] وإنما ذكره فالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط، فإنه لما ذكر الوعد ورتّب الحكم عليه أشعر إلى السببية وهو وعد غير مكذوب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هُود: 81].

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ قيل: صاح بهم جبريل فهلكوا ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هُود: 94] ميتين بأن زهق روح كل واحد منهم وانقطع تعلُّقه بالجسم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ ويقيموا ﴿فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هُود: 95] قد سبق تفسيره في قصة نوح.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التوراة وسائر المعجزات والبينات ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ [هُود: 96] تسلّط على فرعون وآله بتلك المعجزات والبيِّنات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وحكمه ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ وشأنه ﴿بِرَشِيدٍ﴾ [هُود: 97] وهادي، رشيد وبادي سديد بل غي صريح وضلال وغي صحيح، والعقلاء يتّبعون الرشد والهداية لا الغيّ والضلالة والغواية.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار ودار البوار كما كان في الدنيا قادمًا لهم إلى الضلالة وقائدًا إلى الشقاوة ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ فأدخلهم فيها، تعبير الماضي يشعر بالتحقق بذلك ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هُود: 98] أي بئس المدخل والمدخل فيه،

أو المورود الذي وردوه فإنه يراد لتبريد الأكباد وتبعيد العطش وقلق الفؤاد، والنار بالضدّ. شبَّه فرعون بالفارط الذي يتقدَّم الواردة إلى الماشية وأتباعه بالوارد.

ثم قيل: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [هُود: 99] أي يلعنون في الدنيا والآخرة لعنة مستمرة إلى يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هُود: 98] أي العطاء المعطى والعون المعان لأن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت اللعنة في الآخرة وأصل الرفدة ما يضاف إلى غيره لتعمُّده والمخصوص محذوف أي رفدهم وهو اللعنة في الدارين والبُعد فيهما والخزي في النشأتين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المهلكة والديار الخربة ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ ذلك مبتدأ وما بعده خبر بعد خبر ﴿مِنْهَا﴾ بعض القرى ﴿قَآئِمٌ﴾ باقٍ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ [هُود: 100] وبعضها بما في الأثر كالزرع فإن منه قائم على ساقيه، ومنه حصيد لا يُرى له أثر ولا يبقى إليه نظر. وهذه الجملة مستأنفة ولا محل له من الإعراب.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ وأهلكناهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما يوجبه واكتساب أسبابها يقتضيه ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾ ومنعت ﴿عَنْهُمْ﴾ ذلك الظلم والإهلاك ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأصنام والأوثان ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي حال مجيئه وحلوله ووقت نزوله ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ أي وما زاد لهم ذلك الاكتساب ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هُود: 101] غير تخسير وندامة وتدمير.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل الأخذ المذكور ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ وانتقامه وإهلاكه ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بالتخريب وأهله بالتكذيب والتكريب والتعذيب ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هُود: 102] إذ القرى والأراضي تنقسم مثل أهلها إلى ظالمة وعادلةٍ، وطيِّبة وخبيثة ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعرَاف: 58]، والخبث الذي خبث لا يخرج إلا نكدًا أو مدركة وعارفة بالله وعابدة للّه ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: 102] أي مؤلم شديد الإيلام.

إشارة وتأويل

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هُود: 93] إشارة إلى تطور الشؤونات وتنوُّع النشئات في الدورات والكورات، فكأن القوة المبدئية تقتضي في الباطن عالم الغيب، وبداية الدورة العظمى النورية الوجودية بالتجلي

الذاتي بالعنفوان الذاتي والوجوه الأولى شؤونات ذاتية كذلك بالعنوان الوصفي، والوجود الأسمائي يقتضي في إنباء الدورة العظمى أن تتعيَّن تلك الشؤونات الذاتيَّة والموجودة الأولية بصور الحروف العالية والحقائق الإلٰهيَّة والأعيان الثابتة، وبالصور العلمية والماهيات الكونية البسيطة.

وفي الدورة الكبرى النورية يقتضي أن تظهر تلك الشؤونات بالعنوان التكويني والإبداع العيني الغيبي بصور الأملاك العالية والجواهر الشريفة الإلٰهيَّة والعقول والنفوس والأرواح، وفي الدورة الوسطى النورية تظهر بالصور الجسمية اللطيفة البرزخية والهيئة الشبحية، والمثل النورية. وفي الدورة الصغرى النورية تظهر بالصور الجسمية الكيفية أولًا بالصور أي ملكية ثم بالصور العنصرية، ثم بالهيئات التركيبية العدمية والنباتية والحيوانية، وفي الدورة الجمعية في عالم الناسوت تظهر تلك الشؤونات بتلك الاقتضاءات المختلفة والارتضاءات المنعطفة، في الأدوار النورية المتصرفة بالصورة الكاملة والهيئة الفاضلة الإنسانيَّة بما صدر منها من الأقوال الإرادية والأعمال الاختيارية والأحوال الغيبية والمقامات القلبية.

إلى أن تتمّ اقتضاءات القوة البدنية فحينئذ يتقلب إلى الاقتضاءات المعادية والارتضاءات الإلٰهيَّة ويصور الله تلك الأفعال الإرادية والأعمال الاختيارية والأقوال الطيبة والخبيثة والأحوال الغيبية والمقامات القلبية على ما تقتضيه المشيئة الذاتيَّة والإرادة الإلٰهيَّة والحكمة الربانيَّة بالصورة المناسبة والهيئات المتقاربة، ويشكلها بأشكال مختلفة وأمثال مهيبة من الجنة ونعيمها، من الحضور والحور والقصور والعلامات والهيئات التي تقابل ذلك، يعني بأدوار أعيان طوبى والرضوان والأنهار والحدائق والأشجار والأزهار والورود والأنوار وغير ذلك من النار وجحيمها ومن الهيئات والأشكال التي تقابل ذلك، يعني بأعيان الأدوار النورية الإفرادية والجمعية، وبأكوان الأكوار الوحدانية الظليّة والجمعية.

اعملوا في نشأتكم واعلموا في شؤوناتكم فإنكم تحاسبون على ما فعلتم، قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزّلزَلة: 7 - 8].

قال النبي عليه السلام: «**يا قيس إن مع العزّة ذلًّا وإن للحياة موتًا، وإن مع الدنيا آخرةً، وإن لكل شيء حسيبًا وعلى كل شيء رقيبًا، ولكل حسنة ثوابًا،**

ولكل سيِّئة عقابًا، ولكل أجلٍ كتابًا. وإنه لا بدَّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتُدفن معه وأنت ميِّت، فإن كان كريمًا أكرمك، وإن كان لئيمًا أساءك ثم لا خسران ولا تعب إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحًا فإنه إن كان صالحًا لم تأنس إلا به، وإن كان فاحشًا لم تسوء حشرًا إلا به»، وهو قولك: إني عامل بكم بجمعية تلك الأعمال والحركات والإدراكات والأحوال إلخ، حصلت في تلك الأدوار والأكوار، وإلى هذه النشأة التي تلاحقوني فيها.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هُود: 39] عند انتقال فرداريّة الحكم من الإفرادية إلى الجمعية الإفرادية وجمعية الجمعية أي جمعية الأدوار الجمالية المنفردة والأكوار الجلالية المتوحدة وجمعية جمعيتها في القيامات الواقعة في تلك الأدوار والأكوار فردًا وجمعًا، استقلالًا وتبعًا، أصالةً وفرعًا، فإن كل ما اكتسبه في الأدوار المذكورة والأكوار المزبورة من الأعمال والأفعال والأقوال والأحوال والعلوم والإدراكات المفردة والمتضاعفة والحالات والمقامات المتعاطفة يظهر في قيامه، يقوم في نهاية فرداريّة كل دورة وكورة، وفردية وجمعية أصلية وفرعية واستقلالية وتبعية ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يُونس: 61].

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ في هذه القيامات وهو صورة القيود وهيئة العقود التي يبتديها ويحشر معه فيمثل كل قيد وعمل وكل فعل وعقد وكل إدراك وعلم بصورة وشكل وهيئة، ومثل متقاربة حسنة أو قبيحة ملائمة وكريهةٍ ومسافرة ﴿يُخْزِيهِ﴾ وبصفات وثواب يخزيه في القيامة النورية الجمالية ويحلّ عليه عذاب يهريه ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ باقتضاء الفرداريّة الظليّة الجلالية ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: 93] لأنا متساوية الإقدام في الدور وفي النشأة الدنياوية والأخروية.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وحكم جمعيتنا في يوم القيامة، لدى انتهاء فرداريّة الأدوار الإفرادية ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هُود: 94] أي الصورة الجمعية الحاصلة في مقام الصدر، قد انتفى عنه شهود التجلّي الإلٰهي ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: 46].

إلا أنه في بعض الأحوال المختصة بالأنبياء فهو فيها بصير وعليم وخبير، فإن التجلّي الشهودي من خصائص الحضرة الختمية، ولذا قال عليه السلام: «**لقد**

تمنى اثنا عشر نبيًّا أن يكون من أمّتي ومنهم موسى بن عمران، وعيسى ابن مريم، وأن الله تعالى أعطاني شهود التجلّيات وأعطى موسى سماع الكلام». فمن الأنبياء من صدّق نبوّة محمّد وآمن بختميته فصدّقه، فقد اختط من التجلّيات لأنها من خصائص اليتيم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]. والتجلّي الشهودي من أخصّ خصائص مطلق الولاية، وصاحبه وهو آدم الأولياء علي المرتضى رضي الله عنه، قرين مع الحضرة الختمية لا ينفكّ عنه لا في الظاهر ولا في الباطن.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي جمعيَّة كليَّة ومعيَّة إحاطية ثابتة منا، وجمعية ذاتنا وصفاتنا وأسمائنا الذاتيَّة والأفعالية والآثارية، والصورة الحسيَّة الإنسانيَّة التي هي على صورة الرحمٰن «**خلق الله آدم على صورة الرحمن**»، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي انتقال الحكم من فرداريّة اسم إلى اسم آخر، ومن دورة إلى دورة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هُود: 94] في تعيُّنهم الحسيَّة وموتتهم الإنسية جاثمين مستهلكين فانين ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ ولم يتعينوا ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هُود: 95].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ [هُود: 96] إشارة إلى أن مقتضى الجلال الضمني ربما يظهر صريحًا في مظهر جليل يكون مقابلًا لما اقتضاه الفرداريّة النورية الجمالية النظير كمال التقابل، بل مقتضى اسمين صريحًا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [هُود: 97] الذي يكون حكم النور والجمال فيه ضمنًا مخفيًّا، وحكم الظلّ والجلال صريحًا، بعكس ما أمر فرعون ومقتضى ربّه الاسم الظلي الجلالي ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يا محمد ﴿لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: 13] يريد لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [هُود: 103] يريد عذاب النار ذلك اليوم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يا محمد ﴿لَـَٔايَةً﴾ يريد لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يريد عذاب النار ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: 103] يريد ليشهده البر والفاجر.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ١٠٤﴾

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هُود: 104] يريد إلا لوقت معلوم لا يعلمه أحد غيره.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ يريد لا تشفع الملائكة ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ والنبيُّون إلا بإذنه ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هُود: 105].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ [هُود: 106] يريد ندامة ونَفَسُه النار وشهيقًا وبكاءً لا ينقطع.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ يريد كما دامت السماوات والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ يريد أن هذا الاستثناء لأهل التوحيد ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: 107] يريد إخراجهم من النار إلى الجنة.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ فهم المؤمنون الذين لم يشقَوا ولم يلقوا الله بما استوجبوا النار ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هُود: 108] يريد غير مقطوع، وهذا الاستثناء يريد أنه لا ينقطع نعيمهم أبدًا.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ يريد في شكٍّ ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ يريد الشرك بالله ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ [هُود: 109] مثل قوله

تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ يريد نصيبًا ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الآيتان: 59- 60] يريد يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعزِّي النبي عليه السلام بذلك ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يريد فاختلف في التوراة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد يا محمد إن أخّرت أمّتك إلى الموت أو إلى يوم القيامة فمن تاب قبل الموت فنثبت عليه ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ يريد لعجَّلت عقاب مَن كذلك ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هُود: 110] يريد في تكذيبهم القرآن وما جئتَ به.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يريد جزاء ما عملوا به ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هُود: 111] يريد خبيرًا بطاعة أوليائه وخبيرًا بمعصية أعدائه.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾

﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ يا محمد ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هُود: 112] يريد أصحابك الذين تابوا عن الشرك ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ يريد تواضعوا لله ولا تتجبَّروا عليَّ، يريد أنه لا يرفع عمل عبدي في طغيان ولا تجبُّرًا بما أقبل، فالصلاة ممن تواضع لعظمتي وقطع ليله ونهاره في طاعتي، ولم يثبت مصرًّا على معصيتي، ولم يتعظّم على خلقي، يُطعم الجائع، ويكسو العاري، ويأوي الغريب، فمثله عندي كمثل الفردوس في الجنان، لا تأسن أنهارها، ولا يتغيّر حالها، أجعل لها في الجهالة حلمًا، يريد إذا جهل عليه حلم، وفي الظلمة نورًا، يريد يخرجهم من كل شرك في الدنيا إلى أفضل الرّشاد وعلى الصراط يجوز كالبرق الخاطف ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هُود: 112] يريد أنه لا يخفى عليه أعمال بني آدم قبل أن يعلموا ما هم عاملون.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أقول: في أخذ القرى وأهلها وسائر الأقوام المذكورة ﴿لَآيَةً﴾ واضحة وغيرة ناصحة ﴿لِّمَنْ خَافَ﴾ أي مخصوصة بطائفة آمنوا بالله ورسوله وبما جاء به من المواعيد والأخذ الشديد، وخاف منها إلا لمن هو مثل البهائم التي لا إدراك ولا فهم لها ولا يعلمون ﴿عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَٰلِكَ﴾ يوم الآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ يوم يجمع ويحشر الناس فيه ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: 103] وشهده أهل القيامة كلها وشدائدها ومواعيد فيه اتسع في الظرف حيث أجراه مجرى المفعول به كقوله: يوم شهدناه سليمًا وعامرًا أي شهد فيه الخلائق الموقف الذي لا يغيب عنه أحد. والمراد بالمشهود الذي كثر شاهدوه ومنه قولهم: لفلان مجلس شهود وطعام محصود، والغرض وصف ذلك اليوم لكمال الهول والعظم وشدّة الطول وامتيازه عن سائر الأيام كامتياز يوم الجمعة من سائر أيام الأسبوع بكونه مشهودًا فيه، وكذا قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البَقَرَة: 185] (الشهرَ)، منتصب ظرفًا لا مفعولًا به. وكذا الضمير في (فليصمه) يعني فمن شهد منكم في الشهر الهلال فليصم فيه ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥ﴾ أي ما نؤخر يوم القيامة وما فيها من الميزان والصراط والنيران ولا يقوم عليك اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هُود: 104] أي لانتهاء علّة معلومة عند الله، ومدة محكومة عليها بالانقضاء.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ الله ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: 210]. و(يوم) منصوب باذكر أو بلا تكلم أو بالانتهاء المقدّر أي ينتهي لأجل يوم يأتي الله فيه وإن علم أن هذا اليوم يوم طويل وأحواله عريض، وسيع وموافق، ففي بعضها يأتي إلى أهله، وفي بعضها يأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وفي بعض لا ينطقون ولا يُؤذن لهم فيعتذرون، وغير ذلك من الأحوال المعترضة لأهلها في المواقف المتعددة التي هي كالأيام أو ترى أيامًا.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هُود: 105] أي بعضهم سبقت لهم السعادة في الأزل، ولبعضهم الشقاوة. قال النبي عليه السلام: «**ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقيّة وسعيدة. فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: ولكن اعملوا فكل ميسّر لما خُلق له. أما أهل الشقاوة**

فيسيرون بعمل أهل الشقاوة، وأما أهل السعادة فيسيرون بعمل أهل السعادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5 - 10] الآية. فالسعداء وجبت لهم الجنة لإحسانهم، وأما الأشقياء فوجبت لهم النار لإساءتهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هُود: 106] أصل الزفر إخراج النفس والشهيق ردّه، فاستعملا في أول الشهيق وآخره. والمقصود بهما هو الدلالة على شدّة الكرب والعمق والقلق، ويشبهه حال من استولت على قلبه وانحصرت فيه وتضيق عليه أو بالجمر ومن هذا قيل: الزّفر أول نهق الحمار والشهيق آخره إذا ردَّده في جوفه. وهذا أيضًا من جملة أحوال الموقف إنما كان من أردأ أحوال أهل النار لأنه أشرّ أحوال الروح وأضرّه، ولذا قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمَان: 19] وهذا العذاب روحاني وهو أشدّ من العذاب الجسماني وهو الإحراق، والجسم يتعود بالنار فلا تؤلمه النار لاتحادهما في الجهة الواحدة الذاتيَّة، وهي الجسمية بخلاف الروح ونهيق الحمير فإنه لا مناسبة بينهما فيكون أشدّ عذابًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لابثين مقيمين فيها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ﴾ [هُود: 107] أي سماوات الجنة والنار وأرضهما، وكلما علاك وأظلّك في سماك، وكلما استقرّت عليه قدمك فهو أرضك ﴿هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ [الأنفَال: 32] القول عليه لما دلت عليه الشواهد النقلية والمعاهد العقلية من الكتاب والسنَّة وآثار السلف من أن في الآخرة سماوات وأرض، فلا بدَّ أن يكون المراد من ﴿السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ هو سماوات الأرض الآخرة، والأرض لها إذ لا سماوات يومئذ إلا سماوات الآخرة وأرضها. قال أهل العبارة: الغرض من هذا التعليق الدوام لأن المعلق عليه يتطرّق إليه الفناء كما يقال: الصلاة على محمد ما اختلف الليل والنهار، وما اخضرّت الأرض وتحرَّك الفلك الدوّار ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: 107] من الخلود في النار ومن الخلود في نعيم الآخرة كما يأتي لما تحقّق من أن الجنة درجات وحضائر ومراتب كثيرة بعضها فوق بعض وكذا للنار دركات وكذا نوع آخر من أنواع العذاب وهو الزمهرير، فالدرجة العالية تطرأ إلى السافلة لكونها أبهى وأجمل وأصفى، فكان الجنة هو لا غير فهم فيها خالدون إلى أن تعلّقت مشيئة الله تعالى إلى انتقالهم منها إلى أعلى منها، وكان ذلك غير مرجو

عنده، فكان هذا الانتقال من الله فضلًا وإحسانًا غير مجذوذ كما وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الطلاق: 11] ومساكن طيبة وجنات عدن ورضوان من الله أكبر. وكذا الأنهار لها درجات في مقابلة درجتها ولأهلها انتقالات في تلك الدرجات.

وأما الذين في الدرك الأسفل فهم قد عودوا بها ولم يعلموا غيرها فيقبل الله تعالى، وقلّب أهلها من هذه الدركة إلى أسفل منها ليذوقوا العذاب ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56] فمن نظر إلى مساواة الدرجات وتساوي الدركات في الحقيقة جعل الاستثناء متصلًا، ومن نظر إلى صفاتها وأوصافها وحالاتها المتخالفة جعل الاستثناء منفصلًا منقطعًا.

ولما كانت الدركات في مقابلة الدرجات، وكان أهل الدرجات مخلّدين فيها، فهذا التناسب يقتضي أن يكون النار خالدين كما يشعر به ظاهر قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: 107] ومن هذا ذهب المعتزلون إلى خلود أهل الكبائر في النار بناءً على قاعدة العدالة، وهل يجوز أن يخرجوا منها بعد الكشف الطويل، وهو الخلود منعه المعتزلون وجوّزه المحققون من أهل الله، أهل السنَّة.

وفي الكشاف: ولا تجد عند قول المجبرة أن المراد بالاستثناء هنا خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء (إلا في تنادي) على تكذيبهم وتسجل باقترانهم وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله بما روى لهم بعض ثوابت عن عبد الله بن عمرو بن عاصٍ: ليأتينّ على جهنم يوم تضيق فيه أبوابها وليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا.

وبلغني من أن الضلال من اغترّ بهذا الحديث فاعتقد أن الكفّار لا يخلَّدون في النار، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين زاد بالله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه وتنبيهًا على أن يغفل عنه. ولنوضّح هذا عن ابن العاص، فمعناه: أنهم يخرجون من جو النار إلى برد الزمهرير فذلك خلود جهنم وصعقوا بها. هذا كلامه.

أقول وبالله التوفيق وبيده أزمّة التحقيق: هذا كلام خطابي قد وقع في معرض المعارضة وتعارضت الأدلة من الجانبين ودلائل التبيين من الكتاب والسنَّة أكثر

وأصرح وأظهر على خروج أهل الكبائر، بل الكفار عن الجحيم والنار، منها: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: 53] وغير ذلك من الآيات. قال النبي عليه السلام: «**لو علم المؤمن ما عند الله من التوبة ما طمع بالجنة، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الرحمة قطّ**».

وانظر كيف جعل النبي عليه السلام المؤمن والكافر في مرتبة واحدة في عدم الاختيار في الجنة والنار وأحالهما الله بمشيئته وإرادته، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 27] ويفعل ويحكم ما يريد.

عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليصيبنّ أقوام سبع من النار بذنوب أصابوها عقوبةً ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته**». يقال لهم الجهنميون. وقال أيضًا: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون فيسمون الجهنميون**» وغير ذلك من الأحاديث في هذا الباب.

وأما ما ذكره في توجيه حديث عبد الله من أن معناه: أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فتوجيه بارد أبرد من برد الزمهرير ولا يرضى به رسول الله ﷺ يخالف النص الصريح والحديث الصحيح، وذلك أن اسم جهنم عامة تشتمل النار والزمهرير كيف وأنه ما من أحد من أفراد الإنسان إلا وأن الإسلام فيه فطري. قال النبي عليه السلام: «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» الحديث. ولهذا لو سئلوا: مَن خلق السماوات والأرض، ليقولون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الزُّمَر: 38]، وأيضًا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: 3]. قال النبي عليه السلام: «**جبلت البهائم والطير والوحوش والسباع والحيتان والأشياء كلها على خمسة: المعرفة بأنَّ الله ربُّها وحيث تأوي وتطلب رزقها، وكيف يأوي الذكر والأنثى، وكيف يأتيه، وحذر الموت والإدراك**».

فالإسلام العنصري والإيمان الجبلّي لا يزول عن النفوس أصلًا ولا مقتضاه وهو طلب سخطه الفطري ووطنه الأولي، وهو الحق، لأنه قد حصل منه فلا بدّ أن يصل إليه. وأما الكفر والجهل فهو عارض والإيمان ذاتي للنفوس والذاتي لا ينفكّ، والعرضي ينفكّ زائل، فحاشا عن كمال كرم الله تعالى وعموم فضله

وشمول رحمته ومغفرته إنما هي للمذنبين، فالذي لم يذنب ولم يعصِ إلا بقضائه وقدره وبعلمه وبأمره ويحرم عليه جنته مع رحمته ومغفرته إنما هي للمذنبين. قال النبي عليه السلام: «**لولا أن العباد لم يُذنبوا لخلق الله عبادًا يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهو الغفور الرَّحيم** ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: 107]».

ومن العجب أنهم يجعلون خلود الكفار في جهنم مقابلًا لمعصيتهم ونفي رحمته منهم، ونحن برحمة واحدة من مائة رحمة قسّمها الله على المخلوقات لا يرضى بخلود العصاة في جهنم، فالله بتسعة وتسعين رحمة كاملة كيف يرضى طائفة خلقهم الله بالقدرة الكاملة والحكمة الفاضلة في جهنم مع أن كلما كان لهم الماهية والهوية والتعيُّن والتشخُّص والوجود. ولما يتبعه من الأفعال والأعمال والأقوال والأحوال من الإدراكات والعلوم والاختيار والإرادة وكلما يترتّب عليه من الطاعات والمعاصي والحسنات والخيرات والعبادات كلها من الله، فكيف يرضى بخلودهم في النار والزمهرير والعذاب بهما مع أن الله تعالى أرحم الراحمين وأشفق وأعطف وأرفق بنا منا، ونحن لا نرضى أن يقع أحد منا في النار، فكيف هو وهو أرحم الراحمين.

روي أن امرأةً أقسمت على رسول الله ﷺ ليدخل دارها، فدخل فرأى نارًا موقدة وحولها أولادها يلعبون، فقالت: يا رسول الله أنا أرحم بهذه الأولاد أم الله بالعباد؟ فقال: «**بل الله بالعباد**»، قالت: أترى يا رسول الله أرضى أن أدخل منهم في هذه النار فكيف يرضى الله أن يدخل عباده في النار؟ فبكى رسول الله ﷺ فقال: «**هكذا أُمرت**».

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ في أفعاله وأحواله وأقواله بأن تكون مطابقة لما عليه الشرع الذي وصفه الله تعالى ويبين فيه ما هو خير العباد وخير الاستبعاد عن المفاسد والإفساد وموافقة لقانون العقل الصريح وهو الرشد والإرشاد وإدراك تحصيل الخير والصلاح والسداد ليوصلهم إلى سعادة معرفة المبدأ والمعاد ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي مقامه وكينونته وقيامه واستقراره في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أو سماوات الجنة ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ أي أرض الجنة التي خلق الله منها أبدان الأنبياء والأولياء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وهذا الاستثناء أيضًا من الخلود بالمعنى الذي تقدم منه أنه متصل لا يجوز منقطعًا كما جاز أن يكون من الخلود في النار كما عرفت من خروج المؤمنين

من النار دار البوار إلى الجنة دار القرار، بل خروج الكفار عطاء وإحسانًا وفضلًا وعدلًا لأن رحمة الله قد سبقت على غضبه، وهي غير متناهية وأفعال العباد متناهية، فالعدالة هي أن تكون سابقة على الغضب، صابغة بأنواع اللُّطف وأصناف الإحسان، بل ينبغي أن لا يرى منها أثر ولا مقدار ولا قدر أصلًا كما قال الله تبارك وتعالى: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم، لو كانوا على قلب عبد بارّ ما زاد في ملكي شيء. يا عبادي إن أوّلكم وآخركم، وجنّكم وإنسكم لو كانوا على قلب فاجر ما نقص من ملكي شيء**».

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هُود: 108] أي مقطوع، واعلم أن الله تعالى في ذاته خير محض ليس فيه شرٌّ أصلًا لا ثانيًا ولا أوّلًا، إذ الشرّ عدم ممتنع والخير وجود وفيض طلق وجود فبينهما مانعة الجمع، فكلما صدر من الفاعل الذي هو في نفسه خير مطلقًا أي خير لجميع الوجود لا بدَّ وأن يكون خيرًا وسعادة أيضًا إذ المعلول صورة العلة، وأن لا يكون فيه شرّ وشقاوة من حيث إنه صادر. فالموجودات بأسرها في المرتبة الأولى باعتبار أنها صادرة عنه كلها، سعيدة مولودة على فطرة الإسلام في دار الخير والسلام ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25] فإذًا السعادة والخيرية والإسلام بكل الأنام ذاتية غير زائلة عنهم، وأما في المرتبة الثانية وهي رتبة النبوة الذاتيَّة والكثرة الإمكانية فلا يظهر الشرّ فيها أيضًا لأنها مرتبة العلم تقسم الشرّ في هذه المرتبة وجود علمي وشهود حكمي لا يترتب عليه أثر ولا عذاب وألم وضرر ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغَابُن: 2] ثم ينزل من هذه المرتبة إلى مرتبة العلم وهي عالم الأرواح، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام ثم نثرها إلى عالم البرزخ ومنها إلى عالم الشهادة والملك، ثم إلى عالم الناسوت، وعلّقها بالأبدان وأظهر منها أفعالًا وأعمالًا وأقوالًا وأحوالًا وإدراكات وعلومًا، وجعلها مادة وهيولى وأصولًا للصورة الأخروية من الدرجات والدركات**».

وأنت خبير بأن الأرواح في حدّ ذاتها مقدّسة عن تمام الحالات التي ظهرت بها وتعيّنت في الدنيا وتشكّلت في الآخرة بالصور والأشكال الحسنة والقبيحة، وأن الإسلام الفطري والإيمان الضروري الذي كان ذاتيًّا لها في تلك المراتب، وكانت الأرواح مستصحبة به في تنزلاتها غير زائل عنها، وإن كان خفيًّا بواسطة

عروض هذه الحالات، فالأنبياء إنما بعثت والكتب نُزِّلت لأن تتذكر الأرواح عن تلك الحالات الأزلية والمقامات الأولية، فأرواح الكفّار لكونها محفوفة بالغواشي الغريبة ومختفية بالنواشي العنصرية، وكانت تلك الغواشي في غاية الرداءة ونهاية الدناءة ما زالت بدعوة الأنبياء، فما تذكرت في الدنيا. وكانت النار الأخروية سببًا لزوالها إذ النار من شأنها جمع المتماثلات وتعريض المتخالفات ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: 1-3]، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25] إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ليُشعر إلى ما ذكرنا ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هُود: 112] الآية، إشعار بأن الاستقامة معتبرة في صحة الإيمان والطاعات والعبادات وبدونها لا تصح لا الطاعات ولا العبادات.

إشارة وتأويل

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ﴾ [هُود: 103] إشارة إلى أن شرط قبول التجلّيات وشهودها والتأثر بها يعني أن في ظهور التجلّيات الذاتيَّة الجمالية النورية الوجودية والجلالية الظليَّة العدمية المغنية المهلكة ولمشاهدتها والتحقق بها لآية دالّة وعلامة عالمة بهذا على حقيقتها وثبوتها، وهي التخلُّق بالأخلاق الإلٰهيَّة بالنعوت الربوبية. أما الجمالية الوجودية فهي الإظهار والإيجاد ظاهرًا وباطنًا، صورة ومعنًى، وهي مخصوصة بالأنبياء كما حكت عن إدريس ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

وأما الجلالية العدمية فهي الإعدام والاختفاء والإفناء، وأما في الباطن والغيب وهو عام في الأنبياء والأولياء كما يرى السالك العارف أنه متحقق بعد الفناء الذاتي بالبقاء الإلٰهي والتجلّي على ذاته بالتجلي الذاتي، وأظهرت الشؤونات الذاتيَّة بالعنوانات الذاتيَّة، ثم التجلِّي الوصفي وشاهد ذاته في مراتب الشؤونات بالعنوان الوصفي بالصور العلميَّة والحروف العالية، ثم تجلى بالتجلي الذاتي الأسمائي، ثم أوجد الأعيان الذاتيَّة بصور العقول المجرّدة والملائكة، ثم بصور النفوس العاملة الفلكية. وهكذا إلى عالم الناسوت في الأدوار الأربعة الإفرادية والصورة الجمعية النورية الحساسة، وهي الناسوت، وهذا كله في

الباطن والغيب لا يظهر شيء منها في الظاهر والحسّ.

وأما في الظاهر فهو كما ظهر بعض منها في الحسّ من بعض الأنبياء. وأما الجلالية العدمية فإن السالك العارف يتجلى بذاته في ذاته بالتجلي الذاتي بعنوان الجلال والعدم والظلّ بالعنوان الأحدي الساري في جميع المظاهر النورية الجمالية الوجودية. وكان في التجلِّي النوري الجمالي ضمنًا، فصار في هذا التجلِّي صريحًا. فعلامة التجلِّي النوري ودليله وجودي وآية التجلِّي الظلي عدمية وكلاهما مخصوصان.

﴿لِمَنْ خَافَ﴾ أي تحرَّك من محيط الكثرات إلى مركز نقطة السوداء الجمعية القلبية والأحدية الجمعية البرزخية الأحدية والواحديَّة واللاهوتية والجبروتية أي السائرين إلى الله ومن الله وبالله ومع الله، لدفع التفرقة الإفرادية ومضرّة قيودها ومغرّة حدودها الفرداريّة ﴿عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هُود: 103] وهو الحسرة والندامة والتأسُّف والقطيعة لفقدان الكمال الجمعي والجمع الكمالي الذي يساوي عنده الوحدة والكثرة والجمال والجلال والنقص والكمال، ومقتضيات الأدوار والأكوار والنور والظلال وغير ذلك من المعاني المتقابلة والمثاني المتناهية، ذلك الأمر الجمعي والمكنون فيه والسرّ المعي المسكون فيه.

﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي يوم إلٰهي سرمدي وهو الصورة الجمعية المزبورة والهيئة الإحاطية المذكورة ﴿لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هُود: 103] أي انحصر فيه الأعيان والأكوان في الجمعية النورية الجمالية والظلية، وذلك المجمع الإلٰهي السرمدي الذي استوت فيه الجمعية الجمالية والجلالية والوجودية والعدمية يوم مشهود فيه تمام الجمعيات وجميع الكمالات ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ [هُود: 104] أي ذلك اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ وأصل معهود وأمده يوم يأت ويجيء الحق عند انتهاء حكم فرداريّة دنيا وصورة الصغرى النورية الجمالية الوجودية الفرعية الإفرادية، وهذه الجنة وما كان وظهور الحق وتحليته بهيئة الإتيان وصفة الجدة لا يتصور إلا بالتجلي الآثاري.

وأما بالتجلي الصوري وهو ظهوره وتجليه بصورة الإنسان الكامل إما بطريق الكليَّة وهو أن يشاهده محيطًا بجميع أجزاء عالم الملك من الأفلاك التسع والعناصر والمواليد الثلاثة وطبقات الأرض. وإما بطريق الجزئية وهي أن يشاهده بصورة جزئية شخصية، إما بكل واحد من الأفلاك والعناصر والمواليد، أو

الملك الظاهر بصورة أجزاء الملك وأجزاء عالم المثال والبرزخ، أو بصور أعيان الملكوت والأرواح والنفوس الفلكية والعقول والملائكة العالية والعاملة، فظهور الحق وتجليته بهذه الصور والهيئات الجسمانية تتصور الإتيان والجيئة، وأما الإتيان والجيئة نظر إلى الحق فمحال لأنه من صفات الأجسام وما سوى الله عند المتكلمين. أما جواهر فردة أو مركبة منها والكل قابل للكل، والإتيان والجيئة فالإتيان والجيئة في حق الحق مستحيل وإن بالنظر الدقيق بناءه على ما تحقق من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] غير مستحيل، بل هو نفس الحركة لأنها هو الظاهر، فتأمل وتدبّر وتصرّف وتفكّر.

لا تتكلم نفس وحقيقة مركبة أو بسيطة في ذلك اليوم عند التجلّي والإتيان إلا بإذنه وحكمه وأمره الضمني بأن يخلق الله في نفسه الكلام والتكلُّم ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ [هُود: 105] أي بعضهم يظهر في ذلك اليوم فيهم آثار الشقاوة وآثار الخسارة، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ في الفطرة الأولى في بداية الدورة العظمى ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي في نهاية الدورة الصغرى النورية ﴿زَفِيرٌ﴾ نوحة ناشئة وصيحة فاشية من كمال الحماقة لدرك الانتقال إلى انتفاء الكمال الجمعي واختفاء الجمع النوري الجمالي ﴿وَشَهِيقٌ﴾ [هُود: 106] دون اختفاء الوصال المعي الظليّ الجلالي ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في دركات الدورة النورية الصريحة والظلّية الضمنية ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي سماوات الدورة النورية ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ [هُود: 107] أي أرضهما، أو المراد بالسماوات هي سماوات الجمال والوجود، وبالأرض هي الدورة الجلالية والعدمية والظلّية. أي ما دامت سماوات دنيا فرداريّة الدورة المخصوصة.

وإذا انقضت مدة فرداريّة الدورة النورية الصريحة انتقلت إلى الكورة الضمنية وصارت الكورة الضمنية صريحة، والصريحة النورية ضمنية. وانتقل طور الدنيا وهو الصراط إلى طور الآخرة التي كانت ضمنية وهو الخفاء، وكونها معقولة بأن صارت الدنيا باطنة خفيَّة ضمنية معقولة والآخرة ظاهرة صريحة محسوسة. وتبدّل اقتضاء النور والجمال والوجود وهو الظهور والإظهار والصراحة إلى ارتضاء الظلّ والجلال والعدم والخفاء والإخفاء والضمنية.

وإذا تبدّلت السماوات والأرض وتحوّلت أعيان المراتب من مرتبة إلى مرتبة من الناسوت إلى اللاهوت بخلع لباس تمام التعينات ورفع لباس جميع الكائنات

من اللاهوت إلى الجبروت، ومن الجبروت إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى البرزخ والملك ومن الملك إلى الناسوت، ومن الناسوت إلى اللاهوت، وذلك إما دفعي أو تدريجي، وأما الدفعي فهو في آن واحد ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15]، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: 29].

وأما التدريجي فهو في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية. وهذه التبدلات لا تنقطع أبدًا من الجمال والنور والوجود إلى الجلال والظلال وبالعكس، ومنها إلى الجمعية الإلٰهيَّة والكونية، والكونية الإلٰهيَّة. وإليه أشار بقوله في صدر الكتاب: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: 3] بتكرار الرحمٰن الرَّحيم وتخليل الله في البيان. وصرَّح به في قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحَديد: 3].

هذا هو البرزات الكليَّة والبروزات الإلٰهيَّة والظهورات الكونية، فالمقيّد لها والمعدل إليهما هو الله بذريعة الرحمٰن الرحيم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: 107] عند انتقال فرداريّة الأدوار وتبدُّلها وتحوُّلها، فإنها عند الانتقال بتقلُّب أعيان الأدوار والأكوار وما تحتوي المراتب عليها من الجواهر العالية والأملاك المتعالية والأفلاك الروحانية والنفسانيَّة، والأجرام الجسمانية، والأجسام البسيطة والمركبة، تنتقل من مرتبة إلى مرتبة، ومن دورة إلى دورة، ومن كورة إلى كورة، هكذا يتداول أحكام فردانيات الأدوار وفردانيات الأكوار إلى أن تتمّ اقتضاءات الأدوار وارتضاءات الأكوار الإفرادية والجمعية الفرداريّة وتنتمي إلى الأدوار الجمعية وجمعية الجمعية، والأدوار الكليَّة ترتقي إلى ثمانية وأربعين كما عرفت، ويلوح إليه (حم) في سبع مواضع. وكان النبي عليه السلام يقول في الشدائد: «**يا حٰم يا مٰاجدُ يا الله أغِثْني**». وعلي يقول: «**يا كهيعص يا حم عسق**».

وفي كل دورة دنيا وآخرة، وسماوات، وللسماوات حركات، وللحركات مقدار معيَّن ومعيار مبيَّن، وهو عبارة عن الدورة إن كانت للسماوات النورية الجمالية الوجودية، وعن الكورة التي كانت للسماوات الظلية الجلالية العدمية. فحركات السماوات العقلية هي انتقالات عقلية وامتدادات معنوية من المطلوب إلى المبادي، وهي الأسماء والصفات والأفعال والآثار، ومنها إلى المطلوب والامتداد الإلٰهي الذي يقع فيه التكوين الإبداعي في المرتبة الإلٰهيَّة.

وعالم الجبروت سمّي بالوقت «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبي مُرسل**». فإن كان في المرتبة الربوبية سمّي بالدهر لاستواء الدهر، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: «**إليَّ الليل والنهار أنا أجدّه وأبليه وأذهب بملوك وآتي بملوك**». فإن كان في المرتبة البرزخية يسمَّى بالعصر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العَصر: 1 - 2] الآية، وإن كان في المرتبة الشهادية يسمّى زمانًا، وهو ظرف زمان للحوادث الأبدية والحوادث المكانية والطوامث الإمكانية.

ولكل دورة من هذه الأدوار الأربعة فرداريّة ونورية سلطنية ولها من الأسماء الذاتيّة السبعة من بسائطها.

وهي أربعة: ربّ ومربّ وهي العليم والحي والقدير والمريد، فكل ما يظهر في هذه الأدوار في المراتب الأربعة أي يكون من جنس اقتضاء هذه الأسماء الأربعة، فمقتضى العليم في مرتبة الجبروت أي يكون في الملائكة العالية والعقول المجرّدة، فأعيان هذه الدورة إنما هي القبول والملائكة العالية والعرض من حركات السماوات السبع الإلٰهيَّة، وهي تبدل النسب، والإضافات الحاصلة للعلم بنفسه في نفسه ولسائر الأسماء السبعة أن يحصل في كل عين من الأعيان الثابتة، وفي كل حقيقة من الحقائق الإلٰهيَّة بطريق التفصيل بالصور العلميَّة بعد أن كانت في الشؤونات الذاتيَّة مجملة بالعنوانات الذاتيَّة في المرتبة الواحديَّة، ثم بالحركات النفسانيَّة والروحانية بالأفلاك الربانيَّة في مرتبة الملكوت وأعيان هذه الدورة والمرتبة هي الأرواح والنفوس، وهكذا في المرتبة البرزخ والملك والشهادة إلى أن يجتمع تمام الحركات النقلية والخياليَّة والنفسية والعقلية في مرتبة الناسوت ليصل تمام الأعيان الواصلة إلى الإنسان والناسوت إلى اللاهوت، ولكل دورة مرتبة دنيا وآخرة، وللدنيا سماوات وأرض، وللآخرة سماوات وأرض وجنة ونار، وأعيان كل دورة ينتقلون من دورة ومرتبة إلى مرتبة وإلى دورة أخرى، وإن الأعيان والأكوان كلها قد آمنوا بالله في الفطرة الأولى وأسلموا به.

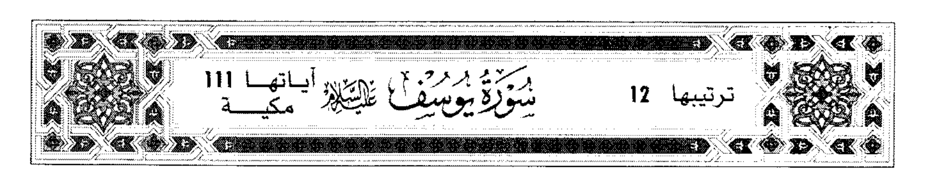
يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه أو يمجّسانه أو ينصرانه**». وإن المؤمنين لا يموتون بل ينتقلون من دار ودورة ومرتبة إلى دار ومرتبة أخرى كما قال النبي عليه السلام: «**المؤمنون لا يموتون بل ينتقلون من دار إلى دار**» أي دورة ومرتبة إلى دورة ومرتبة

أخرى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112]. ومن تاب على العقيدة الصحيحة بالطوية وقوة القريحة في التوسط والنسب الصريحة بين النسبية والتنزيهية لونًا قلت فيما تلوت عليك من الرموز والإشارات في هذه السورة وغيرها من التأويلات فارجع فيها إلى حسن التأمل فيه لينكشف لك في هذه الكلمات من الأسرار والأحوال والمقامات.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (113) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)﴾ [هود: 113 - 123].

تمّت سورة هود عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي نوّر وجه حبيبه بحسن تجلّيات النور والجمال، وبسطوات العظمة والجلال ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يوسف الطور السري تأويل أضغاث الأحلام وتنزيل الأحكام من الحلال والحرام في مصر الوجود عزيزًا في طور الشهود، أزيزًا في دور جهات المراتب الست والحدود ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي نجّاه عن غيابة الجب النفس الأمارة بالسوء.

قال رسول الله ﷺ: «**علِّموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيُّما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوَّن الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلمًا وكان له بكل رقيق في الدنيا مائة ألف ألف حسنة ومثلها درجة ويكون في جوار يوسف في الجنة**».

حديث ابن الأصبغ قال: حدّثنا بكر بن سهل الدمياطي قال: حدّثنا عبد الغني ابن سعيد الثقفي، عن أبي محمود موسى بن عبد الرحمٰن الصنعاني، عن مقاتل بن سليمان، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ [يُوسُف: 1].

تفسير

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿الٓر﴾ يرينا الله الرحمٰن ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد آيات القرآن ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ [يُوسف: 1].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ يريد يعقوب وولده وحسد إخوة يوسف ليوسف لحب أبيه له ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ يريد من قبل أن نوحي إليك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يُوسُف: 3] يريد لا علم لك بحديث يعقوب ولا حديث ولده، وهم الأسباط.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يُوسُف: 4] يريد عندي لله ساجدين.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ﴾ يريد الكيد بعينه ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يُوسُف: 5] يريد بيِّن العداوة.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ويريد يصطفيك ربك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الأحلام ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ ويريد النبوّة ﴿كَمَآ﴾ يريد حيث يضع النبوّة ﴿أَتَمَّهَا﴾ [يُوسُف: 6] يريد في خلقه فقد كان يوسف رأى قبل هذه الرؤيا أنه خرج مع إخوته يحتطبون فسجدت جرمتهم لجرمته فاشتد ذلك على إخوته.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يُوسُف: 7] عبرة لمن سمع قصصهم.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

﴿إِذْ قَالُواْ﴾ يريد بعضهم لبعض ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ يريدون ولد راحيل وهي خالتهم ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ﴾ يريدون عشرة ﴿عُصْبَةٌ﴾ يريدون الجماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يُوسُف: 8] يريدون لفي هوى مبين.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يُوسُف: 9] يريد يحدثوا توبة بعد ذلك بقتله منكم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو يهوذا ابن خالته وهو أكبر ولد يعقوب وأصلحهم ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وكان نحوهم جب مماسًا لم يقع فيه في تلك السنة ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ يريد المارَّة ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يُوسُف: 10] يريد إن كنتم أضمرتم على ما تريدون.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يُوسُف: 1] أقول: أي المبين أحكامه وحلاله وحرامه، أو يبين الله هداه ورشده، تلك إشارة إلى آيات السورة وهي المراد بالكتاب، أي تلك الآيات آيات السورة وهو الظهور والإظهار، وقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدًا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يُوسُف: 2] أُريد به الكتاب الذي فيه قصة يوسف ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ سمى البعض قرآنًا لما رآهم الجنس يقع على الكل والبعض، إلا أنه بحكم الغلبة صار عملًا للكل حال من الضمير وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي عربيًا، أو للحال لأنه مصدر بمعنى المفعول. وعربيًا صفة أو حال من ضمير فيه أو حال بعد حال ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُف: 2] علة لإنزاله بهذه الصفة، أي أنزلناه مجموعًا أو مقروءًا بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه. واستعملوا فيه

عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك بمن لم يعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإيحاء.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] إما مصدر بمعنى اقتصاص، يقول: قصّ الحديث إذا أتبعه، أو بمعنى مفعول كالبناء والخبر بمعنى البناء والخبرية، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر كالخلق والصمد، وكونه أحسن الأشكال على أبدع الأساليب وأبرع المآرب بالاجتناب عن النوائب أو حسن ما يقص لاحتوائه على العجائب والحِكَم والآيات والغرائب والعبر فعل بمعنى مفعول ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي إيحاؤنا وإعلامنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ والسورة، ويجوز هذا مفعول نقص، على أن يكون أحسن منصوبًا على المصدر أي أحسن الاقتصاص ويكون المقصوص محذوف لأن قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن معنى عنه، وإن أريد بأحسن القصص المقصوص فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما نقص من الأحاديث ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يُوسُف: 3] عن هذه القصص، ما خطر ببالك ولم يقرع به سمعك قط، تعليل لكونه موحى وإن مخففة واللام هي الفارقة فلا تغفل عن حسن براعة كاستهلال بقول ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بدل من (أحسن القصص) أن جعل مفعولًا بدل الاشتمال أو منصوب بإضمار.

واذكر لما نبَّه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله: يا أبي، عوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ولذا قلبها عند الوقف ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يُوسُف: 4].

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ [يُوسُف: 5] تصغيرًا، هي للشفقة إذ النفوس مجبولة على حب الصغار لقرب عهدهم بالمبدأ الذي هو أحب الأشياء إلى من له عقل سليم وطبع مستقيم، أو لأنه كمال اثني عشر سنة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يُوسُف: 5] ظاهر العداوة.

إن يهوديًّا جاء إلى النبي عليه السلام وسأل عن هذه الكواكب، فقال: يا محمد: أخبرنا عن النجوم؟ فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل فأخبره بذلك، فقال النبي عليه السلام: «**إن أخبرتك هل تسلم؟ قال: نعم، قال: كان حربان**

والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفزع(*) ووثاب وذو الكعبين رآها يوسف أنها نزلت من السماء وسجدت له» فصدق اليهودي.

قيل: الشمس والقمر أبواه، قيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته وأسماؤهم: دوبيل وهو أكبرهم، وشمعون، لاوي، يهودا، يالون وهم من أبيه حال يعقوب أبًا، وولد له من امرأتين زلفه ويلهمه أربعة أولاد: دان ومعالي وحاد واشريتم، فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت يوسف وبنيامين وكلهم بنو يعقوب، اثنا عشر، ويوسف رآها سجدت مع الشمس والقمر وهو ابن اثنا عشر سنة، وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. قيل: ثمانون سنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الإجباء ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعزّ وكبرياء، يجتبيك ويختارك، تصور عظام الجزئي، وهي النبوّة والمُلك والحكمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ خارج عن التشبيه ﴿مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يُوسُف: 6] علم التعبير والأحاديث إما للنفس والشيطان إن كانت كاذبة، أو من تأويل غوامض كتب الله وسنن الأنبياء وسيرهم وأسرار علومهم وحكومهم، أو من كمالات الحكماء وأنوار حكمتهم، فهو اسم الأحاديث.

وإنما كانت الأوليان كاذبين إذ المعاني المجردة إنما تتنزل على مدارك الصور البرزخية لمناسبة بينها وبين تلك المعاني، والتناسب بين المعاني والصور لا يعلمها إلا الله إذ المناسبة إما ذاتية أو اسمية وصفاتية أو فعلية أو حالية أو قولية، والعالم بالكل هو الله. والنفس والشيطان بعيدان عن الله تعالى وعن الصواب.

والتعبير هو العبور والانتقال من الصور البرزخية إلى تلك المعاني النازلة من طبقة البرزخ المبدئي إلى طبقة البرزخ المعادي التي هي الموطن التي تتمثل بها تلك المعاني النازلة والمعاني الصاعدة عن المحسوسات. وعلى التقديرين يدركها بالقوة المتخيّلة التي من شأنها إحساس الصحو بعد الغيبوية وإدراك المعاني الجزئية التي أدركتها القوة الواهمة، وتركيب الصور والمعاني، والقوة المتخيلة بل تمام الحواس الباطنة بل الظاهرة متصلة بعالم الخيال المطلق والمثال المتحقق، بل الحاكم على جميع الصور والمعاني الجزئية والكلية المستنبطة من

(*) وورد [الفرغ] و[ذو الكعبين].

المحسوسات بالتركيب والتفصيل والترتيب، هي القوة المتخيلة ويوصلها إلى الجزئية الخيال ليحفظها إلى وقت لا متناه فتعبرها وهو الانتقال من اللازم إلى الملزوم وبالعكس، فإن كانت العلاقة خفية والقريبة بعيدة كان التعبير في غاية العسر، فيسمى بأضغاث الأحلام، وسيجيء لهذا زيادة البسط إن شاء الله العزيز.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وهي النبوّة والمُلك بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ على أولاده، فإن أولاده كلهم كانوا أنبياء ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فجعلهما نبيين ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يُوسُف: 6] قيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة وإنجاؤه من النار والذبح، أي عليم يستحق الاجتباء وتحمُّل النبوّة، وحكيم يعقل الأشياء على ما ينبغي.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ وقصتهم وحديثهم وحكايتهم ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وعلامات ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يُوسُف: 7] حيث سأل اليهود عن النبي عليه السلام من قصة يوسف فقصها لهم فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منه فكانت آية دالة على نبوَّة محمد ﷺ وصحة دعواه، إلا أن القضية اليهودية لما كانت غالبة عضدتهم عن الإيمان به ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ أي اذكر وقت قول أخي ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، وخصه بالذكر لأخوّتهما من طرفين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ وأفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث، وإذا كان بالألف واللام فالفرق لازم. وإما إذا أضيف جاز الأمران، والحال ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وجماعة متعصبة، لنا قوة في دفع الأعداء ورفع الخصماء، فنحن أحق بالمحبة من يوسف وأخيه وهما صغيران لا وجه لمربيهما، وترجيحهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يُوسُف: 8] حيث فضّلهما بلا وجهة شرعية وحيثية عرفية. وعن علي رضي الله عنه: «ونحن عصبة» بالنصب أي نحن نجتمع عصبة.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: 9] من جملة المحكي بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ [يُوسُف: 8] كأنهم يقفوا على ذلك لأنه كان في زعمهم مخطئًا في حب يوسف وأخيه فمنهم من قال: والمشهور هو شمعون ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ من جملة ما حكي بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ كأنهم أطبقوا على ذلك لا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة مجهولة بعيدة من العمران، ومعنى تنكيرها وإخلالها من الوصف ولأنها من هذا الوصف نصب الظروف المبهمة ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ يخلص لكم

﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ مجزوم بأن الأمر أي يقبل إليكم بكليته من غير التفات إلى غيركم ﴿وَتَكُونُواْ﴾ مجزوم عطف على محل ﴿يَخْلُ﴾ أو منصوب بإضمار أن ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد يوسف، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو بعد القتل أو الطرح ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يُوسُف: 9] تائبين إلى الله نابين الرجوع والإنابة عليه لفراغ بالكم عما شغلكم من الله، أو صالحين مع ابنكم يصلح ما بينكم وبينه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعد الخلو وجه أبيكم عن غيركم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهودا ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وقعره، وسمي به لغيبوبته عن أعين الناظرين ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي الذين يسيرون ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يُوسُف: 10] بمقالتي ومصلحتي ومشاورتي فإنه أوفى بحالنا وبحال أبينا وأن القتل بلا سبب عظيم خطير وبالله التوفيق إشارة وتأمل.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يُوسُف: 1] اعلم أن في كتاب الله تعالى الذي هو مجموع أحكام الله وأسمائه وصفاته ومرتع بيان أفعاله الأولية والحوادث الأبدية وقد وقع فيها في اثنا عشر موضعًا: (الرا) (المرا)، روي أنه لما نزلت ﴿الٓمٓ﴾ [البَقَرَة: 1] قالت اليهود: كيف نؤمن بكتاب وندخل في دين زمان معادته أحد وسبعين. ثم سألوا: يا محمد بل غيرها؟ قال: نعم. فقرأ ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعرَاف: 1]، ﴿الٓر﴾ [الحِجر: 1]، ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: الآية 1]، فبهتوا وتحيّروا وقالوا: قد التبس علينا ولا ندري بأي شيء نأخذ. فذكر الوصول أولًا كالأقل ثم الأكثر فالأكثر، وهو أمي غير عالم بعدد الجمل من المعجزات فذكرها في أربع مواضع متعاقبة وهي: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العَنكبوت: 2] والروم والقمر والسجدة إشارة إلى أصول الأدوار البسيطة الأربعة: النورية الجمالية الوجودية، وهي من الحروف النورانية وهي أربعة عشر قد ذكرها في أوائل السورة (ا ل د كـ ه ى ع ص ط س ح م ق ن) في بواطن هذه الحروف حروف ظلمانية وهي أيضًا أربعة عشر كما أن منازل القمر أربعة عشر منها ظاهرة أبدًا، وأربعة عشر منها خفية دائمًا.

أما الأولى فهي أرباب الأدوار النورية الجمالية الوجودية الإفرادية الصريحة، والثانية إلى الأكوان الأربعة الظلية الإفرادية، ولهذا قال بعض العلماء المتحرين: أن هذه الحروف النورانية جامعة لأسماء الله تعالى التسعة والتسعين وغيرها.

قال سهل بن عبد الله القسري: من أضاف إلى هذه الحروف حروف الله

وجعله خاتمًا عظيمًا شريفًا ونقشها عليه بهذه الصورة أو في كاغد نظيف وحمله معه قضى جميع حوائجه ويكون معززًا مكرّمًا بين الناس، ومن نقش الحروف النورانية المتحابة المذكورة في كتاب الله تعالى على الترتيب وهي: الرا كهيعص طس حم ق ن في خاتم الفضة بطالع النور من القمر فيه قضيت جميع حوائجه، فالحروف النورانية هي أرباب الأدوار النورية يتضمن الحروف الظلمانية التي هي أرباب الأكوار الظلية، وكذلك الأدوار النورية يتضمن الأكوار الظلية.

ا ل كـ هـ ة ع ص

ط س ح م ق

ن ال ل هـ

وإنما ذكر في صدر الكتاب ﴿الٓمٓ﴾ [البَقَرَة: 1] ثم ثناه في آل عمران إشارة وإيماء إلى أن الأدوار الأربعة النورانية الجمالية كما تكون صريحة كذلك الأكوار الظلية تكون صريحة، وإلى أن الأدوار والأكوار توأمان كالحروف النورانية والظلمانية فإنهما يكونان توأمين.

ثم ذكر ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعرَاف: 1] إشارة إلى الصورة الجمعية النورية الجمالية الجلالية، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الصورة الجمعية الجلالية الجمالية. أما على الاحتمال الأولى فحينئذٍ تكون سورة براءة إشارة إلى بداية الكورة الظلية ولذلك لم يكتب فيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهي مع الأنفال إشارة إلى الكورة الأولى، وسورة يونس إلى الكورة الثانية، وسورة هود إلى الثالثة، وسورة يوسف إلى الرابعة الإفرادية الظلية، و ﴿الٓمٓرۚ﴾ صدرًا لسورة (الرعد) إيماء إلى الصورة الجمعية الكورية.

واعلم أن هاهنا تلويحات كثيرة وإشارات غفيرة خفية، أما أولًا: فهو أن صدر سورة البقرة وآل عمران يدلان على صراحة الدورة النورية الجمالية والكورة الظلية الجلالية الأربعة الإفرادية، وصدر سورة الأعراف وهي المص يدل على كمال جمعيتها الجمعية الإفرادية، وإنما اعتبر كل منهما مع صدر سورة يونس وهود ويوسف يدل كل منهما على الأدوار الأربعة. وإنما دل المص على جمعية جمعيتها لأن بسائط حروفه تدل على كمال الجمعية ص ا د م ل ا م ا ل ف هـ هـ

بحذفه المرا ا ل ف ل ا ا ل م ى م د ا.

فالأول يدل على أصول الأدوار وهي اثنا عشر أسماء التجلي الذاتي كالبروج، فيظهر منه تبدل نجوم السماء السبعة الذاتية في سماء التجلي الذاتي في المراتب الأربعة المحققة ثمانية وأربعون دورة كلية وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ [الشّورى: 1] في سبعة مواضع، فإن الله تعالى يدبر أمر ألوهيته وربوبيته وملكوته العالية والسافلة وأمور ملكه في هذه الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية، وجميعتها الجمعية الأصلية والفرعية.

واعلم أن مدار الأدوار والأكوار إنما هو الأنصاف والأشكال والأوصاف والصفات، فالغالب على أعيان الدورة العظمى النورية الجمالية الصفاء والنور والضياء العلمي والقضاء الحكمي والصور العلمية والحروف العالية، والسنن العقلية والجواهر النورية واللطائف الجبروتية والتجرد والتقدُّس والتنزُّه.

وفي الدورة الكبرى النورية على أعيانها الروحية واللطائف الحسية، والجواهر الملكوتية في الدورة الوسطى النورية إنما هي على الأشباح الربانية والصور المثالية والأجساد البرزخية، والمثل النورية، وفي الطالع الملكية النورية على الأعيان الناسوتية. وكل دورة تتضمن كورة منسوبة إلى الأسماء السبعة الذاتية باستقلال ما وشرك، أما الدورة العظمى فمنسوبة إلى ظاهر العليم، والكورة العظمى إلى الخاصة، وهما توأمان، وكذا الكبرى إلى ظاهر الحي وباطنه، والوسطى والصغرى من الدورة الكورة إلى القدير المريد ظاهرًا وباطنًا.

فظاهر العلمية يقتضي في أعيان الدورة العلم والإيمان، وباطنه يقتضي الجهل والكفر والعصيان، وكذا الحي يقتضي الحياة والممات ظاهرًا وباطنًا، وكذا القدير والمريد يقتضي القوة والضعف والإحياء، والكره والإكراه وكذا السميع والبصير والكلام يقتضي باعتبار الجمال والوجود والسماع والطرش والرؤية والخرس والعمى والتكلم والصدق والكذب، ولقد صدق وأحسن من قال: إن الصدق هو ما اعتبره العقل الصريح من المطابقة، والكذب هو ما احتمله الوهم بحسب اقتضاء العدم والظلمة.

وقد علمت أن مراتب العلم والحياة من حيث إنهما متلازمان أربع بعقل

صرف وإحساس محض وبينهما أمران تناسب إحديهما الآخر من الطرفين، فالذي تناسب التعقل هو الإدراك الوهمي الذي لا تخالطه الصورة الحسية، والذي يقارب الصورة الحسية ويخالطها هو التخيل، وهو إدراك معنى مشوب بالصورة كما أحسست صورة ثم غابت عنك، وتلك الصورة قد انطبعت في حضرة خيالك وأنت تشاهدها، وكذا لكل نوع من أنواع العلوم حياة تناسبها، وكذا القضاء والإرادة تنقسم بهذه الأقسام، فإذن لا بد وأن يكون لكل منهما دورة تناسبها ولكل دورة أعيان تناسبها. فاتضحت كل دورة من الأدوار الأربعة النورية أدوارًا أربعة.

وكذا الأكوار الضمنية منسوباتها تنقسم بأقسام أربعة، فالجهل والموت والعجز والكره ينقسم كل منها بأقسام أربعة، وكذا الأعيان الحاملة. ولهذه الأمور أيضًا أربعة وهي بواطن الأعيان النورية وغيوبها، أعني الأهرمينات، وهي غيوب الأملاك العالية وبواطنها منسوبة إلى الكورة العظمى من الأكوار الظلية والجلالية الوهمية والأعمال المقابلة للأملاك العاملة المدبرة في الأفلاك منسوبة إلى الكورة الكبرى.

فإذا كانت فردانة الدورة العظمى النورية الجمالية الوجودية صريحًا تكون أعيان هذه الدورة الأفلاك العالية ظاهرة صريحة، ونقائصها وأضدادها وهي الاهرمينات ضمنية، والغالب على هذه الدورة إنما هو العلم العقلي ومقابله وهو الجهل البسيط. فإذا انقضت مدة هذه الدورة انتقلت الدورة إلى الدورة الكبرى النورية وإلى العلم بالمعنى الثاني وهو الإدراك الجزئي وإلى الأعيان الملكية العالمة وإلى الأرواح ولطائف الملكوت.

ثم إلى الدورة الوسطى وإلى الأعيان البرزخية والأشباح الخيالية وإلى الإدراك الخيالي والتخيل، ثم الدورة الصغرى النورية وإلى الأملاك الكلية المدبرة للأفلاك والعناصر والمواليد المثلثة، ثم إلى الصورة النوعية والمعينة الجمعية والإحاطة الكلية الأصلية والفرعية. فإذا استوت الأدوار النورية أحكامها انتقلت الفرداريّة والسلطنية إلى الأكوار وارتضائها فاختفت النور والجمال في غياهب غيابة ظلمة الجب.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: 4] أي يوسف القلب والفؤاد وتوجه من مرتبة

الصدر والقلب إلى مرتبة العقل الصريح المتصل بالمحبة الذاتية، إشارة إلى اضمحلال جميع المشاعر العشرة الشاعرة مع قولة أخرى غير هذه المشاعر العشرة يطال بها العقل لذّة الجماع والنظم الطبيعي الشعري والتأليفي الموسيقاوي والنغمات الصوتية، فإن القوة التي يدرك بها العقل وزن الشعر والحالة التأليفية الموسيقاوية وهذه القوة واحدة أم متعددة، والحق أنها واحدة.

والشمس هي العقل والقوة النظرية، والقمر هو القلب والقوة العملية، أو المراد منه الكواكب وهي مراتب العقل والنفس والقوة والنظر والعملية والقوة للذكورة والشمس هي العقل الصريح، والقمر هو القلب، أو المراد منه الكواكب وهي الأطمار السبعة مع مراتب النفس الأربعة، والشمس هي الروح، والقمر هو القلب المستفاد.

تفسير

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يُوسُف: الآية 11] يريد في الرحمة والبر.

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يُوسُف: 12] يريد منه كل ما يخاف عليه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾

﴿قَالَ﴾ يريد يعقوب ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يُوسُف: 13] يريد: أنتم عنه لاهون يشتغلون بترغيبكم.

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ يريد ونحن جماعة ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يُوسُف: 14] يريد مغبونون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يريد قعر الجب ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ يريد يعقوب، أوحى الله إليه أن ولدك قد كادوك في يوسف ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ يريد بعد اليوم ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ هذا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يُوسُف: 15] يريد بما أوحى الله إليه.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يُوسُف: 16] يريد بعد المغرب ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: 17] يريد بمصدق لنا ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يُوسُف: 18] يقولون دم حمل ونحوه ﴿وَجَآءَتْ﴾ [يُوسُف: 19] ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ يريد بل زيَّنت لكم أنفسكم ﴿أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: 18].

وبعث الله إلى ذلك الجب ماء حتى مال إليها الرفاق والسيارة ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يريد يستقي لهم الماء وإخوة يوسف قريب منه ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فلما أدلى دلوه تعلّق يوسف بالرؤساء فأخرجه الوارد ﴿قَالَ﴾ لأصحابه: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ وأقبل إخوة يوسف فقالوا: غلام لنا أبق منا، فضربوه حتى سكت وقد كان تضرَّع إليهم وبكى وقال: يا إخوتي ارحموا ضعفي وصغري، فباعوه بعشرين درهمًا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يُوسُف: 19] يريد بأبيهم ويوسف.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَشَرَوْهُ﴾ يريد باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ يريد حرامًا وذلك أن ثمن الحر حرام وكل بخس في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يريد أن عددها عشرون درهمًا فأخذ كل واحد منهم درهمين إلا يهودا فإنه لم يأخذ شيئًا ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يُوسُف: 20] يريد إخوة يوسف كانوا فيه من الزاهدين. ومضى الذي اشتراه حتى قدم به مصر فاشتراه منه عزيز مصر فرعون واسمه قطفور، بعشرين درهمًا وحلّة ونعلين.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ أقول: أي شيء يمنعك عن الاعتماد علينا في حفظه والحال أنّا في غاية الإشفاق بالجمعية وفرط الاستعطاف بالاتفاق ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يُوسُف: 11] أي ما نقول له عن المثل إلى ما يضره ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء وفضاء نسمة الهواء ﴿يَرْتَعْ﴾ [يُوسُف: 12] يتمتع بالتفكه ويتسع بتعاطي الثياب والتماطي إلى المشتهيات ﴿وَيَلْعَبْ﴾ ويشتغل بما يسر النفس ويدر النشاط ويعيد الحسن ويزد الانبساط، وكان نعتهم الاشتياق وإحراز قصبات السبق بدليل قول: إنا كنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن كل شيء يضرّه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يُوسُف: 13] يوقعني ذهابهم وإذهابهم يوسف في الصحراء في الغم والحزن والهم، اللام للابتداء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ﴾ [النحل: 124] اعتذار أبيهم إليهم بشيئين، أحدهما: ذهابهم وافتراقهم عنه وذهاب يوسف وبعده ومفارقته بهم، وأنه قد كان لا يصبر عنه. والثاني: وإني ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ عند ذهولكم وغفلتكم عنه لدى اللعب والانتزاع لما أنه رأى في المنام في البارحة أو اليوم أن الذئب قد حمل عليه فكان يحذره ﴿وَأَنْتُمْ﴾ بأجمعكم ﴿عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ عند الاشتغال باللعب والرتع أو لكون الأرض مذابة قد اشتهر وشاع في الأمثال أن البلاء موكل على المنطق قبل اشتقاقه من تراءت الريح إذا أتت من كل جهة.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام لتوطئة القسم والواو للحال، وجواب القسم ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يُوسُف: 14].

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يُوسُف: 15] ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ في الصحراء وانفضوا وتطابقوا ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ بأن عزموا وعرسوا على هلاكه بها وهو بئر بيت المقدس، قيل: بأرض الأردن أو من مصر وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب. وجواب لما محذوف والواو صلة مثل ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: 103] فجوابه أجمعوا.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى يوسف وهو ابن سبع عشرة أو ثمانية عشر أو اثنا عشر كما أوحي إلى عيسى ويحيى في الصغر أي حدثناه وأخبرناه في ظلمة البئر وبعثنا إليه جبريل ليؤنسه ويزيل عنه وحشة الظلمة وخشية الوحدة في البئر، ونبشِّره بالخروج عنه، وبالنبوَّة والمُلك والسلطنة ونخبره بأنه بعد هذا الأمر حالة علو شأنه وسمو برهانه ومضي زمانه ورفعة مكانه ومكان ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وأخبرناه ﴿بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يُوسُف: 15] أي والحال أن إخوة يوسف ما يشعرون يوسف ولا حاله وهم فعلوا بك يا يوسف ما فعلوا من الشتم والضرب والإهانة، فكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه بل زاد في إهانته وضربه ولم تفدك الاستغاثة إلا الزيادة في الإهانة والضرب بالسر والعلانية حتى كاد أن يقتله.

وكان ينادي ويصيح ويضطرب في الصيحة والنداء: يا أبتاه، يا مغيثاه، يا غياثاه، ليت تعلم ما يَصنع بابنك هنا أولادك. فقال يهودا: أما أعطيتم أباكم موثقًا أن لا تقتلوه، فلما أرادوا إلقاءه في البئر تعلق بثيابهم فنزعوها عن يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا أخوتاه ردوا عليَّ قميصي لأواري، وإنما نزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا يؤنسوك في البئر ويستغيثك فيه.

فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت ويهلك فكان في البئر ماء فسقط عليه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها يبكي، فنادوه فظن أنهم رحموا به فأجابهم فأرادوا أن يرموا صخرة عليه ليقتلوه فمنعهم يهودا، وكان يأتيه كل يوم بطعام.

روي أن إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين حين أُلقي في النار وجرِّد عن ثيابه أتاه جبرائيل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجمعه يعقوب في تميمة فعلقها في عنق يوسف. فهم بعدما فعلوا بيوسف ما فعلوا توجهوا إلى أبيهم ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً

﴿يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، فتسابق إذًا للافتعال كالفاعل للمشاركة كالترامي والتناصر ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ ولباسنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ [يُوسُف: 17] ومصدق ﴿لَّنَا﴾ بقولنا، ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ في أقوالنا وأخبارنا.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ذي كذب، وفي توصيفه مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب إنه كذب. قال يعقوب: ليس كما قلتم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيمًا من السوء وهو الاسترخاء وقد ارتكبتموه من يوسف وأقدمكم على مزاولته ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي سولت لكم أنفسكم، أي فأمري صبر جميل أو أجمل. قال النبيّ عليه السلام: «**الصبر الجميل الذي لا يكون فيه شكوى**» أي إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: 18] أي أستعين على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف وعلى الصبر على مزاره وهلاكه وهمّ قد ذقته.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة ليس من قبل ملك إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبًا منه وكان الجب في قعرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة. قيل: كان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف، فأرسلوا رجلًا ليطلب لهم الماء ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ وهو الذي يرى الماء ليستقي القوم وهو مالك بن زعر الخزاعي ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ وأرسل ﴿دَلْوَهُ﴾ في الجب، فتعلق به يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، قال النبي عليه السلام: «**أُعْطِي يوسف شطر الحسن**». ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت أُعطيت سدس الحسن، فلما رآه مالك قال: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه، وأسروه أي أخذه الوارد وأصحابه من الرفقة. عن ابن عباس رضي الله عنه: إن جمع الضمير لإخوة فإنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق منا، فاشتروه منا. وإنما سكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ حال عن الضمير المفرد، أي متاعًا للتجارة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يُوسُف: 19] من الإسرار والإخفاء والإضمار.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعه لإخوة يوسف واشتروه من أخوته ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ مغشوش وزيوفًا حرام. وإنما سمي حرامًا لأنه ثمن الحر وبخسًا لأنه مبخوس البركة أي ناقص عن القيمة أو القياد وقليل ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ لا دنانير عشرون أو

اثنان وعشرون أو درهمًا وأربعون، ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يُوسُف: 20] أي إخوة يوسف في ثمن يوسف لأنه كان حرامًا. فإذا وجب أن نزعت عنه ولا يمال إليه والمجرور متعلق بالزاهدين أن جعل اللام للتعريف، وإن جعلت موصولة فهو متعلق بمحذوف لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول لنسبة الروح والعقل والطور السري والفؤاد إلى القوى البدنية إشارة وتأويل.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا﴾ [يُوسُف: 11] إلخ، فيه تلويح وإيماء إلى طٰه النفسانية والمبادئ الروحانية وإلى بيان حقيقتهم، يعني من بيان الغالي الحاكم أن لا يعتمد الغازل المحكوم قبل إصلاحه إياهم وتعديله لهم وأن يقبل قولهم في حقهم ولا في حق غيرهم ما لم يقم البرهان على صدقهم فيه على وجه تحريم العقل بصدق وصحة دعواه إشعارًا بأن منشأ العداوة إنما هي الحسد وأنه في الإخوة والأخوات أتم وأقوى وأشد وأعلى إذ كل نفس مجبولة على حب نفسها وعلى حب من أحبها، فمن نازعه للإشراك فيه وزاحمه في محبته كان أعدى عدوه.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يُوسُف: 12] إشارة إلى ترتيب مقدمات دفع الأعداء وتركيب مبادئ منع الخصماء وهو أنه لا بد وأن ينزل إلى مقام التواضع والمداراة أولًا ويندرج في ترتيب أسبابه من الدني إلى العلي ومن العلي إلى الأعلى، فإذا النفس لاحظت عجزها وافتقارها أولًا، ويندرج في ترتيب أسبابه من الأدنى إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأعلى، ونظرًا إلى ما يغايرها نظرًا لاعتبار ولاحتقار ولافتقار توجهت إلى الله القوي العزيز واستعانت منه فجعلها غالبة على ما دونها بقوة الله وعزّته، وإن كان الأمر على خلافه اغترت بقوتها واتكلت على مكانتها وظاهر قوتها فانقطعت استعانتها عن الحق، فما ذلّة لازمتها المذلّة ودامتها الخسارة والحسرة والحزن والندامة حالًا ومآلًا.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يُوسُف: 13] وظهر عنا الظلم والإهمال في حفظه وهو العداوة الضمنية. والحال إنّا نحن عصبة وجماعة وفرقة عصبية في دفع المضرّة ودفع الشر ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ [يُوسُف: 14] لكونه خارجًا عن طور المروءة والإنصاف إلى عود الظلم والاعتساف.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يُوسُف: 15] إشارة إلى كمال ظلمهم ووجودهم الطبيعي

واعتسافهم الجبلي فإنهم سلكوا مسلك خلاف ما اعتقدوا أولًا، إن سنَّة الله تعالى جرت على إهانة الظالمين وإعانة المظلومين وإلى كمال لفظه الخفي، وإن الظلم ينافي المعرفة ويعافي العلم والحكمة إذ منشأ الظلم هو الظلمة، ومبدأ العلم والحكمة هو النور.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ [يُوسُف: 18] عبارة عن الإيمان الفطري والعرفان الفكري الأولى كما مرت الإشارة إليه في الحديث في قميص أبينا الخليل عليه السلام التي جاء به جبرائيل من الجنة، فالنبي عليه السلام كالإيمان بمنزلة القميص تلبسه تارة وتضعه عنك أخرى إشارة إلى أن القميص الإيمان الفطري عام في الكل إلا أنه متفاوت في البعض يبقى على حالته الأولية، بل هذا من حيث التفصيل وفي البعض مبتلى بندادة الظلم ووسخ الشك واقتضاء الوهم وبذنب الكذب والإفك.

قال يعقوب: الطوري السري والفؤاد للقوى الحسية والأعيان النفسية من مقتضى كامل الفطرة الأزلية بل هو مرتضى الأحوال الأبدية التي تظهر من تسويل ذواتكم ونفوسكم، فإذن شأن في هذه الحالة يجمل، فصبر جميل إلى أن يزول عني نكاية هذه الثلاثة إشارة إلى الأعيان الوجودية بل الأكوان العدمية بالنسبة إلى النفس الكاملة الكلية كالأجزاء أو القوى والأعضاء كما روي: «**أن المؤمنين كجسد واحد إذا اشتكى عضو تداعى إليه سائر الجسد بالسهر والحمى**». فشأن جميع القوى والأعضاء وتمام الأجزاء أن يطاوع يعقوب الروح والعقل ويطبع يوسف الجمال الجمعي والكمال الجمعي ويدخل الجب حكم سلطانة القلب الجامع والآثار الجامع أعيان الشهادة وأنوار عالم الغيب.

وكان شأن العقل الصريح والروح الجريح أن يدعو القوى الظاهرة والجوارح الباطنة إلى الجمع القلبي وجمع الكمال العيني ليصلوا بدرجته إلى ناحية الجمعية والكمالات الأولية، ولذا أمر الله كواكب جميع القوى ونجوم تمام الأعضاء والأجزاء والشمس العقلية والقمر النفسية لأن يسجدوا ليوسف الكمال الجمعي والموصوف بالكمال النوعي، سجدة إطاعة ومطاوعة. فحزن يعقوب العقل الصريح لأمرين:

أحدهما: فقدان يوسف الحالة الجمعية القلبية.

والثاني: طغيان سائر القوى والأعضاء وخروجها عن مقتضى فطرتها ومرتضى طينتها، فإن خروج هذه الأعضاء عن مقتضى الفطرة يؤثر في جمعية الكل بالصور ووفور القصور، ولذا تمسك بعروة الصبر الجميل.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ إشارة كيفية التكميل وكيد أصحاب التبديل التي هي مبادئ الاستكمال وشرائطه. والسيارة هي القوة العملية لخدمة القوة الفكرية. والواردة هي القوة الواهمة، والدلو هو صورة الفكر والاستدلال من غير ملاحظة المعنى إشارة إلى الارتباط بين الصورة والمعية، فإن الصورة مرتبطة بالمعنى مفسدة في الجملة كما أن بعض المرشدين المكملين قد أمروا بعض الطالبين الغافلين عن ذكر الله بأن يلاحظوا صورة الله وتوجهوا لينتقش صورته في القلب ليصل القلب منها إلى معانيها ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يُوسُف: 19] إشارة إلى أن القوة الواهمة التي يدرك بها المعاني الجزئية عن صور المحسوسات إذا كانت على مقتضى خلقته وهو أن توصل تلك المعاني الجزئية إلى العقل الصريح ليجعله مرآةً لانطباع المعاني الكلية الإلٰهية ويصرفها إلى الحقيقة الكلية الجامعة للصورة والمعنى، وإذا استكملت هذه الخدمة استعدت لأن يصل إلى درجة القوة العاقلة ومنها إلى درجة العقل الصريح وينزل منها إلى المقام الجمعي والمرام العيني المعي ويصير واحد كثيرًا وكثير واحدًا.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يُوسُف: 20] إشارة إلى تطور الطور القلبي وتنزُّه الدور الغيبي وتردد القوة الواهمة على مدارك تمام الإدراكات الحسية والمجالات النفسية والمقامات الأنيسة والكمالات الأنيسة والواردات القدسية والمكانات والمخاطبات القدوسية، فإذا كملها تستعملها النفس العاملة المطمئنة، فأكثر إدراكاتها هي الخطابيات والواردات الظنيات ويكون معدودة ومتناهية محدودة، وأما إذا استعملها العقل الصريح والروح الجريح تكون إدراكاتها يقينية، أما إذا استعملها القلب الجامع للمآثر النفسية والإشراقات القدسية والإدراكات القدوسية والحالات الأنسية والمقامات الأنسية تكون إدراكاتها كلية وجزئية النسبة وقدسية غير متناهية.

تفسير

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ أي وقال العزيز أو الملك يريد بمصر ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ يريد أكرميه ما كان عندك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكان لا ولد له، وكان حصورًا ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد ملّكناه في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يريد تأويل الأحلام ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ يريد على ما أراد من قضائه حيث غيّبه عن أبيه على الكره من يعقوب ومن يوسف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 21] يريد لا يعلمون غيبي وما أريد في خلقي.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ عقلًا وفهمًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 22] يريد نفعل بالموحِّدين.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ يريد مخافة أن يغشاها وتعطّرت له ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ﴾ يريد أنا لك وفاء أجزيتها لك ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يريد أنه أنعم عليَّ بتصغير أو تكبير ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف: 23] يريد أنه لا يسود العاصون.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يريد أنه نظر إلى يعقوب عاضًّا على أصبعيه يقول: يا يوسف أنت تريد تزني كما زنت الحمامة فتساقط ريشها وكان ذلك جبرائيل، وسمع من قومه قائلًا يقول: لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة، يريد من الله ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ يريد ساء سبيل النار. وكان للتي هو في بيتها صنم تعبده فلما

أرادته أرخت على صنمها الستر لئلا يراها وألقى الله العصمة على يوسف حتى خرجت نطفته من أنامله ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا كله باللّسان والفرج واليد وجميع الجوارح ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: 24] يريد لله وحده لا شريك له، فقال حين أرخت الستر على الصنم: أنت تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر وأنا أستحيي من ربّ العالمين الذي لا يحجب عنه شيء.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ يريد هرب إلى الباب وتلمّسه، فأدركته لدى الباب حتى فتحه فتعلقت بقميصه من خلفه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ فشقت قميصه من خلفه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ يريد زوجها عند الباب ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يُوسُف: 25] يريد الزنا مثل قوله في هذه السورة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يُوسُف: 51] يريد ما علمنا عليه من الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 25] يريد السجن أو يعذّب عذابًا وجيعًا.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ يريد هي راودتني عن نفسي ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ يريد رجلًا حكيمًا ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ يريد قريبًا لها ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يُوسُف: 26] يريد انظر إن كان قميصه قد شق من بين يديه فإنها صادقة وهو كاذب أي أنه أساء فعله ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: 27] يريد إن كان قميصه شق من خلفه فكذبت على يوسف وهو من الصادقين أنها راودته.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ يريد فلما رأى زوجها زوجه قدّت قميصه من خلفه ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: 28] يريد العظمة بغشه.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أقبل على امرأته فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ يريد لا تذكر هذا، وقال لامرأته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يريد توبي من ذنبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يُوسُف: 29] يريد إنك أثمتِ فيما فعلتِ.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ يريد تراود غلامها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ يريد قد دخل حبه في شفاف قلبها، وهو موضع الدم الذي يكون في داخل القلب فيدخله ويكون على الدم وهو الشغاف ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يُوسُف: 30] يريد في سفاهة بينة.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾ [يُوسُف: 21] أقول: اسمها راعيل، وقيل زليخا، والقائل هو قطفير أو طيفراء العزيز الذي كان على خزائن مصر والمَلِك يومئذ الريان الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف، فهلك بعده فانوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، فاشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي ابن مائة وعشرين سنة. قيل: كان الملك في أيام فرعون موسى، عاش أربعمائة سنة بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: 34] قيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف. قيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا وزوجيّ نعل وثوبين أبيضين. وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه صكًّا وورقًا وحريرًا فابتاعه قطفير بذلك المبلغ واشتراه. واللام في لامرأته متعلقة بـ(قال) لا بـ(اشتراه).

﴿أَكْرِمِي﴾ [يُوسُف: 21] اجعلي منزله ومقامه عندنا كريمًا وحسنًا مرضيًّا بدليل أنه قال: ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يُوسُف: 23] تنفذ به بالإحسان وتعهد بحسن

الملكة حتى تكون نفسه في صحبتنا طيبة وفي كنفنا ساكنة ﴿عَسَىٰٓ﴾ [يُوسُف: 21] لعله إذا بدرت وزاول الأمور وفهم مجاورتها يستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ بكفايته وأمانته وحسن هدايته، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾، أو نقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيمًا لا يولد له، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما تقدم من إيجابه وعطف قلب العزيز عليه منصوب.

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر وجعلناه ملكًا يتصرف فيها، العزيز بأمره ونهيه واستصوابه ومشورته ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ أي تعبير الرؤيا بأقسامها كما علمت، وسيجيء بقية الكلام عطف على مضمر أي ليتصرف فيها بالعدل. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ أي كان القصد في إيجابه وتكفله إلى أن يقيم العدل ويدير أمور الناس ويعلم معاني كتب الله وأحكامها وينفذها ويتدبر الصحف السماوية ويتذكر مضامينها ويتدبر مخارجها ويعلم المناسبات المبنية على الحوادث الكلية.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يُوسُف: 21] أي أمر نفسه لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يراه ويقضي على المراد، وعموم المريد أو على أمر يوسف تدبره بنفسه وبيده ولا يكله على غيره إذ إخوته أرادوا به ما أرادوا من الإلقاء في الجب وإهلاكه وقتله وانفكاكه من أبيه مع كمال الجب ومن غير ذلك من ضروبة الإتيان وأسلوب الاستحقاق ونفي المحافظة والصيانة. والحال أنه ما يكون إلا ما هو في علمه يصون ويشاء ويريد، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيد الله ويؤتيه من يشاء.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي زمانًا اشتدت قوته وامتدت قدرته في عمره وهو إما ثماني عشر سنة أو عشرون سنة أو ثلاثون أو أربعون ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ محكمًا بالعمل ومؤيدًا بالعقل الصريح والذوق الصحيح، أو حكمًا قاطعًا للخصوصية وجامعًا للمنافع والحكمة بين الناس وعلمًا بالتأويلات، أو المراد بالأول هو العلم بالتنزيل وأحكامه، وبالثاني هو التأويل وآياته وإعلامه النبوَّة والحكمة العلمية والولاية والحكمة النظرية. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ما عمل بيوسف ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 22] في كل شيء كما ورد في الخبر: «**إن الله يحب الإحسان في كل شيء حتى في الذبح**».

تنبيه: على أنه كان محسنًا في علمه صفيًّا في عنوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاءً على إحسانه عن الحسن من أحسن عبادة ربه في سنه آتاه الحكمة في النهاية، أو المراد هو ما ورد في جواب جبرائيل: «**الإحسان أن تعبد**

الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث.

﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ [يُوسُف: 23] أي يوسف كان في بيت امرأة العزيز، هي المفاعلة من راود يراود إذ جاء وذهب كما خادعته ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وأخذته عن جميع أفعاله حتى حسب أنها فعلت هي به ما فعل المخادع بصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده فيحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه. وهي عبارة عن التحمّل بموافقته إياها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾ فيه سبع: قراءة بفتح الهاء وكسرها، وبفتح التاء، وهيت كجبر وهيت بكسر الهاء بمعنى يهتات، ويقال: هاء يهيء كجاء يجيء إذا تهيأ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أعوذ بالله معاذًا ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ أي إن الشأن والحديث ربي وسيدي ومالكي يعطيني ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ﴾ جملة فعلية جزاء لربي، والجملة الاسمية بيان لضمير الشأن حيث لك في حقي وتربيتي.

﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ فما جزائي أن أخلفه في أهله سواء الخلافة وأخوته فيهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف: 23] المجاوزون الحس بالشيء ويبدلون الخير بالشر، أو الربانيون سيما حليلة سيده التي هي في حكم الأم لأنهم ظالمون أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي تجردت امرأة العزيز بيوسف وتقرّبت به وعمدت مخالطته، وكذلك يوسف همَّ به المخالطة والتقرُّب ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يُوسُف: 24] جواب محذوف أي يخالطها، والبرهان هو صورة يعقوب التي تمثلت الآية في تلك الحالة وقال: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء.

عن ابن عباس رضي الله عنه: مُثِّلَ له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، أو نودي: يا يوسف أتواقعها؟ إنما مثلك ما لم يواقعها مثل الطير في جوّ السماء لا يطاق، ومثلك إن واقعت مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

عن ابن عباس رضي الله عنه: لما حلّ يوسف السراويل وقعد منها مقعد الرجل من امرأته إذا بكفّ قد مدت بينهما بلا معصم ولا عضد مكتوب فيه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10 - 12]، فقام يوسف

هاربًا وقامت هي أيضًا، فلما ذهب عنهما الروع والخوف عادت، فعادت تلك الكف مكتوبًا عليه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32] فقاما هاربين أيضًا، فلما ذهب عنهما الروع وعادا فرأى ذلك الكف مكتوبًا عليه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 281] فقام هاربًا وقامت، فلما ذهب عنهما الروع والرعب فعادت وعاد فقال الله عز وجل لجبرائيل: «**أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة**»، فانحطّ جبرائيل عاضًا على اصبعيه يقول: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء. روي أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله.

عن جعفر الصادق رضي الله عنه: البرهان هي النبوة التي أودعت صدره فحالت بينه وبين ما سخطه الله تعالى. وعن علي بن الحسن قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة فسترته بثوب فقال لها يوسف: لِمَ فعلت هذا؟ قالت: أستحيي منه أن يراني على معصية، فقال يوسف: أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع وأنا أحق أن أستحيي من ربي. قيل: إنه سمع صوتًا يقول: إياك وإياها، فلم يكترث، فسمعه ثانيًا فلم يعمل به، فسمعه ثالثًا فأعرض عنها فلم يسمعه حتى مُثِّل له يعقوب عاضًّا على أنملته.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التثبت حسًّا أو الأمر مثل ذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ والإثم أو البناء الصحيح والفحشاء والزنا بالعلانية ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي يوسف ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: 24] الصالحين المخلصين.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ وبادروا، أسرع إليه يوسف عند مشاهدة البرهان بعين البصر أو البصيرة على ما يقتضيه العقل الصريح بترتيب المقدمات الفعلية وتركيب المقالات النقلية حسب ما تقتضيه المقامات وترتضيه الحالات ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ ﴿مِن﴾ جانب ﴿دُبُرٍ﴾ لدى هربه من مراودتها ﴿وَأَلْفَيَا﴾ صادفا ولاقيا ﴿سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ أي عنده، أي وجده حاضرًا بالباب ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ زنا، وذلك الحق، فهمَّ أن يقتلها زوجها ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ أي ليس جزاؤه إلا السجن والحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 25] بضرب السياط، أو الشرط بالرباط والخرق والخياط.

فلما سمع يوسف مقالتها ﴿قَالَ﴾ في رد العذاب عن نفسه: ما قصدت ذلك

بنفسي بل ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فاختلج صدره واستشهد ليدلّ على صدق أحدهما ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ وحكم حاكم صالح عابد ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يُوسُف: 26] وهو ابن عمها، وذلك أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه، أو الذي كان مع زوجها، أو حكيمًا كان يرجع الملك في معضلات الأمور إليه ليرفع عنه التحيُّر والتردُّد، أو صبي كان في بيتها وهو ابن خالها ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: 26 - 27].

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي الملك ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ﴾ وشقّ ﴿مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: 28] قيل: هذا من قول الشاهد.

فقال الملك حين برأ يوسف من التهمة يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الحديث والكلام الخبيث والأمر المشهود عليه واكتمه ولا تبالغ في انتساب الإثم إليها ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ يا امرأة الملك وزوجه واطلبي المغفرة من الله والستر عليك والتجاوز عن ﴿لِذَنۢبِكِ﴾ ومعاقبتك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يُوسُف: 29] من جملة المجرمين بالتهمة على الخصومين، وبالقصة بمراودتك إياه.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ متعلق بقال صفة نسوة وهي جماعة، وهنّ النساء وهي خمسة، والنسوة اسم مفرد وتأنيثه غير ضيفي لأنه مفرد اسم لجمع امرأة ولذا ذكر فعله، وهنّ زوجة الحاجب والساقي والخباز والسَّجان وصاحب الدواب ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ الذي هو في بيتها ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي طلبت موافقة غلامها. والعزيز بلسان العرب الملك، وأصل فتا فتي لقوله فتيان إذ الفتوة أصلها فتيوة أدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء وهي سادة وسيادة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي علقها وخرق حب الغلام وأوده شغاف قلبها وجلدة حجابه. قيل: هي جلدة دقيقة يقال لها القلب. قيل: حجب حبه قلبها حتى لا يغفل ولا يدرك سواه أو أحبه حتى دخل حبه شغاف قلبها أي داخل قلبها، أو ذهب بها كل مذهب. ومنه شغف الجبال وهي رؤوسها ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يُوسُف: 30] أو أنها في شغاف حبه وقلة صبر هواه تركت ما كانت عليه من العفاف والستر والكفاف وما بقي في حبه حوله كعبة ودّه إلا السعي والطواف فكان اللوم في حبه أحب عنده من العرس والزفاف.

إشارة وتأمل

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ [يُوسُف: 21] أي ملك الروح قال للنفس العاملة: ﴿أَكْرِمِى﴾ يوسف المصري وهو وجه، فيسمى تواجه النفس العاملة والمعنى هو الوجود الخارجي واليقين المزاجي أي الوحدة الجمعي الزجاجي الامتزاجي المتضمن لتمام الزجاجات الخارجية والتعينات الكونية أو الصورة الجمعية الإلٰهية والكونية ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي نبلغ مبلغ الأعيان الكاملة والأكوان الفاضلة ويستكمل في السير إلى الله ومن الله وفي الله. التوسل في الوصول إلى الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ أو نستخلفه ويقوم مقام أطوار الاستكمال والتكميل وتطرد الاعتدال إلى إدارة الأدوار وتكميل أعيانها وتعديل أكوان أحوال أكوارها العتمية متنوعة الجعل والتعديل.

قال: تطورات الإنسان الكامل في أطمار الظهورات والبروز والبرزات غير متناهية كما أن أطوار الألوهية في إدارة الأدوار وتكميل أعيانها وتعديل أحوال الأكوان أكوارها الضمنية متنوعة بجعل بعضها أملاكًا مقربة والآخر أملاكًا عاملة، وبعضها عقولًا مجردة وبعضها نفوسًا مدبرة، وبعضها أفلاكًا مستديرة، وبعضها عناصر، وبعضها مواليد ثلاثة، وبعضها إنسانًا كاملًا وكونًا فاضلًا يقوم مقامه في الأرض ويعرجه ويوصله في مقام الفناء الذاتية والبقاء الإلٰهية، متصرف في تصرف الإلٰه في الأعيان والأكوان بلا إعانة وكيل.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ لخليفته الطور القلبي في الأرض كاستعداداته بعد الفناء والبقاء وانتصابه في منصب الخلافة في الأرض والسماء ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ أي أسرار التجليات الذاتية الأحدية أولًا في المرتبة الأحدية ثم في بداية الواحدية بصور التشوُّفات العينية وفي الواحدية وعالم الأمر وما دونه أنوار التجليات الأسمائية والأفعالية والآثارية، والصورة الجمعية الناسوتية وما يتفرع منها من الأسرار الجامعة والأنوار الرابعة والأطوار الرافعة للأعيان التي متضمنة الناسوت إلى اللاهوت، فالصور العالية تأويل وتفسير للسافلة لدى الفروع وبالعكس عند النزول ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي أمر التجليات المتجددة وشؤوناتها المتولدة وتنوعاتها المتبددة وجودًا أو شهودًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 21] من أصحاب التجليات فإن أسرار التجليات وأطوارها وأنوار الشهود وتنوعات أنهارها في نشأة أدوارها ورسومات أكوارها مما قد اختفت على كثير من أرباب المشاهدات ولا يتذوقون ذوقًا ولا يتشوقون إليها شوقًا شاملًا ولا يعلمون لتلك الأسرار علومًا حضوريًّا ولا يدركونها إدراكًا شهوديًّا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ الطور السري والدور القيادي البري الذي هو صدرًا لطور التجلي وهو التجلي تامًّا راشدة إلى كماله الجمعي والجمع الكمالي الذي يتضمن تمام أنواع التجليات وعموم أطوار الشهودات ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي حكم الولاية بالنبوة وعلمًا مستفادًا من النبوة التشريعية متعلقًا بالأحكام الإلهية وهو الشريعة، وبالأعلام الربانية وهي آداب الطريقة وبهما يصل العبد إلى مقام الحقيقة ويتحقق بها الشريعة فنظرة الحقيقة الحديث فمن لا شريعة له لا طريقة له ومن لا طريقة له لا حقيقة له، ومن لا حقيقة له فهو شيطان طريد وإيطان مريد «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**» الحديث.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما بلغنا أي أوصلنا يوسف المذكور إلى نهاية مراتب الكمال الذاتي والأسمائي ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 22] الذين يتفق من سائر الأطوار الذين بلغوا في غاية الأطوار في نهاية الأدوار وحدود الأكوار صريحًا وضمنًا إلى أن أصبح الصريح ضمنًا والضمن صريحًا، والنبوة وهي المتعلقة بالأحكام الإلهية تصير ولاية، والولاية وهي شيء يتعلق بحقائق التجليات وشقائق الشهودات نبوة وهداية لكل الكائنات وجمهور الممكنات ألوان يشهد من جميعهم سر أنا الحق، ويظهر به «سبحاني ما أعظم شأني»، ليساوي الكل في كونهم حصصًا في الذات وصيرورتهم متحققين بالألوهية بالذات والأسماء والصفات، وهذا موعود بزمان المظهر الموعود حجة الله القائم على تمام الوجود.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ [يُوسُف: 23] إشارة إلى دور الله وسره في الأدوار وتنوع أطواره في أدواره، فتارة ابتلاه بمراودة النفس العاملة ومزاولة الطبيعة النازلة والمرتبة السافلة، وتارة ترونها زاوية اللطيفة القلبية مخالطًا بيوسف اللطيفة القلبية، وأخرى يعرج إلى سماء الروح كالريح وفلك العقل الصريح، ثم يهبط منه إلى أرض الإمكان كاستعدادي لتلبية ما يستعد لأن يتلوح في ملكوت السماوات والأدوار الربانية والأكوار الكنائية، ثم يعرج إلى فلك الجمعية الإفرادية النورية ثم

إلى سماء الجمعية الوحدانية، ثم إلى جمعيتهما الجمعية ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ إشارة إلى الوقوف في المواقف لما يتفرد في الحكمة الربانية من أنه لا بد من أن يكون بين الحركتين المختلفتين كالهبوط والصعود والإقبال والإدبار زمان سكون ووقوف ليحصل له قوة في الصعود والإقبال.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ﴾ أي تهيأ واستعدّ للإصعاد والإقبال لافتراق المعارف الإلٰهية والاعتراف بالمواقف المتوالية والاغتراف بيده من ماء العلوم الحقيقية. والحقائق المعارف الغير المتناهية. قال يوسف الطور القلبي عند الوقوف بين يدي موفقة زمان السكون في أرض الإمكان والاستعداد: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ أي زمان السكون موقف التربية ومعطف التوفيقية لا مقام الاكتساب ومقام الاجتلاب ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يُوسُف: 23] الأول لاكتساب الكمالات النورية الوجودية والثاني لاجتلاب الحالات الظلمية العدمية إلى الفناء في الله والبقاء بالله في الأدوار الجمالية والأكوار الجلالية.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ إشارة إلى أن الاحتياج بين الطالب والمطلوب والفاعل والقابل والراغب والمرغوب والمحب والمحبوب دوري، واليسر والخاصة بينهما كوري ضروري ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أي جذبته الرحمانية وخليفته الربانية معين في زمان السكون وأوان الوقوف، فلكل منهما مثل طبيعي إلى الآخر لأن ميل الفاعل وتأثيره مشروط بعلم وإرادة، إذ الأثر والتأثر يتعلق بأمور متكثرة متنوعة مختلفة لا بد أن يكون متميزًا بعضها عن بعض، ولذا اعتبر البرهان الذي يفيد العلم كالاختيار والإرادة في الفاعل دون العامل، وأن الذات الفاعل تكون قابلًا من غير عكس ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يُوسُف: 24] أي الأطوار القلبية والأعيان العينية والقوى النفسانية والمبادئ الروحانية الذين هم خلصوا يوسف من الطور القلبي والسر الغيبي في مدارك إدراكاتهم ومسالك شهودهم وممالك أطوار وجودهم الممتد وجنس التقلّد.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يُوسُف: 25] أي باب التطورات في دار التنوعات و﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾ أي مقتضى بقيته الأولى وبكونه الأزلي وهو الإيمان الفطري والإسلام الضروري من قبل وإقبال وهو الوجه الإلٰهي الذي هو أول الوجوه الذاتية السارية في جميع الأعيان الكتابية الباقية أزلًا وأبدًا ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88].

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾ ربها ومربيها ﴿قَالَتۡ﴾ القائلة الأولية والمادة الأزلية ﴿مَا جَزَآءُ

مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ﴾ أي السر المختص بك وهو الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿سُوٓءًا﴾ وصولًا واختلاطًا ومباشرةً من غير استحقاق وسبق اشتياق وشرط لحوق واستلحاق ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾ ويقيد في مرتبة واقتضاء أي دورة وارتضاء أو كورة ﴿أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يُوسُف: 25] أي تردد وتيسير وتبدُّد في النشآت وأطوارها الشؤونات. قال أفلاطون اللّدني إن الإنسان مهذب في كل أحواله إذ السكون والتعطل فج فاليسر والحركة والتردد والطير في جميع الأحوال لازم.

﴿قَالَ﴾ يوسف الطور الصدري أو القلبي ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ إشارة إلى أن المراودة والتقيد والميل إنما هي من النفس العاملة المتعبدة بالجسم وتدبيره ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يُوسُف: 26] وهي القوة العاملة ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ [يُوسُف: 27] أي من جهة الوجه الكوني وهو العلم الحاصل من جهة المتعلق بالممكنات وهو يوجب الإدبار من الحق والإقبال إلى الخلق ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يُوسُف: 28].

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ الأمر الذي شغلك عن أصل المقصود ومن كيدهم المرصود والإثم الموصود ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ لما تقدم من أن التقلُّد والتقيُّد والمثل إلى ما هو غير المقصود إنما تشابه من جانب النفس مباشرة أو نسبيًا أو توليدًا ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يُوسُف: 29] المجبولين على التوجه إلى عالم السوء.

تفسير

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ يريد بمقالتهن ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ وهو الأترج يريد أعطت كل واحدة منهنَّ سكينًا وأترجة ﴿وَقَالَتِ﴾ يريد قالت ليوسف ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾، ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ يريد أعظمنه ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ يريد بالسكاكين ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ﴾ يريد ليس لله السوء ﴿لِلَّهِ مَا هَٰذَا﴾ يريد قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يُوسُف: 31] من الملائكة.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ يريد وامتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ يريد ما ندعوه إليه ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يُوسُف: 32] يريد الصغار بعينه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ﴾ من الفاحشة والإثم ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ يريد مكرهن ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يُوسُف: 33] يريد من المذنبين الآثمين.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يُوسُف: 34] سميع لدعائه عليهم بما يخاف من الإثم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [يُوسُف: 35] يريد ما فعل بالنسوة حيث قطعنّ أيديهنّ، وما قال الحكيم في حكمه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يُوسُف: 26] وما ألزمها ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: 28]. ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يُوسُف: 35] يريد انقطاع المقالة وما شاع في المدينة من الفاحشة.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ﴾ عبدان للملك والملك يومئذٍ الوليد بن نزوان العمليقي، وكان أحدهما على شراب الملك، والآخر على طعامه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ يريد الخمر بعينها ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ يريد أخبرنا تفسيره ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 36] يريد من الموحِّدين.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ يريد لا تأكلانه ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ يريد إلا أخبرتكما بتفسيره ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ يريد مما ألهمني ربي ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ﴾ يريد دين قوم ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لا يصدقون بالله ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يريد الجنة ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: 37] يريد هم جاحدون.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ يريد دين الحقيقة ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ يريد إن عصمنا أن نشرك به ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ يريد يتفضّل به علينا ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يُوسُف: 38] يريد لا يوحِّد الله.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ يريد آلهة متفرقة ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: 39] الذي ليس كمثله شيء، القهّار، يريد الذي خلق الموت والحياة وقهر العباد بالموت.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

سُلْطَٰنٍ﴾ يريد من حجة ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يريد لا شريك له ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يريد ليس بأمر صنم ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يريد الدين المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 40] يريد لا يعلمون ما للمطيعين لله من الثواب وما للعاصين من العذاب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أقول: باغتيابهنَّ وسوء مقالتهنَّ في حقها بأنها قد عشقت عبدها الكنعاني. وإنما سميت مكرًا لأنها في غيبتها وخفية منها كما يخفي الماكر مكرها فعل (فدكنَ هواجة) فأفشته عليها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ يتكئ عليه للشراب أو الطعام كما هو عادة المترفهين ودأب الرجال المتنعمين ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾ وهم يأكلون اللحم والأترج، قال ابن عباس رضي الله عنه: متكأً هو الأترج أو هو كل ما هو يقطع بالجارحة ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يُوسُف: 31] أعظمنه لهيئته وتحيرنَ من ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق الساطع ولذلك اشتهرت بين الناس: «إن فضل حسن يوسف وجماله كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء».

واعلم أن الحسن والجمال حالةٌ وسرًّا ليس في القمر ولا في الشمس بل ولا في الملك ولا في الفلك، لا يعلمه إلا الله لجذب الروح والعقل والقلب والنفس على وجه لا يعلمه إلا الله وما صدق هو عليه من الملاحة والفصاحة والبلاغة والعدالة والصون، فإن كان وحدة الاعتدال والعدل في تناسب الأعضاء الحسية يسمى بالحسن والكمال، وإن كان في تناسب الأجزاء يسمى بالملاحة، وإن كان في أجزاء الألفاظ والكلمات يسمى بالفصاحة والبلاغة في إجراء الصوت واصطكاك الهواء يسمى بالنغمات الملائمة، وإن كان في الأفعال الإرادية والأعمال الاختيارية يسمى بالعدالة، وإن كان في استفادة المعاني يسمى بالدلالة.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بذلك الجارح من فرط الدهشة ومرط الوحشة وشرط الخشية ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ للتنزيه والتبعيد عن السوء أو براءة الله وتنزيهه وتبعيده عما هو نقص وعيب ونكص من هذا الشخص والوجود الجزئي المشخص سرى إنسانًا مشخصًا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يُوسُف: 31] أي تعين البشرية منه لأن البشر لا يتأتى منه

هذا الأثر من الملكية ويبين بها الحكم لأن الله تعالى ركز في الطباع أن لا يقبح إلا من الشيطان ولا يستحسن إلا من الملك، ولذا يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما وما ركز ذلك إلا كذلك إذ الحقائق في الظاهر كذلك، وأما في التحقيق فإن الكل مستند إلى من هو موجود بالذات ولا موجود إلا الله فلا موجود ولا مؤثر ولا فاعل إلا الله، ولا ينكر هذا إلا من تمسك في الحكم بالعقل المغتر الصريح المتشبث بأذيال الوهم والخيال، الحاكم على الحقائق المتعددة.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يُوسُف: 32] في حبه وإيثاره إشارة إلى التقيد للتعظيم أو لكونه إشارة إلى العبد الكنعاني الذي عشقته ووقعت في حبه في مطارح الطعن والتوبيخ واللعن وأنتنّ لو صورتن في أنفسكن حسنه الكريم وجماله العظيم العميم لم تلُمنني في حبه ووده وأنتم لو تصورتنّ وتأملتنّ حق التأمل فيه لعذرتوني في الافتتان بحبه والامتحان في عشقه والامتنان عليّ في استخلاصه من غيابة الجب، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ وقصدت إمالته ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إلى مطاوعتي وأخذته وجذبته إلى مبايعتي ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وامتنع وارتدع عن مرادي طالبًا للعصمة بالله وراغبًا إلى الرحمة من الله ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ وما أمرته به ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ ويجعل في السجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالتخفيف والتشديد، والتخفيف أولى لأن النون كتبت في المصحف ألفًا على حكم الوقف وذلك لا يكون إلا في الحقيقة لشبهها بالتنوين نظيره (نسفعًا) ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الذليلين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ والحبس ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ من الموافقة لأن أُخبرنا نكاله بالنسبة إلى عذاب الآخرة وبعد الحق وطرده لأنه متناه وعذاب الله وخذلان الآخرة أبدي غير متناه ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ أي وإن لم تصرف عني أو تدفع عني كيدهن وحميتني من حب ذلك ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ مجزوم في جواب الشرط من الصبوة وهو الميل إلى الهواء ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليه لطيب نعيمها وروعها ويشتاق ويمثل لديها ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم عطف على أصْبُ ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يُوسُف: 33].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بدعاء الداعين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [يُوسُف: 34] يعني استحقاقهم وبمقتضى نشأتهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي ظهر للعزيز وأركان دولته ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على صدق يوسف وبراءته عما نسبت إليه امرأة العزيز، وهي الشواهد المذكورة فاعل بدا مضمر يدل عليه قوله: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يُوسُف: 35] أي وقت معين وزمان مبين أي بدا وظهر أي السجن وصلاحه وعزموا عليه.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي مع يوسف ﴿ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليقي ملك مصر الأكبر، أحدهما خبازه صاحب طعامه، والآخر ساقيه صاحب شرابه، فغضب الملك عليهما فأمر بحبسهما فأدخلا السجن فساعة أدخل فيها يوسف في السجن وكان ذلك لقصد جماعة من أهل مصر لملكه فجعلوا طعامه وشرابه مسمومًا فلما أحضروا الطعام والشراب قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخبَّاز: لا تشرب فإن الماء مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب شرابك وماءك، فشربه ولم يضرّه، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى، فجرّب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما، فحبس يوسف معهما فتحدثا ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ وهو الساقي أي عنبًا لتسميته للشيء باسم ما يؤول إليه. وقيل: الخمر اسم للعنب.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في المنام، وهو الخباز ﴿أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وتأكل السباع منه ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 36] لأنه كان في السجن يعود مَن كان مريضًا ويقوم عليه، فإذا ضاق أوسع عليه وإذا احتاج جمع له شيئًا، وكان مع هذا يجتهد في العبارة ويقوم الليل كله للصلاة وقد كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم وعناؤهم فجعل يفتقدهم ويقول لهم تطييبًا لقلوبهم وتفريجًا لفؤادهم: أبشروا واصبروا تؤجروا إن لهذا أجرًا عظيمًا، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أبهى وأبين خلقك، لقد نودّ في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت لخلّيت سبيلك ولكن أحسن جوارك فكن في أي بيت شئت من بيوت السجن.

﴿قَالَ﴾ يوسف للغلامين: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ﴾ وغذاء وشراب ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ وأعلمتكما ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ وطريق حصوله وكيفية تحصيله ووصفه ونوعه ﴿قَبۡلَ

﴿أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ بيوم أو يومين قلّ أو كثر، ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي: الذي أخبرتكما ونبأتكما من بعض الذي ﴿عَلَّمَنِي﴾ علمه ﴿رَبِّيٓ﴾ فيجدانه كما أخبرهما وذلك عن الغيب، وجعل ذلك مقدمة على دعوتهما في الإيمان ودلالتهما على الإسلام إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان والتفريد ويبينهما لهما ويقبح الشرك والضيق والكذب والبهتان والإفك، هذه طريقة كل ذي علم وصاحب وقائد وحكم، ويصدقون أن يسلكها لكل صاحب رؤيا وحلم، وإذا استفتى واحد من العلماء أو سئل شيء من المسائل العويصة أو الدلائل العويصة فعليه أن يقتدي بطريقتهم ويقتفي أثرهم ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: 37] تعريض يقيد فائدة التعليل كعلّمني ربي، وتنبيه على أن التعليم الرباني، فالإعلام والتعليم الصمداني لا يتأتى ولا يتيسر إلا بالإيمان بالله وباليوم الآخر، وتقديم المفعول وضمير الفصل إشعار بقوة كفرهم وشدة قساوة قلوبهم وكدورة عيونهم وبعدهما عن قبول الإيمان بالله والتوحيد وانغماسهم في ظلمة الشرك والتقييد.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما وضح لنا وما ينبغي وما تجزئ عند تمنع غريزة العقل الصريح وقوة الفهم عن الفعل الصريح ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾ خالق السماوات والأرض وما فيهما، مدبر الليل والنهار وما قارنهما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ [يُوسُف: 38] عظيم أو حقير، كبير أو صغير، جماد أو مدرك، سميع أو بصير، إرشاد ودعوة إلى الإيمان وقبول الإسلام ولا ينقاد بالشريعة والأحكام، ولهذا جاز للخامل أن يصف نفسه وعرفه للجاهل ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإيمان بالله وبما جاء به وبالتوحيد والتجنب عن الشرك بالله وعن التقليد، فجاز تعريف الشيء بنفسه ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وكمال رأفته وعموم رحمته ﴿عَلَيْنَا﴾ بالوحي والتعليم ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الذي أرسلنا الله إليهم لتبليغ أحكامه ولتسوية شرائعه وإعلامه وإرشادهم إلى طريق الهدى وإمدادهم في الوصول إلى التوفيق العلي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المنعوت عليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَم الله وأنواع إفضاله عليهم هنا، هذا الفضل بأن نصب لنا الأدلة وأظهر الآيات من الكواكب والشمس والقمر لدى تبدلات أوضاعه من الضمان والتدليس والتربيع والتثليث والمقابلة

والاستقبال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث عليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: 38] نعم الله بأن ضيعوا تلك الغريزة العقلية والأدلة النقلية اتباعًا للأهواء وقفولًا وانطباعًا للإغواء فيبقون كافرين، وعلى أحكام الله والإذعان بها والتشبث عليها صابرين بإزاء الآلاء وجزاء النعماء صابرين.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا صاحبي في السجن، فإضافتها كإضافة السارق بالليل كما أن الليل سروق فيها لا مسروق، كذلك السجن مصحوب فيه ولا مصحوب، والمصحوب فيه كقولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق، فإضافتهما إلى الصدق لا لأنهما صحبا الصدق بل لأنهما صاحباك.

ويجوز أن يريد يا ساكني السجن كأصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ في العدد والتكاثر، مجتمعين أو ممكنين محتاجين في الوجود وما يتبعه إلى الواجب الوجود ﴿خَيْرٌ﴾ خبر مبتدأ موصوف ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ الله الواجب الوجود ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ ذاتًا وصفة وفعلًا ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: 39] العزيز القوي الغالب الغني في ذاته وصفاته وأفعاله.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ اعتبرتموها ووضعتموها، أي الألفاظ والأسماء بإزائها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ وقلتم أربابًا وهي خالية عن المعنى وضعيفة لا أثر لها ولا تأثير للآلهة ولا للمربوبية فيها ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ دليل وحجة، يتسلّط ويستقلّ على المدعى عليهم ﴿إِنِ﴾ ليس ﴿ٱلْحُكْمُ﴾ والأثر والتأثير والتكوين والإيجاد والتصوير ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه في سلطان ألوهيته وبرهان ربوبيته شيء من الأشياء إنسانًا أو ملكًا أو عنصرًا أو فلكًا. ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ إلا الله تخصص العبادة أو العبودية والعبودة، ولا تشاركوا فيها أحدًا، فمنها ذلك التوحيد الذاتي والأسمائي والأفعالي ولم يتفرع عليه من العبادة بأقسامها والطاعات بأنواعها ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الحق الثابت لا غير ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 40] الدين القويم والصراط المستقيم الذي لا يرتضي العقل الصريح بغيره ولا يقتضي الفهم الجريح ولا الذوق الصحيح دونه.

إشارة وتأمل

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إلخ، فيه إيماء إلى أن الأديان الإلٰهية كما

يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا جوهريًّا وتناسب أحدهما الأخرى لفائدة وعرض جوهري، ويتكلم ويتحدث بلسان هذا الارتباط وهو بيان للمناسبة والانخراط، كذلك ترتبط أجزاء كلمتين بعضها ببعض وتناسبه وتجري منها محادثة ومكالمة وسماع واستماع، كل بلسان حاله وبيان مقاله على ما يقتضيه الارتباط ويرتضيه الانخراط والانضباط، فالنفس العاملة التي تقبل الأحكام الصادرة من تلك القوة العاقلة في مصر الوجود الكوني ويؤجلها إلى الطعن القالبي الذي هو مجموع نسمة الظاهرة والباطنة وهي المشاعر العشرة الشاعرة التي هي مراكب آثار العلم وأنوار الشعور، والحكم الأربعة وهي التعقل والتخيُّل والتوهم والإحساس التي هي الأدوار النورية التي هي أعيان كل طور على طبيعته، وبكل دورة من الأدوار مثلًا أعيان الدورة العظمى النورية وهي الجواهر النورية القلبية على طبيعة التعقل المحض وحقيقة حقية أعيان الدورة الكبرى من جنس التوهم، وأعيان الدورة الوسطى من جنس التخيل، وأعيان الدورة الصغرى من جنس الشعور وحقيقة الكورة الجامع الذي هو الناسوت وهو الدورة الجامعة النورية إنما هي الصورة الجمعية الإلٰهية والكونية، ولكون كل منها اقتضاء لما سمعت من نسوة حواس القابلة ما اختص بكل منها من المقتضيات الطبيعية والمرتضيات الرجعية أرسلت إليهن ملكًا رسل المناسبة التي بينهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي أترج الحب وسكين الشوق وقالت: أخرج يا يوسف طور السر والفؤاد الذي قد بلغ في التصفية والتخلية والتحلية واكتساب الملكات الفاضلة واجتلاب الأوصاف المرضية والصفات الرضية ودفع الشهوات ودفع المشتهيات إلى مرتبة الملك، ولهذا قال: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يُوسُف: 31].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ﴾ [يُوسُف: 36] في سجن الطور العالمي وحبس البدن وخلع الطود القلبي ﴿فَتَيَانِۖ﴾ أي القوة النظرية والمبدأ الفكري والقوة العملية، أو المراد هو الطود الجمعي الصوري ومن الثاني الطود القلبي، ويوسف هو الطور السري والدور الفؤادي، والملك هو الطور الروحي، والمراد من الملك هو الطور الجمعي والعقل الصريح، والغلامان هما الطوران الصدران والقلبان، والسجن هو الطور النفسي والقلبي، والجنان هو القوة العملية، والساقي هو القوة النظيرة، والثاني واضح بالتأمل.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣﴾

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ [يُوسُف: 41] تفسير الخمر بعينها ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآيات 40 - 42] قالوا: سبع سنين ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ يريد يا أيها الأشراف ﴿أَفۡتُونِي﴾ يريد أخبروني ﴿فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يُوسُف: 43] يريد تفسرون.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ إنما الأضغاث من الشيطان وليست ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يُوسُف: 44] يريد علم الرؤيا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يُوسُف: 45] يريد بعد سنين، يريد إحدى العبدين رأى أنه يعصر خمرًا ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ يريد أنا أخبركم بتفسيره ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ [يُوسُف: 45] يريد أنه قال للملك: أرسلني إلى السجن إلى يوسف وهو

عالم بتفسير الرؤيا، فأرسله فلما أتاه قال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ يريد الصالح ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يريد أهل مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 46] يريد كي يعقلون.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يريد يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ يريد سبع سنين خصبًا متوالية ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ يريد لا تدرسوه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يُوسُف: 47] منه فذروه حبًّا بقدر الحاجة الضرورية تزرعون حبه بمعنى الإنشاء مثل ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [آل عِمرَان: 114]، و﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المَائدة: 54] وذلك للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمورية، فيجعل كأنه يوجد فتحيّر عنه، والدليل على هذا لفظي ومعنوي، أما اللفظي فهو قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يُوسُف: 47]، وأما المعنوي فلأنه عليه في هذه الحالة مرشد وناصح وهو أمر لا خبر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المزروع ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ مجازًا دالًّا [على] (يأكلون) وأهلها ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي لأهلهن والموصول مفعول ﴿يَأْكُلْنَ﴾ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وتحرزون وتحفظون وتدخرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [يُوسُف: 49] السبع الشداد سنة و﴿عَامٌ﴾ فيه خير كثير وبركة وحصن ومكيال غفير ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغوث أي يمطرون. يقال: غيثت البلاد إذا مطرت وتغلب فيها المطر منه غيثًا ماشيًا ﴿وَفِيهِ﴾ أي في هذا

المقام ﴿يَعْصِرُونَ﴾ [يُوسُف: 49] بالياء والتاء، والغيث في هذا العام الزيتون والسمسم ونخيل الضروع. وقرئ: يعصرون على بناء المفعول مطابقًا للإغاثة، ويحتمل أن يكون من عصره إذا نجا ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى يكون، كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أي يغيثهم الله ويمطرهم ويغيب بعضهم بعضًا. وقيل: يعصرون ويمطرون من أعصرت السحابة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ أي بيوسف وذلك أن الساقي لما رجع للملك وأخبره بما أفتاه يوسف رؤياه وعلم الملك أن الذي قال وأخبر به فهو كائن أمر بإحضار يوسف وإيتائه إليه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي يوسف الملك ﴿ٱلرَّسُولُ قَالَ﴾ يوسف ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وسيدك يعني الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ أي فاسأل يا يوسف عن الملك ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وإنما لم يصرح باسم امرأة العزيز أدبًا وتعظيمًا واحترامًا لها وتأني وتثبت في إجابة الملك، وقدم سؤال الملك النسوة ليظهر براءة ساحته مما قوى به فرية بلا مرية وسجن ظلمًا وعدوانًا بلا جرم فصيح وإثم صريح، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم ومنع الافتراء وتعمُّد الإجرام وانتساب الإثم واجب وجوب اتقان الوقوف في مواقفها والعكوف في مواقعها. قال النبي عليه السلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم**». وقال أيضًا: «**ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله فقيل له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان: لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب**».

ولما انتفت القدران كان حليمًا ذو حال وأناة. وإنما قال: واسئل الملك عن بيان النسوة، ولم يقل اسأله أن يفتش في شأنهن لأن السؤال مما يهيج الإنسان وحركة البحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة، وقصّ الحديث حتى يتبين له بداية بيانًا مكشوفًا يتبين فيه الحق من الباطل. ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته صريحًا ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 50] لأنه أمر عظيم وشيء جسيم لا يعدله شيء. واستشهد بعلم الله على أنهن كذبة وأنه يرى مما يرى به أو زاد الوعيد لهن أي هو عليم بكيدهن فيجازيهنّ

عليه، إن الله تعالى بضعفهن عالم، وإنما أراد بذكرهن بعد طول المكث مدة حتى لا ينظر الملك إليه بعين التهمة ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك تلك النسوة وامرأة العزيز، ثم ﴿قَالَ﴾ لهن لظهور أمر يوسف وتحقيق براءته ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وشأنكن وأمركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ عم الخطاب والمراد امرأة العزيز أي هل وجدتن فيه سبيلًا ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ خيانة وما يشعر بذلك عيبه ورفض تنزيهه عن الفحشاء ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وإنما أفردها بالذكر لكونها عمدة في أمر المراودة وأصالته في ارتكابها ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ وثبت واستقر وتبين، فلما اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد منهن مقالة. قيل: إن أقرّت واعترفت مخافة أن يشهدن عليه ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: 51].

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

فلما سمع ذلك يوسف قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التثبيت والتشمير بظهور براءته ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ولا قصدت الخيانة بأهله ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي حالة غيبته، وظهر غيبته في حرمته حال من الفاعل والمفعول ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يُوسُف: 52].

إشارة وتأويل

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي المحبة الذاتية والعقل الصريح دارتا في الدورة العظمى الذاتية التي أعيانها ومقتضياتها هي الشؤونات الذاتية والتجليات بالوجوه الذاتية والعنوانات اللاتينية قد تعين الصاحبان فيها بنعت الحب الذاتي ثم يتميزان في المرتبة الثانية وهي الواحدية والجبروت مجردتين عن قيود هذه الأدوار التي تحتها سلطنة الدورة العظمى ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي صاحبه والموصوف به ﴿خَمْرًا ۖ﴾

أي عشقًا ومحبةً ليقتضي لصاحبه والمقتضى به الموصوف حياة سرمدية بلا موت ﴿وَأَمَّا ٱلْآخَرُ﴾ وهو العقل ﴿فَيُصْلَبُ﴾ ويرفع في الدار بكمال تعينه فيسقى على تلك الحالة ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ﴾ من الطائر الإلهي وهو الجذبة الإلهية والحب الذاتي ﴿مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي مقتضى ذاته التي هي العلوم والإدراكات التي محل ظهورها الدماغ والرأسَ إشارة إلى تغاير انقضاء الصاحبين، وأما اقتضاء الصاحب الأول وهو التجرد عن مقتضى الثاني وهو العلوم والإدراكات الظاهرة في المرتبة الثانية ثم ينزل على تدارك الظهورات ويظهر بصورة الروحانيات بثقة التعقل في الشبهات نبوة التوهم والتخيل، وفي الملك والشهادة بصورة الإحساس والمشاهدة، ثم يظهر حكم سلطان الصاحب الأول مجرد صاحب هذه الصور عن هذه الصور شيئًا فشيئًا إلى أن يوصله إلى الحالة الأولى، ثم تجرد عن خصوصية التعين العقلي ويفصل إلى شبحه الأولي ومن الحضرة العلمية ويتجه الوجه الكوني بالوجه الذاتي وصار فانيًا في ذات اللّهِ وبحر أحديته ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يُوسُف: 41] أي الأكل والتجويد والإيصال إلى الحالة الأولى والمرتبة العليا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ [يُوسُف: 42] أي يوسف الطود الجمعي القلبي والجمال الجمعي بين الشهادي والغيبي الذي هو المنزل للمحبة الإلهية ومحل للمودة الربانية إنه أي الساقي الإلهي والحب الغير المتناهي هي ناج منها وأنت في عقل مضطرب هاج فلكل منهما رأي ومقتضى على مقتضى شبحه الأولي ومرتضى تسميه الأصلي عقلي هذا للأخرى بينهما مناظرة ومناقضة وسرى معارضة ليظهر أصولي وحقيقتهما.

أما حقيقتها الواحدة فإن للذات وجهين وجه إلى الذات من حيث الأحدية والثاني إلى الذات من حيث الأسماء والصفات الواجبة، فالأول هو المحبة الذاتية صاحب الصاحب الأول، ومن حيث الأسماء والصفات الواجبة، والثاني هو العقل الصريح والنور الفصيح كما أشار إليه: «كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»، فالكون نور الأنوار والثاني نور الأطوار يظهر، فالأول التجلي الذاتي بالعنوان الذاتي والمطلق أو هو ذات التجلي الذاتي، والثاني أثر التجلي بالأسماء أعني التجلي العلمي، قال العقل مظهر ظهور أحكامه، والمحبة مظهر من الذات والذات بعينها، فلذا ظهر العقل في التجلي الذاتي بعنوان العلم

ونظر إلى ذاته وكمال الوحدانية وضيائه وذهل عن مبدئه الأول.

والوجه الذاتي تصدى إلى إظهار فضله وتعدى إلى المعارضة بأصله هو الحب الذاتي فقال له: أنا خير منك، وسرى هذا السّر في مظهر وهو إبليس الذي خطبه العقل النظري، ولذا تصدى إلى المناظرة بربه ونور الفكر والنظر حيث أمره بالسجود لآدم وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61] ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، ولعدم وقاره لكنه أقرّ عن الفضل والشرف لنفسه وقال: أنا أشرف وأفضل وأعلم منك لأني في طريق الفيء والصواب، وأعلم رفيق الفيء وشفيق التوابعة، فقال: المحبة والحب الذاتي أن كل بردعي كذاب وهذا النظر إلى الشواهد والبينات «**البينة على المدّعي واليمين على من أنكر**»، وأنا عين الصورة.

والمعنى ليس لي حاجة في إظهار الفضل والشرف إلى الدعوى ولا إلى إقامة البينة والشواهد لا في الأولى ولا في الأخرى بل أنا ظاهر بنفسي وذاتي لأني نور وظهور وشهود وحضور بل نور الأنوار ومبادئ كل الأطوار قال العقل أنا أشرف وأعلم لأني أميز بين العلم والجهل وبين الخساسة والشرف والفضل وبين الخير والشر والنفع والضرّ فقال: الحب لا خير عندي ولا شرّ ولا نفع ولا ضرّ بل استوى الكل لدى صلواتي إذا أصوب إليكَ فررت عن مقامك وإذا أتوب لديك مررت عن مرامك ووليت ولما نقل في الحديث: «**أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر ثم قال العقل: أنا أكمل نورًا وأعظم منك سرورًا لا يعلم أحد الخيرَ والشرَّ والنفع وَالضرَّ إلا بنوري ولا تتميز الأشياء لديكَ إلا بحضوري، أنا مصباح المهتدين وسراج المؤمنين، بنوري تظهر الأملاك والعقول والنفوس والأفلاك وبضيائي ينجلي عن القلوب غمائم الشهوات وبصفاتي تنكشف غمائم أرباب الكمالات وبشمايمي تنفطر مشام أصحاب الحالات والمقامات، قالت المحبة لا نود لك المعنى بل الظهور الإلهي يعني كما قال: «فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**»، ونوري أزهى وأتم من ثوابك بل أقدر لنورك لدى نوري لأن نوري هو نور الذات بل هو عين الذات لامتناع الثنوية في مرتبتي، ونورك رشحة منه ولمحة عنه، وإن حالتي حالة واحدة لا يعتري عليها تبدُّل يحمل منه الإقبال والإدبار والزوال والفناء، والمثاني سرور في سرور، وإن شأنك غمور في غمور، وإن العارف المجد ما لم يتزود منه العقل

والامتياز ولم يتجاوز عن العلم والشرف والفضل، وأنت أروع، ويباهى به من الاعتزاز لما يصل الخفاء لا يزول، ولا إلى مقام لا يفنى ولا يحول. وإن سرورك مشوب بالغم والهم وإذ نورك مصون بالظلمة والظلم وحضورك مصوب بالجفاء والعدم وإن نورك ككوكب نجم ثاقب يفول ويتحول ويزول.

فلما أفلت ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] وإن سروري كنور شمس إذا كانت طالعة لا يبقى للكواكب والعقول ولا النجوم الزاهرة العقلية نور ولأهلها شهود وحضور فقال العقل: أنا الذي رزق الله في الحكمة التي هي راحة أرواح الحكماء واستراحة أشباح العلماء قالت المحبة: أنا الذي رزق، فجلاء الذوق والعرفان كاستراحة من طلب الراحة والراحة هي الميل إلى الاستراحة وأنا برضاء المحبوب قضاء حكم المطلوب ليسَ لي في طلب الراحة اختيار ولا في النيل إلى الاستراحة اختيار قال العقل: التي عرضت بمصالح أمور ولا أذية في المطالب إلا الفرح والسرور وأعرض عن الملامة في الإعصار وأضرب عن الملامة والفدا إلى الأمصار والدهور قالت المحبة: إني مشفوق في مطالعة جمال المحبوب ومعانيه كمال جسد المرغوب بحيث لا يقع نظري على غيره فضلًا عن الفرح والترح والمطرح والمرح.

وقال العقل: أنا مرب الأعيان وتقرب الأكمال في الأحيان والأزمان ومن تقرب إلي نجا، ومن تقرب عني فقد هلك وفنى، وقالت المحبة: يا عقل كمطر دام تارة فرقه ويندم قربه، وتارة تنوح من خوف الحريق وأخرى تبوح منه تصور لذة الرحيق، فلما جرت الحالات وسرت على هذا الوجه بينهما المقالات تحاكما إلى الله وهوَ أحكم الحاكمين، فقال الله تعالى: في حكمه للعقل أما أنت فإني خلقتك من نوري جوهرًا لطيفًا نورانيًّا مميزًا بكَ أثيبُ بك وأعاقب، وأما المحبة فهي سر ذاتي وليسَ شيء أحب إليّ منها هي عين ذاتي ولا شيء عندي أحب إليّ من ذاتي فخاطب الله العقلَ إني خلقت الجنة ونعيمَها والنارَ وجحيمَها فاختر منهما فقال العقلُ: اللهم ارزقنا الجنة والراحة، ونجنا من نارك وبوارك، وجنبنا من ظلمة ناركَ والهلاك، وقالت المحبة: اللهم ارزقنا لقاءك ووفقنا لرضائك ورضنا بحكمك وقضائِك فأذرفت للقائك ووفقت لرضائِك فلا أبالي بما تصنع لي ولا ألتفت إلى ما سواك، فقال الله تبارك وتعالى للعقل: إنك اخترت

حظ نفسك وتركتني فإن أقمت بأوامري أعطيت لك مسالك المحبة، فقد كنت حظ نفسها، بل أفنت ذاتها ونفسها في ذاتي ونفسي، فكيف تختار شيئًا غيري علي، فإذًا هو ومراده مرادي ومرادي مراده، فلا فرق بيني وبينه إلا أني قدمت الألوهية على عبوديتي وأدب العبودية إلى الاتحاد في الأحدية الذاتية.

﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا الحكم عليه سلطنة العقل على يوسف الطود الكمال الجمعي ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ إذ الشيطان وإبليس إنما يجامع الطورَ العقلي دون المحبة فإن المحبة هي الوجد كما هي الذي هو أحد وجهي كان العقل والوجه الآخر، ومن الوجه الكوني الإمكاني، وهو الوجه الشيطاني لو أدني إليها أنملة لاحترقت، بل لو يحمد وعنى قربها لاحترق وفراشة هويه افترق ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ﴾ أي مقام القيد وعقد العقل ومنام الكيد ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: 42] وإنما أتهم سنين لأنه ادعى التميز فأراد الله أن يرد عليه دعواه وأظهر كذبه وأشعر بأن من ادّعى أمرًا لنفسه فهو في دعواه كاذب، لأنه لما كان في ذاته غير موجود وكان وجوده في غيره كان توابع الوجود أيضًا من غيره فلا يصح له ادعاء شيء لنفسه فلو ادعى كان كاذبًا وفي دعواه كذابًا وفي نقده قلابًا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ﴾ [يُوسُف: 43] إلى قوله: ﴿بِعَـٰلِمِينَ﴾ [يُوسُف: 44] هذا أيضًا ابتلاء آخر للعقل وقوته العاقلة وهو أنه لما ادعى العلم كما ادعى اليمين رد الله عليه فيهما وأظهر فيهما جهله، وأما المحبة لما كانت خالية عن هذه الرغبات خالية عادية عن الدعوات فإذن ضاءت خالية بتمام الكمالات، متحلية بعموم الحالات، واستولت على العقل واحتماله، وعلى جنوده وأشياعه من القوى النفسانية والمبادئ الروحانية والحواس الجسمانية الظاهرة والباطنة، فلو لم يكن المحبة والحب الذاتي الساري في تمام العقول وأرواح النفوس ومراتب أشباح وتأييدها ما مالت قوة دراكة لا من العقول والأرواح ولا من النفوس وذوات المثل النورية والأشباح مدرك ومعلوم إلا بذريعة المحبة وبذرة المودة:

فلولا شذاها ما اهتدينا لحالها   وَلَولا سناها ما تصوَّرها الوهم

فالإشراقات الإلهية والبروقات الربانية بما لها من العلائق المعنوية والمناسبات الصورية إنما تتشعشع من شمس المحبة الذاتية أولًا على مدارك

العقول ثم على مسالك أرواح النفوس، ثم على مناسك الصور الخيالية والأشباح البرزخية والمثل النورية، وبينها وبين الصور الحسنة والهيئات الشهادية علاقات نفسية ومناسبات حسية، قد وكل الله تعالى على إدراكها وعلى إدراك ما بينها من العلاقة والتلازم والملازمة القريبة والبعيدة القوة المتخيلة، فتركب بين المعاني والصور وترتب بين الهيئات والمباني من الملزومات واللوازم الأول والثواب، فينتقل من أحدهما إلى أن هذا، كما صورت السنين الواسعة السنية بالبقرات السمان والضيّقة بالبقرات العجاف، والزروع بالسنبل الخضر، وعدمها السنبل اليابس، فإذا كان أكبر التصوير باللوازم البعيدة القريبة الكبيرة الوسائط يكون الانتقال في غاية الصعوبة فتسمى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يُوسُف: 44] وإن كانَ التصوير بأمور يباشرها في عموم أوقاتها كالصنائع إذا رأوا ما صنعوا وابل السلاح إذا رأوا الأسلحة والفرس والحرب ويسمى بحديث النفس، فالتعبير في هذه الصورة مشكل، وربما يرى ما يقع تعينه كما أن شخصًا معينًا جاء وأعطاه سيفًا أو قوسًا أو عمامة قد وقع بعينه، ولهذا المقال القسم معانيه وربما يرى صور أفعاله الصادرة كمن يرى الغيب والخمر فالمغير قد تغير الغيب بالصلاة إن كان أبيض بصلاة الظهر، والعصر والأحمر بالمغرب، والأسود بالعشاء وعلى هذا القياس.

وأما الدليل والقصد فحلاوة نجدها في الصلاة، والخل ومرارته وحموضته فتعب ومشقة، وحدّها في أدائها، وأما الخمر فحرارة وذوق وسكر وشوق تعرض، ويوجد في المصلى عند التوجه إلى الصلاة أو في الصلاة.

واعلم أن الأعمال والأحوال والأقوال والأسماء كلها تقبل ذلك التعبير والتأويل فلا يختفي التعبير والتأويل بالرؤيا، يعرض الكل على طريق التفاؤل والتسطر، كما فعل أمير المؤمنين حسين بن علي عليه السلام حين حلّ في أرض كربلا وسأل عنها فقيل: هي كربلا فنظر فقال: كرب وبلاء، وربما يعبر عن أصوات الحيوانات أو عن صورة حسنة أو قبيحة أو غير ذلك من أوضاع النجوم والكواكب وكيفياتها وهيئاتها وأحوال العناصر والمواليد والضمائر والخواطر والواردات وغير ذلك، فموارد التأويل ومشارد التعبير كثيرة غير متناهية، فإن صورَ أعيان الملك وأحوالها تعبير لأعيان عالم البرزخ وأحوالها بل الأجر بما فيها من الجنات ونعيمها والنار وجحيمها تعبير وتأويل للدنيا ولما فيها وبالعكس

وكذا الأدوار وما فيها والأكوار وما لها كلها متطابقة متماثلة، أحدها تعبير وتأويل للأخرى، وكذا المراتب وما فيها، فإن الدورة الثالثة اللاحقة بما فيها من الأعيان أمثالها أظلال وأمثال لما هو السابق ولما فيها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يُوسُف: 45] إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 50] قد سبقت إشارة إلى معاني التعبير وأقسام الرؤيا وإلى ما يعبر وما لا يعبر فإن كانت اللوازم بعيدة غريبة كثيرة أو قريبة جدًّا كما في أحوال، فلا يعبر لهذين القسمين لما تفرد في علم المناظرة إن المرئي إن كان في غاية القرب أو البعد لا يحصل العلم للناظر العابر في هذه الحالة، أما الأول فلانتفاء الزاوية في الرطوبة الخلية والطبيعة الغيبية لتراكم الأشعة البصرية المخروطة وتطابقها وانطباقها على سهم المخروط، والتقوى مخافة أن لا يتلاشى فلا يرى المرئي، وأما الثاني فلانتفاء الزاوية لدى اتساعها وكمال انفراجها، وإنما ظهر الخصب والسعة في السنة الثامنة لأنها عدد مبارك ومدد مدارك لكونها أو لجزر المكعب، وأما السبع فليس له جزر ولا هو جزر عدد، ولهذا صارت أبواب الجنات التي هي الخيرات والحسنات وأصل كل السماوات والحسنات ثمانية والجحيم سمة وهي الضد.

﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ﴾ عن الخطأ والإثم لأنها مأوى كل شرّ ومعدن كل قبيح وضرّ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ تعديل المنفي يعني أن حقيقتها وجليتها تقتضي السوء لأنها لما نعرفها في تدبير البدن ولمجاورتها الطبيعة الحيوانية والنباتية المدلهمة تظلمت وتكدرت بظلمها وكدورتها غالبت بها ونسبت عالمها النوراني الذاتي الذي هو منبع الخير والصلاح ومجمع النجاح والفلاح، فلا ترى إلا الظلمة، ولا يرى من ذلك العالم إلا الحكمة، فلا يرضى إلا إنما هو خارج عن أصل الحكمة التي هي من أجل خصائص القوة الإلهية، وما أبرئ نفسي، أزكي نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحمَ ربي. يريد القبيح فما لا يحب الله ربي يريد من عصمه ربي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يُوسُف: 53] يريد غفورًا لأوليائه رحيمًا بهم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ يريد أملِّكه على ما خلفت من مالي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ يريد الملك ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يُوسُف: 54] يريد مكين في ملكي وأتمسك فيه وجعلت سلطانك فيه كسلطاني.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ وكان الملك يزرع أرض مصرَ والقبط تحت يديه عبيد له ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 55] يريد لا يضيع لك عندي شيء عليم يريد عالم فعلك ويصلح ملكك قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يريد أرض مصرَ يتبوأ حيث يشاء ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ يريد بفضله على من يشاء برحمتي وأرفع درجاته وأملكه ثم أصيره في رحمتي وإلى جنتي ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 56] يريد ثواب الموحدين.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يريد أفضل وأعظم ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد صدقوا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يُوسف: 57] يريد التقوى فلم يشركوا بي شيئًا.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ يكلمهم أنا بنيامين وهو ابن أمه ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ يريدون تعرفهم لمنشئه ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يُوسُف: 58] يريد فلم ينسبوه وعليه تاج الملك وحجاب فأدنىٰ مكانتهم منه وأنزلهم وسألهم: من أنتم قالوا: نحن بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم [قال:] يقال له: الشيخ الصالح قالوا: نعم قال: كيف تركتموه؟ قالوا شديد الوجد على ابن له فُقِدَ قال: كم كان له من الولد؟ قالوا:

اثنا عشر ولدًا قال لهم: هذه قصة والدي سواء قال: فأخبروني من أمهاتكم؟ قالوا متفرقات هكذا نحن وأخ لنا من أم قال: فأخوكم الآخر أين هو؟ قالوا: أحبه أبوه لوجده على أخيه المفقود قال: فأنا والله فقدت أخي فلا يهمني طعام ولا شراب ولا نوم إذا ذكرته ولوددت إنه كان عندي حتى أشكو إليه بعض حزني على أخي واسأله عن وجده على أخيه ولكن قد زادهم صنعي بكم وقد تجدد وآنست أنا فيه من الملك حيث أخبرتموني بوجدانيتكم على أبيه الذي فقد وأحبسه أخاكم لما تقدمه أخيه بالسن به فسبحان الله ما اسمه قضى بقصتكم باك لأبي اثنا عشر ولدًا من أربع نسوة فكنت أنا وأخي أصغرهم وكان علينا رقيبًا أصغر فابتلينا إذ فارقت أبي وبقي أخي عنده فلما حدثتموني بقصتكم ذكرت قصتي واشتد حزني فأنا أريد أن يشفعوني فترجعوا إلى أبيكم فتأتوني أخيكم أشكوا إليه بثي وحزني.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يُوسُف: 59] يريد نزول عليه حيث أكرمهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ يريد فلا ميرة لكم عندي ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يُوسُف: 60] يريد ولا تأتوني.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يُوسُف: 53] أقول: أي البعض الذي رحم الله في الدنيا بالعصمة كالأنبياء قال في الكشاف: الملائكة وهو غير صريح لأنهم ليسَ لهم نفس بالمعنى الذي صحح الاستثناء إلا أن يراد بالنفس معنى آخر فالاستثناء على ما في الكشاف منقطع وعلى الأول أيضًا منقطع بناء على الأنبياء نوع من الإنسان على ما ذهب إليه بعض من القدماء أن حقيقة الإنسان جنسٌ يندرج تحتها أبواب مختلفة بالفصول الجوهرية يدل عليه ما وردَ في الحديث: «**إن الله خلق الأنبياء والفقراء من طين الجنة وَخلق الأغنياء من طين الدنيا**»، ويجوز أن يكونَ ما مصدرية والاستثناء على هذا التقدير أيضًا منقطع

يعني لكن رحمة ربي هي التي تصرف الأسماء والاسم يتقدر إلا رحمة من والفعل معناه ليعلم يوسف أني لم أخنه لأن المعصية خيانة وقيل: محرمة، كلام امرأة العزيز أي ذلك الذي قلت: ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وكل ما قلت في حقه فهو بهتان عظيم.

فلما تبين للملك عذر يوسف ووقع في خير الفصول وعرف أمانته وارتفع خيانته وعلمه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ إنما أجعله خالصًا لنفسي وخاصًّا بها ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ فيه إنما هو اختصار أي فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملك الآن فقام ودعا لأهل الحبس فقال: اللهم اعطف عليهم قلوب الأحياء ولا يعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد.

فلما خرج كتب على باب السجن: هذا مبوأ الأحياء وبيت الآخرة وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء. ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبسَ لباسًا حسنًا وقصدَ الملك فلما وقف على باب الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ منه ومن شره وشر غيره فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل ثم دعا له بالعربية فقال: ما هذا اللسان: قال: لسان آبائي ولم يعرف الملك هذين اللسانين وقد كان يعرف ويتكلم لسبعين لسانًا. فكلما تكلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد لسان العبرانية والعربية فأعجب الملك ما رأى منه مع حداثة السن وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة فأجلسه وعظمه وكان ذلك مخالفًا لدأبه وسننه ﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف: تسلية لقلبه ولطيبة نفسه وغيبه ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذي مكانة ومنزلة أو مكنة وجاه ﴿أَمِينٌ﴾ ذي أمن وأمانة ومؤتمن على كل شيء ثم قال: أيها الصديق أي أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك.

فحكاها وبعث له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه أمره وقيلَ توفي الملك في تلك الليالي فأصاب مصيبةً [ثم] تزوج من عزائيل فوجدها عذراء حسناء كما كانت وتولد منها ابنان ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى﴾ مستخلفًا ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض ملكها ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ على ما أستخلفه ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف أمين. وإنما وصف نفسه بالأمانة والعلم والكفاية لأنهما عزائم ومطالب الملوك وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء الأحكام الإلهية وإقامة الحق

وبتقيده وبسطه لذات أمكنة فما لأجله يعيب الأنبياء إلى العباد ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم من قومه في ذلك، فطلب القولية ابتغاء لوجه الله وحسن مرضاته وإصلاحًا لأحوال عباده وإفصاحًا لهم على ما هو أتم المطالب الإلٰهية، داعم المآرب الكونية.

وقد ثبت في الشرع إن طلب الحكومة ممن هو أهل لها والأهلية منحصرة فيتوجب، إلا أن يوسف عليه السلام استعجل في الطلب استعجالًا طبيعيًّا قال عليه السلام: «**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله في ساعته لكنه أخّر سنة فأقام في بيته سنة مع الملك**» قال: ابن عباس رضي الله عنه لما انصرمت السنة سأل من يوم كراماته ثم دعاه الملك فتوجه ورد له لبيعته ووضع له سريرًا من ذهب مكللًا بالدرّ والياقوت فضرب عليه منه استبرق بطول السرير ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فرشًا وستون ضربة ثم أمره أن يخرج فخرج متوجهًا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى له الناظر وجهه في وجهه فانطلق حتى جلس على السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض إليه أمره وعزل في قطيعتي عما كال عليه وجعل يوسف مكانه وكان للملك خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله إليه وجعلها كلها إليه.

ثم إنه [هلك][1] في تلك الليالي فتزوج الملك يوسف داعيل امرأة قطفير فلما دخل عليها قال: أليسَ هذا خير مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء، ناعمة كما ترى فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفرايم [و. . .][*].

وأقام المولى بمصرَ وأحبه الناس ذكورًا وإناثًا وأسلم على يده كثير من الناس، قد باع من أهل مصر في سنة القحط بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالصناع والعقار ثم برقاقهم وأولادهم ثم بأنفسهم حتى استرقهم بالكل، فقالوا: والله ما رأينا كاليوم مِلِكًا أجل وأعظم منه، وقال للملك: كيف رأيتَ [ما] صنعَ لي فيما حولي فما ترى؟ قال: الرأي رأيك قال: فإني أشهد الله تعالى وأشهدك إني عتقت أهل مصر عن آخرهم

(1) هكذا ثبتت في الأصل.

(*) بياض في الأصل.

ورددت عليهم، وكان لا يتبع أحدًا من الممتارين والحرين أكثر من جمل بعد قسط من الناس، وأصاب أرض كنعان وبلادَ الشام نحو ما أصاب مصرَ، فأرسل يعقوب بأولادهم ليمتاروا فحبس بنيامين منهم كما يأتي في الحكاية بتمامها، ﴿وَكَذَٰلِكَ [مَكَّنَّا] لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصرَ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ يتصرف فيها ﴿حَيْثُ [يَشَآءُ]﴾ ويضع فيها ما يشاء يصيب رحمة منا وبنعمتنا وإنعامنا وعطائنا في الدنيا من الملك والنعم والغنى وغيرها من يشاء ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 56] في الله ما يعني الصابرينَ على شدائدها في سبيل الله وكان يوسف عليه السلام يتبوأ الملك إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلَم كثير من الناس.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يُوسُف: 57] وكان من عظمة إحسان يوسف أنه في تلك الأيام لم يشبع وبيده خزائن الأرض قيلَ له: أنت عزيز مصرَ وفي يدك وتحت تصرفك خزائن الأرض وأنت ترتاض وتجاهد قال: مخافة أني لو تنعمت بنعيم الدنيا لنسيت الفقراء الجائعين فأخذني الله بالابتلاء الشديد ومصادفة البلاء العتيد، ومن هذا أمرَ طباخي الملك أن يجعلوا غذاءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعمَ الجوع لئلا ينسى الجائعين.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف بسيماهم وأشكالهم وأسمائهم ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يُوسُف: 58] لبعد العهد بينهم وبينه لأنه كانَ بين إلقائهم يوسف في البئر وبين هذا اليوم أربعونَ سنة، أو لأنه كانَ على سرير وعلى دار تاج الملك وكان منزل يعقوب بأولاده بالعرفات من أرض فلسطين بعدن الشام كانوا أهل بادية وإبل وشاة وغنم، ودعاهم يعقوب وقال لهم: إن بمصر مَلِكًا صالحًا يبيع الطعام فتجهزوا وميلوا وتوجهوا إليه ليشتروا منه الطعامَ.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي هيأ يعقوب لأولاده أهبة السفر لشري الطعام ودخلوا مصرَ فأخبر يوسف بقدوم عير كنعان وكان يوسف أمر باستخبار عير كنعان فلما أمرهم بقدومهم أمرهم بإحضارهم فقال لهم: من أنتم وما أمركم؟ قالوا: نحن من أرض الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار الطعام، فقال يوسف: لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي وأنتم جساسون سراقون قطاعون [زراقوك][1]؟

---

(1) كذا بالأصل.

قالوا: واللَّهِ ما نحن بجواسيس ولا فتاشين بخبر ونحن إخوة بني أبٍ صالحٍ وهو شيخ صدوق يقال له يعقوب نبي من أنبياء اللَّهِ قالَ: وكم أنتم؟ قال: اثناً عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا قال: كم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة قال: فأين الباقونَ؟ قالوا: عندَ أبينا لأنه أخ الذي هلك فأبونا يتسلى به قال: فمن يعلم أن الذي تقولونَ أنه حق؟ قالوا: نحن غرباء لا يعرفنا أحد ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ يعني بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ﴾ أبيع الطعامَ و﴿أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ وأتمه ولا نبخس شيئًا وأزيدكم حمل البعير لأجل أخيكم وأنزل منزلكم وأحسن إليكم ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يُوسُف: 59] وأفضل المضيفين.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ وليسَ لكم طعام مني ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يُوسُف: 60] أي لا تقربوا داري ولا بلادي.

إشارة وتأويل

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: 51] إشارة إلى أن أصلَ النفس العاملة بل جميع الأجزاء والقوى والأعضاء هو الإسلام والإيمان وطلب الحق لأن لكل ممكن وشيء ممكن وغير ممكن وجهًا إلى الحق ووجها إلى الخلق، ولا شكّ أن وجهَ الحق هو الغالب والله غالبٌ على أمره ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي يدعو إلى الوجه الذي يلي الخلق ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ في الفطرة كأولي النشأة العليا في الدورة العظمى فإن الأعيان كلها في هذه الدورة مفطورة على الإسلام لأن الوجه الخلقي في هذه الدورة قد اختفت في الوجه الحقي من غير أن يتميز الوجه الحقي عن الوجه الخلقي، فلما تنزلت الأعيان إلى المراتب الباقية بمنزلها الوجه الحقي من الوجه الخلقي وانعكس الاختفاء، بمعنى اختفت الصورة الجمعية في الصورة الجمعية بمصر الصورة الغيبية إلى الخفية، وأولَجَهُ في أنظار العارفين جهرًا وعيانًا والصورة الخلقية الغيبية معقولة، وإن وفّى نظر الواقفين المحجوبين انعكس الأمر، واساني نظر المحققين ضاربًا شهوده حالًا يكون أحدهما حجابًا للآخر.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ ساتر في المراتب الأولى جميع الأعيان بالألوهية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [يُوسُف: 53] في المرتبة في المراتب الباقية غلبت الصفة الإمكانية والكونية على

الوجه الإلهي في السير إلى الله من الله الاختياري والمادي والاضطراري، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي الطور والكمال الجمعي الروحاني والعقلي ﴿ٱئْتُونِى﴾ أي الطور الكمال الجمعي في مرتبة الطور الجمعي القلبي في السير في الله إشارة إلى تطورات السير الجمعي وتنوعات الكمال الجمعي في السير في اللَّهِ.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 55] تصريح بأنه قد حصلَ له في استعمال الأحوال الروحانية والتجليات الأفعالية والتطورات الإبداعية إفرادية وجمعية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يُوسُف: 56] الاستعدادية والعرض استداعية، وجعلناه متمكنًا في أرض مرتبة الطور السري وعرض المرتبة الصدري، فالأول موطن التجلي الآثاري الذي ورثه آباؤه الكرام وهم يعقوب الطور السري والروحي الإسحاقي والجمعي الخليلي، والممكِّن هو الله وإليه إشارة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75] إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ الكمال عنايتي الذاتية وعموم هدايتي الوصفية ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 56] الصابرينَ في نشأة الأدوار السالفة وظهورات الأكوار الخالفة.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي الحالة الجمعية والجمعية الكمالية الجمالية والجلالية ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ﴾ [يُوسُف: 57] يتقون ويحفظون عن التقيد بالرتبة الكلية والجزئية العالية والسالفة ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي القوى والمبادئ والأجزاء البسيطة والمركبة ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يُوسُف: 58] ليتقيد عن الحالات الجمعية والمقامات العالية والعلية والجمعية وجمعية الجمعية ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وتوجهوا إلى مصرَ الجمعية النورية والظلمة الصمودية ﴿قَالَ﴾ يوسف الطور القبلي والجمال الجمعي والشهادي والغيبي ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم﴾ [يُوسُف: 59] أي القوة العملية التي اختفت عن الرعونات النفسية والعقودات الحسية والقوة القدسيّة عن المدارك الوهمية.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يُوسُف: 61] يريد العقل بعينه.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾ يريد الدنانير والدراهم جاؤوا بها ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ يريد في أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يُوسُف: 62] يريد إذا رجعوا إلى أبيهم ولم يكن كماله لهم من ثمن بضاعتهم يشاء، أو إنما كان كلما كان معهم هدية وصلة.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يُوسُف: 63] قالوا نزلنا على الملك فإذا هو يذكر أبًا له فارقه وأخًا له من أمه فَسألنا من أنتم؟ فأخبرناه إنا ولد يعقوب من إسحاق بن إبراهيم فقال: الشيخ الصالح؟ قلنا: نعم قال: كيف تركتم أباكم؟ قلنا: تركناه شديدَ الوجد على ابن له فقده فهو حزين باك الليل والنهار، قال: فكم كنتم من أخ؟ قلنا: اثنا عشر، قال: الآخر قلنا: حبسه أبوه لشدة وجده على أخيه فقال: سبحانَ الله ما أشبه بعضكم ببعض لوددت أن أخاكم كانَ عندي حتى أشكو إليه حزني ويشكو إلى بعض ما يجده على أخيه الذي فُقِد فقد تجدد حزني وضاق بي. وكان يوسف عندما كان يسألهم ويحدثوا به يعترض له البكاء فيستر ذلك عنهم ويدخل كأنه يريد حاجة، فيبكي فيطيل البكاء، فإذا فرغ جزع إليهم ليستأنف الحديث فيتحرونه، فيدخل مرة أخرى فيبكي حتى كان من قولهم ليوسف: إن أبانا بلغ من حزنه أنه إذا أقبل عليه غلام غلبه حزنه فطيبه، وقال: تعال حتى أشكو لك ما صنع بي ولدي، فيبكي ويبكي الغلام معه، وفعل بجارية نحوه الماء قد أسبحتها فيدعوها فيقول لها هناك واقعدي حتى أشكو إليك ما صنع بي ولدي، فيبكي وتبكي حتى قد تملأ عينه بياض وذهب بصره من البكاء، وقد وعدناه بأن نأتيه ببنيامين وقد قال لنا إن لم تأتوني به فلا كيلَ لكم عندي ولا تقربوني ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ يريد الميرة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ يريد بمعيار ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [يُوسُف: 63] من كل ما يخافه.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ يريد قد فعلتم هذا في يوسف فكيف آمنكم على بنيامين ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: 64] يريد اسأل الله أن يحفظني فيه وفي يوسف وفيكم، وذلك من يسأل يريد أن يريه ملكوت السماوات فقال له يعقوب: أيها الملك الحسن الوجه الطيب الكريم على دينه هل قبضت روح يوسف في الأرواح؟ قال: لا فاطمأن قلب يعقوب ورجاه.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ يريد بضاعتهم التي خلفوها عنده ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يريد ليس هذا من قبلنا بل هذا من قبل الملك ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ ونحفظ أهلنا يريد الميرة بعينها يعني ونحفظ أخانا ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ قال يعقوب يقيمون أيضًا بضاعتي حتى يزيدكم الملك كيل بعير قالوا: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يُوسُف: 65] يريدون هو كيل واحد ومن الدنيا ويريدون الملك، ولو رأيت ما به بنيامين الكرامة لم يحزن على بنيامين ولم يبك ما كان عنك عذّبنا وكان عنده، وأحب بنيامين الخروج معهم وفرح لذلك وكان عونًا لهم على أبيهم.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ يريد إلا أن يأتيكم من الله أمر غالب لا طاقة لكم به ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ يريد العهد ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يُوسُف: 66] يريد شهيدًا.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

﴿وَقَالَ﴾ يعقوب ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ وكان بالغرماء أبواب عليها للملك مراصد للوليد بن مروان عما لا يدخل عليها يمسكون الناس وليس فيهم مذكر إلا يوسف وللملك المال والناس معهم في صلاح ووفاء وخير ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ يريد إنما قال هذا مخافة العين عليهم ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ يريد القضاء والأمر لله ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يُوسُف: 67].

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ يريد ما كان ذلك يرد قضاء إلا الله ولا أمر إلا قدره الله ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ﴾ يريد لذو يقين ومعرفة باللّهِ ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ يريد جعلت ذلك فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 68] يريد المشركين لا يعلمون عظم الله وما مآلهم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ﴾ تكونوا أنتم في منزل إجلالاً لهم ودعوا أخاكم عندي حتى يخبرني بوجده على أخيه، ويشكو إلي ما يجده من خوفه، وأخبره أنا بما أجده لعل الله يفرج بعض حزني، فخلى يوسف بنيامين قال له يوسف ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أنا يوسف بن راحيل ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يُوسُف: 69] يريد فلا تغتم ولا تحزن قد جمع الله بيني وبينكم وأرجو أن يجمع

بيننا وبين يعقوب، وأقبلَ عليه إذ سأله فقال له: أَولد لَكَ؟ قال بنيامين: نعم قال: كم؟ قال: ثلاثة، قال يوسف: وما سميتهم؟ قال: سميت واحدًا يوسف أحببت إذا ذكرته ذكرت أخي، قال: وما سميت أخوه؟ قال: دمًا، والآخر ذيبا قال يوسف: لم؟ قال بنيامين لأن أخوتي أتوا بقميص يوسف وعليه [دم] ذكرت دمه فقالوا: أكله الذئب فكنت إذا ذكرت دمًا ذكرت أخي، وإذا ذكرت الذئب ذكرت أخي، فذكروا والله أعلم أن يوسف عد اسمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهو الصواع فكان الصواع قدحًا من الزبرجد يشرب فيه الماء ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: 70] وكان موضعًا بين يوسف وكان إذا دخل أخوه من تحتهم وجزاهم وقال: جئتمونا بأخيكم لكي يفرج عني بعض ما كنت أجده وكأني قد رأيت أخي، ثم يضرب يدعي الصواع بمخصرة في يده فيظن فيقول سبحان الله العظيم ما يخبرني هذا الصواع إنه ليخبرني بكذا.

تأويل وإشارة

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ [يُوسُف: 61] إشعار بأن القوة العلمية لا يدخل إلا في حكم سلطان العقل الصريح لأن شأنها هو توكيد المقدمات العقلية وترتيب المقالات التي لا يدركها إلا العقل يضم بعضها إلى بعض، ثم بعد ذلك تنتقل النفس الناطقة والقوة العاقلة من تلك المقدمات المعقولة المرتبة إلى المطالب لأنك خبير بأن العقل الصريح عدد حضوري بسيط فالتركيب بين المعقولات الأصلية والمفهومان الكلية وترتيبها لا بد وأن يسند إلى قوة أخرى وهي العاملة، وأنه انتقال من المبادئ وهي المقدمات المرتبة والمعقولات المركبة، أمر آخر وراء إدراك تلك المقدمات على انفرادها وراء تلك المقدمات المركبة والمفهومات المترتبة، بل التركيب مقدمة إلى مقدمة أخرى غير الترتيب الذي هو فصيح كل شيء في موضعه بقدر غاية المناسبة، وملاحظتها بينهما مثلًا إن إدراك الجنس والفصل الانفراد أمر وإدراك النسبة بينهما أمر آخر.

فإذن لا بد وأن يسند كل هذه الأمور المذكورة إلى ما يقتضيه فيثبت فيه أمور ثلاثة: العقل والقوة العاقلة والقوة العاملة ويقوم من هذه الأمور أمور أخر من المدركات والحركات الظاهرة والباطنة إرادة والطبيعية البسيطة، كالحركات من المركز وإلى المركز وعلى المركز، والمركبة النباتية والحيوانية، وقد علمت أن كلًّا من هذه المبادئ والقوى والمدارك والمشاعر الشاعرة العشرة والقوة النظرية، ثم ضم كل منها إلى الآخر ووضعه في وصف آخر، إلى الانتقال إلى المرتبة إلى ما صدق عليه المركب أمر آخر من الأعمال. والعملية القبلية العقلية والنفسية والبدنية والنفس والعقل أي عين من أعيان المفردة، وأما الصورة الجمعية فهي اللطيفة القلبية أو الروحية أو العقلية اليوسفية والأعيان المفردة كلها مطاوعة ومطيعة للحقيقة الجمعية اليوسفية ومطاوعة لحكمها ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يُوسُف: 4].

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ﴾ أي القوة النظرية والعملية ﴿بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أي العلوم المتعلقة ظاهرة للأشياء وأحكامها الظاهرة والباطنة وكيفية استعمالها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي الألفاظ والعبادة المنورة بينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ [يُوسُف: 62] أي القوة العاقلة وألم النفس العاملة.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي طعام العلوم الروحانية والإدراكات النفسانية والمعارف الربانية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ وهو بنيامين القوة العملية العقلية ﴿نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يُوسُف: 63] عن إغراء القوة الشيطانية الوهمية وإبليس الخيال والقوة المتخيلة.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ [يُوسُف: 64] ليس سببكم إليه إلا كسببكم إلى أخيه يوسف اللطيفة الجمعية، يعني أثبت النسبة بينكم وبينه كما أثبت بينكم وبين أخيه لتوغلكم في القوى والتقليد في العز وأذنه الإفرادية.
لا يقال: الأخوة تقتضي العندية وانتفاء التفاوت قلت: إنما يلزم ذاك أن لو كانت نسبة لأب إليهم على السواء وهو ظاهر الاستحالة، وما لم يظهر التعدد بين الأخوة.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾ يعني لما ارتفعوا من درجة الأدنى النفسانية إلى المدارج الأعلى الروحانية ما نالهم من بضاعة العلوم الرسمية المدونة والأفعالية

والإخوانية وفتحوا ﴿مَتَٰعَهُمۡ﴾ المحفوظ في رحال الأقوال والألفاظ والإرشادات والرقوم والعبادات ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ [يُوسُف: 65] أي ثمرات أعمالهم وعلومهم التي جعلوها ثمن المعارف الروحانية وهي الآداب الصوفية أعني الشريعة والطريقة التي هي مطية الحقيقة الإلهية، وإذ كان بناء الإسلام «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**» الحديث.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ مصر المكان الجمعي والجمع الكافي ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يُوسُف: 67] إشارة إلى تطور الجمعية وتنوع الهيئة الكلية. قال يوسف الطور القلبي: ودور التنوع الغيبي أطوار كثيرة وأدوار كبيرة والدخول من باب واحدٍ يوجب التعطيل والإضلال والتفصيل إذ التجليات الجمعية الإلهية غير المتناهية كما قال المحقق: إن الله لا يتجلى في صورة مرتين ولا في صورة اثنين ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ [يُوسُف: 67] أي لا يمنع من الذات الجامعة للأسماء والصفات عنكم شيئًا من الأشياء إلا من الجواهر المفردة التي لا تتجزأ والمركبة العالية والسافلة لا من المركبة ولا من البسيطة إلا الحقيقة، ولا من الاعتيادية ولا من أعراض الكمية والكيفية والنسبية، ولا الإضافية ولا الثبوتية ولا السلبية، وذلك لأنه واسع محيط بكل الأبواب وبتمام الأسباب لأنه رب الأرباب ومنفتح الأبواب ومسبب الأسباب إن الحاكم في تمام الأدوار وعموم الأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية، وفي كل الأطوار في الأعمال والأنوار إلا الله الجامع للكل وبجميع السبل ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ أي جميع الأعيان والأكوان من الطرق الإلهية والكونية والجمعية الغير المتناهية في مصرَ الكون الجامع والمظهر الرافِع ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الطور القلبي والدور المحيط الشهادي والغيبي ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يُوسُف: 69] أي كمال القوة العملية الفعلية والروحية والقلبية إشارة إلى الاحتياج الدوري والتماثل وابتهاج الكلي الكوري، فإن يريد النور النوراني والآحاد الظلية كما يميل ويحتاج، وحمل إلى الجمعية الأحدية النورية صريحًا وضمنًا أفرادًا وجمعًا أصالة وتبعًا كذلك يميل ويحتاج الجمعية الأحدية النورية الجمالية إلى الأفراد والأعيان النورية الجمالية، وكذا الحال في الأسرار والآحاد الظلية والجمعية «**أنا**

عند ظن عبدي بي وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، فإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه، وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً».

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يُوسُف: 70] إشارة إلى تكرار النشآت من الكثرات إلى الوحدة ووجوه الواحدية الجمعية النورية الوجودية، ومنها إلى الكثرة الشهودية، وكذا الحال في الكثرة الكورية والوحدة العدمية.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ يريد أهل الرفعة أقبلوا على كلمات يوسف ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يُوسُف: 71].

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ يريد جعلًا له ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يُوسُف: 72] أنا به كفيل حتى أدفعه إليه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ يريد إخوة يوسف وهم كانوا سادة أهل الرفعة وخيارهم قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يُوسُف: 73] يريد ليس من شأننا الفساد في الأرض ولا السرقة.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [يُوسُف: 74] وكان جزاء السارق يومئذٍ يسرقّ وهو حكم الوليد بن مروان.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ يريد ليسترق، فقال غلمان يوسف، والله ما كان أحد من الرفعة فأمّر إلا عندنا، ولا نرى ذلك الصواع إلا أنتم [أخبرتمونا به] ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُوسُف: 75] يريد إذا سرق استرق.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ يريد بنيامين ثم فتش وعاءه يريد متاعَ بنيامين ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ يريد من متاع أخيه بنيامين فوجد في رحله قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يريد ألهمنا ليوسف ليوهنك الكيد ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ يريد في حكم الملك ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 76].

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يريدون يوسف وكان يوسف عليه السلام يأخذ الطعام من مائدة أخيه سرًّا منه فتصدق في المجاعة حتى يظن به أخوه ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ يريد أسرَّ ذلك في نفسه منهم ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ليعلموا أنه يوسف ويجدوا في أنفسهم ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يريد أنتم شر فعلًا عرضتم أخاكم في قعر الجب وزعمتم أن الذئب أكله وأنتم كاذبون ثم بعتموه بعشرين درهمًا، والذي صنعتم بأبيكم أشر مما صنعتم بيوسف ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: 77] يريد أن سرقة يوسف كانت لله مضاءً.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ يستعبده ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 78] يريد إذا فعلت ذلك فقد أحسنت إلينا فعملت معنا كل خير مع إكرامك إيانا.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يريد أعوذ بالله ﴿أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ يريد غير الذين وجدنا متاعنا عنده ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف: 79] يريد لقد ثورت وظلمت أن أستعبد غير الذي سرقني.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ يريد يئسوا أن يخلى سبيله معهم قال يهودا أيها الملك لئن لم تخلِّ سبيله معنا لأمتحن محنةً لا يبقى في مملكتك يريد في المدينة التي كانوا إليها لا يبقى حامل إلا أسقطت ما في بطنها من الجنين كان ذلك في ولد يعقوب معروفًا، فكان ليوسف ابنًا له صغير من القبطية فقال له: يا افراهيم ضع يديك بين كتفيه ولا يشعر بك واحذر أن يراك وكانوا مجتمعين فدخل الصبي بين الناس حتى وضع يده بين كتفي يهودا فذهب ذلك الغضب، وإذا كان غضب خرج شعر جسده من قميصه فالتفت يهودا فقال: والله لقد وضع يده في كتفي إنسان من ولد يعقوب فليت شعري كيف هذا ونظر في وجوه فإذا هو لا يرى أحد يظن ذلك به ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ يريد خلصوا من البلاء يناجي بعضهم بعضًا ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ يهودا ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وكان العهد عندهم ثقيلًا شديدًا ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يريد موضعه ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ يريد حتى يبعث إليّ ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يُوسُف: 80] يريد أو يقضي الله في أمري وهو أفضل الحاكمين.

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ﴾ أي قال إخوة يوسف حال كونهم مقبلين ﴿عَلَيۡهِم﴾ أولياء على غلمان يوسف ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ [يُوسُف: 71] أي أيِّ شيء فقد عنكم وضل وغاب عنكم، والفقدان ضد الوجدان.

﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ بفتح الصاد وضمها ما يكتال به

ويعرف ويقدر الحبوب به قدرًا وهو كالميزان في معرفة مقادير الموزونات وإنما وضع المستقبل موضعَ الماضي إشعارًا بأنهم فقدوا في الحقيقة شيئًا بل احتالوا بناءً على الحكمة الإلهية قالوا نفقد أي نجهل المفقود وهو صواع الملك. وقال الموفد والمنادي: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يُوسُف: 72] أي شق من الطعام وهو حمل بعير فمحله وهو مبتدأ والجار والمجرور وخبره مقدم عليه هذا وعد لما جاء به بالجعل ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يُوسُف: 72] ضامن متعهد له.

﴿قَالُواْ﴾ إخوة يوسف ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسم فيه التعجب بما أضيفَ إليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا﴾ وما توجهنا إلى مصرَ ﴿لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ السرقة وقطع الطريق والفرقة والحرقة وغير ذلك ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يُوسُف: 73] في وقت من الأوقات، وإنما أفرده من الفساد لكونه أقبحَ وأخس وأفضحَ لعدم لياقتهم بمناصب النبوة.

﴿قَالُواْ﴾ غلمان الملك ونفره ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي السارق أو السرق ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [يُوسُف: 74] في نفي السرقة وبراءة ذمته منه.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ ومعاقبته ﴿مَن وُجِدَ﴾ الصاع ﴿فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ والجملة الشرطية خبر جزاؤه يعني جزاء السارق هو ظهور السرقة منه وانتسابه إليه أي ظهور هذه الخيانة فيه وانتساب الخلة الخسيسة إليه هو كما هو سنة يعقوب وشريعته إشعار بأن السرقة أقبح الخسائس وأشنع الفضائح في جميع الملل وأرباب النواميس والتسويل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جعل جزاء السرقة ﴿نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُوسُف: 75] فأمر يوسف بتفتيش أوعيتهم بين يديه.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ لدفع التهمة ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فيلزم من هذا إهانتهم واستخفافهم لأن شأنهم أرفع من أن يتوهم ويظن انتساب السرقة إليهم فضلًا عن أن ينتسب إليه بالعقل فيحتاج إلى التفتيش فعند ذلك فتش وعاءهم ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ بعد التفتيش ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ والضمير عائد إلى الصواع يذكّر ويؤنّث ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا﴾ أي مثل ذلك الكيد العظيم ﴿لِيُوسُفَ﴾ يعني علمناه إياه وأوحينا به ﴿مَا كَانَ﴾ وصارَ يوسف ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي ليدخل ويتمكن من حبسه في حكم الملك وتحت سلطته ليجري عليه ما يستحقه ويأخذه ويعاقبه على السرقة على مقتضى دين الملِك وهو بيان الكيد ويفسره أي ليس غرض يوسف هذا التسويل والتورية مؤاخذة أخيه بل إهانته أخوته واستخفافهم ومعاقبتهم بمثل ما عاقبوه وأهانوه وقصدوه في

البداية ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي ما كان يأخذ بمشيئة الله وأخذهم فيه لا تلقاء نفسه ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ من العباد (بالعلم) والحكمة كما رفعنا درجة يوسف على أخوته ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يُوسُف: 76] أي فوق كل عالم عالم على الترتيب إلى أن ينتهي إلى الله فعلم الله فوق علم كل عالم كما أن وجوده وقدرته وإرادته فوق وجود كل الموجودات والإشارات فدليل واضح على أن الله تعالى عالم بذاته لا يعلم ذاته غير الذات، إذ لو كان ذا علم لكانَ فوقه من هو أعلم منه إذ الحكم كلي. والجواب بأن المراد كل ذي علم ممكن من الخلق ضعيف لعموم الحكم وانتفاء ما يخصصه بالممكن من القرائن اللفظية والمقامية الحالية معَ أن العلم لو لم ينتبه إلى ما يكون العلم عين العالم لكان علم الله ممكنًا وهو محال وإلا لزم خلو الذات عن العلم عندئذٍ، فالعلم غير الذات ليقدم العلة على المعلول بالذات أو يقدم الشيء على نفسه.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ احتمل أن يكونَ أخ مضافًا وأن يكونَ اللام للأجل والتخصيص ووعائهم واستخرجوا الصاعَ من رحل بنيامين نكس أخوته رؤوسهم حياءً، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما هذا الذي صنعته فضحتنا واسودت وجوهنا، يا بني راحيل لا يزال لنا منكم بلاء حتى أحدثت هذا الصناعَ، فقال بنو راحيل أنتم الذين لا يزال منكم عليهم بلاء وذهبتم بِأخي فأهلكتموه ووضعتم هذا الصاع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم اختلفوا فيها أضافوا إلى يوسف من السرقة بفعل أنه كان أخذ صنمًا لجده إلى أمه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق أو دخل الكنيسة فأخذ تمثالًا صغيرًا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل لإبراهيم منطقة يوارثها أكابر ولده، فورثه إسحاق ثم وقعت إلى ابنته التي كانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه فلما شبّ أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها، فوجدها محزومة على يوسف فخلاها يعقوب عندهَا حتى ماتت.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ أي كتم المنطقة ولم يظهرها لهم والضمير للإجابة أو المقالة ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ تفسير للجملة أولى ﴿قَالَ﴾ يوسف في نفسه ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ﴾ خطاب إلى الإخوة شر ﴿مَّكَانٗاۖ﴾ [يُوسُف: 77] ومنزلة ورتبة

ومكانةً، رماه يوسف بالسرقة والخيانة، وهي ليست سرقة وخيانة في الحقيقة وما فعلتم بِيوسف غدرًا وخيانة فهو مما لا يقبل التوجيه والتأويل. فمراد أمره على التذكير يريد الكلام. وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بدل من أَسرَّها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: 77] وتقولون في حقي وحق أمي فإنه يعلم أنه لا يصح ولا يليق لي ولا لأمي سرقة وخيانة فليس الأمر كما تقولون وتصفون.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ وهم القوم في هذه الحالة غضبوا غضبًا شديدًا وكانوا إذا غضبوا لم يطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل ولدها وقام شعره في جسده، وكان مع ذلك إذا أخذ أحدًا من أولاد يعقوب وحمله أو وضع يده عليه سكن غضبه وكان مثل ذلك حال شمعون، روي أنه قال لأخوته: كم عدد أسواق مصر فقالوا عشرة فقال اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فيقال روبيل أتردّ أخانا وإلا أصوح صيحة لم يسمعها امرأةً إلا ألقت ولدها، وقامت شعرة في جسد روبيل خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم إلى حيث هو فمسّه أو فخذ يده ففعل فسكن غضبه، فقال روبيل: إنه من بني يعقوب، فقال يوسف: من يعقوب، فغضب ثانيًا فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بردائه فوقع على الأرض وقال: أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشد منكم، ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وتذللوا وقالوا: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يحبّه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ وعوضًا منه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: 78] في الأفعال والأعمال والأحوال والكرم والميرة وتوفية الأكيال وأصنافه ورد البضاعة يعني إن كنت فعلتَ هذا تكون من المحسنين.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ باللّهِ ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا﴾ أي إن أخذنا المعصومَ من الجرم والخيانة والإثم ﴿لَّظَالِمُونَ﴾ [يُوسُف: 79] لكنّا من الظالمين.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ أي آيسوا من يوسف أن يجيبهم مسألتهم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي خلا بعضهم ببعض يتناجون ويشاورون من غير أن يختلطوا بغيرهم، والنجي يصلح للواحد والجماعة لأنه مصدر ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يُوسُف: 80] في

العقل والرأي والرشد وهو يهودا، أو في السن وهو روبيل، أو الرياسة وهو شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾ وتجاوزتم عن الحد ما يحتمل وجوهًا، أما فعلتم قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم أو مصدرية في محل الرفع مبتدأ أو الظرف أي من قبل هذا تفريطكم في يوسف والتعبث عطف من مفعول ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطكم من قبل ﴿فِى يُوسُفَ﴾ وأن يكونَ موصولة ومن قبل هذا ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ أي قدمتم ﴿فِى﴾ حق ﴿يُوسُفَ﴾ من الخيانة العظيمة ومحلها الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي فلن أفارق ولن أزل في أرض مصرَ ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها أو بالانتصاف من أخذ أخي أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يُوسُف: 80] لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق والقسط والصدق.

إشارة وتأويل

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يُوسُف: 71] إشارة إلى تنوع القانون وتطور القاعدة الكلية، فإن للعقل الصريح قانونًا وللعقل المتسبب بالوهم والخيال والعقل المتوسل بالمتخيلة قانون، وللطور القلبي في التجلي بالملكات الفاصلة والأخلاق المرضية وفي تخليته للطود السري عن الرذائل البهيمية وتصفيته عن الغوائل السبعة قانون نظري أو كشفي، وفي معرفة الطاعات والعبادات البدنية والنفسانية والروحانية قانون، مثلًا للصلاة أمثالًا وصورًا عن الأشجار والكروم والأثمار والعنب والأثمار، كلها قد بلغ إلى حد الكمال بقول المرشد للسالك: إن صلواتك في حيز المقبول عندَ اللَّهِ، وإن رأى عمارات عالية منقشة مفروشة بفرش جديدة يقول للسالك إن شرعت وزينت عمارة وجودك وبيت شهودك بحلل الأحكام الإلهية قد وصلت في مقام عين اليقين ورأى بعكس ما قلنا بقول خلاف ما ذكرنا وقس على هذا. وإن حكمتَ بالعقل الصريح في الإلهيات والحكميات حكمًا يقينيًّا بحيث لا يتطرق عليه يبقى الحكم أصلًا يقول للعاقل المستدل بلغت في مقام الاستدلال والنظر إلى مدارج الكمالِ وإن ظهر في آخر الأمر خلل في الحكم حكمت بأنك قد تشبثت في نظرك بالوهم، وعلى هذا

القياس فتفطن التدبر وتفنن ليكون في مدارك الإدراكات النظرية والكشفية ذا بصيرة وكشف وسريرة.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مصر الطور الجمعي لتعطيل الأسباب وسد الأبواب ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يُوسُف: 73] يعني أن كل طور كمال جمعي له قانون نوعي لايق بحاله لا يصح أن يعمل قانون صاحبه إلا أنه كاملًا في نفسه فاضلًا في نعوت كماله شاملًا قنوت نوره وجماله.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ [يُوسُف: 74 - 75] وشوهد في حيطة خياله نافضًا في اقتضائه كالمنطقي الذي يريده أن يعرف أوزان البحور بقوة ميزان المنطق وقانون اكتساب مطالب التصورات والتصديقات عن المبادئ التصورية والتصديقية، نعم إذا وجدت قوة قدسية وقوة قدوسية إلهية قد يتصرف في الكون بالقوة الإلهية، يكون لنسبة الأشياء إليها كنسبتها إلى الذات الجامعة للكل فكل نفس ناقصة ليست لها أن تتصرف فينا ليس لها فيه حق لنسبة مصححة فلو تصرفت من كمالها التصرف اللائق بها وينازعها في الوصول بالحق وفات بهذا ما يعنيها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه**»، ولذا فمع التصرف في المغصوبات والمجربات وقبح أحوال الظالمين.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لأن نسبة صالح قانون القوة الوهمية والخيالية إليهم ثم من غيرها لأن نسبة القوة العملية الفعلية إلى القوة الوهمية الحاكمية على الجزئيات أتم وأقوى وأعم من احتياج سائر القوى إليها لأن الله تعالى خلق الوهم يريد العقل وقوته العملية والنظرية ليوصل أخبار علم الأعراض النفسانية والأغراض الروحانية والأعراض الجسمانية وأحوالها إلى اللطيفة القلبية والحقيقة الغيبية، ولذا وضعت في رحال القوة العملية ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي ليس مثل كد الكيد وأعلام الحق ذلك الكيد وإظهاره وتعليمه والشهادة ليأخذ أخاه ويعاقبه في دين الملك، وهو التصرف في المعاني الكلية والحالات الأصلية وأطوار السبعة القلبية والأنوار الغيبية ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ فيما عينه الله تعالى ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 76] إلى أن ينتهي إلى كون العلم عين ذاته وسائر صفاته بأن يكون ذاته

كافية في كل ما له من الكمالات الذاتية والأسمائية والأفعالية.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين الطود الصوري والقوة العملية القلبية التي ولدت باللطيفة القلبية من اجتماع أب العقل وجماعة بأم النفس العاملة فإن لكل من القوة العاقلة والنفس والقلب قوة عملية مناسبة له، فإن القوة العملية هي التي تركبت بين المعاني المجردة الفائضة على العقل المتفردة عن الترك والعقل والتصريح في الجسم والقوة العملية النفسانية هي بتصرف في الأفعال الطبيعية النباتية والحيوانية في الكميات بازدياد المقادير في الأقطار الثلاثة بالتناسب الطبيعي وفي الكيفيات النفسانية كالانفعالات والاستعدادات النفسانية والجسمانية من المحسوسات الظاهرة والباطنة، أما القوة العملية القلبية فهي التي تتصرف في الأخلاق وتركيبها إزالة الرذائل ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يُوسُف: 77] إشارة إلى أن الممكن من حيث إنه ممكن لا وجودَ له ولا عدمَ ولا ما يترتب عليهما من الأفعال الوجودية والأعمال الكونية والأحوال الغيبية إلا أنه ربما ينسب إلى نفسه الوجود وما يتركب عليه من الأعمال الوجودية والأحكام الثبوتية، والعدم وما يتفرع عليه من الأفعال العدمية والأحكام السلبية، وهذه الأسباب والتصرف ليس إلا السرقة والباقي من الآيات معلومة.

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يُوسُف: 81] العالية قد غابت عنا أمر يائس كما هو يظهر.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يريد أهله ويريد المدينة التي فيها الملك ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ يريد أهل الرفقة التي كانوا فيها الذين امتاروا معًا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يُوسُف: 82] يريد التصدق بعينه فلما قدموا على أبيهم وأخبروهم اشتدت ندامته وامتد حزنه فقال يا بني تذهبون أنتم أحد عشر وترجعون وأنتم عشرة فترجعون وأنتم تسعة فسبحان الله كيف هذا؟

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ يريد زينت لكم أنفسكم أمرًا ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ يريد العلم لشدة حزني ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83] الذي حكم بهذا الحزن وعظم المحبة بأن بان بعدا.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يريد وأعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ يريد حلول حزني على يوسف ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ يريد منه البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: 84] يريد وهو مغموم مكروب.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ أي تالله لما تفتؤا ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ يريد كالشيخ الفاني الذي تغير ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يُوسُف: 85] يريد عند الموت.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ يريد كربي وما في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 86].

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ يريد رحمة اللّهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ يريد أن المؤمن من الله على حيز يرجوه في الشدائد ويشكره ويعبده ويحمده في الرضاء ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يُوسُف: 87]

يريد أن الكافر ليس ذلك وكتب معهم كتابًا من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن إلى ملك مصر أما بعد فأين آتوني تحسبون ببال لولا ما فعلت بأحبتهم ما ابني بسارق، فإنا أهل بيت قد اصطفانا الله وعصمنا من كل سرقة وجَعَلنا الله أنبياء وأولياء، فخل سبيل ابني فتدفعه إلى أخوته يتم معروفك إلينا.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ يريد على يوسف ودفعوا إليه كتاب يعقوب ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ يريد ليس دراهمك وذلك أن دراهم مصر كانت تضرب في عهد يوسف وهي أدنى لا يجوز مجازاتك ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ يريدون يجاوزونها ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يُوسُف: 88] يريد المتجاوزين قال بعض أهل العلم جاءوا بصوف وإقط وحروف فلما قرأ كتاب يعقوب وارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وأرخى عينيه بالبكاء.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يوسف لأخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ [يُوسُف: 89] يريد إذ أنتم آثمون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾ يريد بكل خير في الدنيا والآخرة وذلك أن جبرائيل كان يأتيه كما يأتي الأنبياء فيخبره حتى ليسأله عن يعقوب فقال له يوسف أيها الملَك الحسن الوجه الطيب الريحة الكريم على ربه ما فعل الشيخ يعقوب قال حي قال فما بلغ من حزنه قال ثكلى قال فما بلغ من أجره قال أجر ألف شهيد ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يريد من يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90] يريد

أجر من كان بهذا الحال وكان هو عبد الله من المحسنين.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يريد لقد فضلك الله علينا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يُوسُف: 91] يعني من المذنبين.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ يريد قال يوسف لا لومَ عليكم اليوم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: 92] يريد من جعلهم في حل وليسأل اللَّهَ لهم وأخبرهم بأن الله رحيم بأوليائه من الوالدين بولدهما ومنه الجد والجدة وهؤلاء الراحمون.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ يريد أخرج لهم قميصه من قصة كانت في عنقه كتمها عنهم ولم يعلم بها أخوته فيها قميص وهو القميص الذي نزل جبرئيل من الجنة على إبراهيم فوهبه لإسحاق ووهبه إسحاق ليعقوب ووهبه يعقوب ليوسف ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يريد بصيرًا ويذهب البياض الذي على عينيه ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يُوسُف: 93].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من أرض مصرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يُوسُف: 94] يريد لولا تكذبون.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يُوسُف: 95].

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو يهودا جاءه وهو يخبره ويبشره بهم ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ يريد ألقى القميص على وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ يريد انجلى البياض وذهب الظلمة ورجع إليه جماله ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يريد قال يعقوب لبنيه ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: 96] يريد من رحمة اللَّهِ وعظمته وجبروته وعزه وقدرته ورفقه على أوليائه ما لا تعلمون.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ [يُوسُف: 97] يريد إنا كنا آثمين فيما فعلنا.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يُوسُف: 98] يريد أخّر دعاءه إلى السّحر ويرقد سدسَ الليل الثاني الغفور لمن تاب الرحيم لأوليائه.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ يريد يعقوب وخالته أخت راحيل وكانت راحيل قد ماتت وقال بعض أهل العلم تغيب له أم حتى رآها مع ابنه آوى إليه أبويه يريد ضمها إليه ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: 99].

﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أقول: روي أن يعقوب حين حبس يوسف بنيامين كتب إلى يوسف: من يعقوب رسول الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الرحمن إلى ملك مصر أما بعد: فإنا أهل بيت وكلفنا البلاء أما جدي إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعله الله بردًا وسلامًا، وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله، وأما أنا فكان ابن لي وكان أحب أولادي إليّ فذهب به أخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بدم وقالوا قد أكله الذئب، فذهبت عيني من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان

أخاه لأمه وكنت به أسلى، وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن بعدته عني وإلا دعوت عليك دعوة تدرك من ولدك السابع. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل نفسه على ما يذكر إن شاء الله العزيز. التجسس بالجيم المعجمة والمهملة وصل إلا أن بالحاء في الخير وبالجيم في الشرّ والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ لا تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ من رحمة الله أو من فرج الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: 87].

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ بعد التوحيد إلى مصر بأمر أبيهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي الشدة والجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يُوسُف: 88] قليل حقير ردية كاسدة لا ينفق في ثمن الطعام لما يتجوز البائع فيها واصل لإزجاء السوق والدفع وقيل البضاعة الردية مزجاة غير نافقة وإنما يجوز على رفع من أحدها.

قال ابن عباس: كانت دراهمهم ردية زيوفًا وكانت إقطًا وصوفًا وجبة خضراء أو سوق المقل أو الأدم والنعال والباقي ظاهر.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يريد تعبير الأحاديث أي الأحلام ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد فاطر السماوات والأرض يريد خالق السماوات والأرض ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد ما جرى وإياك نعبد ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ يريد لا تسلبني الإسلام حتى تتوفاني عليه ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يُوسُف: 101] يريد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ يريد من أخبار الغيب التي غابت عنك وعن قومك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يريد عندهم يريد إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: 102] يريد بيوسف.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يا محمد ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يُوسُف: 103] يريد قومك بمصدقي.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ من مال يعطونك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُوسُف: 104] يريد عظة للمتعظين يريد الذين كذبوا أنبياءهم مثل قولهم في الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ يريد في طريقكم إلى الشام وإقبالكم وإدباركم عليهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يُوسُف: 105].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يُوسُف: 106] قال أهل مكة الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يؤمنوا، وقال عبدة الأصنام: ربنا وحده لا شريك له وهؤلاء شفعائنا عند اللهِ فلم يؤمنوا، أو قالت اليهود: ربنا الله وحده لا شريك له وعزير ابنه فلم يؤمنوا، وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابنه فلم يؤمنوا، وقالت عبدة الشمس: وهؤلاء يشفعون ويزينون لكم

نوريته، وقالت المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك له فآمنوا وصدقوا.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ يريد المشركين ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يُوسُف: 107] وذلك إنها لا يكون إلا بغتة وقد جاء أشراطه مع النبي ﷺ من انشقاق القمر وغيره وقال رسول الله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كفرسي رهان وهو الحاشر والعاقب والماحي**» قيل:

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ يريد هذا ديني ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يريد على دين ويقين ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يريد أنا والذين آمنوا معي ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يريد عما قال القائلون منزهًا للّهِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: 108] يريد الذين اتخذوا مع اللّهِ ضدًّا وندًّا وكفوا وولدًا.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ يريد ليس فيهم امرأة ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يُوسُف: 109] يريد المداين لأن الله لم يبعث نبيًّا ومثل قوله في الأنعام: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الآية: 9] يريد مما تشكّون حيث جعلوا الملائكة بنات اللّهِ وجعلهم إناثًا ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد أرض الشام وأرض اليمن ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ [يُوسُف: 109] يريد فيها من العجائب مما أهلكت ودمرت من المكذبين كان من قبلهم يريد ما صنعت بمن كذب أنبيائي مثل قوم لوط وقوم شعيب وما فعلت

باليمن ومدائنها وبيت سام وبيت رجال وقوله في سورة الأنبياء: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الآيـة: 13 - 15]، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُف: 109].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ يريد وظن أنهم قد كذبوا الوعيد ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يريد نصر النبيون وحل بالمكذبين العذاب ومن قراها وظنوا أنهم قد كذبوا يريد اتفق أن قومهم كذبوهم ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ﴾ يعني عذابنا ﴿بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يُوسُف: 110] يريد المكذبين، كان العذاب إذا نزل لم يرده عنه أحد وإن آمن عند نزوله لأن الله لم يفعل هذا بخلق إلا بقوم يونس، وكذلك قال في سورة غافر: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية: 84 - 85].

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ يريد إخوة يوسف وهم الأسباط ﴿عِبْرَةٌ﴾ يريد فكرة ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يريد أهل العقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ سر ولا يكذبه ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التورية والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يريد لكل شيء كان منه أمرهما ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ يريد بيانًا ورحمة لمن أيقن ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111] بما جاء به محمد ﷺ من عند الله تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾. أقول: يعني مصر وخزائنه.

روي أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف في خزائنه فأدخل في خزائن الورق والذهب وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وخزائن الجواهر الشريفة

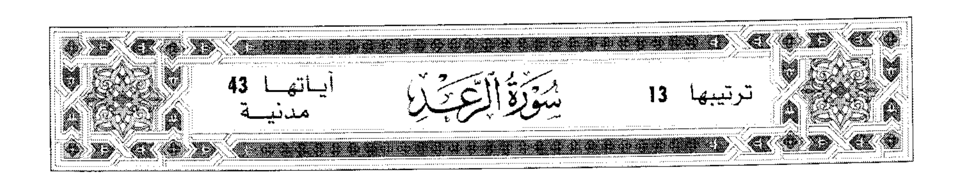
والفواخر اللطيفة وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال: يا بني لما عقد هذه القراطيس وما كتبت إلا على ثمان مراحل قال أمرني جبرائيل قال أو ما نسأله قال أنت الوسيطة إليه مني فاسأله، قال جبريل: الله أمرني بذلك لقولك إني أخاف أن يأكله الذئب فهلا أخفيتني دوران يعقوب أقام معه أربعًا وعشرونَ سنة ثم مات وأوصاه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق عليه السلام.

فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعده ثلاثًا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له طلب نفسه الملك الدائم الخلد فقال في نفسه ونالت إليه فتمنى نفسه الموت وقيل: لا تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيبًا طاهرًا.

فتخاصم أهل مصرَ فتشاجروا في دفنه كل منهم يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا من الرأي أن عمل له صندوقًا من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء، ووصى بمن بعده من أنبياء بني إسرائيل ما نقلوا من مصرَ إلى أرض الشام إلا به على عهد موسى إذ يخرج إلى الشام سأل من كبار بني إسرائيل من يدرك يوسف.

فأخبرت عجوز من بني إسرائيل أن تابوته من مرمر وضعَ في النيل فأتى موسى إليه وجاء جبريل وقال: يا موسى اكتب على قرطاسٍ الواو وألقه في النيل، فلما تأخر فكتب واوًا فلما أراد أن يلقى إذ جاء صوت وتابعه في الفم فألقى موسى ذلك وأخذه السامري، فلما خرج من مصر لقومه وواعده الله أن يأتي له كتابًا فيه تبيان كل شيء، وأمر موسى إلى الطور وواعده الله أربعين ليلة، فلما مضى عشرين جاء السامري إلى بني إسرائيل وقال: قد مضى الميعاد بأن غاب عشرين ليلة وعشرينَ نهارًا وقال لبني إسرائيل: أحب حلي نساءكم وآتوني حتى أصيغ لكم عجلًا جسدًا له خوار، فلما صاغ عجلًا ووضع ذلك الواوَ في العجل المصوغ، وقال هذا العجل إلهكم وإله موسى، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي الكتب السماوية والصحف الإلهية أو تعبير الرؤيا أو علم النجوم، فإذا ما رؤي من أهل مصر في حدود الكواكب والمثلثات والنيرجات وغير ذلك من خطوط الكواكب، فإنه من ما شاء الله للمصري وهو يوسف النبي عليه السلام وعلى آبائه العظام الصلاة والسلام، والباقي ظاهر.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2]، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي سواء عنده من أسرّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: 11].

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾

﴿الٓمٓرۚ﴾ وإنما غير أسلوب فواتح السور والتي كانت إشارة إلى الأدوار الأربعة الجمالية ثلاثة منها متوالية وهي: يوسف وهود ويوسف واحد منها ـ أي البقرة ـ كما ذكر في يوسف إشارة إلى الدورة الجمعية وهي اجتماع أدوار الأربعة الجمالية، وهي الجمعية النورية الإفرادية كما ذكرنا في يوسف فارجع إليه ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى ما دلت ﴿الٓمٓرۚ﴾ عليه ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي الآيات أو الأدوار التي يدل عليها ﴿الٓمٓرۚ﴾ هي هذه السورة الكاملة العجيبة ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي كله حق عطف على الكتاب عطف العام أو مبتدأ والحق خبره هذه الجملة كالحجة على الجملة الأولى تفسير ﴿الٓمٓرۚ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه:

الألف الله واللام جبرئيل والميم محمد ﷺ والواو أرسل وأرسلهم الله إلى جميع العالمين، يريد أن الله الملك الرحمن، تلك آيات الكتاب، يريد القرآن ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ يريد في القرآن بالحق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يريد أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: 1] لا يصدقون.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ كان ابن عباس يذكر لها عمدًا مشرفة على قاف، وهو جبل من زبرجد، محيط بالدنيا، ولكن لا ترونها ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يريد خلق عمله، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، وما بعد القيامة من الثواب والعقاب والمريد وما لا يعلمه إلا الله وحده لا شريك له، وما لا يصفه الواصفونَ، ولا يهتدي إليه عقول العاقلين ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يريد سخر الشمس بالنهار ويريد القمر بالليل ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يريد أن هذا كاين إلى يوم القيامة ثم يفعل الله ما يشاء إلى يوم القيامة ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يريد ليس بوزير ولا ند ولا ضدّ ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يريد نبين الآيات لكم يريد هذه كلها آيات لا يقدر عليها غيري أحد ولا معي فيها وزيرٌ ولا شريك ولا عون ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2] يريد أهل مكة يقول: يا أهل مكة توقنون، يريد: أهل مكة يقولوا بالبعث ويصدقوا ويعلموا أن لا إله غيري.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يريد سطحها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ يريد وتد بها الجبال ﴿وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يريد كل صنف زوج ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يريد الظلمة كما قال في سورة يس: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرّعد: 3] يريد أهل العقول والإيمان يتذكرونَ عظمة الله وقدرته وسلطانه وقوته على ما أرادَ.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: 4] يريد أرض الزرع هذه مجاورة لهذه وهذه عذبة وهذه مالحة وهذه يخرج راحلًا وهذه قليلة الريع ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ يريد جمع الثمار ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ يريد ما كان من نخلتين أو ما لامسته أو كنز وهو صنوان وإذا كانَ أجلين واحدًا من واحد من وادي واحدٍ ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ يريدون المتقون الذي هو واحد مشدد ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4] يريد أهل الإيمان وهم أهل العقل الذين لم يجعلوا لله جدًّا ولا ندًّا.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ يا محمد يريد من تكذيبهم إياك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ يريد أن ضعفوا قدرتي وسلطاني وقوتي على ما أشاء وأريد ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يريد إنكار البعث وما قضيت من ثوابي وعقابي وما أردت من جزاء أوليائي وعذاب أعدائي ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يريد جحدوا عظمة ربهم وكفروا نعمه ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرّعد: 5].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ يريد العذاب قبل الرحمة يريد من رحمته ثبت لم أعذبه ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ يريد ما مثلت بالكاذبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ يريد وتجاوز عن المشركين على

ظلمهم يريد على شركهم يريد إذا آمنوا وصدقوا ليس في القرآن آية ألْيَنَ منها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرّعد: 6] يريد لشديد العذاب على المصرين على الشرك غير راجعين عنه إلى محبة الله ورضوانه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأنعم اللّه ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ يريد مثل الناقة والعقاب وما جاء به النبيون ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُنذِرٌ﴾ يريد لمن عفا الله عنه ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: 7] يريد نبينا يدعوهم إلى الله.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ يريد ذكر أم أنثى أم واحد أم اثنين أم أكثر ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يريد من الدم عند الحمل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على تسعة أشهر يريد ما يزداد من الدم عندَ الولادة وإذا كانَ في أول الحمل تراه المرأة قل عند الولادة، وإذا قل في أول الحمل كثر عند الولادة وكان أسهلَ لخروج الولد ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: 8] علم كل شيء فقدره تقديرًا مما يكون قبل أن يكونَ، وكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ يريد ما غاب عن جميع خلقِهِ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يريد ما شهد ما علموا ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرّعد: 9] يريد الذي لا أكبر منه ولا أعلى ولا أعز ولا أجل ولا أعظم ولا أكرمَ من الله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أقول: الله مبتدأ والموصول مع الصلة خبره بغير ﴿عَمَدٍ﴾ متعلق بـ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة عمدًا وحال عن المفعول استئناف دليل على وجود الصانع الحاكم الحكيم المبدع الواجب لتساوي السماوات بسائر الأجسام في الجسمية فلا بدّ من مقتضى مخصص بالاختيار ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عرش التمكن من المحافظة والتبعية ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى﴾ [الرّعد: 2]

ذلّلهما لما أراد منهما من الحركة الخاصة الذاتية والفرضية العدمية اليومية إلى حد السرعة لارتباط الكائنات إليهما وانضباط أحوال المركبات بهما في كل يوم يجري ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي جريانهما لأمرين أحدهما: راجع إلى ذات الكائنات ووجودها وظهور أحوالها الثابتة. والثاني: أن أحوالها مقدر ومسمى ومعين إلى مدة معينة وبرهة مبينة ولكل الكائنات ووجودها أيضًا وقت مقدر لا يتجاوزه أصلًا.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي أمر الكائنات وشأن الموجودات والتصرف في أمر ملكوتها من للإبداع والاختراع وإظهار أحوالها من الترزيق والإحياء مآلًا والجمع والتفريق والارتزاق وقبول الجمع والافتراق ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ويبيِّنها في الآفاق والأنفس تفصيلًا بعدَ تفصيل ﴿لَعَلَّكُم﴾ تصرفونَ القوة النظرية وتُعملونها في إدراك الآيات والتأمل في تصريفها وترتيب بعضها وتركيب أعمالها باختصاص ليستعلوا إلى مبدئها ومعرفة أسمائه وكمال ذاته ونعوته وصفاته ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرّعد: 2] إيقانًا في كمال إيمانكم وحسن اتقائكم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها طولًا وعرضًا وسمكًا وبنيت فيها ومنها العشب والنبات وبنيت عليها الحيوان ويحيي ويميت عليها الإنسان ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جمع راسية هي جبل شامخ وأرض عالٍ شاهق راسِخ ولكونه من جملة أسباب ظهورها ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ من متعلق لزوجين ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض والأسود والأبيض والصغير والكبير وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة المتقابلة والنقص على أن الله تعالى خلق بعد مده الأرض وانكشافها من الماء من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين على ما يقتضيه كلأ سماء المقابلة المتلازمة ثم تكاثرت بعد ذلك أشخاصًا وأعيانًا ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾ نصب أحدهما بنزع الخافض بلبس ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بظلمة الليل والليل بضياء النهار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ المذكور من المفتتح إلى هذه الآيات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرّعد: 3] لأنها آيات جعلها مبادئ الفكر ومقدمات الاستدلالات ومطرح النظر والذكر والانتقالات.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرّعد: 4] أي حصص متقاربات بعضها من بعض بحسب الاقتضاء وبعضها متباعدات اقتضاء وبعضها مؤمنة وبعضها كافرة وبعضها عاصية وبعضها خبيثة وبعضها مطيعة وبعضها طيبة ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ

نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58] وكذا بعضها ساخنة كبريتية وبعضها صلب وبعضها لين قابل للزراعة والكل متساوية الأقدام في الجسمية والأرضية، وهذه الاختلافات لا بدّ وأن يسند إلى فاعل مختار قادر مريد لها يخصص بإرادته واختياره القطع المختلفات والحصص المتماثلات بخصائص متنوعة ونصائص متفرعة مميزة، لا يجوز أن يسند إلى الأوضاع السماوية والهيئات الفلكية لاستواء لبنتها إلى الكل، ولذا الهيئات ممكنة محتاجة إلى الفاعل المخصص وهلم جرا. فلا بدّ له أن ينتهي إلى الفاعل المختار ولا إلى المجردات بهذا الدليل بعينه، فلا بدّ وأن يسند إلى الواجب الوجود والفاعل المختار المؤثر بالإرادة والمشيئة العالية والسماوية يخصص بإرادته ما يشاء وينصص بمشيئته ما يريد ويرضاه.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ جمع صنوة يجمعهن أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ هي النخلة المتفردة بأصلها ومتفرقات ومتفردات مختلفة الأصول ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر والهيئة والطعم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: 4] وجعل هذا الكلام دليلًا مستقلًّا على الصانع القادر المريد المختار أولى وأتم من أن يحمل من تتمة الدليل الباقي إذ الإفادة جزء من الإعادة وذلك أن اختلاف قطع الأرض وتباين حصصها وتقادير إجرائها في الاقتضاء وعدمه وتكاثر أبعاضها في الأرض وكتمه دليل على الفاعل المختار المريد المشائي العهد لامتناع اختلاف أجزاء البسيطة في الاقتضاء لأن كل ما يجري من البسيط المتشابه الأجزاء ذاتًا ونسبة إنما يكون على نهج واحد وكذا اختلاف الآثار المترتبة عليها إنما هو من الفاعل المختار والواحد القهار، وحدة العلة المادية والنسب الظاهري أعني الأرض والماء عند ذلك لما يبقى على وحدتها بل يخصص أولًا كل واحد منهما ثم يجعل الآثار مختلفة ولا تسلسل لأن الاختلاف في الآثار يحتاج إلى تغاير القابل، وأما تغاير القابل فلاختلاف أجزائه لما يحتاج إلى قابل آخر، بل الفاعل يكفي في ذلك ولا يدرك ذلك إلا العقل الصريح بتوفيق الله تعالى وحسن تأييده.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الرّعد: 5] يا محمد في إنكار قدرة الله وكمال صنعه واقتداره على البعث ونفي الحشر والجمع في الموقف وطول المحشر فيها والخلود في

المكث ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ ونفيهم البعث أعجب منه مع كمال العقل الصريح ونصب الآيات الظاهرة والعلامات الباهرة الدالة على أن الإعادة مع المادة أيسر من الإفادة التي كانت بلا مادة، ولا مرية في أن إنكارَ الإعادة أعجب من الإفادة، وأعجب منه هذا، إذ من أقر واعترف بإبداء الخلق أنكر إعادته ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ [الرّعد: 5] الأغلال يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يٰس: 8]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرّعد: 5].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي بالنقمة قبلَ النِعمة، وبالبلاء قبلَ العافية، وبالإساءة قبلَ الإحسان والتنوير والإضاءة، وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً منهم ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم أن يعتبروا بها لئلا يستهزءوا، والمثلات جمع مثلة على وزن سمرة لما بين العقاب والمعاقبة عليه من المماثلة، وأصل المثال القصاص ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب وارتكاب العيوب، أي ظالمين لأنفسهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرّعد: 6].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٌ﴾ وعلامة ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: 7] إلى الله، نادى إلى الله، ونادى إلى لقائه، ونادى إلى رحمة الله.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرّعد: 8] من ذكر وأنثى صحيح الخلقة أو الخنثى ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ وينقص ﴿وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ منه عدد الولد إلى أربعة زيادة للوقت في الحمل على ما اشتهر من أقل المدة وهو ستة أشهر، وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ من الكائنات ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرّعد: 9].

إشارة وتأويل

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ [الرّعد: 1] أي بحق مقتضى الأدوار الأربعة الجمالية ومرتضى الأكوار المربعة الجلالية الإفرادية والأطوار الرباعية الجمعية

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي آيات المقتضيات الجارية في الأدوار الأربعة النورية والأكوار المربعة الظلية والرباعية الجمعية من الأعيان الوجودية والأكوار الودية إنما هي آيات الكتاب الإلهي وأجزائه ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ على الحقيقة المحمدية السارية في تمام المراتب المحققة الإفرادية واستجمعت في مرتبة البائسة بخصائص مقتضياتها ظهرت بالصورة الكاملة الإنسية والهيئة الفاصلة الإنسانية ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرّعد: 1] عمدت لأن يرجع إلى ما كان عليه في الأحدية الذاتية.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ في الأدوار النورية الوجودية، والسماوات هي الجواهر النورية الفعلية، لا عمادَ ولا اعتمادَ لها بغير الذات، بأن قوامها وتعينها ونسخها وقيامها إنما بالذات من الأمور الغيبية الخارجية ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني العرش الألوهية أي الصورة الجمعية والهيئة الكلية بين الوجهين الإلهي والكوني والوجه الجمعي بينهما، فإن للتجلي الذاتي ثلاثة وجوه وجه إلى الذات ووجه إلى الصفاتِ ووجه إلى جمعيتها، فمن الوجه الذاتي يظهر الجوهر المولى، ومن الوصفي النفس الكلية، ومن جمعيتها العرش استمد عنده جميع الوجوه الإلهي والكوني والشهادي والغيبي، ثم ينزل من الفياض الأفياض الإلهية والأنوار الربوبية إلى الكرسي، وينفصل أولًا إلى الكواكب الثانية ثم منها إلى الكواكب السيارة، وينزل إلى العناصر، ويتركب أولًا في المعادن ثم في المرتبة النباتية، ثم في المرتبة الحيوانية، ثم يجتمع في المرتبة الناسوتية ثم يعرج منها إلى ما كانَ أولًا.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ أي عين مدبر الدورة النورية الجمالية ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ يعني مدبر الأكوار الظلية الجلالية ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي مدة معينة دبر الله تعالى مقتضيات الأدوار والأكوار في تلك المدة المعينة، وقد علمت في صدر الكتاب وذكرنا سطرًا منها في سورة يوسف ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرّعد: 2] في ملكوت أعيان الأدوار والأكوار في مدة معينة وهي الشؤون الربوبية التي بينها في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ في تلك الآيات والمدة ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ أي بالتجليات الأفعالية والظهورات الأنوارية ﴿تُوقِنُونَ﴾ [الرّعد: 2] إيقانًا. قلنا: فإن الإيقان مثل

الإيمان له أربع مراتب بحسب مراتب التجليات، فإن في كل تجلٍّ من التجليات الأربعة الذاتية والصفاتية والأفعالية والآثارية إيقانًا ويقينًا وعلمًا وعيانًا وتحقيقًا، مثلًا للتجلي الذاتي أربع مراتب: منه العليم علم يقيني وهوَ قبلَ الشهود والمشاهدة والعيان، وعلم شهودي وبعد أن يشاهده يقين العيان لا يبصر الإنس والجان وعلم الفيض وبعد أن يتحقق به بعد العلم والعين وعلم جمعي بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين بحيث لا يشغله شأن عن شأن.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ الاستعدادية والقابليات الأولية منحها الله بالفيض الأقدس، وهو الذي يتضمنه التجلي الذاتي والشهود الأولي بالوجه الإلهي ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي صير في الأرض الاستعدادات الذاتية المطلقة حيال القابليات النورية والشامخات الجمالية الوجودية لعقول الأعيان الأدوار النورية الوجود الظلي والكون الإضافي، وميزها عن الاستعدادات الظلية الجلالية، وعن الاستعدادي الجمعي ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أربعة كلية وهي أنهار التجليات الأربعة الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية قد ذكرت في سورة محمد ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ثمرات الأعيان الثابتة إشارة إلى ماهياتها البسيطة الأولية التي ظهرت من شجرة الجمعية الإلهية والكونية في رياض الجنة الذاتية ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إشارة إلى المقامين النوري والظلي الوجودي والعدمي الجلالي والجمالي، فإن كل عين من الأعيان الثابتة يشتمل على وجهين جمالي وجلالي، وجودي وعدمي، إلهي وكوني، رحماني وشيطاني، إنسي وجني.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي الوجه الكوني والوجه الإلهي والجلالي والجمالي والعدمي الوجودي، وربما يعكس الأمر في المسير لله وقد يستوي الأمر في السير في الله لاستواء الأضداد والنقائض في هذه الحضرة لتحقق تبعية الألوهية وكمال الجمعية بين النقائض والأضداد والتباين والأنداد ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ القابلية والعرض الاستعدادية ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرّعد: 4] إشارة إلى تنوع أجزاء الأرض الاستعدادية وحصص عرض القابليات الاستدعائية، فإن قطع الاستعدادات النورية الجمالية يغاير القطع الاستعدادات الجلالية الإفرادية، وكذا الاستعدادات الجمعية الأصلية والفرعية الاستقلالية

والتبعية ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي ظهورات ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ الأعيان الأدوارية النورية ﴿وَزَرْعٌ﴾ أي جلالية إفرادية ﴿وَنَخِيلٌ﴾ أي جمعيتهما ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي الجمعية الجلالية ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي الجمالية أو بالعكس ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ نبع من بحر الأحدية الذاتية والواحدة الجمعية، وهو العلم الذي هو في هذه المرتبة عين الذات وسائر الصفات ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: 4].

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي الحصة القابلية والصفة الاستعدادية في نفس النفس الرحمانية، في المرتبة الأحدية الجمعية، في الدورة العظمى الأولية النورية والظلية ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ لفقدان شرط الظهور والبروز والحضور ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ لمدى تقوي المقتضى وازدياد المرتضى ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ﴾ الازدياد والانتقاص والتساوي ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: 8] بقدر الله وحسن تدبيره ووفور تدبيره.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو الأحدية واللاهوت والجبروت، وما فيها من الشؤونات الذاتية والأعيان الثابتة والصور العلمية والحروف العاليات، والجواهر النورية والعقلية والملكوت، وعالم الأمر وما يحتوي عليه من الأرواح والنفوس العاملة، وما فيها من التكوينات الإبداعية والتدوينات الاختراعية، وعالم المثال وما فيه من الأمثال والأشباح والمثل النورية والصور الخيالية ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرّعد: 9] أي عالم الشهادة أي الملك والأجسام وما فيها من الأجرام السماوية والكواكب الثابتة والسيارة وأجسام العناصر، وما يتولد منها من المعادن والنبات والحيوان والناسوت وعالم الإنسان.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ يريد علم من أخفت الصدور والقلوب وما نطقت به الألسن وما أضمر الفؤادَ ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرّعد: 10] يريد ظاهر بالنهار يريد علم ذلك كله.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يريد بالملائكة الحفظة ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يريد بأمر الله لا من أمر الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تبارك وتعالى جل جلاله وتقدست أسماؤه يريد القدر بينه وبين خلقه ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11] يريد أهل مكة كما قال في سورة إبراهيم: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [الآية: 28] يريد أنفسهم، وأخبر أن دار البوار جهنم، والبوار العماء، وهي دار العماء مثل قوله في: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾ [الفتح: 2]، ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: 12] يريد عميًا، هذا كله يخاطب به قريش ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ يريد عذابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ يريد لا رادَ لعذابي ولا ناقض لحكمي ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: 11] يريد يتولاهم ويمنعهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرّعد: 12] يريد خوفًا من الصواعق والمطر ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، يريد أتت السحاب الثقال بالمطر يقول كوني فيكون ليسَ كخلقه السماوات والأرض هذا التشابه مما لم يكن.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ وهو مَلك على السحاب موكل ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ يريد خائفين من الله ليسَ كخوف بني آدم يريد أن قومًا من الملائكة ساجدون مذ خلقوا بأكوانهم، ومنهم قوم مسبحون مهلِّلون لا يعرف أحد من على يمينه ولا من على يساره، لا يشغله عن عبادة طعام ولا شراب، ولا امرأة يتلهّى بها ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ كما أصاب زيد العامري ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يريد يكذبون بعظمة اللّهِ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرّعد: 13] يريد شديد الانتقام.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يريد يدعو إلى دين الله وعبادة الرحمن وحده لا شريك له ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يريد الشرك ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ يريد ليس لهم ثواب ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يريد كذلك يدعون من دون الله ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: 14] يريد عبادة الكافرين الأصنام في ضلال.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ [الرّعد: 15] يا محمد ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عِمرَان: 83] يريد فالمؤمنون لله الطائعين والكافرون سجدوا للَّهِ وهم يتخذون معه إلهًا لهم كارهونَ كما قال في سورة المؤمن: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: 45] ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [الرّعد: 15] يريد الشجر وما أنجمت الأرض مثل قوله في سورة الرحمن: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الآية: 6] يريد ما كان على وجه الأرض، يريد هو نجم، وما كان على ساق وهو شجر، وقال في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الآية: 18]، ومثل قوله في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الآية: 49].

وقال فيها أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ تبعيًا ﴿ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يريد بمثل ساجد الله حتى تطلع الشمس ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ إذا زالت الشمس يقول: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [الآية: 48] يريد صاغرون ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [الرعد: 15] يريد مع الإشراق ويغدو زوال إلى مغيب الشمس.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد يريد قل لقومك ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أقرّوا بالربوبية ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ﴾ قل يا محمد ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يريد لوليهم غروب السماوات والأرض ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرّعد: 16] يريد النفع من معايش الدنيا وثواب الآخرة والضر الأسقام والفقر ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ يريد المشرك ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: 50] يريد المؤمن الذي صدق بملكوت الله ولم يتخذ من دونه ندًّا ولا ربًّا ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ يريد الظلمات الكفر والنور الإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يريد أم صلة الكلام ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ يريد خلقوا سموات وأرضًا أو ملائكة أو جنًّا أو إنسًا ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرّعد: 16] يا محمد ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 102] وهذا كله ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرّعد: 16] يريد الواحد ليسَ كمثله شيء القهار قهر العباد بالموت.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يريد قرآنًا وهو مثل ضربه الله ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ يريد بالأودية قلوب العباد ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يريد احتمل قلوب المنافقين والشرك ما احتمل إليه من الزبد وهو الشك والكفر، واحتمل قلب المؤمنين يقينًا وتصديقًا وبرًّا وتقوى ثم ضرب مثل العرب فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ يريد الذهب والفضة والحديد يريد الحلي الذي تلبسه النساء والمتاع مثل الطشت والنور وما ينتفع به من الحديد والنحاس من الآنية وغيرها ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يريد ما يخرج الآنية من نحت النحاتين من الذهب والفضة والحديد والنحاس ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرّعد: 17] يريد الحق الذي يقوم منه

الحلي يتمتع موسره به، ومنه الآنية وغير ذلك من الحديد والنحاس وهو الحق ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ ليس فيه شيء من المنافع ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يريد الدنانير والدراهم والحلي ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وما ينفع الناس من الحديد والنحاس يريد يبقى في الأرض منافعه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرّعد: 17].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يريد الذين وحّدوا ولهم الجنة وبقي منافع القرآن في قلوبهم يتعظون به كما بقي لهم الدنانير والدراهمَ والحلي والحديد والنحاس ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ [الرّعد: 18] يريد لم يوحّدوه ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ [المَائدة: 36] يريد أضعافًا ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ يريد أشد العذاب ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18] بئس ما مهدوا لأنفسهم حيث بدلوا نعم الله كفرًا.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ أقول: استوى عنده أو ما استوى له منكم من أسرّ القول وأخفى المقول في نفسه ولم يتكلم بشيء يدل عليه، ويحتمل أن تكون (من) موصولة مبتدأ، و(سواء) مصدر مقدم عليه خبره أو (سواء) مصدر مبتدأ، وقد اختص بوصف مقدر والموصول خبره ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ وتلفظ بما يدل عليه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ طالب للاستتار والخفاء ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ بظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ ظاهر وذاهب ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرّعد: 10] عطف على (من) لا على (مستخف) ولا متصلة بما قبلها كأنه قيل: اثنان عندي منكم سواء ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ﴾ وظاهر وذاهب ﴿بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ﴾ [الرّعد: 10 - 11] أي لمن أسرَّ ولمَن جهر ولمستخف ولسارب ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي ملائكة تعقب وتجبى في عقبه لحفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه إذا عقب كانَ بعضهم بعضًا أو لأنهم يعقبونَ بها أفعاله، ومنه أعقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة أو لأن المراد بها الجماعات ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ نفسه جميع جوانبه أو الأعمال كلها ما تقدم وما تأخر ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 11] ليس بصلة للحفظ كأنه قيل له معقبات بآية من الله ويحفظونه من أجل

أمر اللَّهِ، أي من أجل أن الله أمرهم بحفظه، والدليل عليه قراءة علي وابن عباس وزيد بن علي: يحفظونه بأمر الله وبحكمه وقضائه، أو يحفظونه من بأسه ونعمته إذا دنت بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهلهم رجاء أن يتوبوا وينيبوا.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: الآية 43] يقصد المعقبات هي الجلاوزة والحرس حولَ السلطان يحفظونه مما يتوهم من قصد اللَّهِ، قال عليه السلام: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم تعرج الملائكة فيسألهم ربهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي، فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون**». قيل: لمحمد معقبات يحفظونه من أمر الله، أي من شر الجن والإنس وطوارق الليل والنهار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة وحسن المعاقبة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة والملكات الفاضلة الجليلة بالأحوال القبيحة والأعمال السيئة والهيئات الردية ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لما أراد ولا دافع له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: 11] أي بمراد الله حافظ وملجأ يلجأون إليه، أو والذين أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ ويسمعكم الرعد ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ إلى نزول المطر وحلول الغيب، فلا يصح مفعولًا لهما لأنهما ليسا بفعل الفاعل المحلل إلا على تقدير المضاف، أي إرادة خوف وطمع أو إخافة وإطماعًا، ويجوز أن يكون حالين من البرق كأنه في خوف وطمع أو على خوف وطمع، أي من المخاطبين أي خائفين طامعين ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرّعد: 12] هم اسم الجنس والواحدة السحابة والثقال جمع ثقيلة يقال: سحاب وسحاب ثقال بالماء والغيث.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أكثر المفسرين على أنه اسم ملك ليسوق السحاب ويسبح سامعوه من العباد الراجين المطر حامدين له: سبحان الله والحمد لله. عن النبي ﷺ كان يقول: «**سبحان من يسبح الرعد بحمده**»، وإذا اشتد الرعد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك**». سأل اليهود رسول الله ﷺ عن الرعد قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب**»، قيل: الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم. وفي بعض

الأخبار يقول الله تعالى: «**لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد**». قيل: «**إذا أراد الله بقوم خيرًا أمطرهم بالليل وشمّسهم بالنهار**».

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من هيبته وإجلاله وجلالته ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة، وهي العذاب المهلك ينزل منه البرق، والحرق يحرق من يصيبه، وهي نار لو نزلت في البحر لاحترقت الحيتان في قعر البحر، ولو وقعت على الأرض أو الجبل والحجر لأحرقتها، وأحرقت ما يصيب من الأشجار ولم يدركها الحس، ولم يسكن إلا في جوف الأرض ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من الجماد والنبات والحيوان والإنسان كما أصابت أربد العامري لدى دعاء النبي ﷺ عليه بالصاعقة المهلكة ﴿وَهُمْ﴾ أي هم الذين كفروا وكذبوا رسول الله حيث أخبرهم عن الرعد والبرق والصاعقة المهلكة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ ويبحثون ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ على المكابرة والمجادلة وهي البحث والمناظرة بالإنكار والجحد بلا دليل وبرهان عقلي ونقلي وعرفي. نزلت في أربد بن ربيعة العامري قال لرسول الله ﷺ حيث وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامرًا بغدة كغدة البعير في بيت سلولية وأرسل على أربد صاعقة فأهلكتهما ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرّعد: 13] والمماحلة هي شدة المماكرة وقوة المكايدة، ومنه يمحل لكذا إذا تكفل باستعمال الحيلة واجتهد فيها، وتمحل بفلان إذا كاده وسعى بكيده إلى السلطان واجتهد فيه، ومنه الحديث: «**ولا تجعله علينا ماحلًا مصدقًا**» أي شديد المكر والحيل والكيد لأعدائه أن يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون.

﴿لَهُۥ﴾ للرسول ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ فيها وجهان أحدهما: إلى الحق الذي هو يغيض الباطل كما يضاف الكلمة إليه نحو كلمة الحق للدلالة على أن الدعوة هلالية للحق مختصة به، وإنه هو بمنعزل عن الباطل وهو الدعاء والدعوة حري أن تستجاب. والثاني: أن يضاف إلى الحق الذي هو اسم من أسماء الذات بالأسماء الذاتية على تقدير المضاف، أي دعوة المظلوم الحق أي الذات الواحدة الذي يسمع دعاء العبد فيجيب هي إضافة المصدر إلى المفعول، وذكر الفاعل متروك أي دعوة العبد الحق، الأول من إضافة الموصوف العام إلى الصفة الخاصة المخصصة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الأصنام والآلهة الباطلة ﴿مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا

كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ الاستجابة كاستجابة الماء باسط كفيه على الماء ﴿لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ وذلك أن ما يدعونه هو جماد ومخلوق لا وجودَ له ولا علم ولا قدرة كالماء، فلا يحس بدعائهم وإجابتهم ولا يقدر على نفعهم ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ أي ليس الماء قادرًا ليبلغ فم الباسط، شبهوا في قلة وجدهم ودعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف بيديه ليشرب فيبسطهما ناشرًا أصابعهما بلا انضمام بعضها ببعض، فلم يأخذ كفاه شيئًا ولم يقدر بحالته من شربه فيبقى عطشان مستهلكًا ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآلهة الباطلة والأوثان العاطلة ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرّعد: 14] وضياع غائل وخسار بلا طائل.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا﴾ من الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن ﴿وَكَرۡهٗا﴾ من المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف؛ ويحتمل أن يكون السجود على الحقيقة ذاته يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين من حالتي الشدة والرجاء، والكفرة حالة الإكراه وحالة الشدة والضرورة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي ظلال الساجدين يعني يسجد له الأشخاص أولًا بالذات ويسجد ظلالهم ثانيًا وبالفرض، وينقاد له حيث يصرفهم وانقيادهم وحركاتهم بالانتصاب والركوع والاعتدال والسجود والقعود والشهود، وظلال الأشخاص مطلقًا بحسب حركات الشمس حال الامتداد والانتقاص والتقلص والنفي، فالمثال والانحطاط ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرّعد: 15] جمع الأصل والأصل جمع الأصيل وهو من يعلو العصر إلى غروب الشمس، قيل: سجود الظل بدليله لما أريد له متعلق ما يسجد وحال الظلال وتخصيص الوقتين لأن الامتداد والتقلص ظهر فيهما وقرئ: بالغدو والإيصال من أصلوا إذا دخلوا في الأصيل.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾ تفريع لما تقدم فألزموا على ذلك لإقدارهم واعترافهم بالتوحيد الضمني الفطري، أي إذا تقرر التوصيف في النفوس كلها على مقتضى العقل الصريح فكيف يمكن لكم أن تتخذوا ﴿مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ والحال أنهم ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ ولا يتمكنونَ من أن يكونوا مالكين ومنتصبين ﴿لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ والهمزة للإنكار قاطع على أن اتخاذ غير الله منكر لدى العقول السليمة ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ الذي ترك طريق العقل الصريح والفهم الصحيح إلى الوهم الذي هو عمى عن الحق وإدراكه ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ [الرّعد: 16] الذي هو العقل الصريح الذي حكم على الوهم وجميع القوى وأدخلهم في حكم وعمل كلًّا منها بعمل خاصٍّ

وجعل ذلك العمل ذريعة لإدراك الحق وشهد بالبصيرة التي هي في شهود المعقولات وإدراكها كالبصر للنفس في شهود المحسوسات.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ الكفر ظلمة الظلمات ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الإيمان باللّهِ والعلم بأسمائه وصفاته وضياء توحيده ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي بل جعلوا والهمزة للإنكار وجعلوا شركاء لله ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ داخل في حيز الإنكار يعني لم تتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا الخلق ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي خلق الله وخلقهم حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فيتخذهم شركاء ويعبدهم كما يعبد إذ لا فرقَ بين خالق وخالق، لكن قد دل البرهان القاطع والدليل الساطع على امتناع الشركة في الألوهية ووجوب التوحيد، وهم قد أخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلًا على ما يقدر الخالق، وهم لكمال حماقتهم وغاية جهالتهم أخذوا جمادًا منحوتًا ومخروطًا وسوّوا للإنسان إلهًا وربًّا، وتركوا الإنسان هو أشرف الكائنات صنعًا وعملًا وإدراكًا وفعلًا ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرّعد: 16] غالب على كل شيءٍ، عظيم وحقير، كبير وصغير، معقول ومحسوس، مطلق ومقيد ومحبوس.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي من السحاب أو من جانب السماء أو من السماء بعينها إذ المبادئ والمواد كلها منها إلى الأرض ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ جرت الماء في أودية جمع واد ومن الموضع الذي يجري الماء ويسيل فيه مجتمعًا ويسمى بالأنهار وهو مجاز من باب جرى الميزاب واشتعل الرأس مبالغة في كثرة الماء وشدة السيلان، فملأت الأودية بالماء عند سيلانه ﴿بِقَدَرِهَا﴾ في الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض التي لا تعلم قدرها ومنافعها ومضارها وكميتها وكيفيتها وكينونتها إلا الله، وتعكرها لاستواء نسبتها إلى المواضع وعدم اختصاص موضع نفسه، بل السماء كلها لها صلاحية نزول المطر، وكوّنه أنهارًا وصيره بحرًا وبحارًا.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ وأحدث وأظهرَ ذلك الماء ﴿زَبَدًا﴾ وهو الخبث الذي يظهر على وجه الأرض الماء على القدر ﴿رَّابِيًا﴾ [الرّعد: 17] فاعل من الربا وهو الزيادة والارتفاع على رأس الماء لهذا مثل ضربه الله وبينه للخلق في بيان الحق وأهله وأعيان الباطل وضربه كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلًا لهما

بمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية قلوب الناس فيحيونَ به وينفعهم بأنواع وبالفلز الذي ينتفعونَ به في صنع الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ باق بقاء ظاهرًا وكذا الماء يثبت في منافعه ويبقى آثاره في العيون الجارية والفلز وفي الآثار والمصانع والبر وغير ذلك مما يكتنز ويدخر في الحياض، وكذا الجواهر والفلزات يبقى أزمنة متطاولةً.

وشبه الباطل في سرعة الاضمحلال وشك زواله وانسلاخه من تزبُد السيل الذي يرمي به ويزيل الفلز الذي يظهر فوقه إذا أذيبَ في النارِ ابتغاء حلية واجتلاب ذيبه أو متاع كالأوان وآلات الحرب من المناطق وعلائق السيوف وقبضتها وغير ذلك. والمقصد من ذلك بيان ثبات الحق ومنافعه وزوال الباطل وسرعة انتفاء موضعه ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ الضمير إلى الموصول ومنه للابتداء والتبعيض عطف على مقدر يعني ضرب الله الباطلَ الزبد الحاصل من الماء ومن الحلي التي تذاب بالنار التي توقد.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ ويزول ويعني صفاءً أي ذهابًا أي يرمى به السيل أو الفلز المذاب، يقال: جفان القدر يزبدها، وإجفاء السيل وجفل إذا رمى الزبدَ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كالماء والفلز خاصة ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويثبته ثباتًا ولبثًا معتدًّا فينتفع به أهل الأرض بخلاف الباطل فإنه زائل وفانٍ غير ثابت. قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: «جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى الساعة، والحق أبلج والباطل أجلج». ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرّعد: 17] للمؤمنين.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وللكافرين ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ وهما مثل الفريقين ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة لمصدر (استجابوا) واللام متعلقة بيضرب على أنه جعل ضرب المثل لبيان الفريقين. وقيل: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي المثوبة أو الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ مبتدأ وخبره ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟﴾ وهو على الأول مبتدأ البيان حال غير المستجيبين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو المناقشة في الحساب. عن النجفي: أن يحاسب لذنبه كله لا يغفر منه شيء ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من جهنم المستقر والجحيم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18] والمخصوص بالذنب محذوف وبالله التوفيق.

إشارة وتأويل

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ [الرّعد: 10] إلخ، أي استوى أحوال أعيان الدورة النورية الأصلية والأربعة الفرعية النورية وكذا كل ما يجري في الأكوان الأربعة الأصلية الظلية والأربعة الفرعية الظلية الإفرادية والأربعة الجمعية الأصلية، والأربعة الجمعية الفرعية في المراتب الكونية الفرعية الحادثة من الأحوال والحركات والأفعال والأعمال والأقوال الصادرة من الملائكة والأغوال والشياطين والجان والجن والإنس وسائر الأنواع والأصناف والأشخاص حاضرة عندي لا يغيب عني طرفة عين.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي لكل عين من أعيان الأدوار والأكوار المذكورة معقبات حافظات من الملائكة ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 11] يعني أن لكل عضو من الأعضاء ولكل قوة من القوى الممكنة والمحركة ملك يحفظه ويضبط كل ما يصدر عنهما من الأفعال البدنية والأعمال النفسانية والأحوال الروحانية من الإدراكات والعلوم والحالات والمقامات والأقوال والعبادات والرموز والإشارات ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] هذه ألوهية أخرى وربوبيته أتم وأحرى وأن حفظ هذه الرقباء والحفظة أيضًا بأمره وإذنه وإشارته وبتقديره وحسن تدبيره.

ولا يخطر ببالك أن هذه ترهات في ترهات، واستحلالات في استحلالات، وافتراءات في افتراءات، لأن كل ما ظهر في الوجود وسرى في دورة الروح وأطوار الشهود فهو لا بدّ وأن يكونَ له فاعل ومؤثر ومخصص ذو إرادة ومشيئة عالم به لما تقدم من أن كلَّ فعل اختياري محفوف بأربعة أمور مصورة وبصورة غائبة وعرضة وإرادة واختيار وسوق تتبعت من العلم به، وكل فعل جزئي إرادي محفوف بهذه الأمور الأربعة قد عبر عنه الشارع بالملائكة، فإن الملكَ في طور التحقيق هو جوهري علمي نوري يكون مأمورًا بأمر اللَّهِ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] هذا من غرائب حكمته وعجائب ألوهيته وكمال قدرته وشمول علمه وإرادته، لا يدركه ولا يحيط به إلا من وفقه الله بعين عناية وكمال رغبة وشمول هدايته، لأن هذا طور وراء العقل

الرسمي والإدراك الجزئي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ إشارة إلى كمية هذا الأمر وكيفية تحقيقه، يعني أن الله تعالى لا يغير ولا يعطي هذا النوع من الإدراكات إلا أن يغيروا ما بأنفسهم من الرسوم والعادات والقيود والتقييدات والعقود والاعتقادات فإن الإدراكات الرسمية والعقائد الوهمية والتصورات والعلوم الاسمية قد غفلت العقل وعضلت البصيرة وألقاهم عن الإحاطة بهذه الإدراكات والعلوم الغير المتناهية وضيقت فسيحه ساحة النفس الناطقة وحومه حامة الطور القلبي عن إحاطتهما ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ مانعًا من الوصول إلى هذا المقام وحصول هذا المرام ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: 11] مقتضي وحافظ.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ والحب والشوق إلى تحصيل هذا المطلب ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي بشرط كونه بين الخوف والرجاء أي بشرط جمعية مقتضى النور والجمال والجلال واستوائه صراحة وضمنًا ظاهرًا وباطنًا ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ [الرّعد: 12] ويظهر السحاب الأسود وأن النورية الجمالية.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أسره وتعدى الاستعداد الظلي الجلالي عن الناس والموانع في الاقتضاء، تفصيل لما تقدم ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي الاستعداد الجمعي ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: 13] إشارة إلى الاستعدادات الثلاثة الإفرادية التي لا بد في كل فرد من الأفراد الإنسانية سيما في الفرد الكامل، فإن لكل واحد منهم ثلاث أعضاء أحدها: الكبد وهو منبع الروح النباتي ليستمد منه غيب النور والبرق والجمال. والثاني: القلب وهو منبع الروح الحيوان الذي يستمد من غيب الملكوت الأوسط يربيه الظلي والجلالي. والثالث: الدماغ وهو معدن النفس الإنساني وهي القوة التي يستمد منه غيب الملكوت الأعلى وهو الظل والجلالية، وجمعيتهما يستمد من الحضرة الجمعية الإلهية الصفاتية والذاتية، والأفعالية والكونية الآثارية.

فلكل واحد من الثلاثة الأولى ملك من الملائكة العالية والمتوسطة والسافلة يحفظه، وأما الأخيرة التي هي جمعية الكل مستندة إلى الحضرة الإلهية الجمعية، وإليه إشارة الحضرة الختامية عليه السلام: «**إن الله عز وجل لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء، وقال لسائر الأشياء: كن فكانَ، فخلق القلم وآدم والفردوسَ بيده**» وكذا كل جزء من الأجزاء الأولية والأعضاء البدنية بل كل جزء من الجواهر

الفردة والأجزاء التي لا تتجزأ قد وكّل الله عليه ملكًا يحفظه إلى يوم البعث.

فإذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى تلك الأملاك لتجيء بها وتفرقت شرقًا وغربًا، برًّا وبحرًا، قربًا وبعدًا، ويرسل الصواعق، التجلي الذاتي الفردي أو الجمعي الذي يعتبر بمقتضيات الدورة النورية الفردية والدورة الظلية الإفرادية، فيصيب بها من يشاء عندَ اجتماع هذه الأمور الثلاثة، وغيرها من الأجزاء وازدواجها على الوجه الخاص ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي الأعيان النورية والأكوان الظلية الإفرادية يخالِفونَ الله واقتضائه الجمعي، المخالفة لاقتضاء الإفرادية ارتضاء الجمعية ﴿فِى﴾ أي الذات الجامعة لتمام الأسماء والصفات ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرّعد: 13] والإحالة لأنه يجذب الكل وتجعله إلى نصفه وجمعية حضرة قدسه وإلى تلقاء لقائه وأنسه.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ لأنه دعوة الصواب والصدق وجامع لجميع جهات الاستحقاق من الجمع والفرق ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ فإن الأعيان الإفرادية لعدم ثباتها في نفسها كذا كسبهم في الأدوار والأكوار ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ فإنه لا يبقى في كفوف اكتسابهم وأيدي قدرتهم على ماء العلوم الفطرية والمعارف الطبيعية شيء أصلًا لكونها في معرض الزوال ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرّعد: 14] التفنيد والتقليد والتقلد، وأصل الضلالة هي التقيد بظلمة العادة والتقلد بها، فانظلمت النفس فاجتنبت من نور الهدى فتجنبت منه واجتنبت.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفي التوراة: إن الله تعالى خلق درة بيضاء صافية فلاحظها بعين الجلال فذابت حياءً منه فصارت ماءًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي الاستعدادات الذاتية والقابليات الأزلية، فإذا وصل ماء العلم إلى أودية الاستعداد وقابليته القلوب والفهم انفتح بصر القلب ونظر الفؤاد وسر الغيب فأبصر الله الحق ونظر إلى الفيء والهاطل فؤادية استعداد كل عين قلبت من ذلك الماءِ بقدر ما خصصها بفيضه الأقدس ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ الماء المجتمع الجاري في أودية استعداد استدعاء كل فهم وقلب وقوة وهم ﴿زَبَدًا﴾ شكلًا ﴿رَّابِيًا﴾ [الرّعد: 17] وترددًا أو كيفًا وفسادًا أو غيبًا ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي الشوق والمحبة الذاتية والمودة الغيبية ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ من المعارف الإلهية والعلوم

الحضورية والإدراكات الشهودية المتفرعة على مشاهدة التجليات الذاتية ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرّعد: 17] أي الحالات المتماثلة والمقامات المتقاربة.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ يا محمد ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ يريد اليقين لا الشكّ وهو حمزة بن عبد المطلب ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ يريد أبا جهل أعمى القلب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: 19] يريد العقول والألباب والبصائر، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن وسعد وسعيد وطلحة وزبير وعمار ومظعون وأخوته وأبو عبيدة بن الجراح وابن مسعود وجميع المهاجرين والأنصار، ثم رجع تبارك وتعالى في عروجهم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 20] يريد الذين عاهدهم في صلب آدم حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرّعد: 20] يريد العهد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يريد الإيمان والأنبياء ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يريد السرّ والعلانية ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21] يريد الموقف بين يدي الله، ثم زادهم أو أحسن ثناءً.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على دين الله وأمر طاعته ونهى عن معصيته ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرّعد: 22] ما أسر ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 277] يريد لأوقاتها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [الرّعد: 22] يريد تصدقوا من فضل أموالهم التي رزقهم الله ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22] يريد يدفعون بالحسنة يريد شهادة أن لا إلٰه إلا الله يدفع الشرك ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرّعد: 22] يريد عقبى لهم الجنة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وهي وسط الجنان وقبضتها متنابذة، فعرش الرحمن عرشها بيده ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ وذرياتهم يريد من صدق بما صدقوا به وأن ينالهم بالعمل ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وإن لم تعملوا مثل عملهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرّعد: 23] يريد التحية من الله تعالى والهدايا.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ يريد في دار الدنيا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرّعد: 24] يريد عقبى أعمالكم وصبركم.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يريد الذينَ عاهد إليهم في صلب آدم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] فنقضوا ذلك واتخذوا معه إلهًا آخر ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ بين الكفر بالأنبياء مثل قولهم: لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالذي بين يديه يريد التوراة والإنجيل، ويريد ما أنزل الله من الكتب على الأنبياء ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد لا يأمرونَ بالمعروف ولا ينهونَ عن المنكر ولا يصلونَ الأرحامَ ويجعلونَ لله تعالى الأندادَ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ يريد في الدنيا ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرّعد: 25] يريد شدة الآخرة.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يريد لأوليائه ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرّعد: 26] يريد ما في الدنيا يذهب وينفذ وهو قليل.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يريد أفلا أنزل عليه آية من ربه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ يريد عن دينه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: 27] يريد من غاب ورجع إلى محبة الله فأخبر من هو فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد صدقوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يريد إذا سمعوا القرآنَ خشعت قلوبهم واطمأنت وإذا سمعوا ذكرَ اللَّهِ أحبوه واستأنسوا إليه واطمأنت قلوبهم ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28] يريد قلوب المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يريد المهاجرين والأنصار ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: 29] يريد طوبى شجرة في الجنة في منزل النبي ﷺ، ليس في الجنة غرفة ولا دار ولا بيت إلا وفيها غصن منها ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ يريد حسن مصير.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أقول: أي الذي أنزل إليكَ من ربك هو الكتاب ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت في نفس حقية أحكامه ويؤمن به ويعلم ما فيه من الأحكام ويعمل بما لها من الأعاجم والإلهام ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ في نفسه ويتعامى عن قلبه فلا يؤمن به ولا يستبصر فيستجيب له، والهمزة للإنكار تقع شبيهةً في تشابهات بعد ضرب المثل في أن حال من علم ورأى أن من آمن به وعمل به فاستجاب بمعزل من حال الذي لم يستبصر فيستجيب كبعد وبون ما بين الزبد والماء ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: 19] أي ذوو العقول قد حملوا واستجابوا على مقتضى قضايا العقول الصريحة فنظروا واستبصروا فعملوا حق العمل.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ على ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته والإقرار بمقتضى الألوهية في الميثاق الأول والعهد المعول حيث قالوا: بلى، وعلى ما عهد الله عليهم في كتبه الموصول مبتدأ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ خبره بمعطوفاته ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرّعد: 20] الذي جرى بينهم وبين الله وبين بني

نوعهم، والله وغيره مما يتفرع عليه الطاعات والعبادات وقبول التكلفات تخصيص بعدَ التعميم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرّعد: 21] به من الأرحام ويدخل وصلَ قرابة رسوله وقرابة الولاية ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: 59] وقرابة المؤمنين الثابتة لسبب الدين والإيمان والقربات ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم، وطرحه التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، ومنه مراعاة الأصحاب والخدم والمماليك والجيران والرفقاء في السفر، وكل ما تعلق بهم لسبب حتى الهرة والكلب والدجاجة. واعلموا أن العبدَ لو أحسنَ بصنوف الإحسان كلها وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن محسنًا ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ ووعيده كله قال النبي ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ أجله فليصل رحمه**»، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21] فيحاسبونَ أنفسهم قبل أن يحاسبوا. عن عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكاليف الشرعية ومخالفة الهوى وترك الرسوم ورفض العبادات والمألوفات ومهاجرة الوطن والأحباء ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ وطلبًا لمرضاته لا ليقال ما أصبره وله صبر جميل وأجمل ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا لقلة الجدوى في الفرع وكثرة الجزع والهلع، ولئلا تشمت به الأعداء ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ يتناول النوافل فإنها في السر أحب وأفضل، والفرائض لوجوب المجاهرة فيها تبعًا للتهمة بأنه تارك الصلاة واقتداء بهم وترغيبًا لغيرهم ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرّعد: 22] ويدفعونها. قال النبي ﷺ: «**أتبعوا السيئة الحسنة تمحها**». ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: 22] وهي الجنة لأنها التي أراد الله أن تكونَ عاقبة الدنيا وآخرها ومرجع أهلها.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ بدل من عاقبة أو مبتدأ خبره ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، والعدن هي الإقامة أي جنات يقيمونَ فيها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ إن لم يبلغ فضلهم تبعًا لهم وتعظيمًا لنياتهم، والدليل على أن هذه الدرجة إنما تبلغ بالشفاعة أو أن

الموصوفين بتلك يقرن بعضهم ببعض لما بين أن القرابةَ والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنفسهم والسند بالصلاح دلالة على مجرد الإسلام لا يتبع. وفي الكشاف: اعلم أن الأنسابَ لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. ﴿ءَابَآئِهِمْ﴾ جمع أبوين كل واحد منهم فكأنه قيلَ ﴿ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرّعد: 23] باب قائلين عند الدخول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: 24]، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ متعلق بمحذوف. هذا بما صبرتم يعني أن هذا الثواب لنسبة صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم. والمعنى لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرّعد: 25 - 26] ذاهب وحقير زائل غائب.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۗ﴾ كلام يجري مجرى التعجب من قوله وذلك أن الآيات الباهرة المتناثرة والعلامات الظاهرة المتكاثرة أو ينهى رسول الله ﷺ، ثم لو نهاني قبله، وَكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأنه لم ينزل عليه قط، كانَ موضعًا للتعجب والاستنكار ولأنه قيلَ لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على الكفر وإنكار نبوة من هو خير الناس ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ ممن كان على صفتكم من البصيرة وشدة الشكيمة في الكفر فلا سبيلَ على التعميم إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ من كان على خلاف صفتكم ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: 27] ورجع إلى الله وتاب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 28] بذكر رحمته وملاحظة مغفرته بعدَ القلق والاضطراب من خشيته كقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: 23] أو تطمئن بالقرآن وتلاوته وسماعه لأنه معجزة بينة سكنت القلوب وتبينت العيوب فيها ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 28] الذي شاهده في المشهد الأول والمعهد المعول وسمع منه خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾ [الأعراف: 172] واستأنس به ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ابتداء ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ من طابَ كبرى

وزلفى، ومعنى طوبى لك: أصبت خيرًا وطيبًا خبره أحد يائي وقلبت الواو ياء ما قبلها كموقن وموسر، ويجوز أن يكونَ منصوبًا بفعل مقدر والجملة الفعلية خبره وأن يكون الموصول بدلًا من القلوب، أي ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ قلوب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرّعد: 29] بالرفع والنصب، ولام لهم للبيان نحو سقيًا لك وبشرى لك.

إشارة وتأويل

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلخ، إشارة إلى الفرق بين العلم الحضوري الشهودي وبين الحضوري الخطوري، لما تقدم منه أن مراتب العلم أربعة، ولها مبدأ هو الشهود الحضوري الذي كان في بداية البصر من الله في الأحدية الجمعية والوحدة الذاتية، ونهايتها أيضًا هي الشهودي في نهاية السير من الله، وآخر التنزلات ونهاية مرتبة الناسوت وهو الإحسان والمشاهدة، والإدراك البصري وهو الأعلى والأقدم، والأخير هو الأدنى والأتم وما عداهما هو الأخص بمنزلة العدم والعمى وهو التوهم والتخيل ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: 19] أي الرجوع والعود إلى ما كانَ عليه، ألا وهو العلم الحضوري الشهودي ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وميثاقه الذي عند الله معك في ذلك الموطن وبداية الدورة العظمى النورية بأنك إذا تنزلتَ من هذا العالم مرتبة العلم الشهودي إلى مرتبة الأدنى الذي هو بعينه ذلك الذي رأيته، ولذلك أقنعت النفوس بهذا العالم وأقنعت غيره كعلماء الطبيعة والمنجمين والملاحدة الجاهلين، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرّعد: 20] والعهدَ الذي عبدوه في بداية الدورة الكبرى والوسطى والصغرى في عالم الأمر والملكوت وَالبرزخ والملك والناسوت.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾ في المراتب العالية والمعاهد الأولية الأزلية في الأدوار والأكوار ﴿أَن يُوصَلَ﴾ [الرّعد: 21] ما أوصلَ الله بينك وبينهم من الآباء العلوية الجبروتية والأمهات العلية الملكوتية والأقارب البرزخية والأهالي الملكية ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 7 - 9]. قال النبي ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**». ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21] برعاية

حقوقه ورعاية ما قبله منه في المعهَدِ الأول وتنقض العهود في المرتبة السافلة.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ وحبسوا نفوسهم على حفظ ما قبلوا منه في النشأة الأولى ومبدأ الدورة العظمى والكبرى وما عداهما ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ والتجلي الذاتي ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في كل مرتبة ودورة على ما يناسبها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية ﴿سِرًّا﴾ بحسب التصرف والتأثير في النفوس القابلة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ باللسان والتقرير والبيان ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي شهود التجليات الأفعالية والأسمائية ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ والفعلة الطارئة والفترة العادية في المراتب والأدوار الماضية والآتية في الأدوار الباقية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: 22] هذا بيان الأعيان الكاملة التي يحملهم الله تعالى في جميع الأدوار والأكوار الإفرادية، وهم الأنبياء والأولياء العارفونَ باللّهِ بالنعوت الإفرادية والغرض من الميسر والسلوك في الكل بالجمعية الإلهية والكونية في الأدوار والأكوار الجمعية وجمعية الجمعية، وقد ذكر بعض صفاتهم وحالاتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرّعد: 25] هذا بيان حال من عدا الأعيان الكاملة وتحليلهم بين صفاتهم ونعوتهم، إشعار بأن حالَهُم في الدورة السابقة بالنسبة إلى الدورة اللاحقة، فإن من عداهم وغيرهم، فإن الأعيان الكاملة والناقصة يومًا فيومًا بل آنًا فآنًا متزايدة كما أشار النبي ﷺ: «**من استوى يوماه فهو مغبون**» فالذي بعدَ هذا هو الذي يظهر في الكورة الظلية والدورة النورية وجمعيتهما، إذ الاطمئنان إنما يكون لكمال الجمعية كما قال في حال إبراهيم الخليل حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: 260] إلخ.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾ يريد القرآنَ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ يريد قد مضت قبلها قرونٌ ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يريد بالقرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الرّعد: 30] يريد من حق الله واتخذوا بالرحمن كما قال في سورة

بني إسرائيل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وذلك أن رسولَ الله ﷺ كان في الحجر وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول: «**يا رحمن**»، فلما ذكره يذكر الله الرحمن ويدعو ويذكر الله فمالَ إلى المشركين فقال لهم: إن محمدًا نهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلٰهين، يدعو الله ويدعو الرحمٰن! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110] يريد أنه الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عن ما يشركونَ يريد عما يقولونَ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ رَبِّي﴾ يريد هو إلهي وسيدي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يريد لا إله غيري ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرّعد: 30].

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يريد وما أنزل القرآنَ على الجبال إلا سارت، ولا على الأرض إلا تحركت، ولا على الموتى إلا حَيوا وتكلموا، يريد لما آمنوا لما سبق عليهم من علمي ﴿بَل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يريد أمر الدنيا والآخرة ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يريد أفلم يعلم الذينَ آمنوا أي صدقوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يريد الهدى بعينه فلا أحد باللّهِ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ يريد عذابًا ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يريد أو بعضهم وذلك يوم بعد ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرّعد: 31] يريد يوم القيامة ويريد الثوابَ والعقابَ.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ يا محمد ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعزيه لذلك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد الإملاء والتمادي في تراضي ربهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرّعد: 32]

يريد كيف رأيتَ ما صنعتُ بمن استهزأ بي أو برسلي كذلك صنع بالوليد بن المغيرة والأسود بن عبد المطلب والعاص بن الوائل والأسود بن يغوث والحرب بن قيس ابن عدي.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ يريد نفسه تبارك وتعالى ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يريد المستهزئين والمقتسمين ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ [الرّعد: 33] يريد تخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يريد من قول منكم لم يعلم اللَّهَ أن له شريكًا ولا احتياج إلي وحدي ولا معين يا محمد ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يريد زين الشيطان لهم الكفر وصدهم عن سبيل الهدى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرّعد: 33] يريد من مرشد.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد الانتقام والقتل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرّعد: 34] يريد يقيهم من عذاب الله.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يريد الخائفين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ يريد الذين خافوا ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرّعد: 35] قال ابن عباس رضي الله عنه يقول: إن هذه الآية ليست لها تفسير ويحلف باللَّهِ إنما لو فسرت لما حملها جميع أهل العالمين.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد قومًا كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد ﷺ وهم ثمانون رجلًا أربعون بنجران من بني الحرب بن كعب واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية بالشام قبلَ أن يفتحَ صدقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام وآمنوا ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يريد من القرآن ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يريد الذينَ كذبوا النبي ﷺ ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ يريد أن أوحِّد الله ﴿وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ يريد إياه أدعو ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: 36] يريد وإليه أصير.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ يا محمد ﴿أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ يريد ما حكم من الفرائض في القرآنِ ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ يريد الذينَ كذبوا ﴿بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يريد من الهدى والبيان ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرّعد: 37] يريد يقيك من عذاب الله يريد مخاطبة لأصحاب النبي ﷺ وأما النبي ﷺ فهو معصوم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يريد أمر اللَّهِ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرّعد: 38] يريد مدة ينتهي إليها.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وذلك المشركون قالوا قد فرغ الله من كل ما كانَ فأنزل ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39] يريد اللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يريد من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يريد قبلَ ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ يريد بعدَ العذاب ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرّعد: 40] يريد إلى مصيرهم وإجازتهم بأعمالهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ يريد من دخل في الإسلام من بلاد الشرك وأهل الشرك ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ﴾ يريد لا رافض لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: 41] يريد سريع الانتقام.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد قبل قومك يريد نمرود حيث مكر بإبراهيم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: 42] يريد أبا جهل ومن قبله وسيعلم الكفار يريد المستهزئين المقتسمين وهم كثير المستهزؤون خمسة والمقتسمون ثمانية وعشرونَ.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝٤٣﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ يريدهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: 43] يريد علم جبرائيل عليه السلام كذلك.

أقول: كما أرسلنا الأنبياء إلى أمم ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ نزلت في صلح الحديبية وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن

يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ: «**لعلي أكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» قالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنونَ مسيلمة الكذاب كانَ كلما كتبَ يكتب باسمك اللهم هذا هوَ معنى قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرّعد: 30] والمعروف المشهور أن الآية مكية، أو سبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو بالحجر يدعو الله بالرحمن فرجع إلى المشركين وقال: إن محمدًا يدعو إلهين يدعو الله ويدعو الرحمن ولا نعرف الرحمنَ إلا رحمنَ اليمامة فنزلت ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110] قيل: نزلتَ في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «**اسجدوا للرحمن**» قالوا: وما الرحمن؟ قال لهم: «**إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾** [الرّعد: 30] **توبتي ومرجعي فيثيبني**».

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ نزلت في نفر من المشركين منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية جلسوا خلفَ الكعبة فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم فقال لهم عبد الله: إن سرك أن نتبعك، فسير جبال مكة بالقرآن فادنها عنا حتى تنفسح، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا مزارعَ فيها وأنهارًا لغرس الأشجار، ونزرع ونتخذ البساتين، فلست كما زعمت بأهونَ على ربكَ من داود حيث سخر له الجبال، أو سخر لنا الريح نركبها إلى الشام لمسيرتنا وحوائجنا، ونرجع في يومنا فقد سُخِّرت الريح لسليمان كما زعمت ولست بأهون على ربك منه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي فأذهب عن وجه الأرض أو سيقت الأرض فجعلت أنهارًا وعيونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية، وجوابه محذف لكان هذا القرآن وقال قومه جوابه مقدم أي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ لكفروا به ولم يؤمنوا كما تقدم، ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة بل لله الأمر جميعًا في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

قيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: تسيِّر بقراءتك الجبال عن مكة من مقارها وتزعزعت عن مضاجعها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ حتى ينصدع ويتزايل قطعًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرّعد: 31] فيسمع ويجيب لكان هذا القرآن لملكوته عامة التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21] على معنيين:

أحدهما: بل للهِ القدرة على كل شيء وهو قادر على الآيات التي اقترحوها

إلا أن علمَهُ بأن في إظهارها مفسدة بصرفه.

والثاني: يريد اللَّهِ أن يلجئهم إلى الإيمان وهو قادر على أن الإلجاء أريد به أمر التكليف على الاختيار ويعضده قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ يعني مشيئة الإلجاء والقسر ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ومعنى اليأس أفلم يعلم قيل هي لغة قوم من النجع لتضمنه معنى العلم لا اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف والنسيان في معنى الترك لتضمنه ذلك يدل عليه أن عليًّا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرأوا: أفلم يتبين، وهو تفسير: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ ويجوز أن يتعلق ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ﴾ [الرّعد: 31] بآمنوا على معنى أو لم تعط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذينَ آمنوا بأن ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم﴾ ويمسهم ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾ أي بسبب صنعهم وجهة عملهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية قالعة وعالية شامقةً.

قال النبي ﷺ: «**إنما هي أعمالكم ترد عليكم**». ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنتَ يا محمد وتنزل بنفسك وبمن معك زمانًا ومكانًا ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو يحل وينزل القارعة بهم إلى كونها قريبًا من سائر القوارع أو في كل الأوقات يقرب بعضها بعضًا من صنوف البلايا وصنوف المصائب والعنايا في نفوسهم وأولادهم وذراريهم وأموالهم وإهلاكهم فيقرعون ويستأصلون ويعمقون ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة أو الموت أو فتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرّعد: 31] والوعد لامتناع الكذب على كلامه وكانَ الكفار يسألون النبي ﷺ عن هذه الأمور استهزاءً وسخريةً.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لتسلية الرسول وتثبيت لقلبه واستطابة لنفسه واستقامة لسر غيبه ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأمهلتهم وأطلت مدتهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ وعاقبتهم في الدنيا بما ذكروا في الآخرة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرّعد: 32] وحلّ عليهم العذاب.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشرّ، احتجاج عليهم في إشراكهم باللَّهِ يعني أفالله الذي ﴿هُوَ قَآئِمٌ﴾ رقيب ولازم قريبٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ صالحة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ويعلم خيره وشره وبعد لكلٍّ جزاءه كمن ليسَ كذلك من الإلهية الباطلة والأرباب العاطلة، ويجوز أن يقدّرَ ما يقع خبرًا للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا هو تمثيله أفمن هو بهذه الصفة ثم يوجد ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ أنه أعاد [له

أي لله] الذي يستحق العبادة وحده ﴿شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ أي جعلتم له شركاء ومن هو يقسم على هؤلاء شركاء لا يستحقون العبادة ولا الشركَ لكونها أضعف الأشياء لأنها منحوتة مصنوعة.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه لا يعلم لنفسه شريكًا ولا في الأرض إلٰهًا غيره أم المنقطعة كقولك للرجل: كل ما بي من زيد، أم هو أقل من أن يعرف ومعنى ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ تخبرونه عن شركاء لا يعلمهم في الأرض، وإنما ذكر الأرض لأنها محل الإشراك والبغضة دون السماء، وبحال أن هذا العالَم بما في السماوات والأرضَ لم يعلم له شريكًا في الأرض ولو كانَ له شريك في الأرض لكانَ معلومًا. والمراد نفي الشركاء مطلقًا بأمر يكون مسلمًا عنده وهم يعرفونَ به ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ أي إشراككم ليس بأمر له حقيقة في نفس الأمر إذ لو كانَ لكانَ معلومًا له ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ بل هو ظاهر القول والتسمية باسم دالٍّ عليه من غير أن يكونَ لذلك حقيقة ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: 40]، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ وتلبيسهم على وجه يقبله الوهم المموه والفهم المزخرف المفوه ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي سبيل الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرّعد: 33].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من القتل والأسر وسبي الذراري والحرية وأنواع الإهانة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لجلوده وشدة تأثيره أحرق وحدة تكريره أخرق ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرّعد: 34] حافظ وناصرٌ.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ مبتدأ خبره (يجري) أو الخبر محذوف أقيمَ الصفة مقامه أي مثل تلك الجنة جنة تجري ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي ثمرات أشجارها ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ ظلًا أي ﴿تِلْكَ﴾ الجنة الموصوفة ومثلها وشكلها وصورتها هي ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ﴾ عاقبة أمرهم ونهاية حالهم وغاية صبرهم على الشدائد ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرّعد: 35] والسعير ودار البوار، وضمير ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ عائد إلى الجنة وإلى أشجارها إشارة إلى أن حقيقة الجنة إنما هيَ قائمة بذات اللّهِ لا يصل إليها إلا الأنبياء الكاملون المرسلونَ والأولياء الواصلونَ ولها ظلال وفي المراتب لها مثل، وهو عقبى الذينَ اتقوا من العلماء والحكماء والزهاد والعباد والصالحين في كل البلاد.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فذا أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وأصحابهما، ومن النصارى ثمانونَ رجلًا وقد تقدم ذكرهم فهؤلاء ﴿يَفْرَحُونَ﴾ ويسرونَ ويبتهجون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ والزبور والإنجيل والكتب السماوية، ومن المكذبين الذينَ ضربوا رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ لعدم موافقته لما عندهم من التورية فإن ذكر اسم الرحمن كان فيها كثيرًا فلما ذكره في القرآن أيضًا فرحوا به واطمأنت قلوب الذينَ أسلموا منهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ﴾ شيئًا ﴿بِهِۦٓ﴾ من الأملاك والجواهر والجماد والحيوان والإنسان وأجزاء الأفلاك ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرّعد: 36] في الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إنزال التوراة ﴿أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ كتابًا ﴿عَرَبِيًّا﴾ فيه أحكام شرعية توافق لما في التوراة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ودواعيهم وآراءهم ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والكتاب الذي هو مجمع كل علم ومنبع إدراكات وحكم والتجأت في المقاصد والمطالب والنجاة في المراصد والمآدب ﴿مَا لَكَ﴾ في هذه الحالة لو أنزل من السماء عذاب ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرّعد: 37] ورفعت محافظ منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نزلت حين قالت النصارى: إن الرسلَ لا ينكحون ولا يأكلونَ المصبوغ والمطبوخ من الطعام كعيسى، فإنه كانَ مجردًا لا يأكل شيئًا مطبوخًا من النبات ومن الحيوان لما اشتهر أنه كانَ لا يأكل إلا الباقلاء النيء ولا يلبس من المنسوج، فرد عليهم بأن الامتناع والاستنكاف مما ذكر كليًّا عامًّا لما أكل آدم ونكح وسائر الأنبياء كشيث وإدريس ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وزكريا وغير ذلك ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ وعلامة وحكم وأمر ونهي ولا يخبر عن إدراك وعلم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 38] وأمره وحكمه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: 3 - 5]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي أمر مؤجل ومؤقت معين وشيء مبين ﴿كِتَابٌ﴾ [الرّعد: 38] ووقت وحكمة ومن الزمان برهة إذا نزل ذلك الكتاب ظهر ما كانَ مرهونًا به لأمور مرهونة.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الموجودات وأعيان الكائنات في وقت اقتضاه ونزول كتاب ارتضاه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ لدى حضور وقت أراد الله حصول الأمر فيه

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: 39] واللوح المحفوظ الذي كتب جميع الكتب بأحوالها وأوقاتها ونهايتها وعللها وشرائطها وغير ذلك. وفي بعض الآثار: أن الرجل قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمًا فيرد إلى ثلاثة أيام، وإن رجلًا بقي من عمره ثلاثة أيام فَيصِلُ فيمد ثلاثين. قال النبي ﷺ: «**ينزل الله تعالى في آخر ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهنَّ في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت**». قيل: إن الحفظة يكتبونَ جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليسَ فيه ثواب ولا عقاب من الأفعال المباحة والأقوال المرضية ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، قيلَ يثبت ضوء الشمس ويمحو نور القمر ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: 12].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نظهرنك ونجعل الأمرَ ﴿ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ إياه في الدنيا مبصرًا ومرئيًّا وكيف ما دارت الحال أريناك مضادهم، وجعلناه عندَ حلول العذابِ مرئيًّا قبلَ ذلكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا﴾ لا عليك ﴿ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرّعد: 40] أي حسابهم وثوابهم وعقابهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ويتأملوا في أحوالهم ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي أرض الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ ونفتح على المسلمين من بلادهم فننقص من دار الكفر ونزيد في دار الإسلام، وذلك من آيات النصرة وعلامات الظفر والفرحة ومن تباشير الغلبة عليهم وحلول الغصة لديهم ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ عليهم بالاستهلاك والاستئصال ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ ولا مؤخر ولا دافع ﴿لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ ولا رادَّ لأمره ولا عائدًا لأطوار خيره ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرّعد: 41].

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الكفار مع الأنبياء ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: 42] عاقبة الدار وعاقبتها في الآخرة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرّعد: 43] أي كتاب العلم أو اللوح المحفوظ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. قال النبي ﷺ: «**من قرأ سورة الرعدَ أعطي من الأجر عشر حسنات على وزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبُعث يوم القيامة منَ الموفين بعهد الله**».

إشارةٌ وتأويلٌ

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرّعد: 30] إلخ، إشارة إلى أن كل دورة من الأدوار الإفرادية وكورة من الأكوار الوحدانية الأصلية والفرعية الاستقلالية والتبعية والجمعية الإفرادية وجمعية الجمعية إلى ثمان وأربعين دورة وكورة قد أرسلَ الله فيها رسلًا تترى وأنزل كتابًا وصحفًا متطابقة ومتماثلة ومتوافقة في الحقيقية والنوعية لا الشخصية، وإلا لما توردت الكمالات ولا الأدوار والظهورات وما يلزمها من الأفلاك والحركات، وما يترتب عليها من الدنيا والآخرة ولا الحالات والمقامات ولا الساعات والقيامات وما يتفرع عليها من الميزان والصراط والسعير والجنات ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ في بداية الدورة العظمى النورية الجمالية بالنبوة الذاتية ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي الأعيان الظلية الضمنية التي من شأنها الكفر والستر ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو من مقتضيات النور والوجود والجمال ويقيد الوجوه الظلية الممتد على القابليات الثابتة، ﴿قُلْ﴾ يا حقيقة ﴿هُوَ﴾ أي الهوية الغيبية التي يشار إليها كقوله قل هو الله أحد الله الصمد أي الذات الظاهرة بالتجلي الذاتي في منفتح الدورة العظمى الإلهية التي هي موطن الشؤونات الذاتية التي هي شهود الذات بالوجوه الذاتية والمعنونات الأولية ﴿رَبِّى﴾ ومربّي ومعبودي وشاهدي وشهودي، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في تمام الأدوار وعموم الأكوان الإفرادية والجمعية الإفرادية وجمعية الجمعية، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والأمور كلها إليه توضحت ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرّعد: 30] في السر إلى الله ومن الله في الترقيات والتنزلات.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرّعد: 31] أي الأعيان العالية والسماوات القبلية والملكية والروحية والبرزخية والملكية ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ الاستعدادية وجعلت حصصًا ليتخصص الأعيان والأكوان الظلية ويتشخص ويمتاز بعضها عن بعض ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرّعد: 31] أي جعلت الأموات الطبيعية متكلمةٌ بالقرآن والكلام الإلهي الذي هو آخر الصفات الذاتية ومجمعها الكفر والكفار الظلية والأكوان الودية الجلالية الضمنية بما آمن به الأعيان النورية الجمالية الوجودية في الأدوار الإفرادية.

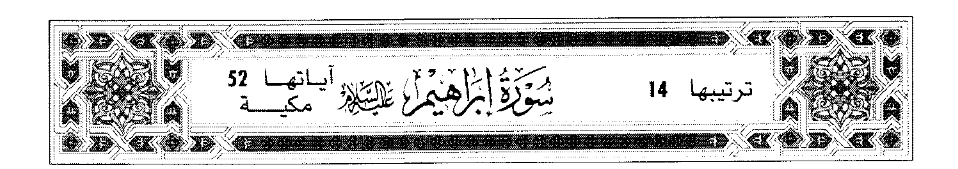
فالمقررات إيمان أعيان النور والجمال يغاير إيمان الظل والعدم والجلال لتغاير مقتضاهما وتباين مرتضاها عند الإفراد لأن اقتضاء النور والجمال والوجود وهو الظهور والحضور وارتضاء العدم والجلال هو الخفاء والضمور، وأما عندَ اجتماعِها ودخول الظل والجلال يجب حكم النور والجمال وازدادوا فبهما ظهر حكم الوحدة الجمعية والهيئة الكلية فحينئذٍ يكون الإيمان إيمان الجمعي الذي يكون كل منهما عين الآخر كالمراح المركب من العناصر الأربعة التي كل منها فيه عين الآخر فالإيمان في الحقيقة صار النفي الذي هو إيمان الظل والعدم والجلال عين الإثبات والإثبات عين النفي فيتحقق التحقق التوحيد وصار الإيمان كفرًا والكفر إيمانًا أي لا إله إلا الله ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرّعد: 31] أي أمر الوجود والعدم، والنور والجمال، والضمور والإيمان والكفر، والخير والشر، والنفع والضر، هو الله الجامع لتمام الأسماء والصفات.

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ الأربعة التي هي مقتضى الأسماء الأربعة التي هي أرباب الأدوار ومربى الأكوار ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾ أي مقتضى هذه الأسماء وثمراتها وهي تجلياتها المخصوصة والعلم لها والعلم بالعلم بها وهكذا تتضاعف التجليات والعلم بها، فإن التجلي الواحد كالعرض الواجد يتجدد بتجدد الأمثال فتتضاعف إلى عين النهاية، وكذا العلم به فإنه أيضًا يتضاعف التجلي من غير أن يقف إلى أحدها ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ أي ظل الجنة وأمثالها المتجدد شيئًا بعد شيء وآنًا بعد آن، أو ظل الشجرة الذي يتجدّد بتجدُّد الشجرة وتجدُّد أعيان الأمثال فتضاعف إلى غير النهاية المحسوبة بقهر بصور الأمثال وأظلالها المحسوسة مثل الجنة مبتدأ ﴿أُكُلُهَا﴾ مع خبره خبر بعد خبر ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ عطف على (أكلها) أي وظل الجنة، أو ظل الأشجار، أو ظل الأكل والأثمار، دائم وثابت لازم، إشارة إلى الأعيان الإلهية بحسب المراتب والأدوار، وجودات أصلية فرعية ظلية، أما الجنة الإلهية وهي صورة جمعية الذات والصفات السبعة الذاتية في المرتبة الإلهية والواجدية وعالم الجبروت وجود أصلي حقيقي، وفي الملكوت والبرزخ وعالم الملك أيضًا لها وجودات ظلية ويقينات مثلية، وبكل نوع منها أعيان مخصوصة وأكوان منصوصة.

﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ [الرّعد: 35] نفوسهم وأجسامهم عن اللذات

الجسمانية والنفسانية هي الجنة الصورية البهية ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133] وللعباد الذينَ أذابوا نحاس نفوسهم في كور الرياضيات ودبروها بالتدبيرات الصائبة، وأنقوا قلوبهم عن التوحيد بغير اللّهِ هي الجنة المعنوية، وهي جنة العلم والإدراكات المتمثلة بالصور اللطيفة البرزخية والمثل النورية والأشباح الخيالية المتخيلة، وأما جنة أهل الذوق وأصحاب التجليات الذين جعلوا قلوبَهُمْ صافية عن صور الأغيار ونقوش الآثار فازوا بالدخول في جنات التجليات ودرجات المشاهدات فشاهدوا الوجه الإلهي والجمال الغير المتناهي بصور عالم الآثار أولًا، ثم بصور الأفعال والتكوين والإبداع والتدوين والاختراع، ثم بصور الأسماء والصفات الذاتية ثم بالتجلي الذاتي والتجلي الجمعي بين التجليات والذات والأسماء والصفات، وهذه الجنة أصل وباقي الجنات أمثال وأشباه وأظلال لا يقبل الشرح والتفسير والبيان كما أشارَ إليه ابن عباس، والباقي ظاهِرٌ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورةَ إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبَدَ الأصنامَ ومن يعبدها**». حدثنا محمد بن أبي الأصبغ قال: حدثنا بكر بن سهل الدمناهي قال: حدثنا عبد الغني بن السعيد الثقفي عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني عن بن جريج عن عطاء عن ابن عباس وعن موسى بن عبد الرحمن عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾

﴿الٓرۚ﴾ يريد أن الله الرحمن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يريد قرآنًا أنزلناه يا محمد ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ يريد أهل مكة ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يريد من الشرك إلى الإيمان ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ يعني بقضاء ربهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1] يريد إلى خدمة الله.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يريد لا يملكها وما فيها غيره ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 2] يريد واديًا في جهنَّم يقال له ويلٌ

فيهِ عقاب كالبخت وألوان من العذاب لا يوصف.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3] يريد يؤثرون الدنيا على الآخرة يريد ما يعجل لهم من الدنيا، وإن كان حرامًا أخذوه وتهاونوا بأمر الآخرة واستبدلوها مثل قوله تعالى في ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: 1]: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: 27] وراء إمامهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يريد عن طاعة الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريد ما لم يأمرهم الله به ويستعجلون ما حرم الله عليهم مما أوجب عليه النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ [إبراهيم: 3] يريد في خبر أن كثيرًا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ يريد وأرسلناك بلسان عربي مبين يريد سعد بن بكر هوازن وهو أفصح العرب وهو لغة شبهها جميع العرب ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ يريد ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4] يريد العزيز في حكمة ملك الحكم في مجلسه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الشرك إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ يريد بنعم اللَّهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: 5] يريد لكل صبار على أعداء الله وعن معاصي الله شكور بالنعم للَّهِ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يريد يعذبونكم أشد العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يريد إذا ولدت امرأة غلامًا ذبحه، وإذا ولدت جارية استحياها، وكانت الحوامل عند باب والقوابل يعدون عليهن وبر حسن وعده رجال، قد سهوا لو سلطهم وجعلوا فيها السكاكين التي يذبحونَ بها الولدَ، وكلما ولد غلام ذبحَ وكانَ ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: 6] يريد أن ابتلاهم بطاعته وكفرهم باللَّهِ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ وإذ قسم ربكم وإذ ختم ربكم مآلًا بعزته وقوته ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية 7].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] يريد لا ينقص كفرهم من ملكوت الأشياء، ولا يزيد طاعتكم لله ملكًا، والله غني عن خلقه حميد إلى أوليائه وأهل طاعته.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يريد لم يبلغكم ﴿نَبَأُ﴾ يريد خبر [إبراهيم: 9] ﴿الَّذِينَ مِن

﴿قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ لكثرتهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يريد كما جئتكم، إما العصا واليد والبحر والجراد والقمل والضفادع والدم ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9] يريد لمثل ما قال في سورة آل عمران: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 9] يريد بل كذبوا رسلهم يريد رسل ربهم وعصوا أمره كما قال في سورة هود: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [الآية: 59] يريد معاند الإيمان إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28] إلى قوله إلى النار: بسم اللّهِ إبراهيم خليله في بحار حليه وحصاد محبته ليهتدي عباده من الظلمات إلى نور الرحمن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39] في الغيبة والحضور حالة الغم والهم والبهجة والسرور، والرحيم ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48] يوم الحشر والنشور.

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أقول: هذا كتاب من اللّهِ وقرآن ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الكفر والضلال والشِّرك ﴿إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1] والإيمان وإلٰهياته وكمال الإيقان وقوة الأمان، وإنما جمع الظلمات إشعارًا بأن مواقع الإيمان ومقتضيات الضلال وأسباب ظلمات العصيان كثيرة، وأن طريق الحق وإن رفيق السلوك إلى الحق وهو المرشد الهادي والممد المبادي إليه من الأنبياء والأولياء والحكماءِ الإلهية ألا يكون إلا واحدًا، لأنه المتحقق بأخلاق الحق والمتصف بصفات كماله، والحق واحد، فلا بدّ أن يكونَ المتحقق به واحدًا وطريقه واحدًا ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153] وأظهر النور إظهارًا لهذا الشرَّ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[إبراهيم: 1] صراط به النور بتكرير العامل، أو استئناف على أنه جواب لمن يسأل عنه، أي نور فقيلَ: إلى صراطِ اللّهِ العزيز، وإضافته إلى اللّهِ إما لأنه مقصوده أو مظهره ومنبئه ومرشده، ومخصص الوصف من التنبيه على أنه لا يذل سالكه ولا يغل ولا يذم مالكه.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إنما ظل اسم الذات بين الصفتين للإشعار بأن حق سائر طريق الحق ووظيفته سالكة أن يجعل الحق نصب عين بصيرته، وأن يتطرق مما عداه وينحرف عما سواه إلى حقيقة كلية جمعها في وسط قلبه ومركز محيط عيبه ملحوظة لفؤاده وسره ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المختصة بالكافرينَ السائرينَ للحق المنحرفين عن الوسط للحق إلى الطرفين أي الإفراط والتفريط أو أهل الكتاب الذينَ توغلوا في النقلة والتقيد والتقييد والمشركين الذينَ انغمسوا في الضلال والغباوة والكسالة، وكلاهما في النار والجحيم يذوقان ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[إبراهيم: 2] بالنار التي من شأنها تفريق المخالفات وجمع المتماثلات لنخرج في الآخرة في العقبى والآخرة عن ظلمات الطبيعة وغياهب مقتضى الغضب والشهوة القبيحة والشنيعة إلى عالم النور الذي هو شبح الكل ووطنه الأصلي. قال النبي ﷺ: «**حب الوطن من الإيمان**».

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي هي الظلمات وشهواتها ولذاتها الفانية وحطاماتها الفانية ويؤثرونها ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ونعيمها ولم يبالوا بالسعير وجحيمها ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ العباد في كل البلاد ويمنعونهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الشريعة والطريقة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: 3] نيفًا واعوجاجًا وانحرافًا وإزعاجًا يتوفى لهم بحذف الجار أو أصلِ الفعل إلى الضمير، ويطلبونَ ويؤثرونَ الزيغ والاعوجاجَ ليصدونهم عن اللّهِ وعبادته وطاعته ومعرفته، والاستحباب هو الإيثار والاختيار الموصول بصلته يحتمل الجر ليكونَ صفة للكافرينَ والنصب على الذم والرفع، أما على الذم أو على أنه مبتدأ (أولئك) فإنما آثر المستقبلَ في المحبة إيماء إلى أنهم كانوا يطلبونَ المحبة من نفوسهم في الاعوجاج بأن تكون مستندة إلى دليل عقلي أو برهان نقلي. قرأ الحسن بضم الياء وكسر الصاد من الأفعالِ يقال: ليصده عن كذا، واصدد، والهمزة دخلت على صد لينقله من غير المتعدي أو المتعدى. وأما صد بمعنى منعَ لا يحتاج إلى الهمزة إلا أن يجعل متضمنًا المعنى الضرورة أي صادوا إذا منعَ عن السبيل الحق والسعادة الأخيرة بعدًا عظيمًا وسدًا عميمًا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4] أي فقه قومه الذي هوَ منهم وبعث فيهم.

واعلم أن الغرضَ من بعثة الأنبياء عليهم السلام إنما بعث أولًا على قومهم وعلى أمتهم التي يعرفونَ لسانهم ويفهمونَ بيانهم لتنتقل دعوتهم من قومهم إلى غيرهم ليبين أولًا ويظهرهم بأمرهم به ليتفهموا عنه ما يدعوهم إليه فلو كان من غير لسان قومهِ لفعلوا ما يفهموا كلامكَ ولا يعلم مقصودكَ ولا مرامك كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: 44]، وأيضًا إشعار بأن كل منهم ـ عدا خاتم النبيين ـ مختص باسم خاص وزمان خاص، فإذًا لا بدّ أن تكونَ دعوته أيضًا مخصوصة بقوم مخصوصين وزمان مخصوص، وأما خاتم النبوة لما كانَ مجمع الأسماء الإلهية والكونية وزمانه كان آخر زمان النبوة ونبوته وكتابه كانَ متضمنًا لتمام النبوات والكتب المنزلة كانت دعوته عامةً لجميع الناس ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبإ: 28]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ لأن اللّهِ لا يعلم مضل إلا منه ولا يُعلَمُ من لا يؤمن ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي لا يهدي ولا يعلم من لا يؤمن إلا هو، فالمراد بالإضلال التخيلة ومنعُ الألطاف وبالهداية التوفيق واللطف فكانَ ذلك كناية عن الكفر والإيمان هذا خلاصة كلام المفصل صاحب الكشاف في هذا المقام، وأنتَ خبير بأن الإيمانَ في نفسه وكذا عدم الإيمان في نفسه ممكن، والعبد أيضًا ممكن، فالإيمان والكفر لا يقعان بنفسهما إلا بنفس العبد لأنه نسبة يعني إليهما من حيث إنها قابلة لهما على السواء، فلا بدّ من مخصص ومرجح وموجهٍ وخالق يخلق أيها شاء في نفس العبد في أي وقت شاء وبأي كيفية أراد لأحدهما، وليس ذلك المخصص إلا واجب الوجود المريد المختار ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي القاهر الغالب والله غالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4] الحاكم الذي يحكم على عباده كيف يشاء إما بالإيمان أو بالكفر، أو العليم الذي يعلم صلاحية حالهم وكيفية مآلهم بأن الأصلح لهم إما الهداية أو الضلالة، فيحكم على مقتضى الأصلح وإما الإيمان والهداية أو الكفر والضلال والغواية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي اليد والعصا وفلق البحر وغير ذلك ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ والإرسال فيه معنى القول و(أن) إما للتفسير، أي قلنا لهم،

ففسر القول وهو اخرج أمر، ويجوز أن يكون للناصبة التي يؤول العقل أمرًا كان أو غيره، والذي يدل على أولوية الناصبة ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5] أي خوفهم وأنذرهم بأيام الله، ولوقائعها وبالبلاء التي وقعت على الأمم الدارجة والأقوام الهازجة، وأعلمهم وثبتهم بأيام النعم التي أنعم الله وأسبغها عليكم ظاهرة وباطنة، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذكر والتذكير والإرسال ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ وعلاماتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5] يصبر على بلائه ويشكر على نعمائه وآلائه وفي صيغة المبالغة إشعار بكثرة نعم اللّهِ ووفور بلائه وما بهما أصل الإيمان بل هما الإيمان. قال النبي ﷺ: «**الإيمان نصفان نصف في الصبر ونصف في الشكر**». قيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ اذكروا نعمَ اللّهِ وقت إيجابه إياكم يجوز أن ينتصب بعليكم إن جعلت ظرفًا مستقرة غير صلة النعمة، وذلك إذا أريدَ بهَا العطية دون الأنعام وإذا كانت بمعنى الإنعام فلا يعمل، والفرق إنك إذا قلتَ: نعمة الله عليكم، فإذا جعلت صلة لم يكن كلامًا حتى يقول: إنه فائض أو نازل أو إلهام أو وارد أو غير ذلك، وإلا يكون كلامًا. ويجوز أن يكونَ بدلًا من نعمة اللّهِ أي اذكروا وقت إنجائكم بدل الاشتمال ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ إنما ذكر في سورة البقرة بلا واو لكونه مفسرًا للعذاب وبيانًا له، وذكر الواو إشعار بأن التذبيح أمر زائد على جنس العذاب كان جنس آخر أشد من سائر أجناس العذاب كما قيلَ: النار والعار ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: 6] وإذا كانت الإشارة إلى الإنجاء بأن البلاءَ هي النعمة لأنها ابتلاء بالنعمة والمحنة والنقمة ونبلوكم بالشر والخير فتنة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي أذن لكم ربكم، نظيره تواعد وأوعد، وتفضل وأفضل. وفي تعقل معنى ليس في أفعل، أي أذن ربكم إيذانًا لطيفًا زايدًا ينتفي عنده الشكوك ويختفي دونه الشبه والعقول ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] يريد كمًّا ومديدٌ كيفًا همًّا وغمًّا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ [إبراهيم: 8] عن

إيمانكم وَكفركم وعن طاعاتكم وعصيانكم «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب عبد بار لما زادَ في ملكي شيء، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على قلب عبد فاجر لما نقص من ملكي شيء**».

﴿حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] مستحق للحمد على وجه الأتم الأكمل الأعم ويستغرق جميع الحامدينَ لأن الله خالقه وموجده.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ من جملة كلام موسى وقوله: أو كلام مستأنف من اللّهِ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ودًّا ونسبًا ومددًا وحسبًا. عن ابن عباس رضي الله عنه: أن بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يعرفون.

وكانَ ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: «النسابونَ الذين يدعونَ علم الأنساب سيما قبل نوح، فإن العلمَ بمن تقدم على نوح إلى آدم متغير جدًّا بل متعذر وقد نفى الله علمهم عن العباد». ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والدلالات الواضحات والإمارات المظهرات ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9] فعضوها غيظًا وتضجرا مما جاءت به الرسل لقوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عِمرَان: 119] أو ضحكًا واستهزاءً وضعوا عند غلبة الضحك يدهم على فمهم ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ فلم تنفع دعوتكم لنا ولم يقع في حيز الإصابة عندنا فأعرضوا عنا ولم يشوشوا الحالَ علينا.

قيل: الأيدي جمع يد وهي النعمة أي ردوا أنعم الأنبياء التي هي من أجلّ النعم وهي النصيحة والموعظة والإرشاد والدعوة إلى الله ولما أوحي إليهم من الشرائع وَالأحكام الإلهية ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 9] موقع في الريب والشكّ وإظهار البغض وإفشاء العيب.

إشارة وتأويل

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ إلى آخره وإنما ذكر الكتاب في كل (الٓم) أو (الٓمر) إشعارًا بأن في جميع الأدوار والأكوار الأربعة الإفرادية والجمعية قد بعث الله الأنبياء فيها، وأنزل عليهم الكتب، ووقع الشرائع، وأمرهم أن يدعو الخلق إلى الحق، وبالإيمان به وبتوحيده وبقبول أحكامه، وقد عرفت سائر

النكات والأسرار في سورة يوسف ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي الأعيان النورية الجمالية الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية الاستقلالية والتبعية ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [إبراهيم: 1] الظلية الجلالية الإجمالية المنسوبة إلى المولود الجني الذي هو في ضمن المولود الإنسي فإن كل عين مشتمل على مولودين: إنسي منسوب إلى النور والجمال بالوجود، ومولود جني هو مربوب الظل والجلال والعدم، فإن كانَ حكم فرداريّة التعبير للنور والجمال كان اقتضاء المولود الإنسي ظاهر، والمولود الجني شيطانك يوسوس في صدركَ ويخالفُ حكم المولود الإنسي ضمنًا خفيًّا، إلا إذا أقرّك حكم العناية الإلهية فإنه يدخله في حكم المولود الإنسي ويطبقه كما أشار إليه النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا وله قرين من الجن، قالوا: وإياك يا رسولَ الله؟ قال: وإيايَ إلا أن الله عز وجل أعانني عليه فلا يأمرني إلا بالخير**».

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ وأمر وحكم عليكم يا بني إسرائيلَ قوى النفسانية والغلبة والتنزيه بأحكام الجمال والنور والظل والجلالِ يشكر نعمه الظاهرة والباطنة والتجليات الإلهية الذاتية والصفات الأفعالية والآثارية ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي علمتم هذه التجليات التي تركتموها وَشرفكم بها آنًا فآنًا في الآفاق والأنفس، لأزيدنكم من أنواع التجليات والعلم بها، والعلم بالعلم متضاعفة إلى غير النهاية، فإن التجلي الواحد متضمن تجليات غير متناهية بتجدد الأمثال مثل العرض الواحد الذي يتجدد بتجدد الأمثال، بل الممكنات كلها، فإن كلًّا من حيث هو ممكن يحتاج في كل آنٍ وساعة وزمان إلى مرجح يرجح وجوده على عدمه، ويحصل له وجود غير الوجود السابق، وكذا تتضاعف الموجودات وتتعاطف الظهورات على ذات الممكن وماهيته، فالعارف بأطوار الوجود وتضاعفه يحصل له من اللّهِ كل حين يعلم وجوده، ويتعلق بكل علم، ويعلم أن العلم علم من غير إدراك إلى غير نهاية والإحاطة بهذه العلوم والإدراكات، نعم وكرم من الله تعالى وإن كانت شكرًا والنعمة الواحدة تتضمن نعمًا غير متناهية وشكرًا غير متناه ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] ونعمهم نعم الله المذكورة ولم تؤدوا شكرها على هذا الوجه إن عذابي لشديد، وهو التحسر والندامة، وهو التأسف واللوم والملامة التي يخلق الله في نفوسهم، وهم يتعذبون بها عذابًا شديدًا، وينتقمون

انتقامًا، ويعاقبون عقابًا عنيدًا، والثاني معلوم بالتأمل الصحيح.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أفي خلق اللَّهِ السماوات والأرض شكّ ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ يريد يدعوكم إلى طاعته ويمتعكم في الدنيا في النعم والصورة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يريد الموت ثم يثيبكم بالجنة ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يريد ما يشاء لحمًا ودمًا ويدًا ورجلًا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يريد تردونا عن عادة آباءنا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10] يريد بحجة بينة.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مركب من لحم ودم ونأكل ونشرب ونلبس ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يريد يعطي النبوة والدين من يحب ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ يريد بحجة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في ذلك ويقضي حفظه له ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11].

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ يريد دينه الواضحَ المستقيم ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ يريد على ما تفعلون بنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12] يريد المتصدقين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ يريد في ديننا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يريد النبيين ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: 13] يريد المشركين.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ أي أرض الجنة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أرض الجنة ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي خاف مقامه بين يدي ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14] يريد ما أوعدت أعدائي.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ يريد دعوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15] يريد أبا جهل والنضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار والأسود بن عبد الأسد وزمعة بن الأسود والعاصم بن هشام مثل قوله تعالى في الأنفال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ﴾ يريد إن تدعو فقد أجبت دعاؤكم ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ﴾ يريد كثرتكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19] ولأن أبا جهل قال يومًا: ما محمد وأصحابه إلا كآكلة جزور، فقال: «**اللهم أقبل قطعنا الرحم وإنا لا نعرف**».

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16] القيح والدم يخرج من فروج الزنا.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يريد تجرعه بالكره ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: 17] يريد من كل معرة في جسده ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن

﴿وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17] يريد أمامه يوم القيامة وهو الذي وصفه من ساعة الموت، فإنه يموت إلى النفخة الأولى وذلك قوله تعالى في سورة يٓس بعد النفخة الأولى وفي الثانية: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾ يقول الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الآية: 52].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يريد جحدوا قدرة ربهم وثوابه وعذابه وانتقامه وعقابه ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ﴾ [إبراهيم: 18] يريد إنها نسفته فلم يبق شيئًا منه كذلك عمل الكافر الذي يريد بعمله وجه اللَّهِ لا يقبله لأنه أشرك باللَّهِ وكذب نبيه ولو وحد اللَّهَ وكذب نبيه لم يقبل الله توحيده ولو صدق نبيه ووحد اللَّهَ، وقال كما قال عنه آمنت باللَّهِ وآمنت بما جاء به محمد إلا النجم فإني أكفر بها فأنزل الله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: 17، 18] ثم دعا عليه رسول اللَّهِ ﷺ وهو خارج إلى الشام: «**فقال اللهم سلِّط عليه كلبك أسد الفاجرة**»، فلما انتهى إلى الشام بلغه عن غير نفاق وهو لا يدري أين الفاجرة فتوجه إلى مصر حتى نزل القاهرة فجعل الأهل والرفقة يحرسونه حتى يفتح فجعلوا حوله المتاع والرجال خلفه المتاع بالسيوف والإبل خلف ذلك فأتى السبع فلما دنى من الرفقة وثَبَ حتى وقعَ عليه فشق جوفه ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد لا تجدوا ثواب ما عملوا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18] يريد الخسرانَ الكبيرَ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ يريد ليسَ فيها شيء مِنَ الباطل إنما الباطل من الشيطان ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19] يريد أنسكم يا معشرَ الكفار وأخرج من أصلابكم من يعبدني ولا يشرك بي شيئًا ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10] أقول: دخول الهمزة الإنكارية على الظرف إشعار بأن الإنكار إنما هو في المشكوك فيه لا الشكّ لوقوعه إلا أنه لقيام البرهان الكشفي وإلزام البيان العقلي وإلزامه البيان النقلي ارتفع الشكّ عن المدخول فيه وانقطع الريب في الأول عنه وارتفع أصل الشرك في ذاته تعالى وصفاته ونعته ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نفي الشكّ في فاطريته لما تقرر أن الكلام المنفي إذا كانَ فيه قيد وصفي ووصف عرفي أو شرعي تعلق النفي وَالإنكار إلى ذلك والقيد والوصف والموصوف به يدعوكم في الحالة التي يناديكم ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان لوجوده وذاته وصفاته وبتوحيده ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يستر ذنوبكم الصادرة عنكم في أوان الكفر وزمان العصيان والخسر، ومن جعله للتبعيض قال بالتفرقة بين الخطابين بالمؤمنين والكافرينَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10] إلى قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: 12] قيل: المراد يغفر لهم ما بينهم وبين اللَّهِ بخلاف ما بينهم وبين العباد من الظلم والمظالم ونحوها من الحقوق ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت قد سمّى مقداره وقدر امتداده إلى غاية محدودة ونهاية معهودة.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الصورة وما يلزمها من الحلات البشرية والهيئات البدنية لا فضلَ لكم علينا ولا فضل بينكم وبيننا فلم يختصون بالنبوة ويتفوقونَ علينا دوننا ولو أرسلَ اللَّهُ إلى البشر رسولًا لجعلهم من جنس أفضل منهم ليستحق التفضيلَ ويتحقق التفوق وهم الملائكة وما إن علموا التفضل في الجامعية التي هي أمانة الإله عرضها على السماوات والأرض والملائكة فما حملوها بل حملها الإنسان، ولذا استحق الخلافة وجعله خليفة بين الخلق، فالتفضل إنما هوَ بالجامعية لا بالعلو والشرف ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ وتردعونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10] بحجة بينة وبينة سنية تدل على فضلكم واستحقاقكم بهذه المرتبة أو على صحة إدعائكم النبوة لأنهم لم يغيروا ما يجدونه من البينات والحجج والدلائل والآيات واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتًا ومكابرةً ولجاجًا ومجادلةً وفجاجًا قالت لهم رسلهم حيث سلمنا ما ذكرتم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: 11] بالنبوة والحكمة والولاية ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقد

تحقق أن لا ينال شيء إلا بقضائه وقدره ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أوصلنا إلى النجاة وعلو الدرجات ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي لنصبرنَّ عودًا في ملتنا وفيما نحن عليه واستعمال حاد بمعنى صار شائع وبتضمنه معنى الصيرورة ذائع ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: 13] المقيدين في التقليد والمنغمسين في الكفر والشرك.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ التي سكنوا الكفار فيها ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وعقيب إهلاكهم وهلاكهم ذلك الوحي هلاكهم، والموحى وهو هلاك الكفار وإسكان المؤمنين في أرضهم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ وقيامه بين يدي ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: 46] وهو موقف الحساب لأنه موقف الله فيه على حال العباد يوم القيامة أو إفحام المقام، أو خاف مني في ذلك المقام، قيل: خاف قيامي وحفظي لأعماله وإحصاء أفعاله وأحواله ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ [إبراهيم: 15] واستنصروا للَّهِ على أعدائهم ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19] أو استحكمت آيات الله وسألوه القضاء والفصل بينهم من الفتاحة والفتوحة وهي الحكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89] عطف على (فأوحى إليهم) وقرأ بالناس عطفًا على لنُهلكنّ ﴿وَخَابَ﴾ وخسرَ وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15] الجبار الذي لا يرى فوقه أحدًا والجبرية طلب العلو بما لا غاية وراءه، وهذا الوصف لا يكون إلا للَّهِ أو الجبار الذي يجبر الخلق على مراده والعنيد المعاند والمكابر للحق ومجانبته أو المعرض عن الحق. قيلَ: هو الذي أبى أن يقول لا إلٰه إلا الله.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: 16] أي أمامه نحو ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: 79] أو بعده ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16] أي دم قيح يجري من أبدان الكفار، أو ما يسيل من فروجهم.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ ينجاه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17] ويشربه لا مرة واحدة بل جرعة بعدَ جرعة بمراريته وشدة نتنه وحرارته، عطف على التعدد من وراء جهنم ويلقي فيها ما يلقي ربي ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه دخل

كاد على المضارعة للمبالغة، يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله: ولم يراها أو لم يقرب من دونها، فكيف يراها بل يغص ويلتصق بحلقه ويطول عذابه، والسوغ جواز الشراب على الحلق وجريانه فيه بسهولة وقبوله ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ كان أسباب الموت ومتشفيًا كلها قدر ما لبث عليه وتبايعت لديه وأحاطت به من جميع الجهات تطبيقًا ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي لا يموت حتى ليستريح لأنه تتعلق نفسه عند حنجرته لما يصيبه من الآلام. وقيل: من مكان جسده حتى من إبهام رجله أي من أصل الشعرة ومن جميع الجهات الست ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي لا يموت حتى يستريح لأنه يعلق نفسه عند حنجرته، فلا يخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من حق له فتنفعه الحياة نحو لا يموت فيها ولا يحيى ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17] قيلَ هو الخلود في النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ المثل مستفاد للصفة التي فيها غرابة ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل كيف يقول مثلهم وصفتهم وأعمالهم، فقيل: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الحبر ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعل العصيف لليوم، ولما فيه وهو الريح مثل يوم ماطر وليلة ماطرة وهو اشتداد حركته لوصف المحل بوصف الحال مثل نهاره صائم وليله قائم وعين ذلك ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في الآخرة أن لا يزولَ له أثرٌ فيه من الثواب كما لا يقدر من الرماد المصير في الريح على شيء، وهو فذلكة العقل ونتيجة تعقله وثمرة إدراكه وفائدة تخيله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هم يحسبونَ أنهم يحسنونَ وهو الجهل المركب الذي يتوارد أمراض النفوس ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ يريد والقسط والحكمة والمعاندة الصريحة والأعراض الصحيحة لا عيب ولا شهوة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي قادر وقوي على أعدائكم وإذهابكم وأفعالكم جميعًا ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19] أي يخلق مكانكم خلقًا محددًا يكونون على أشكالكم وأمثالكم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الخلق الجديد ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20] ممتنع ومتعذر بل هو أهون على اللَّهِ وأيسر دون اللَّهِ.

إشارة وتأويل

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ أي صاحب الأدوار ومصاحب الأكوار ومراتب الأطوار السبعة القلبية أو القوى الفعلية والمبادئ الروحانية ذوات الشهوة والمشاهدة والتجليات الأسمائية والأفعالية الوجودية والأطوار الشهودية ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي التجلي الإلهي الجمعي والجمع الكمالي ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 10] في الأدوار النورية الجمالية الوجودية الصريحة المربعة الأصلية والفرعية، والأرض أي الأكوار الظلية الجلالية المربعة. واعلم أن الأدوار إما آفاقية أو نفسية، والآفاقية إما جمالية نورية أو جلالية ظلية، وكل منها إما أصلي أو فرعي، إفرادي جمعي أما الآفاقي وكل ذي مرة لها سماوات والأرض وعناصر وطول وعمق وعرض.

أما السماوات الدورة العظمى النورية فهي العقول والجواهر النورية العلمية، وأرضها أرساها وهي الاستعدادات الذاتية التي اقتضاها التجلي الذاتي في بداية الدورة الإلهية التي يفصّل أحكامها في الأدوار النورية الوجودية الجمالية، تصور أنواع العلوم وهي التعقل والتوهم والتخيل والشعور والإحساس، وأعيان هذه الدورة هي الصور العلمية التي سميت بصور الملائكة العالية والجواهر النورية والأعيان العقلية، وسماوات الدورة الكبرى وهي النفوس والأرواح المجردة، وأرضها هي القابليات التي أفاضت التجليات الأسمائية في الدورة العظمى، وأعيانها هي الأرواح والنفوس العاملة، وسماوات الدورة الوسطى هي الأشباح النورية والأرباب النوعية والمثل النورية وأرضها هي الصور الخيالية والمثل البرزخية والطبيعة المتوسطة بين الأجرام السماوية الشهادية وبين الأرواح وهي أصل الصور الجسمية والهيولى لقبول الهيئات العنصرية والأمزجة المركبة والبسيطة، وأعيانها هي الأعيان الخيالية والأكوان الظلالية، وسماوات الدورة الصغيرة على الأفلاك والأجرام العالية والأجسام السماوية، وأرضها هي العناصر وأعيان هذه الدورة هي النجوم وَالكواكب الثانية والسيارة والعناصر والمواليد الثلاثة والمعدن والنبات والحيوان وأفراد الإنسان.

أما سماوات الأكوار الظلية الجلالية الآفاقية فهي باطن الأدوار النورية

الوجودية الضمنية، فإنها تكون خفية ضمنية إذا كانت فرداريّة أدوار النور والجمال صريحًا. وأما إذا انتقلت الفرداريّة من النور والجمال عندَ انقضاء فردانيتها إلى الظل والجلال واختفت فرداريّة الدورة النورية الوجودية في الكورة الظلية العدمية الجمالية وصارت الأكوار صراحة ومقتضياتها واضحة جريحة، وأما مدة الأدوار والأكوار فهي متساوية في المدة والعدة والكمية والكيفية لأنهما توأمان في الوجود متطابقتان في الأحوال والشهود. وسماوات الأكوار هي عيب سماوات الأدوار وباطنها، وكذا الأرض والأطيان، فإن أعيان الكورة العظمى هي الأمور التي هي غيب العقول وأسرارها وبواطنها، وأعيان الكورة الكبرى هي الشياطين، وأعيان الكورة الوسطى هي الإجمالية، وأكوان الدورة الصغرى هي الجان والإنسان، وهذه الأكوار وآدمها هي الصورة الجامعة التي اختفت فيها صورة المولود الإنسي وتعرضت صفة المولود الجني، وظهرت مقتضياتها وهي نقائض كلما ظهرت في الدورة النورية من أنواع العلوم وهي الجهلات المقابلة لأنواع العلوم والإدراكات، وتلك الجهات هي مقتضيات الذات الأحدية باعتبار الثقة العدمية والظل والجلال.

وأما مقتضيات الدورة النورية الجمالية الوجودية فقد علمتها، والمقصود من الدورات والمكونات هو أن تتفضل أسرار الذات وأنوارها بواسطة اقتضاء النور والجمال والظل والجلال في الأدوار والأكوار في الأعيان الوجودية والأكوان العدمية، وأنت خبير بأنه كلما كانت الدورات أقربَ إلى الذات الأحدية ومحيط الوحدة الذاتية التي اندمجت فيها الأدوار والأكوار ومقتضياتها، كما كانت تلك الدورة أعظم وأكبر، ومدة أيامها أطولَ وأكثر، وأعيانها في غاية العظم، مثلًا الدورة العظمى النورية وهي أولى الدورات أكبرَ وأعظم، وأعيانها وهي الملائكة وهي العقول في غاية العظم، كما وردَ في الخبر في وصف عظم إسرافيل وميكائيل وجبرائيل وعزرائيل، وهكذا كلما يتصور يتنزل الدورة يتصغر وأيامها تصغر وأعيانها تحقر، وقد وردَ في الخبر أن الملائكة تتصغر إلى أن تنتهي إلى حد تكون قامتهم كالبشر. ألا يرى أن الدائرة كلما كانت بعيدة من المحيط تصير أصغرَ إلى أن يبلغ إلى المركز فحينئذ يتلاشى، فكلما كانت أبعدَ من المركز وأقرب إلى المحيط كانت أجزاؤها أعظمَ ومقدار درجاتها أوسعَ. روي أن آدمَ الصفي عليه السلام كان

عظيم الجثة جسيم البنية طويل القامة، حتى كانَ في بداية الحال آدم رأسه يتصل بالسماء فاشتكت الحيوانات إلى الله فقصره فصار بحيث كان بين خطوتيه ثلاثة أيام. وهذا الآدم، وهو آدم آخر الدورة الصغيرة الفرعية النورية الجمالية، وآدم الدورة الصغيرة الأصلية يكونَ أعظمَ منه، فإن كل دورة من الأدوار الأربعة النورية ينقسم إلى أصلية وفرعية، وكل منها أربعة أنواع، وكل نوع منها مدة ولها عدة، فعدة مدة الدورة العظمى الأصلية النورية ثلاثمائة وستونَ يومًا من الأيام ومقدار هذا اليوم ألف سنة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47] وأما الدورة الوسطى النورية فأيضًا قسمان: أصلية وفرعية، والأصلية عظمى وكبرى وصغرى، وعدة مدة الدورة الفطر النورية الأصلية ثلاثمائة وستونَ يومًا ومقدار يومها خمسونَ ألف سنة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

وأما مقدار الدورة العظمى النورية الأصلية ثلاثمائة وستون سنة يومًا من الأيام الإلهية، ومقدار كل يوم من أيام الدورة الإلهية ثلاثمائة وستون دورة، وكل دورة ثلاثمائة وستونَ دورة من الأدوار التي مقدار يومها خمسونَ ألف سنة. هذه مقادير الأدوار الأصلية النورية، وأما مقدار فروع كل منها من جنس الأصل فهي أيضًا أربعة عظمى وكبرى ووسطى وصغرى، ومقدار مدة الأصل تنقسم على فروعها، مثلًا مقدار الدورة الأربعة الصغرى الأصلية ثلاثمائة وستونَ ألف سنة، ومقدار الدورة الكبرى النورية ستة وثلاثون ألف سنة، ومقدار الدورة الوسطية النورية ثلاثة آلاف وستونَ ألف سنة، ومدة الدورة الصغيرة ثلاثمائة وستون سنة.

وكذا الحال في الأدوار الأصلية الباقية النورية، فإن الدورة العظمى هي ثلاثمائة وستونَ ألف سنة، والفرق إنما هوَ في اليوم فإن يوم الدورة الصغرى هو أربعة وعشرونَ ساعة زمانية ويوم الدورة الوسطى هو مائة سنة ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259].

ويوم الدورة الكبرى هو ألف سنة ويوم الدورة العظمى النورية خمسون ألف سنة ويوم الدورة العظمى الإلهية هي ثلاثمائة وستونَ دورة من الأدوار الزمانية وفي كل دورة دنيا وآخرة، ولدنياها سموات وأرض، وكذا لكل كورة وآخرة ولدنياها سموات وأرض، وسموات الأكوار وأرضها عكس سموات الأدوار وأرضها، فإن سموات الأكوار يرى سفلًا وأرضها علوًّا كما يرى القائم في طرف

الماء الراكد، والحياض السماء سفلًا والأرض عاليةً ومرتفعة والأشجار منتكسة، وذلك لأن الأكوارَ هي باطنة الأدوار وَموطنها هو عالم المثال والبرزخ، وعالم الملكِ هو عكس عالم البرزخ والمثال، فأعيان عالم البرزخ من السماوات والأرض وما فيها لا بدّ وأن يكون على عكس ما في الملك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الأدوار الأصلية النورية ﴿وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي الأدوار الفرعية النورية أو الأدوار والأكوار النورية الظلية وأعيانهما ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19] إشارة إلى انقضاء اقتضاء الدورة النورية الصغرى وانتقالها إلى الدورة العظمى النورية وإنشاء الأعيان المختصة بها، ومنها إلى الكبرى، ومنها إلى الوسطى، ومنها إلى الصغرى النورية وإلى الأكوار الظلية الجلالية العظمى والكبرى والوسطى والصغرى الظلية والجلالية، أو إلى انتقال مقتضيات كل دورة ومرتبة من دورة ومرتبة إلى دورة ومرتبة أخرى، مثلًا أعيان اللاهوت وهو الشؤونات الذاتية ينتقل بواسطة الحركة الدورة العظمى الإلهية الأصلية الذاتية من الوحدة الحقيقية إلى المرتبة الواحدية، وعالم الجبروت إلى الصور العلمية والحقائق الإلهية من الأحدية الذاتية والوحدة الحقيقية إلى المرتبة الواحدية وتحقق بالصور العقلية والملائكة العالية والحقائق الأسمائية، ومنها إلى مرتبة الملكوت وعالم الأرواح وتحققت بالنفوس المدبرة والأرواح القدسية والألواح الأثنية، ومنها إلى عالم الملك ومرتبة الشهادة، ويغيب تصور الأجرام السماوية والأجسام العنصرية والمواليد الثلاثة، ثم اجتمعت بهذه الصور والمعاني العالية والسافلة البسيطة والمركبة في مرتبة الناسوت وتغيب بالصورة النوعية الإنسانية والحقيقة الجمعية الإلهية والكونية وأعيانها الكاملة المكملة المستجمعة لجميع الأسماء الإلهية وَالكونية، فإذا استكملت الجمعية انتقلت من الناسوت إلى اللاهوت: يا عبدي أطعني أجعلك مثلي وليس لي مثل «**لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه، بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي وبي ينطق**».

ثم انتقلت منه هذه المرتبة مع ما كان معها واستفاضت واجتمعت فيها من الأسرار والأحدية الذاتية وغيب الأزهار الواحدية والأنوار الإلهية إلى الواحدية والجبروت وتحققت بما فيها من الحقائق الأسمائية والدقائق الصفاتية في مدة

الدورة الإلهية العظمى التي تنفصل خصائصها الذاتية ونصائصها الأحدية أولًا في النشوءات الذاتية، ثم في الدورة العظمى النورية يتحقق بالصور العلمية، ثم بمقتضيات سائر الأسماء السبعية الذاتية أعني القدير والمريد والسميع والبصير والمتكلم، بواسطة حركات سماوات الدورة العظمى النورية وهي عقلية، والحركات أيضًا عقلية والكمالات أيضًا عقلية وهي علوم حضورية وإدراكات شهودية والفرق هذه العلوم الحضورية والإدراكات الشهودية وبين العلوم والإدراكات الشهودية التي تحصل في الدورة الصغرى النورية في مرتبة الناسوت لكونها منتهية غير نافذة إلى ما دونها، ينعكس الشهود وينقلب إلى الشاهد ويصير شهودًا فحينئذٍ يتحقق شهود الشهود والإدراك والعلم بالعلم إلى غير النهاية والباقي ظاهر واضحٌ.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يريد في البعث يوم القيامة ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ يريد الأتباع الأكابر هم استكبروا عن عبادة اللّهِ من المنهزمين ومثل المقسمين ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ﴾ يريد لو أرشدنا الله لأرشدناكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21] يريد من جار ولا ملجإٍ ولا فرج.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يريد إبليس ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يريد حينَ قضى الله بين العبادِ فصار أهل الجنة إلى منازلهم وكراماتهم ونعيمهم وأمر أهل جهنم إلى العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ﴾ [إبراهيم: 22] يريد بالباطل والغرور قام

إبليس فصالح بين أوليائي فاجتمعوا إليه فقال إن الله وعدكم وعدَ الحق ووعدتكم ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ يريد من حجة أحتج بها عندكم ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ يريد فصدّقتموني وقبلتم مقالي ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يريد بمعينكم ومنقذكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ يريد بمعيني من عذاب الله ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ يريد في الدنيا يريد أني جحدت بما كنتم تطيعوني في الدنيا ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22] يريد أن المشركين لهم عذاب وجيع.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد صدقوا النبي ﷺ وما جاء به من عند الله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قاموا لله بفرائضه وحقوقه ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ازدادت على الصفات وعلى الأوهام وعلى العقول ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يريد شاء أنهم لا يموتون ولا يمرضونَ ولا يسقمون ولا يتعبون ولا يعملون، ناعمين مسرورين خالدينَ مخلدينَ قد انقطعت الصفة عما هم فيه ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: 23] يريد أن اللَّهَ يحيّيهم السلام من عنده ويعطيهم بعطايا البيان ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الصافات: 44] لا يرى بعضهم قفاء بعض كلما التفت رأى وجهًا يسرّه ويحبه أحسن من القمر ليلة البدر.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ لا إلٰه إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يريد النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 24] كذلك أصل لا إلٰه إلا الله ثابت عند الله في قلب المؤمن وفروعها في السماء، يريد يسمو حتى يزيد يرتفع بين يدي الرحمن فينظر الله إليه قائمًا فما ظنّك بمن نظر الله إليه بالرحمة كذلك النخلة أصلها ثابت وفروعها في السماء.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ يريد كل ستة أشهر طلعها طيب رخص، وستة أشهر رطب طيب وتمر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يريد لأهل مكة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25] يريد يتعظوا.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهو الشرك باللَّه ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يريد الثوم، وقال بعضهم: هي كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوت وهو بحال لو ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد ليس لها أصل ثابت كذلك الشرك باللَّه ليسَ له حجة ولا شيء ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26] يريد مصير صاحبها النار.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد الذينَ صدقوا بمحمد وبما جاء به منه عند الله ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وهو لا إله إلا الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ يريد في القبر والبعث ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَۚ﴾ يريد المشركين ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 27] يريد ما يفعل بهم من قبورهم قبل البعث وما يفعل بهم في البعث فعل الحساب.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ يريد أبا لهب وأبا طالب وجميع قريش ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28].

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ﴾ يريد أحلوا نفوسهم دار الشقاء والعمى والبوار هو العمى جهنم يصلونها يريد يعذبون فيها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 29] يريد إن استغاثوا

لم يغاثوا وإن صاروا فحمًا أعيدوا خلقًا جديدًا مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97] يريد كلما صاروا فحمًا جدد خلقهم وغلظ عليهم في العذاب ومناهم فيه من العذاب أعظم ما يوصف.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ يريد من الحجارة والخشب وغير ذلك ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يريد عن دين اللَّهِ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ يريد في الدنيا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: 30] يريد لو كان في الدنيا مريضًا سقيمًا لم ينم ليلًا ولا نهارًا، خائفًا لا يجد ما يأكل ولا يشرب، لكانَ هذا كله نعيمًا عندما يصير إليه شدة العذاب، ولو كانَ المؤمن في الدنيا يأكل المخ والأجنحة ولا ييأس ولا يسقم ولا يجوع ولا يعرى لكان هذا كله يؤسر عندما يصير إليه من يفهم الآخرة.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد صدقوا من المهاجرينَ والأنصار والتابعينَ بإحسان ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يريد لأوقاتها ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ يريد يتفضلون به عليهم ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: 31] يريد لا بيع ولا شري ويريد بالخلال الخليل من قوله في الزخرف: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: 67]، ومثل قوله في البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [الآية: 267] يريد تصدقوا مما رزقناكم من الحلال الذي رحبتم وملكتم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا تجارة ولا خلة ولا شفاعة، يريد أن الملائكة لا تشفع إلا لمن ارتضى، والكافرونَ يريد الجاحدونَ، هم الغالبونَ يريد هم المشركون. قال بعض أهل العلم: يريد بالخلال خلال النفس مثل قوله في سورة (ص): ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [الآية: 15] يريد ما لها من نفس.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يريد النخيل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: 32].

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21] أقول: خرجوا وظهروا من قبورهم إلى الله يوم القيامة ويعبره بالماضي لتحقق وقوعه كأنه وُجِدَ وثَبتَ، نحو: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 50]. والبروز إنما هو بالنسبة إلى نفوسهم وأبصارهم لاختفاء بروزهم وظهورهم للّهِ ولنفوسهم لا لله ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3]، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا للّهِ عندَ أنفسهم وعلموا أن اللّهَ لا يخفي عليه خافية أو خرجوا من قبورهم وبرزوا للحساب للّهِ تعالى وحكمه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ الأتباع والعوام والملازمونَ والتلامذة ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ من المعتدى والأمراء والسلاطين والسادات والرعاء والقادات والعلماء السوء لقوله ﷺ: «**أشر الشرائر علماء السوء**». ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع تابع كحارس وحرس وخادم وخدم وغائب وغيب وقد جاء مصدرًا نحو تبعه تبعًا فما اتبعناكم عليه في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أعني ما يغني شيئًا قليلًا من عذاب اللّهِ.

﴿قَالُوا۟﴾ المستكبرون والمتبعونَ والقادة المعتدون لاعتراضهم والرد عليهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي لو كانَ هدى الله في الدين على الصراط المستقيم والدين القويم ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ إليه وأوصلناكم لديه لكن ما هدانا الله لهذا فسخرتم كأنكم معذورون، فلما أضلنا أضللناكم ودعوناكم إلى الضلال فحينئذ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ وعليكم ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ واضطربنا وفزعنا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على العذاب وشدّة الأخذ والعقاب وفقدان ذلك النظر الصعاب ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21] في هذه الحالة ويوم الندامة ليسَ من مهرب وملجأ ومخلص يوم القيامة إلا عناية الله وعموم رأفته وهجوم عاطفته ورحمته. وإنما قالوا: هذا بعد مكثهم في النار خمسمائة عام واستغاثهم بخزنة النار كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ

جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فقالت الخزنة ردًّا عليهم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [غافر: 49 - 50] فلما يئسوا قالوا: يا مالك ليقضِ علينا [ربّك]. وسألوا الموتَ فلم يجبهم ثمانين سنة ونسي الآخرة ثلاثمائة وستين يومًا فإذا اليوم ألف سنة مما تعدون. فإذا جاءتهم بعد الثمانين إنكم ماكثون فلما يأسوا مما قاله قال بعضهم لبعض فلنصبر لعل الصبرَ ينفعنا كما صبر أهل الطاعة فنفعهم فلما صبروا وطالَ صبرهم ثم جزعوا وطال جزعهم فنادوا بعد ذلك ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في هذه الحالة لأهل النار ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي حكم بدخول أهل الجنة الجنةَ ودخول أهل النار النارَ بعدَ الفراغ عن الحسنات والسيئات فقام إبليس خطيبًا بينهم فخطبهم وقال يا أهل النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ بالجنة وأوعدكم من النار ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ والصدق ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ عمدتكم عندَ إغوائكم بما وعدت فصدق وعد الحق ووقع، أما أنا ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وظهر خلف وعدي عندكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ وبرهان عقلي وحجة وبيان نقلي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلى العصيان وترك الطاعة وترك الإيمان ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ وقبلتم مني تلك الدعوة بلا برهان ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ في هذه الحالة لأني الجأتكم على المعصية والكفر وما كانَ لي عليكم من ولاية وسلطانٍ ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ بأنها لِمَ قبلت دعوتي فإن اللَّهَ قضى علي بالإغراء وخلقني لهذا الأمر فأنا امتثلت طاعة اللَّهِ وأمره وأنتم خالفتم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ومغيثكم ومعينكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ ولا ينجي بعضنا بعضًا من عذاب اللَّهِ لا صراخ من صرخ وهو الإعانة والإغاثة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ هذا اليوم وتبرأت منه (ما) مصدرية أي بريء بإشراككم إياي في الدنيا كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ [المُمتحَنة: 4] الآية، قيل: من قبل متعلق بكفرت و(ما) موصولة أي كفرت من قبلُ حين أَبيتُ السجود لآدمَ بالذي أشركتمونيه بالله ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22] يحتمل أن يكونَ من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وجل بما سبقوا لهُ في ذلك الوقت ليكونَ لطفًا وعناية واستطابة لقلوب الصالحين بالنظر إلى عاقبتهم والاستعداد لما أريدَ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول ليخافوا

ويعلموا ما خلصكم منه وينجيكم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: 23] أي هدية بعضهم لبعض هي السلام أي تحية الملائكة لأهل السلام بإذن ربهم متعلق بـ(تحيتهم) هي مبتدأ (سلام) خبره فقيلَ المحيي هو اللَّهُ عز وجل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ألم تعلم أن هذا مثال اعتمده ووصفه وبيّنه أو قول مساير لسببه شيء بشيء ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ تفسير لقول ضرب الله مثلًا لقولك ويجوز أن يكونَ مثلًا وكلمةً طيبة منصوبًا بضرب أي ضرب وجعل كلمة طيبة مثلًا ثم قال: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة طيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 24] وهي النخلة أو هي شجرة في الجنة كذلك هذه الكلمات راسخة وثابتة في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق بالله وبتوحيده وإذا تنطق بها عرجت فلا تحجب ولا تمنع حتى تنتهي إلى اللَّهِ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: الآية 10] ولذا أمرَ رسول اللَّهِ بذكرها كثيرًا: «**أكثروا شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها ولقنّوا بها موتاكم**».

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها وينتجها ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ ووقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [إبراهيم: 25] أي يؤكل النخل في كل وقت ليلًا ونهارًا صيفًا وخريفًا وشتاءً تمرًا ورطبًا وبسرًا كذلك شجرة إيمان المؤمن وأُكُل كل الأعمال الصالحة لا ينقطع أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة كما قالَ النبي ﷺ: «**يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا عن ثلاث: الولد الصالح يدعو له، والصدقة الجارية، والعلم المنتفع به**». وإنما مثّلَ الإيمان بالشجرة إذ الشجرة لا تكون ولا تثبت إلا بثلاثة أشياء: عرق وأصل ثابت وفرع عالي ثابت، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة: تصديق القلب، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وإنما خصت بالنخلة لأنها خلقت من بقية طين آدم لقوله عليه الصلاة والسلام: «**أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من بقية طين آدم**»، وهي برزخة وواسطة بين النبات والحيوانات كالمرجان فإنه برزخ بين المعدن والنبات والقردة بين الإنسان والحيوان المعجم ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25].

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك والأقوال القبيحة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة والكشوب وهو المشهور بالعشبة ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ [إبراهيم: 26] اختلعت واستؤصلت من الاجتثاث والجثة وهي الانبساط في الأرض والازدياد بلا ثبات وتأصل.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وكلمة التوحيد والإيمان باللَّهِ أو البرهان والحجة القاطعة من الله الثابتة عند اللَّهِ أفاضها في قلوب العارف باللَّهِ إما بالاستدلالِ أو بالكشف والشهود باللَّهِ وهو الذي اطمأنت به القلوب وتوقدت به الغيوب ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: الموت ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في القبر هو أول منزل من منازل الآخرة قيلَ: في فجوة وهي القبر في ما فعله والقبر هو برزخ بين الدنيا والآخرة ومن قال فيه ما قال هو صادق وفي الآخرة هو البعث.

قال ﷺ: «**نزلت في عذاب القبر، وذلك لأن الميت إذا وضعَ في القبر وتولى عنه أصحابه أتاه الملكان فيقعدان فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فإنه يقول: عبد الله ورسوله فيقال: انظر إلى مقعدك قد أبدلك الله مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا وأما المنافق والكافر فيسألانه: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ يقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريتَ ولا تليتَ، فيضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح حتى يسمعها منه ثلاثة غير الثقلين**». وفي رواية يقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وفي الآخرة بعدَ الخروج عن القبور والبعث والحشر والنشور.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ولا يهدي المشركين إلى الجواب ولا إلى القول بالصواب لا في القبر وموقف الحساب ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ في الدارين ﴿مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 27] من التوفيق بالإيمان ومن عدمه بالخذلان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28] أي بكفران نعمة اللَّهِ وجحدها فوضعوا مكانَ الشكّ كفرًا وكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلًا ونظيره ويجعلون رزقكم إنكم تكذبونَ أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه.

وجه آخر: وهو أنهم بدلوا النفس النعمة من الإيمان كفرًا، أو على أنهم لما

كفروها فما سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه وجعلهم قوائم بيته، ثم أكرمهم بمحمد ﷺ وكفروا نعمه بدل ما يريهم من الشكر العظيم أو أصابهم الله بالنعمة في الرجاء والسعة لما يلاقهم الرحلتين فكفروا نعمته يضربهم بالقحط سبعَ سنين فجعل لهم الكفر بدل النعمة وأحلوا قومهم وأتباعهم وقبيلتهم وأشياعهم دار البوار والهلاك يوم بدر فإنهم قتلوا فيه ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ عطف بيان لدار البوار ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 29].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وأمثالًا وليسَ له ند ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ عبادَ اللّهِ ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ طريقه المستقيم الذي ينجي ويوصل سالكه إلى دار السلام ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ وعيشوا في الدنيا كما تشاؤون وعلى أي وجه تريدونَ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: 30].

إشارة وتأويل

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ في القيامة العظمى والمحشر الكبرى في آخر الدورة الصغرى الفرعية الجمالية ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي الأعيان الكلية الجزئية والنفوس الشخصية الناقصة عند انتقال نوبة التدبير إلى الفرداريّة الظلية الجلالية الضمنية وارتجال الأعيان الكلية الكافية والجزئية الناقصة لدى استكمالهم في مراتب الأدوار من مرتبة الناسوت إلى مرتبة التجلي في عالم اللّايقين واللاهوت كما علمت.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ [إبراهيم: 21] واستكملوا في مدارك الأدوار ومسالك الأكوار الإفرادية والجمعية الإفرادية والجمعية الجمعية من الأكوان الكاملة والأكوار الفاصلة وكل منها يتضمن أتباعًا من الأعيان الجزئية والأكوان الناقصة ويستتبعها استتباعَ النفوس الكلية من النفوس الجزئية لا ينفك عنها أصلًا والنفوس الجزئية ليستكملن في ضمن النفوسِ الكلية، والحال أن النفوس يحملها بل الأعيان بكليتها حصص وجودية وقصص كونية جودية مرتبة الواحد منها على الآخر، وأما بعضها كليّةً والبعض الآخر مرتبة إنما هوَ بمشيئة الذاتية التي خصصت كلها من الأعيان الأولية والشؤونات الذاتية التي تميزت بعضها عن بعضٍ تميزًا ذاتيًا في هذا التجلي الذاتي بنعت كلية وصفة أصلية متضمنة لأعيان أخرى وشؤونات جزائية أخرى.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ أي النفوس الجزئية والأتباع البعضية التي تضمنتها النفوس الكلية ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ [إبراهيم: 21] أي النفوسَ الكلية والأعيان الأصلية التي كلمها الله بحكمه البالغة ومشيئته الذاتية وجعلها أصلًا وغيرها من الحصص فرعًا متفرعًا عليها في الأدوار إلى أن حصل فيها استعداد الكمال الجمعي فحينئذ يكمله ويجعله كاملًا أصلًا وغيره من الجزئيات تابعًا له ومتفرعًا عليه، وهكذا أن كل الجزئيات بعضًا بعدَ بعضٍ، ويتفرع عليه البعض الآخر كما يشاهد في سلسلة الأنبياء والأولياء، فإن من أولاد آدم أولهم وأقدمهم في الاستكمال والتكامل هو شيث ثم ابنه قينان، وبما ينقطع في الظاهر طريق الاستكمال والتكميل وينتقل التكميل في الباطن والسر، وهكذا ينتقل ظاهرًا وباطنًا إلى أن ينتقل إلى خاتم النبوة، ثم ينتقل منه إلى أصحابه إلى أن سدّ الأنبياء الأبواب كلها إلا باب علي كما قال النبي ﷺ: «**سدّ الأبواب كلها إلا باب علي**»..

وهكذا ينتقل من بعض أهل البيت إلى البعض إلى أن ينتهي إلى خاتم الولاية المطلق فحينئذٍ يسري أثر الولاية في تمام الأعيان حتى الجماد والنبات وعموم الحيوان فحينئذٍ تنتقل الولاية إلى حكم الألوهية فيسمع صدى أنا الحق من كل عين وشخص في كل مكان وأين، وهذه الحالة إنما يظهر في آخر الدورة لأنه يجتمع الأفياض كلها ويظهر في كل عين وشخص، ونفثوا السر الإلهي عن كل مظهر جزئي وشخص عيني فحينئذٍ ينتقل حكم فرداريّة الدورة الأخرى والإلهية ويستأنف الدورات، وعند انتقال الفرداريّة من دورة إلى دورة يقوم قيامه وتظهر ساعة وتظهر نفختان أحدهما لدى انقضاء الدورة الأولى، والثانية في بداية الدورة الأخرى بهذا تظهر الأعيان التي قد اختفت في الدورة الأولى وخزنتها وهي الكورة الجلالية العدمية التي كانت في ضمنها تواقة لها، وحينئذ تتبدل الأحوال فكل ما كانت كلية صريحة في الدورة الأولى صارت في هذه الدورة ضمنية خفية، وكلما كانت فيها خفية ضمنًا صارت صريحةً ظاهرة، والضعفاء والأتباع مستكبرينَ أقوياء، فما دامت الأعيان الكلية والجزئية مترددين في الأدوار والأكوار الإفرادية لا يخلق عن استكبار، فإذا أردوا حبًّا مزجيًّا وحصلت بينهما صورة جمعية مبنية كلية مجرد الأعيان من الضعف والاستكبار وتحققت بالهداية الحقيقية، واستخلصت عن عذاب التردد في النشآت الجزئية والشؤونات

الشخصية، وصار العذاب عندهم عين العذب وأعذب العذاب ﴿أَجَزِعۡنَآ﴾ في الانتقال من الدورة النورية الجمالية إلى الجلالية ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ في الكورة الجلالية ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: 21] ومهرب عن التردد وعذابه.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي المولود الجني الذي هوَ مربوب الظل والجلال وكانَ ضمنيًّا خفيًّا ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [إبراهيم: 22] عند انقضاء اقتضاء فرداريّة النور والجمال الذي كانَ صريحًا وانتقل حكم الارتضاء إلى الجلال الذي كانَ ضمنًا، واستكمال المولود الإنسي أطاعه المولود الجني الضمني، ودخل المولود الإنسي والجني في الخفة الجمالية، والذي لم يستكمل منه المولود الإنسي لعدم مطاوعة المولود الجني والمولود الإنسي لعدم دخوله تحت سلطنة المولود الإنسي ودخلا جهنم الجمالي ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ المولود الجني للمولود الإنسي: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22] لأنكم قصرتم وتكاسلتم في إصلاح نفوسكم وإنجاح نفوسنا وإنا مجبولونَ بالمخالفة بكم لأن الذي نحن في حكمه وهو الظل والجلال يباين الَّذي أنتم في حكم سلطانه وهوَ النور والجمال، إلا أن اللَّهَ تعالى لما جعلَ حكمه صريحًا وإخفاتًا فيكم جبريًّا ما يغير لكم في حكمه وأنتم ما أجريتم الحكم علينا فظلمهم علينا وعليكم، فصنعتم الفيض النازل منَ العوالم الخمس وهي اللاهوت والجبروت والملكوتِ والملك والناسوت.

ففيض اللاهوت هو الوجود والذّاتِ وفيض الجبروت وهو العلم وفيض الملكوت هو الحياة وفيض الملك وهو الجسم وفيض الناسوت وهو الصورة الجمعية بأنكم بما لم تعلموا نسبة هذه الأفياض ومبادئها ويأخذها إليكم فكأنكم صنعتموها فلو أدركتم هذه الأفياض ونسبتها إلا أدركناها لكوننا تابعين لكم فتدخل الجنة لكن ضيعتم إدراكها فدخلتم نارَ الندامة ومكثتم فيها خمسة مائة يزول في كل مائة عام ظلمة فالحجاب الحاصلة في نفوسنا من انتفاء الإدراك والعلم بنسبة تلك الأفياض إلينا فهذه المناظرة إنما تكون وتجري عند الله عند رفع الحجاب في القيامة الآفاقية والأنفسية.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يريد صدقوا من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يريد لأوقاتها ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ يريد يتصدقوا مما تفضلت به عليهم ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا

خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: 31] يريد لا بيع ولا شراء، ويريد بالخلال الخليل من قوله تعالى في الزخرف: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الآية: 67]. وقال بعض أهل العلم: الخلال هو خلال النفس ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: 15] يريد ما لها من نفس.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يريد النخيلَ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ يريد بقضائه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: 32] يريد البحر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يريد ليعرفوا النهار من الليل والليل من النهار ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33] يريد ليبتغوا في النهار من فضله ونفوسنا بطاعته وفرائضه، والليل لتسكنوا فيهِ وجعل في ذلك لكم.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يريد صلاحَ دنياكم ومعادكم ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يريد: وإن تعدوا يا عبادي نعمتي لا تحصوها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34] يريد أبا جهل ظلومًا لنفسه كفارًا لنعمة ربه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أخبر أن إبراهيم وأخبر عن دعائه لهم ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يريد مكة يريد اجعله حرمًا لتفرقته ولدي ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ يريد اعصمني ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ يريد الأصنامَ ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 36] يريد غير ولده ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ يريد على ديني بالتوحيد لكَ والمعرفة بكَ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يريد من ولدي ومن غير ولدي ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ يريد من ولدي ومن غير ولدي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36] رأفة على عباد اللهِ يريد اغفر لمن تابَ وارحم من عصاكَ.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ يريد إسماعيل ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ يريد وادي مكة ومكة كلها واد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يريد ليعبدوك ويوحدوك ويعظموك ويوقروك يريد ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يريد المؤمنين من ذريته وغير ذريته ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ يريد تحن إليهم ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37] يريد كي يوحدوكَ ويعظموكَ، فبعث الله جبرائيل حتى اقتلع الغار من الشام في موضع يقال لها الأردن وهو نهر ثم أقبلت الثمرات حتى طاف بها حولَ الكعبة

أسبوعًا فبذلك سميت الطائف ثم أنزلها جبالَ تهامةَ وهي مكة.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ وما ننوي في قلوبنا قبلَ أن يكونَ وما هو في قلبنا اليومَ مما نضمر من طاعتك ومحبتكَ وعبادتكَ وما في قلوبنا من عظمتك وجبروتك تعاليتَ ربي وتقدست ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ يريد مما كانَ ومما هو كائن إلى آخر الأبد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 38].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: 39] يريد دعاء من أطاعه.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يريد خالصًا لوجهك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ مخلصين لك ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: 40] يريد عبادتي.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ قالَ بعض العلماء يريد أولاد إسماعيل وإسحاق ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد ولده ومن غيرهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41] يريد من لقاكَ مؤمنًا مصدقًا فتجاوز عن إساءته.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أقول: مجزوم على جواب الأمر ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي في يوم القيامة الصغرى والكبرى أي الموت وَالبعث أي الآفاق والأنفس لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من مات فقد قامت قيامته**»، ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: 31] جمع خليل نحو كبر وكبار أي شفيع يعني ينفقوا ابتغاءً لمرضاتِ اللّهِ وطلبًا لتلقاء وجهه الأعلى فلا يفعله إلا المؤمنونَ الخلص ليبعثوا عليه ويأخذوا به ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي لا انتفاعَ للمبايعة ولا المخالّة، وخلة لينفع لهم شفاعة الأخلاء المفعول له محذوف وجواب الأمر دال عليه تقديره: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مبتدأ وخبره ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ منصوب بأخرج يشتمل الطعوم والمشروب منَ الثمرات بيان له حال منه وبالعكس، فيجوز أن يراد به المصدر فينصب بالعلية المصدرية لأن أخرج بمعنى رزق ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ وأرادَ به وحكمه حيث توجهتهم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾

[إبراهيم: 32] لاكتساب أسباب المعايش وإحياء الماء الزلال للغراس.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ﴾ يدأبان ويجريان على الدأب والعادة لمصالح العباد في أقطار البلاد إلى يوم التناد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33] متعاقبين تارة يتساويان وأخرى يزيد النهار على الليل على حسب عرض البلاد وازدياده فكلما ازدادَ العرض في جانب الشمال أو انتقلت الشمس في هذه الجهة ازداد النهار حسب ازدياد العرض، إلى أن بلغت الشمس في عرض يساوي تمام الليل الكلي، وهو يصير عامة طول النهار يومًا وليلةً وفي ذلك اليوم لا تطلع الشمس يماثل الأفق، ثم يرفع شيئًا فشيئًا، وذلك في عرض (سفين وبلغار) ثم يزداد النهار على اليوم بليلة عندَ ازدياد العرض، فإذا بلغ سبعين درجة كانَ طول النهار أربعة يوم وليلة، وهكذا يزداد طول النهار إلى ستة أشهر عند صورة العرض تسعين، فتكون النسبة في هذا العرض يوم وليلة، اليوم ستة أشهر والليل أيضًا ستة أشهر، وإذا انتقلت الشمس إلى جانب الجنوب وازداد الليل على النَّهارِ كما ازدادَ العرض إلى جانب الجنوب ازدادَ الليل قياسًا على ازدياد النهار له لازدياد العرض، إلى أن بلغ العرض إلى تسعين فبلغ غاية طول الليل ستة أشهر، فهذه الحالة هي للشمالين وللجنوبين يكون بالعكس نهارهم لأهل الشمال وليلهم نهار ولهم ولهذا كرر قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ [آل عِمرَان: 27].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ في هذه الحالة الحالات والتعبير بالماضي للتحقق ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ أي بعضها من جميع المسؤولات حسب تعدد المصالِح الدينية والدنياوية، ووفق تحدد الحكمة النظرية والعملية المنزلية والمدنية، سواء كانَ السؤال بلسان القال أو ترجمان الحال، وما يحتمل الموصول والمصدرية، والثانية في موضع الحالِ إذ جعلَ كل مقطوعًا عن الإضافة منونًا يكون التنوين

عوضًا عن المضاف إليه، أي أعطاكم الله من كل شيء بسؤال كانَ أو بغير سؤال، فإن السؤال معطى بلا سبق سؤال أو استدعاء الاستعدادات الذاتية غير مسبوق باستدعاء آخر، إذ السؤال مقصود بالغير لا بالذات، فلا يحتاج إلى سؤال آخر، وبأن الاستعدادات الذاتية غير مجعولة ليحتاج إلى استعداد آخرَ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ظاهره وباطنه، ولا تحصروها، ولا تطيقوا أعداد أجناسها فضلًا عن أنواعِها وأشخاصِها وأصنافها، لأنها لا تتبدل وتتضاعف وتزيد، وتتعاطف آنًا فآنًا فإن القدرة على العد والعلم بعدِّها أيضًا وهلم جرًّا فنعمة العد تتضمن نعمًا غير متناهية، فما ظنك بالنعم نفسها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ بالإغفال عن شكرها أو الإهمال عن عدها والانتقال إلى كفرها وإذا أردفه يقول ﴿كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34] أو لأنه إما لأنه ملتام عن القوة الغضبية والسبعية التي هي مبدؤها التعدي والظلم، أو من القوة الشيطانية الخبيثة التي هي مقتضى الكفر والعصيان في نفسه، متناه قد يجاوز عن حدّه بتضمنه النعم الظاهرة والباطنة الغير المتناهية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ اذكر وقت قول ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ عند إتمام الكعبة وبنائها ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي بلد مكة باعتبار ما سيأتي وإلا عندَ إتمام الكعبة ما كانَ عندَها عمارة غيرها ولا بناء سواها بدليل قوله بوادٍ غير ذي زرع عندَ بيتك المحرم ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن وأمانة وأمان عن تطرق الآفات وتفرق العاهات وتلحق البليات أو سكانها ومن دخله كانَ آمنًا، والفرق بين هذا وبين قولِهِ: اجعل هذا بلدًا. إن السؤال في الأول أزاله الخوف عنه ويصير آمنًا في نفسه عن العباد والتخريب، والثاني جعله من البلادِ الآمن أهلها ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ بعدني واجعلني ﴿وَبَنِىَّ﴾ أي مع أبنائي ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35] أي في جانب وطرف بعيد منه إشعار بأن الأنبياء عصمتهم ليست من مقتضى ذواتهم وأنفسهم وإلا لعمت لأن الطبيعة النوعية لما اقتضت أمرًا نوعيًّا لا بدّ وأن يشترك في جميع أفرادها، بل عصمتهم إنما هي من اللّهِ وإن الإنسان لكونه ملتامًا من القوى المتضادة البهيمية والسبعية والشيطانية هو ظلوم جهول كفار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34].

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ أي يضل الله كثيرًا أو الشيطان بها أو يضل كثير ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عن طريق الهدى إلى طريق الهوى منَ المجاز المرسل ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في الأعمال والأفعال والأحوال والأقوال وبحقيقتي وشريعتي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ إذ المعلول والتابع إنما يكون على صورة العلة وسيرة المتبوع ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وتخلف عني فيها ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ﴾ وستير وساتر عليه ما قد سلفَ وفات عنه وتلف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36] بإعطاء النعمة واقتضاء الرحمة وإفضالها عليه.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ وأقمت بعض ولدي إسماعيل وأولاده ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37] حرم الله عنده ما لم يحرم عندَ غيره. جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر زوجته وبولدها في موضع منها عندَ مكان البيت فوق زمن في أعلى المسجد وما كانَ في ذلكَ اليوم بمكةً أحد من الإنسان ولا واحد من الحيوان إذ كانت خاليةً من الماء والعشب والكلأ ثم انطلق إبراهيم فتبعه زوجته، وقالت: يا إبراهيم أتذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسي ولا شيء له حسّ، فقالت ذلك مرارًا ولم يلتفت إبراهيم إليها ولا إلى ابنها فتحدثت إن ذلك من اللّهِ ليس لإبراهيم فيه اختيار فرجعت إلى إسماعيل فرأت أنَّ ماءً قد نبع بين يديه فانطلق إبراهيم حتى بلغ إلى الثنية حيث لا ترونه فاستقبل توجهه البيت فدعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ إلى ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وأم إسماعيل وضعته وشربت من ذلك الماء حتى نفذ ما في السقاء فعطشت وعطش ابنها وهي تنظر إليه، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه وهو يبكي طالبًا للماء، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض، فتوجت إليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل

ترى أحدًا، فهبطت منَ الصفا حتى إذا بلغت الوادي فرفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ثم نظرت هل ترى أحدًا فلم ترَ أحدًا صنعت ذلك سبع مرات وفعلته، فلذلك يسعى الناس بين الصفا والمروة، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فإذا هو الملك عندَ موضِع زمزم ينحت بعقبه أو بجناحه حتى نبع الماء فجعلت تخوضه وتفرق وهو يفور بعدما تفرق.

عن ابن عباسٍ: قال النبي ﷺ: «**رحمَ الله أم إسماعيلَ لو تركت زمزم أو قال لو لم تفرق مِنَ الماءِ لكانت زمزم عينًا معينًا**». قال: فشربت ورضعت ولدَها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيت اللّهِ يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن اللّهَ لا يضيع أهله، وكانَ البيت مرتفعًا منَ الأرض كالرابية يأتيه السيول فيأخذ عن يمينه وشماله، وكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين على طريق كذا فنزل في أسفلِ مكة فرأوا طائرها قالوا: هذا الطائر يريد لنا على الماء وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماءً، فأرسلوا جربًا أو جربين فأتاهم بالماءِ فرجعوا وَأخبروهم بالماءِ فأقبلوا وأم إسماعيل عندَ الماء: أتأذني لنا أن ننزلَ عندكَ قالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماءِ قالوا: نعم، فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بهما أهل أبيات منهم. وشبّ الغلام وتعلم العربية، فلما أدركَ زوجوه امرأةً منهم وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم ودخل في بيت إسماعيلَ، وما كانَ إسماعيلُ في البيت فسأل زوجته عن إسماعيلَ فقالت: راحَ في الصيد قال: هل عندك من الطعام؟ قالت: لا، فلما رجع إسماعيل وجد أبيه إبراهيم فكانت امرأة إسماعيلَ قد أساءت الأدب بإبراهيم حينَ سألها من الطعام، فخرج إبراهيم عن البيت وقالَ لامرأة إسماعيلَ: إذا رجع بعلك أقرئي عليه سلامي، وقولي إنَّ عتبة داركَ غير مستقيم فلما سأل إسماعيل عن أبيه أخبرت عنه مستخفةً به فقالَ إسماعيل عليه السلام: ما قالَ ذلكَ الشيخ؟ قالت: قال إن عتبة داركَ غير مستقيم قال إسماعيل: ذلك الشيخ هو أبوي إبراهيم وأنت أسأتِ الأدب معه اخرجي عن بيتي فإني طلقتك.

فتزوج امرأة أخرى فجاء إبراهيم ودخل بيت إسماعيل فاستقبلته وألزمته وأجلسته فقال إبراهيم: هل عندك من طعام؟ قالت: نعم، فأحضرت اللحم

واللبن فلما أكله قالت له: رحمك الله أريد أن أغسل بدنك وثيابك. وسأل عن إسماعيل فقالت: ذهب إلى الصيد، فلما غسلت ثيابه وبدنه ورأسه وفرغ منه قد أثرت قدماه في الحجر الذي قام عليه، فلما رجع إسماعيلُ وقد خرج إبراهيم مِن البيت وقال لامرأته: إذا جاء بعلك أقرئي، مني السلام وقولي إن عتبة دارك قد استقامت فقال: إن ذلك الشيخ هو أبي وأشارت إلى موضعِ قدميه وتأثيرهما فأخذه مقامًا وكذا اعتبر كل مما صنعت أم إسماعيل منسكًا من مناسك الحج.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ متعلقة (بأسكنتُ) أي ليؤدوا إسماعيل وأتباعه الصلاة عند بيتك المحرم وإن ذكرك وعبادتك ولما يعمر به مساجدك متبركين بالبقعة التي شرفها على البقاع مُستصعدين بجوارك وهم المسلمون ومناجاتك متفرقات إليك بالقلوب عنده وبالطواف والركوع والسجود مستنزلين الرحمة ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعض أفئدة الناس وقلوبهم وخلاصة توجههم، ولو قالت أفئدة لعمت جميع الناسِ الترك والهند والروم والفرس وجميع أصناف الناس وعموم الخلائق ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ويميل لديهم ويحبهم وهو مقول القول لفعل جعل ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ارزق سكان القرى ذوات الماءِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ مما في نفوسنا وخبايا ضمائرنا وخبايا سرائرنا ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ كائن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما عليها ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 38] من جملته قول إبراهيم:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى﴾ وجاد لي وأعطاني ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: 39] بأن ولد إبراهيم إسماعيل وأعطاه له وهو ابن تسعة وتسعين سنة ثم إسحاق وهو ابن مائة واثني عشر سنة.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ ومتممها بالأركان وآدابها وشرائطها وسببها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: 40] وأجب دعوتي واستجبها.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ إن تابا وأسلما قيل إن أمه كانت مسلمةً فقيل قال ذلك قبل أن يدين حال أبيه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كلهم، وتخصيص المؤمنين بالذكر إما للتغليب أو للقلة ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41] أي يقوم الناس للحساب.

إشارة وتأويل

﴿قُل﴾ يا حقيقة محمد ﴿لِّعِبَادِىَ﴾ الأعيان الثابتة التعليم والحقائق الإلهية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الفطرة الأولى والنشأة العليا في بداية الدورة العظمى والكبرى والوسطى والصغرى النورية الجمالية الوجودية الصريحة إيمانًا وجوديًّا، والظلية الجلالية العدمية إيمانًا عدميًّا سلبيًّا تنزيهيًّا، والصورة الجمعية بين الموجود التشبيهي والعدمي التنزيهي كما يفصح كلمة لا إلٰه إلا الله ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الإفرادية والفرداريّة أو الجامعة لهما جمعية كاملة وهيئة كلية شاملة وهي الصلاة الحقيقية ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [إبراهيم: 31] من الحالات والمقالات النورية الجمالية والعلوم على ما يقتضيه الظل والجلال.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والأعيان النورية الجمالية الصريح ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي الأكوان الظلية والإدراكات الحقيقية الوجودية، رزقت في فرداريّة النور والجمال صريحًا والأحوال والحالات العدمية الجلالية في ضمن النور والجمال ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في فرداريّة الجمال إلى الظل والجلال لا بيع في ذلك اليوم على ما يقتضيه النور والجمال ولا السر ولا خلال الجلالية ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي سماء الدورة العظمى النورية ماء العلوم الحقيقية والحقيقة السرية ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية التي تليت من الأدوار والأكوار الإلهية والكونية ﴿رِزْقًا﴾ وغذاء الأرواح هو الإدراكات الكونية المتعلقة بحقائق الأكوان من المجردات الطبيعية والأجرام الفلكية والعناصر وما يتركب منها

والأحوال المتعلقة بها، وغذاء السر والفؤاد هو شهود التجليات، وغذاء النفوس وهو التدبير والتصرف في الغير، وغذاء القلوب هي الأخلاق المرضية والملكات الفاضلة والأوصاف الحميدة، وغذاء البدن هو الأجسام النباتية والحيوانية.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: 32] إشارة إلى الطوفانات المائية التي في الأدوار والأكوار وهي إما كلية أو جزئية، أما الكلية فهي عند انطباق دائرة معدل النهار على منطقة البروج دون اجتماع الكواكب السبعة السيارة في نقطة صغر الحمل إلى ما الجزئية فهو عند اقترانها في الواحدة من المثلثات والبروج المائية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ [إبراهيم: 32] العظيمة التي يقتضيها أرباب الأدوار المادية وهي العلم والحياة والقدرة والإرادة التي مظاهرها في الجنة هي أنهار الماء واللبن والخمر والعشب في الدنيا النيل والفرات والجيحون والسيحون كما ورد في الحديث: «**أن النيل والفرات والجيحون والسيحون يخرج من الجنة**»، وإشارة إلى الأعيان الكلية الظاهرة في الأدوار والأكوار التي يدير الله بها الأعيان الجزئية الباقية ويقال لها أرباب كما قال ﷺ: «**جاءني ملك الأنهار وملك الأمطار وملك الأشجار وملك الأثمار**».

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ إلى رب الدورة النورية وباطن الشمس وملكوتها والقمر وباطنه وملكوته رب الدورة الظلية الجلالية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33] الإلهيين، فإنّ الدورة النورية بأدوارها الأربعة الأصلية والفرعية وهي يوم واحد ونهار إلهي والكورة الظلية الجلالية المربعة الأصلية والفرعية وهي مع الأدوار الأربعة الأصلية والفرعية ليل واحد إلهي. والنسبة السرمدية عبارة عن ثلاثمائة وستين يومًا من أيامها واحد هو هذا اليوم، فسبحان الله من سرمدية ذاته وبقائه وديمومية صفاته وامتداد شهود لقائه لا بداية له ولا نهاية لتلقائه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي بلد مكة الدورة الكبرى التي هي أول دورة من الأدوار الغيبية وهي بلدة الأرواح وغيب صور الأشباح ﴿ءَامِنًا﴾ من تطرق فساد عالم الملك وكساد أسواق أجرام الفلك والتغيرات الزمانية والتحولات العنصرية والانتقال العنصرية ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35] الخيالية والأوثان الوهمية، وهي إدراكات المعاني الجزئية في ضمن المحسوسات الظاهرة

والمحسوسات الباطنة، فمن سعى من القوى النفسانية والمبادئ الروحانية والمنادي الربانية، فإنه مني وجزء غيبي وبعض من كلية عيني وحصة عن جمعية غيبي.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأصنام الخيالية والأوثان والإدراكات الوهمية ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 36] أي القوى الروحانية والمبادئ النفسانية وهي الشاعرة العشرة الشاعرة دينًا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37] من المبادئ العقلية وهي القوة النظرية والعملية ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37] وهي عالم البرزخ والخيال المبدئي وهو خال عن زرع عالم الملك، وقس على هذا سائر الأرباب وباقي البينات والرموز والإشارات. يريد:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد المشركين يريد أهل مكة يريد ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 42] يوم القيامة تشخص أبصار الخلائق أي القرى.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: 43] يريد خرجت القلوب من مواضعهم فصارت في الخفاء وتشخص بصيرة إلى الهواء.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم: 44] يا محمد يريد أهل مكة وذلك إنها أم القرى وهي وسط الدنيا ومن تحت الكعبة سطحت الأرض لا يهدم ساحلها وسطحت السواحل، فلو أن أهل مكة اتبعوا النبي ﷺ ما اختلف اثنان ويقال لو آمن الوليد ابن المغيرة ما خالف رسول الله، وهو الوحيد ابن الوحيد كذلك كان يدعى في الجاهلية، وكان نزل سبحانه وتعالى في بدر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: 11 - 12] يريد بين مكة إلى الطائف وبنين شهودًا عشرة حصورًا لمكة ومهدت له تمهيدًا ووسعت عليه في المعيشة ثم يطمع أن أزيد ﴿كَلَّآ﴾ لما فعل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: 16] يريد معاندًا عما أنزلت من حكمي وفرائضي ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: 17] يريد حجرة في جهنم لا يدري ما أهوالها ولا قعرها تحتها يريد مرهقة يريد يلجى إلى أن يصعدها وكلما يصعد وينزل يقع في قعر لا يدري منتهاه ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يريد يوم البعث ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يريد أشركوا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يريد أن الرجعة إلى الدنيا ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ يريد توحيدك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ يريد محمد ﷺ وجده قال الله تبارك

وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد خلقهم في الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44] يريد إنكم تتبعوا.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45] يريد فعلتم فعل المشركين قبلكم عمرو بن لحي فما دونه ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ يريد بتمردهم. وقال غيرهم من الأمم: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: 45] في القرآن.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ يريد ما مكر النمرود بإبراهيم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ يريد إذ خص الله حجتهم وجعل دائرة السوءِ عليهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 46] يريد يخلق الله الأصنام قبضة بيضاء ولم يقبض الله عليها طرفة عين والسماوات يريد تبدل وتطوى يريد الفتح والنصر وإظهار الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47] يريد أن الله تعالى شديد الانتقام.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ يريد ليس كمثله شيء ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ يريد يوم القيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: 49] يريد في سلاسل الحديد والأغلال.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ يريد النحاس المذاب بالقطران تسود الوجوه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: 50].

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يريد ما عملت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: 51] لا يقبل أهل الجنة إلا في الجنة ولا أهل النار إلا في النار، ومثل قوله تعالى في الفرقان: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفُرقان: 24] يريد مستقرهم في ظل عرشهم والمقيل في الجنة وقال في الكفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ يريد ما عملوا من عمل يريدون يومئذٍ به وجهي ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23] يريد التراب الذي يخرج من سنابك الخيل إذا ركضت.

﴿هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يريد ما نزلنا إليك من قصة إبراهيم ودعائه لولده وما يرى

منه من عبادة الأصنام وما دعاء المؤمنين والموحدين والمصدقين ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ يا محمد قومك ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يريد لا إلٰه غيره وحده لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: 52] في اليقظة أهل اللّب والبصائر والله أعلم. أقول:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42] قد استحالت الغفلة على الله تعالى لأنها ذهول ونسيان وجهول يتفشى من أعباء يحصل من التدبيرات البدنية للنفس والله منزه من النفس والبدن هذا تسلية للظلوم وتهديد على الظالم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 42] وتنفتح بلا انغماض وتقليب ولا تحسبن للثبات على الاستقامة والتجند على التوجه إلى اللّهِ وحضور القلب باللّهِ لأنّ اللّه حاضر على العبد ناظرٌ إليه بلا فتور ولا تصور، والخطاب إما للرسول على وجه يتضمن الخطاب لجميع الأمة عامًّا حكمه وإن كان بحسب المورد خاصًّا.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى من يدعوهم وأملي النظر إليه من غير أن يتطرق عنه وينعطف إلى غيره ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعها إليه من غير التفات إلى طرف آخر ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ لا يرجع من الدواعي إليهم نظرهم ولا ينقلب منه لديهم بصرهم بل عيونهم مفتوحة ممدوحة من غير تحريكٍ لأجفان وتقلبت الحدقة إلى غيره من الأعيان ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: 43] جمع فؤاد وهو وجه القلب الذي يلي الروح والوجه الآخر الذي يلي النفس هو الصدر وهواء خلاء وفضاء لم يشغله أجرام ولا أرض وأجسام بل هو خالٍ عن تمام الأشغال وعموم الأحوال يقال قلت فلان هواء يعني خال عن الصور والمعاني كلها لا يشغله شأن عن شأن وكذا يقال للأحمق قلبه هواء أي صفر وخالي عن الخير فكل أجوف خال عن الشواغل هو هواء يعني أن القلب في ذلك زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة عن هول ذلك اليوم وشدة فزعه.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ وخوِّفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة وهو مفعول به لأنذر ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وأشركوا وكفروا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أنظر وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو سؤالهم أن يردوا ويرجعوا إليها ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ جواب الأمر وجزاؤه ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ وحلفتم في دار الدنيا ﴿مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44] عن الدنيا ولذاتها بل أنتم باقون فيها أبدًا يعني يقولون بأن العالم قديم ونحن بالنوع قديم لا تزول الدنيا قط فلا حشر ولا بعث ولا نشر وأقسموا باللّهِ جهد إيمانهم أنه لا يبعث من مآب.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45] بالكفر والعصيان أي مساكن قوم نوح وأماكن زمرة صالح وثمود وغيرهم من فرعون ونمرود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ ويظهر ويتعين لديكم ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من التعذيب بعد العقاب ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ وبيّنا لكم وعينا لكم ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: 45].

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ العظيم الذي أسرعوا فيه جهدهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ إما مضاف إلى الفاعل كالأول أي مكتوب عند اللّهِ مكرهم الذين مكرهم به وهو عذابهم الذي يستحقون يأتيهم بغتة من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 46] وإن عظم مكرهم ويبالغ في الشدة فضرب زوال الجبال منه مثلًا للقائمة وكمال تفاقمه أي وإن كان مكرهم سوء لإزالة الجبال

معدًّا لذلك وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها نحو ما كان الله ليضيع إيمانهم أي ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الذاتية بنيانًا وتمكنا وقواه لتزول بلام الابتداء على معنى وإن كان مكرهم من الشدة بحيث يزول من الجبال وينقطع عن أماكنها كناية عن كمال الميثاق وتمام التمكن في الأدوار بأن الزمان ومرة الدوران وكرّة ينفي الأرض والجبال وبثلثهما وآيات اللّهِ وبنيانه وطريقه وثبوته ثابتة في تمام الأدوار والأكوار لم يتغير ولم يتبدل.

حكي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في معنى هذه الآية: أنها نزلت في نمرود الجبار والذي حاج إبراهيم في ربه إن كان يقول إبراهيم حقًّا وما يقول صدقًا فلا أنتهي حتى أصعد إلى السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفرخ من النسر فرباها حتى شبت فاتخذ تابوتًا وجعل له بابًا منه أعلى وبابًا منه أسفل وقصد مع رجل في التابوت وجعل على رؤوسها اللحم وربط التابوت بأرجل النسور وخلاها نظرت وصعدن طمعًا في اللحم حتى مضى يوم وصعد إلى الهواء وأبعدن التابوت عن نظر الخلق فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها؟ ففتح ونظر فقال: إنّ السماء كهيئتها ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها؟ فقال: أرى الأرض مثل الجنة والجبال مثل الدخان فطارت النسور يومًا آخر مخالفة الريح بينهما وبين الطيران فقال لصاحبه: افتح البابين؟ ففتح الأعلى فإذا السماء فنودي: أيها الطاغي أين تريدُ؟ قيل: كان معه غلام معه قوس وسهام فرمى سهمًا إلى السماء فعاد إليه السهم ملطخًا بالدم الحاصل من سمكة في بحر في الهواء قد قدت بإذن اللّهِ وأمره نفسها بالطيبة لنفس نمرود بأنه قد أصاب من السماء بشيء ظنًّا بأنه قد خرج من الملائكة نفر فقال: ضربت له السماء بالسهم، ثم أمر نمرود وصاحبه بأن يصوب الخشبات الموضوعة عليها اللحم وهبطت النسور بالتابوت فسمعت حقيقة التابوت والنسور ففزعت الخلائق وظنوا النسور قد وجدت تجددًا عظيمًا من السماء وبأن الساعة قد قامت فكادت السماء والجبال أن يزول عن أماكنها وذلك هو قول وإن كان لتزول منه الجبال ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48] يعني يبدل هذه الأرض التي يعرفونها إلى أرض أخرى غير هذه المقرونة والتبديل إما في الذات ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾ [النساء: 56]، فالله يبدل السماوات بما فيها من الكواكب من ذات وصورة وشكل إلى صورة وذات وشكل آخر بأن أذهب هذه السماوات وكل ما فيها من الكواكب وخلق بدلها ومكانها سموات وكواكب أخرى وكذا الأرض. عن علي رضي الله عنه: يبدل أرضًا من فضة وسماوات من فضة إلى أرض وسماوات من ذهب، وأما في الأوصاف والأشكال بأن بدلت من التربيع والتثليث إلى الأسطوانة والمخروطة والاستدارة عن ابن عباس المراد هو الثاني ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 106 ـ 107]، والسماوات هي هذه كما أن المبدل منها إما أعظم أو أصغر على مستدير أو غير مستدير والأرض أيضًا إما أعظم أو أصغر بمستديرة أو غير مستديرة أو بيضي أو عذيبي أو ثلجي فصار في الوقت الثاني مثل الأول أو غيره وذلك بإرادة الفاعل المختار الذي يفعل من يشاء بقدرته ويحكم بعزته وإرادته قال النبي عليه السلام: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء وعفراء**». وأيضًا تكونُ الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفئان الخبز بيده كما يكفي أحدكم خبزه في السفرة إنزالًا لأهل الجنة ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ أي يوم القيامة مقرنين مشددين بعضهم ببعض ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: 49] وفي القيود والأغلال وفي الأطناب والسلاسل والجبال.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قميصهم جمع سربال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ نسبة النفط الأسود وأنتن وأمتن يجلب من شجرة الأبهل تطلى به جلود الحيوانات ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ وتستر ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: 50] ويعلو بها ويفوق عليها.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ﴾ من خير وشر ونفع وضر وبرد وحر في بر وبحر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: 51].

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ القرآن والكتاب والفرقان ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ وتبليغ وكناية لهم في التذكير والموعظة ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ وليخوفوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: 52].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



ترتيبها 15 سُورَةُ الحِجر آياتها 99 مكية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي حجر سرائر المحبين عن خطرات الأنفس ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي جعل في سماء الألوهية بروج ربوبيته وزينها بنجوم سمائه وصفاته الذاتية ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 41-42] على طرايق الحسن وروايق النفس.

﴿الٓر﴾ يريد أن اللّهُ الرحمن ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد ما افترض على عباده الأحكام ونصائص رسوم الأعلام ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: 1] يريد خير الأولين والآخرين.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريد الذين في الطباق السبع من جهنم ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: 2] يريد حيث أخرج المسلمين من جهنم من الطابق السابع برحمة اللّهِ وبالتوحيد بعد ما مستهم النار فصاروا كالحميم وكالجريدة المحترقة مثل قوله تعالى في المدثر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثّر: 42 - 43] يريد من الموحدين فيخرج كما خرج ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: 44] فتخرج لما خرجوا ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: 45] يريد أن للّهِ ولدًا وأن له شريكًا ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: 46] يريد الجزاء يوم الثواب ويوم العقاب ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: 47] يريد الموت ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: 48] كما نفعهم الموحدين.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحجر: 3] أي

يفضلهم طول الأمل ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 3] تهديد من الله ووعيد.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ يريد أهل القرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: 4] يريد إلا أهل يتهيأون إليه.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ يريد بأنه مدة الوقت الذي وقّت لها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: 5] وما يؤخرون.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ الذكر النبي ﷺ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6] استهزاء منهم لأنه لو أيقنوا من أنه نزل الذكر ما قالوا ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ ولكنهم استهزأوا كما قال قوم شعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] استهزاءً منهم لأنهم يريدون إنك أنت السفيه الجاهل.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ يريد فلا جئتك بالملائكة حتى يصدوك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الحجر: 7].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يريد بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: 8] يريد إذا نزلت الملائكة لم يناظروا إلا بالحق يريد نفسه تبارك وتعالى.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ مما أنزل من الكتب على الأنبياء ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] يريد لمن صدق به وآمن.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يريد آتينا ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 10] في الأمم الأولين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن﴾ قبلك يا محمد ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: 11] يريد كثيرًا ما استهزأ بك قومك بعد طول إكرامهم ورضائهم عنك.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: 12] يريد نسلك الشرك وندخله في قلوب المشركين المكذبين كما نسلك الخرزة في الخيط.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ لا يصدقون القرآن ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 13] يريد معنى مثل الأولين.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: 14] يريد فطفقوا فيه يصورون وينظرون فيه إلى ملكوت اللهِ وقدرته وسلطانه وإلى عبادة الملائكة

الذين هم من خشية ربهم مشفقون.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ حجزت أبصارنا وجعلت مسحورة فاضربوا منه بهذا وافترقوا وقالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: 15] قالوا من السحر، قالوا: مخلوقين نحن على السحر.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ يريد بروج الشمس والقمر وسائر الكواكب وقال بعضهم قصورًا ﴿بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: 16].

﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: 17] يريد بحفظه إياها محمد ﷺ قوله: أوحي إلي أنه استمع وإنا كنا نقعد منها قبل اليوم مقاعد المستمع ممن يستمع كان يريد مدينتي محمد نجد له شهابًا وصعدًا يريد نارًا نرمى بها ولما قال في الصافات: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الآية: 10] نارًا محرقة.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: 18] يريد لأهل الأرض.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ يريد بسطناها ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ يريد الجبال لئلا يمتد بابها ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: 19] يريد من الثمار مما يكال ويوزن.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ يريد من الثمار والحبوب ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ﴾ [الحجر: 20] يريد ملكتم فيها معايش ﴿بِرَٰزِقِينَ﴾ يريد أنا رازقهم وأنا خالقهم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أقول: إن أول الأوائل ومبدأ الأدوار ومنتهى الأكوار، وآخرها تلك المكاتبات وتلك السكونات في الدورات والكورات آيات الكتاب الإلهي، وهذه السورة هي آيات الكتاب ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: 1] عطف بيان لكتاب الذي فيه الأحكام قواعد الحلال والحرام وترجمان أعلام عقائد أهل الإسلام ويمكن أن يراد بالكتاب ما كتب فيه الأحكام الشرعية الفرعية، وبالقرآن ما جمع فيه الأصول والفروع أو بالعكس قيل المراد هو التوراة والإنجيل.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حين عاينوا المسلمين مظفرًا منصورًا ومكرمًا مسرورًا وكونهم في أيديهم اليسر مقهورًا في الدنيا أو وقت حلول الموت وانقطاع الأمل أو يوم القيامة، ربما قرأ بالفتح والراء والتخفيف، وفيه ثمان لغات ضم الراء وفتحها والتشديد والتخفيف وبتاء التأنيث ودونها وما كافة عن الجر، فيجوز دخول الراء على الفعل وحقه أن يكون مع الماضي إلا أنه لما كان المترقب في أخبار اللّهِ تعالى كالماضي في تحققه أجراه مجراه، وقيل: ما يكره موصوله كقول الشاعر:

وربما تكره النفوس في الأمر لـه فرجة كَحَلِّ العقال

أي رب شيء يكره معه النفوس وفي معنى التعليل إيذان بأنهم ﴿لَوْ كَانُواْ﴾ يودون الإسلام مرة فبالحري أن يسارعوا إلى اللّه فكيف وهم يودونه كل ساعة، وقيل لدهشتهم بأحوال القيامة وأهوالها تمنوا ذلك، روى أنه إذا اجتمع أهل النار في النار، ومنهم من يشاء الله من أهل القبلة فيخرجون ههنا قال الكفار: ولمن في النار من أهل القبلة اسم ﴿مُسْلِمِينَ﴾ قالوا: بلى قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفر الله لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فيخرجون، فحينئذ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: 2] ربما ههنا للتكثير إلا أن اشتغالهم بالعذاب لا يفزعهم للندامة ولما يخطر ببالهم إلا أحيانًا.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا محمد ودعهم ﴿يَأْكُلُواْ﴾ ما أرادوا وكم أرادوا وكيف أرادوا في أي وقت أرادوا ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ وينتفعوا من الدنيا وما فيها ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ بشغلهم وبفعلهم ليوقعهم طول الأعمال واستقامة الأحوال عن الاستعداد بعمل المعاد ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 3] نتائج ما يعملون يوم القيامة وفي هذه الآية تهديدان ونوعان من التخفيف كما لا يخفى.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ وأهلها ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: 4] وأجل مرسوم.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أصلًا وقطعًا ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحِجر: 5] أبدًا يعني أن زمان الموت ووفاته لا يتقدم ولا يتأخر مما قدره الله تعالى وعينه فمنه لبيان استغراق النفي.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي مشركو مكة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحِجر: 6] القرآن الذي يذكر النفوس والأرواح التي قبلت في المعاهد الأزلية والمعاقد الأولية والعهود الجارية بينهم وبين الله في مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحِجر: 6] بهذا الحكم منهم حد الاستهزاء وتعريض كما قال فرعون في موسى إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ليس من قبيل ما قالوا في شعيب عليه السلام: إنك لأنت الحليم الرشيد، إشعار بأن طور النبوة خارج عن طور العقل إذ العقل لإقامة أحكام الشرائع ووصول التكاليف لا لإدراك سر الربوبية كما صرح به الرسول عليه السلام: «**العقل لإقامة سرّ العبودية لا لإدراك سر الربوبية**»، نظمه، وقد سبق أن ورد في السابق:

كيفية المرء ليس المرء يدركه فكيف كيفية الجبار في القوم
هو الذي أنشأ مبتدعًا فكيف يدركه مستحدث القسم

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الحِجر: 7] ركب لو مع ما كما ركب مع لا، بمعنى لست يا محمد برسول ولا نبي إذ لو كنت نبيًّا لجئته بالملائكة التي تصدقك فحينئذ يكون من الصادقين كما قال عمر رضي الله عنه: لولا علي لهلكتم.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ تنزيلًا مثليًّا بالحق والتنافي للصدق وعلى الوجه الذي تقتضيه الحكم الإلهية، وبين أنها لو نزلت الملائكة لهلكوا كما قالوا: لو أنزلناه ملكًا لقضي الأمر، والحال أن منكم منذر يأتكم من شعيب كلمتنا بإيمانهم قبل الحق ههنا هو الوحي ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحِجر: 8] أي وقت أنزل

الملائكة المستلزم للإهلاك ﴿مُنظَرِينَ﴾ ممهلين وإذا جواب جزاء الشرط مقدر أي لو أنزلنا الملائكة لما كانوا ممهلين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ والقرآن على محمد كيف شئنا حتى وأين أردنا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: 9] من التحريف والنسخ أو محمد من الكيد والإهلاك والمكر والافتراء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلًا وآتينا ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحِجر: 10] والأمم المتقدمين والشيعة أي القوم الذي انتفعت كلمتهم وطريقتهم ومذهبهم من أشياعه إذا اتبعه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ فهي الشيع الأولين ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ [الحِجر: 11] تسلية للنبي وتطييب لقلبه وتنبيه، وما للحال لا تدخل إلا مضارعًا أو ماضيًا قريبًا منها حكاية للحال الماضية.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾

و﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحِجر: 12] مشركي قومك يعني سلكنا وأدخلنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأولين كذلك نسلكهما ويدخلهما في قلوب مشركي قومك، رد على القدرية بأن الله حكم بأن أدخل الكفر والباطل وغيره من الأباطيل في قلوب العبادِ لا غيري وإبليس يدعو ويزين يدخل في النار. قال النبي ﷺ أنه مبلِّغ والله هادي وقاسم والله يعطي، وقال أيضًا: «**بعثت داعيًا ومبلِّغًا**» وليس من الهداية شيء، وخلق إبليس مزينًا وليس من الضلالة شيء.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ حال من الضمير المنصوب أو بيان للجملة المتضمنة والأولى أن يجعل حالًا من المجرمين ولا ينافي كونها مفسرة للمعنى الأول بل يقويه ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحِجر: 13] ومضت سنة الله فيهم بأن حد لهم

وسلك الكفر وأدخل ما هو أماراته في قلوبهم أو بإهلاك من كذب الرُّسل، فيكون وعيدًا وإنذارًا لأهل مكة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ على هؤلاء القائلين لو ما تأتينا الملائكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ﴾ صاروا ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحِجر: 14] الفاء للعطف للتعقيب ولو فتحنا بابًا وبعد ذلك دخلوا فيه أي في ذلك الباب متعاقبين ورؤوا الملائكة عيانًا وشهودًا.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي صيرت وسحرت عيوننا فلا ندرك الشيء على ما هو عليه في نفس الأمر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحِجر: 15] قد سحرنا محمد كما قالوا عند ظهور غيره من الآيات، وفي كلمتي الأحزاب والحشر دلالة على البت بأن ما نراه لا حقيقة له بل هو باطل في نفس عاطل في حسه يقبل إليهم بنوع من السحر.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الحِجر: 16] هي على ما دلت عليه الكتب السماوية والبحرية والأرصاد وصرح به أخنوخ النبي ﷺ وهو إدريس الذي رفعه الله تعالى إلى السماء السابعة وأسكنه في مركز كرة تدوير زحل، وحركته هو ثلاثين سنة وأعلمه أشهده حركات الكواكب السبع السيارة كمًّا وكيفًا شرقًا وغربًا في هذه البروج التي صورها في الفلك الثامن وحقائقها في الفلك الأطلس وفلك الأفلاك المسمى بلسان الشرع اثنا عشر، وأسمائها: حمل، ثور، جوزاء، سرطان، أسد، سنبلة، ميزان، عقرب، قوس، جدي، دلو، حوت، ويسمى هذا الفلك بالكرسي الذي وسع الأفلاك والسماوات السبع وأحاطها والأرض ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يدل على هذا الفلك محيط بالأفلاك السبع، خلافًا لما ذهب قوم من ظاهر أهل الإسلام على أن الأفلاك كالخيام الموضوعة على الأرض أذيالها على جبل قاف غير أنه يحيط بالأرض إحاطة تامة، ووسعها سعة عامة، إذ لو لم يحُط بها لم يصبح قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية 255] لما خلق الله

سبع سموات طباقًا ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: الآية 15] بعضها محيط بالبعض، وكذا الفلك الثامن والتاسع يحيطان بالباقية، فصور البروج تكون منطبقة على حقائقها في بدو الفطرة ودرجاتها على درجاتها ودقائقها وثوابتها على دقائقها وثوابتها إلى عاشرها، فلو كان الفلك الثامن ثابتًا غير متحرك لكان انطباق الصور على حقائقها ثابتًا غير زائل عنها، وأما إذا تحرك حركة بطيئة زالت الصور عن الحقائق وانصرفت الصور عن محاذاة حقائقها، فإن صورة الحمل مثلًا قد كانت منطبقة على حقيقة الحمل التي كانت ثابتة في ذلك الأفلاك والعرش.

فلما تحركت منطبقة البروج التي تقاطعت مع منطقة معدل النهار على لفظتين متقابلتين أحدهما: التي إذا تجاوزت الكواكب عنها صارت شمالية تسمى بالحمل، والنقطة الأخرى التي انحرفت الكواكب عنها: صار جنوبًا يسمى بالميزان، فنسبة من هذه البروج شمالية وهي الحمل إلى الميزان، ونسبة جنوبية وهو من الميزان إلى الحمل، فنصف من منطقة البروج شمالية وهو من الحمل إلى الميزان ونصف جنوبية وهو الميزان، ومعدل نهار فلك الأفلاك مستقسم بالدوائر الستة للتقاطع على نقطتين متقابلتين، وهما القطبان فينقسم معدل النهار بهذه الدوائر الست اثنا عشر قسمًا متساوية منحصرة بين القطبين، فكل قسم منها ربا مائة وثمانون جزءً من المعدل كان برجًا هو طول البرج، وأما عرضه فهو جزء من معدل النهار محصورتين دائرتين وهو ثلاثون جزءًا ودرجةً يسمى عرض البروج، فلو فرضنا هذه الدوائر الست قاطعة لمنطقة البروج وفلك البروج تصير تلك البروج منقسمة على اثنا عشر قسمًا على ما مر في ذلك الأفلاك ومعدل النهار كل قسم منها برجًا أيضًا، وأنت خبير بأن الكواكب الثابتة إنما تعتبر في منطقة الفلك الثامن على مئة حاجة، ونسبة مخصوصة خاصة يؤخذ منها صورة من الصور الاثنا عشر كالحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة وغير ذلك، وهذه الصور في الفطرة الأولى توازي الحقائق المذكورة.

وإذا تحركت منطقة البروج انتقلت النقطة تقاطعت منطقة البروج ومعدل النهار عليها من منطقة البروج إلى غير تلك النقطة من معدل النهار، وكذا جميع النقاط من منطقة البروج تنتقل من محاذاة تمام النقاط المعدل، وبهذا الانتقال لا

يظهر إلا في أزمنة متطاولة لأن منطقة البروج في كل مائة جزء واحدًا وسبعين أو ستة وستين سنة، ولذا ما أثبت الأوائل لمنطقة البروج حركة، والذين من بعدهم أدركوا لها حركةً إلا أنهم ما عينوا مقدارًا لها، ثم الذين يلونهم عينوا في كل مائة سنة جزءًا، وأما الذين بالغوا في الحساب وجدوا في كل سبعين سنة أو ستة وستين سنة قطعت جزءًا واحدًا ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي البروج أو السماء الدنيا بمصابيح ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحِجر: 16] إليها المتقابلين فيها قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: الآية 191]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: الآية 5] الآية.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحِجر: 17] مرجوم مذموم مطرود، عن ابن عباس: إن الشياطين كانوا يدخلون السماوات كلها، ويسمعون الكلام من الملائكة المدبرة لها الحوادث النازلة من العرش إلى الأفلاك الملكوتية، وبذريعة النجوم وواسطة الكواكب الثابتة السيارة، ينزل تلك الحوادث والأفياض النازلة من السماوات العلى الإلهية والأفلاك الربوبية إلى السماوات الجسمانية، اجتمعت أولًا في فلك التاسع المسمى بالعرش، ثم بواسطة الكواكب قد انفصلت الأفياض النازلة وظهرت وتعينت وتميزت بعضها عن بعض، فحينئذ يدركون الشياطين بعضها ويكفونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلث السماوات وعند ولادة محمد ﷺ منعوا عنه جميعًا فذكروا لإبليس فقال لقد حدث في الأرض حادث فبعثهم فوجدوا رسول الله يتلو القرآن فقالوا:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ استثناء منقطع ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ واختلاسه واستسلامه من نطاق السماوات وسكانها لما تبنتهم من المناسبة الذاتية والجوهرية، وذلك إما بالاستدلال من أوضاع الكواكب واتصال بعضها ببعض وحركاتها المخصوصة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ ولحق أي الاستماع الحاصل من الاستراق ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحِجر: 18] شعلة من النار أن الشياطين يتركب بعضها إلى بعض إلى السماء الدنيا ليسترقوا استماع الأفياض النازلة والحوادث المزايلة من سماء الدنيا فيرمون بالكواكب

والشهب الحادثة لطردهم ومنعهم عن الإشراق فيهم من فتيلة تلك الشهب، ومنهم من يخرق وجهه وجبهته وجسمه وبدنه كيف ما شاء الله، ومنهم من يخليه ويتركه فيصير غولًا يصل الناس في البوادي والبراري.

قال النبي ﷺ: «**إن الملائكة تنزل في الغيوم**» وهو السحاب، فقد تذكر الأمر الذي قضى في السماء فيسترق الشياطين السمع فيسمعه فيوحيه ويلقيه إلى الكهان فيكذبون منها مائة كذبة من عند أنفسهم، قيل إن من فرغ وكشف للرمي بالنجوم هنا يحيى من ثقف، فإنهم جاءوا إلى رجل منهم اسمه عمرو بن أمية وكان أدهى العرب فقالوا: حدث من الرجم بالنجوم فقال: بلى فقال: فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يرمى وهي والله يهدى بها في ظلمات البر والبحر، ويعرف بهذا الأنواء من الصيف إلى الشتاء، يصلح الناس بها معايشهم باقية فهي في الدنيا وهلاك الخلق فيها، وإن كانت نجومًا غيرها وهي باقية على حالها، فهذا الأمر ما أراده الله بهذا الخلق.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ وبسطناها على وجه الماء ودحيت تحت الكعبة في خمسمائة عام ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الحجر: 19] وجبالًا ثوابت وعوالي لدى انصراف دائرة معدل النهار عن منطقة البروج بعد الانطباق عليها لأن اللّه تعالى خلق معدل النهار أولًا منطبقًا على منطقة البروج والكواكب مقترنة ومجتمعة في صغر الحمل العناصر بأسرها محيطًا بعضها ببعض والأرض في وسط الكل على وجه ينطبق مركز ثقلها على مركز حجمها، ثم أمر الله تعالى أن ينصرف معدل النهار عن منطقة البروج، ففي أي جانب مال حضيض الشمس مال الماء إليه وانكشفت الأرض في الجانب الآخر لديه، مثلًا مال الحضيض إلى جانب الجنوب مال الماء إلى الجنوب، وانكشفت الأرض في جانب الشمال ووقعت العمارات وسكنت الحيوانات فيه، وإليه الإشارة في قوله: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30] ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدر بارز ومكيف ومكمون ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] وهو أعم من النبات لشموله للمعدنيات من الحجر الشريفة

والخسيسة كالذهب والفضة والحديد والنحاس وغير ذلك، والإنبات مستعار للخلق والإظهار.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها بما يتوقف منه آلات الحرث وأدوات الطبخ واللبس ﴿وَمَن لَّسْتُمْ﴾ عطف على معايش أي جعلنا وخلقنا لكم فيها معايش والذي لستم ﴿لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحِجر: 20] من الأناعيم والدواب بل رازقهم كما هو خالقهم هو الله لا أنتم، بل خالقكم ورازقكم وخالق ورازق لكل شيء هو الله.

إشارة وتأويل

﴿الٓر﴾ إشارة إلى آخر الدورة الرابعة وهي الدورة الصغرى الفرعية النورية من الأدوار الأربعة النورية الفرعية ونهاية الأدوار النورية الجمالية الصريحة والجلالية العدمية الضمنية ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأجزائه النازلة في تلك الأدوار متفرقة متفردة متمردة متعنفة ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحِجر: 1] أي الصور الجمعية التي تظهر في نهاية الدورات المنطوية على كمال الإجمال والتفصيل.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحِجر: 2] وأسروا من الأعيان الظلية العدمية الساترة للأعيان النورية الجمالية، واختفت آثار أنوارهما وتوارت ظلالهما العدمية وانتفت كمالاتهما ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحِجر: 2] مستسلمين للأعيان النورية.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا حقيقة محمد السارية في تمام الكائنات وعموم المكونات في الأدوار النورية الجمالية الوجودية صريحًا، وفي الأكوار الظلية الجلالية العدمية ضمنًا ﴿يَأْكُلُوا۟﴾ من مقتضيات الأدوار النورية والوجودية صريحًا ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ ينتفعوا من مرتضيات الأكوار الضمنية ضمنيًا ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويملهم ويصرفهم التوجه إلى العمل عن الكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحِجر: 3] عند الانتقال إلى الفرداريّة الظلية الضمنية التي كانت خفية فصارت صريحة جلية وبين القيمة العظمى النورية الوجودية.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ بالتخريب ومنع العمارة ونفي الحرث والزراعة، أو

بالطوفان الكلي والجزئي، أو بإهلاك ساكنيها، أو نفيهم عنها ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحِجر: 4].

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحِجر: 5] إذ حركات الأدوار الدورية والحركات الدورية متسعة منتظمة، فإن كل جزء من الأجزاء التي وقعت على الاستدارة لها سابع وعاشر ورابع، فإذا تحركت لا بدّ وأن يتحرك سابعها بل جميع الأجزاء التي بين هذه الأوتاد الأربعة كلها يتحرك لا يمكن أن يتقدم جزء هذه الأجزاء المتتابعة ولا يتأخر لا في الطلوع ولا في الغروب ولا في الأصول إلى الرابع والعاشر، وكذا الحكم في سائر النقاط ومقابلاتها.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا﴾ الحقيقة المحمدية ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ في بداية الدورة العظمى الإلهية بالتجلي الذاتي الذي هو مبدأ القوة الذاتية ﴿ٱلذِّكْرُ﴾ التجلي الذاتي بالعنوان الوصفي يعني العلم الذي هو باطن القرآن الذي من شأنه أن يذكر النفوس التي هي حملته في الفطرة الأولى عن المواشي التي جرت بينهم وبين الله في موطن الأحدية الجمعية ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحِجر: 6] مستودعة عيون الأعيان وجفون الأكوان.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [الحِجر: 7] إشعار بأنهم يذكر دائمًا تقدم في فرداريّة الدورة العظمى والكبرى من أن الرسل فيهما كانوا بصورة الملائكة الفرعية لأن أعيانهما كانوا بالتعينات الملكية فإذن لا بدّ أن يكون الرسول فيهم من جهتهم كما يجب أن يكون في فرداريّة الدورة الصغرى النورية الفرعية التي أعيانهما من جنس الأجسام الكثيفة البشرية، والرسول من جنس أعيان هذه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4] لما تقرر من أن في كل دورة دينًا وعلى مقتضى ما روينا بما يبعث الله فيها رسولًا وينزل فيها كتبًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ في الأدوار الوسطى والكبرى والعظمى ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحِجر: 10] من الأعيان البرزخية والروحية الملكية العاملة والعقيدة والملكية العالية والأعيان إلا الله والشؤونات.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحِجر: 11] إشارة إلى أن الأنبياء والرسلُ في كل دورة وإن كانوا بحسب الظاهر من جنس أعيان تلك الدورة، إلا

أن اللّه خصصهم بمزيد عناية ومزية شرف وهيئة ومنزلة لا يعلمهما إلا اللّهُ، وكذا لأولياء لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: 62 - 64]، وللحديث القدسي: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري**».

قال النّبي ﷺ: «**الأغنياء من طين الأرض وخلق الله الفقراء والأنبياء من طين الجنة**»، وقال النبي ﷺ: «**سألت جبرئيل عن علم الباطِن فقال جبرائيل: سألت اللّه عن علم الباطن فقال: هو سرٌّ بيني وبين أحبائي وأصفيائي وأوليائي أودعته في قلوبهم لا يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل**» عنه هذا علم أن يشبه أعيان الأدوار النورية وأكوان الأكوار الظلية إلى الله متفاوتة وهو التفاوت إنما هو من اللّهِ وبكمال إرادته وشمول مشيئته ونور حكمته البالغ، فكانت نسبة الأعيان إلى اللّهِ متفاوتة، كذلك نسبتهم إلى الأغنياء والأولياء وأيضًا متفاوتة، وبهذا التفاوت صار البعض مؤمنًا وعارفًا موافقًا، والبعض الآخر كافرًا وعاصيًا ومنافقًا وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحِجر: 11].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الحِجر: 16] السماء عبارة عن التجلي الذاتي السرمدي الذي يتفصل أنوار أسرار عينه إلى اثنا عشرة دورة وكورة، ثمانية منها بسيطة إفرادية وارتقى مركبة جمعية وهي بروج للسماء السرمدية، والدورة الإلهية السرمدية عبارة عن يوم وليلة، فيومها هو الأدوار الأربعة النورية الوجودية الجمالية، وليلتها هي الأكوار الأربعة الظلية العدمية الجلالية الإفرادية البسيطة وهي ثمانية، والأربعة أي جمعيتها التي هي نهار في ليل وليل في نهار وهي الآن الدائم الذي اندرج فيه الأزل والأبد والمشهد في المغيب، والمغيب في المشهد والحدوث والقدوم في السرمد، واندرج فيه الصباح والمساء في الصباح إلى أبد الأبد والأبد ليس عند ربك صباح ولا مساء، وكل برج منه بهذه البروج الدورية مشتمل على ثلاثين درجة أو أحكام أسرار الدورة الإلهية التي اندمجت في هذه الأدوار المدرجة لا ينفصل ولا يقبل التفصيل إلا في دورة ربانية هي عبارة عن ثلاثمائة وستين يومًا، كل يوم عبارة عن خمسين ألف سنة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: 5] فاصبر صبرًا جميلًا.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحِجر: 19] أي الإمكان الأزلي والاستعداد الذاتي الذي

أفاده الوجود الذاتي وأعطاه الفناء الذاتي الذي هو في تلك المرتبة الذاتية عين التجلي الذاتي الذي يعبر عنه بالفيض الأقدس.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ يريد ملك خزائنه وأقول: كن فيكون ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] يريد ما يريد ما يكفي خلقي مما بدت على وجه الأرض.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ يريد الشجر والسحاب ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ كمن يريد النيل نيل مصر ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: 22] كما قال في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: 1]: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: 18 ـ 19].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ يريد نفسه تبارك وتعالى ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: 23] يريد الأرض ومن عليها حتى لا يبقى إلا هو وحده لا شريك له وذلك في النفخة الأولى لقوله تعالى في الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [68] يريد الشهداء.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ إلى طاعة اللّهِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: 24] عن طاعة اللّهِ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: 25] يريد إنه حكيم بما حكم فيهم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ آدم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26] لم يسم التراب ولا الإنس.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ إبليس ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 27] مثل قوله تعالى في الرحمن: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [14 ـ 15] يريد خلق نارًا من نار فيها السموم والنار الأقوى كخلق إبليس منها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كلهم الذين إبليس أولهم ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ دمًا ولحمًا ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 28] يريد الطين الذي جفف

وتصلصل مثل الذي في السيول أو في المروج فيذكره الصيف والحر وشدّة الشمس فيسفق ويتصلصل ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ يريد قد صار كالحمأة منتن.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ يريد لحمًا ودمًا وإبليس جانّ لا لحم ولا دم وعظم ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: 29 ـ 35] إلى يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم ويدين أهل الجنة بالنعم والسرور والثواب وأهل جهنم بالخزي والشقاء والعذاب.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36] يريد يوم لا يبقى أحد إلا الله وحده لا شريك له فأبى الله ذلك.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 37 ـ 38] أي يوم يموت فيه الخلائق أجمعون للنفخة الأولى.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ يريد بما أضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: 39] يريد الحياة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39 - 40] الذين عصمهم وأخلصهم وأخلصوا، قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أقول ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه وإعداد إعطاء أسبابه ووجوده وتدوينه فالخزائن كنايه عن كمال قدرته ووفور اقتدار ونسبته موردًا بالأشياء المخزونة التي لا يخرج إخراجها على كلمة واجتهاد ومؤونة قيل إرادتهما المطر ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ ولا تتعلق القدرة على وفق المشيئة والإرادة ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] وقدرته الحكمية وصورته الإرادية والمشيئة بوقت وبرهة مُبينة عن جعفر عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ وحوامل شبه الريح التي جاءت الرياح منه نشأ سحاب ماطر بالحامل كما شبه ما لا يكونُ كذلك بالعقيم أو بمعنى الملاقح والشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات في قوله ومختبط ممّا تطيحُ الطوائح وقواء، وأرسلنا الريح على تأويل الجنس قيل اللواقح جمع لقاح وواحدتهما ملقحة لأنها تلقح الأشجار عند أكثر المفسرين، لا يقطر قطرة من السماء إلا بعد أن يعمل الأربع فيه، فانصبا بهيجه والشمال يجمعه والجنوب يبرزه والدبور يفرقه، وأما الريح العقيم فإنها تأتي بالعذاب ولا يفلح ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلنا لكم المطر سقيًا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: 22] قادرين متمسكين على إخراجه نفي عليهم، أما آتيناه لنفسه ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ لكن وجه الخصوص تنبيهًا على كمال عجزهم وعلو شأنه وسمو برهانه وشمول قدرته وعموم إرادته، كأنه قال نحن الخازنون للأشياء كلها، ومن الماء فإنا خلقناه في السماء ثم أنزلناه منها إلى الأرض فأسقيناكموه وأنتم عجزتم عن خزائنه وهو أسهل الأشياء فضلًا عن صنعها وأعظمها وأصعبها وهو هذا.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: 23] على وجه العموم بإفناء جميع الخلائق وإهلاكهم ورجوعهم بتمامها كان واصلًا منه إليهم ظاهرًا وباطنًا صورة ومعنى فما بقي من الموجودات أحد يستحق الإرث والتصرف سواه، فهو الوارث الحقيقي، فهو خير الوارثين قيل الباقي هو الوارث استعادة من وارث الميت بأن الوارث لا يكون إلا الموجود الفاني.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي الأموات والمستهلكين في دوابهم أو من خلق الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: 24] منه لمن يخلقه الله أو المستقدمين في صفوف الصلاة والمستأخرين فيها، أو في الإسلام أو في الجهاد أو من خرج من أصلاب الآباء ومن يخرج بعد.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾ على ما علم منهم كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تحشرون، وقال أيضًا من تاب على شيء بعثه الله عليه، قيل يميت الكل يحشرهم الأولين والآخرين للجزاء، وإظهار كمال الفضل والعدل وعموم قدرته وحكمته وشمول إرادته وعدم تناهي قدرته، وتوسيط ضمير الفصل للدلالة على حصر تولية الحشر عليه بلا شركة الغير، كما سياق سائر الفقرات المتقدمة الدالة على الحصر، والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وإرادته وعلمه وهذا يدل على صحة الحكم والحكمة والعلم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: 25] بأمر الحكمة ظاهر الآيات والبينات يفعل على مقتضى الحكم وأحاط بكل شيء علمًا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ من طين يابس غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار، فهو في الأصل الصوت فإن الطين ما دام رطبًا لا يسمع منه الصوت فإذا جف سمِع منه الصوت، قيل هو الطين الأسود المتغير ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26] مصور ومصبوب مفرغ أي أفرغ صورة الإنسان وصبت كما يفرغ الصور من الجواهر المذابة في أمثلتها، وقيل هو المبين من حمإٍ صفة صلصال، ومسنون إذا كان بمعنى المصور فحقه أن يكون صفة صلصال.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ﴾ هو أبو الجن لما أن آدم أبو البشر، وإبليس أبو الشياطين والجن بعضه مؤمن وبعضه كافر، وأما الشياطين فليس منهم مسلم قال بعضهم إن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومنهم بمنزلة الريح لا يتولدون ولا يأكلون ولا يشربون ﴿مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 27] الحار يدخل أنسام الإنسان فيعفن الروح الغريزية ويفسدها ويقلبها ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل، قيل هذه جزء من سبعين جزءًا من سموم النار التي خلقت فيها الجان، قيل إن إبليس كان من جمعية الملائكة التي يقال لهم الجن خلق من نار السموم وخلقت الجن التي كفرت في القرآن من مارج من نار.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ وعدلت خلقته ونفخت فيه من روحي وفي الكشاف ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أخلقه وليس ثَمَّ نفخ ومنفوخ وإنما هو تحصيل بمثل لما هو لتحصيل ما عين به فيه كلامه، أقول بهذا كلام خطابي منه ميزته بلا مرية وحرف، كلام الله إلى خلاف الظاهر مع أنه في نفسه ممكن، والاستحالة فيه خارج عن طور التحقيق وإن نفي النفخ يستلزم نفي مطلق النفخ، كما أن نفي اليد الجارحة عنه تعالى لا تستلزم نفي اليد المطلقة، وأيضًا قد ثبت أن لكل آية ظهرًا وبطنًا إلى سبعة أبطن كما ورد في الحديث، ودعوى الحصر غير ظاهر ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 28 ـ 29].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كل الملائكة كما يدل عليه قوله ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30] بتكرار التأكيد أو الملائكة الذين يؤمرون بالسجود.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: 31 ـ 33] والتقليل ما وقع في حيز القبول لأنه نظر في ظاهر آدم وجزئه الأحسن والبدن، وما نظر إلى الجزء الأفضل وهو الروح الإلهي ولا إلى أجزائه الأخيرة وهو الصورة الفرعية والهيئة الجمعية التي حمل لها آدم الأمانة الإلهية وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا، ولذا أمر الله إبليس بالخروج بقوله:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: 34] طريد ملعون مرتد عن كمال رحمته وعموم نعمته.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ المعهودة أو جنس اللعنة أو جمعيتهما ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: 35] وهو يوم القيامة يوم الجزاء.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36] أي امهلني إلى حشر الأجساد وبعثها.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 37 - 38] وهو يوم الدين والجزاء.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بحق إغوائك إياي وإضلالك لي بين يديك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ القبائح والمفاجر والمنكرات والفضائح عندهم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 40] سأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام: «**ما الإخلاص؟ قال: سر بيني وبين عبادي لا يعلمه إلا أنا أعطيته من أحببته**».

إشارة وتأويل

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ قليل وكبير جليل وحقير كبير وصغير ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي وجوداته وتعيناته الذاتية والعلمية والقبلية، العينية العقلية والنسب العقلية والروحية والنفسية، والإضافات الروحية والعقلية والتكوينية، والصور البرزخية، والهيئات الخيالية، والأشباح النورية، ثم بالأجرام السماوية والأجسام العنصرية وتصور ما يتركب منها من المواليد الثلاثة ثم بالصورة النوعية والبشرية والهيئة الجمعية المعنوية والصورية والإحاطة الناسوتية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ لكم من المراتب الإلٰهية الذاتية

والأسمائية، الربوبية الروحية والتكوينية والشبحية والملكية الشهودية السماوية والعنصرية والصورة النوعية البشرية، وبهذه المراتب خزائن نختزن فيها تعينات كل شيء من الأشياء الوجودية والعدمية، فإن كل شيء ثبوتي أو سلبي، وجودي أو عدمي، صريح أو ضمني، أو إنسي وجني، يتولدان لجزآن معًا توأمان جمعًا في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] في الدورة العظمى الذاتية المنقسمة إلى النورية الوجودية الجمالية الأربعة، وإلى الظلية العدمية الجلالية المربعة الأصلية والفرعية الإفرادية والجمعية، وهو عرش الأدوار والأكوار، ثم هو ينزل الأشياء ومن العرش الذي هو عرش التجلي الذاتي إلى سماوات الأدوار والأكوار المذكورة شيئًا بعد شيء إلى أن يصل إلى عرش الدورة الصغرى النورية والكورة الظلية، ثم ينفصل إلى السماوات الشهادية الملكية وينفصل إلى عرش الناسوت وهو القلب، ثم يحمل ويجمع ويشرع ويخوض إلى الترقي في المراتب التي قد تنزلت منها لأعلى الأدوار والأكوار.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾ وأنزلناها من فضاء رغبة الأدوار وهو حبيب الأكوار التي سبب منه فراغ صحراء المحبة الذاتية وجعلت ألواح قوالب الاستعدادات الذاتية وقوابل الإمكانات الغيبية، ﴿لَوَاقِحَ﴾ وحوامل بالفيض الأقدس بنقطة نطف الوجودات العلية، ثم الوجودات العينية الغيبية والشهادية، ثم أخرجنا جنينها من أرحام تلك القابليات، وولدناها وألحقناها الكمالات الذاتية والأسمائية الأفعالية والآثارية ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الأدوار الإلهية والكونية الوجودية والأكوار العدمية ﴿مَاءً﴾ العلوم وأمطار الإدراكات الإلهية والكونية، والمقامات الغيبية، والحالات القلبية ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ في براري الأدوار وصحار الأكوار ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: 22] منازعين ما تعين لهذا الأمر بحسب الاستعدادات وقصور القابليات.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ قلوب العارفين بأنوار الحياة السرمدية أعني العلوم الحقّيّة، والمشاهدات الأبدية، والمعاينات الذاتية والأسمائية على ما تقتضيه الدورة النورية الوجودية ﴿وَنُمِيتُ﴾ نفوس الكافرين والمعتمدين والمعاقبين المتقاربين على ما ترتضي الأكوار الغيبية.

واعلم أنه كما يقتضي النور والوجود وتحال العلوم النورية والشهودات

الجمالية والحالات الغيبية والمقامات القلبية، كذلك يقتضي الظل والعدم والجلال والإدراكات والعلوم العدمية، وهي الجهالات المركبة، وكما أن لكل عين نقيضًا وارتفاعًا كذلك لكل علم وإدراكٍ نقيض، ولكل حالة ومقام عدم وحالة نقيض وارتفاع ثابت في غيبة الوجود وهو الأحدية الذاتية، فكلاهما في علم اللّهِ تعالى والله يشاهدهما من عن تفاوت، فحق العارف أن يغني من وجوده وتوابع وجوده وهو العلم والإدراك وعدمه، ويتحقق ويبقى في الوجود والكون بوجودِ الحق وبعلمه وبسائر صفاته وأسمائه، فيتحقق بالحياة والإحياء والموت والإماتة وبجمعيتهما، وإذا تحقق بجمعيتهما لن يلحق العدم والموت وسبق العدم والفوت لأنه تحقق بالحياة السرمدية وهي الجمعية العظمى والكلية الكبرى، وهذه الحالة إنما تستديم إذا سار في الأدوار كلها ودار في الأكوار جلها في فردانيتها وجمعيتها ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: 23] وجودات تمام الأعيان الأكوار وأكوان تمام الأدوار لتحققه بالحق وببقائه به.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في هذه الكلية والإحاطة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: 24] فيه إشعار بأن المقدم والمؤخر والسابق واللاحق والموجود والحاضر والغائب واللائق هو الله لا غير.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ في القيامة العظمى والجمعية الكبرى المعينة ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ حاكم وعالم في الدورة النورية ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجر: 25] في الكورة الظلية العدمية.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الحجر: 26] في فرداريّة الأكوار والأكوار في كل منهما بصفة ونعت، فإن في الدورة النورية إنما تكون السلطنة لمولود الإنس ويكون حكمه صريحًا والمولود الجني خفيًّا وضمنًا، كما أن في الأكوار العدمية كان المولود الجني ظاهرًا صريحًا، وعند تساوي اقتضاء النور والظلال وجمعية الوجود والعدم، وحقية ارتضاء الجمال والجلال، ظهر الجمال الجمعي والجمع الكمالي بالصورة الجمعية الإلهية والكونية في مرتبة الناسوت، وإليه أشار النبي ﷺ خاتم النبوة: «**ما منكم من أحدٍ إلا وله قرين من الجن قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم بيدي فلا يأمرني إلا بالخير**».

يظهر من أعيان الأدوار النورية الوجودية الجمالية من الأحوال الوجودية والإدراكات الحضورية الشهودية والمعارف الإلهية والأحوال والحالات والتعاملات الوجودية، فلها في أعيان الأكوار الظلية العدمية الجلالية أمثال وأظلال في الإنسان الذي مولوده الجني الآخر مني ظاهر صريح والمولود الأسنى ضمن ضمني، وكذا العلوم والإدراكات والمعارف والجمالات والأحوال والمكان تكون خفية ضمنية تابعة للأعيان والأكوان الوجودية، وأكثر أعيان أهل الكشف والشهود في هذا النوع من الشهود والكشف والمشاهدات واصل بل هو منكر ومانع وباطل، فأين السالك في مسالك الشهود وجمعيتهما ربما لك حدود معيتهما ليفوز فوزًا عظيمًا ويجوز جوزًا عميمًا. أما في الكورة الظلية فيكون الحكم والسلطنة للمولود الجني، ويكون باقتضاء أحكامِها صريحًا ظاهرًا.

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 27] إشارة إلى أن أكوان الأكوار لكونها مشتملة على العدم الذي هو مقتضى الذات الأحدية، وظلها متقدمة على أعيان الأكوار مع النورية الوجودية التي هي مظاهر الأسماء والصفات الإلهية وأعيان بذات الأكوار وأكوانها هي الأكوار أن الأهرمينات التي هي باطن الأملاك العالية وعينها وأعيان آخر كل كورة هي الإنسان الجني، أي الذي يكون سلطانه الظل والجلال ظاهرًا صريحًا، ومقتضى النور والوجود والجمال خفيًا ضمنًا، وإن أعيان كل دورة وكورة يغلب عليهم عنصر من العناصر الأربعة، وإن كل عنصر يتضمن الكيفيات الأربعة، فإن أعيان الدورة العظمى النورية إنما يتركب من النار البارد، وأكوان الكورة العظمى الظلية إنما تتركب من طبقة النار الحارة التي هي السموم، فإن أعيان كل عنصر مركبة من أربعة طبائع مثل النار ومركبة من الحرارة واليبوسة ومكان أعيان الأدوار النورية، وخيرها ومسكنها إنما يكون من مقتضى الجزء العنصري الغالب، فالمولود بمعنى الغالب عليه العنصر الناري يكون مكانه طريقة النار والصرف، والذي يغلب عليه الهواء للسحرة يكون أعيانها جبرة الطبيعي هو الهواء وأكثر يكون على صورة الطيور كما أشار النبي ﷺ: «**الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيايا وكلاب، وصنف يحلّون ويطيعون الإنس، والجن يستمعون بليات الإنس ومتاعبهم، فمن أخذ منهم ثوبًا أو قميصًا فليقل بسم اللّهِ، فإن اسم الله له طابع كل**

الجن»، وفي الحديث إشارة إلى أصناف الجن التي يتركب من النار السموم التي هي على أربعة طبقات كما قيل: إن درجات النار أربع الأولى: هي مستعملة للوقود الثانية: يأكل ويشرب، الثالثة: يشرب ولا يأكل الرابعة: هي العارفة.

واعلم أن العناصر الأربعة التي هي مادة أجسام الأعيان النورية وحقيقة الأبدان والأكوان الكونية الظلية العدمية هي مظاهر الأسماء الأربعة الذاتية البسيطة، وهي العليم والحي والقدير والمريد، فكل عنصر يظهر من هذه الأسماء الأربعة ويشتمل من عيب كل واحد منها، فالنار تستمد من كل واحد من العلم والحياة والقدرة والإرادة منها، وكذا الهواء يظهر من كل واحد من هذه الأسماء والضمائر، ويستمد من كل واحد منها، وكذا الماء والأرض، فإذن لا بدّ أن يكون في كل واحد من العناصر أربعة حال ونعت كما أشرنا إليه.

وكما أن الأدوار الأربعة كذلك الأدوار الأربعة، النورية الوجودية نسبت إلى هذه الأدوار الأسماء الأربعة، كذلك الأكوار الأربعة العدمية يستند إلى هذه الأسماء الأربعة الذاتية ويستمد كل منها من كل من هذه الأسماء والصفات الأربعة الذاتية، وإن إسناد هذه إلى كل منها وانتسابها إلى كل منها غير استناد الأخرى وانتسابها، فإذن العناصر النارية التي هي مادة أجساد الأعيان الدورة النورية ينسب إلى العلم أولًا وبالذات، ثم إلى باقي الأسماء الذاتية ثانيًا وبالعرض والعناصر النارية التي هي أصل الأبدان والأكوان الكورية، وإن إسنادها إلى العلم وباقي الأسماء لا بدّ وأن يكون مغايرًا لإسناد تلك العناصر.

فالعناصر النارية النورية ليستند إلى ظاهر العلم وإلى ظاهر الحياة والقدرة والإرادة، فالعناصر الظلية العدمية تستند وتنسب إلى باطن العدم سر الحياة وغيب القدرة وجيب الإرادة، وتظهر في الدورة الظلية العدمية الجلالية بتلك النسب الأربعة، وهي بالنسبة إلى النار النورية الوجود من سموم قاهر مهلك، ولهذا صارت مادة وأصلًا وعلة ومادةً الأهرمينات التي هي باطن الملائكة العظيمة التي هي أعيان الدورة العظمى النورية، وتلك النار السمومية بتلك النسب الأربعة تنزل على الأكوار الباقية وصارت مادة للشياطين والإغواء والجان التي نهاية التنزلات الظلية العدمية الجلالية، ومشتملة على الأكوان السابعة اشتمل الإنسان على أعيان الأدوار النورية الوجودية ومتضمنة للمولود الإنسي، وكذا الأعيان النورية

مع إدراكات محققة في الأكوان الظلية يتم اقتضاؤها ويعم نصابها، ثم تنتقل الفرداريّة في الأكوان في الأدوار وتقوم القيامة وينفخ الصور ولم يبق من الأكوان شيء، ثم ينفخ نفخًا ثانيًا ويحيى، ويقوم كل ما فيها، واختفى في الكورات الظلية ويتعين في الدورات النورية الوجودية الجمالية بالهيئات النورية والصور الوجودية زالنعوت الجمالية إلى أن تنتهي دورتها واقتضائها، ثم تنتقل أخرى إلى الكورات كما علمت.

ففي دورة وآية كورة تظهر العناصر الأربعة التي هي مظاهر الأسماء الأربعة الذاتية المذكورة في المراتب الأربعة المحققة وهي الجبروت والملكوت والبرزخ والملك، ثم يجتمع في الناسوت وتتعين بالصورة النوعية الناسوتية إلى هذا أشار: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: الآية 30] التي هي أعيان الدورة العظمى النورية ومقتضياتها الجمالية التي تضمنت الأهرمينات التي هي مرتضيات الكورة العظمى الجلالية، ولما كانت مرتضيات أكوان الكورة مخالفة لمقتضيات أعيان الدورة، وقال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30] وهذا الاعتراض من الملائكة إنما يكون من الأهرمينات التي كانت في ضمنهم، وإلى ما يظهر خلاف واعتراض من الملائكة كما قال في حقهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

واعلم أن دوران الملائكة دوران الإنسان كما أن حقيقة الإنسان مركبة من جوهرين جني وإنسي كذلك الملائكة مركبة من جزئين رحماني وشيطاني كما ورد في الحديث: «**ما منكم إلا وله قرين من الجن قالوا وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أنه أسلم بيدي لا يأمرني إلا بالخير**». وخلق في آخر الأدوار الأربعة النورية بشرًا كاملًا وكونًا جامعًا فاضلًا يحتوي على مقتضيات الأدوار الأربعة النورية الصريحة، وعلى مرتضيات الأكوار الظلية ضمنًا من صلصال من عنصر أرضية، وهي آخر العناصر ونهايتها في آخر الدورة ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي الطين الأسود لكونه نهاية تنزلاتها، زاد لها في كل دورة ومرتبة يحصل نعت وصفة غمرها الله بيده في الأدوار والأكوار والعناصر الأربعة هي مظاهر الأسماء الإلهية الذاتية المذكورة وهي أصل ومادة وعنصر الإنسان الملكية، وهو صورة جمعية

عالم الجبروت وعالم الملكوت وعالم البرزخ وعالم الملك وصورة جمعية أعيانها وهي العقول العشرة والنفوس العاقلة.

والأفلاك التسعة بما فيها من النجوم والعناصِر الأربعة السفلية والطبيعية الكلية التي هي مبدأ للآباء المختلفة والمزاج وهو الوحدة الجنسية والنوعية والضيفية والشخصية، والمواليد الثلاثة وهي المعدن والحيوان والنبات، والصورة الجمعية وهي عالم الناسوت أعني الإنسان الصغير الذي هو قلب الإنسان الكبير، ومجمع لطائفه العشرة، وهي العقول العشرة الظاهرة في الإنسان الصغير في شاعر العشرة الشاعرة، ومرتع أعضائه وجوارحه وقواه العالية وهي الأفلاك والسماوات التسع والنفس الكلية المدبرة والمجموع عشرة، والسافلة وهي العناصر النازلة الأربعة مع الطبيعة الكلية السفلية والوحدة المزاجية، والمواليد الثلاثة وصعود جمعية الكلي وهي أيضًا عشرة.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ وعدلته في المراتب الأربعة والأدوار المريدة والأكوار المحلية في كل مرتبة، فإذا حصل التعادل بين مراتب الأدوار الإلهية الفاعلية والأكوار القابلة بعد ظهور حكم التعادل بطريق التبادل بالصراحة والتضمن وتحقق التقابل التام والتواجه العام، انعكس الوجه الإلهي والتوجه الكوني بما فيهما من الأوصاف المتقابلة والنعوت السابعة المتعادلة بغتة واحدة، وفاردة خلق الله آدم على صورته قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ بيان لقوله خالق، وتعدد بيان خلقه آدم إشعار بتعدد خلقته وتبدد نشأته في الأدوار النورية والأكوار الظلية صراحة وضمنا وصراحة ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] أي توجهوا إلى السجود له أي إلى أن يوقعوا السجود فتسجد الملائكة لآدم كلهم أجمعون في جميع الأدوار النورية الإفرادية والجمعية إلا إبليس، وهو مقتضى الكورة الظلية، ومولود جني يباين ويخاصم المولود الإنساني، ولذا أبى وامتنع أن يكون من الساجدين وهم الملائكة التي هم من جملة الأعيان النورية، إنما قال مع الساجدين ولم يقل من الساجدين لأن (من) للبيان والتبعيض الذي يشعر بالجنسية النفسية والمؤانسة الحسية دورة معه، فإن المعية لا تستدعي الجنسية والاتحاد في الحقيقة النفسية كما يشعر إلى هذا تتمة الآية.

قال الله تعالى الذي خلق الإنسان على صورته الجمعية لإبليس هو طرق

الخسيس: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي من جنة الجمعية إشارة إلى أن كل حصة من الحصص الإلهية وجودية كانت أو عدمية لكونها قابلة بالوجود المطلق والذات الحق الجامع للكل، فيها جامعية ضمنية ومعية خفية، أي اخرج من الجمعية الضمنية إلى الجمعية الصريحة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ [الحجر: 43] بعيد في هذه الحياة، ومن كمال جمعيتي ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ والبعد المخصوص الذي منك لا مني، لأني أقرب إليكم من حبل الوريد ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: 35] والقيامة العظمى التي تبدل فيها أعيان المراتب الوجودية والأدوار النورية وأكوان الأكوار في المطالب والمآرب، فإن أعيان الدورة العظمى النورية تنتقل وتتبدل إلى الدورة الكبرى النورية، وأعيان هذه الدورة تتبدل إلى الدورة الوسطى منها إلى الدورة الصغرى، ومنها إلى الدورة الجمعية الناسوتية، ثم ينتقل أعيان مرتبة الناسوتية لكمال جمعيتهما إلى أعيان اللاهوت وهي الشؤونات الذاتية، وتنتقل منها إلى الأعيان الثانية والحقائق الإلهية والصور العلمية والحروف العالية، ومنها إلى الكلمات الربانية وهي العقول المجردة، ومنها إلى النفوس العاملة والأرواح القدسية، ومنها إلى الأشباح والمثل النورية، ومنها إلى أعيان الملك والشهادة، وهي السماوات والنجوم والكواكب والعناصر وما يتركب منها من المواليد الثلاثة، ومنها إلى عالم الناسوت وأعيانه وهي الصورة النوعية والهيئة الجمعية وآحادها وأشخاصها وأفرادها.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾ وهو يوم جمعي فيه قوم قولهم في ذلك نوم هو صحو، وصحو هو نوم، يوم يظهر فيه أنوار العدالة الحقية والرحمة الثانية والعناية العامة التي استأثرها الله تعالى بنفسه كما ورد: أن الرحمة مائة جزء قسم الله واحدة منها بين الخلائق وأمسك الباقية عنده. ففي هذا اليوم أظهر الله تعالى الرحمات الباقية، إما في الدنيا فهو يوم بعثه الله سر تمام الأنبياء وبر زمام الأولياء والحكماء والعلماء والفقراء والعرفاء، وهو صاحب الخلافة العظمى وصاحب الإمامة الكبرى، أعني المظهر الموعود الذي هو لله الخلائق بأجمعها بهدايته العامة وعنايته التامة ورأفته الطامة، بحيث لا يبقى من المخلوقات ولا واحد من المكونات من أعيان الأدوار ولا من أكوان الأكوار، ألا وهو معطوفة بكمال رأفته ومكفوفة بجمال رحمته وعموم معرفته ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ

﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] وأما في الآخرة فذلك اليوم يوم بسط الله فيه تلك الأقسام من أجزاء الرحمة فحينئذ لم يبق فرد لا من أعيان الأدوار النورية الوجودية الجمالية، ولا أحد من أكوان الأكوار الظلية العدمية الجلالية إلا وقد شملت سلطنة كمال الجمعية الإلهية ووفور رحمته الذاتية.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: 41] يريد ديني مستقيمًا.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يريد أن أوليائي ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ عليهم حجة ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42] الضالين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 43] يريد الشيطان وأشياعه ومن ابتعد من الغاوين.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ طبق فوق طبق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: 44] من الشياطين والجن والإنس.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الخائفين في اللّهِ الموحدين الذين لم يتخذوا له شريكًا ولا صاحبة ولا ولدًا ولم يخالفوا أمره وحكمه ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ [الحجر: 45] يريد ما لا يوصف ولا يعقل من النعيم والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 46] سلموا في [دخولهم] من عذابه وأمنوا من عذاب جهنم وسكرات الموت.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43] يريد الذين في صدور المؤمنين في الدنيا، وذكروا عن النبي ﷺ إن الغل على أبواب الجنة كمنازل الإبل إذا نزع من صدور المؤمنين ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: 47] يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والياقوت والدرّ، السرير مثل ما بين صنعاء إلى الحاثية، ومن بين عدن إلى أيلة، يريد متقابلين حيث ما التفت رأى وجهًا يحبه يقابله لا يرى بعضهم قفاء بعض.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ مثل نصب الدنيا أو أمسنا نصب وإذا جاء مع نصب يريد تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 48] يريد خلودًا لا يزول فيه.

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49] يريد أنا الغفور لأوليائي الرحيم بهم.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 50] يريد بالوجع.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبر قومك يا محمد ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: 51] المكرمين يريد إسرافيل وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: 52] خائفون قال هذا صراط. أقول: قال الله تعالى: «**هذا الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يعلمه غيري**» صراط يوصل العبد الطالب والسالك الراغب إليّ، فحق واجب عليّ أن أحفظه وأراعيه وأرصده وأراقبه لئلا يخالطه الدواعي الباطلة والسواعي العاطلة ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 161] لا اعوجاج فيه.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ وأوليائي وأحبائي وأخلائي ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ يا إبليس ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهرًا وباطنًا صورة ومعنى ﴿سُلْطَنٌ﴾ [الحِجر: 42] تسلط عليه، وهم كما ورد في الخبر: أنه يجري مجرى الدم، فالله يحفظهم من أن يجري فيهم مجرى الدم وأن يأتيهم من الجهات الأربع اليمين واليسار، ومن بين أيديهم ومن خلفهم كما قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 17].

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ تصديق في دعواه حيث قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82 - 83] بأن تصرف إبليس عام ووسوسته تام في قلوب الإنسان، وإفراده نبيًّا كان أو وليًا كما قال ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: 52] ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان.

قال النبي ﷺ: «**ما منكم إلا وله قرين من الجن والإنس قالوا وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم بيدي فلا يأمرني إلا بخير**» فلذا أجاره بالاستعاذة بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: 1 - 5] والتفنن في أسلوب الكلام فيه لتعظيم بيان المخلصين والمقصود بيان عصمتهم وانقطاع مخالب محاك حبل الشيطان عنهم وتكذيب له حيث ادعى السلطنة عليهم، ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: 22] الآية فعلى هذا الاستثناء منقطع بناء على أن الغاوين ليسوا منه جنس العباد، وعلى الأول اندفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي لاقتضائه إلى تناقض الاستثناءين، فإن الأول يقتضي الدخول والثاني يقتضي اللادخول.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحِجر: 43] أي إبليس ومن تابعه من الإنس والجن.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحِجر: 44] أطباق عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يريدون كيف أبواب النار قد وقع هكذا بأن وضع أحد يديه على سبعة أبواب: بعضها فوق بعض، وأن الله وضع الجنان على العرض ووضع الميزان بعضها فوق بعض، حولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم السقر ثم الجحيم ثم الهاوية ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحِجر: 44] لكل دركه قد يسكنونها:

أعلاها: للمقلدين والموحدين المبعدين بدرجة التقليد.

الثاني: لليهود.

الثالث: للنصارى.

الرابع: للصابئين.

الخامس: للمجوس.

السادس: للمشركين.

السابع: للمنافقين.

أما أهل التوحيد المخترمين للذنوب فبقدر الذنوب يعذبون ثم يخرجون، وتخصيص العدد بالسبعة لأن الصفات الذاتية مع الذات مظاهر الجنان، وأبوابها وأنواعها ثمانية وهي مظاهر أعيانها. وأما النقائص فهي سبعة، فأبواب جهنم مظاهر هذه النقائص، وأما الذات ليس لها نقيض لأنه مجمع تمام المفهومات المتقابلة والمعاني المتباينة فارتفاعه ارتفاع الكل فلم يبق نقيض ولا صورة لا مقابل فيلزم ارتفاع النقيضين أو يقولان الأسماء والصفات الذاتية مع صورتها الجمعية ثمانية، فالجنات الثمانية مظاهرها، وأما الصورة الجمعية فليس لها نقيض مخصوص لأنها ترتفع بارتفاع كل من هذه الصفات، ولذا خصصت درجات الجنان الثمانية ودركات النيران بالسبعة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحِجر: 45].

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ متلبسين بإعطاء الهداية وإنباء التحية ﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ [الحِجر: 46] وأمن وأمان وسلامةٍ كما قال تحيتهم فيها سلام، أو عن الملائكة بأن يكون لكل واحد من المتقين تحية وعبرة لكل عبرة فهما كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: 46]، ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: 62]. ﴿ءَامِنِينَ﴾ [الحِجر: 46] عن الآفات والزوال ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43] حيث كان من في القلب نزع الله تعالى ذلك من قلبهم وطيب نفوسهم، وبلغوا منهم عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه: «أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم». روي أنه إذا جاء ابن طلحة عند علي فقال له مرحبًا بك يا ابن أخي أنا والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾

فقال له: فإن الله تعالى أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد فقال له: فلمن هذه الآية لك، قيل: طهّر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الجنات والدرجات في الجنة ونزع كل غلّ وألقى فيها التحابّ والتوادّ.

﴿إِخْوَانًا﴾ حال من الضمير في جنات أو في فاعل ادخلوا من ضمير آمنين أو الضمير المضاف إليه والعامل من معنى الإضافة وكذا ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحِجر: 47] ويجوز أن تكون صفتين لإخوانًا وحالين من الضمير المجرور أو تكون متقابلين حالًا من المستتر في ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ عناء وتعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: 48] لخلودهم فيها إذ تمام الغمة وكمالها هي الخلود ودوامها فإن غصص توهم الخروج عنها ينقص لذاتها وتتبدل لها ألمًا وغصة ومحنة ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحِجر: 49] تقرير لما سبق وتبين، وفذلكة وفي ذكر المغفرة دليل واضح وبرهان وتعليل ساطع إلى أن المتقين ليسوا في العذاب، فالذنوب كلها صغيرة وكبيرة، وفي توصيف الذات بالمغفرة والرحمة دون التعذيب لسبق رحمته على غضبه ولتنظيف قلوب العصاة وتسلية النفوس من أصل الخطايا والسيئات المقترفين المقرين بالتقصيرات والعيوب يجيئون إلى باب الغفار يأتون إلى عتبة الرحيم الستار قال اللّهُ تبارك وتعالى: «**إن أنين المذنبين أحب إلي من وجل المسبحين**» ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحِجر: 50].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحِجر: 51] عطف على عبادي إلى أن الله قال: ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحِجر: الآيتان 49، 50]، فقال النبي ﷺ: «**لو يعلم المؤمن قدر عفو اللّهِ لما تورّع عن الحرام ولو يعلم الكافر قدر عذابه لنخع نفسه. وقال: إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من النار لم يأمن من عذابه**».

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ متعلق بنبئهم ﴿فَقَالُواْ﴾ أي الملائكة المضيف نسلم عليك يا إبراهيم وأهله ﴿سَلَٰمًا﴾ [الحجر: 52] قال أي سلمت سلامًا مبشرين إبراهيم بإسحاق ومنذرين قوم لوط ﴿قَالَ﴾ إبراهيم إذ دخلوا عليه ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحِجر: 52] إذ لم يأكلوا طعامًا ولم يستأذنوا [في] الدخول كما هو آداب الأضياف من البشر.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي رسل الملائكة لإبراهيم تسلية له وإزالة لخوفه وإزاحة وحشته وعونه ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ يا إبراهيم ولا تخف منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ ولدٍ ﴿عَلِيمٍ﴾ [الحجر: 53] في سن الكبر يسمى بإسحاق فتعجب إبراهيم منه ومن أمه.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

﴿قَالَ﴾ إبراهيم للملائكة المبشرة ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولدِ ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ حال كونه مبنيًا على تناهي الكبر والسن والسقوط للقوة للرجولية والولادة من امرأتي سارة ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحِجر: 54] أي بأي شيء تبشرون وحالي وحالة زوجتي النحول والضعف والأفول.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ﴾ يا إبراهيم متلبسين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ووفور الصواب لكمال الصدق ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا إبراهيم وامرأته ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحِجر: 55] الآيسين بكبر السن ولحوق الضعف في الكِبَر.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: 56] الخاسرون.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وشأنكم ومطلبكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحِجر: 57] الملائكة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ وبعثنا ﴿إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الحِجر: 58] عاصين مشركين أو ظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩﴾

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ آمنوا به واتبعوا أحكام دينه واتبعوا من شوارق أنوار تعيينه استثناء من مجرمين منقطع ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ ومخلصوهم ومنجوهم ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ [الحِجر: 59].

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي زوجة لوط ﴿قَدَّرۡنَآ﴾ وقضينا وحكمنا عليها ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحِجر: 60] الاستثناء إما من آل لوط أو ضميرهم لاختلاف الحكمين لأن الاستثناء من الإثبات نفي ومن النفي إثبات اللهم أن يجعل (إنا لمنجوهم) اعتراضًا.

إشارة وتأويل

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر: 41] قد علمت أن للموجودات بأسرها وجهين وجه إلى الله وهو بهذا الوجه موجود قائم به، وهذا الوجه مصدره ومبدؤه. وهذا الوجه اسم من أسماء اللّهِ تعالى وهو قائم بهذا الاسم، والوجه الثاني إنما هو بهذا الموجود وهو بهذا الوجه تقبّل الفيْض والوجود من ذلك الوجه، ولذلك الموجود وجه ثالث جامع للوجهين وهذا الوجه هو قلب ذلك الموجود وحقيقته ونفسه لمن عرف هذا الوجه الثالث عرف ربه من عرف به نفسه فقد عرف ربه، فهذا الوجه هو صراطي المستقيم يوصلُ السالك والدارك لدي، وهذا الصراط المستقيم واحد، وغيره الذي نشأ من حقيقته كثير مستعد وغير محصور معوج، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153] كما تقرر في أصول الهندسة أن الخطوط الواصلة بين النقطتين فالمستقيم منها وأقصرها ليس إلا الواحد الوسطاني.

روي أن رسول الله ﷺ خط خطًّا واحدًا ثم خط من جانبيهِ خطوطًا كثيرةً فأشار إلى الخط الوسطاني فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153] فقال: فعلى كل خط وسبيل شيطان ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر: 61 ـ 63] يريد يكذبون، يقول جئناك بالعذاب على من كذبك ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يريد في ظلمة الليل ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ إلى قوم لوط وإن كان من الآباء والأنبياء والأقرباء والأصدقاء، يقول لوط: اتبع آثار بناتك ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: 64 ـ 66] يريد أن هلاكهم في الصبح.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ يريد قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يقولون: نزل بلوط ثلاثة ما رأينا قط أملح منهم ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: 67 ـ 70] يريدون الإعراض لنا في شيء مما يريده.

﴿قَالَ﴾ لوطُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ هذا مقدم والذي فوق فعله مؤخر ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا محمد، يريد عمارك يا محمد إنهم يريدون قومك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يريد في ضلالتهم يتمادون. ثم رجع إلى قوم لوط فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: 71 ـ 73] إشراق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 74] يريد من سماء الدنيا، فاقتلع جبرئيل خمس مدائن بجناح واحدٍ حتى صعد بها إلى سماء الدنيا لم يكتفئ لهم جرة ولم يكسر لهم إناء حتى سمع أهل السماء صياح الديوكِ ونهيق الحمير ونباح الكلاب ثم غشاها الجناح الآخر، وذلك قوله تعالى في النجم: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [53] يريد الكذب ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ بالجناح الآخر ﴿مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: 54 ـ 55] يا محمد يريد بنعم ربك تتمارى يريد تسأل ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: 56] يريد هذا خبر من خبر الأنبياء الذين مضوا ثم قال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: 57] يريد اقتربت القيامة على عبدك، والنبي ﷺ هو العاقب الماحي، يريد محى الله به ذنوب من صدّقه، والحاشر بين يدي القيامة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ يريد لعبرة ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ يريد للمعتبرين ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ

﴿مُّقِيمٍ﴾ يريد مدائن لوط على طريق قومك إلى الشام ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ معروف.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: 75] يريد لعبرة للمصدقين، يريد إن أصحاب محمد ﷺ اعتبروا وصدقوا وخافوا أن أحبط أحدهم أن يسخط الله عليهم كما قال في الطور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطُّور: 26] يريد من عذاب ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يريد بالعفو ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: 27] يريد أعاذنا من جهنم.

﴿وَإِن كَانَ﴾ يا محمد ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [الحجر: 78] يعني قوم من خدام كانوا نزولًا بمدن كالش وشعيب والبداء، والأيكة هي شجرة المقل وهي التي يقال لها الدوم ويقال لها المقال.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وذلك أن شعيب بن ثوبة بن مدين بعث إليهم وهم جيرانه، وقال بعض أهل العلم: أخواله، ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ﴾ [الحجر: 79] يريد موضع إبراهيم وموضع أصحاب الأيكة موضعهم بين الموضعين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ﴾ [الحِجر: 61] أقول أقوامه وأشياعه الملائكة ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: 61] لإهلاكهم واستئصالهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لوط لقومه ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحِجر: 62] غير معلومين لنفسي لأنها نفوسكم تنفر الإنس مما لا يراه ولا يعلمه من الأغوال ومما يستوحشه من الصور المهيبة وهيئة الإنكار.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالُوا بَلْ﴾ الرسل ﴿جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكّون فما أنت كنت تدعوهم وهو للإنكار والتخويف والإنذار ﴿بَلْ جِئْنَاكَ﴾ [الحِجر: 63] ما يسرك ويبهجك وإلى اعتناء السماوات يبهجك وينجيك من عذاب أليم وشماتة الأعداء.

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ﴾ وفضلناك وأعطيناك ما وعدناك مستصحبًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتصقًا بالصواب والصدق ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ [الحجر: 64] فيما أخبرناك به.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أمر من الأفعال أي اهرب واذهب بأهلك ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي بجزء من الليل متوجهًا إلى سمت وصوت وجهة أو الحامد من الأمور التي أنتم عليها الإقبال إليه ليكون للمصابرة على ما أمرتم من المهاجرة، والغرض المخالفة مع القوم المدبرين ﴿وَٱمْضُوا۟﴾ وأقبلوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: 65] أي الشام أو المصر أو غير ذلك.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أي أوحينا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى لوط ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي القوم الذين أعرضوا وضربوا من الإقبال إلى الإدبار ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مستأصل ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: 66] داخلين في الصباح أو صابرين ذا صباح حال إما من هؤلاء أو من ضمير مقطوع أي قطع آخرهم ولم يبق منهم أثر ولم يبق خبر.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة قوم لوط ليتبشروا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: 67] أي يخبرون على طريق البشارة بقدوم غلمان حسن الوجه أمرد جرد مرد وهم ملائكة نزلوا على لوط ضيفًا له فلما سمعوا أهل المدينة قدوم أضياف لوط قد نشأوا ونشأوا، واشتهر ذلك الخبر عن امرأة لوط فيهم، قد انتزعوا إلى بيت لوط وأسرعوا إليه.

﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لوط لقومه مقبلًا إليهم ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ المرد ﴿ضَيْفِى﴾ والضيف واجب الإكرام ولازم التكريم والتبجيل والتعظيم ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: 68].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: 69] ولا تذلوني باستفضاح أضيافي من الخزي وهو الهوان والمنزلة والخذلال والخجالة ومن الخزاية وهي الحياء.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾ أي ما نهيناك أن لا تضيف أحدًا ﴿عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحِجر: 70] أو لم ننهك أن تدخل الغرباء وأبناء السبيل يطلعوا على قبائحنا فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحدٍ دخل المدينة.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لوط ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ أزوجهن إياكم إن سألتم فأبوا الحلال ودعوا الحرام، فكأنه قال لهم من بناتي فأنكحوهن ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: 71] فطاء الوطي من أجزاء الشهوة بطريق الشرع وحكم النبوة.

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿لَعَمۡرُكَ﴾ أي بحق عمرك وحياتك قسمي يا لوط أي يا محمد والمقسم وهو الله أو الملائكة لعمرك ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي قوم لوط أو قريش ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ أي حيرتهم وضلالتهم أو غوايتهم وشدة لمستهم أي التي أذلت عقولهم وأمالت عدولهم بالتمييز بين الخطأ والصواب والعقاب والثواب في هذا العذاب ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: 72] يتحيرون فإذن كيف يسمعون نصحك ويقتلون غضبك ونصيحتك.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ [الحِجر: 73] حين ظهور إشراق الشمس وإضاءتها.

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي قلبنا القرية ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحِجر: 74] من طين يابس.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأمر المجعول والعقل المعمول ﴿لَآيَٰتٖ﴾ علامات ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75] المتعاملين في آيات الله المقرنين. يقال: توسمت في فلان كذا أي عرفت وسمه وعلامته.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ [الحِجر: 76] أي طريق ثابت واضح تسلك الناس فيها ويرون آثارها ويعتبرون بها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأمر ﴿لَآيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: 77] وإنما أردف التوسم بالإيمان إشعارًا بأن التوسم المعبّر والتفرس المختبر إنما هو المقرون بالإيمان بالله وبرسوله وبما جاء، أو الظلم والشرك والكفر والإفك ينكس القلب والروح ويعكس العقل ويقلل الفيض ويحلل الفتوح.

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحِجر: 78] الفيضية وهم أصحاب شعيب كانوا يسكنون الفيض والأرض المشوكة والشجرة فبعث الله إليهم شعيبًا فكذبوه فأهلكهم الله بالظلمة والأيكة الشجرة المتكاثفة.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾

﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ وعذبنا ﴿مِنۡهُمۡ﴾ بالإهلاك وإنهما سدوم والأيكة والمدين والأيكة فإن شعيبًا كان مبعوثًا إليهما وذكر أحدهما يعني عن الأخرى ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [الحِجر: 79] والإمام توطئة القسم والباء للاستصحاب والمعية أو الملابسة اسم ما يؤتم به أي مع إمام يقتدى به مبين أي طريق واضح متين.

إشارة وتأويل

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [الحجر: 61] واعلم أن لوط وإبراهيم في الوجود متقاربان في المعارف ومرتضى الوجود ومظهران لحلول الإنسان والفعل

الكل والفعل من الله تعالى نعتان ووصفان وهما الإقبال والإدبار كما أشار إليه النبي ﷺ: «**أول ما خلق الله العقل فقال له: أقْبِل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر**» فجعل الخليل مظهر الإقبال ولوط مظهر الإدبار فظهر نعت الإقبال في إبراهيم وقومه وأولاده ووافقته أزواجه المطهرة، وظهرت السعادة والإقبال والشرف والإجلال في أولاده وأحفاده وشهرت أنوار النبوة وأسرار الولاية وأطوار الحكومة في أتباعه وأشياعه وخالفت أمره، إلى آخر السورة. وبسم الله الرحمن الرحيم منها لوط وناقته، وسرى العقم في أتباعه وقومه وأشياعه، وإن إبراهيم مظهر الوجه الإلهي المواجه بالله على المتوجه إلى اللّهِ ولوط مظهر الكوني وقومه مواجه إلى المكان والكون متوجه إلى خصائص الإمكان ونصائص الأعيان ونصائص الأكوان.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحِجر: 80] صالحًا وحده.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الباقية ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: 81].

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحِجر: 82] من عذاب الله مثل قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: 146 ـ 149]، يريد خادمين ومن قراها فرهين يريد مبذرين بطرين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحِجر: 83] يريد صباح يوم الرابع.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحِجر: 84] من الأموال والأنعام والثمار.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يريد الثواب والعقاب ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ يا محمد ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحِجر: 85] وهو منسوخ يريد اصفح عن المشركين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحِجر: 86] يريد العلم بما خلق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ يريد بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحِجر: 87] يريد الحواميم.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ ولا يتمنى ما فضلت به أحدًا من متاع الدنيا ولا نفع في قلبك حلاوتها ولا شيء من زينتها ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يريد ما فاتك من الدنيا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحِجر: 88] لأصحابه المصدقين يريد احفظ الآن لهم الموعظة وارفق بهم ولا تغلظ عليهم.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَقُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحِجر: 89] يريد مبين لكم ما تأتون وما تذرون وما يقرّبكم به إلى الله وما يذرون وأحذركم سطوات اللّهِ وسخطه وعذابه.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحِجر: 90] يريد الذين اقتسموا طريق مكة وأقاموا عليها الطعام والشراب ويصدون الناس عن رسول اللّهِ والإيمان به وهم

بين الثلاثين إلى الأربعين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحرث والأسود بن عبد الأسد ومطعم وطعمة ابنا عدي ومنبه ونبيه ابنا الحاج وأبيّ بن الخلف وأثينة بن خلف وعتبة بن أبي معيط وربيعة بن الأسود وجماعة كثيرة.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: 91] يريد جزّأه أجزاءً فقالوا ساحر أو قالوا أضغاث أحلام وقال أساطير الأولين وقالوا شاعر وقالوا مجنون وقالوا ذا سن وقالوا تترى وقالوا القول كلما ذكره الله مثل هذا في القرآن وأخبر عنهم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: 92 ـ 93] ثم أجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخيرٌ وثواب وإن شرًّا فشر وعذاب.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾

﴿فَٱصْدَعْ﴾ يا محمد ﴿بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] وهذا منسوخ نسخه آية: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5].

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ يريد قد سلط الله جبرئيل عليهم وأمر به لقتلهم فعرض الوليد بن المغيرة فعقره على نصل منهم في رحله حتى خرج رجيعه من أنفه، وعرض ابن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، وهوى أبو ربيعة بن الأسود وهو يشرب ماءً فنفخ في ذلك الماء حتى انتفخ جوفه فانشق وهو يقول: قتلني محمد، وعرض عامر بن وائل وهو متوجه إلى الطائف فحبسه البشرق فجرّ من بينهما إلى رأسه ويقول قتلني رب محمد والبشرقة الشجرة، وقتل الحرب بن قيس ابن عدي بن حنظلة السهمي، فما زال يفرق حتى مات، وقتل الأسود بن عبد يغوث الزهري، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: 95].

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: 96] وعيد من الله وتهديد.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: 97] يريد ليس عليك مقاتلتهم ويضيق من استهزائهم وضلالتهم وكمال جهالتهم حزن ووحشة فأمره بالصبر فقال:

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: 98] يقول احمد ربك سيبشرك منهم كما قال في ويل للمطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾ يريد يستهزءون ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ يريد ناعمين بطرين ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾ يريد النبي وأصحابه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ يريد تركوا دين آبائهم. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يريد الثواب والعقاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدقوا النبي ﷺ وما جاء به من الكفار ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ يريد الحجال ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ على الأسرّة ﴿يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ يريد جزاء الكفار ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطفّفين: 29 - 36] ما في دار الدنيا ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 98] يريد من المصلين يريد أقرب ما يكون من اللهِ إذا سجدوا.

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] يريد الموت عند ذلك يرى ما لم يكن ينطق ولم يخطر على قلبك ما يقصر الصفات عنه من ثواب ربك والكرامة والسرور.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾



ترتيبها 16 سُورَةُ النَّحۡلِ آياتها 128 مكية

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي جعل نحلة النفس الملهمة مأمورة بالتقاط ظلال المعارف الإلهية إذا ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: 1]. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي أثبت في أراضي رياض قلوب العارفين المشتاقين إلى لقائه الذائقين لذة النظر إلى وجهك الكريم حين زرع حبّ حُبّه الذاتي وقوع نواة وُدِّه الأولى أنواع مشاهدات أشجار التجليات الابتهال الذاتية ومعاينات أثمان الحقائق الإلهية وشهودات بقول الجمال الغير المتناهية ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي سخر لكم شمس الروحِ وقمر القلب ونجوم القوى في المشاهدات والمعاينات مسخرات بأمره.

قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة النحل لم يحاسبه اللّهُ بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن توفي ليلة قرأها كان الأجر كمن مات وأحسن في وصيته**».

عن أبي الثقفي عن موسى بن عبد الرحيم الصنعاني عن ابن جريج عن عطار ابن عامرة وعن موسى بن عبد الرحمن عن مقاتِلْ بن سليمان عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس في قول اللّهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ يريد أن الله لا يعجله ولا يقويه شيء ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ لينزه نفسه أن يكون له شريك ووزير وصاحبة أو ولد ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[النحل: 1] تعالى علوًا كبيرًا.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ جبرئيل وحده ﴿بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بالوحي من عنده ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ على من آمن ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2] لا إلٰه إلا هو فخافوه واحذروا غضبه وعذابه وانتقامه وعقابه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ليجزي الذين أحسنوا إنما عملوا الحسنات ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3] عما يلحدون.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يريد أبي بن خلف ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4] ينكر البعث والثواب والعقاب.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ والإبل والغنم والبقر ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يريد من أوبارها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ في ركوبها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5] من لحومها وألبانها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ يريد خروج العرب أيام الربيع إلى الخريف ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6] ويخرجون إلى المرعى.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ من مكة إلى اليمن ومن اليمن إلى مكة ومن مكة إلى الشام وإلى مصر منّةً على خلقه وتفضلًا منه عليهم لعلهم يرجعون إلى توحيدي وإلى عبادتي وإلى وصية أنفسهم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ يا معشر أهل مكة ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 7] رفيق على جميع خلقه رحيم بأوليائه وأهل طاعته.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ في حوائجكم وتهيئة أسباب دنياكم ﴿وَزِينَةً﴾ وتجملًا بين الناس ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] إن على يمين العرش نهرًا من نور مثل السماوات والأرض السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبرئيل كل شهر فيقبل ويزداد نورًا إلى نوره وجمالًا إلى جماله وعظمة إلى عظمته لم ينقص فخلق الله من كل نقطة تقع منه عشرة آلاف ملَكٍ يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك في البيت المعمور وفي الكعبة سبعون ألف لا يعودون إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ سهولة للدين ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يريد من أراد أن يهديه سهل له طريق الإيمان ومن أراد أن يضله عسر عليه طريق الإيمان و(منها) يريد يجور على المنافقين والكافرين سهولة الإيمان فيشتد عليه الغسل من الجنابة والوضوء والصلاة ويسهل عليه الصيام شهرًا من اثنا عشر شهرًا ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 9 ـ 10] جلّ جلاله.

﴿ ۞ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أقول جاء ودنا وقرب وعد اللّهِ من قيام القيامة وظهور الساعة ونزول العذاب وحلول العقاب آجلًا وعاجلًا كيوم بدر في الأمر الآتي الذي لا مرية في وقوعه فهو واقِعٌ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ روي أنه لما نزلت (اقتربت الساعة) قال الكفار: فيما بينهم إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فسألوه عن بعض ما يعملون حتى ينظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما ترى فنزلت فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، والاستعجال طلب الشيء قبل وقوعه وجيئته فلما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه**» ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 1] وما مصدرية أو موصولة أي تعاظم بالأوصاف الجليلة عما يصف به المشركون به وعن الاشتراك.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي وبالقرآن سمي به لأنه يحيى به القلوب وتطهيرُ أحوال الخفيات والغيوب وبجبرئيل الذي يسمى الروح الأمين ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي عالم الأمر ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي اعلم (أن) للتفسير ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2] أي خوِّفوا أهل مكة ليحذروا غضب الله وشدة انتقامه ومصدرية بدل من الروح عليه أو النّصب بنزع الخافض أو مخففة من الثقيلة والآية تدل أن نزول الوحي بوسائط الملائكة وحاصله للتنبيه على أن التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة النظيرية والأمر بالتقوى الذي هو نهاية العملية وهو دليل على وحدانيتِهِ وكمالِ قدرته وإرادته سيما إذا قارن خلق أتقن المخلوقات وأمتن الموجودات وهي السمواتِ وما فيها والأرض وما عليها.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3] في ألوهيته وكمال ربوبيته وتواضع صنعه وبدائع حكمه وحكمته.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جسم سيال لا حسّ لها ولا إدراك ولا شعور ولا حركة ولا يحفظ ما يتطرق عليه من الأشكال والهيئات بل الله خلق فيها قوة يخفيها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ نزلت في أبي خلف أي منطق مجادل عن نفسه مكافِح للخصوم ﴿مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4] للحجة بعد ما كان نطق بها أو خصم لربه ولرسول أنكر البعث وخالف نبيه وعاداه عداوةً سرًّا وعلانية روى أنه جاء بعظم رميم إلى رسول الله فقال: يا محمد أنت افتريت على اللّهِ بأنه يحيي هذا العظم الرميم فقال: «**إن إعادته وإحياءه أهون من إنشائه من غير شيء**».

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ الإبل والبقر والغنم منصوب بمضمر يفسره ﴿خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ أو بالعطف على الإنسان وخلقها لكم بيان ما خلق لأجله وما بعده تفصيل له ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ اسم لما يدفء به كما أن الملأ اسم لما يملأ به وهو الدفء من لباس مأخوذ من صوف أو وبر أو شعر ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾ بالنسل والوبر وللركوب والحمل وغيره ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5] لحمًا وسمنًا ولبنًا.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وزينته وحسن وكمال ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6] ويردونها باللغة قدم والرواح من رواجها إلى مباركها التي يأوي إليها وحين تسرحون ويخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها في الصّباح وإنما المراح لأن المنافِع يوجد فيها بعد الرواح ومالكها يكون أعجب إذا راحت.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ حوائجكم وأحوالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ آخر غير بلدكم الذي تركتم قيل المراد مكة ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ﴾ والواصلين إليه ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾ ومشقتها وجهدها والشق النصب والتعب وحال الشخص بين الراحة والمشقة فكأنه صرف نصف عمره وشقص قوته إليه ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 7].

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ عطف على الأنعام وهو اسم جمع لا واحد له من لفظة كالآل ﴿وَٱلْبِغَالَ﴾ جمع بغل كرجال جمع رجل وفُعُل جمع فعل ﴿وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولتزينوا ﴿وَزِينَةً﴾ قيل عطف على محل لتركبوا لتغير النظم لأن التزيين فعل الخالق والركوب فعل المخلوق ولأن الغرض من خلقها الركوب والتزيّن حاصل بالعرض قرئ (زينة) بلا واو فيحتمل أن يكون علة لتركبوها أو مصدر في موقع الحال من أحد الضميرين أي متزيين أو متزينًا بها واستدل به على حرمة لحومهما ولا دليل فيها إذ لا يلزم منه تعليل العقل فيما يقصد منه غالبًا أن لا يقصد منه غيره أصلًا تدل عليه، الآية مكية وعامة المفسرين وأهل الحديث على أن الحمير الأهلية حرمت عام خيبر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] لما فصل الحيوان الذي لا يحتاج إليه احتياجًا ضروريًّا أو غير ضروري أجمل غيرها ويجوز أن يكون المراد به ما خلق الإنسان واختص به مما لا يتعلق علم البشر كما قال النبي ﷺ: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»، وأن يكون ما استأثره الله تعالى لنفسِهِ ولا يعلم غيره ذلك عبرة منه أن يحفظه عن نظر الأغيار وبصر الأحرار والأخيار فضلًا عن إدراك الأشرار.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ بيان مستقيم وطريق قويم يوصل إلى الحق وهو من باب جرد قطيفة أي سبيل قصد ومقتصد يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يتصور الوجه الذي يقصد به السالك من غير ميل عنه والمراد من السبيل الجنس ولذلك ضاق القصد إليه وقال ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي من السبيل جائر ومعوج يقال أمير جائر أي انصرف عن الطريق المستقيم والعدل والإفضال العميم واعوج عنه والظاهر أن قصد السبيل هو دين الإسلام، والجائر منها هو اليهودية والنصرانية وهو الشرائع والفرائض والسنن والجائر هو الأهواء والبدع ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: 9]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السّجدة: 13] الآية إلخ.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي من السحاب أو من جانب السماء ماءً ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ (لكم) متعلق بأنزل، و(منه شراب) قدم للتخصيص، و(منه) متعلق بلكم، و(منه) للتبعيض متعلق بشراب وتقديمها توهم حصر المشروب فيه ولا بأس فيه لأن مياه العيون والآبار منه لقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾ [الزمر: 21] وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: 18]، ومنه شجر أي يتكون وينبت ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي يتكون وينبت فيه شجر الذي ﴿فِيهِ﴾ يرعاه المواشي وكلما ينبت على الأرض منه ﴿تُسِيمُونَ﴾ [النّحل: 10] فيه ويرعون ما سامت المواشي وأسامها صاحبها أو أصلها وهي العلامة.

إشارة وتأويل

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] أي وقت شهود تجليات اللّهِ الذاتية وعدكم في الفطرة الأولى في بداية الدورة الأولى الإلهية العظمى النورية وبداية الدورة الأصلية النورية فإن كلما تجري في بداية الدورات الأصلية النورية إجمالًا فهي تتفصل في أثناء الأدوار الأصلية والفرعية الأربعة، وفي كل دورة يظهر نوع من التجليات المادية الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية. ويحتمل أن المراد يكون بجذبة الرحمانية يجذبك من الكثرات إلى الوحدة، ومن الوحدة إلى الصورة الجمعية الإلٰهية الكونية، وبين الوحدة والكثرة بين الوجود الذاتية والإمكانية وبين العبودية والربوبية، والسماوات العالية والسافلة والسماوية والأرضية، ولا تظنن أن هذه تزريعات وتكليمات في الألفاظ والعبادات بل هي تنوعات وتطورات في مشاهدات التجليات ومعاينات لظهورات في الجمعية الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية والآثارية والأفضل أن تكون هذه التنوعات مجموعة في نظر المعارف ومشاهدة عنده دفعة واحدة متحدة ولو ذوقًا وحلمًا وتجليًا فإن الكل إنما هو من اللّهِ وعند اللّهِ وباللّهِ إذ لا ظهور ولا تحقق حضور إلا لله وما سوى الله والله ما في الوجود هنا طرد وراء طور العقل لا تطلع عليه إلا بالكشف الصحيح والشهود الشامل الكامل الصريح منه لم يذق أبدًا،

وشرط حصول هذا النوع من الكشف الثبات والتمكن والوقار والتحقق في طور الكمال الجمعي والجمع الكمالي والاستعجال تجلي ذلك بل يصل صاحبه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1] والاستعجال على قسمين: طبيعي خلقي وشرعي خلقي، أما الآخر فهو مقتضى المولود الجني لأن يصل إلى كماله الفطري ومرتضاه الجلالي الفطري. قال النبي ﷺ: «**العجلة من الشيطان والتأني من الرحمٰن**».

وأما الثاني فهو الملكي في الحسنات والخيرات والعبادات، قال النبي ﷺ: «**عجلوا بالصلاة قبل الفوت وعجلوا بالتوبة قبل الموت**»، وهذا الملك هو واعظ اللّهِ في العبدِ. قال النبي ﷺ: «**من كان له في نفسه واعظ كان له من الله حافظ**». وإذا أوصل العبد إلى الكمال الجمعي والجمع الكمالي وافق المولود الجني والإنسي ودخل في هلكة ودخل المولود الإنسي والجني في حكم اللّهِ انكشف عند العبد واتضح له أن أحوال الإنسان وأعماله كلها مستندة من اللّهِ وإلى الله وبالله.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ على ما يقتضيه الملك الإنسي ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ نسبة استدعاء الاستعداد الروحي وطلب ناشئًا من عالم الأمر وهو الملكوت الأعلى ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: 2] من الأعيان الجمالية إشارة إلى أن كل الأعيان النورية والأكوان الظلية من حيث إن حصة من الحصص الوجودية في الفرداريّة الصريحة النورية وأن لهما وجهين قائمين بالحق يدعو الوجه الخلقي إلى الوجه الحقي فيه قوة النبوة وصلاحية ظهور الهداية وإظهار الحكم الإلهية والدراية وقابلية صدور الأمانة ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أولًا نفوسهم ثم غيرهم. قال عيسى روح اللّهِ: «عظ نفسك فإن اتعظت فعظ غيرك وإلا استحي من اللّهِ ثم ما عداك».

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2] من أن يتجه إلى مشاهدة غيرك ومعاينة غيرك إيماءً إلى أن كل شيء من الأشياء النورية والظلية الصريحة والخفية والضمنية له قابلية لأن يتحقق ويتخلق بالأخلاق الإلهية والتوحيد الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية والآثارية، والصورة النوعية والهيئة الجمعية الإنسانية خلق الإنسان الصورة الجمعية والهيئة الكلية النوعية البشرية من نطفة واحدة ذاتية وإحاطية كلية قابلة لجميع الكمالات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية، والأنعام أي القوى النفسانية وهي البهيمية والسبعية والشهوانية والغضبية، إشارة إلى أن النطفة جمالية كانت أو جلالية فيها ثلاثة قوى طبيعية

نباتية وحيوانية شهودية بهيمية وغضبية سبعية وملكية، وأن وكل واحد منهما تحمل أثقالكم من الأفعال النباتية والأعمالِ الحيوانية والأحوال الإنسانية والأقوال الملكية، وتحمل أثقالكم إلى بلد كمال جمعي ومصر جمعي كمالي لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، أي بمجاهدات نفسية ورياضات حسية والخيل والبغال والحمير أي القوة النظرية والعملية وجمعيتهما لتركبوها في التوجه، أي الكمال الجمعي والجمع الكمالي، أي جمال الجمع بين الجمع بين الكمالي الجمعي والجمع الكمالي والجمع في العلم والعمل والمقام والحال والمعاني والألفاظ المقال، ويخلق في الجمال الجمعي والجمع الكمالي، ويظهر ما لا يعلمون بالقوة النظرية والقوة العملية، ولا بالكشف والرياضة وبحالة المجاهدة والمعاينة والمشاهدة بل الجمعية الكل ومعية تمام الطرق والسبل.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: 9] أي طريق وسبيل جامِع للكل ومقتصد ومتوسط ومجتمع للكل لا يحصل ولا يأتي لمن يقيد بواحد منهما ولا ينقص منها إشارة إلى كمال الجمعية بين مقتضيات الأدوار والأكوار من الإدراكات والأحوال وهذا أول مرتبة من مراتب إحصاء الأسماء الإلهية «**إن للّهِ تعالى تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» الحديث، ولذا عدل من إلى على «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط**».

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ ومتجاور من هذه الجمعية إلى واحدة من طرق المذكورات وتقيد به واعتكف عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى هذه الجمعية إذ القاهر على البعض قادر على الكل يتساوى نسبة الكل بالقادر القوي القاهر لكن لم يشأ لخروجه عن الحكمة الإلهية إذ لو حصلت الهداية الجمعية للكل ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: 9] لما ظهرت الهداية ولم تتميز عنها وبين الضلالة ولم يتميز العلم من الجهالة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي سماء الجمعية والفضاء الكلية ماء فيه جمعية كاملة وكلية فاضلة شاملة، منه شراب أي تجلي جمعي وشهود بصري وسمعي ووجود إضافي تدريجي حقيقي واستقلالي، وتبعي أصلي، وفرعي حقيقي وشرعي، فإن هذا النوع من التجلي الإلهي الجمعي يخصه الله بمن يشاء من عباده في وقت وزمان مخصوص في أشرف بلاده، ومظهر الولاية المقيدة والمطلقة هنا

حب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى، سر الله الدائر في الأوقات والأزمان كلها، أعني الولاية والولي، يظهر في آخر الزمان بمظهر موعود وزمان معهود أعني (900)، ومنه شجر أي الوجود الظلي العيني للتعين في مظاهر عالم الشهادة والغيب، وصاحب الكمال والعيب، ويحتمل أن يكون المراد من الشراب هو الولاية ومن الشجر النبوة أو القوة النظرية والعملية وثمراتهما هي الخلافة العظمى والإمامة الكبرى والحكمة النظرية والعملية أو الإدراكات والعلوم والحالات والمقامات.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ﴾ يريد الحبوب ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 11] يريد أهل الإيمان أي أهل العقل.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ يريد بقدرته وقضائه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النّحل: 12] يريد عقلوا عن الله وعظمته وقدرته وجبروته وأنه لا يقدر عليه أحد غيره وشهدوا له بالربوبية والوحدانية ولم يعدلوا به سببًا ولم يجدوا له نظيرًا ولا كفوًا لأنه لا صاحبة له ولا ولد.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾ يريد ما خلق لكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد الأرض ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النّحل: 13] يريد لقوم يتعظون، يريد عرفوا ما يقربهم إلى الله فعملوا به، وعرفوا ما يبعدهم من اللّهِ فانتهوا عنه، ثم

ذكروا ربوبيته بما هو أهله وذكّر عباده كثرة نعمه عليهم وقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يريد الحيتان ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يريد الدرّ واللؤلؤ والمرجان والزبرجد والياقوت وربما وجدوا الذهب ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وهذه لغة أهل البحرين يريد منغمسين فيه، وأهل البحر يقولون بحر ويقولون تحجبا إذا انقطع البر عنهم فلم يروا عنه نزولًا جزيرة العرب ولا جزيرة الحبش فذلك هو الماخر فيه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النّحل: 14] يريد توحدوني وتطيعوني.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ يريد الجبال ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ يريد أوتادها في الجبال التي يمد لأهلها ﴿وَسُبُلًا﴾ أثمارًا وبحارًا منهما سبل النيل والفرات ودجلة وسيحان وجيحان وسبلًا يريد طرقًا إلى كل بلاد ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النّحل: 15] يريد كي يرشدوا.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ يريد من نجوم السماء ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النّحل: 16] يريد الجدي وقال الآخرون الثريا والعيوق.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ يا محمد ما سميناك لك في هذه السورة وغيرها ويقال لهذه السورة سورة النعم وهي سورة النحل ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يريد الذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17] يريد المشركين يقول أفلا يتعظون كما يتعظ المؤمنون.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ يريد نعمة أكبر مما يحصى لا يعرف منها ظاهر وباطن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ﴾ لأوليائه ﴿رَّحِيمٞ﴾ [النّحل: 18] لهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ يريد ما يخفون وما يظهرون وما لم يكن وما هو كائن إلى يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد الذين يعبدون من دون اللّهِ ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النّحل: 20] كما قال في سورة لقمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾ [الآية: 33] يريد أهل مكة ضرب مثل يريد ضرب لكم وكان حول مكة ثلاثمائة وستون صنمًا في داخل الكعبة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحَجّ: 73] يريد الثلاثمائة والستين معهم وإن سلبهم إلى باب شيئًا وكان الذباب لا يسلبهم الفطر الذي يفطرونه لا يستعيدونه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحَجّ: 73] الطالب هم الأصنام وضعف المطلوب، يريد الذباب.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ﴾ [النحل: 11] أقول: أي يظهر لأجلكم بسببكم المزروع من الحنطة والشعير والأرز والجاردس واللبلاب والباقلاء والماش وغيرها ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ﴾ أي أشجار الزيتون ﴿وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ كرمها ﴿وَمِن كُلِّ﴾ أشجار ﴿ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ من التفاح والكمثرا والخوخ والمشمش والإجاص والعناب والغبير(*) وغير ذلك إنما قارن الزرع بضمير الماء إشعارًا بأن الزرع لا يحصل إلا بالماءِ والأشجار وأكثر الثمار قد ينبت في الجبال والبراري لا يحتاج إلى الماء الجاري الذي أصله المطر النازل من السماء والسحاب بأمر البارئ عز اسمه وتباركت أسماؤه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإظهار وإنبات الأشجار والزروع والأثمار ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 11] إنما جمع الآيات بينهما على أن كلًّا منهما آية مستقلة دالة على وجود الصانع وكمال قدرته ووفور حكمته ورأفته

(*) الغبير: نوع من التمر.

ورحمته، وهو الذي ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: 12] إشعار بأن الإنبات المذكور والإظهار المسطور لا يتأتى إلا باختلاف الليل والنهار وارتباط العلويات بالسفليات بأن يكون الأولى كالآباء والثاني كالأمهات وباتصال الكواكب والنجوم بعضها ببعض سيما بالشمس والقمر بأن الليل والنهار مستفيدان أن الشمس يدبره للروح والنفس والقلب، والقمر للبدن والجسم، وعطارد للأعضاء الحاسة، والزهرة مدبرة للكبد والقوة الشهوية، والمريخ للقوة الغضبية، والمشتري مدبرة للحياة، وزحل للقوة المدركة النظرية، والكواكب الثابتة للأعمال والأفعال والأقوال والأحوال والتوهمات والتخيلات والأفكار والخيالات التي هي غير المتناهية مسخرات بالنصب على الحالية عن الكل، وقرئ بالرفع مع ما قبلها على الابتداء والخبر، وقرأ بعضهم: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ [الأعراف: 54] بالرفع بأنهما مبتدأ وخبر، لأن الآثار العلوية والأنوار العالية أظهر دلالةً على الصانع وكمال قدرته وأشهر على جلالته وعظمته وأطوار حكمته، ولذا قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: 4] لأن في هذا النوع من التفكر يحتاج إلى مزيد تأمل وتعقل ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ أي خلق لأجلكم عطف على الليل والنهار أي سخر الله لكم الملوين وما سكن فيها على الأرض و﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أجناسِ المعادن والنبات وأنواع الحيوانات وأصنافها وأشخاصها مختلفة الآثار ومتفاوتة الأطوار ومتغايرة الخواص والخصائص واللوازم الذاتية والوجودية والقوى والكيفيات وتنوع الهيئة ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ وتوحيد الضمير إشعار بأن أصل الكل وحقيقتها أو مآلها هو شيء واحد أعني المذكور، وإنما خص الألوان بالذكر من الخصائص واللوازم في الأكوان إشعارًا بأنها نهايتها طارئة عليها، وإن الاستدلال الذي هو العلة الفائتة إنما يتأتى من الألوان لأنها محسوسة لأن الأضواء والأشكال لا يحس ولا يدرك إلا بها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي تسخير الله الأمور المذكورة للإنسان الذي هو العلة الفائتة من إيجاد الموجودات لآيات ﴿لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: 12] مما سرى بينهم وبين اللّهِ في العهود الأزلية والعقود الأولية في مقام

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ يتمكنون من الانتفاع به وبالركوب عليه واصطياد ما فيه من السّموك والحيتان وما عليه من أنواع الطيور التي تتعيش وتتولدون وتتوالدون في الماءِ والغرض والخوض فيه تارة ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وتفصيل بعض منافع البحر ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وتتزينون وتتحلون بها من اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك إن أمكن ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النّحل: 14] وجواري فيه ويشق الماء بجربتها وخرطومها وحدّ المخر الرفع والشق وصوت جري الفلك قال بعضهم: مقبلة ومدبرة بأن يرى أحدهما وبعضها مقبلة والبعض الآخر يجريان معًا بريح واحد وهو من عجائب صنع اللّهِ وكمال تدبيره وغرائب تقديره وقيل: سواقٍ يشق الماء بجناحِها أو هو صوت هبوب الرياح عند شدتها ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لتطلبوا من رزقِه وتزكو وتنمو التجارة وابتغاء الفضل التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النّحل: 14] تعرفون نعم الله وتلحظون آلاء اللّهِ وتواردها آنًا فآنًا لحظةً فلحظة.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا شاهقةً رفيعة وتلالًا منيعة كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتميل إليكم الأرض وتضطرب وأنتم عليها لأن الأرض قبل أن يخلق فيها الجبال كانت كرة مستديرة استدارة حقيقية لباطنها، والشكل الطبيعي للكرة هو الاستدارة لتساوي أجزائها وتشابه بعضها ببعض داخلًا وخارجًا وليست هذه الاستدارة والمستدير لا بدّ أن يتحرك أبدًا كما هو الأفلاك، فإن كرة الأرض لا بدّ وأن يتحرك دائمًا، والحكمة الإلهية والدورة الربانية اقتضت خلق الجبال على كرة الأرض بالأغوار والتلال لتكون كل الأوتاد لها في جميع البلاد وعناية ورحمة ورأفة ونعمة لعموم العباد لتكون سكينة لها، فاستكانت الأرض وتمكنت وصارت الجبال مع الأرض كالكرة الواحدة، فخرجت الأرض عن الاستدارة الحقيقية وانصرف ثقلها وحجمها عن مركز العالم فتمور وارتعد مركز الثقل والحجم عن مركز العالم ومالت الأرض إلى جانب الشمال، وانكشفت الأرض عن الماء وصارت الأرض بكرة الماء ككرة واحدة، نعم أوج الشمس انكشف حيث تكون الأرض إلى ذلك الجانب، هذا إذا انتقلت نوبة التدبير من زحل إلى المشتري، ولدى انصراف منطقة البروج عن معدل النهار إما إلى الشمال وإما إلى الجنوب،

فإن كان الميل إلى الشمال وأوج الشمس أيضًا إلى الشمال انكشف ربع الأرض الشمالي وصارت سكنًا للحيوانات، ومال حضيض الشمس إلى الجنوب وسالت المياه إليه وجرت من هذا الجانب إلى جانب الشمال، وانجذبت بأمر الله إلى الرواسي وسالت منها إلى الشمال وجعلها فيها ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ النيل والفرات ودجلة وسيحان وجيحان ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النّحل: 15] في البلاد والآفاق والأقاليم السبع المعمورة.

مطلب وجوب تعلّم علم النجوم بهذه الآية

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ﴾ أي جنس النجم الذي ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النّحل: 16] به في ظلمات البر والبحر وتعلّمه واجب وفرض قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97]. قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: تعلم النجوم واجب بهذه الآية. قال النبي ﷺ: «**تعلموا من أمور النجوم ما يهتدوا به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا**».

قيل: المراد النجوم المعدودة والكواكب المخصوصة المعهودة وهي الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدي والعيوق والسهيل والسماك الرامح والسماك الأعزل وقلب الأسد وقلب العقرب والنسر الطائر والواقِع اللّذان اعتبرهما الجان ورسمهما في البناء الذي سماه في مصر وكانا في السرطان، كما اشتهر بني الأهرمات والنسر الطائر في السرطان، والآن هو مع النسر الواقِع في الجدي وقد تقرر أن الكواكب الثابتة يقطع برجًا إما في ثلاثمائة آلاف سنة كما تقرر إنها تقطع درجة واحدة في مائة سنة، أو ألفي سنة ومائة سنة إن قطعت كل درجة واحد وسبعين سنة على ما وجدوا الاختلاف والله أعلم بحقيقته.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه الأجرام العظام والأجسام الكرام الجسام وما فيها من الكواكب السيارة والثابتة التي لا يعلم أعدادها إلا اللّهِ وغيرها من المخلوقات والموجودات وهو الله تبارك تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئًا قليلًا وحقيرًا وهو الأوثان والأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 17] الفطرة الأولى والنشأة العليا التي خلق الله الخلق فيها على الإسلام.

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا

تَعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان المنحوتة والمخروطة التي هي أحسن الموجودات ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النّحل: 18 ـ 20] تأمل وتدبر واعتبر.

إشارة وتأويل

إلى مقتضيات الأدوار الأربعة النورية الوجودية الجمالية الصريحة الأصلية كل واحد منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة وهو مقتضى دورة من الأدوار الأربعة: فالزرع على مقتضى طبيعة النخل، والزيتون على مقتضى الماء، والنحل على مقتضى الهواء، والأعناب على مقتضى طبيعة النار هذه أعيان الأدوار الأربعة النورية الفرعية، فإن كل واحد من الأدوار الأربعة النورية الأصلية من العظمى والكبرى والوسطى والصغرى يتفرع على أدوار أربعة نورية فرعية فهذه الأعيان إنما هي من أعيان فروع الدورة الصغرى النورية من الأدوار الأربعة الفرعية النورية، فإن فرداريّة التدبير إذا انتقلت من زحل إلى المشتري وانكشفت الأرض وخرجت من الماء زرع الله تعالى بالقوة الإلهية والقدرة الذاتية فخرجت أنواع النبات ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: 64] ألف سنة، ثم تخرج شجرة الزيتون ثم النخل ثم العنب هذا في الطور الآفاقي.

أما في الطور الإنسي فأول ما يظهر في المولود الإنسي إنما هو نبات الأعضاء ثم شجرة زيتون الاستعداد والحس والحركة الإرادية، فإذا استكمل طور النبات انتقل الأمر إلى البرزخ بين النبات والحيوان بصورة شجرة النحل التي يظهر فيها المثل الحي الشوقي العشقي إلى ما يعشقه من أشخاص النخيل بعد استكمال الجيل الجني النباتي. قال النبي ﷺ: «**أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من بقية طينة آدم**».

والغيث إشارة إلى مرتبة الحيوان الذي يستمد منه غيب الإنسان الظاهر في العين بصورة عنب يؤخذ منه الخمر الذي يستمدّ الروح الحيواني والإنساني منها، ويكون اقترب منها، وأنسب إليها بما عدا هذا من النباتات كما أشار إليه رب العزة في كتابه الكريم: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219] وأن يكون إشارة إلى مراتب الجنس وهي النطفة والعلقة والمضغة

والكسوة كما أشار إليه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى آخره وقد جاء في الحديث «**إلى مراتب الشباب والكهولة**» وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي البدن والروح ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ هو العقل ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ أي القلب ويحتمل أن يكون إشارة إلى مراتب النفوس وبين الإشارة واللوامة والملهمة والمطمئنة وإلى مراتب العقل وبين الهيولانية والعقل بالملكة والعقل والمنقاد ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ [النحل: 12] أي الحواس الظاهرة والباطنة وسائر القوى النفسانية والبدنية وأن تكون إشارة إلى الفنون الحكمة الإلهية والطبيعة الرياضية وأقسامها الأربعة الهندسة والنجوم وعلم الهيئة والحساب والموسيقية وعلم التأليف وإلى أقسام الفضائل العلمية والإدراكات والأحوال والمقامات وإلى أنواع التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18] إشارة إلى مراتب الظهورات والدورات والكورات، وأن لكل دورة سماوات وأرض والسماوات الدورة الصغرى النورية، وأرضها محسوسة، وسماوات الدورة الوسطى النورية وأرضها خيالية يدركها الخيال والقوة المتخيلة، وسموات الدورة الكبرى وأرضها نفسية روحية يدركها النفس والروح بالقوة الوهمية الغافلة لا الوهمية الحسية التي تدرك المعاني الجزئية في ضمن الجزئيات المحسوسة وسماوات الدورة العقلية وأرضها ولكل دورة منها أعيان مخصوصة، وأكوان منصوصة يرتبط بعضها ببعض وينضبط الأعلى بالأسفل وينخرط الأسفل في الأعلى ويندرج الأعلى بالأعلى إلى أن ينتهي إلى أعلى الأعلى، فكل عين من الأعيان الوجودية وكون من الأكوان الشهودية الوجودية من أن حصة من الحصص الإلهية ونصة من النصص الربوبية طاوية على التعينات الإلهية والتكوناتَ الغير المتناهية، وهي من حيث إن لكل عين لها توقف على هذه التعينات والآلاء والنعم الغير المتناهية بالنسبة إلى تلك العين، فإذن يعم كل عين غير متناهية وإن قصدت أن فقد النعم الظاهرة والباطنة تكون عاجزة.

وأيضًا إن أرض كل دورة بالنسبة إلى سمواتها كنقطة مركزه بالنسبة إلى ذلك الفلك والسماء، وإن سموات تلك الدورة بما فيها من الأعيان بالنسبة إلى دورة وسموات يكون فوقها كالنقطة المركزية، مثلًا إن الدورة الصغيرة النورية بما فيها

من السماوات التسع وما فيها من النجوم والكواكب السيارة الثابتة الغير المتناهية والأرض وما عليها ومن عليها من أنواع النباتات والحيوانات وما فيها من المعادن، والنقطة بالنسبة إلى الدورة الوسطى وسمائها الخيالية وأرضها بما عليها من الأشباح الخيالية والمثل النورية والأعيان البرزخية وما لها من الصور الخيالية والهيئات البرزخية والأملاك المبصرة والطبائع المنطقية فيها بما لها من الآثار الغير المتناهية والأنوار الملونة والغير الملونة.

وهكذا نسبة هذه الدورة الوسطى بما فيها من السماوات البرزخية وأراضيها، وهذه المرتبة البرزخية بما فيها من الأكوار والأدوار والمرتبة الشهادية وما فيها من السماوات والأرض الروحية والنفسية وما فيها من الأعيان الروحية النورية والأكوان الظلية الضمنية القولية التي لا يعلم عظمتها ولا يحيط بكمها وكيفيتها إلا الله، ومن اللطائف الملكية المديرة والمدبرة السماوات الروحية والأراضي الشبحية كالنقطة المركزية بالنسبة إلى الفلك الروحي، وكذا هذه المرتبة والدورة الكبرى النورية، والسماوات العالية الروحية وما فيها من الكواكب الروحية والنجوم النفسية والأملاك المدبرة والأرواح القدسية والأراضي القدسية، وما فيها من اللطائف الربانية والطرايف الربوبية والمراتب البرزخية والشهادية وما فيها من الأرواح والأشباح والأعيان والأفراح والأرواح والأكوان والأعيان بالنسبة إلى المرتبة الجبروتية وعالم الواحدية، والدورة العظمى النورية، وما فيها من الجواهر النورية والفواخر العقلية والأعيان الثابتة والحروف الجوهرية والكلمات الإلهية والأسماء والصفات الذاتية والسماوات الإلهية والأرض الاستعدادية، وما فيها من باقي المراتب، وما فيها من الأدوار والأكوار، وما فيها من السماوات والأراضي القابليات، وما فيها من الكائنات من الجواهر والأعراض كالنقطة المركزية بالنسبة إلى المحيطات من الدوائر والمدبرات العظيمة، ونسبة الدورة العظمى بما فيها من الدورات والكورات والمراتب بما فيها من العوالم والسماوات إلى الذات البحت ومرتبة اللاهوت نسبة النقطة إلى الدوائر ودائرة الدورة العظمى النورية والظلية.

ومن الغرائب الحكمة الإلهية والقدرة الربانية إن الذات بتمام الأسماء والصفات بجميع التجليات مما يتسع النقطة للقلبية والوحدة الغيبية، قال تبارك

وتعالى: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن، يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء فإن خزانتي ضاقت عليهم ولأن رحمتي لم تسعهم**».

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النّحل: 21] ذلك أن نبعث الأجسام لها أرواح ومعها شياطين فيرون من عبادتهم ثم يأمرون الشياطين والذين كانوا يعبدون الأصنام إلى النار.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا نظير ولا كفؤ له ولا صاحب له ولا ولد له ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد بالثواب والعقاب ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ يريد لهذا القرآن ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النّحل: 22] يريد عن عبادة الله. وقال رسول الله ﷺ: «**من سجد للّهِ سجدةً فقد برئ من الكبر**».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النّحل: 24] وهو النضر ابن الحرث وعلقم بن كلدة بن عبد الدار وأصحابه كان خرج إلى الحيرة فاشترى له أحاديث كليلة ودمنة وأساطير الأولين.

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يريد آباءهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يريد يبتغوهم بلا علم لهم بما يدعون ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النّحل: 25].

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد من قبل قريش نمرود يربي النسور وعلمها ثم بنى تابوتًا وأجاع النسور ثم دخل هو وأصحابه في التابوت وجعل أركان التابوت أربعة رماحٍ في كل ركن رمحًا وعلق في كل رمح جردة مسلوخة وربط التابوت برجل أربعةٍ من النسور فطارت إلى السماء ومعه سهمان يريد يزعم قبل أهل السماء كما قبل أهل الأرض، والنسور تطير وتطلب اللحم حتى استعلى ففتح التابوت ينظر إلى الدنيا، فإذا هواء لا يراها ففتح التابوت الأعلى فنظر إلى السماء فإذا هي من بعيد كما كانت فأتاها جبرئيل فقال: يا نمرود إلى أين؟ قال: قبل أهل الأرض قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: 26] يريد البعوضة.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ أولياء من دوني ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يريد الملائكة ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: 27] يريد العذاب.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يريد أعوان ملك الموت ويضربون وجوههم وأدبارهم حتى يخرجوا أنفسهم لشدة ونكد ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [النحل: 28] حيث يزعمون أن لله شريكًا وولدًا كما أخبر عنهم في سورة ص: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ يريد الأشراف وهم المسبحون ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: 6]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ

﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ يريد النصرانية ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: 7] يريد ما اختلقه محمد ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ يريد استسلموا وأقرّوا بالربوبية ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ يريد من الشراب ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 29] يريد تشركون.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النّحل: 29] يريد مثوًى ومقام ومصير يريد المتكبرين عن عبادة اللّهِ يريد مثل قولهِ في الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [35]، وليس في القرآن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلا هذه، وفي سورة الذين كفروا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]، ولا ﴿فَلَبِئْسَ﴾ إلا هذه التي في سورة النحل والتي في البقرة: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [206]، والتي في سورة النور: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النُور: 57].

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ﴾ يريد الذين خالف اللّه وصدقوا رسوله وأيقنوا أنه لا إلٰه غيره ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ يريد ثوابًا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ يريد قالوا لا إلٰه إلا الله ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ﴾ يريد مضاعفة بعشرة ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد الجنة ﴿خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النّحل: 30] يريد فيها ما لا يوصف ولا يعقل «**بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط**».

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ﴾ أقول الأصنام وأصحابها أموات لا يقبل الحياة أصلًا لا في [الدنيا] ولا في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النّحل: 21] أي انبعث عنهم مادة الشعور وقابليته دليل على أن الأصنام المنحوتة المخروطة حجرًا كانت أو شجرةً يبعث يوم القيامة لا مطلق الأصنام فإن بعض الأصنام كالإنسان المعبود قد يبعث لا نزاع في حشره وبعثه ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المَائدة: 116] توبيخ وتعبير لهم بأن الإله لا يكون إلا عالمًا بحال العابد وبغيرها وإن إلهكم ليس بعالم حال نفسه فكيف بحال غيره.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ وفي إضافة لا إلٰه مزيد تقبيح وتجهيل لهم إن علمهم

منحصر على نفوسهم لا يتجاوز إلى غيرهم كالأعمى ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لا يصدقونها ولا يحكمون بوقوعها ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة للحق نافية له ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22] متعظمون عن قبول الحق وعن التصديق بالتوحيد.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقًّا وصدقًا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النّحل: 23].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي الكفار المشركين المستكبرين أو المسلمون ﴿مَّاذَا﴾ أي شيء ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النّحل: 24] على محمد منصوب بأنزل ومرفوع على الابتداء أي شيء أنزل ربكم على محمد فإذا نصبه فمعنى أساطير الأولين ما يدعون نزوله أساطير الأولين وإذا رفعته فالمعنى المنزل على سبيل الفرض ﴿قَالُوا﴾ أي ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النّحل: 24] أي أحاديث الأولين لا يتحقق ولا أصل له أصلًا.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ يعني قالوا إضلالًا للناس وإغوائهم فإذا حملوا أوزارهم ذكرت نفوسهم وآثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ وإنما ذكر الكامل لنزول البلايا ولحوقهما لهم في الدنيا وما يفعلون من الحسنات ليكفره عنهم شيء من باب إقامة المسبب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ مقام السبب ولكون الميل حاملًا لوزر الإضلال والضلال جميعًا ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ﴾ أي بعض أوزارنا معنى الضالين ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول أي التوابع يستبقونهم لا يعلمون إن هذا العمل إضلال لاستمرار الزمان على هذا النوع من الأعمال السنية، والتابع الأول ما علم حيث الإضلال للإضلال وهذا إضلال وخطأ ودلالته إضلال رد على أصحاب التقليد وتنبيه على أن التقليد في نفسه مذموم ومردود، ولذا قيل: إن إيمان المقلد مردود غير مقبول عند الله وإن كان في ظاهر الشرع مقبولًا حيث أسقط السيف والجزية والحيف ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النّحل: 25] أي بئس الحمل والوزر والخطيئة الصادرة عنهم بلا علم وإدراك بل بمجرد التقليد.

قال عليه السلام: «**من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»، وأيضًا قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا ينقص من أجورهم، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**» وهذا الحديث مطلقًا إما يشتمل المقابلة بعد في المرتبة الأولى أو الثانية أو الثالثة فإن العلة البعيدة مؤثرة في الجملة، قد روي

واشتهر عن الخضر قال وكان أبوهما صالحًا كان الأب السابع صالحًا، فإن أثر صلاحه قد وصل إلى ولده السابع، فإن النفوس الكاملة قد تؤثر في أتباعه الآتية كما يؤثر دعاء العارفين وتوجههم في الأتباع كما أثّر توحيد سلطان العارفين البسطامي في الشيخ الحسن الخزقاني وكان بينهما زمان بعيد.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النّحل: 26] هذا تمثيل يعني أنّهم قد بنوا منصوبات عالية وصنعوا صرايح رفيعة وبروجات مستحكمة متينة كنمرود وذي القرنين وتصرفات نمرود بن كنعان أنه [بنى] الصرح ببابل ليصعد إلى السماء وكان طوله خمسة آلاف ذراع قيل كان فرسخين فهبّت ريح وألقت رأسها في البحر وخر عليهم الباقي وهم تحته، ولما سقط الصرح تبلبلت ألسنة الناس من الفزع يومئذٍ فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانًا، فلذلك سميت تلك البلاد بابل، وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ وجاء حكم الله بقصد تخريب ﴿بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي من أصولها والقواعد أي الأساطين والأساس ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهلكوا ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النّحل: 26] ويحسون ويتوقعون وهذا التمثيل عام يتناول كل من قصد المنع والصدّ عن اتباع الرسل الذين هداهم إلى سبيل الله وصراطه المستقيم.

روي أن جبرئيل أتى نمرود فقال: ما تريد تصنع؟ قال: أريد أن أصعد إلى السماء فأعلو أهلها كما علوت أهل الأرض فقال له: جبرئيل عليه السلام إن بينك وبين السماء مسيرة خمسمائة عام وغلظها كذلك وهي سبع سماوات مثل هذا فأتى نمرود وبنى الصرح فأمر الله جبرئيل فصاح صيحة فطار رأس الصرح في البحر.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ وبدا لهم أو بدّدهم بالنار يوم يخزيهم الله [ويقول] النبي إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ ويخاصمون ويخالفون الرسل أشد خلاف. وقرئ يساقون بينها إلى أن مخالفة الأنبياء إنما هي مخالفة الله وإضافة الشركاء إلى نفسه استهزاء وتهكم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم العلماء باللّهِ ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ عذاب الدنيا والآخرة ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النّحل: 27].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ويقبضون أرواحهم ويضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال من الضمير المنصوب أي في حال كفرهم ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي

أظهروا الإخبات والاستسلام والخضوع (ظالموا أنفسهم) إذا عاينوا الموت وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ [النّحل: 28] وشركٍ وظلم فكذبهم الله ورد عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ [البقرة: 81] ويجوز أن يكون تفسيرًا (للسلم) على أن يكون المراد به القول الدال على الاستسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 28] من الإشراك والظلم فيجازيكم عليه قيل قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ إلى آخر الآية استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟﴾ أي فقيل لهم ادخلوا ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل فرقة بأنها المعدة لهم في كل باب أبواب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النّحل: 29] الظلم والعدوان.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يعني المؤمنين نزلت حيث كانت أحياء العرب يبعثون أيام الموسِم من يطعن بالنبي ﷺ فإذا سأل الذين فقدوا على الطريق عنه فيقولون لهم ساحر شاعر مخبون كذاب كاهن مجنون وإذا دخل مكة وسأل أصحاب النبي ﷺ قالوا: خيرًا وسأل وقال آخر ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ عليه ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ أي خيرًا، خيرًا بأنه نبي بعثه اللّهُ للخلق خيرًا وهاديًا وناويًا للبرايا ومناديًا لعل الله يحدث بعد [ذلك] أمرًا وإلى السماء العظمى والدولة الكبرى دللنا إلى البر والصلاح والتقوى والفلاح هللنا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ﴾ وكرامة اللّهِ وسعادة علومه وهداية تامة وسيادة عامة هذه بالجملة الاسمية والظرفية إما بيان وتفسير لخيرًا أو بدل منه هذا خير خبر الدنيا ولهم في الآخرة ما هو خير وأحسن منها، كما قال عز وجل في أحوالهم فأتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النّحل: 30] دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره.

إشارة وتأويل

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ﴾ [النّحل: 21] تلويح وإيماء إلى أنّ من الناسِ من يدعي الإرشاد والتكميل والعدالة والتعديل، وليس عنده شيء من شرائط الأدوار كان التكميل ممن تصدى إرشاد الطالبين إلى إمداد الراجعين في الفقر الذي عرّفه النبي ﷺ بقوله: «**الفقر سواد الوجه في الدارين**»، وأشار إلى عدد أركانه التي هي أركان الدين وهي الشريعة والطريقة والحقيقة كما قال: «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**».

فأركان بناء الكعبة الفقر كما يدل عليه حروفه الثلاثة والصورة والحقائق وأطوار القلوب والصورة الجمعية فالفاء يدل على نهاية مراتب الكشف والقاف يدل على غاية الحقائق والراء يدل على أطوار مراتب القلب وهي سبعة، والرابع هي الصورة النوعية والهيئة الجمعية الإلهية والكونية وهي فاتحة الكتاب وخاتمته، وهي صورة النوعية الإنسانية وهي صورة الناس، ومعناه فمن استكمل في مراتب الكشف الإلهي وهي شهود التجليات الذاتية والأسمائية والآثارية والصورة الجمعية في الأدوار الأربعة النورية الإفرادية والجمعية الصريحة، وفي الأكوار المربعة الظلية الضمنية، واستكمال في معرفة الحقائق الإلهية والكونية وارتباط الكائنات بالإلهيات وانضباطها في الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية واستكمال في الأطوار السبعة القلبية ومشاهدة الأنوار الملونة الغيبية المسبعة، وهي الطور القلبي البدني المرتبط بفلك القمر وشهود ملكوته والعروج إلى ذلك الفلك ومشاهدة غرائب ملكوته وجبروته، والعروج إليهما المثالي الطور النفسي المنسوب إلى عطارد، فحيث يتصل ملكوت نفسه وحقيقتها بملكوت فلك عطارد ويستورد بأن يصعد إلى ملكوت فلك عطارد وعرج إليه، وتتصل نفسه بنفسه ويستفيض من نوره الأزرق والملون كما استفاض في الطور القالبي، لأن يشاهده النور الأخضر ويشرب منه، فقدر المناسبة الحاصلة لنفس السالكِ إما عينًا أو أنهارًا أو بحرًا عميقًا أو بحورًا أو عالمًا أو عوالم، ثم يصور إلى فلك الطور القلبي ويتصل بملكوت الفلك الثالث وليتصور إلى ملكوت الزهرة ويتصل ويحصل له استعداد شهود التجلي الآثاري هي إما بصورة الأجرام الفلكية والأجسام السماوية كما شاهد إبراهيم الخليل بصورة الكواكب والنجوم والقمر والشمس ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 76، 78].

وشاهد موسى الكليم عليه السلام بضوء النار في الشجرة من الشجرة ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: 30 ـ 31]، وكما شاهد نبينا محمد ﷺ في صورة آدم: «**رأيت ربي في أحسن صورة شاب أمرد قطط**». وشهود التجلي أن يكون في الطور الرابع وهو الطور السري الفؤادي ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: 11] وإذا استكمل السالك في الطور القلبي بأن كمال القوة النظرية وهو طور اليقين واستثناء الأحكام الشرعية، ثم عدل القوة العملية

تزكية النفوس الأربعة، وهي الأمّارة الشيطانية واللوامة السبعية والملهمة البهيمية والمطمئنة الملكية، وهذه هي الطريقة التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «**الطريقة أقوالي**» وهي المجاهدة التي أمر الله بها ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: 78]، ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: 6]، وهي أول ما يجب أن يقدم في الدّين ولا يقدم إليها إلا بنظر من هو عالم بأداة المجاهدة وأداة الرياضة التي هي تقدمة المشاهدة، فحيث انفتحت عليه أبواب الحقيقة من غير أن يعلمها أحد وهي مشاهدة تجلي وجد بحق وسرّ سريانه في جميع المظاهر الكونية والمجالي الكتابية فحديث ينتقل السالك من مرتبة علم اليقين إلى رتبة عين اليقين وشاهد الحقيقة الإلهية والوجه الحقيقي الساري في جميع الذراري أولًا في أعيان الآثار ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: 5 ـ 7] الآيات، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 115] ومن اللّهِ أربعة أشهر والذات من حيث أنها ذات وأحوال متجردة خمسة أو ستة:

الأول: شهود الذات.

الثاني: شهود الذاتية وبعنوان الذات.

الثالث: بعنوان الذات المطلقة.

الرابع: شهود الذات بالعنوان للقيد.

الخامس: بالعنوان المقيد والاطلاق.

السادس: بالعنوان الجامع للكل، وهذا لا يكون إلا في اليقين الكامل الفاضل.

وكل وجه من هذه الوجوه الستة هو مبدأ عالم من العوالم الخمس ومنشأ مرتبة من المراتب الستة:

فالوجه الأول: من مبدأ عالم اللاهوت ومرتبته.

والثاني: مبدأ عالم الجبروت ومرتبته.

والثالث: مبدأ عالم الملكوت ومرتبته.

والرابع: منشأ عالم المثال ومرتبته.

والخامس: مبدأ عالم الملك.

والسادس: مبدأ عالم الناسوت، والعوالم خمس والمراتب ست، وإنما لم

يعدِّ المرتبة البرزخية بالعالم إلا بالتبعية لا نهاية الملكوت وبداية الملك، المحل الثاني هو الأسماء والصفات السبعة الذاتية وهي العليم والحي والقدير والمريد والسميع والبصير، المتكلم بشهود الوجه الإلهي بكل واحد من هذه الأسماء والصفات الذاتية إنما يكون بهذه الوجوه الخمس والست، مثلًا شاهد الوجه الحق بصفة العلم ثم بعنوان العلم من حيث إنه علم مطلق ومقيد، ثم بالوجه العلمي الجامِع لنعت الإطلاق والقيد، ثم بالوجوه الخمسة وجمعيتها وهكذا بصفة الحياة، ثم بعنوان الحياة المطلقة، ثم بعنوان الحياة المخصوصة، ثم بعنوان الحياة المطلقة المخصوصة، ثم بصورة جمعية الكل، وكذا القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام المنفرد، ثم بصورة عنوان الذات بالعلم بالصور المخصوصة، ثم بالحياة بالوجوه المذكورة، ثم بالقدرة بالصور المذكورة، وهكذا في بقية الصفات السبعة الذاتية، فيرتقي من ضرب النسب في الثمانية ثمانية وأربعون، وإليها الإشارة بقوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ في سبعة مواضع: ح م، وهي الجنات الذاتية التي تشاهد في ضمن التجلي الذاتي بالعنوانات الذاتية البسيطة المفردة، وقد تشاهد التجلي الذاتي بالعنوانات الوصفية المركبة مثنى ومثلثًا ومخمسًا ومسدسًا ومسبعًا ويحصل من هذا أنواع من الشهودات في التجلي الذاتي لا يعد ولا يحصى وهذه لوجوه كلها إنما يشاهد في التجلي الذاتي ووجوهه.

وأما الثاني من التجليات الأربعة: فهي التجلي الاسمي والوصفي بأن يشاهد الذات بصفة الحياة والعلم والقدرة والإرادة ثلاث ورباع وخماس وسداس وسباع، وأما التجلي الأفعالي فهو أن يشاهد الذات بنعت الخلق والتكوين الإبداعي الاختراعي، أما الإبداعي فهو خلق الجواهر المجردة كالعقول والنفوس المجردة، وأما الاختراعي فهو خلق الجواهر المادية كالسماوات الحسية.

وأشار إلى التجلي الذاتي والتجلي الأسمائي والصفاتي بقوله: (حم) الغافر و(حم) فصلت وبـ(حم) (عسق) أشار إلى التجلي الأفعالي، وهذا الطور هو الطور الروحي، المستمد من ملكوت الشمس، ويتصل روح السالك إلى ملكوت الفلك الرابع ويصور ويعرج إلى سماء الشمس ويشاهد عجائب القدرة والحياة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر قط، ويشاهد النور الأصفر ثم يعرج إلى الطور الخامس وفلك المريخ ويشاهد الملكوت الأعلى، وربما يتنزل السالك من

هذا المقام ويشاهد سر سريان الوجه الإلهي إلى فلك الشمس ومنه إلى فلك الزهرة ومنه إلى فلك عطارد ومنه إلى فلك القمر ومنه إلى العناصر والمواليد إلى عالم الناسوت ويشاهد ذلك الوجه ساريًا في تمام المظاهر بل عينها، ولا يرى عينًا من الأعيان العالية والسافلة إلا وهو حقيقة ذلك الوجه الساري، وذلك الوجه عينه وحقيقته والنظر الأعلى هو أن يرى السالك نفسه عين الوجه الإلهي الساري وجميع الذراري، ولا يرى لأحد حقيقة إلا وهو عين الحقيقة الظاهرة في تمام الأدوار والأكوار الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية وهي مع كمال أحديته ووحدته الذاتية ظاهر في تمام الكثرات وعموم الموجودات، مع أنه باق على أحديته الذاتية ووحدته الغيبية، والغيبية والشهادية، وربما يصور من هذا المقام ويتمم الدورة الأولى ويكملها، وربما تقف في هذا المقام، لا يعرج ولا ينزل لقصور المرشد لا يقدر على التصرف في السالك بأن يعبره من هذا المقام، فلو أنزل المكان هذا المنزل عين الترقي ليتمم الدورة الدائرة الاستكمالية، فلو صوروا ترقى إلى المرتبة الأعلى لكان هذا الترقي عين التنزل لأنه ما كمل دائرة الاستكمال، وكذا حكم السالك الصاعد إن رجع من هذا المقام فهو ساقط وراجع رجع القهقرى، كما روي أن أفلاطون [قال]: إني خلوت في نفسي فوجدت فيها نورًا وبهاءً، فترقيت في عالم نوراني بلا حدّ ولا غاية، فصعدت في عالم أعلى فيه نور وبهاء وصفاء وضياء لا يمكن أن يوصف فخفيت علي، فهبطت إلى عالم التفكر والتخيل فتذكرت من فيثاغورث وسلطان كيخسرو سقراط وبقراط فإنهم يحثون الخلق إلى العالم، فيرى السالك في هذا الطور الثور الأحمر ويشاهد عظمته ملكوت فلك المريخ، ويتحقق بها، ثم يترقى في الطور السادس الخفي ويصور في فلك المشتري ويرى عجائب ملكوت المشتري، ويشاهد النور الأبيض أو الأزرق، ثم يصعد إلى الفلك السابع وطور غيب الغيوب، ويصل إلى غيب فلك زحل ويشاهد النور الأسود، وهذه هي الأطوار السبعة القلبية المنسوبة إلى الكواكب السبعة السيارة التي هي مربوب الأسماء السبعة الذاتية وهي العليم والحي والقدير والمريد والسميع والبصير والمتكلم، يتعلق بالكواكب السبعة على الترتيب، فالعليم رب زحل والحي رب المشتري على الترتيب إلى الكلام المربي القمر، فحق المرشد الكامل المكمل أن يحيط بارقان الفقر وهي المكاشفات

والحقائق وأطوار القلب السبعة، ويتحقق بصورة جمعيتها، ونتائجها هي التعبيرات الظاهرة والباطنة كما شرحنا وفصلنا في الكتاب النوري.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ التي هي غرس من رحمته لأوليائه وأهل طاعته ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يريد أنهار الماء وأنهار العسل وأنهار اللّبن وأنهار الخمر كما قال في سورة محمد: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يريد غير متغير لا يوصف طعمه ولذته وحلاوته، وهو أعظم من ذلك حصاؤه الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وحماية المسك الأذفر، وقراءة الكافور الأبيض، وحلقاتها الزعفران وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، يريد لا يحمض ولا يتغير ولا يليّن، ولا يوصفه الواصفون، ولا يبلغ عقول العقلاء منتهى لذته، وأنهار من خمر لذة للشاربين، سبحان الله ما أعقل الطالبين لو عاينوا ما يطلبون لذهبت عقولهم شوقًا إلى ما في الجنة، وأنهار من عسل مصفى ليس مما يخرج من الشهد، ولا بطون النحل إنما خلقه الله لأوليائه وعجزت العقول والإنس عن صنعته، فلا إله إلا الله ولا إله غير الله ولا إله مع الله ولا إله سوى الله ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ تفضلًا من الله العليم ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النّحل: 31] يريد الخائفين الشرك لما وفق العالمين لما يحب ويرضى.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ ليس ملائكة العذاب ولكن ملائكة الرحمة وخزنتهم أحسن من القمر ليلة البدر وريحهم أطيب من كل طيب ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ تزف بروحه إلى الله لما تزف العروس إلى زوجها بأمر اللّهِ كذلك الزوج بالكرامة والتحية والدخول الجنة وما لا يوصف ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 32] يريد أن أعمالكم كانت لي رضا وأنا عنكم راض ورضائي طلبتهم فهنيئًا ما أعطيت لمرضاتي.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يريد المشركين عند الموت ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾ يريد قبل ذلك من القتل وغيره ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ يريد الأمم الماضية ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: 33] يريد هم لأنفسهم ظالمون حيث بدلوا نعمة الله كفرًا بعد كثرة نعمه عليهم وما أنزل لهم من حرمه وأمنه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ يريد جزاء ما عملوا ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل: 34] يريد المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ يريد هذا كله جحود ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يا محمد ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ يريد عمرو بن لحي وأصحابه ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النّحل: 35] فقد بلغت رسالتي وقد بلغ أبوك إسماعيل من قبل رسالتي وكان الذي بمكة واضحًا قرنًا بعد قرن.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ يريد عبادة الشياطين ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [النّحل: 36] يريد منهم من أرشد وهدي سر الله الذي لم يطّلع عليه ملك مقرّب ولا نبي مصطفى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾

يريد في علمي ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يا أهل مكة يريد أرض اليمن والشام والبلدان ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النّحل: 36] كما قال في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ وقد علمت حرصك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النّحل: 37] يريد لا يرشد الله من كان في عمله ضالًّا ولا ناصرًا له من الله.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يريد أغلظوا في الأيمان تكذيبًا منهم لقدرة الله وعظمته وجبروته وسلطانه على ما أراد ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ﴾ يا محمد ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يريد لا خلف منه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 38] يريد لا يوقنون.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ﴾ يريد هذا الوعد الذي قال وعدًا عليه حقًّا يريد قسمًا من الله واجبًا كما أقسموا ﴿فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النّحل: 39] يريد لما أقسموه.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ يريد بخيبر بقوته وقدرته وجبروته وعزته وملكه ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النّحل: 40] ليس كما يتكلف المخلوقون من الفعلة والأعوان

والآله ولا راد فأمر الله أرجى من ذلك كما قال في آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فكل أمره هو الحق وكل ما جاء من غيره فهو باطل ولا أعلى من الله ولا أكبر ولا أعز ولا أجلّ.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أقول: هي في السماء العليا لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل أو محكم في نفسه مخير بين الشرك والإيمان فيختار الإيمان على الشرك الحديث هذا على سبيل منع الخلق لا مانعة الجمع يجوز أن يكون منصوبة مخصوصة بالمدح وأن يكون خبر مبتدأ محذوف ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي تحت أشجار رياضها وتحت قصور الجنان أو تحت بساتينها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من اللذات والنعيم وأنواع المشتهيات البهيمية والتمتعات السنية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بذنوبهم ومعصيتهم وكفرهم بأنواع العذاب وأجناس العقاب ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النّحل: 31] الخائفين عن الله المجتنبين عن منهياته بحسن نياتهم وصفاء طاعاتهم وكمال تعينهم وإيمانهم.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ صفة المتقين أو منصوب على المدح أي بفيض أرواحهم ملائكة الرحمة بالسهولة ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي حال كونهم أحسن الأحوال أطيب الأعمال وأطيب النفوس بالأعمال الصالحة والأفعال الفالحة ﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 32] أي أشرف العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله إن اللّه يقرأ السلام عليك، وبشره بالجنة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يقبضون أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يوم القيامة أو العذاب المستأصل ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بنذيرهم من العذاب وإعطاء الثواب ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: 33] بكفرهم ومعاصيهم المؤذية إليه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم من الكفر والظلم والمعاصي ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النّحل: 34] والحياق لا يستعمل إلا في الشر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ وكفروا بإظهار الشرك وإثبات الشركاء ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم شركنا وإشراكنا أو وجود إسلامنا وطاعاتنا وإيماننا ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾

وغيره وما سواه ﴿مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فلولا أن الله رضي لنا لغيره وهدانا إلى غيرها ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النّحل: 35] أي ليس عليهم الهداية والابتداء وإنما عليهم التبليغ والإنذار والدعوة والتحذير والإحذار.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ وأرسلنا ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ ونبيًّا من قبلكم قائلين لهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ واستبعدوا كل ما سوى الله من الملك وأجزاء الفلك من الكواكب والنجوم وغير ذلك من أعيان عالم الشهادة والملك ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى دينه وطريقه ونواميسه وأوصله إلى حظائر قدسه وسرائر أنسه الذي لا يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾ كلمة العذاب وسبقت لديه ﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وفقدان الهداية ووجدان الخسارة في العلم السابق وقضائه الفايق وحكمه السايق ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سير الأغيار ودور الاستبصار ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ﴾ أعاد الهالكين وأدبار المتصرفين المالكين ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النّحل: 36] الأنبياء ورسل الله إلى الخلق لإظهار طريق الحق.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ يا محمد وأظهرت الحرص والشغف على هدايتهم وعلى إظهارهم الهداية وإشهارهم الدراية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ وحكم على ضلالته وخسارته وشقاوته ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النّحل: 37] مانعين الضلالة والإضلال والإغواء ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني كفار مكة أي جدّوا وسعوا واجتهدوا حق الاجتهاد والسعي في اليمين والحلف والامتناع عن الخلق بأنه ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن﴾ من مات ﴿يَمُوتُ﴾ لا يحشر الأجساد منها الأجداث ممن فات ويفوت، يعني أنكروا يوم القيامة وما يكون فيه من الحشر والنشر والصراط والميزان والحساب والعذاب والثواب والخلود في أشد العقاب ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ يعني بلى يبعث الله الخلق يوم القيامة ويوقع ما وعده وعدًا ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا لا يتخلف أصلًا، فالوفاء به واجب لأن الحكيم المطلق لا ينطق ولا يحكم إلا بما هو واقع وكاين قطعًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 38] حقيقة وعد الله ووقوعه وإن وقوعه ثابت وواجب كما هو مقتضى الحكمة الإلهية.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلق بما دل عليه بلى أي بلى يبعث الله لأن يبين لهم أي لمن يخوف كافرًا كان أو مؤمنًا ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي الحق الذي استمر

الاختلاف فيه هو يعني البعث ليظهر لهما الذي اختلفوا فيه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في الدنيا الحق في يوم البعث ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النّحل: 39] وإنما ذكر الكفار دون المؤمنين مع أن الإظهار والتبيين عام لهما، إشعار بأن الكفار يجريان حالهم على خلاف مقتضى الفطرة السليمة يكون أحق بالذكر للتعجب بحالهم، وأما المؤمنون فلجريان حالهم على مقتضى الفطرة السليمة استعفوا عن الذكر لوضوح حالهم لقوله ﷺ: «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام**» الحديث.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يعني أن الأمر الإلهي كما يقتضي الإيجاد والإظهار من لا شيء وعدم محض بلا سبق مادة ومدة، كذلك يقتضي الاختفاء والبعث، بل هو أهون لوجود مادة الظهور والإظهار قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ يقول الله تعالى: «**كذبني عبدي ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي أن يقول: لن يعيدنا كما بدأنا، وأما شتيمته إياي أن يقول: اتخذ الله ولدًا وأنا الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد**» ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النّحل: 40].

إشارة وتأويل

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [النّحل: 31] إشارة إلى جنات الصفات الذاتية وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**ليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»، وقد مر في الحديث إن جنة عدن في السماء العلياء وهي أحدية جمعية الأسماء الذاتية بالذات، وقد علمت جنة الذات التي هي تنوع التجلي الذاتي، وهي ثمانية والجنة الصفاتية إنما هي ظلالها، وأما جمعها باعتبار أن كل اسم وصفة يتضمن ما في الأسماء الباقية بالذات.

وقد علمت أن كل اسم من الأسماء الأربعة الأولى الأسماء السبعة الذاتية وهي العليم والحي والقدير والمريد له دورة مخصوصة وفردارية منصوبة ولها اقتضاء وتأثير خاص وارتضاء ودنيا وآخرة وسموات وأرض، وللسموات حركات وللحركات مقدار معين بها تظهر تلك الاقتضاءات والتأثيرات، ولكل دورة بداية ونهاية وهي الأزل والأبد، وللآخرة جنة ونار وفي بداية كل دورة عظمى وكبرى ووسطى وصغرى أحدية جمعية وهيئة إجمالية جملية ينطوي على تفاصيل ما

يجري في أجزاء تلك الدورة، لها نسبة ووجه الذات ومطلق الوجود وهي جنة تلك الدورة، ونسبة إلى الأسماء والصفات المنشأة المتفرقة وهي النار والسعير، باعتبار انطوائها على الذات والأسماء والصفات الذاتية والأفعالية يسمى بالفردوس، وباعتبارِ احتوائها على الأسماء والصفات والذات يسمى بالجنات العدن، وأشار إليه النبي ﷺ: «**الجنة مائة درجة ما بين درجتين مسيرة خمسمائة عام والفردوس أعلاها درجة، ومنها تنفجر أنهار الجنة الأربع ومن فوق ذلك يكون العرش**» الحديث.

أما الجنة الأربع فهي التي صرح بها حيث قال: **الفردوس أربع بنيان من ذهب حليتها وأبنيتها وما فيها وبنيان من فضة مثله**» الحديث، أما التي من الذهب فهي مقتضى صفة العلم والحياة، وأما التي من فضة فهي مقتضى القدرة والإرادة، والذين تتوفاهم الملائكة من الجذبات الإلهية والإشراقات النورية والخطرات العلمية التي تجذب قلوب العارفين وتتقي سرهم وفؤادهم من الالتفات إلى الغير، وتقبض أرواحهم من صور الأعيان إلى دور الأنوار الإلهية وغرر الأسرار الغير المتناهية، ويصرف أزواجهم من التوجه إلى الكثرات الكونية إلى شهود التجليات الذاتية والأسمائية والأفعالية، طيبين يقولون سلام عليكم أي حال كونهم طاهرين من أنجاسِ أرجاس النفوس العاملة، وقد مرّ أن تحية أهل الجنات كلها هي سلام عليكم أي سلامة حاصلة عقيب التجلي الذاتي لغيب الطور الخفي من الآفات الواردة على شهود ذوات الأعيان، أو حاصلة للطور الروحي من الآفات المرتبة على شهود صفات الأغيار، أو حاصلة للطور السري من الآفات المتفرقة على شهود أفعالِ الأغيار، أو على الطور القلبي من الآفات الواردة على ملاحظة الإدراكات الحسية والأعمال النفسية والبدنية.

والحاصل: أن في كل جنة من الجنات البدنية والجسمانية والنفسانية والروحانية الربانية والعقلية الإلهية في الدورة الصغرى والوسطى والكبرى والعظمى نوع من الملائكة العالية والعاملة والسافلة، والكل هي ملائكة الرحمة موكلة على هذه الجنات، كل طائفة منها مستغرقين أهلها، ويتحققون تنوع من السلامة هل ينظرون إلا أن يأتيهم الملائكة، أو يأتي أمر ربك الأول عبارة عن

جذبة القلب، والثاني إلى جذبة السر والروح، وما ظلمهم الله لأنه فياض مطلق ورياض محقق، لا مانع لإعطائه ولا دافِع لاقتضائه، ولكن كانوا أنفسهم لقصور قابليتهم وفتور استعداداتهم ومادتهم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما أشركنا ولا ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: 35] إلى آخر العشر، هذا من مقتضيات لسان السر الجلالي ومستدعيات القابليات الأوليات، وترجمان الاستعدادات الذاتية، كما قال الأول من مرتضيات ظاهر الجمال، إشارة إلى أن الكل من الله، فإن الاستعدادات واستدعاءات بها والقابليات ومستودعها إنما هي من قبضة القدس المتفرع للتجلي الذاتي كما كان الوجود أتباعه من قبضة القدس المتفرع على التجلي الذاتي والأفعال فرجع الكل إليه ورفع الصغير والجلّ لديه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يريد قَبل الله عبادتهم وهجرتهم ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ فما ظنك بمن قال الله أكبر يريد ارتفعت عنه الصفة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 41] يريد أن أمر الجنة أعظم وأكبر من أن يعلمه أحدًا أو يقدر على صفته ثم رجع في الثناء عليهم وأمدحهم بالصبر والتوكل عليه وقال:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النّحل: 42] يريد صبروا على دينهم وعلى عذاب المشركين لآبائهم إنهم في ذلك واثقون وهم متوكلون عليه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 43] يريد أهل التوراة والذين آمنوا من قريظة والنضير

يريد عبد اللّهِ بن سلام وأصحابه، والذكر هو التقدير مثل قوله في الأنبياء.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ وكتبنا في الزبور من بعد ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ يريد القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يريد هذا الكتاب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 44] يريد في تكذيبهم إياك يريد الذين لا يؤمنون مثل حيي بن أخطب وأصحابه.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يريد المشركين رجع إلى خبر المشركين أهل مكة وما حول المدينة ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يريد كما خسف بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النّحل: 45] يريد يوم بدر.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ يريد في تجارتهم وحلالهم إلى اليمن والشام ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النّحل: 46] يريد أن الله تبارك وتعالى لا يعجزه [ما] أراده.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يريد على بعض إما بقتل أو بموت ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 47] يريد لرؤوف لرفيق على خلقه رحيم على أوليائه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ يريد الشجرة والنبات ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُ﴾ يريد [عن] تمثل ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النّحل: 48] يريد صاغرون.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ يريد كلما جرت على الأرض ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النّحل: 49] يريد عبادة اللّهِ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النّحل: 50].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [النّحل: 41] أقول: أي كُذّبوا وأوذوا أفشوا في اللّهِ وفي حبه، وهم الرسول وأصحابه حيث قصد القريش إياهم وظلموا عليهم وأهابوا وآذوهم، بعضهم إلى الحبشة وهم المهاجرون الأولون وهم جعفر مع سبعين نفر من الرجال والنساء تقريبًا، وبعضهم إلى المدينة وهم الرسول ﷺ وبعض من أصحابه فإنهم فروا بدينهم إلى الله وفي الله لأنهم ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 115] نزلت في سبعة نفر منهم عمار وبلال وصهيب وخباب وعانس وأبو جندل وسهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم بعد هجرة رسول الله ﷺ، عن صهيب أنه قال: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب وقال عمر رضي الله عنه: نعم الرجل صهيب.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النّحل: 41] نعطينهم في الدنيا رزقًا واسعًا روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول خذ هذا بارك الله فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أفضل، ثم تلا هذه الآية قيل الحسنة في الدنيا هو التوفيق والهداية ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 41] أي الكفار أن الله يجمع هؤلاء المستضعفين في أيديهم سعادة الدنيا والآخرة، أو المؤمنون بهذا الفوز لوافقهم وزادوا في الاجتهاد والصبر.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النّحل: 42] في الله وعلى أمره وعلى الشدائد وبلائه وإلى الله يتعظمون ويفرضون أمورهم لديه، محله النصب على المدح أو الرفع على الخبرية، أعني الذين صبروا أو هم الذين صبروا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ نزلت في مشركي

مكة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 43].

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالبراهين العقلية والبينات النقلية والحجج المركبة، فهما والصحف المنزلة على الأنبياء المتقدمة، يعني إن كنتم لا تعلمون ما ورد على محمد من القرآن، وما نزل به من الملائكة، وكيفية حال كون علمكم مبينًا بالبينات ﴿وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 44] يعني إذا انتفى عنكم أهلية إدراك حقيقة محمد وكيفية حاله بالنظر العقلي وأسلوب الاجتهاد في الكتب، والدليل النقلي وكيفية استنباط معانيها وانضباط مبانيها واحدًا لأحكام منها والتقاط الأعلام عنها، فارجعوا إلى العلماء الذين مارسوا مطالعة الكتب ودارسوا مصارعة الخطب، لعلّ الله يحدث لديكم ويحرث إليكم الإصلاح على حاله وحقيقة مآله.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وفعلوا في طريق الحق بالمؤمنين من المكروهات ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ وجعلهم ملتقمين لها كما يلتقمهم الحوت فهم مليمون كما خسف بقارون وجعله مغرقًا في الأرض، أن يخسف مفعول به لا فأمنوا أي فأمنوا خسف الله بهم الأرض ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النّحل: 45] كما أتى العذاب للقريش يوم بدر ممن لا يطعمون وكانوا يحفرون أصحاب النبي كان أبو جهل يقول: إن أصحاب محمد ما هم إلا كَجِرْوَة.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ في الأرض للتجارة أو السير ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النّحل: 46].

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ هو التبعيض من أطرافهم والإزاحة شيئًا بعد شيء إلى أن هلك جميعهم، يقال يخوفه الله إذ الدهر إذا ينقص واحدًا وبعد واحد ينقص حشمه وخدمه، قيل هو تعذيب طائفة ليتخوف الآخرون وإن يصبهم ما أصابهم ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 47] يحيط أوزارهم ولم يعجل في عقوبتهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ معين وهو جسم قائم له ظل ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾ ويتحول وينتقل ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ ويدور حيث دار من سمت إلى سمت في أول النهار إلى حد ما هو الاستواء وفي الظل المعكوس ينعكس الأمر عند ابتداء النهار عن مثناه وعند الاستواء لا يفنى ولا يتلاشى وهذا الحكم في عرض واحد يصل الشمس

إلى سمت الرأس ويفنى ظل كل شاخص والظل المعكوس وهو ظل مقياس في جدار هواء الأرض، وهذا الظل لا يفنى أصلًا عند الاستواء هذا مثل للكفار، فإن ظلمة ظلمهم المعكوس لا يزول عنهم بخلاف ظل المؤمن فإن عند كمال استوائه مع الله واستقامته في عبادته وكمال طاعته لا يبقى له ظلمة ظل بل يتلاشى لدى ظهور شمس عناية الله وكمال هداية ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النّحل: 48] صاغرون في أنفسهم، وإنما جمع ضمير الفصل جمع العقلاء تنبيهًا على أن جميع الأشياء الجماد والنبات والحيوان كلها عارف بالله ومسبِّح له ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21]، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]. قال النبي ﷺ: «**جعلت البهائم والطيور والسباع والحيتان والأشياء كلها على خمس: المعرفة بأن الله ربها، وحيث يأوي، وطلب رزقها، وكيف يأتي الذكر الأنثى، وكيف يأتيه حذر الموت**»، وإنما أراد من اليمين والشمال وجهي كل شيء أحدهما إلى الله وهو به قديم ثابت أزلًا وأبدًا دائمًا سرمدًا ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] وهو بذلك حادث هالك ساجد وعابد.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ وينقاد ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة والنفوس والأرواح والأجرام الدائرة ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ متحركة من دب يده إذا تحرك، وفي العرف يخص في الأنعام وهي البقر والفرس والحمار، والمراد من الأرض هو العناصر، وما يتركب منها من المعادن والنبات والحيوان ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النّحل: 49] المقربون العالية والعاملة والمدبرة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النّحل: 49] ولا يعصون ما أمرهم.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ من حيث المرتبة الكلية والجمعية الذاتية والاسمية والفعلية ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النّحل: 50] في كل الأوقات لجميع المصالح والمقاصد والحاجات.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ يريد المشركين ﴿بِظُلْمِهِم﴾ يريد بافترائهم على الله ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ يريد من مفترٍ ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يريد القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النّحل: 61] يريد أجل القيامة لا يؤخر ولا يقدم.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ لأنفسهم من البنات ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ يقول يطلبون بذلك الرضا والجنة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ يريد حقًا لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ [النّحل: 62] يريد أنهم أفرطوا في الافتراء على اللّهِ يا محمد لقد أرسلنا إلى أمم.

﴿تَٱللَّهِ﴾ يريد بعزة الله وبحرمة اللّهِ نعزي النبي ﷺ بذلك ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ [النّحل: 63] يريد أنبياءنا ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ إلى قرن وإلى قوم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يريد طغيانهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يريد إلى يوم القيامة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النّحل: 63] يريد وجعًا.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ نقصّ من الأمم الخالية وما مثل بالمكذبين الدين ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ يريد إيجاد الحجة عليهم ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ بيانًا ودينًا ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النّحل: 64] يريد لقوم يصدقون.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [النحل: 65] يريد أنزل من السماء ماء يريد قرآنًا فيه ذكر الأولين والآخرين والفرائض والحرام وما ذكر الله من الوعيد والعذاب والعهد والثواب إن في ذلك لعبرة يريد لأنه لقوم يسمعون يريد عقلوا عن الله وسمعوا من مواعظه فانتهوا عما نهاهم وعملوا بما أمرهم.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ يريد لفكرة ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ﴾ يريد الثفل الذي يكون في الكرش ﴿وَدَمٖ﴾ يريد الخليطة باللحم ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النّحل: 66] يريد لذيذ اللبن شربه.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ يريد كل ما أسكر وهذا قبل أن يحرم الخمر ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ [النّحل: 67] فأحسن يريد النخل والزبيب والتمر وكلما تتخذ من النخيل والأعناب.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ يريد ربك للنحل ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النّحل: 68] يريد ما يعرش الناس لهم من الجبال ومن الشجر وهي تتخذ من الجبال لأنفسها إذا كانت لأصحاب لها.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ يريد طرق ربك يطلب فيها

الرعي وما أنزل الله من السماء لها فيجمعه ثم هي فتملأه قال الله تبارك وتعالى ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يريد أبيض وأحمر وأصفر وأسود ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 69] يريد يتفكرون في عظمته وقدرته وأيقنوا أنه ليس مثله شيء وإنه لا شريك ولا صاحبة له ولا ولد.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النّحل: 70] يريد بطول البقاء والعمر حتى يصير كالصبي الذي لا عقل له ولم يجعل ذلك في المسلمين والمسلم لا يزداد في طوله العمر والبقاء عند الله إلا كرامة وعقلًا ومعرفة بالله كما قال تعالى في التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التّين: 4 ـ 5] يريد الكافر من ولده إلى أرذل العمر ثم استثناء المؤمنين فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التّين: 6] يريد غير منتقص يريد إذا ضعف عن الصلاة والحج والعمْرة والجهاد وما هو لله رضاء مما كان يعلمه الله أجرى الله ثواب ذلك عليه في الكبر أليس الله الذي فعل هذا بالمؤمنين بأحكم الحاكمين يريد أعدل العادلين ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحجّ: 5] يريد ذهاب عقله إن اللّه عليم بما صنع بأوليائه قدير على ذلك.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أقول: واعلم أن العرب إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان معدودان وفيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان وأما قوله تعالى إلهين اثنين فللدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية فلو جردت عن التأكيد لاحتملت ألا يكون المقصود هو بباب الإلهية دون الوحدانية لاستلزامها إياها ألا ترى إنك إذا قلت إلٰه مجرد عن التأكيد لجعل أنك بينت الإلٰهي دون الوحدانية ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النّحل: 51] والالتفات من الغيبة إلى التكلم للمبالغة في الترهيب وتصريحًا بالمقصود بكمال الترغيب إلى التأدب بالله

والتأديب في طاعته كأنه قال: أنا ذلك الإله الواحد القادر العزيز القاهر فإياي فارهبون واتقون وارغبوا إلى طاعتي بكمال التأديب.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّحل: 52] خلْقًا وملكًا وعبادة وخلُقًا وتخلقًا بأخلاق الله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: 93]، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ أي وله الجزاء أو الطاعة والاستسلام لازمًا بنا دائمًا وتخصيصه بالدنو تنبيه على أن العبادة هي المقصود بالذات ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56] ما تقرر من أن الإله وحده حقيقة أن لا يعبد غيره وله الجزاء اللازم والإجزاء بالثواب الدائم لا ينقطع ثوابه ولا يرتفع عقابه ولا ينتهي حسابه ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النّحل: 52] هو عما سواه.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي شيء حل بكم واتصل لديكم من النعمة الظاهرة والنعم الباهرة والآلاء الباطنة فمن الله، و(ما) شرطية باعتبار الاختيار دون الحصول فإن استقراء النعمة بهم يكون سببًا للإخبار بأنها حاصل وثابت من الله لا لحصولها لهم لامتناع حصول الحاصل وتحصيل المحصل ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النّحل: 53] يتضرعون. والجأر رفع الصوت في الدعاء فالاستغاثة.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾ والبلاء والعناء والفقر والشر ﴿عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [النّحل: 54] يجوز أن يكون الخطاب عامًّا كما كانت، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النّحل: 53]، يريد بالفريق فريق الكفرة منكم أي من كفاركم وأن يكون للمشركين، ومنكم للبيان لا للتبعيض، فلما نجاهم فمنهم مقتصد ليكفروا بعبادة غيره كأنه قال: فإذا فريق كافر منهم وبهم أنتم، فإذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ يجوز أن يكون منكم للتبعيض، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [النّحل: 55] بعبادة غيره بهذا إذا كان الخطاب عامًّا

فمتعلق بيشركون بما آتيناهم من نعمة الكشف عنهم يعني قصدوا بشركهم كفران النعمة إذا نكاد كونها من الله كأنهم جعلوا حرصهم من الشرك كفران النعمة ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ [النّحل: 55] أو استمتعوا بما اقترفتم واقترحتم في آجالكم من لذّات في المدة التي ضربتها لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 55] تهديد وتخويف وإنذار غليظ ووعيد لم يحتمل أن يكون اللام في ليكفروا لام العاقبة فتمتعوا يكون متفرعًا عليه أي حاصل أمرهم وعاقبة شرهم وهو كفر بالنعماء من كشف الضر والبلاء، أي فتمتعوا أو عيشوا كيف شئتم، وأن يكون لام الأمر الوارد للتهديد في معنى الخذلان والتخلية والفاء للجواب وعليه قراءة من قرأ فتمتعوا مبنيًّا للمفعول عطفًا على ليكفروا.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الفهم التي لا علم لها لكونها جمادًا ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال والحرث والأنعام، فقالوا هذا لِلّهِ بِزعمهم وهذا لشركائنا، ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النّحل: 56] في الدنيا من إنها إلهية حقيقتها بالتقرب وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ فإن خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات اللّهِ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لذاته وتقديس لحقيقته من نسبة الولد إليه أو يعجب من قوله ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النّحل: 57] من البنين وأولاد الذكور وينسبون البنات إلى الله و(ما) موصولة يجوز فيه الرفع بالابتداء والنصب بالعطف على البنات.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ أُخبر ﴿أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار وجهه وصار سيماؤه ﴿مُسْوَدًّا﴾ ذا اسوداد وما دام الليل والنهار مغمومًا محزونًا مهمومًا ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النّحل: 58] مملوء غيظًا من المرأة.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ ويختفي يستر ويستخفي ويتوارى ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ وأخبر على وجه الاستبشار ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ وهوان وذل وعار واستحقار وعار وخسار ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ ويحضه ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النّحل: 59] ويخصون لله البنات ولأنفسهم البنين ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النّجم: 20 ـ 21] قبيح قيل حكمهم.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهم الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الغناء عن العالمين والنزاهة والتنزه عن صفات المخلوقين وسمات المحتاجين المفتقرين إلى الولد لبقاء النسل وحفظ النوع وهو الغني المطلق والواحد المحقق ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النّحل: 60] الغالب القاهر المتفرد بكمال القدرة والحكمة.

إشارة وتأويل

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ الذات الجامعة بلسان الأسماء الذاتية والأعيان الثابتة والشؤونات ومقتضيات الأدوار النورية الوجودية الجمالية، ومرتضيات الأكوار الظلية العدمية، الجلالية الإفرادية، والجمعية الاستقلالية، والتبعية التدريجية والدفعية ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾ على مقتضى خصوصية النور والجمال ومرتضى بوصف الظل والجلال ﴿إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ كل منهما إلهًا مخصوصًا وربا منصوصًا إذ تعدد الوصف لا يقتضي تعدد الذات ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ بالذات والصفات أيضًا إذ حيث لا ذات ولا صفات لا علم ولا حياة ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النّحل: 51] لا غيري لامتناعه.

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي في الأدوار النورية الأصلية والفرعية ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الأكوار الظلية وما فيها من الاستعدادات الذاتية والقابليات الأسمائية وما فيها من

الأكوان الضمنية الظلية الخفية ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي الصورة الجمعية والهيئة الكائنة والمعية ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النّحل: 52] وترهبون.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ من النور والوجود والجمال والظل والعدم والجلال وصورة جمعيتها ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ من الذات الجامعة لتمام الأسماء والصفات ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ في النشأة النورية الإفرادية والشؤونات الظلية الوحدانية أي الانتقال من نشأة إلى نشأة ومن دورة إلى دورة ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النّحل: 53] أي إلى جمعية الأدوار النورية ترجعون.

﴿ثُمَّ﴾ أي بعد جمعية الأدوار النورية ﴿إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾ في الكورات ونشأتها ﴿عَنكُمْ﴾ بالأكوان والأكوار الظلية الإفرادية ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ كان ثابتًا على الإفرادية ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي الذات الجامعة للأدوار ومقتضياتها والأكوار ومرتضياتها ﴿يُشْرِكُونَ﴾ [النّحل: 54] بمقتضيات النور والجمال والوجود وبمرتضيات الظل والجلال والعدم مقيدًا بنوع من الشهود إشارة إلى دوام النشآت واستمرار الشؤونات في الدورات والكورات الإفرادية والجمعية إلا أن نشأت الجمعية النورية الوجودية تغاير النشآت الإفرادية، فإن فيها قد تشاهد مقتضيات الأمور الأربعة النورية جمعًا تدريجًا ودفعًا استقلالًا وتبعًا لا يشغل فيها شأن عن شأن بل كلها جمع في نظر العارف، والغرض من النشآت والترددات الجمعية حصول تنوع الشهودات وتصور المشاهدات والمعاينات، بخلاف الإفرادية فإن المقصود منها هو حصول الشهودات والمعاينات نفسها، فإذًا لا تنقطع النشآت ولا يرتفع الشؤونات إذ طور مطلق الوجود دوري، وسير مقتضى الشهودي كوري لا بداية لها ولا نهاية عندها، فسوف تعلمون في النشأة الجمعية والدورة المعية الابتدائية للأدوار الإلهية والأكوار الغير المتناهية ولا نهاية للنشآت الكائنة فيها.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ الأعيان النورية الإفرادية والأكوان الظلية الإيجادية ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي للشركاء التي انتفى عنهم العلم الشهودي والإدراك الحضوري اللازم للكمال الجمعي والجمع الكمالي ﴿نَصِيبًا﴾ وحظًا ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [النّحل: 56] من الأفعال الإرادية والأعمال الاختيارية، فإنهم حرفوا بعضًا منها في صنعها واتخاذها ونحتها وبعضًا منها في عبادتها والتوجه إليها، والشركاء إما آفاقية وهي محسوسة وإما نفسية وهي الأهوية والشهوات ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23] ومن هذه

الآلهة قلما مخلص من المؤمنين والمؤمنات بل الأنبياء والأولياء إلا أن الله تعالى عصمهم من تسويلات الشيطان وإلقاءات الطغيان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: 52] فكيف أن الشيطان والنفوس توأمان يتولدان معًا وهم قرين النفوس لا يفارقها أبدًا. قال النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وأن الشيطان قرينٌ له قالوا وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن اللّه تعالى أعانني عليه فأسلم بيدي فلا يأمرني إلا بخير**».

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة والصورة الجمعية عند انتقال الفرداريّة الإفرادية من الأدوار والأكوار إلى الجمعية العظمى والإحاطة الكبرى ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ على الله والذات الجامعة في الأدوار والأكوار الإفرادية لانتساب الأفعال والأعمال والأحوال إلى أنفسهم، وبقولهم إن اللّه غير عالم بالجزئيات وغير خالق للخير والشر الجزئي في النشآت والترددات والاختيار، ولا إرادة له في صدور الأفعال الجزئية، والحال أن الكل راجع إليه ولا وجود، ولا فعل ولا شهود لغيره كما شهد الكشف الصحيح والعمل الصريح والفعل الفصيح ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 1 ـ 3].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: 57] أي الاستعدادات الذاتية والقابليات الأولية وأثبتوا التأثير والفاعلية والتدبير لأنفسهم بأن قالوا اجعلوا الله المعلول الأول والعقل الكل، وصدر من العقل الثاني والنفس الكلية المدبرة والجسم الكلي والعرش، ثم صدر من العقل الثاني والعقل الثالث والجسم الثاني والكرسي ونفسه المدبرة والكواكب الثابتة، وهكذا إلى العقل العاشر، وصدر من النفس التاسعة وفلك القمر ثم العناصر الأربعة ومنها تركيب المواليد الثلاثة، ولم يستندوا شيئًا منه بهذه الموجودات العالية والساقطة إلى الله تعالى، وبحال أن لا تأثير لغير اللّهِ ولا خلق، بل لا وجود لشيء منها ولا وجود سوى لله، فلا تأثير ولا خلق ولا فعل إلا لله.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

أقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ ويعاقبهم حكمهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ من القوى البدنية والنفسانية والقوى النظرية والعملية، فإن اللّه أخذ قوم نوح النفس المطمئنة، وهم في هذه الأمور المذكورة بطوفان التجلي الآثاري الظاهر بصورة الماء التوحيدي الآثاري عند غلبة الجذبة الظاهرة بصورة طوفان الماء ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النّحل: 61] في أصحاب السلوك كما فعل بقوم يونس. روي أن أبا هريرة سمع رجلًا يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال بئس ما قلت، فقال: إن لحماري يموت بظلم جزاءً بظلم. وقال ابن مسعود: إن الجعل قد قعدت في حجرها بذنب ابن آدم ولذا قيل: لو يؤاخذ الله أبناء الظالمين بظلمهم لقطع النسل ولم يبق على الأرض أحد إلا قال: هذا ما في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النّجم: 38] لأن المعنى هو أن لا يسأل أحدًا إلا عن ذنبه في الآخرة وما تقدم في الدنيا، وذلك لأنه كان دعاء أحدهم يؤثر في جماعة، وكذا شفاعته ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النّحل: 61] كذلك ذنب أحدهم يؤثر في إهلاك جمٍّ غفير واستئصال مالٍ كثير، كما حكي أن في الزمان السابق قد أخذ الله بذنب أحد طائفة وقومًا.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم وينكرونه من البنات ﴿وَتَصِفُ﴾ يفسّر ويقول ويخبر ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ﴾ الذكور الأولاد ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والمزية في العقبى عند الله بدل من الكذب ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا وحتمًا وقيل بمعنى بل ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ في الآخرة والعقبى ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النّحل: 62] بفتح الراء وكسرها مخففًا ومثقلًا، أما الفتح فبمعنى مقدمون ومعجلون إلى النار من أفرط فلانًا وفرطت في طلب الماء إذا قدمته، قيل: منسؤون ومتركون من أفرطت فلانًا خلفي إذا أخلفته ونسيته والمكسور المخفف من الإفراط والغلو في المعاصي والشد في التفريط

في الطاعات والتقصير فيها وتضييع أمر الله.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الأنبياء والرسل بالكتب المزبورة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ أي للأمم الماضية ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الخبيثة وأفعالهم القبيحة الإرادية فهو وليهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي الله كان حافظًا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ الأنبياء والأولياء والمرسلين ﴿وَلَهُمْ﴾ أي للأمم السالفة الذين اقتدوا بالشيطان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 63] في الآخرة.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي للناسِ هي لكونك مبعوثًا مرسلًا على كافة البرايا ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ﴾ [النّحل: 64] في الدين والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203] أي بيانًا وهداية معطوف على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعولان به لأنهما فعلان للذي أنزل الكتاب، ودخل اللام على التبيين لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزِّل، وإنما ينتصب مفعولًا لأنه فعل الفاعل المعلل، والذي اختلفوا فيه أي في البعث لأنه كان فيهم من يؤمن بالبعث وهو عبد المطلب وأشباهه.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطرًا ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ فأنبتت فيها أنواع النبات من الحشايش والبقول والزروع والأشجار والورود والأزهار بعد اليبس والغم والبأس وحصول الشدائد والبأس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في إنزال المطر والإنبات في الحضر والسفر ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النّحل: 65] كلام الحق سماع تدبر واعتبار وتفكر.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ اسم جمع، ولذلك عده في باب لا يتصرف في الأسماء المفردة الواردة على زنة لأفعال القلوب كقولهم ثوب البأس نوع من الأثياب، ولذا وحّد الضمير العائد إليه وذكره ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو في الكرش من الثقل وإذ خرج منه لا يسمى فرثًا ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من الدم والفرث، وليس عليه لون دم ولا رائحة فرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النّحل: 66] خارجًا على السهولة في الحلقوم وخفيف على المعدة سريع الهضم جيدة الكيموس، لطيفة في الكبد حتى الكيموس يتولد منه أخلاط محمودة.

قال ابن عباس: إذا أكل الدابة العشب فاستقر في كرشها ومعدتها وطحنته المعدة وكان أسفله فرثًا وثفلًا وأوسطه اللبن وأعلاه الدم، فجذبت الأعلى والأوسط وطبخهما طبخًا كاملًا، وميّز اللبن من الدم، وأرسل الدم إلى العروق واللبن إلى الضرع وأجراه، وهو المادة الحاصلة من الكيموس إلى الكليتين ومنهما إلى المثانة، ومثل هذه الاستحالات إنما تكون في النبات أيضًا، إلا أن إجراء النبات غير مميزة الآثار كذلك ما بين كيفية استحالاتها وبين غاية ثمراتها.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ متعلق بمحذوف أي نسقيكم من عصر ثمرات النخيل والأعناب ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النّحل: 67] إما استئناف أي جملة حالية من مفعول نسقيكم وهو مصدر اسم للخمر. قيل: السكر النبيذ وهو عصر العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر، وقد أصبح في حل المطبوخ بهذه الآية وبقوله عليه الصلاة والسلام: «**الخمر حرام بعينها والسكر**» وبأخبار كثيرة وآثار غفيرة.

وقد صنف في تحليل المطبوخ والنبيذ مشايخ المعتزلة رسائلًا، قال صاحب

العتبية: المطبوخ خمر يطبخ حتى تذهب مرارته. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًاۗ﴾ من كل واحد من العنب والتمر خلًّا وزبيبًا ودبسًا، وعقده زبيبًا وتمرًا وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا نتخذ منه ما هو سكر ورزق حسن، وهو بعض من العلماء أن هذه الآية منسوخة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النّحل: 67] ويعملون عقولهم ويعرفون قوة النظر ويستعملون القوة العاقلة ومبدأ الفكر إلى التأمل وفي آيات الله وآثار قدرته وأنوار حكمته لإدراك بدائع صنائعه وعجائب طلائعه.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وألهم ما قذف في قلوبها وأعلم ما حذف في صدورها وعيونها ليفعلوا عجائب الأشكال وغرايب الأعمال من التسديس والتكعيب والتربيع والتثليث والاستدارة والتثمين ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ وأزهارها وورده وأنواره ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النّحل: 68] ويرتفعون من الأرض كالكروم والقروع والقثاء واللبلاب وغير ذلك، وإنما سمى ما صنعته بيتًا لِشبهها بيت لإنسان لما فيه من حسن الصناعة ولطف البداعة إلى حدّ لا يقتدر عليها بهرة المهندسين وحبرة المفتخرين بأنظار دقيقة وأفكار عميقة بالتوجه الكامل والتهجد الشامل.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ما يشتهيها مرها وحلوها وتفهها وملوحها وعفصها وغير ذلك ﴿فَاسْلُكِي﴾ وادخلي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وطرق من يريك التي ألهمك إليها بعد الأكل في عمل بيت العسل وصنع محله، أو فاسلكي وادخلي وحللي وحسني ما أكلت من الثمار وطلائع الأنوار ولوامع الورود والأزهار في سبل ربك ومسالكه التي تحصل فيها بقدرته، وإذا أكلت الثمار وتعاطيت الأزهار والأنوار في الأماكن البعيدة والمساكن العميقة المدبرة من بيوتك، ثم اسلكي وتوجهي إلى بيوتك راجعة إلى سبل ربك، لا يتوعر عليك ولا يتستر لديك، ولا تضلين ولا تختزن في السبل بين يديك ﴿ذُلُلًاۚ﴾ [النّحل: 69] جمع ذلول وهو المطاع والمطاعة

حال من السبل لأن اللّه ذللها لها بإلهامه ووحيه وإعلامه لها ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: 15] الآية.

واعلم أن النحل يأتي بالأثمار والأزهار والأنوار ليجعلها بيوتات ومساكن طيبات مربعات ومثلثات ومخمسات ومسدسات وغير ذلك من الأشكال البديعة والأوضاع المنيعة، ثم تسري في جو السماء والأظلال والمؤن والأبلال النازلة في قلل الجبال وشواهق التلال، ثم يعود ويرجع إلى بيوته ومساكنه ويستفرغ فيها كما يقول ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، والألوان وتنوعها إما من ألوان الأزهار والأنوار والأثمار أو من مقتضيات الفصل أو من اختلاف أحوال النحل من الحداثة والعتاقة والقوة والضعف ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية والسوداوية، أو مع غيرها قال صاحب التحفة في كتابه إن في الزمان المتقدم كان الأطباء يُعالجون جميع العلل بماء العسل، جاء رجل إلى النبي ﷺ واشتكى من وجع البطن فأمره النبي بتناول العسل، فأكل فاشتد مرضه، وأتى إلى النبي ﷺ فأمره ثالثًا فعمله فازدادت واشتدت، ثم جاء ثالثًا واشتكى أيضًا فقال النبي ﷺ: «**قد كذب بطنك فارجع وكُلِ العسل واشربه بالماء**». فشرب العسل بالماءِ فشفاه الله.

قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: العسل شفاء من داء واحد والقرآن شفاء لما في الصدور. وروي أيضًا: «**عليكم بالشفاء بين العسل والقرآن**».

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه فقال النبي ﷺ: اسقه عسلًا فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا فقال رسول الله ﷺ له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلًا فقال: لقد سقيته فلا يزده الله إلا استطلاقًا، فقال له رسول الله ﷺ: صدق الله وصدق رسول الله وكذب بطن أخيك فشفاه وبرئ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ الذي ذكر في شأن العسل وشفائه واختلاف ألوانه لآية وعلامات ودلالات وأمانات على كمال قصته ووفور حكمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 69] في أحوال الذباب الضعيف في أطوار الحباب النحيف وهو النحل الذي قد خصه الله تعالى بأنواع لطائف حكمته وأصناف بدائع كمال قدرته.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ [النّحل: 70] وخمّر طينتكم بيدي قدرته وإرادته ثم نفخ فيها من روحه وصوركم فأحسن صوركم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التّين: الآيات 4 - 6] أي الكاملين في جمعية الأدوار، فإنهم أسفوا وعرفوا الله في هذه الجمعية النورية، ثم في الظلية عملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون في جمعية لما بين الجمعيتين، وهي الجمعية العظمى، فإن هذه الأعيان لكمال جمعيتهم وتحققهم في الشريعة والطريقة والحقيقية بالذات بتمام الأسماء والصفات، فإنهم آمنوا عن طريان الموت، وعصموا عن جريان الفوت، قال الله تبارك وتعالى: «**اطعني يا عبدي اجعلك مثلي وليس لى مثل**» ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ في نشآت الأدوار الإفرادية وشؤونات الأكوار الظلية، وأما الذين استكملوا في نشأت الأدوار وشؤونات الأكوار وتحققوا في جمعيتها لم يبق له حالة منتظمة بل حصر لديه جميع الكمالات الذاتية والأسمائية وقد انتفى عنه خوف الموت واختفى فيهم خوف الفوت أمرًا.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف، قال بعضهم: في تسعين وقيل ثمانين. عن علي كرم الله وجهه: خمس وتسعون سنة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ [النحل: 70]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: 62 ـ 64] من ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ [النّحل: 70] أي يؤول حاله ويرجع مآله إلى حالة شبيهة بحال الطفولية.

عن ابن عباس رضي الله عنه: إن أرذل العمر مخصوص بغير المؤمنين، أي الكاملين في الدنيا بأنوار الإيمان وأنوار التفضل والإحسان، وذلك لأن أصل العقل والروح هو النور والمعرفة والحق ونور الأنوار، فإذا استأنس به في الدنيا بكثرة التوجه إليه، فكلما ازداد الإنسان بالقوى الجسمانية والمبادئ النفسانية وأفعالهما وأحوالهما وأعمالهما ازداد الفعلُ والروح علمًا ومعرفة وإيمانًا ونورًا وتفضلًا وإحسانًا وحكمةً، وإذا انتهى الجسم إلى كماله وهو النشوء والنماء وتوليد المثل وبلغت النفس في كمالها وهو تربية البدن والتصرف فيه إلى أن وصل إلى

غايته، وهو الوقوف، وغايته أربعون أو خمسة وأربعون، ثم ينحط القوة الجسمانية والنفسانية في كمالها وتزداد مقتضى العقل والروح وهو المعرفة والإيمان والعلوم والإدراكات والشهود والدرايات والأحوال والمقامات والمشاهدات والمكاشفات وشهود التجليات، وغير ذلك من الكمالات النفسانية والمقامات الإنسانية إلى حلول الأجل ونزول الموت واختفاء العمل لانتفاء العوائق وقوة المقتضى، وهي الأسباب بعالم النور الإلهي، وأما عقول الكفار وأرواحهم لما بعدت عن عالم النور والفطرة الأولى، وهبطت إلى عالم الجسم والظلمة النفسانية وعقلت عن العالم النور الإلهي وبعدت عنه ونسيت ذلك العالم، وكلما انحصرت في السنّ ازداد ظلمها وتمام غفلتها، وانغمست في الجهل إلى أن تلفت إلى الحالة الأولى وهي الصبابة كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: 5] هذا من خصايص ظلمة الكفر، وذلك من نصايص الإيمان وخصايص كمال الإيقان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما يكون في خلقة الإنسان واتحاد حقيقته وتخمير طينته وتعليق روحه بيديه، وغير ذلك من حقائق الأشياء سيما النحل والأعناب والنخيل ﴿قَدِيرٌ﴾ [النّحل: 70] على كل الممكنات واتخاذ الموجودات واندفاع المجردات واختراع الماديات وإظهار أحوالها.

إشارة وتأويل

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النّحل: 61] إشعار بأن الإنسان حقيقة كلية محيطة بجميع الكائنات وحاوية على تمام المكونات، ومنه بكل مكون وموجود وبملون ومشهور باب مفتوح وطريق مطروح، ينزل من اللّهِ بذلك الباب بذريعة الإنسان إلى أي مكون وموجود وأي مدون ومفتوح ومسدود وفيض ونور وغيض وسرور، من العقول والأملاك والنفوس والأفلاك من الشيطان للاستكمال والتكمل والاستبداد، فإن المقصود من توكيل الأملاك من الحفظة والرسل والعملة على الإنسان، ومن تحريك الإنسان وتدبير العقول تربية النفوس للاستفاضة للإنسان، فسعادة الإنسان وشقاوته وربحه وخسارته مؤثرة وسارية في الكل، فمؤاخذة الإنسان وتشريفه سرى في الكل.

قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة وفي الدنيا رجل يقول الله الله**»، وقد تحق في

الحكمة الإشراقية أن نفوس الأفلاك وحقائق العقول والأملاك العالية والسافلة والمدبرة والعاملة وسائر المكونات وحقائقها إنما هي مستفتحات النفوس الإنسانية، ولذا قيل أن الإنسان باب الأبواب وجميع الكائنات وتمام الكائنات بالنسبة إليه كالأجرام والقوى والأعضاء بل كالقلب والروح ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70] وكما قال: لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك، فظهوره وخفاؤه وإظهاره وإخفاؤه مؤثر في الكل، وبما كان نسبة الإنسان إلى تمام الأعيان وعموم الأكوان كالروح إلى البدن والنفس إلى الجسم الدون والقلب إلى البينة، فكما أن إصلاح البدن والبنية منوط بصلاح النفس والقلب، كذلك صلاح العالم منوط بصلاح الإنسان، قال النبي ﷺ: «**إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**».

واعلم أن في نهاية كل دورة وكورة وفي نهايتها هو الإنسان وفي كل دورة الغالب على الإنسان هو صفة ففي الدورة العظمى النورية الغالب عليه هو العلم المتعلق بظاهر الأشياء ويلزمه الصدق والعدل الذي هو مقتضى النور والوجود والجمال الذي يناسبه التمام والكمال صريحًا وأولًا، وأما الكذب والظلم فهو مرتضيات الظل والعدم والجلال والنقصان وما يلايمه من الكفر والعصيان والجهل والظلم والطغيان يلزمه ضمنًا وخفاءً وثانيًا ففي هذه الدورة عن ظلم الإنسان واحد وآدم فرد تهلك من أعيان تلك الدورة جم غفير وكم كثير، وعلى أعيان الدورة الكبرى الغالب الإخلاص والوفاء، وعلى أعيان الدورة الوسطى الصبر والقناعة والعفة، وعلى أعيان الدورة الصغرى ليس شيء منها غالبًا بل الكل بالنسبة إليها على درجة العمل، ولذا يظلم فرد واحد لا يهلك إلا ذلك الواحد ولا يسري ملكات ظلمه إلى غيره.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الصورة الجمعية والهيئة الكلية الإحاطية نهاية الجمعية ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من الأحكام الظاهرة النورية والأعلام الباطنة الظلية ﴿وَهُدًى﴾ على ما يقتضيه النور والجمال ﴿وَرَحْمَةً﴾ على ما يرتضيه الظل والجلال إشارة إلى أن الاختلاف في اقتضاء الأحياء الإلهية وجودًا وعدمًا حدوثًا وقدمًا علة وسببًا لظهور الرحمة اللامتناهية ولحضور النعمة الإحسانية

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[النّحل: 64] إيمانًا كاملًا وعلمًا حضوريًا ومعرفة شهودية من الذي ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الواحدية ﴿مَآءٗ﴾ [النّحل: 65] علمًا حضوريًّا وحكمًا شهوديًّا على أراضي استعداد الأعيان الثابتة، وتستتر هذه المرتبة وتختفي، وتستر بالصورة العقلية والهيئة النفسية والأرواح القدسية والأشباح الإنسية في المرتبة البرزخية، ثم بالصور السماوية إلى أن يتعين ويظهر بظهور الإنسان وإدراكاتها الحصولية والعلوم الحضورية، وإذا جردها عن اللواحق الذهنية والصور العقلية إلى أن عادت على ما كانت عليه من العلم الحضوري والإدراك الشهودي في الواحدية وحضرة الجبروت ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [النّحل: 65] بالسمع الذي سمع خطاب ألست بربكم.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي القوى النفسانية البهيمية والسبعية والشيطانية ﴿لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي في استعداد كل واحد من أعيان هذه الأدوار ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ﴾ مقتضى الظل ﴿وَدَمٖ﴾ مرتضى النور ﴿لَّبَنًا﴾ علمًا جليًّا وإدراكًا كليًّا نافعًا ﴿خَالِصٗا﴾ من خصوصية فرث الظل ومن دم خصوصية دم مرتضى النور العلمي ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النّحل: 66] الجامعين بين مقتضى علم النور وجهل الظل والحرور، وهو العلم الحضوري والإدراك الشهودي لا الصوري هذا حكم اقتضاءات أدوار النور الأصلية الصريحة والظل الضمني.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ إشارة إلى مقتضى الأدوار النورية والظلية الفرعية ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ وشرابًا وخمرًا يخمر ويستر قوة العقل ووحدة النقل التي هي مناط الأحكام الشرعية ورباط الأعلام العرفية الفرعية، وتظهر أسرار المحبة الذاتية وأنوار المودة الإلهية والسر الحقيقي المكنون في استعداد الذات في كل شيء ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ من التجليات الإلهية الذاتية والأسمائية والأفعالية والآثارية وفي الصورة الجامعة الكلية الإنسانية والإدراكات الخطورية ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النّحل: 67] أي فرق الباقين إلى مرتبة العقل الصريح وفهم حقيقة النقل الفصيح التي اتحدت بالمحبة الذاتية.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ أي القوة العملية التي استمد من غيب القوة النظرية ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ أي علوم الأعيان العالية والأسماء الذاتية ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ [النّحل: 68] أعيان عالم الآثار ومرتبة الملك وأطوار حركات الفلك.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ثمرات أشجار الأعيان النورية والأكوار الظلية ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وطرق المرتبة الجامعة ﴿ذُلُلًاۚ﴾ حال كونها حاصلة لك بطريق الخضوع ورقيق المذلة والخشوع ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ وغيب مكونها وجيب كونها ﴿شَرَابٌ﴾ علوم ومعارف إلهية وكونية ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ومعلوماتها وأحكامها وخصائص لوازمها ومتعلقاتها وموضوعاتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الاختلاف والتعلق والانعطاف لآيات دالات وإمارات وإشارات ولها ألفاظ وعبارات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 69] تفكرًا شهوديًّا ويتذكر تذكرًا وجوديًّا، وهو الذي تنتقل منه الأباطيل والكثرات الاعتبارية إلى الحقيقة الملكية والذات البحت الأحدية السارية في المظاهر الكنانية والمجالي الإمكانية في الأدوار النورية والأكوار الظلية الإفرادية والجمعية ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ [النّحل: 70] إلخ قد مر الكلام فيه.

تفسير

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ﴾ هذا مثل ضربه الله للمشركين الذين جعلوا لله من خلقه شريكًا ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يريد على مماليكهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ في النساء والمال ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النّحل: 71] يريد يكفرون.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يريد الأحفاد والأصهار ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يريد من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد يصدقون يقول إنهم يريدون أن لي شريكًا وصاحبةً وولدًا ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النّحل: 72] يريد يجحدون.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يريد المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد النبات والثمرات والحبوب ﴿شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النّحل: 73] يريد لا يرزقون أنفسهم.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النّحل: 74] يريد عزّ وجلّ وتعالى وتقدس، ولا إلٰه إلا هو وحده لا شريك له، وله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء، ولا نظير له ولا كفؤ له ولا شبه كما قال في سورة مريم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ﴾ [مريم: 65] فاضطرب لعبادته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65] يريد ولدًا أو شبيهًا مثل قوله في يحيى ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7] يريد في سابق علمي ولدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 74] يريد ما يكون قبل أن يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وأنتم لا تعلمون قدر عظمتي حيث عجزتموني أن أتعب خلقي بالثواب والعقاب.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ يريد أبا جهل بن هشام.

﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ يريد أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ يريد علانية وخفية.

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 75] يريد بحمد نفسه تبارك وتعالى على ما فعل بأوليائه وعلمهم كيف يحمدونه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وهو أبي بن خلف الجمحي.

﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ يريد كلًّا على قومه فكان يؤذيهم يريد يؤذي عمار بن مظعون رضي الله عنه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ والآخر حمزة بن عبد المطلب ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ يريد أبيّ بن خلف.

﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يريد حمزة وعمار بن مظعون رضي الله عنهما.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: 76] يريد على دين مستقيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد لم يغب عنه علمها في السماوات ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يريد يوم القيامة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ يريد كالنظرة ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النّحل: 77] يريد على ما يشاء قادر.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يريد ليستمعوا مواعظ الله وعظمته وينصروا ما إذا أنعم الله عليكم منذ أخرجكم من بطون أمهاتكم إلى أن [صرتم] رجالًا.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يريد وجعل لكم الأفئدة يريد القلب لتعقلوا ولتعرفوا عظمته وتعتبروا بنعمه، وتحتفظوا بما استحفظكم، وتنبهوا عن المعاصي، وتبتغوا لمرضاتِ الله.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النّحل: 78] يريد لكي تطيعوا وتوحدوا.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿79﴾﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يا محمد ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ يريد في عنان السماءِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: 79] يريد يصدقون.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿80﴾﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ يريد مساكن تستر عوراتكم وحرمكم وما لا يراه إلا الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ يريد الخيام ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يريد إذا ظعنتم الربيع بالأغنام والإبل ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يريد الخيام أيضًا والخدور ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ يريد الضأن والإبل والمعز ﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا﴾ يريد طيالسًا وبسطًا وثيابًا وكسوة وجبابًا ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [النّحل: 80] يريد حين البلاء وقال بعضهم: يقلد الهدي والأضحية للنحر.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ﴾ وشرّف ﴿بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أقول: بأن جعل بعضكم حُرًّا وبعضكم رقًّا وعبدًا، وبعضكم عالمًا، وبعضكم عاميًّا، وبعضكم أميًّا متجملًا ومزينًا بالأخلاق الجميلة والملكات الفاضلة والكمالات النفسية والحالات القدسية والمقامات الإنسية، وبعضكم مجاهدًا بالجهاد الأكبر والأصغر، وبعضهم منعمًا بأنواع النعم الظاهرة والباطنة وغير ذلك من أصناف الشرف وأجناس الفضائل وأصناف الفواضل في الرزق الظاهرة والباطنة، فمنهم من وصلت بالسهولة والرفق ومنهم بالعناء والمشقة والتعب والمحنة وغير ذلك. ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ أي ليس الذين تفضلوا وفضلوا ورجحوا على مماليككم من حيث التمليك ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المماليك والعبيد بل سوى نفوسهم بمماليكهم في الرزق كمًّا وكيفًا سواء زمانهم صيفًا وشتاءً ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي المماليك والموالي قد استووا في الرزق والأكل يعني الموالي والسادات قد جعلوا نفوسهم سواء مساوين بالمملوكين ذكرًا وأنثى، ولا يرجحون

أنفسهم على المماليك قال النبي ﷺ لأبي ذر: «**إخوانكم فاكسوهم مما تكسون وأطعموهم مما تطعمون**»، فهذه الجملة تفسير وبيان للجملة المنفية، فهم وأنتم في درجةٍ جعل الله رزقكم في أيديكم رد على المشركين وإنكار عليهم حيث لم يرضوا بإشراكهم بمماليكهم في الأكل والشرب والكسوة والمسكن ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النّحل: 71] وينكرونها حيث تتخذون له شريكًا فكأنهم يصافون في نفوسهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدون أنه من اللّه، أو حيث أنكروا أمثال الحجج بعد ما أنعم الله عليهم، والجحد لتضمن الجحود يعني الكفر.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النّحل: 72] لأنكم خلقتم من نفس واحدة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النِّساء: 1] أو من جنسكم أو ككون حواء خلقت من آدم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافدة من الحفدة وهي المبادرة في الطاعة والخدمة، يقال لولد الولد، وإنما سمّي بهذا لأنه أتم خدمة وأهم طاعة لأنه صديق الجداد، وهو عدو العدو وعدو العدو صديق، ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ [التغابن: 15] ﴿وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14]، وقيل هم الزنايب، ويجوز أن يكون المراد منها البنين أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ اللذائذ والملتذات والحالات ﴿أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفبالآلهة الباطلة وهي الأصنام والأوثان التي لا ينفعهم ولا تضرهم، المراد بالباطل الشيطان الذي أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ما أحل الله لكم ورزقكم ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النّحل: 72] ويجحدون استحلاله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ من المطر والنبات، فإن جعلت رزقًا مصدرًا فشيئًا منصوب وإلا فبدل منه ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النّحل: 73] أن يتملكوه إذ لا استطاعة لهم أصلًا وجمع ضميره وإفراده فيما لا يملك لكون ما مفردًا بمعنى الآلهة ما يجوز أن يكون الكفار أي لا يستطيع هؤلاء مع أحياء متصرفون شيئًا ما فكيف بالجماد فترك عبادة الأحياء إلى الجماد الأموات من غاية الجهل ونهاية الحماقة.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي فلا تجعلوا له مثلًا تشركون به أو تقيسون عليه فإن ضرب المثل نسبة حال بحال وقصة بقصة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 74] وحقيقته وكميته وعظمته وكيفيته وكمّيته فيعاقبكم عليه بما يوازيه في

العظم والمقدار وأنتم لا تعلمون ذلك، ولو علمتموه لما اجترأتم عليه، يعلم أن الله يعلم كنه الأشياء وحقائقها وخصائصها ولوازمها الذاتية والوجودية وأنتم لكونكم عدمًا محضًا لا تعلمون شيئًا من الأشياء لتماثل الأشياء بعضها ببعض، فتمثيلكم ليس إلا على سبيل التقريب والتخمين وهو أيضًا بخلق الله وتقديره.

ثم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمؤمن والكافر ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأموال والأرزاق لأن ما في يده للسّيّد، وهذا مثل الكافر الذي استملكه الشيطان فلم يقدر أن يقدم خيرًا، وأما من ملكناه ظاهرًا وباطنًا ثم ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النّحل: 75] وأردنا أن ينفق ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النّحل: 75] بتوفيقنا وإرادتنا ومشيئتنا وما يشاؤون إلا أن يشاء هذا مثل المؤمن الذي أعطاه مالًا فوفقه للخيرات والسلوك في مسالك الخيرات فأنفقه في سبيل الله ابتغاءً لمرضاة الله سرًّا وجهرًا لكونه محمودًا من عند اللّهِ فأثابه الله عليه الجنة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ المماليك التي ملكها الشيطان وأغواها عن سواء السبيل وصرفها عن صواب البرهان ومنهج الدليل وطريق الأجراء الذين هداهم الله وفقهم ونصرهم وحفظهم عن مداخل الأبالسة وتصريفها الكثير والقليل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمدًا يوافي نعمه ويكافي مزيد كرمه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 75] حقيقة الحال في المؤمنين والكفار والجهال ومآلهما، وإنما قال أكثرهم لأن منهم من يعلم لكنه يتجاهل أو ينكر عنادًا وتعنتًا واستكبارًا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ثابتًا للأصنام ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وأخرس ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أصلًا لا على التكلم والسماع ولا على الفهم والاستماع ولا على الخلق والاختراع ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ وصاحبه على من يتعلق به ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ ويرسله ويصرفه ويبعثه في حاجة ومطلب وكفاية ﴿لَا يَأْتِ﴾ لم يأت ﴿بِخَيْرٍ﴾ في ويحج لأنه لا يَفهم ولا يُفهم هذا أصنام لا يسمع ولا ينطق ولا ينجح بل هو كلّ وعيال وتل على مولاه ويحتاج إلى غيره في إنجاح ما يتولاه ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ أي هذا العبد ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ مع أمر عادل وقادر قابل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: 76] ودال على طريق قويم قيل كلا المثلين للمؤمن والكافر نزلت في أُبَيّ بن خلف وهو الأبكم، والآمر بالمعروف حمزة وعثمان بن عفّان وعثمان بن مظعون.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وقيامة القيامة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ وطرف النظر ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بل أسرع وأبدر وأبرع نزلت في كبار استعجلوا القيامة استهزاءً أي وتهكمًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النّحل: 77].

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ﴾ حال كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ بل كنتم في مرتبة العقل الهيولاني خاليًا عن العلوم كلها الضروري والنظري ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النّحل: 78] الفؤاد وهو الوجه القلبي الذي يلي الروح والعقل، فإن للقلب وجهين وجه إلى النفس ووجه إلى الروح، فبالوجه الأول يدرك أحوال النفس وأفعالها وأطوار البدن وتنوع حالاته، وبالوجه الثاني يدرك المعاني الفائضة من العقول والإشراقات النورية الإلهية والتجليات الذاتية المكتنفة بالصور البرزخية المبدئية، وكذا الصور المدركة الحسية إذا انجرت عن الهيئات الحسية والصور النفسية، ووصلت وترقت إلى نهاية مرتبة القلب إنما يدركها الفؤاد، وهذا الوجه الذي يسمى بالطور السري الذي هو مظنة التجلي الإلهي في مجالي الآثار، والمراد بهذه الأعضاء إنما هي علومها وإدراكاتها الحسية والتصورات والتصديقات النفسية لا نفس الحواس والأجزاء إذ نفس هذه الأجزاء قد خلقت بعد الفراغ عن الاستحالات النطفية والعقلية والمضفية في مدة أربعة أشهر وعشرًا، وهي مدة تدبير زحل تكون أربعين يومًا وكذا تدبير المشتري أربعين يومًا وتدبير المريخ أربعين، وإذا بلغت مدة التدبير إلى الشمس ومضت عشرة أيام وصورة الإجراء والأعضاء واستكملت فاضت الحياة الحيوانية بعد استكمال الحياة النباتية في مدة تدبير الشمس وتحرك الجنين في البطن في الرحم، ثم ينتقل مدة التدبير إلى الزهرة وعطارد والقمر واستكملت التدبيرات في مدة سبع أربعينيات وهي تسعة أشهر وعشرة أيام، فحيث يخرج الله تعالى الجنين من بطن أمه كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 12 - 14].

قال النبي ﷺ: «**يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة**» هذا إنما هو على مقتضى ظاهر كلام اللّهِ تعالى، وأما على طريق أهل التنجيم فإن استحالة النطفة وتعبيرها فمنسوب إلى زحل، وهذه الاستحالة إنما هي في كل مدة شهر

قمرية تتم دوريًّا أي من اجتماع إلى اجتماعٍ في تسعةٍ وتسعين يومًا واثنا عشر ساعة وأربعة وأربعين دقيقة، ولما كان الكسر زائدًا على النصف أخذ والكسر يومًا واحدًا كما هو دأبهم، فأخذوا شهرًا ثلاثين ثم انتقل دور التربية إلى المشتري فدبر المشترى النطفة شهرًا كاملًا ثلاثين يومًا وجعلها الله علقة، ثم انتقلت نوبة التربية إلى المريخ فدبرها شهرًا وجعلها مضغة، ثم التربية قد انتقلت إلى الشمس فقسمها الله إلى الأجزاء الأصلية وهي العظام والأعصاب والرباطات والأوتار والعروق والغضروف والأوردة والشريان، ثم ركب بعضًا ببعض وصورها وجعلها أعضاءً وأجزاء ثم كساها لحمًا كما قال الله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فإذا استكملت الأجزاء وتكلف الأعضاء وتمت خلقة الجنين في مدة تدبير الشمس فآمن به من المبدأ الفياض الروح الحيواني وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

فإذا انتقلت نوبتها لتدبير وفرداريّة التربية والتقدير إلى الزهرة ودبرتها شهرًا أظهرت القوة الشهوية، وبعد ذلك انتقلت فرداريّة التدبير إلى عطارد ففاضت القوة النطفية والنفس الإنسانية واستكملت صورة الجنين وقواه، فحينئذ قد يتولد الجنين وعاش كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15] حولان للرضاع كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233] لمن أراد أن يتم الرضاعة فبقي ستة أشهر للولادة والأكثر أن تنتقل التربية إلى القمر وتربي المولود بحجب الصورة البدنية وكمال الهيئة النوعية دورة كاملة ولو تولد المولود في هذه الدورة ليعيش وينتقل ثانيًا إلى زحل وتربيته شهرًا آخر فلو تولد في هذه الحالة لا يعيش، ثم ينتقل مدة التربية للمشتري والأغلب إنما يكون التولد في هذه الدورة وهي تسعة أشهر وعشرة أيام وتعيش غالبًا إلا أن يقع في طالع المولود قاطع والنحوس فيه ناظر فإنه يقطعه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78] هذه النعم الظاهرة المزبورة والباطنية المذكورة التي أشار إليها أعمالًا.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وجو فكرة الهواء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي الإمساك والتسخير ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ﴾ قد خصصهم الله تعالى بكمال الفطانة وحسن الفكر والتفكر والتعقل والتدبر ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: 79] إيمانًا حقًّا بأن قارن علم اليقين بعين اليقين.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ التي هي من الحجر واللبنة والخشب والمدر ﴿سَكَنًا﴾ مصدر بمعنى المفعول ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا﴾ منتقلة وأمكنة متحركة وهي الخيام والقباب والأخبية والقساطيط من الأقطاع والأدم ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ تخف عليكم حملها في البراري والقفار ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ ورخصتكم وانتقالكم من مقام إلى مقام ومحل إلى محل ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ [النحل: 80] واستكانكم وموطنكم في موطنكم ومقامكم واليوم ههنا بمعنى الوقت والفصل أعني الشتاء والربيع والصيف والخريف ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ جمع صوف عطف على بيوتكم ﴿وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ يعني أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز والضماير يرجع إلى الأنعام ﴿أَثَٰثًا﴾ مالًا وأسبابًا ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النّحل: 80] عطف بيان للأثاث.

إشارة وتأويل

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ [النّحل: 71] إشارة إلى تغاير أعيان الأدوار النورية وإلى تمايز الأكوار الظلية إجمالًا وتفصيلًا أما إجمالًا فهو أن الأعيان النورية الوجودية من حيث إنها وقعت في فرداريّة النورية الجمال صريحًا ووقعت الأكوان الظلية العدمية ضمنية خفية فيها تابعة لهم أفضل وأشرف من الأكوان الظلية، وكذا الأعيان النورية بعضها أفضل من بعض، فإن أعيان الدورة العظمى النورية الوجودية من حيث إنها قليلة الوسائط ليسير الروابط أشرف وأعلى من أعيان الدورة الكبرى والوسطى والصغرى، وأعيان الدورة الصغرى من حيث إنها آخر الدورات متضمنة لسائر الدورات أعيانها من حيث الكمالات الذاتية والأسمائية والعلوم اللدنية والمعارف الإلهية وشهود التجليات الجامعة والمشاهدات التامات الساطعة أفضل وأتم وأكمل، وإن كانت أعيان سائر الأدوار من حيث الرتبة أعلى وأقدم وأبهى وأدم، وأرزاقها أيضًا متفاوتة فإن أرزاق أعيان الدورة العظمى هو العلم الإلهي الحاصل بلا واسطة، وأرزاق الدورة الكبرى هي العلوم الروحانية والنسب العقلية، وأرزاق الدورة الوسطى هي العلوم الكونية كالحكم الطبيعية والرياضية، وأرزاق الدورة الصغرى هي العلوم الشرعية والأخلاق الحميدة المتضمنة لتمام الأرزاق المتقدمة، وأرزاق أعيان الدورة الصغرى وإن كانت بحسب الصورة أدنى وأنزل إلا أنها من حيث الحقيقة

والمعنى أتم وأعلى وأشرف، وأما الأكوان الظلية إذا انتقلت الفرداريّة الصريحة إليها انعكس الأمر وصار أعيانها أفضل وأشرف من أعيان النور والجمال ولصراحتها وخفاء الأعيان النورية وكونها ضمنًا.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ﴾ من الأعيان النورية ﴿فُضِّلُوا۟﴾ إلى فضل الله على أكوان الظل ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ [النّحل: 71] أي على أكوان الظل والجلال أي التي كانت في حكم أعيان الشيء والجمال إشارة إلى نقاوة أحوال الفاضل، فإن منهم كامل مكمل ومرشد محصل يؤثر ما رزقه ويفضل على ما دونه من الأعيان المفضولة من الأرزاق الطيبة الخالية والعلوم والأرزاق العالية، بل جميع الموجودات بل المعزومات من أكوان الظل والعدم والجلال وإن الكامل المكمل والمرشد الفاضل الموصل يتصرف فيمن دونه ويوصل إلى الكمال الجمعي والجمع الكمالي، وهو الغوث الأعظم والقطب المعظم، الذي هو مركز محيط فلك الأفلاك النورية والظلية الإفرادية والجمعية وجمعية الجمعية «**أطعني يا عبدي أجعلك مثلي وليس لي مثلي ومن قتلته فأنا ديته**»، «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي وبي ينطق**». ومنهم من استكمل في رأس المراتب ودورة من الأدوار ولم يبعد منه ما رزقه من العلوم الحقيقية سيما علم الصناعة وإكسير الوجود وتفسير الشهود ومنهم من دونهما ولهذا القسم عرض عريض عسير الضبط.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النّحل: 72] إشارة إلى أن حقيقة النفس والقلب والعقل والروح شيء واحد، وإلى أن كمال قابلية القابل هو من تمام فاعلية الفاعل، ولِلّهِ غيب السماوات والأرض أي باطن أعيان الأدوار النورية والأكوار الظلية العدمية وملكوتهما وجبروتهما ولاهوتهما، وما أمر الساعة وقيامة القيامة إلا كلمح البصر أو هو أقرب وأسرع إلينا لأن لمح البصر وحركتها إنما هو بالقوة الجسمانية، وإظهار الساعة وإقامة القيامة إنما هو بالقوة الإلهية والقدرة الألوهية، فلا نسبة بين القوتين كيف وإن الشعاع البصري بالتحريك الإلهي والخلق الرباني يبلغ إلى حالة يتحرك في آن واحد من البصر إلى فلك الثامن الذي لا يعلم المسافة بينه وبين الأرض إلا الله، وقد مر بقية الكلام في هذا المقام في تفسير (فلما رجع إليه).

تفسير

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ يريد ظلال الغمام والسحاب كما قال في سورة البقرة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ يريد لتقيهم حر الشمس وشدة البرد ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ يريد كهوفًا صغارًا تكنّ من البرد والحر ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يريد اللباس من الثياب والقميص والجباب والكتّان والقطن والصوف وتقيكم الحر ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ في الحروب يريد الدروع والخدور والستور والمغفر والحوت والرابين وما يعملون من ثياب الديباج ويحسّون بالقرّ ليمتنع السيف والسهم والرمح وغير ذلك ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يريد على من صدق ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿تُسْلِمُونَ﴾ [النّحل: 81] يريد تخلصون الربوبية وتعلموا لأنه لا يقدر على هذا أحد غيره ويوجدوه ويصدقوا أنبياءه فإن أتوا يا محمد يريد عنك فإنما عليك البلاغ المبين، وقد شهدت أنك بلّغت وبيّنت لهم ما يأتون وما يدرؤون يعرفون نعمة الله يقرّون، لا يعقل هذا غيره ثم ينكرونها يريد يجحدونها حيث جعلوا لله أندادًا وأكثرهم كافرون ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النّحل: 84] يريد من الأنبياء مثل قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرة: 143] يريد على الأمم للأنبياء على كذبهم ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريد لا يقبل توبتهم ولا معاذيرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النّحل: 84] انقطاع العتاب وقفل باب للتوبة وانقطعت وحل بهم الخزي كما قال الله تعالى في سورة حم عسق: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني المشركين الذين أشركوا العذاب يريد النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: 85] يريد قد حل بهم الخزي.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ يريد الذين اتخذوا من دون الله آلهةً ببعث الشياطين كل من كان يعبدون من دون الله يتبعونهم حتى يدنهم للنار ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ يريد أجابتهم الملائكة ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: 86]. ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يريد استسلموا وأقروا للّهِ الربوبية ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: 87] يريد ذهب ما زين لهم الشيطان أن لله شركاء وولدًا وصاحبة.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد عن طاعة الله ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ يريد كفرهم وبصدهم عن سبيل اللّهِ ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88] يريد في الأرض ويقولون على الله ما لا يعلمون.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد في كل قوم وملة ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ على أنفسهم يريد الأنبياء الذين آمنوا معهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد على قومك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يريد فيه بيان لما قد كان وبيان لما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿وَهُدًى﴾ يريد رشادًا وبيانًا ﴿وَرَحْمَةً﴾ يريد الرحمة بعينها ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] يريد عند الموت مثل ما كان في فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يريد عند الموت بالبشارة ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ من الموت ولا مما بعده ولا تحزنوا على ما خلفتم من أهل وولد فأنا خليفتكم عليهم ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30] في كتابي وعلى لسان نبيكم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ يريد نفسه جل جلاله إني قد قبلت عبادتكم وتوليتكم وعصمناكم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 31]، ومثل قوله في الم السجدة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [17] انعطفت ووجبت الرحمة والأمر أعظم مما يصفه أحد، فلا لا إلٰه إلا هو الحي القيوم، لا إلٰه إلا الله الرحمن الرحيم، لا إلٰه إلا الله الحنان المنان، ثم لا إلٰه إلا الله ذو الجلال والإكرام.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ أقول: من الأجسام الشاخصة والأشجار والجبال والأبنية والتلال وغيرها مما يستظلون بها شدة الحر ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ﴾ الحجرية ﴿أَكْنَٰنًا﴾ جمع كن وهو ما يستكن من البيوت المنحوتة والمغارات المبحوثة في الكهوف والأسراب ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ [النّحل: 81] إما على وزن الجمع وليس له مفرد أو يقدر لها مفرد وهو سربالة وهي القمصان والثياب

من القطن والكتان وغيرها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ اكتفى بذكره عن القرّ لدلالته عليه ضمنًا أو بالالتزام لأن البرد عندهم ما بلغ حد الإيلام ولأن ما يقي من الحر يقي من البرد ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وضركم يعني الدروع والجواشن وهي نعم ما يكون له من حديد وغيره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لإتمام هذه النعم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النّحل: 81] إذا نظرتم فيها فتسلموا من الشرك وتؤمنوا باللّهِ وبتوحيده. قيل: تسلمون من الجزاع والطعن والبراح بلبس الدروع والجوشن.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عنك وقبول ما جئت به من الشرائع وأحكامها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النّحل: 82] بتمهيد الوزر بعد أداء ما وجب عليك من التبليغ فذكر السبب يدل على المسبب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿يَعْرِفُونَ﴾ المشركون ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي عددها الله عليكم حيث يعرفون بها وبأنها للّهِ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: 83] بعبادتهم غيره وقولهم إنما بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا أو بإعراضهم على أداء حقوقها وقيل من نبوة محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات، وإنما عرفوها ذلك في كتبهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: 146] الآية، وهم أنكروها عنادًا ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النّحل: 83] عنادًا أو ذكر الإكراه لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان عقله أو للتفريط في النظر ولم يقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ رسولًا يشهد لهم أو عليهم بالإيمان أو الشرك والطغيان ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار وفي الكلام مطلقًا أو في الرجوع إلى الدنيا لانقطاع ما يترجى به النجاة وسمى عنه النجاة والفلاح فيقنطون بالكلية ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النّحل: 84] يسترضون ولا يكلفون أن يرضوا ربهم وانتصاب يوم بمحذوف أي اذكروا.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ودار الجزاء وغار العقاب ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ولا يدفع عنهم آلام العقاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النّحل: 85] يمهلون ولا يهملون ولا يتركون.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ باللّهِ وكفروا بآياته ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ وأوثانهم وأصنامهم يوم القيامة أو الشياطين الذين شاركوا في الكفر بالحمل عليهم ودعوتهم إليه ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ﴾ ونعبد أربابًا حال كونهم ﴿مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ﴾ الأوثان والأصنام ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ في جوابهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النّحل: 86] وذلك إما لأن الأشياء كما هم يسخفون اللّه بلسان خصصهم به ويعمهم ويسمع عنهم، كذلك يتكلمون يوم القيامة بذلك اللسان، والمانع من سماع ذلك الكلام إنما كانت الأحوال البشرية الدنياوية، وقد انتفت تلك الأحوال يوم القيامة يوم تبلى السرائر هذا اعتراف منهم بأنهم كانوا خاطئين.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ الذين ظلموا وأشركوا واطرحوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ لاستسلام محكمة في الآخرة بعد الاستنكار في الدنيا ولم تغن عنهم في ذلك اليوم آلهتهم شيئًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وزال وغاب عنهم وبطل وضاع ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [النّحل: 87] في الدنيا من أن كلامهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن طريق الحق ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النّحل: 88] كانت عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال وسنمات البخت يبلغ أحداهن للسعة يجد صاحبها حماها أربعين خريفًا.

قال ابن عباس: من خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار، يسيل من تحت العرش، يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار، وقيل إنهم يخرجون من حرّ النار إلى الزمهرير، فيتبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها. واعلم أن الغرض من هذه العقوبات والعذاب والمبالغة فيها إظهار لكمال القدرة وإشهاد لعموم العناية والشفقة ووفور الرحمة في حق عباده والإشعار بكمال قوة قابلية الإنسان وسعة عرضة الاستعداد، فإن فيها أهلية كل كمال وصلاحية الوصول إلى كل مقام عالي وحال رفيع عالي، لا يصل إليه ملك مقرب ولا فلك مجرب «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر قط، أطعني يا عبدي أجعلك مثلي وليس لي مثل، ومن قتلته فأنا ديته**». وهذه العناية في حق الأملاك ولا [في] حق الأفلاك ولا في حق الجان ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: 72] الحمد لله على كمال عنايته ووفور هدايته ودرور درايته والحمد لله على كل حال ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النّحل: 88] في الدنيا بالكفر في أنفسهم وحمل الناس عليه ودعوتهم إليه، وصدّهم عن طريق الحق وسلوكهم إياه.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ ورسولًا ونبيًا إليهم ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لما تقدم وما أرسلنا من رسول إلا بلسان [قومه] ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ [النّحل: 89] يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين بعث إليهم مناهل مكة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ وبيانًا وإظهارًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه من الأمر والنهي والتمييز بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام والحدود والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لعامة المؤمنين ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ وبشارة واستبشار ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] الكاملين في مرتبة المشاهدة ودرجة عين اليقين ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس: الآيات 62 - 64].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ ويحكم بالقسط والإنصاف والفضل والانتصاف والاقتصاد والتوسط في الأعمال والاعتقاد بين التعطيل والتشريك بالقولِ بالكشف والاكتساب والتوسط وبين محض الجبر وإفراط القدر وبالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين الباطنية الجبرية والترهيب وبالسخاء المتوسط بين البخل والإسراف والتقتير ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إحسان الطاعات بل الأمور كلها لقول النبي عليه السلام: «**إنّ اللّه أوجب الإحسان في كل شيء حتى أن يجد البيان في الذبح**»، أما الأول فلقوله عليه السلام: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه والتخصيص بعد التعميم اعتناء بشأن صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ والإفراط في مشايعة القوة الشهوية وإشاعة مقتضاها متعديًا عن حد الاعتدال وتخافيًا عن سد الشرع في اقتصاد الأعمال وإفشاء المحظورات بلا ضرورة كالزنا فإنه أقبح قبايح أفعال الإنسان فإن وزانه وزان الفعل بغير حق، ولذا جعل الشارع حدّ الزنا في المحصن الرجم وهو الفعل الفاحش ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ شرعًا تواطأت العقول السليمة عليه وهو ما تعاطيه القوة الغضبية الغير المعدلة ﴿وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 90] الاستعلاء والاستيلاء بالبأس على الناس والتجسر عليهم على مقتضى الشرطية التي هي مرتضى القوة الوهمية استخدمتها النفس العاملة، إشارة إلى تفاصيل مبادئ الأعمال الإرادية والأفعال الاختيارية التي وجب أن يقترفها العدل ليخرج عن حبطة الأفعال القبيحة والأعمال الوقيحة التي ينخرط بها الأشخاص الإنسانية في مدارج الحيوانات التي أوجب العقل والشرع التجرد عن التخلق بأفعالها، وتهذيب النفس عن آثار ما وجبت فيها والتبرز والتحقق بما يقابلهما وهي التي بها يندرج الأفعال في مدارج الكمالات الإلهية والمقامات السنية والحالات القدسية وهي العفة والسخاء والشجاعة والسماحة والاقتضاء والعدالة والعلم والحكمة التي تحصل بتعديل القوة الشهوية والغضبية والقوة النظرية.

فإن للقوة الشهوية طرفين: الإفراط والتفريط، والأول: هو مبدأ الفجور

والثاني: منشأ الخبوثة وخمود الشهوة. أما المتوسط والمقتصد المعتدل بينهما هو العفة، وكذلك للقوة الغضبية طرفان طرف أحدهما وهو الإفراط منشأ التهور، والثاني هو التفريط منشأ الجبن، والتوسط الإنسانية وهو الحالة الوحدانية المعتدلة هي الشجاعة وهي ملكة يقتدر بها على الإقدام في الحروب لدفع العدو، وكذا للقوة النطقية وللغريزة طرفان الإفراط وهو الحريرة والشيطنة، والتفريط وهو البلد والحماقة وهي هيئة وملكة ناقصة يقتضي الإدراك والعلم على ما ينبغي الجهل ويمنع الفهم، وإذا علم ونبه لم يتعلم ولم يتفهم، وأما الحالة المتوسطة المعتدلة والهيئة الوحدانية تقتضي الإدراك والعلة على ما ينبغي، وتقتضي الوقت والمصلحة والعمل بمقتضاه وهي الحكمة. قال النبي ﷺ: «**من عمِل بما علِم علّمه اللّهُ علم ما لم يعلم**»، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

وأما العدل والعدالة فهي عبارة عن استعمال هذه الصفات والنعوت على ما يقتضي الوقت والمصلحة، ويقابله الظلمة وهو الذي يظهر بانتفاء كل منها في نفسه واستعمال كل منا في غير موضعه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع للقرآن للخير والشر، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعونٍ، ذكر في هذه الآية سبعة ثلاثة منها مأمورات وثلاثة منهيات وواحد وهو سابعها كلمة جامعة يتناول المأمورات والمنهيات انتفاء الجميع أبواب النار والسعير، وانتفائها بالصورة الجمعية هي أبواب الجنة ثمانية إشارة إجمالية وعبارة كلية إجلالية ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ أي التوحيد والاقتصاد والإحسان بأداء الفرائض وسنتها بالإخلاص فيها إلى التوحيد والعفو عن الناس ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء مصالحهم والنفقة على الأقرب فالأقرب ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [النّحل: 90] قولًا وفعلًا وعملًا واعتقادًا ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ لا يعرف في شريعة ولا سنة ولا عرف، وتنكره العقول والشرائع على وجه لا يقبل طباع الجمهور والفحول إذا عدل في نفسه وفي أقواله وأفعاله وأعماله وأحواله ﴿وَالْبَغْيِ﴾ [النّحل: 90] الكبر والظلم وطلب التطاول بالظلم وحين أسقطت من الخطب على المنابر صنعته الملاعين في عهد ولاة بني مروان على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، أقيمت هذه الآية مقامها والرضوان على الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحمزة والعباس،

ولعمري إنها كانت فاحشةً ومنكرًا وبغيًا ضاعف الله لمن سنها عصًا ونكالًا وحربًا وكربًا إجابةً لدعوة نبيه ﷺ حيث قال: «**اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصر الدين واخذل منه خذله**» هذا خلاصة ما في الكشاف.

واعلم أن الشخص إنما يكون عدلًا إذا عدل في نفسه وفي أقواله وأفعاله وأعماله وأحواله كالشخص الكائن من العناصر الأربعة والوحدة المزاجية الحادثة من الأركان الأربعة العنصرية.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ والوعد من العهد ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ يريد العهود ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يريد بعد ميثاقها وتشديدها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ يريد شهيدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النّحل: 91] يريد لا يخفي عليه شيء ما كان وما هو كائن.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وذلك أن امرأة من قريش لكل لها ريطة وكانت لها وسوسة، وكانت تغزل عند الحجر يومها ثم تغدو منتقضة، يريد بغزلها جوانبًا ثم تنقضه ثانيًا ﴿أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ بلى ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ﴾ يريد قومًا أكثر من قوم ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النّحل: 92] في الدنيا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يريد على ملة وعلى دين واحد ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ يريد الضلالة بعينها والهدى بعينها ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النّحل: 93] يريد في الدنيا.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ يريد بلى وقال ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ يريد تزل عن الإيمان بعد المعرفة باللّهِ وحده لا شريك له ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ يريد العذاب ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد عن طاعة الله ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: 94] يريد في الآخرة.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ يريد عوض الدنيا وإن كان كثيرًا فكلما تذهب وتبلى قليل ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يريد الثواب ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 95] يريد أن ما في الآخرة لا ينفد ولا يبلى ولا يتغير وليس هو بقليل.

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ يريد يعجز ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ يريد لا ينفد كلما أخذت منه وأكلت صار مكانه مثليه فمن غير هذا ويعجز ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على دينهم وعما نهاهم الله عنه وانتهوا ﴿أَجۡرَهُم﴾ يريد ثوابهم ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 96] يريد بأوفى وأفضل وأكثر وأعظم ما كانوا يعملون.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ يريد أن اللّه لا يقبل الحسنات من المنافقين والمشرك والكافرْ ولا من مضرٍّ حتى يتوبوا ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ يريد عبادة الله وأكل الجاهل ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ يريد في الآخرة ﴿أَجۡرَهُم﴾ يريد ثوابهم ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 97] بأفضل من أعمالهم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يا محمد أنت وأصحابك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] يريد الملعون.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ يريد حجة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد صدقوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النّحل: 99] يريد وبالله يتقون.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النّحل: 91] أقول: العهد هي المبالغة قيل هو اليمين وكفارته كفارة اليمين، والعهد ههنا هو البيعة مع النبي ﷺ على الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتْح: 10] ورسوله. قيل: هو النذر والأيمان بالله ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي أيمان البيعة وعقدها أو مطلق الإيمان إن كان اللام للجنس وإلا للعهد والعوض من المضاف إليه، (بعد توكيدها) توثيقها وتشديد باسم الله، وأكد ووكد لغتان يصحبان الأصل ولو للجنس أو العهد أو العوض من المضاف إليه بعد توكيدها، والهمزة بدل، وجعلتم اللّه عليكم كفيلًا شاهدًا ورقيبًا لأن ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النّحل: 91] شاهدًا أو رقيبًا لأن الكفيل مراع بحال المكفول به مهيمن عليه، لو فاته ما عهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ فأمر الله بالوفاء بها أو جاء في حلف أهل الجاهلية ثم ضرب مثلًا لنقض العهد.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ إبرامه وتقويته واتقانه وأحكامه ﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نكث وهو النقص ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التّوبَة: 12] الآية، أي ينكث وينقض المغزول قبله. قيل: هي ريطة بنت سعد كانت حرفة اتخذت منزلًا قدر ذراع وصنارة مثل صنع فلكة عصمةً على قدرها، وكانت تأمر جواريها أن يغزلن من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهنّ أن ينقضن المغزول ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ جملة حالية ﴿دَخَلًۢا﴾ مفعول ثان (تتخذون) ﴿بَيْنَكُمْ﴾ و(أنكاثًا) مفعول نقضت، أي ولا تنقضوا أيمانكم أي حال أيمانكم تتخذونها دخلًا ومفسدة ودخلًا وخيانة وخديعةً، أو الدخل ما يدخل في الشيء للفساد، أو خديعة بأن يظهر الوفاء ويبطن النقض ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن يكون أمة وجماعةً ﴿هِىَ

أَرْبَىٰ﴾ من الربا وهو الزيادة مأخوذ من ربى يربي رباءًا أي زاد يزيد زيادةً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي أكثر وأزيد وأوفر من جماعة المؤمنين مالًا وعددًا وجهاتًا ومددًا وقوة وأمدًا ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ﴾ ويختبركم بأمره إياكم بالوفاء ﴿بِهِۦ﴾ أي بالعهد والنهي عن نقضه والضمير عايد إلى أن تكون على تأويل المصدر، أي يخبركم بكونهم أربا لينظروا أنهم يتمسكون بحبل اللّهِ الوفاء بالعهد الإلهي في بيعة رسوله عليه الصلاة والسلام ثم يفترون بكثرة الفرش وقوتهم مالًا وعددًا أو قلة المؤمنين وضعفه ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النّحل: 92] في الدنيا من الإسلام وقوته وحميدة عاقبته وحقيته.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتكم وجمعيتكم على الإسلام ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقين على ملة واحدةٍ وهي الإسلام على طريقة الإنجاء والاضطرار، وهو قادر على ذلك لكم الحكمة الإلهية لإظهار الحق اقتضت ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ لإشهار الحكام نبوته الذاتية ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه فضلًا منه ورحمةً ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 93] في الدنيا بالإرادة والإخبار والإلحاح والإكراه والاضطرار.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ خديعة تلقى لديكم فينفرون بها الناس ويصرفوهم عن طريق الحق ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ وزلقت ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ على الطريق القويم والصراط المستقيم ومحجة الإسلام ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ ومنعتم أي يصدوكم ومنعكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ووضوح محجته قيل سهلكم طريق بعض العهدِ على الناس ببعضكم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّحل: 94] وعقاب عميم.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بعهد اللّهِ وبيعة رسول اللّهِ ﷺ عرضًا يسيرًا مِن الدنيا بأن كانت قريش يهمونهم على الرجوع من الإسلام إلى الكفر، ثمنًا قليلًا من الدنيا، فليتبينوا على دين الحق وملّة الإسلام ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ﴾ من الثواب الجميل والعرض الجليل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 95] حقيقة الحال وحقيقة المآل وذلك لأن ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ أو من الحطام الدنيا والمتاع الأدنى ﴿يَنفَدُ﴾ ويزول ويفنى عن قريب ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من السعادة السرمدية والدولة الأبدية ﴿بَاقٍ﴾ لا يزول ولا ينفد أبدًا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ [النّحل: 96] على الوفاء بالعهود.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يريد يطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النّحل: 100] يريد يطيعونه في الشرك على الله وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم.

﴿غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّحل: 106] ولذا قال بعض العلماء أن العقود بالإكراه كالطلاق والبيع والإقرار لا يقع، ذلك الكفر بعد الإيمان أو الوعيد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وآثروها ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لسبب محبتها وفرط ميل نفوسهم إليها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النّحل: 107].

﴿ٱلَّذِينَ﴾ آثروا الدنيا على الآخرة هم الذين ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النّحل: 108] الكاملون في الغفلة بعده المنغمسون في الجهالة والمعصية.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا وقطعًا ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النّحل: 109].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ وعذبوا على الإيمان ودخولهم في حكم الإسلام ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟﴾ مع النبي بالمدينة ﴿وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الهجرة والجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ الفتنة والهجرة والمجاهدة، يعني إن ربك يا محمد من بعدها من بعد [أي] الفتنة المذكورة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ مبتدأ ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ [النّحل: 110] والمعطوفات خبره، وفي هذه الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتحقق بيان كمال تحققهم وتمكنهم على الإيمان والإسلام، ترغيبًا لمطالب الحق في الثبوت على الإيمان والإسلام، وتعريضًا للمنافقين توبيخًا وتهكمًا بهم وتفضيحًا بحالهم.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ﴾ [النّحل: 101] الآية أعم أن تكون آية الكتاب الآفاقي والأنفسي والآفاقي إما معنوي أو صوري، والصوري هي الأدوار الكلية والجزئي، أما الجزئية تبدل الأدوار الزمانية بالليل والنهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾ [الإسراء: 12] الآية إلخ، أو تبدل النفس بالانبساط والانقباض، ومنها أدوار الكواكب السيارة أو الثابتة ودور فلك الأفلاك. أما الكلية فهي

الأدوار الأربعة النورية والأكوار المربعة العدمية الظلية، فإن كل دورة وكورة تشتمل على أدوار أربعة فرعية، وكل دورة فرعية تشتمل على أدوار لا تتناهى.

وعجايب آيات هذه الأدوار والأكوار وغرايب أنواعِها مما لا يحيط بها إلا الله والراسخون في العلم الذين داروا باللّهِ وساروا مع الله في اللّهِ وفي مقتضيات أسمائه ومرتضيات أسمائه وصفاته من الأكوار والأدوار المذكورة. أما الأدوار الأربعة الأصلية النورية والفرعية فهي الآيات الكلية الصورية والأكوار الأربعة الظلية الأصلية والفرعية الأربعة، فهي الآيات المعنوية الآفاقية، فإن فرداريّة آيات الأدوار النورية الجمالية الوجودية الصريحة تنسخ آيات الأكوار الظلية العدمية الجلالية ويجعلها ضمنية، فإذا استكملت فرداريّة الأدوار النورية الصريحة انتقلت الفرداريّة ونوبة التدبير والتربية إلى الأكوار الظلية العدمية الجلالية ونسخت آيات الأدوار النورية الجمالية الوجودية، فالأدوار آيات النهار الإلهي والأكوار آيات الليل الإلهي.

وأما الآيات النفسية فهي الأطوار السبعة القلبية، والأنوار الملوية وما يترتب عليها من التجليات الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية والآثارية والكلية، والتحقق بالأسماء والصفات المظهرية، وغير ذلك من الحالات والمقامات والمنسوخ والناسِخ إنما يتحقق في الآيات الإفرادية، وأما الآيات الجمعية فلا ناسِخ فيها ولا منسوخ إذ نسبة الكل إليها على السواء.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أي لأعيان القوى البدنية والنفسانية والروحانية إنما يعلّمه بشر أي المولود الملكي ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ ويميلون ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الحقيقة المحمدية السارية في المظاهر النورية صريحًا والمحال الظلية ضمنًا لأنه خليفة اللّهِ في تلك الوجود الخارجي في الشهادة والغيب في النفس والقلب وهو ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ أي المولود الجني الضمني ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ﴾ [النّحل: 103] أي الصورة الجامعة لهما في الوجودِ الجمعي.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الفرات والسقطات ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ أي يكون كفره بالاستطراد وبالبيع لا بالأصالة ﴿وَقَلْبُهُۥ﴾ وغيبه الملكوتي ﴿مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: 106] الفطري والإيقان الفكري النظري لم يتطرق عليه في الأدوار والأكوار غفلة ولا عصيان ولا فطرة ولا طغيان.

إشارة وتأويل

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النّحل: 81] إلى قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النّحل: 83] إشارة إلى إظهار الأعيان الممكنة والظلية الوجودية وإلى تنوع الأظلال الوجودية والعدمية فإن ظلمة الإمكان الذاتي الذي يظهر في الأدوار الأربعة الظلية والإمكانية الوقوع من الذي يظهر في الأدوار الأربعة النورية، أما الظل الأول وهو في الدورة العظمى النورية التي أعيانها تظهر بصور الملائكة وتختفي فيها صور الأرواح وهيئات الأشباح ونعوت الأجسام، والظل الثاني يظهر بصور الأرواح في الدورة الكبرى النورية، والظل الثالث يظهر في الدورة الوسطى بهيئات الأشباح ونعوت الأجسام، والظل الرابع يصدر في الدورة الصغرى بأشكال الأجسام وصور الأجرام العالية والسافلة البسيطة والمركبة المعدنية والنباتية والحيوانية فعبّر عن الأول مما هو في السراء والضراء في طاعة الواجب المرجوة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 96] قال النبي ﷺ: «**مَن أحبّ دنياه أضر آخرته ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه فآثر ما يبقى على ما يفنى**» ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 97] لأنه جل وعلا وعدهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إذا أردت قراءتها وتلاوتها ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النّحل: 98] فإنّ الاستعاذة من الأعمال الصالحة يجزي الله عليها الثواب، أكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة. وقال أبو هريرة بعدها: فحيث لا حاجة إلى الإضمار المذكور ولفظ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. روي أنّ النبيّ ﷺ كبّر الله أكبر كبيرًا ثلاث مرات والحمد لله كثيرًا ثلاث مرات وسبحان اللّهِ بُكرةً وأصيلًا ثلاث مرات اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. قال عمرو: نفخه الكبر وبغته الشعر وهمزه الموتة وهي الجنون والاستعاذة بالله هي الاعتصام به. عن ابن عباس فقال لي: يا ابن عبد الله قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هذا فراسة جبرئيل عن العلم عن اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النّحل: 99] ﴿إِنَّمَا

﴿سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ وسلطنة ولائه على أوليائه يقع أنهم لا يقبلونه ولا يطيعونه حتمًا يريد منهم من اتباع خطواته ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ ويطيعون له ويدخلون تحت ولايته ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النّحل: 100] أو بالشيطانِ.

إشارة وتأويل

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ في الفطرة الأولى في الدورة العظمى في مقام ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172] ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ الجاري في الدورة الكبرى والوسطى والصغرى ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ وتشديدها وتأكيدها في المرتبة الأعلى والدورة المتقدمة عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النّحل: 91] على سبيل الاستمرار والتجدد دينًا وآخرًا لا إلى النهاية.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ [النّحل: 92] إشارة إلى أن النقض يقع في كل دورة بناء على أنّ حقيقة الإنسان قد جعلت على السهو والنسيان وعلى المخالفة والعصيان ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ [العاديات: 6] أي عاص وكفور ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [النّحل: 93] في قبول الطاعات وحصول التوفيق لوصول العبادات إلى خالقِ الكائنات وموجد المكونات بأن جعلكم من مربوبات النور والجمال صريحًا، وجعل حكم الجمال والنور غالبًا دائمًا والجلال معلومًا أبدًا، وبالعكس من غير أن يركبكم بقوى مختلفة وأجزاء متباينة يظهر منها آثار متناقضة وأطوار متعارضة، فإنّ هذا الأمر يخالف محكمة الإلهية أو المحكمة الإلهية إنما يظهر من أمور متخالفة وأشياء متضادة كما قيل: الأشياء تتبين بأضدادها، وإليه أشار: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ [الأعراف: 155] والسر الإلهي والكمال الجمعي نقيضي جمعيتهما ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ والباقي ظاهر.

تفسير

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١﴾

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النّحل: 101] يريد من الناسخ والمنسوخ

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا﴾ يريد المشركين ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ يريد مفعولًا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101].

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد جبرئيل كان ينزل بالبيان من عند الله إلى أنبيائه وبالانتقام بعذابه كما قال في سورة البقرة قالت قريظة والنظير وبني قينقاع: من جاء بهذا الوحي؟ قال رسول الله ﷺ: «**جاءني جبرائيل**» قالوا: هذا عدوٌّ لنا، فأنزل الله يا محمد ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97] يريد الله وقضائه وقدره ومن ربك ﴿بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد الذين صدقوا ﴿وَهُدًى﴾ يريد ثباتًا ورشادًا ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: 102] يريد الذين لم يعدلوا باللّهِ ولم يتخذوا من دونه وليًّا.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يريدون عداس غلام عتبة بن ربيعة قال الله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ﴾ يريد الذي نزل على محمد ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النّحل: 103] يريد أفصح ما يكون من العربية وأبنيته لسان سعد بن بكر بن هوازن الذين أرضعوا النبي ﷺ فكان فيهم ثلاث سنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يريد لا يؤمنوا ولا يصدقوا بعظمة اللّهِ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ لا يرشدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّحل: 104] يريد وجيعًا.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يريد لا يؤمنوا ولا يوقنوا ولا يصدقوا بعظمة آيات الله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النّحل: 105] يريدهم المفترون.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يريد قومًا من قريش كانوا يعذبون على إيمانهم، منهم ياسر بن عامر وعمار بن ياسر وأمه سميّة وخباب بن الأرتّ وسلمة بن هشام والوليد بن الوليد وعباس بن ربيعة وعتبة ابن غزوان والمقداد بن الأسود، وغيرهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان بأنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله جاءنا بالحق وصدق المرسلون ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّحل: 106] يريد قومًا الله أعلم بهم، منهم من آمن وحسن إيمانه وفتح اللّهُ على يديه وكان صالحًا حين مات.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النّحل: 107] يريد الجاحدين المقيمين على الكفر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النّحل: 108] يريد عما رد لهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ يريد حقًّا ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النّحل: 109] يريد المغفلين.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وجاهدوا يريد الذين كانوا يعذبون ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ يريد من بعد ما عذبوا ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 110] يريد لما خرجوا إلى النبي ﷺ وصاروا عائذة بالمدينة غفر الله لهم عامهم بمكة وثبطهم بهم، عفى الله ذلك عنهم.

إشارة وتأويل

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ ونسخنا حكم آية فأبدلنا ﴿مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ حكمًا آخر ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أقول: من المصالح والمفاسد فربما يكون مصلحةً في وقت يصير مفسدة في وقت آخر، وبالعكس فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد مفتر ﴿مُفۡتَرِۭ﴾ تقول على اللّهِ يأمر لشيء في زمان ثم يبدو لك مصلحة فتنهى عنه، وهو جواب إذا واللّهُ أعلم، اعتراض لتوبيخ الكفار على طعنهم بأنه ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق والأهون بالأهون والأشق بالأشق، وهم لا يعلمون أن الغرض من النسخ المصلحة ورعاية الحكمة لا الهوان والمشقة.

واعلم أن القرآن ينسخ بالقرآن، والإجمال ينسخ بالتفصيل، والمشترك بالمبين، والقرآن لا ينسخ بغيره على أن السنة المتواترة المكشوفة مثل القرآن في إيجاب العلم فنسخه به كنسخه بمثله، وأما الإجماع والسنة الغير المقطوع فيها فلا يصح نسخ القرآن بها، وقد فصّل في علم الأصول في باب الناسخ والمنسوخ ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 101] مصالح الناس وحكمة المنسوخ، ولا يدركون بأحوال الأشياء وحقائقها، ولا يميزون الخطأ من الصواب ولا العقاب من الثواب.

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي نزله روح القدس أي نزل بالقرآنِ جبرئيل عليه السلام، وإضافة الروح إلى القدس هو الطهر، والمراد المقدس والمطهر بالماء مثل إضافة خاتم الجواد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من للبيان ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ [النّحل: 102] ملتبسًا بالحق ومستصحبًا به ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويمكنهم ويجعلهم ثابتًا ومتمكنًا

على الإيمان والتصديق بأنه كلام حق منزل بالحق من الحق، فإنهم سمعوا الناسخ وتدبروا فيه من رعاية المصالح ووفور الحكمة، ورسخت عقائدهم واطمأنّت قلوبهم بالإيمان وكمال الإيقان ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: 102] المنقادين المستسلمين بحكمه المطيعين لأمره معطوفانِ على محل (ليثبت) أي تبيينًا وهدايةً وبشارة وتعريضًا لحصول أضداد لغيرهم يعني أن النسخ من جملة الحق لأن يثبت قلوب الذين آمنوا بالنسخ، حتى أنهم قالوا إنه هو الحق والثابت منه دينًا، والحكمة فيه تثبيت القدم وتصحيح الاعتقاد واليقين، ومطمئنين القلوب بالحدوث والقدم وبالوجود والعدم، وبأن الله الحكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ومصلحة وهداية وثواب.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ آدمي لا ملك ولا جني قال ابن عباس كان النبي ﷺ يزور قبينا بمكة اسمه بلعام كان نصرانيًّا أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول اللّهِ يدخل عليه ويخرج وقالوا: إنما يعلمه بلعام، وقال عكرمة: كان النبي ﷺ يقرئ غلامًا لبني المغيرة اسمه عيسى كان يقرأ الكتُب فقالت قريش: إنما يعلمه لعيسى أو عاش مملوكًا قد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجمي أو كان عليه الصلاة والسلام يجلس إلى غلام رومي نصراني اسمه جبير كان قارئ الكتب.

قال عبد الله بن مسلم الخضرمي: كان لنا عبدان كانا يصنعان السيوف بمكة يقرآن التوراة والإنجيل فربما مر بهما النبي ﷺ، وكان إذا رآهما الكفار يتوجه إليهما فيستريح بكلامهما يقرآن عليه قصص الأنبياء السالفة عليه الصلاة والسلام. فقال المشركون: إنما يتعلم محمد منهما فنزلت هذه الآية تكذيبًا لهم قيل هو سلمان الفارسي.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ اللسان اللغة أي لغة الرجل الذي يميلون إليه ﴿يُلْحِدُونَ﴾ مأخوذ من لحد القبر ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النّحل: 103] أي القرآن بلسان عربي ظاهر واضِحٌ هذه جملة مستأنفة جواب لقولهم ورد عليهم، أي كيف يتعلم منه القرآن العربي مع كمال الفصاحة والبلاغة مع عجز بلغاء العرب في الإتيان بمثله، وهو أعجمي ما مارس لغة العرب ولا يعرف اللغة ولا الفصيح والبليغ ولا يميزهما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ولا يرشدهم إلى الهداية ووجدان النعمة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّحل: 104] في تضييعهم الفرصة وصرفهم الوقت إلى ما لا يعنيهم وإلى الافتراء.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ إنما يفتري الكذب إخبار عن فعلهم ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النّحل: 105] نعتٌ لازم لهم.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ نزلت في عمار [بن] ياسر وذلك أن المشركين أخذوا أباه وأمه سميّة وصهيب وبلالًا وخبابًا وسالمًا يعذبهم فقد توهم. فأما سميّة فإنها ربطت بين بعيرين حتى ماتت وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عمارًا وغطوه وقالوا له: اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك، وكان قلبه كارهًا فأخبر رسول الله ﷺ أن عمارًا قد كفر قال: إن عمارًا [مليء] من قرنه إلى قدمه إيمانًا، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول اللّهِ وهو يبكي فقال رسولُ الله: «**ما وراءك؟**» قال: شرٌّ يا رسول اللّهِ قلت فيك وذكرت؟ قال: «**كيف وجدت قلبك؟**» قال: مطمئنًا بالإيمان، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه وقال: «**إن عادوك فعُد لهم بما قلت**»، فنزلتِ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ﴾ [النّحل: 106] بما هو أعم إشعارًا بأنه في الكل، وعن الثاني بالجبال إشارة إلى أن أول ما يتعين من الإظلال في العين هو جبال الأرواح، ثم سرابيل أعيان الأشباح، ثم سرابيل أعيان الأجسام، وتكرار سرابيل إشعار بأن أعيان الدورة الوسطى والصغرى قد اشتركت في الصورة التي هي مدار الإرادة الحسي، ثم يعرفونها، ثم ينكرونها إشارة إلى أن أكبر الأعيان في الأطوار البرزية ينتقلون عن أحوال أجرت في الأدوار السابعة والأكوار المتقدمة الشاهقة، ونسوا ما شاهدوا نسيًا منسيًا كأن لم يكن شيئًا مذكورًا ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النّحل: 84] إشارة إلى سريان النبوة الذاتية في الأمم والإفرادية النورية والأكوار المرجعة الظلية، وإلى أن رسول كل دورة ونبي كل كورة إنما يكون من أعيان تلك الدورة، ليتأتى التكمل والإرشاد إذ الاستفاضة والتمتع والاستفادة إنما تكون بالمناسبة وبين الجنسية بين المفيد والمستفيد.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النّحل: 85] إشارة في نشأة الأدوار والعنايات ونشأت الساعات.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ في الأدوار الإفرادية ونشأت الأدوار الفرداريّة ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ [النّحل: 86] وذلك لأن أعيان كل دورة دورة في قيامة تلك الدورة يشاهدون ما كانوا إنما بين في أنظارهم في قيامة تلك الدورة، وسواء كانت تلك القيامة آفاقية أو نفسية، ويرتفع في قيامة تلك الدورة تحجب البشرية والنقب النفسية الصورية والمعنوية. وأما الحجب الكونية فلا ترتفع إلا في دنيا تلك الدورة ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72]، ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النّحل: 86] لأنهم أخذوا ضد عقائدهم، وهو القول لا القول شركاء، لأن أول ما يدرك في بادئ نظرهم ومبادئ بصرهم.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني لما ارتفع على عبدي الأهوية الأيدي الشهوية وغطاء القوة الوهمية، وغشاء غطاء مبدأ الصور الخيالية، ظهر لهم في الدورة الجمعية الناسوتية بعموم عناية اللّهِ وهدايته أن المؤثر والفاعل في جميع الأحوال وتمام الأطوار، بل الموجود في كل الأدوار هو الله عز وجل لا غير، بل الظاهر والمتجلي في أنه صورة عرضية، وإن هيئته طولية وعرضية إنما هو الحق جل وعلا ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾ [النّحل: 87] أي وصلوا في يوم الجزاء إلى الله سالمين عن رؤية الغير ومشاهدة أفعالهم لقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]، ، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عن نظرهم صور ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [النّحل: 87] يبدل صورة الأباطيل بصورة الحق.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 88] إشارة إلى الذين ادعوا الإرشاد والتكميل وحصروا طريق الحق على ما هم عليه من المدعيات الكاذبة والمشهيات الباطلة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي الذات الجامعة بالأسماء والصفات، بحكمه على كل عين مِن الأعيان صريحًا، وعلى كل كون من الأكوان الظلية الضمنية ضمنًا وخفيًا، بالاستقامة مع اللّهِ في كل طور من الأطوار السبعة القلبية في الأعمال الإرادية والأفعال الاختيارية والأقوال الإنسانية والأحوال القلبية بالعلوم النظرية والضرورية، وبالأخلاق المرضية والأحوال البشرية الفؤادية بالتجليات الآثارية

والأحوال الروحية بالتجليات الأفعالية، والأحوال الخفية بالتجليات الأسمائية، والأحوال في طور غيب الغيوب بالتجليات الذاتية والفناء في الله، والبقاء باللّهِ والمظهر والكلية، والتحقق بالذات بتمام الأسماء والصفات بالدين والإسلام، هو هذه الأمور المذكورة والأطوار المزبورة، كما أشار إليه خاتم النبيين عليه وعليهم الصلوات أجمعين: «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**».

﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والإعطاء مطلقًا أيضًا إحسان فيكون تفضيلًا وتفضلًا وتفضيلًا له ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الإجمالية النورية الجمالية والمنكر هو مخصوص بالجلال ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ عام لهما استواء السر والعلانية، والإحسان أن تكون سريرتك أحسن من علانيتك، والفحشاء والمنكر هو أن تكون علانيتك أحسن من سريرتك ﴿يَعِظُكُمْ﴾ ينهاكم ويخبركم عما جرى في الأدوار النورية صريحًا وضمنًا وشاهدتم فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 90] كي تتخذلوا وتتفطنوا وتنتقلوا من الخير إلى الشهود بالعين والبصر على وجه يطابق الشهود الأول والمشهود المأول والوعظ هو التنبيهِ والتعريف والتذكير.

تفسير

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ يريد يوم القيامة ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ يريد ثوابها غير منتقض ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النّحل: 111] يريد لا ينقضون.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ يريد مكة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ يريد أهلها كانوا آمنين والناس يتخطفون من حولهم ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ يريد كثيرًا واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النّحل: 112] يريد من أرض مصر وأرض شام وأرض الجزيرة والموصل واليمن والعراق ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ يريد أهلها كفروا بأنعم اللّهِ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ يريد جاعوا حتى أكلوا العصر والعكر [الأنوار بدم الحلم لعفى الحلم على الوتر] ثم تغلى على النار ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ يريد من النبي ﷺ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: 112] يريد بمعلمهم النبي حيث كذبوه وأخرجوه من مكة وما هموا من فعله وتكذيبه إياه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو محمّد بن عبد اللّهِ بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن المالك بن الفهر بن كنانة الصادق الأمين يعرفونه بالوفاء والأمانة وترك الأباطيل ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النّحل: 113] مثل قوله: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [21] يريد الجوع الذي كان بمكة دون العذاب الأكبر يريد القتل ببدر ومثل قوله تعالى في ﴿حمٓ﴾: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [10] وهو الجوع الذي كان بمكة لا يبصر بعضهم بعضًا من شدة الجوع كأن يكون بين الرجل وبين الآخر دخان ما ينظر إليه من شدة الجوع وضعف البصر.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿فَكُلُوا۟﴾ يا معشر المؤمنين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يريد من الغنائم ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ يريد الإسلام ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النّحل: 114].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ يريد كلما ينقضون ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يريد ما ذبح المشركون ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ يريد على المسلمين ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مثل قاطع الطريق فليس له تخلل ولا كراهة قال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 115] يريد لم يبعد ولم يقع على المسلمين ولا على أهل الذمة.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يريد المشركين واليهود، فإن المشركين أحلوا الميتة وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وأرسل اللّهُ نبيّه محمدًا ﷺ إلى جميع الخلق يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، حرّم على المؤمنين مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، والطيبات لحوم الإبل وشحوم البطن مثل الشرب في الكليتين، وكلما كان محرمًا عليهم مما حرم إسرائيل على نفسه ليفتروا على اللّهِ الكذب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النّحل: 116].

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّحل: 117] يريد وجيعًا.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يريد اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في غير هذه السورة ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: 118] هم الظالمون.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ يريد الشرك بجهالة يريد قبل المعرفة بالله وبما جاء به محمد ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ يريد آمنوا وصدقوا وقاموا بالفرائض وانتهوا عن معاصيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 119] يريد ما كان في الشرك قبل الإيمان.

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ﴾ أقول نفس كافرة ﴿تُجَٰدِلُ﴾ وتباحث وتناظر ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ [النّحل: 111] مما أسلفت في النشأة الأولى واختلفت في المرتبة الأولى من خير وشر فتخاصم نفسها في اكتساب الأعمال القبيحة واجتلاب الأفعال وهي

تنكر وتجاحد فتشهد عليها ألسنتها وأرجلها والأرض التي عملت هي عليها ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزّلزلة: الآيات 1-4] إلى آخرها ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ تعطى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ برة وفاجرة ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من خير وشر ونفع وضر وربح وخسر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يحاسبوا في ديوان أعمالهم شيئًا وما فعلوه من السيئات وتنقص من حسناتهم عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال كعب: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيًّا لازدريت عملك مما ترى وإن لجهنم زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل منتخب إلا وقع خائفًا على ركبتيه حتى إبراهيم الخليل يقول: يا رب لا أسألك إلا نفسي وإن تصديق ذلك ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ [نَفْسٍ] تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النّحل: 111].

عن ابن عباس في هذه الآية قال: لا تزال الخصومة بين الناس حتى يخاصم النفس الجسد فتقول النفس والروح: لم تكن يد لي أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها، فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لساني وأبصرت عيني ومشيت رجلي، فضرب الله بها مثلًا أعمى ومقعد دخلا حائطًا أي بستانًا فيه ثمر، فالأعمى لا يبصر الثمر، والمقعد لا يناله، فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ مكة أو كل قرية أنعم الله على أهلها فنظروا أو نظروا الغافلين فترفوا وتركوا الإنصاف ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ ذات أمن وأمان فعافوا ولم يخافوا ﴿مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أقواتها التي تتقوم وتتموّن بها كثيرًا إذا رأوا [رزقًا] واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يحمل منه إليها من البراري والجبال والصحراء ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ جمع نعمة كأدرع ودرع بترك الاعتداد بالباء أو جمع نعم كبؤس وأبؤس ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرور واللباس ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ما وقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقوله: غمرُ الرداء إذا تبسم ضاحكًا غلقت لصحبته رقاب المال، فإنه استعار الرداء المعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف إليه لعمر الذي هو وصف المعروف، وقد ينظر إلى المستعار كقوله شعر:

ينازعني رداءي عبدُ عمروٍ   رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لـي الـشـطـر الـذي مـلـكـت يـمـيـنـي ودونـك فـاعـتـجـر مـنـه بـشـطـرِ

ثم قال فاعتجر منه الشطر فنظر إلى المستعار في لفظ الإعجاز ولو نظر إليه فيما فيه لقيل لكساهم لباس الجوع والخوف ولقيل صاف الرداء إذا تبسم ضاحكًا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: 112] ويعملون من الكفر والتكذيب.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ محمد ﷺ ﴿مِّنْهُمْ﴾ من العرب والقريش فأنكروه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جوع سبع سنين ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النّحل: 113] حال التباسهم بالظلم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النّحل: 28] نعوذ بالله من مفاجآت الموت على الغفلة وليس المختص من هذه الثلاثة الداهية إلا لطفه الخفي يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ يا معشر المسلمين ما حرمت قريش وثقيف وخزاعة وبنو مدلج وعامر بن صعصع وأتباعهم ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيما رزقكم من تحليل الحرث والأنعام ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النّحل: 114] وتقصدون في عبادتكم إياه دون غيره.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي ما مات بنفسه ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي وما ذبح للأصنام ورفع الصوت بأسمائها كقولهم باسم اللّات والعزى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي مستحل في ذنبه الباطل، ولا مقيد ومتجاوز في الأكل ما حرم عن الحد المقرر، فقد حلل الله أكل هذه المحرمات عند المخمصة والضرورة قدر ما يحفظ الحياة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما من اغتنم من الحرم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 115] بهم حين أحل لهم لدى الاضطرار.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لأجل وصفكم وبيانكم من الحرام والحلال باللسان ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، ومساق مقتضى الكلام وتصدير الجملة بما يدل على حصر المحرمات في الأجناس الأربعة إلا ما ضم إليها الدليل القاطع والبرهان الساطع، وهو السباع والحمر الأهلية، الكذب منصوب بتقول ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل منه أو متعلق بتصف على إرادة القول، أي ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ فتقول بهذا حلال وهذا حرام، أو مفعول ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾، أو ﴿ٱلْكَذِبَ﴾

منصوب بتصف و(ما) مصدرية، أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام توصف ألسنتكم الكذب، أي لا تحرموا ولا تحلوا بمجرد قوله: تنطق ألسنتكم من غير دليل، ووصف ألسنتهم بالكذب مبالغة مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولةً وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلام هذا ولذا عد في فصيح الكلام كقولهم: وجهها تصف الحسن والجمال وعينها تصف السحر، وقيل أكذبهم أملحهم ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ من التقليل الذي لا يتضمن معنى العرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النّحل: 116] لما كان المفترى يفتري لتحصيل مطلوب نفى عنهم الفلاحِ وتنبه لقوله.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة ينقطع عن قريب ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النّحل: 117] سائرين إلى عذاب فظيع في الآخرة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ [النّحل: 118] في سورة الأنعام عند قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ [146] إلخ الآية ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: 118] قد تقدم الكلام في هذه الآية فلا حاجة إلى إعادته.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ العملِ بالجهالة ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ أي استقاموا على التوبة وتثبتوا عليها ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ﴾ لما سلفت من ذنوبهم ثم استعقبه التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 119] وما سيأتي.

تفسير

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النّحل: 120] يريد كان نبيًّا وحده ليس كمثل الأنبياء، قام بحقه صغيرًا وكبيرًا، ثم يذكر الله في القرآن بالرسالة ولكن نصح لله فقال لأمته وقومه: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [الصافات: 85 - 87] ثم كسر الأصنام وكان قلبه قلبًا واجدًا واحدًا موقنًا لله، وقال مثل قوله في البقرة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [258]

يريد نمرود ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [258] وقد كان ملك الدنيا فقال لإبراهيم: من ربك؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ﴾ [258] نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [258] يريد أحيي واحدًا وأقتلُ واحدًا آخر ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [258] ومثل قوله في الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [74] قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [75] يريد أراه اللّهُ السماوات وما فيهنّ والأرض ومن فيهنّ، فرأى رجلًا يشرك بالله فدعا عليه فأهلكه الله، ورأى رجلًا يسرق فدعا عليه فأهلكه اللّهُ، ورأى رجلًا يزني فدعا عليه فأهلكه اللّهُ، فأوحى الله إلى إبراهيم: أن أمسك عن عبادي فإنهم مني على ثلاث خصال: أن إما حقت عليهم كلمتي فأعذبهم وإما أن أخرجت من أصلابهم من يعبدني ولا يشرك [بي] شيئًا، وإن هديتهم فتبت عليهم أما علمت يا إبراهيم إنه من أسمائي أني أنا الصبور، وأعطاه الله أن لا يبعث نبيًّا من بعده إلا من صلبه، وأعطاه أن لا يسافر في جميع الأرض يحضر مارة على قلبه إلا هتك الله ما بينه وبينها من الحجر حتى يراها ما تصنع، فأتى اللّهُ عليه طائعًا للّهِ حنيفًا، يريد أن أول من أحبني وأقام مناسك الله يريد الحج، وهي فهذه صفة الحنيفة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120] يريد أخلص للّهِ التوحيد صبيًا وكبيرًا.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ يريد حامدًا للّهِ طائعًا ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ يريد اصطفاه واختاره ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: 121] يريد إلى أفضل الأديان.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يريد الصدق والوفاء والعبادة والجلال ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النّحل: 122] يريد صالح ولد آدم.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: 123] ورد في البناء عليه مقال.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ يريد تناوبوا وتصادوا فيه وتعادوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يريد ليقضي بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النّحل: 124] يريد يشكّون.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يا محمد يريد إلى دين ربك ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ يريد بما حكمت لأوليائي وأهل طاعتي من الثواب ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾ يريد ينهاهم عما نهاك عنه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾ يريد بلا إلٰه إلا الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ يريد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: 125] يريد إلى دينهِ.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ يا محمد وأصحابه ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126] وذلك يوم أحد قالوا: لئن أظفرنا الله بهم لنفعلن أشد مما فعلوا فأنزل اللّه هذا، وأخبر أن الصبر أفضل للصابرين.

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ يريد أن اللّه سيظفرك بعدوّك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يريد على من عصاك ولم يتبعك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النّحل: 127] يريد قبالهم إياك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ يريد خافوني ولم يشركوا بي شيئًا ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النّحل: 128] يريد والذين هم موحدون.

إشارة وتأويل

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النّحل: 111] إشارة إلى أنواع الحساب وإلى أطوار العذاب والعقاب فإن لكل أحد من أفراد الإنسان ثلاثة أوجه: وجه إلى الحق وهو بهذا الوجه باق لا يتطرق عليه الفناء والهلاك والموت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] ووجه إلى الخلق والكثرات وهو بدل الوجه حادث فإنه هالك، ووجه إلى نفسه وذاته، فوضع اللّهُ الدين والإسلام لاستكمال هذه الوجوه، وإليه أشار النبي عليه السلام بقوله: «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**».

فالحقيقة لاستكمال الوجه الأول، والطريقة لتكميل الوجه الثاني، والشريعة لتوفية حقوق الوجه الثالث المتعلق بالخلق بأحكام الدين [التي] جرت بين الله وبين العبد، فهو العبادات وإن اختص باللّهِ فهي الحقيقة، وإن جرى بين الخلق فهو المعاملات من العقود والقصاص والديات والجراحات وغير ذلك، فالذي يتعلق بذات العبد ونفسه فهو علم الأخلاق، وأصولها أربعة: العفة التي تحصل بتهذيب النفس وتهذيبها عن الملكات الردية الحاصلة عن طرفي القوة الشهوية أي الإفراط والتفريط وهي الفسق والفجور والعفة والخمود، والشجاعة الحاصلة عن تصفية القلب وتعديل القوة الغضبية وتكميلها وإزالة الصفات السبعة، الحكمة وهي ملكة كاملة وهيئة فاضلة حاصلة من السرّ والفؤاد عن صور الأغيار وفساد الأنظار وكساد الأفكار، الرابع العدالة في استكمال القوى الثلاثة المذكورة بطريق العدالة ورفيق التساوي والاستواء والاستقامة بتخلية الروح بصيقل نور التجلي الفعلي، ويُحَلّى العقل بحلل جواهر التجليات الأسمائية والتحقق الصفات الربانية والنعوت الإلهية بكل نفس تجادل وتسأل وتبحث في المرتبة من هذه المراتب عن الوحدة الاعتدالية الصراط المستقيم عبارة عنها والميزان إشارة إليها ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النّحل: 125] إشارة إلى أن الحكمة وهي العلم بحقائق الأشياء وخواصها ولوازمها وخصائصها والعمل بمقتضاها هي رأس كل سعادة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

فهرس المحتويات

سورة التوبة 3

سورة يونس 131

سورة هود 231

مطلب اسم إسحاق بالعبرانية سنحك 287

سورة يوسف 333

سورة الرعد 411

سورة إبراهيم 453

سورة الحجر 499

سورة النحل 541

مطلب وجوب تعلّم علم النجوم بهذه الآية 554